الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
كلية العلوم الانسانية و الحضارة الاسلامية
Faculté des sciences humaines et de la civilisation islamique
جامعة وهران
Université d'Oran

أطروحة مقدمة لنيل شهـــادة الدكتـــوراه

في التاريخ والحضارة الإسلامية الموسومة بـ

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ببـوادي الجزائر العثـمانية من خلال كتب الرحلات

❖ تقديم الطالبة:

سعاد آل سيد الشيخ

بإشراف الأستاذ الدكتور :

أحمد الحمدي

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الصفة	المؤسسة
أ.د. محمد بن معمر	رئيســـــــاً	جامعة وهران 1
أ.د. أحمد الحمدي	مشرفا ومقرراً	جامعـــة أدرار
أ.د. حمدادو بن عمر	مناقشـــــاً	جامعة وهران 1
أ.د. محمد دادة	مناقشـــــاً	جامعة وهران 1
أ.د. نصر الدين بن داود	مناقشـــــاً	جامعة تلمسان
د. خديجة بختاوي	مناقشـــــاً	جامعة سيدي بلعباس

السنة الجامعية: 1440-1441هـ/2019- 2020م





﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[سورة الحجرات، الأية: 13]

الإهداء

أهدي هذا العمل الذي أنجز بعون الله

إلى الذي قرن العظيم عبادته بطاعتهما وقال عز وجل: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، إلى التي غمرتني بحنانها وضحت بكل شيء من أجلي،

إلى أمي الحبيبة والغالية التي لو أفديتها بعمري كله لما أرجعت لها ولو جزءا بسيطا من تعبها وحبها وجميلها ووفائها، حفظها الله لي وأطال بعمرها إن شاء الله

إلى أبي العزيز أبقاه الله لنا تاجاً على رؤوسنا.

إلى أقرب الناس إلى قلبي أخي محمد وأختي وأبنائهما ولكل عائلتي الكريمة، ونخص بالذكر من لهم وله مكانة خاصة في القلب من الأهل والأحبة.

إلى كل زملائي وزميلاتي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بقسم التاريخ جامعة غرداية، ونخص بالذكر الدكتور بوساليم صالح، والدكتور بحاز إبراهيم،

والدكتور بن علي طاهر.

وإلى كل من ساهم في إعداد هذا البحث ولو بالكلمة الطيبة.

شكر وعرفان

"وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبرحمته تتنزل البركات، وبذكره تطمأن القلوب، وبرحمته تغفر الذنوب، والصلاة والسلام على المنارة المهداة سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة، وأزكى التسليم.

وانطلاقا من قوله صلى الله عليه وسلم: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

أتقدم بالشكر الخاص والجزيل لأستاذي المشرف الدكتور أحمد الحمدي؛ الذي كان نعم المعين في إعداد هذا البحث مع سعة صدره وخلقه الراقي، فله مني جزيل الشكر والامتنان على ما أفادني به من ملاحظات قيمة، ونصائح سديدة، بالإضافة لتوجيهات مشرفي الثاني بتركيا نسيمي يازاجي، الذي أكرمني بجميل كرمه وعونه العلمي لي بتركيا.

كما أن هذا العمل مدين من بعيد لأهل الفضل والإحسان مع أستاذنا ودكتورنا ووالدنا العلمي حفظه الله الدكتور عبد المجيد بن نعمية، وقدوتنا المحترمة الدكتور محمد بن معمر.

والشكر موصول لزملائي الأساتذة الذين زودوني بمعلومات قيمة حول البحث: الدكتور عبد الجليل ملاخ، والدكتور أحمد جعفري، والدكتور محمد السعيد أبو بكر والدكتور عمر بن قايد، والدكتور جلول بن قومار.

كما نتقدم بخالص الشكر للجنة المناقشة الموقرة على تفضلها بقراءة هذه الأطروحة ومناقشتها هذا العمل نخص بالذكر : الدكتور محمد بوركبة، والدكتور حمدادو بن عمر.

والدكتور بن داود نصر الدين.

كما أشكر كل من ساهم في إعداد هذا البحث ولو بالكلمة الطيبة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

قائمة المختصرات

المختصرات باللغة العربية	المختصرات باللغة الفرنسية
– ج: جزء. – د.ط: دون طبعة. – د.ر.ط: دون دار طبع. – د.ت.ط: دون تاريخ طبع. – هـ: هجري. – و: وجه. – ط: طبعة. – م: ميلادي. – ص: الصفحة. – تح: تحقيق. – تر: ترجمة. – ظ: ظهر. – ق: قطعة. – ع: العدد	-N : الرقم . –P :الصفحة –R-AF:المجلة الإفريقية . –Ibid: المرجع نفسه. –Op-cit:المرجع السابق

مقـــــدمـــــــة

عرفت كتابة ودراسة تاريخ الجزائر العثماني كحلقة مهمة في تاريخ الجزائري الطويل تطورا ملحوظا في الفترة الأخيرة على مستوى الدراسات الأكاديمية، لكن اغلب هذه الدراسات التاريخية التي اهتمت بدراسة هذه الحقبة قد أولت اهتمام أكبر للجوانب السياسية والعسكرية أكثر من غيرها من الدراسات، خاصة وان مصنفات المؤرخين الأوائل جزائريين أو أجانب افردوا اهتماما كبيراً للتاريخ السياسي والعسكري على وجه التحديد، وهذا راجع لعوامل متعددة منها عدم انتشار الحس التاريخي لكتابة الجوانب الحضارية الأخرى، وإن وجدت أبحاث تناولت المجال الاجتماعي والاقتصادي غير أن جلها كان مصدره كتابات أجنبية وأغفلت المصادر العربية والمحلية بغية المقاربة والمقارنة، ولهذا نجد أن التوجهات الحديثة للكتابة التاريخية تستهدف التاريخ الدقيق في بقية المجالات الحضارية الأخرى اجتماعية كانت أو اقتصادية وفكرية وثقافية.

وتنوعت منابع ومصادر كتابة تاريخ الجزائر العثماني بتنوع المجالات الحضارية المستهدفة والتي كان لكتب الرحلة نصيب هام من الأهمية التوثيقية لعديد من الجوانب؛ خاصة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية منها، فقد لعبت كتب الرحلة طيلة التاريخ البشري دوراً فعالاً في انتقال القيم الحضارية والثقافية وانتشارها بين الأمم والشعوب منذ أقدم العصور، كما اكتسبت أهمية كبيرة في تدوين تاريخ المجتمعات، فتركت رصيداً ثري من المعلومات التي رصدها الرحالة وشاهدوها، وأصبحت بذلك مصدر أساسي لكتابة تاريخ الدول.

وتعددت الدراسات التي اهتمت بمختلف مناطق الإيالة الجزائرية والتي تركز اغلبها على دراسة الحواضر الكبرى والمناطق التي كانت لها حضور وتأثير سياسي واقتصادي وتنوع على مستوى التركيبة الاجتماعية، على عكس العمق الأصيل للمجتمع الجزائري وهو البوادي والأرياف التي لم تحظى بما تستحقه من البحث والتنقيب التاريخي لعدة أسباب منها قلة المادة المصدرية التي تكلمت عنها، وهنا تأتي كتب لرحلة كرافد توثيقي للأرياف والبوادي، فتاريخ الكثير من المناطق الجزائرية التلية منها والصحراوية بحواضرها وبواديها مبني في العديد من الأحيان على ما دونه الرحالة سواء مغاربة كانوا أو أوربيين أو جزائريين، خاصة مع قلة التدوين المحلي للجوانب الاجتماعية والاقتصادية لأنه من النادر

أن تجد شخصاً يكتب عن الحياة الاجتماعية لقطر يسكن به أو تابع له، ولهذا يكون الأمر مختلفا عندما يطأ شخص غريب هذه الجغرافيا البعيدة عنه والغريبة بالنسبة إليه، فأول ما يلفت انتباهه عادات وتقاليد وأعراف مجتمعات هذه الأقطار، ومكمن ذلك ربما في اختلاف الموروث الاجتماعي للزائر أو الرحال مع ما يشاهده بعينه، وبهذا تكون هذه العادات أو المشاهدات بالإجمال أمراً يستحق التدوين والكتابة بالنسبة له، وهذا ما يقوم به الرحالة ونجده في متن رحلته بشكل وافر.

وعلى هذا الأساس شدت الميول للجوانب الاجتماعية والاقتصادية للجزائر العثمانية لأن تكون محط الرحال، وبالأخص عند أريافها وبواديها جاء موضوع الدراسة موسوم بـ" **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ببوادي الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات** ".

أما عن المجال الجغرافي المستهدف لهذه الدراسة يركز على المناطق الريفية والبداوية للجزائر، فكل المناطق التي شملها الوجود العثماني للجزائر بالإضافة للمناطق الجنوبية للجزائر، خاصة تلك التي كانت مساراً ومسلكاً للرحالة المغاربة، أما المجال الزمني للبحث فهو منذ التحاق الجزائر بالدولة العثمانية سنة (925هـ/1519م) إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر (1246هـ/ 1830م).

أما عن أسباب اختياري للموضوع فقد تأرجحت بين الذاتية والموضوعية ففي الأولى كنت اجدني منذ بدايات مشواري البحثي في الماجستير وربما قبلها اميل الى المواضيع ذات الطابع الثقافي والاجتماعي، وتشكلت رابطة علمية بيني وبين أدب الرحلة خاصة بعد تحقيقي لرحلة المجاجي في مرحلة الماجستير ذات الطابع الثقافي، فأردت اكتشاف مكنون كتب الرحلة في المجال الاجتماعي والاقتصادي لإثراء رصيدي المعرفي هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك أسباب موضوعية منها أن موضوع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بالنسبة للبوادي والأرياف بالجزائر العثمانية ذا أهمية بالغة؛ لما له من تأثير على جميع نواحي الحياة آنذاك، بالإضافة إلى قلّة دراساته التي استهدفت مثل هذه المواضيع، وان وجدت فإنها تكون مجزأة فلا توجد دراسة أكاديمية –على حدود علمي –حول الموضوع، وحتى الدراسات غير أكاديمية فلا توجد دراسة مستقلة احتوت جوانب الموضوع وبالأخص أن المادة المصدرية التي تغذي البحث بالدرجة الأولى هي الرحلات سواء مغاربية كانت أو أجنبية،

بالإضافة الى الرغبة في الابتعاد عن المواضيع السياسية بشكل معمق في إطار العلاقات والحروب وتاريخ الشخصيات السياسية والتطرق إلى التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمجتمعات الريفية البسيطة والتي كانت تشكل ما بين 90 إلى 95 % من مجموع سكان الجزائر الحديثة. وقد أعجبتني مقولة ذكرها فولتر: "إني درست زهاء ثلاثة آلاف معركة وسير الملوك، اعتقد أني لم استفد شيئًا".

إن الهدف العام من هذه الدراسة هو محاولة تشكيل نص تاريخي يعطي صورة لحياة البادية والريف بمنظور الرحالة اجتماعياً واقتصادياً بعين تقل معها الشكوك ولا تدفعها ميول للحديث عن الجزائر، إلا بمنظور منصف وقلم نزيه وذلك من وعاء واحد وهو كتب الرحلة بالدرجة الأولى، مع المقارنة فيما كتب بأيدي الرحالة سواء أوربيين أو مغاربة للمقارنة والمقاربة والترجيح إن أمكن الأمر، فإن غم الأمر كان العون من مصادر أخرى تنير الطريق وتجلي الغم والغربة لتتضح الرؤيا في مسالك ودروب البحث والدراسة.

كما تهدف هذه الدراسة إلى تقديم توضيح وتبيين موقع الصحراء الجزائرية خاصة بواديها وأريافها في المنظومة الحضارية للجزائر بعيدا عما ارتبط بها من مفاهيم لا تأصيل علمي لها، كاعتبارها أرض جرداء قاحلة موحشة بعيدة عن كونها فضاء واسع متنوع بتنوع واحاته وتنوع مجتمعاته وثقافاته، وتجانسه الثقافي مفتوحاً على الآخر.

لهذه الدوافع وغيرها وبهذه الأهداف المنشودة من البحث اندفعنا بإلحاح لنطرح الإشكال التالي:

كيف رصدت رؤى الرحلة بالعين اللقطة والأذن الصاغية والذاكرة الممحصة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لأرياف وبوادي الجزائر خلال العهد العثماني ؟

وتنبثق عن هذه الإشكالية الرئيسة جملة من التساؤلات الفرعية الضرورية للإلمام بكل الموضوع ويمكن حصرها فيما يلي:

- ما المقصود بالرحلة؟ وما أنواعها وكيف تطور هذا الأدب من المنظور التاريخي؟
- ما أهمية كتب الرحلة في دراسة التاريخ بمختلف مجالاته الحضارية؟ وكيف صورت كتب الرحلة الإيالة خلال الفترة الحديثة؟

- ما هو مفهوم الريف والبادية انطلاقا من الجوانب اللغوية والتاريخية؟ وما العلاقة والترابط بينهما؟
- وفيما تمحور دور البنية الفئوية للمجتمع الريفي البدوي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات؟
- وما هي أهم معالم ومميزات المجتمع الريفي والبدوي في الجزائر العثمانية على ما انبثقت عنه نصوص الرحالة؟

- وكيف صورت كتب الرحلة الحياة الاقتصادية للأرياف والبوادي التلية والصحراوية للجزائر العثمانية؟

وللإلمام بهذا الموضوع والإجابة عن هذه التساؤلات وضعنا خطة مكونة من خمسة فصول تفصيلها كالتالي:

وضعنا الفصل الأول بعنوان :" **دور نصوص الرحلة في الكتابة التاريخية الحديثة**"، تضمن في طياته ثلاث مباحث ضمنتها جملة من العناصر بداية بتعريف أدب الرحلة وأنواعها وتطوره عبر العصور، فكان هذا المبحث كبطاقة تعريفية للدراسة بصورة مجملة، أما المبحث الثاني استهدف نص الرحلة في الكتابة التاريخية الحديثة حاولنا فيه توضيح مكانة هذا الأدب في التاريخ السياسي والثقافي، إلى جانب المجال الاجتماعي والاقتصادي.

وعنونّا الفصل الثاني بـ:" **صورة الجزائر في أدب الرحلة خلال الفترة الحديثة**"، وقد تضمن ثلاث مباحث، تم التحدث فيه عن الرحلات الجزائرية بشقيها الداخلية والخارجية، فالأول اشتمل الحديث على مجموعة من الرحلات كرحلة ابن الدين الأغواطي، ورحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني، والرحلة القمرية لابن زرفة، وغيرها، ثم عرجنا على الرحلات الخارجية العلمية منها والحجازية كرحلة ابن حمادوش والورثلاني وغيرها، ثم انتقلنا للمبحث الثاني مع صورة الجزائر في الرحلات المغربية كرحلة التمقروتي والعياشي ورحلة ابن زاكور وأبو القاسم الزياني من خلال الترجمة لأصاحبها، وأهمية هذه الرحلات على الصعيد السياسي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي للجزائر العثمانية. أما في المبحث الثالث استهدفنا أكثر الرحلات الأوروبية رواجاً في محافل تاريخ الجزائر الحديث، كرحلة بايسونال

وهابنسترات وغيرهم، والتي تحدث أصحابها عن الجزائر مستهدفين مدنها وأريافها في مجالات متنوعة من عادات وتقاليد، تركيبة سكانية، أحوال صحية وأخرى اقتصادية وهكذا. وبطبيعة الحال لم نغفل عن الترجمة لأصاحبها بصورة موجزة.

أما عن الفصل الثالث وهو من الفصول المحورية للدراسة فوسم **بمساهمة البوادي والأرياف في الحياة الاجتماعية بالجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات**، وقد تضمن بين جوانبه ثلاث مباحث، تحدثت فيها عن المفاهيم الأولية للريف والبادية، وللفروقات الجوهرية التي ضبطها المؤرخين والرحالة بحوصلة ترجيحية حسب ما أتضح من رؤى تخدم الموضوع. كما احتوى هذا الفصل المظاهر العمرانية بأرياف الجزائر خلال الفترة المدروسة، حسب المفهوم الخلدوني عن أهمية العمران في الحكم عن حضارة الأمم وتخلفها، ولذلك سبقنا الحديث عنه قبل التطرق للتركيبية السكانية للحواضر والبوادي وتأثير كل منهما على الأخر، وقد ذكرت الحواضر عمداً لتواجد العديد من فئاتها الاجتماعية أصولهم من الأرياف الجزائرية.

أما الفصل الرابع فتطرقنا فيه " **لمعالم ومميزات المجتمع الريفي والبدوي في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات"**، وهو الأخر تنوعت مشاربه ما بين الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعيا واقتصادياً" بما فيه من أمراض وأوبئة ومجاعات وكوارث طبيعية، وبين مكانة المرأة والعادات والتقاليد في المجتمع الريفي والبدوي في الجزائر العثمانية، كما حاولت إبراز مكانة المرأة الجزائرية في المجتمع الريفي البدوي خلال الفترة المدروسة، إلى جانب الزواج والأعياد، وما وسم به هذا المجتمع من عادات حميدة وذميمة. كما أشرنا لأمر مهم مس اللغة والتعليم بأرياف الجزائر وبواديها وكيف كان الحكم عليها من قبل الرحالة الذين زاروا الجزائر آنذاك.

وجاء الفصل الخامس معنوناً بـ: **"دور المجتمع في النشاط الاقتصادي بالأرياف من خلال كتب الرحلات"**، وقد تناول هو الأخر ثلاث مباحث جاء عنوان الأول منها:"الزراعة بالأرياف والبوادي التلية "، وقد احتوى هذا المبحث على عناصر مهمة تحدثت فيها عن النشاط الزراعي بالمناطق التلية من عدة جوانب، مست بالدرجة الأولى نوعية الملكية بالأراضي الزراعية، وجاء المبحث الثاني معنون

بالفلاحة في الواحات والبوادي الصحراوية، وقد تناول هو الأخر جوانب رئيسية عن الفلاحة الصحراوية؛ تمثلت في الواحات الفلاحية، ودور الأودية في تغذية هذه الواحات، وأهم منتجاتها الزراعية مثل: التمور والمتمثلة بشجرها التليد ثرية الصحراء شجر النخيل، بالإضافة لعنصر مهم تحدثنا فيه عن نظام السقي المتبع بالبوادي الصحراوي غير الأودية، وأفردنا المبحث الأخير في هذا الفصل عن الحرف والصناعات والتجارة من خلال كتب الرحلة، جاء هذا المبحث متعدد الجوانب الاقتصادية باعتباره ضم حرفة الرعي وتربية الحيوانات، وعن أهم الصناعات الرائجة في المناطق الريفية بتلها وصحرائها، وإن كانت قليلة مقارنة لما عرف في المدن، كما جاء التركيز بشكل واسع في هذا الفصل عن التجارة ودورها في المناطق التلية والصحراوية في أريافها وبواديها، وفي هذه الجزئية بالذات مست ثلاث جهات التجارة بالواحات الغربية والوسطى والواحات الشرقية. لتكون خاتمة هذا الفصل مع العملة المتداولة بالأرياف والبوداي الجزائرية خلال العهد العثماني من خلال كتب الرحلة ".

لتتوج هذه الدراسة بخاتمة لتكون زبدة الموضوع وهي عبارة عن تلخيص لبعض النتائج المتوصل إليها في الفصول السابقة.

أما عن المنهج المتبع فنظرًا لاحتواء هذا النوع من المواضيع على معطيات معرفية مباشرة، وكذا كثرت الإشارات المحصلة للنقد والاستنتاج حاولت أن أجمع بين أداتين رئيسيين تندرجان تحت المنهج التاريخي وهما المنهج الوصفي والمنهج التحليلي النقدي. فالمنهج التاريخي الوصفي استخدمته في سرد حياة الرحالة والتعريف بأدب الرحلة وأهم الرحلات المستفاد منها في البحث، بالإضافة لما قيل عن الريف والبادية لغة واصطلاحاً؛ أما المنهج التحليلي فقد وظفته أولاً في مسألة أبراز أهم الفروقات والاختلافات بينهما_ أقصد الريف والبادية- والترجيح حسب ما وجد من حجج وبراهين على ضوء ما بينه المؤرخين والرحالة، ومن جهة أخرى دراسة المادة العلمية التي تزخر بها مصادر الرحلات بحيث وقفنا عند وصف وتحليل ونقد نصوص الرحالة إزاء الحياة الاجتماعية والاقتصادية، مع الاعتماد على المنهج المقارن عند الضرورة لتحليل ما كتبه الرحالة في فترات زمنية متقاربة وحتى المتباعدة.

أما عن الدراسات السابقة للموضوع نوجزها فيما يلي: وجدت مجموعة منها استهدفت أجزاء من هذه الموضوع وان كانت بطريقة مختلفة، ومنها كتاب" **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني(1519_1830م)**" لأرزقي شويتام، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر:(2005-2006م)، استفدت منها فيما يخص التركيبة السكانية للأرياف، غير إن هذه الدراسة لم تستند على نصوص الرحلة التي جاءت فيها مقتضبة ولم تستغل بشكل كافي، بحيث كان التركيز فيها على المصادر الأجنبية بصفة جوهرية.

- **"المدينة والريف بالجزائر أواخر العهد العثماني"** لبالبراوات بن عتو، وهي الأخرى رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، من جامعة وهران للسنة الجامعية: (2007- 2008م)، أفادتني في الصميم فيما يخص الريف الجزائري وقد أبدع هذا الأخير في رص نصوص الرحالة الأجانب على الخصوص وما قالوه عن أرياف الجزائر العثمانية، أما الرحالات المغاربية فأشار إليها بصفة موجزة جداً وأحياناً نادرة. كما لم تغطي كل جغرافيا الجزائر خاصة المناطق الصحراوية.

-كما نجد دراسة بعنوان :" **أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني**" ، من إعداد كمال بن صحراوي وهي أيضاً رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة وهران:(2012- 2013م)، وقد أفادتني هي الأخرى فيما يخص الريف بايلك الغرب.

غير أن هذه الدراسات في مجملها خصت جانب دون الأخر وأخذت من الرحلة النزر اليسير خاصة الرحلات الأجنبية وأهملت الرحالات العربية وخاصة المغربية. ولكن في الحقيقة لا أنكر أنها كانت المرشد في غياهب الموضوع في الفترة الأولى من البحث، لكن المعول عليه كان أكبر وهو وعاء الموضوع؛ النص الرحلي وما أرتبط به بالتحديد البادية أو الريف اجتماعياً واقتصادياً بالجزائر العثمانية.

تنوعت منابع هذه الدراسة وارتكزت بالدرجة الأولى على كتب الرحلات وان اختلفت وتباينت أهميتها من حيث امدد الموضوع بالنصوص اللازمة، إضافة إلى الاستعانة بعديد من المصادر والمراجع، ويمكن حصر أهمها فيما يلي:

- رحلة أبو سالم العياشي (المسماة ماء الموائد أو "**الرحلة العياشية**": 1072هـ/1662م)، في جزئين، فهي تعتبر بحق من أهم الرحلات الحجازية التي اعتمدت عليها بشكل معمق، لأن رحلة العياشي كانت بمثابة بوصلة للرحالة الذين جاؤوا من بعده، فكلهم تكلموا عن هذه الرحلة فأخذوا منها الكثير من المعلومات هذا من جهة، نهيك أن أبو سالم العياشي حج ثلاثة مرات، فهو خبير بالصحراء الجزائرية وبمسالكها؛ فجاءت رحلته هذه جمة الفوائد في الشق الاجتماعي والاقتصادي للبحث، سواء في عادات وتقاليد المجتمع الجزائري البدوي، وفي محطات انتشار الأوبئة والفاقة في الفترة المزامنة لمرور الرحالة بالجزائر، فتكلم عن الحواضر والبوادي الصحراوية بصفة عامة؛ عن مميزاتها الزراعية، ومقوماتها الاقتصادية وعن العملة المتداولة في تلك الفيافي والأمصار. فكانت حقاً منجماً ثريا لكل نواحي الدراسة اجتماعياً اقتصادياً وحتى ثقافيا وسياسياً.
- كما نشير لرحلة العياشية الصغرى لأبو سالم العياشي، المعروفة بـ:" **رحلة العياشي الحجية الصغرى" تعداد المنازل الحجازية**"(1068هـ/1658م)، هي الأخرى استفدنا منها وإن كانت موجزة في التعريف ببعض ما يحتاج إليه في رحلة الحاج بالأراضي الجزائرية من بضائع للتجارة ومن عملة والتي تختلف من مدينة لأخرى ومن ريف لأخر بالجزائر العثمانية.
- رحلة حسين الورتلاني (1179هـ/1765م) والموسومة بـ:" **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، تحمل هي الأخرى مادة غزيرة حول الأوضاع الثقافية والاجتماعية للجزائر العثمانية، استفدنا منها بشكل خاص في الفصل الرابع، خاصة في الشق الذي يتكلم عن التعليم بأرياف الجزائر العثمانية إلى جانب بعض العادات والتقاليد الحميدة منها والذميمة للمجتمع الريفي ببايلك الشرق بنواحي زمورة وموطنه ببني ورثلان مثل الكرم، والسفور، تبرج النساء وغيرها.
- رحلة ابن المليح لأبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي والملقب بابن المليح، الشهير بالسراج،المسماة:" **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الأمال والمأرب سيد الأعاجم والأعارب صلى الله عليه وسلم (1040– 1042هـ/1630–1633م)**، والتي تعتبر من أوائل الرحلات في القرن السابع عشر، نقلت لنا معلومات مهمة عن الطريق الجنوبي، حيث

سلكت هذه الرحلة طريق الركب الشنقيطي، فقدمت معلومات هامة عن هذا الطريق؛ كمنطقة توات بحواضرها وبواديها من كرم أهلها، والنشاط الزراعي بواحاتها.

- **"الرحلة الناصرية الكبرى (1196هـ/1782م)"** لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري، خاصة جزئها الأول والتي استفدت منها كثيرًا في الفصل الرابع والخامس للدراسة، من خلال تعداد الحواضر الصحراوية ومعاطن المياه ودورها في النشاط الزرعي؛ إلى جانب التعريف بالعديد من قرى مناطق الظهرا بنواحي البيض كبوسمغون والغسول والربا والكراكدة ومنطقة الأغواط وقراها ومنطقة الزاب، فهي بشهادة صدق عوناً وسنداً للباحثين في تاريخ الجزائر العثماني ونخص الأرياف والبوادي، لأسلوبه الشيق وباعه المتميز في المقارنة على ما كتبه الرحالة السابقين له، بمسحة الفقيه الواعظ، والمفتي المتفهم للوقائع، والناقد المنصف للمظاهر .
- رحلة أبي العباس الهلالي السجلماسي (1150هـ-1737م) المسماة:**"التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام"** والتي استفدنا منها كثيرًا في الجانب الاقتصادي والاجتماعي للحواضر الصحراوية وأريافها وبواديها، ومعرفة طبيعة مسالكها خاصة في الطريق العرضاني الأوسط؛ نقصد طريق واد الساورة إلى منطقة الظهرا إلى الأغواط ثم بلاد الزاب (من فقيق إلى البيض(بوسمغون، الغاسول)، إلى عين ماضي، الأغواط، أولاد جلال، بسكرة سيدي عقبة، زريبة الوادي قفضة).
- رحالة أبي العباس أحمد بن ناصر الدرعي (1124هـ/1710م): **"الرحلة الناصرية** "والتي استفدت منها في جانب عدة كمعرفة معاطن المياه والوضع الاجتماعي في الصحراء الجزائرية وخاصة خصال الكرم، عند أهل شمال الصحراء. كما فصل هذا الأخير بنوع من الدقة في المنتوج الزراعي للمناطق التي مر به، وقد وسم زمن رحلته بزمن الرخاء الاقتصادي من ناحية التنوع في المنتوجات الفلاحية، مقارنة مع بقية الرحلات مثل رحلة العياشي والسجلماسي.

- رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني الجزائري (المتوفي: 1233هـ/ 1817م)، الموسومة بـ:" رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني إلى الجزائر العاصمة"، يعتبر هذا المصدر من بين أبرز الرحالة الذين تكلموا عن منطقة بني مزاب بقراها القريبة والمتباعدة، اجتماعياً واقتصادياً، فأرخت هذه الرحلة لهذه الجهة من الصحراء الجزائرية، فكانت بمثابة شاهد عيان لمجتمع قلت الكتابات الرحلية عنه، في فترة متأخرة من الوجود العثماني في الجزائر.
- رحلة ابن الدين الأغواطي، المعنونة بـ:" **رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين في شمال أفريقيا والسودان والدرعية (1245هـ/1829م)**"، هذه الرحلة الثرية الغنية الدسمة، وجدت فيها السند والعون في العديد من محطات البحث، فجاءت وأضحت المقاصد متنوعة المشارب وكأنها رحلة تقريرية إحصائية، أعطت صورة موجزة عن كل المدن والقرى التي زارها صاحبها أو سمع عنها، فشملت الجانب العمراني، الاجتماعي والاقتصادي، وحتى الثقافي في بعض الأحيان، والعسكري بصفة خاصة، وسياسياً بصورة تلميحية مقتضبة، فمن الأغواط إلى عين ماضي وتاجموت إلى بني مزاب، ومن ورقلة إلى تقرت بقراها المتعددة إلى توات ودشورها المتكاثفة. فحقيقة أمتع الأغواطي وكان نعم المرشد للباحثين في هذا الصدد.
- رحلة مارمول كاربخال، المعروفة بـ" **إفريقيا"(عاش خلال القرن 16م)**، وخاصة مع الجزء الثاني منها، فقد أمدتني بمادة علمية معتبرة عن الأوضاع الاقتصادية بشكل خاص وحتى اجتماعياً في بعض الأحيان. غير أن أسلوب مارمول يميل إلى مدرسة الحوليات التاريخية التي تصنف استنادا إلى السنوات، ذلك أن مارمول اعتمد أسلوب الوصف بتتبع المدن والمناطق، وتقديم مميزات كل منطقة لينتقل للمنطقة الموالية، فكثيرا ما نجده لا يعطي وصفاً مستفيضاً عن مناطق ذات أهمية كبيرة في الإيالة الجزائرية مقارنة بالرحالة الآخرين.
- رحلة هاينريش فون مالتسان، الموسومة ب:" **ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا"(عاش 6 سبتمبر 1826–23فبراير 1874م)**، بجزأيها الأول والثالث وخاصة الجزء الثالث منها، فهي الأخرى رحلة مهمة أعطت معلومات جد هامة عن المجتمع الجزائري مع بداية الاحتلال الفرنسي

له، والذي لا يزال في قراره الداخلي بملامح العهد العثماني اجتماعياً واقتصادياً، لان المستعمر لم يحكم قبضته بعد جغرافياً بالكلية على الجزائر في تلك الفترة.

- رحلة الطبيب وعالم النباتات ج.أو.هابنسترايت، **"رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس عام (1145هـ/ 1732م)"**، من ترجمة: ناصر الدين سعيدوني، هذا الطبيب الرحلة الذي فصل عن بعض مدن الجزائر وقراها التي زارها، فتكلم بحكم التخصص عن الطب والأطباء بالجزائر، وعن الأمراض والأوبئة وطرق علاجها، وهو في ذاك الطريق صادفته الأرياف والبوادي فأفاد أهلها بالعلاج وأفادوه بالأعشاب الطبية وكرم الضيافة، فهو كما قال سعيدوني:أعطى صورة للجزائر على غرار تونس وطرابلس، في النصف الأول من القرن الثامن عشر، صورة "أقرب ما تكون إلى الاعتدال والموضوعية والنظرة المتزنة بالمقارنة مع باقي الكتابات المعاصرة لها".
- **رحلة بايسونال** (عام **1724**م) عام والتي جاء فيها الجانب الاقتصادي هو المحور الرئيسي في الوصف وقد أفدت منها في الفصل الرابع بشكل كبير لما بها من حديث عن الحياة الريفية في كل من الزراعة الريفية ووصف لحركة التجارة الريفية وعلاقتها مع المدن، مع تقديم إشارات عن الصناعة.

أما عن بقية المصادر والمراجع فنذكر منها باختصار لا الحصر:

- كتاب فندلين شلوصر، **"قسنطينة أيام أحمد باي (1832–1837)"**، ترجمة وتقديم: أبو العيد دودو، يعتبر هو الأخر من المصادر المهمة التي خدمة الموضوع في الكلام عن الجانب الاجتماعي للأرياف كلباس المرأة وعادات الزواج، والعلاقات الاجتماعية بالمجتمع الريفي الجبلي كمنطقة القبائل مثلاً، وعن أهم الأنشطة الاقتصادية بأرياف بايلك الشرق. إلى جانب كتاب وليام شالر، " **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816م–1824م"**، استفدت منه في جوانب شتى منها بعض العوائد الاجتماعية ببعض أرياف الجزائر وحتى مدنها أدخلتها من باب المقارنة في بعض الأحيان، بالإضافة لأهم إحصائيات المخصصة للتركيبة السكانية لسكان الجزائر العثمانية.

- إلى جانب كتاب جورج هرتز" **L'algerie nomade et Ksourienne** "**الجزائر القصور والبداوة** " والذي يعتبر متأخر زمنياً عن الرحالات السابقة، ولكنه قدم تفصيلات دقيقة عن قبائل وبوادي شمال الصحراء بشكل واسع.
- وليام سبنسر "**الجزائر في عهد رياس البحر**"، استفدت منه في بعض الجوانب الاجتماعية وخاصة التركيبة السكانية للجزائر، وعن فئة البرانية باعتبار أن أصولهم من أرياف وبوادي الجزائر العثمانية.

وفيما يخص المراجع المستفاد منها في البحث فهي كثيرة ومتنوعة نقتصر فيها على:

- مؤلفات ناصر الدين سعيدوني المتعددة في المجال الاجتماعي والاقتصادي للجزائر العثمانية، نخص بذكر كتابه "**الجزائر في التاريخ العهد العثماني**"، وهو عمل مشترك التأليف مع الشيخ المهدي بوعبدلي، وكتابه:" **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792– 1830)** "، وكتابه:"**دراسات في الملكية والوقف والجباية الفترة الحديثة**"، فهذه المؤلفات وغيرها للمؤرخ العتيد ناصر الدين سعيدوني استفدت منها كثيرًا في الجوانب الرئيسية للدراسة؛ فقد كانت بمثابة البوصلة خاصة أن فيها الكثير عن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بأرياف الجزائر العثمانية.
- كما لا نغفل عن مؤلفين هامين أولهما كتاب أبو العيد دودو، "**الجزائر في مؤلفات الراحلين الألمان (1815 – 1830)**"، فقد دعم هذا الكتاب البحث بنصوص رحلية لنخبة من الرحالة الألمان، وقد مست عدة جوانب اجتماعية على الخصوص واقتصادية بصفة عامة، إلى جانب كتاب مولاي بالحميسي، "**الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**"، هذا الكتاب الذي أرشد الباحثين لما كتبه الرحالة المغاربة عن الجزائر في زمن مبكر، قبل بزوغ نصوص تلك الرحلات للعيان، استفدت منه للترجمة للرحالة المغاربة بالتحديد، وما قدمته تلك الرحلات من فوائد جمة على كل الأصعدة التاريخية للجزائر العثمانية.

أما عن صعوبات البحث فلا يخلوا أي بحث علمي من صعوبات وعراقيل، ومن أهم الصعوبات التي صادفتنا في البحث:

صعوبة الوصول إلى بعض المصادر التي نراها مهمة وتخدم الموضوع في العمق في بعض جوانب الدراسة خاصة بعض الرحلات المغربية مثل:"**الرحلات الحجازية**" لأبي العباس أحمد الهشتوكي(ت 1127 هـ)، **الرحلة الحجازية الأولى ولثانية**، ورحلة أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي المسماة" **نسمة الأس في حجة سيدي أبي العباس**" وغيرها من رحلات المغربية؛ لكثرتها وخاصة تلك التي لا تزال مخطوطة أو برزت للنور عن طريق التحقيق والدراسة ولكن لم تصل لأيدينا بعد. بالإضافة للرحالة الأوربية أو الأجنبية التي أوصلتنا الحظوظ للبعض منها وخانتنا الظروف في البعض الأخر، وخاصة مع صعوبة الترجمة التي واجهتنا مما صعب احتواء الموضوع من جميع جوانبه بأصول المادة المصدرية وهي الرحلة.

غياب في الكثير من الأحيان في نصوص الرحالة ما يخص بعض الجوانب الاجتماعية مثل الأوبئة وتاريخ انتشارها والإمراض وطرق علاجها وعن بقية الآفات والظواهر الطبيعية كالزلالزل والمجاعة وغيرها من المواضيع المتعلقة بالعادات والتقاليد الريفية والبدوية كاحتفالات الزواج والأعياد والختان وما شابهها، وإن جدت فنتف قليلة لا تسمن ولا تغني من جوع، في بعض الحالات مما حتم ودفع بنا لاستعمال مصادر ومراجع أخرى غير نصوص الرحلة والتي هي أصل الدراسة ومرتكزها الأساسي.

وفي ختام هذه المقدمة ما يسعني إلا أن أقول ما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من تقصير فمني وحسبي إني اجتهدت والله الموفق.

الفصل الأول:

دور نصوص الرحلة في الكتابة التاريخية الحديثة

- المبحث الأول: تعريف أدب الرحلة وأنواعها
- المبحث الثاني: تطور أدب الرحلة
- المبحث الثالث: نص الرحلة قي الكتابة التاريخية الحديثة

المبحث الأول: تعريف أدب الرحلة وأنواعها

إن الحديث عن الرحلة هو حديث عن فن قديم في التراث العربي الإسلامي، وعن أوسع مجالات المعرفية وأكثرها خصوبة وثراء وانفتاحاً، فنص الرحلة حقل منفتح على أصناف متعددة من المعارف. ينهل منه الفقيه والمؤرخ والجغرافي والأديب وعالم الاجتماع، وهو في النهاية وجه من وجوه التراث الذي يعكس بصدق حركية المجتمع العربي ونمط تفكيره وأسلوب حياته وعلاقاته، وأنماط الإنتاج فيه وعناصر الصراع والتلاقي والتطور التي تتحكم في مساره ونوعية الثقافة السائدة فيه. وللاستزادة من هذه المفاهيم نعرج على الأصول اللغوية للرحلة.

1- تعريف الرحلة لغة واصطلاحاً:

أ- لغـة:

يرتبط مفهوم الرحلة في الأصل اللغوي العربي، بركوب الإبل أو الجياد ونحوها، وترويضها حتى تصير "راحلة"، والرحلة من رحل يرحل رحلاً ورحيلاً وترحالاً. وارتحل القوم انتقلوا والراحلة الناقة الصالحة لأن تركب، والرحل مركب للبعير، والرحل أيضا: ما يستصحبه المسافر من الأوعية، وجمعه رحال[1]. وقد نقل ابن منظور عن ابن زيد قوله:« أرحل الرجل البعير...إذا أخذ بعيراَ صعباَ، فجعله راحلة»، ثم يضيف ابن منظور« الراحلة من الإبل: البعير القوي على الأسفار والأحمال، والتي يختارها الرجل لركبه ورحله»، كما أن: " الرحلة " بضم الراء وجهة إذا أريد بها الوجهة التي تقصدها، وفي حالة كسرها فللدلالة على الارتحال. والرحلة مشتقة من الارتحال وهي تعني الانتقال من مكان لآخر؛ لتحقيق هدف معين، مادياً كان ذلك الهدف أو معنويا[2].

---

(1)- ابن منظور، **لسان العرب**، تح: عامر أحمد حيدر، بيروت: دار الكتب العلمية ط1: 1424هـ/2003م، ج11، ص ص: 331،334، أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، بدون تاريخ، ص: 7.

(2)- محمد رضي الرحمن القاسمي، مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، العدد 6-7، السنة : جمادى الثانية – رجب 1434 هـ الموافق لـ أبريل - يونيو 2013م ، ص: 37، الأحد 2016-10- 30 الساعة 17 :11.
http://darululoom.deoband.com/arabic/magazine/tmp/1366020150fix4sub8file.htm

يستنتج من هذه التعاريف أن متعة الاكتشاف من ناحية، والرغبة في مكابدة الشدائد والتغلب عليها من ناحية أخرى؛ هما من الأضداد التي ينشدها صاحب الرحلة.

ب- اصطلاحا:

مصطلح أدب الرحلة مصطلح ضبابي فضفاض، ولم يتفق الباحثون على تعريف لهذا الأدب، وتحديد سماته عن غيره من فنون الأدب الأخرى، فكثرت حوله التعريفات والتعليقات من الباحثين والنقاد[1]، نوجز منها أهم ما قيل في هذا الصدد: بأنه صنف تأليفي يختص بتتبع الرحّال في لحظات تنقله إلى أمكنة وأزمنة معينة، فيتم رصد الراحل لذكرياته أثناء هذا التنقل في وصفه للمسالك والممالك، في الحديث عن الطرق والمجتمعات والظروف التي تتصل بها، وما يلاحظه من وقائع وأحداث قد تدعوا إلى تسجيلها والكتابة عنها أثناء هذه الرحلة[2].وبنفس المعنى والمضمون قيل عنه أيضاً بأنه:" مجموعة الآثار التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد "[3]، وعلى ذلك تكون الرحلة إنجازا أو فعلا أو مباشرة لما يعنيه أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة أو إسقاط الفصال بين المكان الذي تبدأ منه، والمكان الذي تنتهي إليه[4].فتعد الرحلة بذلك نوعاً من الحركة، ومنبعاً لمختلف العلوم، ومصدراً للثقافات الإنسانية وسبيلاً لرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة، وسجلاً حقيقياً لمختلف مظاهر الحياة الإنسانية ومفاهيم أهلها على مر

---

(1) - سميرة أنساعد، **الرحلات الجزائرية إلى المشرق دراسة في النشأة والتطور والبنية**، الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1:2011 م، ص: 27.

(2) - عبد الله المرابط الترغي، الرحلة الفهرسية نموذج للتواصل داخل العالم الإسلامي، رحلة أبي سالم العياشي "ماء الموائد" نموذجا، **سلسلة ندوات ومناظرات** (السفر في العالم العربي الإسلامي، التواصل والحداثة)، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، الدار البيضاء، 2003، ص: 16.

(3) - سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص:27.

(4) - صلاح الدين علي الشامي، **الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية**، مطبعة رمضان وأولاده، ط2، دار منشأة المعارف للنشر، الإسكندرية، مصر، 1999، ص:11.

العصور[1]، فالرحلة حقاً كما وصفت :" سفينة تقطع الفيافي والبحار وتتسنم قمم الجبال لتجمع كل ما هو مرتخص وغالي وتروي ما هو تالد"، فهي طريق عتيد يشد به صرح الحضارة ويسجل تراثها وبصماتها في كل زمان ومكان [2]، أم عن هيكل الرحلة يكون في البداية مع مشروع السفر وتتصاعد أحداث الرحلة إلى قمتها في الوصول إلى المكان المقصود، ثم تتراجع في وصف متناثر لرحلة العودة ليتم اكتمال بناء هيكل الرحلة[3]. والرحلة قد تكون هواية تشبع حاجة في نفس الإنسان أو قد تكون احترافاً يخدمه ويشبعه، وقد تكون سبيلاً من سبل المعرفة تصل الفكر بالفكر والمتعلم بالمعلم وفي جميع الأحوال هي استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة[4].

2- أنواع الرحلات:

هناك عدة أصناف من الرحلات، فالرحلة التي يكون هدفها أداء فريضة الحج هي رحلة حجازية أو تسمى رحلة حجية[5]، والرحلة التي يكون هدف صاحبها تأدية عمل سياسي هي رحلة سفارية، والرحلة التي يكون هدف صاحبها لقاء العلماء والدراسة عليهم هي رحلة فهرسيه "علمية"، والرحلة التي يكون الغرض منها زيارة لجهة من الجهات هي رحلة سياحية[6]. وقد تكون من اجل

---

(1)- علي مفتاح إبراهيم منصور، **الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر" دراسة تاريخية وثائقية**، دار الكتب الوطنية بنغازي، طرابلس_ليبيا: الطبعة الأولى: 2005 م، ص:26.

(2)- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص: 5.

(3)- باربارا دميتكالف؛ ذكريات الحج، روايات جنوب آسيوية، **مجلة الدارة**، ع03، ص:26، الرياض، السعودية، 1999، ص: 173.

(4)- علي مفتاح إبراهيم منصور، المرجع السابق، ص: 26.

(5)- محمد الشريف؛ مشاهد وانطباعات وزير عدلية المغرب الخليفي عن الحجاز سنة 1355هـ/ 1937م، **مجلة الدارة**، ع4، س31، الرياض،السعودية، 2005، ص: 221.

(6)- أنور ترفاس، وصف الظواهر الاجتماعية بالأراضي المقدسة من خلال الرحلة العياشية، **مجلة رحال**، عدد 1، سنة1، 2007، دار مثقفون بلا حدود، نيقوسيا قبرص، ص: 79.

تخليد لذكرى الرحالة[1]، وقد تكون لأهداف أخرى تجبر الإنسان في الطوع أو الإكراه على إعمال الرحلة[2]

وقد يجتمع أكثر من هدف في صياغة كتابة وتدوين رحلة واحدة فيلونها بلون خاص تكسب به خصوصية مميزة، ومثال ذلك أن اغلب الرحالات الحجازية كان رحلاتها يتطلعون إلى طلب العلم ولقاء العلماء والاستفادة منهم، واغلب الرحلات تضمنت قسطا كبيرا من أعمال الفهرسة والحديث على نشاط الرحالة في طلب العلم ولقاء رجاله[3]، كما يمكن أن تكون رحلة صوفية بحته من خلال اشتمال غرضها على زيارة الأولياء والصالحين والتبرك بهم وتتبع أخبارهم ومآثرهم وما ورد في سيرهم ويسمى هذا النوع من الرحلات بالرحلات الزيارية[4]، ويمكن أن تكون كذلك كشفية جغرافية وحجازية وسفارية في نفس الوقت كرحلة الحسن الوزان – ليون الأفريقي[5]– التي حملت العديد من الأغراض في طياتها. ويمكن أن نقسمها إلى:

(1)- عوض عبد الهادي العطا، الرحلة الحجازية وأثرها العلمي في افريقيا، **مجلة دراسات افريقية**، ع23، الخرطوم، السودان،2000، ص: 189

(2)- عبد الله المرابط الترغي، المرجع السابق، ص: 17.

(3)- المرجع نفسه، ص: 17.

(4)- للتدليل على هذا النوع من الرحلات نذكر رحلة ابي العباس احمد الخطيب والمشهور بابن قنفد القسنطيني الجزائـــري (740هـ/1340م – 810هـ/1407م)، حيث قام برحلة إلى المغرب الاقصى وكان قصده زيارة الأولياء وتتبع إخبارهم وكتب مصنفه في هذا الموسوم ب أنس الفقير وعز الحقير، ينظر: ابي العباس احمد الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، **انس الفقير وعز الحقير**، تح: محمد الفاسي، اودولف فور، سلسلة الرحلات (2) الريارية –1–، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، المغرب، 1965، ص: 2، ينظر: صالح بن قربة وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، طبعة وزارة المجاهدين، منشورات المركز الوطني للبحث والدراسات في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص: 121.

(5)- ينظر: مسارات رحلاته في مقدمة الطبعة الثانية، حسن الوزان؛ **وصف إفريقيا**، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983، ص ص: 9 ، 12.

أ- الرحلات الدينية والمقدسة:

يعتبر هذا النوع من الرحلات في العالم الإسلامي النوع الأهم وذلك انطلاقا من الوازع الديني الذي كان وراء الكثير من الرحلات، لإتمام الركن الخامس من أركان الإسلام، وهي رحلة أداء فريضة الحج الذي يعد من أهم البواعث وأعظمها شأناً عند المسلمين وذلك تطبيقاً لقوله تعالى :﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[1] .

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾[2].

فيعد الالتزام الديني عند المسلمين عاملاً مهما دفع العديد منهم إلى حب التنقل والترحال إلى جانب أداء الفريضة وحتى يروا آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، فالحج ركن من أركان الإسلام وخير مناسبة للتعرف على المجتمعات الإسلامية، وملتقى حجاجها؛ ومجالا لتبادل المعارف بالتدريس والإجازات، ولم تقتصر الرحلة للحج على طلاب العلم والفقهاء والعلماء بل قامت بها كل فئات المجتمع[3]، وقد عادت هذه الشعيرة الدينية بالفوائد الجمة، حيث جمع الرحالة بين أداء الفريضة والتحصيل العلمي ومعرفة الطرق والمسالك والمدن والبلدان، ونقل مشاهداتهم المتنوعة، فجمعوا كل ذلك في مؤلفاتهم والتي تعتبر مصدراً لا غنى عنه للتعرف على المشرق. وفي هذا الصدد يقال أن ابن جبير الكناني الأندلسي[4] هو أول من كتب رحلة حجازية أواخر القرن السادس الهجري[1] .

---

(1)- سورة آل عمران، الآية:97.

(2)- سورة الحج، الآية:27، 28.

(3)- علي مفتاح إبراهيم منصور، المرجع السابق، ص: 35.

(4)- **ابن جبير(539-614هـ/ 1144-1218م)**: هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلسي، الشاطبي، البلنسي، كان من علماء الأندلس في الفقه والحديث، أشتهر برحلته القيمة الموسومة باسمه" رحلة ابن جبير" والتي وصف فيها كل ما مر به من مدن ومشاهد وعجائب البلدان وغرائب، وبدائع المصانع والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية لتلك البلاد وذكر الحروب التي كانت دائرة في الشرق بين الصلبين والمسلمين، وقد عاصر زمن صلاح الدين الأيوبي وأبدى إعجابه بشخصه وبطولاته العظيمة، وقد شملت هذه الرحلة ثلاث رحلا ت أهمها الرحلة التي قام بها من سنة (578هـ/1182م حتى سنة

ب- الرحلة العلمية:

أما عن الرحلة في طلب العلم فتعد من أبرز أنواع الرحلات التي عرفها العرب قديماً، وهي من الأسباب التي دعت طلاب العلم لشد الرحال وانتقالهم بين المراكز العلمية، وهان بعد المسافة في أعينهم، من أجل تحصيل مختلف المعارف والعلوم مما نتج عنه حدوث تبادل ثقافي بين الشعوب الإسلامية. وقد ركز القرآن والسنة على الترغيب في العلم وبيان فصله في سبعمائة وثمانين آية من بينها قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (2).

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(3)، ويقول عز وجل ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(4)، ويقول أيضا ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(5) .

أما السنة فقد جاءت مؤكدة هي الأخرى على طلب العلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنما العلم بالعلم والفقه بالفقه ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين "، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ

=581هـ/1185م). ينظر: ابن جبير ، **رحلة ابن الجبير**، بيروت: دار الصادر، ص: 7، كراتشوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي**، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، ج1، د.ط، د.ت.ط، ص ص: 299، 301.

(1)- يقول كراتشوفسكي في كتابه " تاريخ الأدب الجغرافي العربي": أن أول من وضع أسس لهذا الفن قبل نصف قرن من ابن الجبير؛ الفقيه أبو بكر محمد بن العربي (468هـ /1076م-543هـ/1148م) كأن أسبق من ابن جبير في تدوينه لرحلته الحجازية القيمة، تحدث فيها عن الأندلس، وعن بلاد الشام، وبغداد، وعن الحجاز لأداء فريضة الحج، وعن مصر بمدينتيها مصر والقاهرة، ليحط رحاله بعد الأندلس بمدينة فاس أين قضى نحبه رحمه الله، عرفت رحلته ب:" الرحلة" أو" ترتيب الرحلة " غير أنها للأسف رحلة مفقودة، شهد له فيها بأن بها مادة ضخمة في مجال الحضارة الثقافية والاجتماعية لذلك العصر، وما أثبت وجودها شهادة ابن خلدون، والمقري في مؤلفاتهم.ينظر: كراتشوفسكي، المصدر السابق، ج1، ص:298، محمد ماكامان، **الرحلات المغربية (ق XI-XIIهـ/-XVII-XVIIIم)**، الرباط: مطبعة الأمنية، ط1:2014م، ص: 21.

(2)- سورة آل عمران، الآية 18.

(3)- سورة الأنبياء، الآية 7 .

(4) - سورة الزمر، الآية 9 .

(5)- سورة المجادلة، الآية 11.

عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [1]، وقد أُثر عن الصحابي عبد الله بن مسعود قوله:" لو أعلم أحدا أعلم بكتاب مني لرحلت إليه "، ويذكر أن أول تدوين للرحلة العلمية ما نسبه الربيع بن سليمان إلى شيخه الإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفي سنة 204 هجرية، ومما رواه قوله: " وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد الأعجم وألقى الرجال حتى كنت ابن إحدى وعشرين سنة " [2] .

وقد نوّه عبد الرحمن ابن خلدون أهمية وفوائد الرحلة في طلب العلم ودورها في بناء الشخصية الثقافية للفرد في قوله: " الرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[3]، وقد قال عنها أيضا بشكل مدقق" إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم؛ والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من مذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخها، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها [4].

فصارت الرحلة مزية علمية وحلية فاضلة، وكره العلماء تشييخ عالم الصحيفة وهو الذي لا شيخ له. فالعلم لابد له من معلم، قال ابن رشد في المقدمات: "كان العلم في الصدر الأول والثاني في صدور الرجال، ثم انتقل إلى جلود الشأن، وصارت مفاتيحه في صدور الرجال، فلابد لطالب العلم من مفتاح يفتح به". فالعلماء هم مفاتيح العلم، ومن لا معلم له يبقى خارج حصن العلم، ولا مفتاح له. وهذا ما يوضحه قول أبي حيان الأندلسي المتوفي سنة **754**ه في الأبيات الآتية من البحر الطويل:

---

(1) -سورة فاطر، الآية: 28.

(2)- محمد بن إدريس الشافعي، **رحلة الإمام الشافعي**، تح: محي الدين الخطيب، إعداد: ونشر: دار القاسم، ص: 18.

(3)- ابن خلدون عبد الرحمان، **مقدمة ابن خلدون**، تح: عبد الله محمد الدرويش، دمشق: دار البلخي، ط: 1425ه/ 2004م، ص: 358، ينظر: فاطمة بلهواري، الرحلة العلمية لعلماء تلمسان إلى فاس في العصر الوسيط، **مجلة الحوار المتوسطي**، العدد1، ص: 59.

(4)- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر نفسه، ص: 358.

أمدعيـــــا علما ولســـت بقارئ كتاباً على شيخ به يسهل الحـــزن

أتزعم أن الذهن يوضح مشكـــــلا بلا موضح، كلا لقد كذب الذهـن[1]

وإن الذي تبغيـــه دون معـــلـــم كموقـــد مصبـاح وليس له دهـن[2] .

وقد وجدت عوامل عدة ساعدت طلاب العلم في القيام برحلاتهم العلمية، منها وجود أهل البر والإحسان والخير والزوايا الدينية وسهولة الالتحاق بالمراكز العلمية، مما مكن هؤلاء الطلاب من الحصول على المساعدة اللازمة لهم[3].

جـ- الرحلة التجارية:

أما الرحلة لغرض التجارة فتعد من الأسباب التي أدت إلى الرحلة منذ أمد بعيد وكان العرب سباقين في هذا الشأن، وقد دعتهم الحاجة بشبه الجزيرة العربية للقيام برحلات تجارية برية للعديد من الدول المجاورة، فوسمت رحلاتهم تلك برحلتي الشتاء والصيف، كما جاءت بالثبت القرآني في قوله سبحانه وتعالى : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾[4]، وبعد ظهور الإسلام واتساع رقعة الفتوحات الإسلامية نمت عندهم رغبة تلقائية للمشاهدة والوصف والملاحظة، وقد أكسبتهم تلك الرغبة الجامحة في معرفة الذات والآخر؛ مقدرة على اكتشاف الظواهر الطبيعية، في مختلف جوانبها وفي شتى الأمكنة والبقاع، كما لا نغفل عن الهدف الأسمى والأسنى وهونشر الإسلام وتبليغ الرسالة المحمدية في هداية البشرية [5] .

---

(1)- عبد القادر العافية، السند وحتميته في الدراسات الإسلامية، **دعوة الحق، مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية و بشؤون الثقافة والفكر أسست سنة 1957** العدد 337 ربيع 2-جمادى1 1419/ غشت شتنبر 1998، 12/ 11/ 2016، الساعة 17:17 http://www.habous.gov.ma/daouatalhaq/item/8359 .

(2)- محمد ماكامان، الرحلات المغربية، ص:22.

(3)- علي مفتاح إبراهيم منصور، **الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي**، ص: 38.

(4)- سورة قريش، الآية: 1، 2.

(5)- ينظر: أسامة ناصر النقشبندي، الرحلات الخطية في دار صدام للمخطوطات، **مجلة المورد**، العدد رقم 4 أكتوبر 1989، دار صدام للمخطوطات، بغداد، ب، ص: 236.تاريخ 12/ 11/ 2016، الساعة 50 :22،
http://archive.sakhrit.co/newPreview.aspx?PID=2623282&ISSUEID=2738&AID=34604

الأمر الذي نتج عنه ازدهار في عملية التبادل التجاري وذلك تبعاً للموقع الجغرافي المهم للبلاد الإسلامية، كحلقة وصل بين مختلف الدول المجاورة وخاصة إفريقيا والدول الأوروبية، فأدى ذلك إلى ظهور العديد من المراكز التجارية بالبلاد الإسلامية وخارجها، واستقرار الكثير من المسلمين ببلاد غير إسلامية، فتعلموا لغات وعادات وحاجات العديد منتلك الشعوب، مع توثيق العلاقات فيما بينهم، وزيادة التبادل التجاري معهم، وما ساعدهم في ازدهار نشاطهم التجاري انتشار الإسلام في مختلف أنحاء المعمورة [1].

د- الرحلة السياسية:

وهناك أسباب أخرى للرحلة مثل تأدية عمل سياسي بكتابة تقارير سياسية واقتصادية واجتماعية كرحلة ابن حوقل(ت367هـ/977م) لبلاد الأندلس في زي تاجر، فكتب تقارير عن وضعها السياسي والاجتماعي والاقتصادي فشجع بذلك على غزوها الفاطميين، ورحلة البكري(ت 487هـ/ 1097م) إلى السودان الغربي، حيث كتب عن أهلها ووصف حياتهم المعيشية ومن جوانب مختلفة، ورحلة ابن الجبير(ت 607هـ/1217م) إلى بلاد المشرق العربي وكتابة عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية فيه كما توجد رحلات أخرى لغرض الاستكشاف وهي هدف الرحالة الجغرافيين [2]

ويمكن القول إن الرحلات بصفتها الموسوعية لعلوم ومشارب شتى وأبعاد جما فهي أداة تفاعل حضاري ووسيلة من وسائل التواصل الثقافي بين الشعوب، انعكست أثارها في الماضي وما زال معينها لا ينضب بتلاحق وتلاقح الحضارات.

(1)- ينظر: نوال عبد الرحمن شوابكة، **أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري**، دار المأمون: الأردن، ط1428 1:هـ / 2008م، ص: 46.

(2)- علي مفتاح إبراهيم منصور، **الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا**، ص:39.

المبحث الثاني: تطور أدب الرحلة

1- أدب الرحلة في التاريخ القديم:

لقد بدأ تاريخ الرحلة مع تاريخ الإنسان نفسه، ربما بقصد البحث عن مصادر الرزق التي جعلت حركة الأقوام وهجرات العصور القديمة مسألة ملحوظة في تلك الفترة السحيقة من تاريخ الإنسانية[1]، إنما هو تاريخ في محاولاته للتعرف ثم السيطرة على العالم الخارجي من حوله، كما جاب الإنسان بقاعا عديدة من أصقاع الأرض في سبيل أغراض مختلفة وكان يتعرض في أحيان كثيرة إلى أهوال جسام مع الطبيعة ومع القوى الإنسانية[2]، وفي كثير من الأحيان ارتبطت المعرفة الجغرافية لرحلاته بالكسب والتجارة حيث اعتني فيها بتقييد معلومات حول طبيعة الطرقات ونوعية الشعوب المتعامل معها، ففي بادئ الأمر لم تكن الرحلة تهدف بطريقة مباشرة إلى هذه المعرفة الجغرافية بل هدفها الوحيد هو الكسب والارتزاق منها [3].

ومع تطور الفكر الإنساني أضحى للرحلات القديمة أهداف مختلفة خاصة في الميدان الجغرافي، فحاول القدماء لاسيما الإغريق منهم التعرف شرقا على مجال آسيا والبحار المجاورة لهذه القارة الأخيرة، وغرباً لمحاولة الخروج من البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق لاستكشاف الشواطئ الأوروبية والإفريقية الغربية. كما طرحت منذ العصر القديم في إطار الجزء الغربي من المعمورة مشكلة الطواف البحري حول إفريقيا، لذا نظمت مبادلات تجارية بحرية قديمة في هذا الصدد [4]، أما عن صلة الرحلة بالإنثوجرافيا[5] أكد الباحث الفرنسي مودوي أن الرحلة التي قام بها القدماء المصريون عام

---

(1)- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص: 106.

(2)- شوقي الضيف، **الرحلات**، القاهرة: دار المعارف، ط4: بدون تاريخ طبع، ص: 7.

(3)- حمادي المسعودي؛ الحكايات العجيبة في رحلة ابن بطوطة، **مجلة أطروحات**، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، فيفري 2001 القيروان، تونس، ص ص: 30، 31.

(4)- المصطفى مولاي رشيد؛ المرجع السابق، ص: 183.

(5)- **الإثنوغرافيا**: علم وصف الشعوب وهو أحد علوم الإنسان وينصب على دراسة المظاهر المادية للنشاط الإنساني من عادات وتقاليد كالمأكل والمشرب والملبس، وكما يقال هي دراسة المجتمع المحلي التقليدي القبلي أو القروي، كما يمكنها دراسة المجتمعات

1493 قبل الميلاد تعد من أقدم الرحلات التجارية والأثنوجرافية على الإطلاق، ذلك حين أبحر في النيل صوب جنوب مصر، أسطولا مكوناً من خمسة مراكب وعلى متن كل مركب واحد ثلاثون فرد، وكان الهدف من هذه الرحلة تسويق بضائعهم النفيسة، كالبخور والعطور، ونتج من هذه الرحلات اتصال المصريين القدماء بأقزام أفريقيا، وتأكيد إقامة علاقات معهم، كما توجد شواهد أخرى عن المادة الوصفية للمجتمعات القديمة في كتابات الإغريق القدماء أمثال: الشاعر اليوناني هوميروس الذي عاش خلال القرن التاسع والثامن قبل الميلاد صاحب ملحمتي الإلياذة والأوديسة، ومن الرحالة القدامى الذين سجل لهم التاريخ إسهاما جغرافيا وإثنوجرافيا الرحالة الإغريقي هيرودتس[1]، والذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ومن بين رحلاته المهمة رحلته إلى مصر أين وصفها وصفاً شيقاً و رحلته لواحات الصحراء الكبرى [2].

كما برزت الرحلات "الطوافية Périples" التي تعتبر من أقدم الوثائق الجغرافية، وقد كانت ضرورات التجارة والملاحة تستدعي قيام مسالك بين الأسواق الرئيسية، ذلك أن الرحلات الطوافية كانت تقدم تفاصيل المسافة الواقعة بين رأس ورأس آخر أو بين ميناء و آخر مثل الخرائط الملاحيةأو البورتولان Portulan، غير أن وثائق هذه الرحلات لم تصلنا إلا عن طريق اقتباسات نصية أو استعارات من مؤلفين مثل "هيرودوت" و"ايراتوستين" وغيرهم[3].

وعرف هذا العصر رحلات متعددة منها رحلة "حنون" الطوافية والتي خلدت في كتابة منقوشة على هيكل بعل، ووجدت ترجمة إغريقية لهذه الرحلة، وكان القصد منها إقامة مراكز تجارية على

=الحضرية أو الصناعية أو غيرها.ينظر:روبرت إيمرسون، راشيل فريتز، لندا شو، **البحث الميداني الإثنوجرافي في العلوم الاجتماعية**، تر: هناء الجوهري، مر: محمدالجوهري، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط:2010م، ص: 13.

(1)- هيرودت أو هيرودتس كلا الاسمين صحيح ومؤلفه المشهور" **التواريخ**" قدم في تسعة فصول كل ما يستحق التسجيل في التاريخ الإنساني حتى زمانه، عن حوالي تسعين شعباً في رحلاته وقراءاته، ينظر: حسين محمد فهيم، المرجع السابق، ص: 21.

(2)- رينيه كلوزييه، **تطور الفكر الجغرافي**، تر: عبد الرحمان حميدة، دار الفكر للطبع، د.ط، دمشق،سوريا، 1985، ص ص:25 ،26.

(3)- رينيه كلوزييه، المرجع السابق، ص: 21.

ساحل المغرب على المحيط الأطلسي، وكذلك الحال بالنسبة لرحلة "هيميلكون" الطوافية هي الأخرى والتي هدفت لاكتشاف ساحل أوروبا الغربي بحثا عن البلدان المنتجة للقصدير[1]. وتلتها حملات لإسكندر المقدوني (334 - 323ق.م) التي تعتبر في فحواها رحلات بغية اكتشاف أمصار جديدة لتعرف على سكان البحر الأبيض المتوسط وعلى المناطق القارية، وهي محاولات كارتوغرافية[2] لتمثيل سطح الأرض بصورة منهجية [3].

2- أدب الرحلة في الفترة الوسيطة:

وفي العصر الوسيط ساهم المسلمون بقسط وافر للغاية في تطور أدب الرحلة، ذلك من خلال ارثهم الجغرافي والرحّلي الكبير والهام، ومن بين العوامل المساعدة على ازدهار أدب الرحلة عندهم، تمتع العرب المسلمين بأفضل الشروط للارتياد والكشف الجغرافي والترّحال كالموقع الجغرافي المتميز للعالم الإسلامي الذي يتوسط الكرة الأرضية، بالإضافة لوحدة الديانة واللغة والمتمثلة في الدين الإسلامي واللغة العربية، ووحدة السلطة الحاكمة في بعض المراحل التاريخية؛ ساعدت بشكل كبير على إلغاء قيود التنقل بين مختلف المناطق الإسلامية للرحالة المسلمين لكل طموحه وبغيته في ارتياد الأفاق. وما زاد أهمية هذه الرحلات كونها بعين المشاهدة لا بالنقل والرواية، فقد كانوا يطوفون بأنفسهم في العالم الإسلامي وغيره، ويقيدون مشاهدتهم وما يقع تحت أبصارهم، فصوروا أحوال الناس والعمران بعين الباصرة اللاقطة[4].

وهؤلاء الرحالة الذين سطروا كتاباتهم في الغالب كانوا علماء أو أدباء، فجاءت عباراتهم رقيقة جزلة رصينة، فسطروا تلك الرحلات في أسلوب قصصي جذاب معجب، فلم تنقصهم الدقة ولا

---

(1)- نفسه، ص: 21، 22.

(2) -**كارتوغرافيا**:يُسمى علم رسم الخرائط بعلم الكارتوغرافيا. وكلمة كارتوغرافيا تتكون من مقطعين هي كارتو وتُعني خريطة والمقطع الآخر هو غرافيا والتي تُعني رسم فتصبح الكلمة تعني علم رسم الخرائط، ينظر: http://mawdoo3.com

(3)- رينيه كلوزييه، المرجع السابق، ص: 25، 26.

(4)- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 7.

الأمانة العلمية فيما سطروه، فصارت تلك الرحلات سجلاً كاملاً لأحوال الأمة الإسلامية[1] منذ القرن الرابع الهجري[2]، حيث ساهموا بالتعريف بالشرق الأقصى وإفريقيا فضلا عن آفاق دولتهم المترامية الأطراف، فالرومان مثلا كانوا يتخيلون وجود الصين، لكن الرحالة المسلمون وصلوا إليها وعرفوها وكتبوا عنها منذ بداية العصور الوسطى، وتشير المصادر التاريخية في اللغتين العربية والصينية إلى وجود جموع من المسلمين في الصين في عهد أسرة تنج التي حكمت الصين بين عامين 618 و906م وكان معظمهم من التجار الذين نزلوا الثغور. وفي كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (ت 300هـ/913م) عبارة تفيد أن تجار المسلمين وصلوا لشبه جزيرة كوريا[3]، وعن الصين بالذات وما كتبه الرحلات المسلمون هناك أخبار أيدها الرحّالة البندقي "ماركو بولو"، وبفضل رحلاتهم عرفوا لاماكن المجهولة بالقارة الإفريقية والتي ظلت أوروبا تجهلها حتى القرن 18م[4]، يقول أبو دلف مسعد بن المهلهل:

فنحن الناس كل النا س في البر والبحر

أخذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر

إلى طنجة، بل في كل أرض خيلنا تسري

إذا ضاق بنا قطر نزلنا عنه إلى قطر

(1)- محمد بن حسن بن عقيل بن موسى الشريف، **المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية**، المقدمة، المملكة العربية السعودية: دار الأندلس الخضراء، ط1:1421هـ- 2000م.

(2)- يقول محمد ماكامان في كتابه الرحلات المغربية :" ترتبط الرحلات بأدب المسالك والممالك ارتباطا عضويا...وأول ما وصلنا من كتب المسالك هو ابن خرداذبة المتوفى سنة 300 هـ، حيث انتهى من صياغة مسودته سنة 272هـ، ومن بين الفقرات التي أوردها ابن خرداذبة عن رحلته التي كانت بأمر من الخليفة الواثق العباسي قوله:" دعاني وقال لي: تخرج إلى السد حتى تعاينه وتجيئني بأمره. وضم لي خمسين رجلا أقوياء ووصلني بخمسة آلاف درهم ورزق سنة وأعطاني مائة بغل لحمل الزاد والماء"، المرجع السابق، ص: 25.

(3)- زكي محمد حسن، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط: مصر، 2012، ص: 19.

(4)- زكي محمد حسن، المرجع نفسه، الخاتمة.

لنا الدنيـــا بمـــا فيـــــها من الإســـــلام والكفـــــــر

فنصـــطاف على الثلـــــج ونشتـــو بلـــــد التمـــــر [1]

وعلى حد قول المستشرق الروسي فلاديمير مينورسكي(MINORSKY):" أن العرب ملئوا الفراغ وسدوا الفجوة بين عهد "بطليموس" اليوناني وعهد "ماركو بولو" البندقي، وأن أخبار الرحالة العرب وقصصهم أكثر تنوعاً وأشد حيوية وقوة مما نجده مسطراً في كتب اليونان وجداولهم، وأن علمهم الذي ضمنوه كتبهم يمتاز بأنه أعظم اختيار ونقداً وأكثر في التفاصيل مما ورد في كتابات الرحالة البندقي ماركو بولو"[2]، فكانت إسهاماهم بمثابة المصباح الذي أنار أقطارا جديدة في ظل ظلمة وعتمة العصور الوسطى في أوروبا.

ونذكر من أمثال الرحلات الهامة في القرون الوسطى:"كتاب المازني"المتوفي خلال (564هـ/1169م)، وكتاب "رحلة ابن جُبيرْ" المتوفي سنة (614هـ/1217م)، و" تاريخ المستنصر " الذي كتبه ابن المجاور حوالي(627هـ/1230م)، وتلتها رحلات البتاني المتوفي (636هـ/1239م)، وأبو عبد الله العبدري (ت688هـ/1289م) في رحلته المعروفة بـ" الرحلة المغربية" والطيبي المتوفي (698هـ/1299م)[3]، بالإضافة إلى الرحالة الجغرافيين السباقين في هذا المجال كالمسعودي(ت 346هـ/ 957م)؛ والذي يعد من أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة في القرن العاشر وابن حوقل(ت 367هـ/ 977م) في كتابه صورة الأرض، وكذلك المقدسي من أهل القرن 10م، وتلاهم العديد من الرحالة المسلمين مثل البـــكري وأبو حامد الغرناطي وياقوت الحموي وأبو الفداء [4].

---

(1)- نفسه، ص ص : 27، 28.

(2)- نفسه، ص:128.

(3)- ينظر: أبو الحسين محمد بن جبير، **رحلة ابن الجبير**، بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت.ط، ص ص18. / 7 . أبو عبد الله محمد العبدري، **رحلة العبدري**، تح: علي إبراهيم كروي، دمشق: دار سعد الدين، ط1 6. /5 الطيبي جمال الفندي، **الجغرافيا عند المسلمين**، بيروت: دار الكتاب اللبناني للطبع، ط1: 1982، ص: 157، 158.

(4)- شمس الدين المقدسي (ت 380هـ/ 990م) في كتابه: " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، وأبو عبيد الله البكري(ت487هـ/1094م) كتابه الموسوم ب: " المسالك والممالك " وأبو حامد الغرناطي(565هـ/ 1170م):" تحفة الألباب ونخبة الإعجاب "، شهاب الدين ياقوت الحموي (ت622هـ/1225م)، العالم الملك أبو الفداء إسماعيل بن علي (ت 732هـ/

كما برز في هذا الميدان المغرب الإسلامي كإقليم متميز مع أدب الرحالة أين عرف أعلاماً أفذاذ دونوا رحلات في الفترة الوسطية نذكر منهم بالمغرب الأدنى الرحالة أبو محمد عبد الله بن أحمد التجاني(ت708هـ/1308م)[1]، والمغرب الأوسط أبو يعقوب يوسف الورجلاني برحلته الحجازية المنظومة شعراً[2]، وبالمغرب الأقصى رحالة كثر اتسم شغفهم الكبير بهذا الفن أمثال : الإدريسي في القرن 12م، وابن بطوطة في القرن 14م، والذي قال عنه العلامة ابن مرزوق الخطيب:" لا أعلم أحداً جال البلاد كرحلته " حيث قضى هذا الأخير 32 من حياته في الترحّال، فقد رحل إلى مصر وجزيرة العرب والشام والعراق وإيران وروسيا وأفغنستان والهند والصين وإفريقيا حتى تمبكتو، ونصّ رحلاته ملأ بالملاحظات والأخبار الشخصية لاسيما وصف المجتمع الإسلامي في النصف الثاني من ق14م[3].

3- أدب الرحلة في التاريخ الحديث:

وفي الفترة الحديثة فإن أدب الرحلة عرف رواجاً كبيراً على غرار العهود السابقة مشرقاً ومغرباً، وتعددت أغراضها فازداد تدوين الرحلات الحجازية للحج والمقدسية في زيارة بيت المقدس، كما انتشرت الرحلات السفارية للمهمات السياسية والدبلوماسية، بالإضافة إلى الرحلات الجغرافية فنجد الحسن بن محمد الوزان الذي لقب بليون الإفريقي[4]، ألف مصنف في علم الجغرافيا عنونه ب

1331م). ينظر: اغناطيوس يوليانو فتشكرا تشوكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة: مطبعة جامعة الدول العربية للطبع والنشر والتأليف، ط: 1963، ج1، ص ص:177، 200، 208، 295.

(1)- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني؛ **رحلة التجاني**، مطبعة جريدة "الابراس"، د. ط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1980.

(2)- الورجلاني ابو يعقوب يوسف ابن ابراهيم السدراتي، **رحلة الورجلاني**، تح: يحي بن بهون حاج محمد، ط1، Mondial Printe Service، غرداية، الجزائر، 2006.

(3)- وقد قيل أن رحلته استغرقت27 سنة من عام 1325إلى 1352م. ينظر: محمد بن عبد الله إبن بطوطة، **رحلة إبن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تح: محمد عبد الرحيم، بيروت – لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية، ط1: 1430هـ / 2009م، ص ص:4،3، عبد الهادي التازي، **رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**، الرياض: 1425هـ/ 2005م، ج1، ص ص: 52، 138، 154، رينيه كلوزييه، المرجع السابق، ص: 49.

(4)- **الحسن الوزان:** مؤرخ وجغرافي وأديب مغربي ذو أصول أندلسية، أشتهر بعدة ألقاب منها" يوحنا الأسد الغرناطي" ، من مؤلفاته : معجم عربي . عبري . اتيني، ومن أشهرها كتابه: " وصف إفريقيا"، الذي أتمه سنة: (933هـ/1526م) بمدينة روما، وقد

"وصف إفريقيا"، والذي خص فيه وصفاً للقارة لإفريقية وعنون كتابه بذات العبارة وفي الأصل هو صنف تأليفي رحّلي[1]. كما نشطت حركة التأليف الرحّلي في الجـــزائر خلال العصـر الحديث خصوصاً الرحـــلات العـلمية والحجازية، وعلى نفس النهج سار علماء أفذاذ بالمغرب الأقصى وإن كان لهم قدَم السّبق والفضل مع أدب الرحلة في بروز وتميز الطرح وفي تنوع المقصد وتعدد الغرض وكثرت الكم وعمق الكيف في نسج سياق هذا الفن القيم[2].

كما لا نغفل عن الأيادي البيضاء للعثمانيين مع البحرية الإسلامية وتدوين رحلاتهم فيها في سابقة لهم مع الرحلة البحرية والبرية للجغرافي الكبير " پيري ريس"[3] الموسومة بـ" **البحرية** " والذي صال وجال فيه في علم البحار والملاحة وأساليبها، وتكلم فيه عن السواحل والجزر والموانئ والمياه والصخور الموجودة بها... الخ، وكان سبب تأليفه لهذه الرحلة البحرية هو إثراء خزانة السلطان العثماني سليمان القانوني عام (933هـ/ 1526م)[4]، بعدما جمع مكتبة ضمت مختلف أنواع الكتب[1].

قسم كتابه هذا إلى تسعة أقسام. ينظر: حسن الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، بيروت: لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط2: 1983م، ص ص : 5، 15.

(1)_ علي بن عبد الله الدفاع، **رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية**، د.د.ط، د.ط، الظهران- المملكة العربية السعودية، 1989م، ص: 243.

(2)_ ينظر: تفاصيل الرحلات الجزائرية العلمية والحجازية منها إلى جانب الرحلات المغربية الفصل الثاني.

(3)- **بيري ريس (ولد ما بين 1465م- 1470م/ توفي بين 1552م- 1555م)**: هو جغرافي ورحالة وأديب إسلامي، بل يعد من أبرز الملاحين الذين قدمهم العثمانيون للعالم، عاش بين القرنَين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، ويعتبر أحد أهم القادة العسكريين في تاريخ الدولة العثمانية، تزامن دخول الريس لحياة البحر والجندية مع اشتداد الهجمة الاستعمارية البرتغالية على أرجاء العالم الإسلامي المختلفة في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، مما كان باعثا للعثمانيين لإبداء المزيد من الاهتمام بالجغرافيا البحرية من أهم منجزاته، كتابه "بحرية"، الذي قدم نسخته النهائية الموسعة للسلطان سليمان القانوني عام 1525، وبالرغم من أنه كتبه باللغة التركية، فإنه عمل فيه على ذات نسق الكتاب العرب في العصور السابقة، حيث صاغه بأسلوب شعري.بيري رئيس، **كتاب البحرية**، تر، محمد حرب، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط1، دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2012، ص:10، نسيبة عبد العزيز الحاج علاوي، البحار العثماني محيي الدين ريس حياته وجهاده البحري (1465-1554م) **مجلة التربية والعلم والعلم** – المجلد (16)، العدد (4) لسنة 2009، ص ص: 57،91.

(4)- ذكر بيري ريس أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا عرف للسلطان سليمان القانوني أهمية كتابه " **البحرية** " بأنه ذو نفع عظيم فقدم بذلك خدمة جليلة في شهرة هذا الكتاب القيم، والجدير بالذكر أنه نبه السلطان في كتابه هذا للخطر المتزايد للنفوذ البرتغالي

كما كان هناك رحلات عثمانية ذات أهمية لكنها لم تحظ بالشيوع والانتشار رغم قيمتها العلمية هي تلك الرحلة الطويلة الشاقة التي قام بها " أوليا جلبي" الذي ولد باسطنبول في 1611م، وعرف بشغفه الشديد بالرحال، وقد جاب مناطق الأناضول ولم يبلغ التاسعة عشر من عمره، أين تجول في العديد من المناطق التابعة للإمبراطورية العثمانية وقتئذ، إما محارباً في الجيش العثماني أو مرافقاً لبعض الولاة، أو حاملاً للبريد فعاش أوليا جلبي ما يقارب سبعين عاما قضى نصف قرن منها في الترحال سائحاً متنقلاً مسجلاً انطباعاته عن البشر والأرض والحروب ومكائدها، لقد زار بلغاريا والقازاق في روسيا والبوسنة والقيرم وبلجراد واشترك في الحرب ضد النمسا، وشاهد بوهيميا (النمسا والمجر) والسويد حتى هولندا وفينا، وطاف الأناضول، كما زار الأفلاق والبغدان (رومانيا) واليونان والمورة وكريت وبلاد الأرناءوط (ألبانيا) وبلاد فارس والعراق والحجاز وسوريا ومصر...وصولاً إلى الحبشة"[2] وقد أورد ذلك كله في كتابه الشهير " سياحتنامة " الذي يحتوي على عشرة مجلدات، وبعد حياة حافلة بالترحال توفي أوليا جلبي، بعد أن أتم رحلته لمصر والسودان والحبشة، ثم عاد إلى مصر ثم انقطعت أخباره بعد رحلة دامت ثمـانية سنـــوات(1672– 1680م)، والغالب أنه توفي 1682م ولا يعلم هل كان ذلك بمصر أو بتركيا.

ولهذا يعد أوليا جلبي أشهر رحالة تركي، بل ومن أشهر الرحالة المسلمين عبر التاريخ، ربما تأتي أهميته بعد ابن بطوطة، وقد ذاعت شهرته كرحالة في القرن 11هـ/ 17م. ويعود سبب هذه الشهرة في الثروة الكبيرة التي تزخر بها رحلته الموسوعية من المعلومات التاريخية والجغرافية والعمرانية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، والتي كان يستقيها بعين المشاهدة ومما التقطته عين البصيرة كشاهد عيان لتلك البلاد التي زارها، كما أعتمد في نقله على المصادر المحلية والوثائق العثمانية. فأثار بذلك كتاب

في المحيط الهندي ومخاطره على اقتصاد الدولة العثمانية، فسارع السلطان لإيقاف هذا النفوذ وبالأخص في المحافظة على البقاع المقدسة من السيطرة البرتغالية المحتمة. ينظر: نسيبة عبد العزيز الحاج علاوي، المرجع السابق، ص: 80.

(1)- بيري رئيس، المصدر السابق، ص:10.

(2)- ينظر: محمد صابر عرب، سياحة أوليا جلبي، د. ط، د. ت. ط، ص ص :1، 7.

أوليا جلبي اهتمام كبار المؤرخين والمستشرقين والجغرافيين وعلماء الاجتماع منذ عدة قرون، لأهمية كتاباته واتساع رقعة البلاد التي زارها وقوة ملاحظاته ودقة المعلومات التي أوردها، لذا جاءت رحلته بمثابة دراسة شاملة للأرض والزرع وللطقس والبشر والعادات...إلخ، وقد ترجمت هذه الرحلة إلى عدة لغات، وبالأخص إلى لغات الدول التي انبثقت عن الدول العثمانية (اليونانية والبلغارية والألبانية والصربية والكرواتية إلخ) لما تمثله من قيمة بالنسبة إلى الفترة التي عاشها أوليا جلبي (القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي) وكتب فيها عن تلك المناطق والشعوب[1].

ولهذا يستشف من تطوير التأليف الرحلي في أدب الرحلة العثماني أهميته وقيمته العلمية على الرغم من التوظيف السياسي لهذه الكتابات أما بالتوسع السياسي أو أخدها البعد الاستراتيجي في الحروب في تلك الفترة.

وكذلك الحال في أوروبا فقد نشطت الرحلات الاستكشافية وخلفت وراءها نصوصاً أو تقارير تحكي فصول تلك المغامرات، وقد اتسمت الفترة الحديثة عموماً بفترة الكشوف الجغرافية، فكتب "فاسكو دي غام[2]".

يوميات رحلته إلى الهند منذ خروجه في أربع سفن بحرية سنة 1497[3]، ويشرح كل ذلك حسين محمد فهيم في كتابه " أدب الرحلات " في قوله: " قاد الرحالة المغامر فاسكو دي جاما (1460م–1524م) عام (1497–1499م) رحلته الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي..،

---

(1)- ينظر: أوليا جلبي، **الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة**، تقديم: محمد حرب، تر: حسين مجيب وآخرون، القاهرة : دار الآفاق العربية، ط1: 2006 م، ص ص : 5، 36، محمد صابر عرب، المرجع السابق، ص ص: 1، 6، محمد الأرناؤوط، "سياحتنامه" أوليا جلبي يرصد صورة العالم الإسلامي في 10 مجلدات ضخمة، مقال ضمن **جريدة العرب الدولية** " الشرق =الأوسط"، عمان – الثلاثاء 06 جمادى الثاني 1432 هـ 10 مايو 2011 ، العدد 11851، تم النقل: يـــوم 09/21/ 2018، الساعة : 14:22،
.http://archive.aawsat.com/details.asp?section=17&article=620975&issueno=11851#.W6TlevlKjIU

(2)- **فاسكو دي غاما:** بحار ومغامر برتغالي قام برحلته الشهيرة إلى الهند عبر الساحل الغربي لأفريقيا مرورا برأس الرجاء الصالح، ينظر: **يوميات فاسكو دي غاما وتقرير رحلة دوز سانتوس**، ترجمة ودراسة: عبد الرحمان عبد الله السيخ، مصر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1995، ص: 13.

(3)- المرجع نفسه، ص: 10

وبلغت الرحلة ذروة التوفيق لدى تجاوز رأس الرجاء الصالح، وكان من شأن هذا التوفيق أن أمسكت الرحلة الجغرافية البحرية عندئذ بزمام اقتحام الجسور في المحيط الهندي، ومن ثم كان الانفتاح غير محدود بين الغرب والشرق على قنوات اتصال بحرية جديدة، وقاد الرحالة المغامر كولومبس(1541-1506م) [1] رحلته الجغرافية الأكثر إثارة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ونجح كولومبس مع نجاح هذه المرحلة البحرية، وبلغت هذه الرحلة ذروة التوفيق لدى اكتشاف هذه الأرض الجديدة (أمريكا)، وكان من شأن هذا النجاح أن فتحت أفاق جديدة في اختراق الجسور في المحيط الأطلنطي[2]، ومن ثم كان الانفتاح من غير حدود بين أوروبا وأمريكا على قنوات اتصال بحرية، وهذا النجاح معناه أن هاتين الرحلتين الجغرافيتين الرائدتين في سنة 1493، وسنة 1497م قد اشتركتا معا في تجسيد ملامح الرحلة الجغرافية وترسيخ أدائها، وقد وضعت هاتان الرحلتان الجغرافيتان أوروبا بأسرها في وضع الاستعداد الفعلي في القرن 16م، لممارسة التغيير واستيعابه، والمضي على طريق التغير حضارياً وسياسياً، واقتصادياً[3].

وأتم عظمة الإنجاز الجغرافي المستكشف ماجلان (1480-1521م) الذي وصل بين العالمين اللذين انفتحا أمام الدنيا فجأة عالم الشرق الأقصى والعالم الجديد. وقد استطاع ماجلان أن يحقق هذه الصلة باكتشاف الممر الذي يعرف باسمه في الطرف الجنوبي من أمريكا الجنوبية، والذي يصل المحيط الأطلنطي والمحيط الهادي. كما نجح في الإبحار حول الكرة الأرضية وإثبات كروية الأرض

(1)-**كولومبس:** رحالة وبحار إيطالي، ينسب إليه اكتشاف العالم الجديد (أمريكا). ولدفي مدينة جنوة بإيطاليا، عبر المحيط الأطلسي ووصل إلى الجزر الكاريبية في 12 أكتوبر 1492م، لكن اكتشافه لأرض القارة الأمريكية الشمالية كان في رحلته الثانية عام 1498 وهناك بعض الآثار تدل على وجود اتصال بين القارة الأوروبية والأمريكية حتى قبل اكتشاف كولومبوس لتلك الأرض بوقت طويل، ينظر: فؤاد سركين، **اكتشاف المسلمين للقارة الأمريكية قبل كريستوفر كولومبوس**، تر: فريد بن فغول، جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية: معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ط: 2014، ص: 70.

(2)- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص: 27.

(3)- ينظر: صلاح الشامي، **الرحلة عين الجغرافية المبصرة**، الإسكندرية: منشأة المعارف، ط2: 1999م، ص ص: 174، 175، حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص ص: 26، 27.

بطريقة عملية لأول مرة في تاريخ الإنسان، فلهذا يعد ماجلان " أعظم البحارة المكتشفين القدامى والمحدثين قاطبة".

وهكذا لم يسهم الاتجاه العلمي في تأكيد فكرة التقدم الحضاري للإنسان فحسب، فقد أكد جرينيرج أن الرحلات والاستكشافات الجغرافية قد أحدثت اتساعاً في المنظور المكاني للإنسان الأمر الذي أثر في توليد نظريات جديدة عن العالم والإنسان[1].

المبحث الثالث: نص الرحلة في الكتابة التاريخية الحديثة

إن فن الرحلات من ألصق الفنون بحياة الأفراد والأمم، كما أكد ذلك حسين محمود حسين في كتابه " أدب الرحلة عند العرب " في قوله: إن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير، فالرحلات منابع ثرية لمختلف العلوم. وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور [2].

كما يعتبر نص الرحلة في مجمله مصدر من مصادر المعرفة العامة المبرزة للظواهر الفكرية، ويعتبر أيضاً رابطة ثقافية تصور جوانب شتى من النشاط الفكري والسياسي في العالم من خلال مرئيات الرحال[3]، كما كانت الرحلة في غالبها بمثابة الأب الشرعي للجغرافيا، ذلك أن وصف الرحالة الذي يطرأ على جغرافيا معينة ويصف لنا ما شاهده بها غالبا ما تكون تلك المشاهدات أقرب للصحة أكثر من غيرها من النصوص، ومرَدُّ ذلك شبه انعدام ذاتية المؤرخ الرحال، فلا تحكمه عاطفة الجغرافيا لأنه وافد عليها، وسرعان ما يفارقها إلى جغرافيا أخرى بعيدة عنها، ولا تحكمه عصبية القبيلة

(1)- ينظر: حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص ص: 26، 28.

(2)- حسين حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب، ص:6.

(3)- محمد بن عبد العزيز الدباغ، جولة مع ابن بطوطة في رحلته، **مجلة المناهل**، عدد 59، سنة: 1999، الرباط، المغرب، ص: 125.

أو العرق البشري بصورة عامة، ففي الغالب أن الرحالة يرحل إلى مناطق وأقطار بها أجناس وأعراق لا تحكمه بها أواصر قوية أو كبيرة.

كما قدم النص الرحلي إسهامات هامة في نشأة وتطور علوم إنسانية واجتماعية أخرى مثل الاثنوجرافيا، والانتروبولوجيا[1]، والتاريخ الاجتماعي وغيرها. كما أن أهم مساهمات الرحلة جاءت من خلال طرح معرفة الإنسان بالإنسان. فكانت عين الرحلة دائما بمثابة آلة التصوير التي تسجل ما أَلفه الناس واعتادوه وكانوا يعدونه غير جدير بالملاحظة، وهو ما يعني أن الرحلة قدمت لنا الكثير من المادة الخام التي قامت على أساسها دراسة التاريخ الاجتماعي والاثنوجرافي والانتروبولوجي فضلاً عن فروع الدراسات الاجتماعية الأخرى[2]. فعلى سبيل المثال تميزت مؤلفات الجغرافي أحمد اليعقوبي باحتوائها على ثروة علمية لا تقدر بثمن، فكتابه "كتاب البلدان " يعتبر بحق الملتقى الذي تتقابل فيه الجغرافيا القديمة بالجغرافيا الحديثة، كما تكلم عن علم الفلك والرياضيات. لذا من يقرأ في كتاب البلدان لليعقوبي؛ يحس أنه كتاب مثالي ومتقدم، قدم فيه تصوراً رائعاً وواضحاً عن البلدان التي كتب عنها، فنجده وصف بغداد وصفاً دقيقاً يدل على طول باعه في كل من التاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع[3]. ولهذا فالجانب التاريخي لنص الرحلي يحمل في طياته على العموم؛ علماً غزيراً ودقة وصف وحسن اختيار للأخبار[4].

---

(1)- **الانتروبولوجيا (Anthropology):** هي كلمة إنجليزية مشتقة من الأصل اليوناني المكون من مقطعين أنثروبوس (Anthropos) ومعناه " الإنسان"، ولوجوس (Locos) ومعناه: " علم "، ويصبح معناها من حيث اللفظ " علم الإنسان " أي العلم الذي يدرس الإنسان من حيث كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة. ينظر: عيسى الشماس، **مدخل إلى علم الإنسان (الإنثروبولوجيا)**، دمشق: منشورات الاتحاد الكتاب العرب، ط: 2004 ، ص: 13، حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا، عالم المعرفة، الكويت: عالم المعرفة، فبراير: 1986م، ص: 14 .

(2)- قاسم عبده قاسم: رحلتان اندلسيتان إلى القاهرة، **مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد**، مجلد 26، مدريد، اسبانيا سنة 1993- 1994، ص: 106.

(3)- علي بن عبد الله الدفاع، **رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية**، ص:80.

(4)- المرجع نفسه، ص: 126.

ولهذا يمكن الاعتماد على نصوص ووثائق الرحلة في اغلب مجالات الكتابة التاريخية المعاصرة وبمختلف المظاهر الحضارية كالحياة السياسة والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وحتى المجال العمراني، مما يعطي دلالة على غزارة وثقل هذه النصوص لما تحمه من تنوع بمادتها التاريخية الخبرية

1- نص الرحلة والتاريخ السياسي:

ترتبط الرحلات بشكل واسع بحياة الأفراد والأمم، يقول حسني محمود حسين: " إن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفر فيه مادة وفيرة، مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير، فالرحلات منابع ثرية لمختلف العلوم. وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور"[1]، فلنصوص الرحلة أهمية كبرى في التاريخ السياسي للأقطار والشعوب، فهي عادة ما تحتوي على ذكر لأسماء ممالك وملوك، وتبين لنا مدى الترابط والتنافر فيما بينها، أي ما يعرف حاليا بالعلاقات الدولية والإقليمية، وهذا النوع من الأخبار السياسية عرفتها مصنفات الرحالة والجغرافيين الأوائل[2]، وفي هذا الصدد الأمثلة كثيرة ومتعددة نتدرج فيها من الفترة الوسيطة على سبيل المثال ما أورده اليهودي بنيامين التطيلي[3] في رحلنه إلى الشرق وتحديدا في الفترة من 334 هـ إلى 447هـ/ 946-1055م، أين كان سلاطين بني بويه الشيعة المغالين هم الحكام الحقيقيون في كل العراق، بلاد الخليفة العباسي السني المستنجد بالله، فكان الخلفاء بني العباس ألعوبة في أيديهم وحتى لا يتقوى السلاطين العباسيين في البلاد ويبقى نفوذهم عليها؛ جعل بني بويه حاشية الخليفة وأعوانه من اليهود والمسيحيين وكلها

---

(1)- حسني محمود حسين، **أدب الرحلات عند العرب**، بيروت - لبنان: دار الأندلس، ط:2، 1403 هـ/1983م، ص: 6 .

(2)- محمد بن عبد العزيز الدباغ، المرجع السابق، ص: 136.

(3)- **بنيامين التطيلي**: هو رابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي النباري عالم ورحّالة يهودي أسباني توفي في سنة 1173 م/ 569 هـ، ويقال أنه دون رحلته في نفس السنة، كان من الثقاة العارفين بالتوراة والشرع اليهودي، عمل تاجرا يجوب الأقطار. جاب المدن البعيدة وسجّل ما شاهده عياناً في الأمصار التي مر بها أو ما نقله عن الثقات ذوي الأمانة المعروفين لدى يهود أسبانية، وقد دوّن رحلته الموسومة باسمه " **رحلة بنيامين التطيلي**" في سنة 561هـ/1165م. ينظر: بن يامين التطيلي، **رحلة بنيامين التطيلي**، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ط1: 2002م، ص:7.

لأغراض سياسية ولإحكام السيطرة على دواليب الحكم بالعراق، وهذا ما فصل فيه التطيلي بذكر إحصائيات لعدد اليهود المتواجدين بقصر الخليفة العباسي وبالعراق ككل وبما يتمتعون به من امتيازات بتلك الديار [1].

وعن التاريخ السياسي للأمم يحدثنا الرحالة ابن بطوطة والذي يعد مصدراً غنياً لمعرفة الأنظمة السياسية والإدارية والاجتماعية بالعالم الإسلامي في عصره، فمن خلاله تسنى لنا معرفة العديد من الملوك والوزراء والأمراء وممثلي الطبقات الحاكمة في تلك الفترة[2]. فعن الجزيرة العربية قدم معلومات جد قيمة؛ تحدث فيها عن أميري مكة وقاضيها، وأئمتها وخطبائها، وعلمائها وصلحائها، والمجاورين بها... [3]، وعن أشراف الحجاز عموماً في عهده بمن فيهم الحسينيون أصحاب مكة لما عرف عنهم من احتكاكات بدولة المماليك[4]،كما فصل في تلك الفتنة التي ثارت بمكة في موسم الحج لسنة 730هـ، مرجعه الأساسي خلاف بسيط بين أميرها شريف مكة وممثل الملك الناصر المملوكي؛ حول تجار يمنيين اتهمهم مبعوث الناصر بالسرقة، فتطور الأمر لغياب الحكمة والحنكة عند أمير مكة وعجزه عن فض المسألة بصورة سلمية، وأدى هذا الخلاف الهين بين الطرفين إلى مواجهة بين عبيد أمير مكة وعسكر مبعوث الناصر، انتهت بقتل هذا الأخير وولده وامرأة مكية، فاغتاظ الناصر لذلك وأعتبرها إهانة شخصية له وأرسل على إثرها جيشاً لتأديب أمير مكة وتسمية أخيه بدلاً منه. وهذا الحدث العابر والمهم يكشف عن النفوذ المملوكي المصري على السلطة المكية وأثره البالغ في توجيه دفة الحكم

(1)- ينظر: بن يامين التطيلي، المصدر السابق، ص:62، 64.

(2)-محمد علي موحد، ابن بطوطة وعصره، العرب بين البحر والصحراء " رحالة عرب ومسلمون " ابن بطوطة، الفضاء الأسيوي، الشرق أفقاً، تقديم وتحرير: نوري الجراح، **أبحاث المؤتمر الدولي لأدب الرحالة العرب والمسلمين**، الدوحة - قطر- ديسمبر2011، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ص: 211 .

(3)- الحسن الشاهدي، تحفة النظار مشاهدات ابن بطوطة بالحجاز وبلدان الخليج العربي، مشرق مغرب عرب ومسلمين ديار الإسلام من الأندلس إلى اسطنبول، **أبحاث ندوة الرحالة والمسلمين: اكتشاف الذات والآخر**، ط1: 2009م، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ص ص: 42، 46،47.

(4)- محمد بن عبد العزيز الدباغ، المرجعالسابق، ص: 50.

بهذا البلد المقدس في تلك الفترة، وليس للسلطان المملوكي فحسب بل حتى للسلطان العراق واليمن حضور سياسي نافذ بهذه الأرض المقدسة وذلك لما يقدمونه من مساعدات مالية معتبرة [1].

كما تحدث عن اللاجئين السياسيين في بعض الأقطار، لأن جل المغاربة الذين يصابون بنكسات سياسية كانوا يتجهون إلى الشرق إما لمحاولة استعادة قوتهم بما ينالونه من إعانة بعض المنافسين للحكم ألمغاربي آنذاك وإما لكونهم كانوا يجدون في الشرق متنفساً روحياً يستعينون به عن النكبات التي أصيبوا بها[2].كما كشفت بعض النصوص الواردة في رحلة ابن بطوطة عن دور الزواج السياسي في إحكام العلاقات بين الأمم، وأعطى أمثلة لما شاهده بنفسه، وذكر زواج سلطان"قِفْجق"بإحدى بنات إمبراطور القسطنطينية[3].

كما أدت السفارات دوراً هاماً، ساعدت على تطور العلاقات الثقافية والسياسية وتعميقها، وعكست مختلف التفاعل الثقافي والسياسي بين مختلف الحضارات[4]، فكثيراً ما كانت تكتسي الرحلات السفارية[5] طابعاً رسمياً، فالدولة هي المشرفة عليها وهي الآمرة بالقيام بها حسب مقتضى المستجدات والأحوال والظروف بين البلدان والرغبة في الحوار والتفاوض للبحث عن حلول للقضايا والمشاكل المتعلقة بهما والمتعددة المواضيع، وأهمها: المبادلات التجارية، عقد الهدنة والسلام، إنهاء أعمال القرصنة، فك الأسرى، احتلال أجزاء من البلاد وهكذا. وكانت هذه السفارات وما رافقتها

(1)- ككسوة الكعبة وميزانيات التسيير، وتنفيذ مشروعات مختلفة ، وهذا كله أثبته ابن بطوطة من مجاورته بمكة لمدة أربع سنوات. ينظر: الحسن الشاهدي، المرجع نفسه، ص ص: 46، 47.

(2)- كما تحدث ابن بطوطة عن أخبار بعض الملوك كالملك الناصر في دمشق. ينظر: محمد بن عبد العزيز الدباغ، جولة مع ابن بطوطة في رحلته، ص: 136، عبد الهادي التازي، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ص ص: 152، 153، محمد بن عبد العزيز الدباغ، المرجع السابق، ص ص: 136، 137.

(3)- عبد الهادي التازي؛ الرحلة كمصدر لتاريخ العلاقات الدولية، **مجلة المناهل**، عدد 60، سنة 24، ،مطبعة دار المناهل، منشورات مزارة الشؤون الثقافية المغربية، الرباط، المغرب، 2000 ، ص: 47.

(4)- نوال عبد الرحمن الشوابكة، **أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري**، تقديم: صلاح جرار، الأردن: دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1: 1428هـ- 2008م، ص: 216.

(5)- وهي الرحلات التي تقوم بها البعثات الدبلوماسية والمراسيل الرسمية. ينظر: نزيهة الجابري، **الرحلة السفارية من الإئتلاف إلى الاختلاف مساهمة في التأسيس الدبلوماسي المغربي**، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط:1، 2011، ص:12.

من ترتيبات أمنية واهتمام خاص بنظام التشريفات وتبادل للهدايا بين الملوك، كنوع من الحرص بين الدول من خلال السفارات للمحافظة على كيانها وتقريب علاقاتها مع الدول الأخرى من مستوى المحايدة، إن لم تكن صداقة. وفي الغالب كانت هذه الرحلات السفارية تتمخض على مفاوضات سياسية تجرى بالعاصمة مع علية رجال الدولة، وفي هذا الجانب يعرض السفير وصفه لمراسيم الاستقبال والتقاليد الجري بها العمل في خدمة الملوك والتأدب والدخول بحضرتهم[1]، فكانت مجالس الخلفاء والسلاطين والملوك تشكل مجالاً واسعاً للانفتاح على مختلف الجوانب الحضارية[2]، حيث تخصص السلطات للسفير زيارات موجهة لمعالم البلاد بغية إظهار جوانب من التقدم، فتشمل المتاحف والمصانع والمدارس والمكتبات والموانئ...وعندما تنتهي مهام السفير يستقبل من طرف الملك برسم الوداع فيسلمه خطاباً جوابياً وغالباً ما يصحبه بسفيره هو أيضاً، كما وصف ذلك التمكروتي[3] في رحلته " النفحة المِسكية في السفارة التركية ".فنص رحلته يعتبر بامتياز، وثيقة بالغة الأهمية عن سلطنتين وسلطانين وقصرين، وعن الطريق بينهما في القرن السادس عشر ميلادي. ومن هذه الرحلة" النفحة المِسكية في السفارة التركية " يستفاد منها الكثير، نقتبس منها حدث عسكري مؤلم؛ ذا أبعاد وانعكاسات وخيمة سياسياً واقتصادياً وحتى اجتماعياً على الجزائر العثمانية وعلى الدولة العثمانية نفسها، ففي عام 1590م فتك العلوج النصارى بسفينتين تابعتين للبحرية العثمانية متوجهتين للآستانة العلية بسلبهم لأموال كثيرة كجباية أموال البلاد وهدايا بأمثالها للسلطان، والوزير والقبطان وغيرهم، وأموال التجار وذخائر الجند وغير ذلك من الأموال، فقد سلب ألف ألف مثقال من الذهب وقيل ثمانية عشر قنطاراً ذهباً، بالإضافة للجوهر والملف وسائر السلع والفرش، كما عبثوا بأنفس المسلمين

(1)- محمد ماكامان، الرحلات المغربية، المرجع السابق ص ص:349، 350.

(2)- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص:216.

(3)- **علي بن محمد التمكروتي**: سليل أسرة لها الباع الطويل في الفقه والتدريس في منطقة درعة الكبرى، ولد في بلدة تمكروت بوادي درعة بمراكش، سنة 1534م، وقيل في سنة 1520، وتوفي رحمه الله سنة (1003هـ/ 1594م) بمراكش، ونشأ في بيت علم وصلاح. ينظر: علي بن محمد التمكروتي، **النفحة المسكية في السفارة التركية(1589م)**، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1: 2007م، ص ص: 172، 173.

كقاضي البلد المسافر بماله ونسائه وأولاده، والتجار والحجاج وغيرهم، فقتلوا كل من حاربهم، ومن آثر النجاة بالسباحة فمنهم من نجا ومنهم من غرق، ومنهم من سبي فقد ذهب النصارى بالسفينتين إلى بلادهم بما فيها من الأموال والنساء والصبيان؛ فوقع مأتم عظيم في كل دار من ديار الجزائر، حزنا على ما وقع للمسلمين من المصيبة في الأنفس والأموال. ويستنكر هذا التصرف التمكروتي على رياس البحرية العثمانية لما فيهم من الغرة والغفلة، وما وقع قط مثل هذا الواقع لرياس الجزائر[1].

كما قدمت لنا الرحلة الموسومة" برحلة الوزير في افتكاك الأسير" والتي قام بها محمد الغساني الأندلسي [2]، من مكناس إلى مدريد سنة 1690– 1691م موفداً من قبل السلطان المغربي مولاي إسماعيل صورة دقيقة عن الحياة السياسية للبلاط الاسباني في عهد كارلوس الثاني، كما تمثل هذه الرحلة وثيقة نادرة عن بعض موضوعات الصراع بين المسلمين والنصارى في التاريخ الحديث، والتي تعطي صورة عن الآخر وعالمه بشكل بعيد عن التزوير والتلفيق أو التحامل، رغم كونها جاءت في فترة عصيبة من الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط، وشهدت الصدام بين الطرفين، ومن جراء ذلك الصدام وجدت لنا هذه الرحلة التي تدخل في مجال الرحلات السفارية، والتي كان هدفها تحرير 500 أسير مغربي، وخمسة آلاف مخطوط إسلامي[3]، فهذه الرحلة تعتبر بحق

(1)- ينظر: علي بن محمد التمكروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية (1589م)، ص: 160.

(2)- **محمد الغساني الأندلسي:** هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الأندلسي الغساني الفاسي، أصله من الأسر الأندلسية التي هاجرت إلى المغرب واستوطنت فاس، كان من كبار مثقفي عصره، ظهر نبوغه في فن الترسل وحسن الخط، فقدمته موهبته هذه إلى شغل منصب الكتابة بديوان السلطان المولى إسماعيل إلى حين وفاته سنة 1119هـ/1707م. كان سبب سفارته إلى الديار الإسبانية بقصد تحريري الأسرى واستخراج ما بها من كتب المسلمين. ينظر: محمد الغساني الأندلسي، **رحلة الوزير في افتكاك الأسير 1690 – 1691**، تحرير: نوري الجراح، دار السويدي للطبع والنشر، ط1، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2002، ص ص:21، 23، محمد ماكامان، الرحلات المغربية، ص ص: 396، 397.

(3)- هي في مجملها مكتبة السلطان مولاي زيدان التي تعرضت للسطو على أيدي قراصنة أسبان عندما كان البحارة المغاربة ينقلونها من مدينة إلى مدينة أخرى عبر البحر. وقد كانت نتيجة هذه المفاوضات فاشلة. ينظر: محمد الغساني، المصدر نفسه، ص: 10.

مصدراً من مصادر العلاقات السياسية الإسبانية المغربية إبان العهد العلوي ولعل أهم جوانب الحياة السياسية، التي عكست هذا التفاعل هي السفارات.

وقريباً من هذا الفن يدون أبو القاسم الزياني نفحاته السياسية بزيارته الاضطرارية للجزائر بعد النكسة التي أصابته بالمغرب الأقصى بعد نهب الأعراب له في سنة (1206هـ/ 1792م) [1]، فجاءت من باب المواساة لنكبته تلك وهو في طريقه للحجاز ماراً بمدينة الجزائر، بزيارة كاتب الحاكم العثماني بالجزائر آنذاك حسن باشا وحاجبه وصهره والقاضي لوداعه ومعهم هبة مالية تقدر بستمائة سلطاني من حسن باشا وبعض اللطف والحلاوات من دورهم للزاد ليستعين بها على سفـره، مع رسالة توصية له لوكيل حسن باشا بتونس"، وباعتبـار أبو القاسم الزياني كان سياسياً محنكاً بالبلاط العلوي بالمغرب ووزيراً ومؤرخاً لهذه الدولة، فتعتبر هذه الفتة المهمة والحظوة لزياني المغربي عند الداي بمثابة رسالة تقارب وتواصل بين السلطتين[2].

كما يبدي الزياني معلومات مهمة عن بأيلك الشرق بعاصمته قسنطينة وعن الباي حسين بن حسن بوحنك (1792م- 1795م)، الذي تولى البايلك بعد مقتل صالح باي مصطفى (1771-1792م)، وكيف وصل لحكم البايلك بعد مقتل هذا الأخير على يد أهل قسنطينة، بعدما كان طريداً مستباحاً دمه حيث شكاه صالح بأي لدولاتني الجزائر[3]، لولا أنه استحرم بضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر ووقعت فيه شفاعة الموت، فبقي منفياً عند الباي محمد بن عثمان بايلك الغرب

---

(1)- وحيثيات هذا الحادث أنه لما بايع السلطان مولاي سليمان المغربي، الذي كان يعرف للزياني مقامه و مكانته، خبرته ومقدرته، أرغمه على أن يتولى ولاية مدينة وجدة سنة 1206 هـ/ 1792م بالإكراه، الواقعة في الشرق من المغرب وخرج الزياني، حسب ما يقول إلى مقر عمله مرغماً، ومعه جماعة من التجار، فخرج عليهم عرب أنكاد؛ فقتلوا من قتلوا منهم. فانسل أبو القاسم لحصن العيون بمساندة البعض من قبيلة بني يزناتن له على الفرار: « فاراً بجلده سائماً من الخدمة السلطانية ». متوجهاً إلى تلمسان =ووهران فأقام في العباد سنة ونصف السنة مشتغلاً بالمطالعة والتقييد والتأليف. واطلع هناك على غرائب كتب التاريخ التي تعد اليوم في حكم المفقودة. وعزم بعدها على الحج فبدأت رحلته الثالثة إلى المشرق. ينظر: أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص ص: 27، 139، 140، 142.

(2)- المصدر نفسه، ص:151.

(3)- هو الداي محمد بن عثمان (1766-1791).

بمدينة تلمسان. حتى عفا عنه الداي حسن (1798-1791) وألحقه بخدمته بایاً على بآيلك الشرق، فجاء ذكر الزياني له على الخصوصية فوصف مجلس حكمه وكرم ضيافته له، إلى جانب تحركاته العسكرية في المحلة لجمع الضرائب،كما أبدى خفايا هذا الباي في مجلس حكمه مع رجاله ومع مجلسه الخاص مع سماره[1].

ولنا فيما أورده المصعبي إبراهيم بن بحمان الجزائري بتاريخ (15 رجب 1196هـ/1781م[2]) محطات سياسية مهمة في طيات رحلته الحجازية الموسومة ب" رحلة المصعبي " عن البلاط المصري في فترة حكم إبراهيم بك؛ أين تعكس مدى الجور والقهر والاضطهاد للسلطة الحاكمة بمصر آنذاك بعنصرية الظالمة على حجاج بني مزاب على غير وجه حق بفرض مكوس وضرائب عالية عليهم، على الرغم من عدم وجود مبادلات تجارية بين الطرفين، بالإضافة إلى الابتزاز المادي لبعض الفئات ومثال ذلك ما ذكره إبراهيم المصعبي من تعرض الطلبة أتباع المذهب الإباضي القادمين من جزيرة جربه التونسية والدارسين بوكالة الجاموس بطولون وحجاج بني ميزاب إلى الظلم القهري؛ بحجز شيخهم ومطالبتهم بفديته مما اجبر هؤلاء الطلبة والحجاج بما فيهم المصعبي للتكاثف من أجل فك أسر هذا الشيخ[3].

ومع الرحلات الجزائرية أيضاً يكشف الستار مع الرحلة القمرية لابن زرفة الجزائري 1792م؛ عن أحداث ومراحل تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني متتبعاً مشاهد هذا الفتح بدقة، وقد ارتبطت هذه الرحلة العسكرية بذكر أخبار الباي محمد الكبير ودوره الفعال في هذا الإنجاز العظيم.

---

(1)-كتعاطي الخمر مثلاً، ينظر:أبو القاسم الزياني، المرجع السابق، ص ص: 153، 154.

(2)- **إبراهيم المصعبي**: هو إبراهيم بن عبد الرحمان بن عبد الله من العلماء البارزين بني يزقن بغرداية وقطب من أقطاب مزاب على عهده،، توفي سنة 1817م، من مؤلفاته: قصيدة البردة في مدح خير البرية، الجواهر الثمينة على المنظومة الميمية، للمزيد ينظر: إبراهيم بن بحمان بن أبي محمد بن عبد الله ابن عبد العزيز الثميني المصعبي، **رحلة المصعبي**، تح: يحي بن بهون حاج امحمّد، غرداية- الجزائر: Mondial Print service، ط1: 2006، ص: 26 وما بعدها.

(3)- ينظر: المصدر نفسه، ص: 64.

وما زاد قيمة لهذه الرحلة كون ابن زرفة شاهد عيان على هذا الحدث المهم [1]، فجاء نص رحلة ابن زرفة نصاً سياسياً لحدث عسكري يؤرخ للجزائر في أواخر العهد العثماني عامة ولبايلك الغرب خاصة.

وفي هذا السياق أيضاً مع الحملات العسكرية ذات الطابع السياسي يصف بن إدريس التنلاني الجزائري (1233هـ/1817م)؛ في رحلته الموسومة باسمه" رحلة بن إدريس التنلاني الجزائري إلى الجزائر العاصمة "حملة الإنجليز وهولندا بقيادة اللورد اكسموث على الجزائر 1816م. وصفاً مفصلاً ومتميزاً[2]. ذكر فيه أسباب الحملة ونتائجها بدءاً بفحوى المراسلات بين الطرفين، وخيانة قائد مرسى الجزائر وتواطئه مع العدو وتفاصيل التدمير الشنيع للمدينة بما فيها حرق السفن الجزائرية الراسية بالمرسى وختاماً بانتهاء الحملة باضطرار الداي إلى قبول شروط اللورد إكسموث بعقد الصلح وبلوغ هذا الأخير أهدافه بأخذ الأسرى النصارى ومبالغ طائلة[3] وهدنة لمدة خمسة سنوات وقيل سنة وقيل خمسة أشهر. وقد أسعف المؤلف وصفه لهذه الحملة طول إقامته بالجزائر لمدة سبعة وثلاثين يوماً وقد أعجب أيما إعجاب بباشا الجزائر الداي عمر وخصه بمدح يليق بشجاعته الفائقة خلال هذه الحملة[4].

ومن هذا كله يستنتج أن نص الرحلة نص لا غنى عنه في كتابة التاريخ السياسي للشعوب والأقطار من خلال مشاهدات الرحالة أو عرضه للروايات المسموعة التي تخضع فيما بعد للنقد

---

(1)- ينظر:**تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطين فتح مدينة وهران للجامعي والرحلة القمرية لابن زرفة**، تح: مختار حساني، مخبر المخطوطات، د.ط، جامعة الجزائر، 2003م، ص: 147 وما بعدها.

(2)- عبد الرحمن بن إدريس التنلاني الجزائري (المتوفي : 1233هـ/ 1817م) **رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني إلى الجزائر العاصمة**، تح: مصطفى ضيف، محفوظ بوكراع، الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع،ط: 2011م.

(3)- أرسل الداي « علي رايس » أبرع ضباط البحرية الجزائرية وأكبرهم سمعة؛ لإبرام الصلح، وألزم الداي عمر باشا نفسه باحترام السلم في خصوص القضايا البحرية التي تحددت في مؤتمر فينا، كما أعاد الداي مبلغ 375.000 ألف قرش التي دفعتها نابولي وسردنيا للورد اكسموث. ينظر: أبو العيد دودو (شونبيرغ)، **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان**، الشركة الوطنية للنشر، 1975، ص ص :68، 69، وليام سبنسر، **الجزائر عهد رياس البحر**، تعر وتع: عبد القادر زبادية، الجزائر: دار القصبة للنشر، ط: 2006. ص: 162.

(4)- ينظر: عبد الرحمن بن ادريس التنلاني الجزائري، المرجع السابق، ص ص: 244، 257.

التاريخي، بالإضافة إلى ما ينقله الرحالة بنفسه من أخبار تاريخية سياسية نقلها من مصنفات تعد في بعض الأحيان من المصادر المفقودة.

2- نص الرحلة والتاريخ الثقافي:

إن أسباب الرحلة متعددة، ولها صلة وثيقة بطابع الحضارة العربية الإسلامية، التي امتدت سيادتها على دنيا المشارق والمغارب، وكان من الطبيعي أن تكون الرحلات والأسفار أول السبل لطلب العلم، فقد كان الدافع الديني أكبر وازع لها، فالدين الإسلامي يدعو للعلم والمعرفة[1]، كما حث على ذلك النبي صلى الله على طلب العلم وشد الرحال لأجله، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إلى الْجَنَّةِ" [2]، وموسم الحج موسماً دينياً ثقافياً يجتمع فيه كبار العلماء والمحبين لطلب العلم وأهله، إذا أن حلقات الوعظ والإرشاد ومجالس الذكر والعلم والأدب كانت ولا تزال يحضرها كل من يرغب في التفقه في دينه، والأخذ عن الشيوخ والجلوس إليهم[3]، وقد كثرت رحلات الأندلسيين والمغاربة إلى المشرق في طلب العلم، وكان الواحد يشرف بين قومه حين يروي عن شيوخ مصر وبغداد وغيرهما من بلدان المشرق[4].

والحال نفسه ينطبق على كتابة التاريخ الثقافي للشعوب، إذ يعتبر المنجم الرحَّلي لا غنى عنه في هذا المجال، ذلك أن الرحلات بشقيها العلمي والحجازي غالبا ما يكون هدفها الأسمى أداء فريضة

---

(1)- نوال عبد الرحمن الشوابكة، **الرحلات المغربية والأندلسية حتى نهاية القرن التاسع الهجري**، ص ص:33، 34.

(2)- هو جزء من حديث شريف طويل في أهمية العلم وطلبه: قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ"، رواه الترمذي.

(3)- الصادقي حسن، الوجود المغربي في المشرق من خلال كتب التراجم المشرقية، **مجلة المناهل**، المغرب، ط:1989، ع: 38، ص ص: 298، 299.

(4)- ينظر: عباس إحسان، **تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة**، بيروت لبنان: دار الثقافة، ط2: 1969م، ص ص: 38، 39.

الحج[1]، كما تحوي في طياتها عديد من الأمور لها علاقة بالجانب الثقافي كالفهرسة مثلاً، والتي تعتبر صنف تأليفي يختص بذكريات الدراسة عن شيخ من الشيوخ، وما حصّله من علوم وما استفاده من شرعية تحمل هذا العلم في رسائله ومؤلفاته وفوائده، ومع الطرق الصوفية وما يرتبط بها من أوراد ووظائف ومناقب وغيرها؛ كالترجمة لهم بالتعريف بالشيوخ الذين أخد عنهم شيئا من هذه العلوم وذكر أحوالهم وما نظموه في مؤلفاتهم وما عرض من نصوص للإجازات[2] التي صدرت لهم أو منهم[3].

ولذلك كان كثير من أعمال الفهرسة قد صيغ في شكل رحلة إلى لقاء الشيوخ وإثبات أسمائهم، وزيارة مراكز العلم والاستفادة من مجالسهم من العلوم والمرويات، كما هو الشأن مع ابن عبيد الله القرطبي(ت 369 هـ)، أين كانت له رحلة واسعة إلى المشرق، دون فيها أكثر من أربعمائة عالم من علماء الأندلس والمشرق[4]، وقد تميز في هذا المجال أيضاً الشيخ الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المغربي المقري (ت 1040هـ) في كتابه" روضة الآس..."[5] وعمل محمد ابن زاكور الفاسي

(1)- عبد العزيز إسماعيل روزي، الرحالة والرحلات مصدرا لتاريخ تجارة البن وانتشار القهوة في جزيرة العرب، **مجلة الدارة**، ع04، الرياض، السعودية، 2004، ص: 133.

(2)- **الإجازة**: لغة مصدر مشتقة من الفعل جوّزَ، ويقال جزت الموضع أي سرت فيه، وأجزته أي خلفته وقطعته، وأجزته: أنفذته، أما اصطلاحا: فهي إذنً من شيخ لطالب علم أو لعالم آخر في رواية الحديث الشريف، أو الفقه أو التاريخ أو أي علم من العلوم، أو هي إذن في تولي منصب ما كالفتوى والتدريس وغيره ولها عدة أنواع. ينظر: فوزية لزغم، **الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، الجزائر**: دار سنجاق الدين للكتاب، ط1: 2009م، ص ص:15، 18.

(3)- عبد الله المرابط الترغي، الرحلة الفهرسية نموذج للتواصل داخل العالم الإسلامي رحلة أبي سالم العياشي: "ماء الموائد" نموذجاً، **سلسلة ندوات ومناظرات (السفر في العالم العربي الإسلامي، التواصل والحداثة)**، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، الدار البيضاء، 2003م، ص: 15.

(4)- عبد الله المرابط الترغي، **فهارس علماء المغرب مند النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها – تطورها – قيمتها العلمية**، تطوان: جامعة عبد الملك السعدي، ط1: 1420هـ/ 1999م، ص: 100.

(5)- وقد نشر **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس**، المطبعة الملكية بعناية الأستاذ عبد الوهاب بن منصور. الرباط: المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1403 هـ - 1983 م.

(ت 1120هـ) في كتابه" نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان[1]، وغيرهما من الأعمال الأخرى الكثيرة في التراث العربي.

وتتقاطع الرحلة مع الفهرسة ويكون كل واحد منهما مكونا في الآخر، والأمثلة في هذا الصدد كثيرة، فالعديد من الرحلات التي عرفها العالم الإسلامي تحوي عدداً من النصوص التي تؤرخ للحياة الثقافية في حقبة معينة، فنجد في الجزائر العثمانية خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) مثلاُ الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري ، الذي دون سجل رصيده العلمي الحافل مع العلوم الشرعية والعلوم النقلية التي تميز بها على معاصريه كالعلوم الطبية والرياضية[2]، فجاءت رحلته المسماة ب" رحلة ابن حمادوش الجزائري" [3] دسمة ثرية مختلفة المشارب حظي فيها الجانب الثقافي بحصة الأسد؛ أين تكلم عن المشايخ والعلماء الذين لقيهم أمثال: محمد بن ميمون، وأحمد بن عمار الذي كتب له تقريظا من النثر والشعر لكتابه (الدرر على المختصر)، والشيخ محمد الطيب بن محمد الفاسي[4]، وأحمد الورززي[5] والشيخ امحمد البناني الفاسي[1] إلى جانب نخبة من العلماء الذين التقى

---

(1)- ينظر: ابن زاكور الفاسي (ت 1120هـ/ 1708م)، **نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان**، تح: مصطفى ضيف، محفوظ بوكراع، الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، طبعة خاصة: 2011 م، ص ص: 28، 29.

(2)- فقد درس لابن سينا، وإقليدس والقلصادي وغيرهم من علماء المسلمين واليونان، ومن بين ما ألفه في هذا الشأن: تأليف في الأعشاب (لعله هو كشف الرموز المطبوع) الإسطرلاب والسبع المقنطر، الجوهر المكنون (في الطب). ذكر له أبو القاسم سعد الله حوالي أربعة عشر مِلف أغلبها في الطب، والفلك، والحساب، وجل هذه الكتب مذكورة في رحلته. ينظر: **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط3: 1990م، ج1، ص ص: 226، 227.

(3)- عن رحلة ابن حمادوش ينظر الفصل الثاني من الرحلة، ص: 73.

(4)- **محمد الفاسي**: هو أبو عبد الله محمد بن الطيب بن محمد بن عبد القادر الفاسي (1064هـ/1653م-1113هـ/ 1701م)، أخذ عن والده وعمه وجده، وابن عمه المهدي الفاسي، وأبي سالم العياشي، له تأليف منها: شرح مقدمة جده في الأصول فهرسة والده في رفع الأسانيد، محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات الملكية**، ضبط الحواشي: عبد المجيد خيالي بيروت: دار الكتب العلمية، ط1: 1424هـ/ 2003م، ص: 329.

(5)- **أحمد الورززي**: هو أحمد بن محمد بن عبد الله، أبو العباس الورزازي الدرعي التطواني: محدث، فاسي الأصل، عرفه صاحب فهرس الفهارس بحبر تطوان وفخرها ويعرف بالورزازي الكبير. قال عنه تلميذه ابن عجيبة: كان شديد الشكيمة على أهل البدع لا يبالي بولاة زمانه. اتهم بالاعتزال وسجن وأطلق فازداد شأنه وحج وجاء من الحرم المكي وحده على رجليه إلى بيت المقدس. توفي

بهم واستجاز منهم[2]. فابن حمادوش إلى جانب كونه طبيب وفقيه وأديب ومؤرخاً فهو من النساخ أيضاً بشهادته لنفسه في قولة: " وفي سادس عشرة موافق أول يوم فصل الصيف، ابتدأت نسخ كتاب الجدل وفي العشرين منه تممت شرح الجدل، وفي حادي وعشرين منه ابتدأت كتاب النجاح لابن سينا في المنطق، وفي ثالث وعشرين تممت كتاب الجدل للسمرقندي، وفي سادس وعشرين منه تممت كتاب الأحكام والطلاسم لابن البنا، وفي اليوم الذي بعده تممت كتاب أبي معشر"[3].

ومن الرحلات العلمية والحجازية أيضاً والتي تشبعت بالأهمية الثقافية للجزائر العثمانية "رحلة الورتلاني" للرحالة الهمام الفقيه العالم الصوفي الحسين بن محمد السعيد المعروف بالورتلاني (1125هـ/1713م/ توفي بين عامي 1193هـ - 1194هـ/1779م - 1780م)، سجل رحلته تلك في عام 1179هـ/1765م، جمع فيها حصيلة رحلاته السابقة، أين اتصل بكثير من العلماء والحكام والمرابطين في كل من تونس وليبيا ومصر والحجاز، فعلم وتعلم واستفاد وأفاد، وسأل العلماء والطلبة مجادلاً إياهم في شتى علوم عصره حيثما حل مجيباً عن الأسئلة إذ عرضت له[4]، كما كان يهتم باقتناء الكتب سواء عن طريق التسجيل أو النسخ أو الشراء، متوجاً تلك الأخبار لرحلاته السابقة في

بتطوان (1179هـ-1766م)، خير الدين الزركلي، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، بيروت: دار العلم للملايين، ط15:2006، ج1، ص: 243.

(1)- **امحمد البناني الفاسي**:من ابرز علماء المغرب في علم البيان والعلوم العقلية ، وكان الالتقاء به والأخذ عنه والاستجازة منه هدف لكل من قصد فاس طلبا للعلم، ينظر: عبد الرحمان السعيدي، **ثلاثة فهارس مغربية**، منشورات محمد علي بيضون، بيروت: دار الكتب العلمية، ص: 128.

(2)- ففي بعض الأحيان كان يجاز ببيت شعري فقط كما قدمه له الشيخ امحمد البناني الفاسي في قوله:" أجزت لكم مروينا مطلقاً وما لنا سائلاً أن تتحفوا بدعـــاء، أما عن بقية إجازات ابن حمادوش الجزائري في رحلته إلى المغرب. ينظر: ابن حمادوش الجزائري، **رحلة ابن حمادوش (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)**، تح: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: المؤسسة الجزائرية للفنون المطبعية، ط: 1404هـ/ 1983م، ص ص: ،37 39،67،62، 68.

(3)- ينظر المصدر نفسه، ص:120، وينظر في هذا الشأن أيضاً مع نسخ المؤلف للكتب وحتى تجليدها في بعض الأحيان ص ص: 70، 114، 129، سليمان القرشي، دور الرحلات الحجية في نشر الكتب وتداولها بين المشرق والمغرب، **مجلة رحال** تصدر عن مثقفون بلا حدود، العدد الأول- السنة الأولى- شعبان 1428هـ أغسطس 2007م، الرياض، ص ص: 49، 50 .

(4)- الورتلاني، الرحلة الورتلانية، ص ص: 29، 125 ،284 ،304 ،315، 621، 653، 656.

الداخل والخارج في رحلة واحدة، موسومة بـ"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، المعروفة بـ "الرحلة الورتلانية" جعلها وثيقة هامة ضمنها الأوضاع والأحوال الثقافية والسياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية لهذه الأقطار[1].

كما احتوت نصوص الرحلة على العديد من الإجازات العلمية للرحالة[2] سواء تلك التي أجاز بها أو أجيز بها، وغالبا ما يكون محتوى الإجازة يحوى على سند للمشايخ المروي عنهم ربما لا نجد لهم ترجمة أو ذكر في كتب التراجم المعروفة[3] ، كرحلة ابن زاكور الفاسي[4] إلى الجزائر بغية طلب العلم فعدد لنا مشايخه بها ممن أجازوه بالإضافة إلى تحدثه عن سيرهم الذاتية وبالتالي يمكننا الرجوع إلى هذه النصوص لمعرفة كبار المشايخ والعلماء في مختلف العلوم وكذلك معرفة المستوى الثقافي والعلمي لهذا القطر من خلال هذه النصوص[5]. والاتجاه نحو المشرق مهبط الوحي وأرض البقاع المقدس وأداء الفريضة والاغتنام من طيباتها الروحية وعلمية، مقصد ومطلب الارتقاء في سلم أرباب العلم، فجاءت الإجازات كما أسلفنا تتويج وتكريم لجهد لأهل العلم وطلابه؛ كإجازات أحمد المقري بمصر من عدة مشايخ[6]، والحال نفسه لعيسى الثعالبي بمكة حيث أجاز وأجيز هناك[7]، إلى جانب العالم النحرير

(1)- ينظر: مختار بن الطاهر فيلالي، **رحلة الورتلاني**، عرض ودراسة، باتنة: دار الشهاب، ط: 1978م ص:44.

(2)- ترتبط الإجازات بالتحديد بالعلم سواء أكانوا طلاباً أو مشايخ مجاز أو مجيز، وتتزاوج مع الرحلات الحجازية على هامش أداء فريضة الحج عموماً والعلمية على الخصوص، كما أن هذه الميزة تكاد تكون منحصرة لدى الرحالة العرب دون غيرهم.

(3)-كمحمد بن عبد المؤمن وعمر المانجلاتي، فلا توجد لهما ترجمة في مصادر القرن الحادي عشر هجري (17م) إلا ما ورد في إجازتيهما لابن زاكور الفاسي. ينظر: فوزية لزغم، المرجع السابق، ص: 375.

(4)- **هو محمد بن قاسم بن عبد الله بن زاكور الفاسي (ت 1120هـ/1708م)**: من علماء فاس والمغرب الأقصى في القرن الثامن عشر، له رحلة علمية (فهرسية) إلى الجزائر، وهي التي تحثنا عنها في المتن، ينظر: ابن زاكور الفاسي، نشر أزهار البستان فيمن إجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء الأكابر الأعيان، المصدر السابق، ص:14 وما بعدها. ينظر الفصل الثاني، ص: 106.

(5)- يثبت ابن زاكور المغربي في رحلته جملة من إجازات علماء الجزائر له أثناء زيارته للجزائر كالشيخ أبي حفص عمر بن محمد المانجلاتي وإجازة محمد بن عبد المؤمن، ومحمد بن سعيد بن إبراهيم قدورة، إلى جانب إجازة الشيخ علي الشبراملسي لمحمد بن عبد المؤمن الحسني. ينظر: ابن زاكور، المصدر السابق، ص ص: 45،46، 55، 62، 71.

(6)- لزغم فوزية؛ المرجع السابق، ص: 275 وما بعدها.

(7)- نفسه، ص: 294.

يحي الشاوي، الذي حاز قصب السبق في المشرق خصوصاً في مصر التي تولى فيها القضاء وفي المغرب الأقصى أين ولي إمارة ركب الحج المغربي، وقد انتشرت إجازاته مشرقاً ومغرباً[1].

كما أن زيارة المكتبات مثلت جزءاً من مسار الرحلة الثقافي الموازي لمسارها الجغرافي، إذ أن عدد غير قليل من الرحلات الحجية اتخذت منحى علمياً صرفاً، فقد حرص الكثير من الرحالة على زيارة مكتبات وخزائن كتب بعينها، مراعاة لقيمة محتوياتها، واعتباراً لمكانة أصحابها[2]، فقد كانت المكتبات في الجزائر خلال العهد العثماني كثيرة جداً، وذلك ما شاهده الرحالة المغربي محمد بن علي التمقروتي في القرن السادس عشر[3]، وقد ذكر أحمد البوني في كتابه "الدرة المصونة" للعالم الفقيه عبد الكريم الفكون مكتبة ثرية تعد الكتب فيها بالآلاف في قوله:

بسيدي عَبد الكَرِيمِ العَالـــمِ الصَّـــالح الفَـــكوُّن ذِي المـكَارِمِ

مُـــؤَلِّفه التواليف الكَثـــِيرة وَكَـــان ذَاَ مَنـــَاقب أَثيـــــــــرةَ

وَعِنـــــدْهَ الكُتـــــب الآلافِ وَالمجـْــدُ تالـــدّ بلا خـِــــلافِ[4]

كما ذكر الورتلاني إن لجده يحي " خزانة عظيمة بحيث لا توجد عند غيره، لما سلط عليهم الوباء ...ضاعت الكتب"[5] .

وكذلك الحال مع الرحلة الموسوعية الحجازية "الرحلة العياشية" لأبي سالم عبد الله العياشـــي (ت 1090هـ)[6] أين تجلى عمق التواصل القائم بين مناطق العالم الإسلامي العربي، خصوصاً المناطق

(1)- نفسه، ص: 304 وما بعدها.

(2)- سليمان القرشي، المرجع السابق، ص:50.

(3)- فوزية لزغم، **البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (925-1246هـ/1520-1830م)**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، (1434- 1435هـ/ الموافق ل: 2013/ 2014م)، ص: 407.

(4)- البيت رقم: (660- 663). ينظر: أحمد بن قاسم البوني (ت 1139هـ/1726 م)، **الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة**، تقديم: سعد بوفلاقة، ط:(1428هـ/2007م)، ص: 96.

(5)- حسين الورتلاني، رحلة الورتلاني، ج1، ص:102.

(6)- ينظر ترجمة العياشي الفصل الثاني، ص: 98.

الواقعة في طريق الحج المغربي، فهذه الرحلة تعتبر بحق نموذجاً للرحلة الحجازية التي كتبها علماء المغرب في القرون الأربعة الأخيرة والتي استوفت الحديث على كل العناصر الثابتة التي جرى بها عرض الرحلة الحجازية من قبل ومن بعد، بل زادت على ذلك لتستوعب ما لم تعرفه نصوص الرحلة في السابق، فتصبح وعاء لحفظ النصوص العارضة من أجوبة وفتاوى، ومقدمات كتب، ورسائل علمية وشخصية، ونصوص إجازات، وقصائد شعرية، ومؤلفات صغيرة، وغير ذلك، حتى إنها أصبحت بهذه الكشكولية علامة من علامات التحول الكبير في كتابة الرحلة الحجازية عند كتاب المغرب[1]. فالعياشي خير من قدم نظرة مجملة عن التعليم في مختلف مستوياته وفنونه بالأقطار العربية وخصوصاً بالحرمين الشريفين، ملتقى طلاب العلم والعلماء، مع أنه لم يغفل عن الحواضر الثقافية في الأقطار العربية؛ سواء في بلاد المغرب أو في مصر أو في بلاد الشام وبيت القدس[2]، عارضاً معرفة طرق التدريس وتصوراتهم نحوها في الدراسة والرواية، كذلك في اعتماد الشيخ على التلقين وقدسيته في التصور الثقافي المعتمد، بالإضافة إلى معرفة ابرز القضايا العلمية والثقافية الرائجة في تلك الفترة.كما يحوي النص الرحلي للعياشي رصيد معتبر لتعريف بأبرز المؤسسات الثقافية سواء كانت صوفية أو علمية أو مكتبية، في وصفها العمراني وفي وصفها الروحي، وفي تشكيلها الثقافي وعطائها فيه، وفي التعريف بأحوال الراحلين والعابرين والمستقرين وآثارهم الفكرية والتأليفية[3].

رأينا الشق المضيء في المدح المتبنى لأدب الرحلة مع الإشعاع الثقافي للعالم الإسلامي مع الصفوة والخيرة من الرحالة في العهد العثماني، ومع هذا نأخذ نموذج على العكس من ذلك على كف نقيض في فترة نعتت بها الجزائر أنها كانت في قمة زهوها الثقافي وعطائها في عهد محمد الكبير محمد بن عثمان باي بايلك الغرب، أين شذ عن سابقيه ولاحقيه في عطائه المتميز في تنشيط حركة العلمية بالجزائر العثمانية، ومن كان شاهداً على ذلك الرحالة المغربي أبو القاسم الزياني (1147 هـ/ 1249):"

(1)- ينظر: محمد ماكامان، الرحلات المغربية، ص: 278.

(2)- ينظر: عبد الله المرابط الترغي، المرجع السابق، ص: 45.

(3)- المرجع نفسه، ص: 45.

بكتابه "الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً " أين وصف مدينة تلمسان أثناء مقامه بها واستيائه من ضياع مناصب العلم بين أصحابها، في قوله:

كانت تلمســان بالأعلام صائلة والجياد ولم تربط بها الحمـــر

أصابها المسخ إذ عادت تباع بها مناصب العلم للأجلاف والخور

وكيف لا وجنود الترك حولكم تسوقكم بعص الخسف ولا تذر

لكن إلى الله أشكو دفع غصتكم فهو المؤمل والمرجو ينتصــر[1]

ونفس الشيء كان مع الرحالة أبو العباس السجلماسي في بحثه عن أهل الفقه في قوله:" وحططنا ضحى في بوسمغون[2]، وأقمنا به يومنا ذلك ولم نجد به أحدا ممن ينسب للفقه إلا الأحب سيدي محمد الصديق الفقيه الأجل سيدي أحمد الصائم وسألني عن مسائل في الفقه" [3].

ويتبين من خلال كل هذا بأن نصوص الرحلة تعد في أصولها ومضامينها وثائق عتيدة وفريدة للحياة الثقافية والعلمية للعديد من المناطق والبلدان، فقد شكلت على امتداد العصور جسراً من الجسور المهمة؛ لما يحدث بها من تلاقح علمي للرحالة وعلماء البلاد المطروقة أو الواقعة في مسار الرحلة سواء كانت الرحلة حجازية أو غير ذلك، وبما عكسته كمرآة صادقة عن حقب تاريخية متعاقبة، للواقع الثقافي للحضارة الإسلامية [4].

(1)- أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، ص:144.

(2)- يزيد على وصفها السجلماسي بأنها قرية يقع القتال بين أهلها كثيراً على عيني ماء، وقد أثبت هذا العداء العياشي برحلته قبله بزمن فقد كان العداء بينهما متجذراً يصل إلى حد القتال أحياناً. ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص: 549، أبو العباس السجلماسي (1114هـ/ 1175)، **التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام**، تح: محمد بوزيان بنعلي، تقديم: أحمد بوحسن، وجدة: مطبعة الجسور، ط1: 2012م، ص ص: 130، 131.

(3) - المصدر نفسه، ص:130.

(4)- ينظر: سليمان القرشي، دور الرحلات الحجية في نشر الكتب وتداولها بين المشرق والمغرب، المرجع السابق، ص ص: 48، 56.

3- نص الرحلة والتاريخ الاجتماعي:

لا شك في أن تنوع العناصر والفئات والطبقات والطوائف في المجتمعات؛ ترك أثراً اجتماعياً واضحاً في نصوص الرحلة الحديثة، فقد عكست الرحلات صور مظاهر الحضارة والتقدم في مختلف البلدان التي قصدها الرحالة، فألقت الرحلات الضوء على أحوال المعيشة، والعادات والتقاليد والأعراس والأعياد والأزياء، والمآتم وأصناف الأطعمة والأغذية وغيرها، حيث أخذ الرحالة يميزون ويعقدون مقارنات عدة لاستجلاء أوجه التشابه والاختلاف بين مظاهر التلاقي والتفاعل بين الجوانب الاجتماعية والدينية والثقافية والفكرية بين مختلف شعوب البلدان التي زاروها بتحليل والاستنتاج بعد تلك المقارنات الثاقبة[1].

وفي هذه الجزئية سنحاول دراسة بعض الظواهر الاجتماعية في الأراضي المقدسة من خلال ما تصنفه لنا الرحلة، والأمثلة في هذا الصدد كثيرة في مصنفات الرحالة والجغرافيين في الفترة الحديثة فعلى سبيل المثال: جاء في الرحلة العياشية لعبد الله العياشي المؤرخة في 1072هـ؛ أثناء زيارته للأراضي المقدسة ومقامه بها، أثار انتباهه مجموعة من الظواهر الاجتماعية[2]، من ذلك عادة المرأة المدينية ذات الرغبة الملحة في الميل نحو مظاهر البذخ والترف، فيقول عنها العياشي:" ولقد أخبرت أن للنساء عليهم عادة يسمونها الشخشخة، وهو ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار، فربما بلغ ذلك ريالاً في كل يوم[3]" ومن العادات المذمومة أيضاً بلسان العياشي؛ " وهي أنه لا تبقى مخدرة من النساء شريفة كانت أو وضيعة إلا خرجت تباشر البيع والشراء بنفسها "، ولهن على الرجال إتاوة يؤدونها لهن ليبتعن ما أحببن، فلا يخرجن إلى السوق حين تأتي البضائع من الشام بأقل من خمسين ديناراً، هذه الظاهرة التي تدل على المغالاة في الإسراف والإقبال على متاع الدنيا، وبلسان العياشي أيضاً :" فقد حُكى أن امرأة أحد المدرسين بها أعرفه، طلبت منه في ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق، وعلى

---

(1)- نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص: 188.

(2)- عبد العزيز احلوي؛ الأحوال الاجتماعية لسكان الصحراء الكبرى والسودان الغربي من خلال بعض كتب الرحلات، ص: 111.

(3)- ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص: 20.

العادة دفع لها عشرة دنانير ذهب، فاستقلتها وذهبت بها من شدة الغيظ فرمت بها في المرحاض وأتلفتها عليه، وقالت له:" أمثلي يخرج إلى السوق بهذا المقدار ". فلم يملك من أمره إلا أن ذهب وتسلف خمسين ديناراً ودفعها لها،" فجاء تعليق العياشي موافق للشريعة الإسلامية والتي تحث على احترام الرجل ووضعه في المكانة اللائقة به في قوله:" وهذه حسرة عظيمة وذل للرجال الذين جعلهم الله قوامين على النساء، فلا ينبغي لذي همة أن يرضى بذلك "[1].

ويشير في الموضوع نفسه باستهجان لظاهرة مخالفة للشرع وفي نفس الوقت مبرزة للباس المعتاد لنساء المدينة إلى أن نساء المدينة مبالغات في الستر في الحجاب، غير أنهمن يكثرن من الطيب عند الخروج للشارع بقوله: " بيد أن نساءهم مبالغون في الستر الظاهر بحيث لا يبدو من المرأة ولا مغرز إبرة حتى من أطرافها، يلبسن الخفاف السود، وتبرقعن ويسدلن من أزورهن ما يكون نهاية في الستر، إلا أنهن يكثرن من الطيب عند الخروج، فيوجد عرف الطيب منهن من مسافة فيكون ما سترنه ظاهراً أبدينه باطنا "[2].

كما يشير أبو سالم العياشي في موضع آخر في رحلته هاته، والتي تعد من مفاخره، إلى عادة أهل المدينة في الزواج والطقوس التي تصاحب هذه المناسبة لكل ذي وجاهة ورياسة من أمير أو تاجر أو صاحب خطة، أما غيرهم من عامة الناس فعلى حسب ما يتفق لهم، ومن عادتهم في الإملاكات أي الزواج أن يكون عقد النكاح في المسجد النبوي، وقد حضر العياشي إحدى هذه الحفلات بالمسجد، فوصف مجلس عقد القران في جلوس أرباب المراتب من العلماء والخطباء وأكابر الناس صفين من المنبر إلى الحجرة الشريفة، صف مستقبل القبلة وصف مسند ظهره إلى جدار القبلة، مع وجود كبير خطباء المدينة الذي أطال وأجاد في مدح أهل العروسين، ولم تروق له تلك الخطبة – أي

(1)- ينظر: العياشي، المصدر نفسه، ج1، ص: 385، أنور ترفاس، وصف الظواهر الاجتماعية بالأراضي المقدسة من خلال الرحلة العياشية، **مجلة رحال**، دار مثقفون بلا حدود، العدد الأول- السنة الأولى- شعبان 1428هـ أغسطس 2007م، الرياض، ص ص: 82، 83.

(2)- العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص:385.

العياشي- بما فيها من مبالغة في الثناء على المتعاقدين بما أكثره زور وباطل وطقوس تلك الحفلات بما فيها تكلف ورياء وسمعة يتنزه عنها الشرع وجلالة المكان بالحرم النبوي.

كما جرت العـــادة بعد الانتهاء من مراسيـــم عقد الزواج بالمسجد أن يؤتى بأطبـــاق الرياحيـــن ووضعت بين الصفين، وأطبـــاق من اللوز والسكر، ويفرق على الحاضـــرين، ويقوم المنشـــد ينشد قصـــيدة أو قصيدتين في مـــدح النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم يفترق المجلس[1]. ومن عادات أهل المدينة أيضاً في الزواج أن يزف الزوج لزوجته في بيت أهلها، على خلاف المعتاد في الكثير من البلاد الإسلامية أن الزوجة تزف لزوجها إلى بيته أو بيت أهله، فإذا أصبح الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته، وأخذ في إطعام الناس طعام الوليمة، وجاء الناس لتهنئته، وفي الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها لدار الزوج، وكما قال العياشي :" ولكل قطر عادة ولكل قوم سادة، وعادات السادات سادات العادات"[2].

ومن العادات المتعارف عليها أيضاً عند أهل المدينة في طعامهم المعتاد مع معاشهم: " ولوع وغرام شديد بأكل اللحم...حتى إن من نسائهم من لا يطبخ غذاء ولا عشاء إلا لحما، ولو أدى ذلك إلى بقائهم بلا عشاء ولا غذاء... ومن أهل المدينة من يشتري العبد فلا يكون له شغل إلا شراء اللحم"[3]، ومن هذه المظاهر وغيرها وصف العياشي هذا الترف بأن:" أهل المدينة زادهم الله خيراً ووسع عليهم، أهل رفاهية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا، وتغال في الملابس الفاخرة، وتزيوا بزي الأعاجم في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم، لكثرة سكنى الأعاجم بها "، خلافاً لما كان عليه الحال في الزمان المتقدم، في حين أن أهل مكة حافظوا على البساطة ببداوتهم ولم يتأثروا بالمتغيرات

(1)- المصدر نفسه، ج1، ص ص:448، 449.
(2)- المصدر نفسه، ص ص:448، 449.
(3)- المصدر نفسه، ج1، ص:456.

الجديدة، ولهذا استنكر العياشي الصبغة الحضرية الأعجمية المستجدة والتي وجد عليها مجتمع المدينة ولهذا جاء تفضيله لمجتمع مكة، الذي رأي فيه صورة المجتمع البدوي الأصيل[1] .

ويزيد الورثيلاني نقلاً عن العياشي، الكثير من عادات أهل المدينة على النحو الآتي:

أ- أن يجتمع الناس ليلة الجمعة بعد صـــلاة العشاء، في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد، فتأتي جماعة من المنشدين، فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم، وتطريب وتقسيم والناس محدقون بهم.

ب- أن يكنس في يوم الجمعة المسجد النبوي كله، ويؤتى بأغطية من ديباج أسود مخوص بالذهب، فتعلق على أبواب المسجد، ويؤتى برايتين سوداويين من ديبـــاج مخوص أيضا فيركزان على يمين المنبر وشماله[2].

ج- التهنئة بحلول كل شهر على خلاف المعتاد في المغرب، تكون في الأعياد وما شاكلها.

يورد هذه القصة الورتلاني نقلاً عن العياشي بأنهم يهنئون بعضهم البعض مع مطلع كل شهر: " فيذهب كل واحد إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صحبة حتى يهنئه بالشهر في منزله، ولله در القائل:

إن الأهلة في السماء مناجل بطلـوعها تتحصد الأعمار

فلم يهني بعضنا بعضاً بهـا وطـلوعها بأفـولنا إنـذار"[3]

ومن المشاهد التي سجلها بمنى أيام العيد وهي من مظاهر الفرح والابتهاج، "إيقاد أهل مصر والشام المصابيح، واتخاذ المصانع منها وصور الأشجار، وإكثار الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق المرتفعة في الجو، نزهة للأبصار وتسلية للأفكار"[4]، ومن عادة أهل مكة في الختان أنهم يلبسون الطفل بعد

(1)- نفسه، ج1، ص:457، أنور ترفاس، المرجع السابق، ص ص:82، 83.

(2)- العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 439.

(3)- البحر الكامل: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 441.

(4)- الورثيلاني، المصدر السابق, ص: 339.

ختانه أفضل الملابس ويجلسونه على حصان جميل مزين بأفضل الملابس ويجلسونه على حصان جميل مزين بأفضل الزينة يسير في موكب عبر البلدة والطبول تقرع من خلفه"[1].

كان هذا عن بعض العادات بالبقاع المقدسة وبالأخص المدينة المنورة أهم الحواضر الإسلامية في العهد العثماني، ومن المدينة المنورة للديار المصرية يحدثنا أشهر الرحالة الجزائريين في القرن 18م الحسين الورتلاني، عن المجتمع المصري بأسلوب دقيق وشيق عن المستوى المعيشي والعلمي وحتى والاقتصادي فيقول:" أمر مصر غريب وعجيب في كل الأصناف والأنواع والأجناس، مهما رأيت جنساً فيها إلا قلت إن هذا الجنس هو الذي في مصر، فإذا رأيت العلماء قلت لا جاهل في مصر، وإذا رأيت الأغنياء قلت لا فقير وإذا رأيت الأشياخ وأصحاب الأوراد قلت هم أهلها. وكذا أهل الصنائع والحرف فما وَرَدْت قومًا أو سوقاً أو نزاهة إلا قلت أهل مصر موجودون فيه. وهذا من عجائب مصر، فإن كل ما رآه العبد إلا قال هذا هو الموجود فيها، لأن مصر تُغني عن الغير ولا يستغني الغير عنها...فإن أهلها ظاهرون في الخير والشر والساعي فيها يجتني منهما "[2]. وسبق حديث الورتلاني عن مصر حديثه عن معاملة أهل طرابلس مع خصالهم الطيبة في إكرام الحجاج ضيوف الرحمن فقال:" لقد بالغو في حبنا وصفو في مودتنا حتى أنهم تمنوا أن يكون ما عندهم قد بذلوه لنا وجعلوه قرى لأصحابنا..." [3].

وهكذا فإن هذا النص الفريد والمتميز يوضح قيمة الرحلات الحجية في كتابة التاريخ الاجتماعي نظراً لان الحجاج تكون لهم علاقات مباشرة مع السكان المحليين على عكس أصحاب الرحلات السفارية مثلاً، التي يقل فيها احتكاك الرحالة بعامة الناس. وعليه يكون المتن الرحلي على العموم

---

(1)- ضيف الله بن يحي الزهراني، ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مكة المكرمة (رحلات في مشبه جزيرة العرب) 1230-1231هـ/1814- 1815م لمؤلفه جون لويس بوركهارت أو الحاج إبراهيم بن عبد الله، **بحوث رحلات إلى شبه =الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في المدة من 24 – 27 رجب 1421هـ الموافق 21–24 أكتوبر 2000م،** الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ط: 1421، ج2، ص: 653.

(2)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص 339.

(3)- المصدر نفسه، ص: 158.

والحجازي على الخصوص منجماً توثيقياً للحياة الاجتماعية للشعوب، وحجر الأساس لكل بناء رصين للدراسات الاجتماعية في التاريخ.

4- نص الرحلة والتاريخ الاقتصادي:

كانت الرحلة منذ القديم أمراً يقتضي القيام بالرحلة والسفر البعيد والسعي في سبيل الكسب براً وبحراً، والعالم العربي بحكم توسطه بين قارات العالم القديم، كان مركزاً في التقاء الطرق التجارية بين القارات[1]، كما أن انفصال الماء وتداخله في اليابسة في المنطقة جعلها تحتل موقعاً تجارياً هاماً في تطور التجارة، وجسراً تعبر منه الثقافة والفكر وليس فقط لنقل السلع والبضائع عبر العصور[2]. ولأجل الكسب أيضا مارس العرب الترحال وقاموا برحلتي الشتاء والصيف اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم[3]، وأبحرت سفنهم في مياه المحيطات الكبرى: ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[4].

فكانت التجارة مقصداً من أهم الأسباب التي أدت إلى تدوين الرحلات لمعرفة طرق التجارية البرية والبحرية، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات علم تقويم البلدان والمسالك والممالك، لوصف الطرق والمناخ، والعديد من الأمور التي تهم المسافر إلى البقاع المقدسة وأداء فريضة الحج، وتسهيل عملية التجارة في مختلف البلدان والبقاع والأصقاع التي يمرون بها، إذ كانت التجارة في موسم الحج ضرورة من ضرورات الحاج والمسافر، إذ لابد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة الحجية[5].

ومن هذا المنطلق القت رحلات أبو سالم العياشي في القرن الحادي عشر هجري، ورحلة عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري في القرن الثاني عشر هجري وغيرهما، ضوءاً هاماً على النشاط التجاري

---

(1)- نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، ص:47.

(2)- المرجع نفسه، ص: 46.

(3) - ورد ذكرها في سورة قريش الآية 2، قوله تعالى: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ ﴾.

(4)- سورة الإسراء: الآية : 66.

(5) _ نوال عبد الرحمن شوابكة، المرجع السابق، ص:47.

في المغرب الإسلامي ومصر والحجاز في ذلك الوقت. فقد قام العياشي المغربي برحلته الحجية ذات المسار الجغرافي الهام الذي مسحته من المغرب للمشرق؛ فقد انطلقت هذه الرحلة سنة (1072هـ/ 1661م) من سجلماسة بأرض المغرب لتصل إلى القاهرة، مروراً بكل من الجزائر وتونس طرابلس، قبل أن تأخذ وجهتها وهدفها المقدس، مكة المكرمة والمدينة المنورة، موئل الحقيقة والشريعة ومهوى قلوب المسلمين وأفئدتهم، وموطن الرجال والأفكار، ورمز الخلاص الديني والدنيوي.

كما آثر في خضم هذا المسار الباذخ أن تمتد رحلته إلى بيت المقدس للقاء الرجال والاحتكاك بالأفكار، والتمسح بالمقامات والمزارات، فمر بكل من غزة والرملة وبيت المقدس والخليل، ودون خلالها بحس الفقيه العالم مختلف المعاملات التجارية، وتتبع مختلف نواحي الاختلال في مجريات الحياة الاقتصادية، سواء بأسواق الغرب الإسلامي أو بأسواق المشرق التي خبرها عن قرب ولمس خصائصها عن طريق المعاينة والمعاملة، ومن هذه المعاملات وتلك المعاينات نذكر مسألة الموازين والمكاييل وقيمة العملات وشرعيتها حفاظاً على الاقتصاد من الانهيار والتداعي، كما يحرص على سلامة المكاييل والموازيين تأميناً لمصالح المشتري وحفظا لها[1].

وقد تتبع العياشي بدقة بالغة أسعار السلع وقيمتها، وأسباب ارتفاعها وتدنيها وإلى مقاييس تحديد الأسعار، كما قدم خلال هذا عرضاً لمختلف معروضات الأسواق من خضر وحبوب ومياه ومأكولات، وأثواب ومفروشات، وكتب وجوار، وبهائم وعلف وغيرها مما يباع ويشترى، يقول: " وقد كانت الأسعار أيام مجيئنا المدينة شديدة فكان القمح ثلاثة آصع بريال، والصاع عندهم يقرب من ثلاثة أصع بصاع الزعوة[2]، وأما التمر فنحو أربعة آصع بالريال، والشعير ليس بينه وبين القمح يسير تفاوت خلاف المعهود في غالب البلاد، والعسل اشتريت رطلاً منه للدواء بقريب من ثلث الريال،

(1)- العياشي، المصدر السابق، ج1، ص:21.

(2)- **صاع الزعوة:** مكيال من أربعة أمداد، يذكر ويؤنث، ويقال:" صوع وصواع، وهو مكيال يسع خمسة أرطال عراقية وثلثاً من الحنطة، ويعادل رطلاً دمشقياً وسبعاً، وقيل ثمانية أرطال الصاع. وقد إقترن بالزعوة وهذا ينسب لبلد باليمن فسمى الصاع بإسمها "صاع الزعوة". ينظر: محمود عبد الرحمن عبد المنعم، **معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية**، دار الفضيلة، ج2، ص ص : 352، 881.

والسمن دون ذلك، وأما الفواكه فكانت في أيامها ووسط إبانها العنب بثلاثة مائدية[1] للرطل، وقد رأيت رمانة في آخر الإبان بيعت بخمس مائدية، وفواكه المدينة مع غلائها في غاية الجودة خصوصاً عنبها ورطبها[2] ".

كما عدد بعض المراكز التجارية الهامة في طريق رحلته مثل توات ومرسى ابن غازي بالجبل الأخضر بليبيا وهي منطقة معروفة بخصبها وخيراتها، ولكن سكانها ظلوا على بداوتهم وتخلفهم في المجال التجاري، حيث كانوا يبيعون إنتاجهم بأبخس الأثمان[3]، وهذا المرسى مهم ب " سفح الجبل، بينها وبين سلوك مسافة يوم، وفيها عامل وعسكر لصاحب طرابلس، وفي تلك المرسى تصب أودية السمن والعسل والشحم والودك وتحمل كل ذلك السفن إلى طرابلس وجربة وما بإزائها من البلد، ومن هذا الجبل غالب أدامهم ولحمانهم" ، ويطرق هذا الجبل بكثرة لرخس أسعاره لجهل أهله بفنون التجارة فكانوا يبيعون القناطير من السمن مثلاً بالثمن التافه[4].

وبليبيا أيضاً وكمركز تجاري هام مدينة طرابلس أيضاً أين وصفها الهشتوكي[5] في رحلته بقوله:" عليك عندما تصل طرابلس أن تشتري ما تحتاجه من غذاء ولمدة شهرين وخاصة اللحم والطواجين وبشماط والزيت ومن الرز والشعيرية قد لا تجدها "[1].

---

(1)- **مائدية:** وحدة نقد عثمانية استخدمت في الشام والعراق والحجاز ويطلق عليها أيضا "بالماجدية"، نقود الدولة العثمانية في سورية (1516- 1918 ميلادي)، موقع الطوابع والنقود العربية، تاريخ التصفح: 2020/03/30.
https://arabic-coin-stamp.com.

(2)- العياشي، المصدر السابق، ج1، ص:22.

(3)- المصدر نفسه، ج1، ص:22.

(4)- محمد ماكمان، الرحلات المغربية، ص:22.

(5)- **الهشتوكي**: هو أحمد بن محمد بن داود الجزولي التملي نسباً، احوازي لقباً، الهشتوكي شهرة ولد سنة 1057 هـ، وقد ترجم لنفسه في فهرسته قرى العجلان عن اجازة الأحبة والأخوان. وقد دفعته رغبته في طلب العلم إلى التنقل إلى حواضر المغرب وزواياه، ومن شيوخه: محمد بن ناصر الدرعي، محمد الكبير الدادسي، حتى صار من جملة مدرسي الزاوية الناصرية وأحد الأساتذة للتدريس بالسودان فقضى حياته بين العلم و القضاء والفتوى والتأليف إلى سنة 1127هـ. وقد أشاد الشيخ محمد الحضيكي بمجهوده العلمي وعمله الدؤوب قائلاً: :" أحد العلماء الراسخين ذو حزم وعزم وجد وعبادة ودين متين وتصرف صحيح وتحقيق دقيق، صاحب المشايخ وخدمهم ولقي أعيان علماء المشرق والمغرب واقتبس منهم واقتبسوا منه". ينظر: الحضيكي (ت 1189هـ/

ولأهمية التجارة مع الحجاج جاءت رغبة سكان الجبل الأخضر ملحة للمتاجرة معهم إما مباشرة أو بواسطة شيوخ العشائر الذين يتصلون بأمراء الركب لإقامة السوق في أمن وسلامة، وقد أشار الهشتوكي لهذا في رحلته حينما رغب أحد المشايخ(2) بسيدي خالد عمالة بسكرة الذي وجه رسالة إلى أمير الركب المغربي " عمر بن هاشم ": يؤكد فيها بأن قومه يحترمون الحجاج، ليزيل مخاوف الركب، وأنه على نهج أبيه في إتباع سيرة والده في التعامل مع وفد الله، وقد تولى الهشتوكي الإجابة عليها بنفسه وشرح فيها أسباب الإبطاء في فتح السوق مع الأعراب(3).

وقد تناول العديد من الرحالة الحديث عن العملات المستخدمة في العهد العثماني وفي العديد من الأمصار الإسلامية، فعلى سبيل المثال بولاية طرابلس الغرب خلال القرن السابع عشر يورد العياشي شهادة في النصف الأول من القرن السابع عشر عن عملة ومكيال تلك البلاد :" وبيع الزارع بسبعة قروش(4) للأردب (5)،، وقال:" بيع الزرع والقمح بسبع أصوص(6) بريال"(7) .

=2006م)، **طبقات الحضيكي**، تح: أحمد بومزكر، دار البيضاء: مطبعة النجاح،ط1: 1427هـ/ 2006م، ص ص: 89، 90، محمد ماكمان، الرحلات المغربية، ص: 222، خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج7، ص: 18.

(1)- كانت هذه المناطق تتأثر بالأوضاع الاقتصادية الصعبة التي فرضها الدايات والولاة على سكان الإقليم أثناء الحكم العثماني حتى يتمكنوا من تسديد الأموال المفروضة عليهم من الدولة العثمانية بسبب النشاط البحري الجهادي في البحر المتوسط والذي كلف أموالاً طائلة مما كان له أثر سلبي على خزينة الولاية. ينظر: أحمد الهشتوكي، رحلة الهشتوكي، ص: 254، نقلا عن علي مفتاح إبراهيم منصور، الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي، ص: 398.

(2)- يسمى هذا الشيخ ب" **الشيخ القيدوم ابن بوعكاز** " ينظر محمد ماكمان، المرجع السابق، ص ص: 89، 90.

(3)- أحمد الهشتوكي، الرحلة الأولى، ص: 155، في هذه المراسلة اجتهد الهشتوكي في تنميق كتابه، فقال بعد الحمدلة والديباجة: وأنهي إليكم أن كتابتكم العذب الثمين وصل إلينا كما حليت العروس وشعشعت الكؤوس وضحك الزمان العبوس. ينظر محمد ماكامان، الرحلات المغربية، ص: 337.

(4)- **القرش**: هو العملة العثمانية التي كانت مستعملة في ليبيا.

(5)- **الأردب**:ميكال ضخم يستعمل لكيل بعض المحاصيل الزراعية، مثل القمح والشعير والتمر وغيرها، تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، ص: 205 .

(6)- **أصوص**: أص بمعنى نصف الجرة وهي إناء يستخدم لحفظ بعض السلع مثل التمر والزيت وغيره. علي مفتاح إبراهيم منصور، الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي، ص:403.

(7)- المصدر نفسه، ص: 122.

والجدير بالذكر أن العملة الذهبية لم تكن واسعة الانتشار خلاف العملة الفضية والنحاسية التي كانت وسيلة التعامل النقدي في المعاملات التجارية الليبية كالقروش والقرميل[1] والكلب[2] والريال إلى جانب الدينار الذهبي قليل الاستعمال كما أشرنا، وفي هذا الشأن يقول العياشي:" الركب التونسي ضاع لهم جمل فيه قيمة ألف ريال "[3].

وهذا ابن ناصر يشير إلى تلك العملات فقال: " واكترينا رجلاً من الفواجر بأربعة كلاب"[4]، وفي موضع آخر يقول:" بتنا في بن قردان موضع فيه كثرة السواني، وتسوقنا أعراب عكارة وأولاد سيدي عبد النبي وأولاد بن مريم وأولاد نوير قاموا بكثرة من الإبل واشترى الناس خمسة عشر بعيراً بنحو مائتي الريال وواحد وتسعين ريالاً والنصف الريال "، وقال:" واشترى نحو نصف الريال للقفة"[5]. وقد شاركه نفس الوصف عبد الرحمان المجاجي عن أسواق مصر وعجائبها التي لا تنقضي:

وَأَسْوَاقُ مِصْرَ لا يُحَاطُ بِعَدّهَا وَلا يَعْرِفُهَا إِلا أَهْلُ الصّنَاعَةِ

وَفِيهَا عَجَائِبُ وَسِحْرٌ وَغَيْرُهُ وَدُبٌّ وقِرْدٌ يَلْعَبُونَ بِحِيلَـــةٍ

وَثُعْبَانٌ وَاصْطِنَاعُ تَمْرٍ مُعَجّلا[6] وَعِيرٌ يَدُورُ فِي المحافِلِ دَوْرَةٍ

عَجَائِبُهَا لا تَنْقَضِي بِكِتَابَـةٍ وَلا يُحْصِيهَا إِلا فَطِينٌ مُثَبّتٌ

فَسُبْحَانَ مَنْ أَبْقَى فِيهَا السّحْرَ كُلّهُنّ الأُمَمِ الماضِينَ مِنْ كُلّ شِيعَةٍ [1]

---

(1)- **القرميل**: هو الآخر عملة كانت رائجة بليبيا في تلك الفترة.

(2)- **الكلب**: عملة نقدية كانت معروفة في ولاية طرابلس الغرب، وقد سميت بهذا الاسم لأنها على صورة كلب، رحلة ابن ناصر، ص: 78.

(3)- العياشي، المصدر السابق، ص: 176، علي مفتاح إبراهيم منصور، الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي، ص ص: 401، 402.

(4)- رحلة ابن ناصر، المصدر السابق، ص: 83.

(5)- علي مفتاح إبراهيم منصور، المرجع السابق، ص: 403.

(6)- **تَمْرٌ مُعَجَلا**: أصلها من العُجّال، و العُجّال العِجّوْل: أي الكَفُ–اليد– من التمر يستعجل أكله، الجمع عَجاجيل، حسين يوسف موسى عبد الفتاح الصعيدي، الإفصاح في فقه اللغة، ط2:1324هـ/1964م، القاهرة:دار الفكر العربي، ج2، ص: 1150. في هذه الأبيات التي يصف فيها أسواق مصر نجد لها إشارة عند أبي القاسم الزياني في كتابه الترجمانة الكبرى، ص : 211.

وذكر عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري تفاصيل عن العملية الجمركية بمدينة تطوان المغربية حين قام برحلته إلى المغرب، وذكر أن من بين مصادر دخل المدينة القيام بعملية المكس التي اعتبرها عملية مذمومة وقدم معلومات هامة تخص الجانب الحياة الاقتصادية لهذه المدينة حتى لو لم يقصد هو التحدث عنها لان ما ذكره كان نتيجة انفعاله من جراء عملية المكس التي تعرض لها[2] .

وقد أورد ابن حمادوش بعض ذكرا للسلع التي يتم المتاجرة بها بين الجزائر والمغرب الأقصى في تلك الفترة فيقول: "...وكان عندي صندوق فيه ثلاثة وأربعون تزينة شاشية تونسي وسبعة عشر حزام حرير وقصاب زبد فاخذ في المكس مني حزاما حريريا وخمسة وعشرين شاشية زوج تزينات وواحدة وجملة سارميتي في هذه السفرة المباركة ثمانون ومائتا سلطاني ذهباً منها ثمانية وعشرون قرضاً واثنا وخمسون ومائتان لي ..."[1].

يكشف لنا ابن حمادوش في موضوع آخر عن أسعار كراء الاديرة بالمغرب الأقصى فيقول: " ونزلت في فندق السرايري في بيت مقابلة عين الشمال كراؤها ستة وعشرون موزونة في كل شهر فلقيت الشيخ امحمد البناني الفاسي عند باب داره لاني أتيت له بامانة من الجزائر فدفعتها له وافترقنا.."[1].

---

(1)- هذه الأبيات التي يصف فيها الألعاب الحيوانية بأسواق مصر نجد لها إشارة عند أبي القاسم الزياني في كتابه الترجمانة الكبرى في قوله :" وفي الرملية كثير من " حلق " يلعبون هناك في سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القرود ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوان كالدب والحمير والتيوس والكلاب. وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زائد وحيل غريبة، قد سخرت لهم أنواع الحيوانات فقليل من أصحاب الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخراً مذللاً ". ينظر: أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، ص : 211.

(2)- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص:31، فريدة مقلاتي، صورة الآخر المغربي في رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: (لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال) **مجلة إشكالات في اللغة والأدب**، مجلد 8، عدد 4، سنة 2019 ، ص449.

(1)- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص:31، حول القيمة التوثيقية للرحلة ينظر: بكاري عبد القادر، عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة بـ"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، **مجلة عصور الجديدة**، المجلد7، ع: 26، 2017.

(1)- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص:31.

وقد جاءت شهادة الورتلاني عن المجتمع المصري مهمة ومتميزة في المجال الاقتصادي؛ وخاصة مع الصنائع والحرف والأسواق فيقول:" أمر مصر غريب وعجيب في كل الأصناف والأنواع والأجناس، مهما رأيت جنساً فيها إلا قلت إن هذا الجنس هو الذي في مصر،...وكذا أهل الصنائع والحرف فما وَرَدْت قومًا أو سوقاً أو نزاهة إلا قلت أهل مصر موجودون فيه. وهذا من عجائب مصر،...وأرزاقها أكثر من خلقها، ومع كثرة أرزاقها إن من سدَّ عليه الباب في الرزق يدور الأسواق والدكاكين والوكالات والمساجد وغيرها هذا من عجائبها..." [2] ويشاركه في هذا الرأي عبد الرحمن المجاجي صاحب الرحلة المنظومة رحلة المجاجي[3].

ومن أرض الحجاز ومصر وبقلم الرحالة ياقوت الحموي توصف مدينة اليَنْبُع الواقعة على الساحل المقابل للمدينة المنورة، على أربعة أميال منها، بها عيون غزيرة وهي قريبة من طريق الحاج القادم من الشام، وسميت بالينبع لكثرة ينباعها فيها مئة وستون عيناً نابعة، كما سميت بينبع النخل، تميزت بكثرة أشجارها وأنهارها، ومن ورائها جبال شاهقة منها جبل أحد، يقول عنها العياشي إنها أول بلاد الحجاز العامرة، فيها قرى كثيرة ومزارع ونخيل وعيون جارية، عمرانها متصل نحو ثلاثة أيام، بها سوق كبيرة تجلب لها البضائع ذوات الأثمان كالثمار والفواكه والحبوب وغيرها، بها عامل أمير مكة[4].

وخلاصة القول فقد احتفظت كتب الرحلات بالكثير من النصوص الدالة على جوانب النشاط الاقتصادي في بلاد المشرق والبلاد العربية الإسلامية وغير الإسلامية، ونقلت صوراً للملامح

---

(2)- الورتلاني، المصدر السابق، ص ص : 560، 561.

(3)- ينظر: عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي(1063هـ/ 1652م)، **رحلة المجاجي**، تح: سعاد آل سيد الشيخ، مراجعة وتقديم: قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية، دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط1: 1439هـ/ 2017م، ص ص: 114، 188.

(4)- ينظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت: دار الصادر، ط1: 1995م، ج4، ص: 511، العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 296، ابن مطهر يحي بن إسماعيل (1190هـ/1776م-1268هـ/1852م)، **بلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام (1211هـ/1997م)**، تح: عبد الله الحبشي حسني محمد صياف، الإمارات العربية المتحدة- أبوظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1: 2006، ص: 178.

الاقتصادية في كثير من البلدان التي زارها الرحالة، وعرفت بأهم المحاصيل الزراعية والموارد المائية، وأشهر السلع والبضائع والصناعات والمعادن والتجارة والأسواق والعملات والتنظيمات المالية. أما سياسياً فقد شملت طبيعة الحكم والسلطة في تلك البلاد وسياسة الحاكم مع الرعية وسمات السفارات المتبادلة بين مختلف الدول والحكومات إلى غير ذلك من المظاهر الدبلوماسية، بالإضافة للحياة الاجتماعية المتمثلة في المصاهرات والأعياد والاحتفالات، وطبيعة الطعام واللباس والمعمار فكانت الرحلات بمثابة وثائق رسمية وشاهد عيان عن الفترة العثمانية، وهي مادة غنية دسمة وزاخرة للدارسين والباحثين والمؤرخين يستفاد منها في شتى المجالات.

بعد التحدث عن مفهوم أدب الرحلة وتطوره، ودوره في الكتابات التاريخية المعاصرة بمختلف المجالات الحضارية سياسياً وثقافياً اقتصادياً واجتماعياً، سنعرج الآن عن واقع هذا الأدب في تاريخ الإيالة الجزائرية المغاربية خلال الفترة الحديثة، لنتعرف عن مكانته وأهميته فيما بعد من خلال الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وكذلك الحال مع النصوص الرحلية المغربية التي كانت الجزائر مادة دسمة في ثناياها خاصة مع مرور الرحلات المشرقية والحجازية خاصة عبر الجزائر من الطريق البري وجوبا، وقد أسهمت إسهاما كبيرا في توثيق العديد من الجوانب الحضارية للجزائر العثمانية وهو الأمر الذي يتطلب الوقع عندها ودراستها وإبراز قيمتها التوثيقية، زيادة على الرحلات الأجنبية الأوروبية التي حملت هي الأخرى تاريخاً في ثناياها رغم تعدد مقاصدها، وهو ما سيستوقفنا أيضا لإبرازه في الفصل الموالي من هذه الدراسة.

الفصل الثاني:

صورة الجزائر في أدب الرحلة

خلال العهد العثماني

- المبحث الأول: نبذة عن الرحلات الجزائرية خلال العهد العثماني
- المبحث الثاني: نماذج من الرحلات المغربية خلال العهد العثماني
- المبحث الثالث: الجزائر في الرحلات الغربية

إن كتابة التاريخ بشكل عام مدين إلى نوعية المصادر التي ينهل منها المؤرخ[1] بغية دراسة موضوع في إطار زماني ومكاني محدد، ولما كانت دراسة تاريخ الجزائر الحديث ترتكز على مشارب مصدرية متنوعة من الكتب والمؤلفات التاريخية المحلية والأجنبية والسجلات والوثائق الأرشيفية والمراسلات، نجدد أيضا نوع من المؤلفات التي لا تعتبر كتب تاريخ لكنها تحمل في طيّاتها التاريخ وهي كتب الرحلة، ولكون هذا النوع من المصادر هو مرتكز بناء موضوع هذا البحث، فان المنهج يحتم عليّ توضيح موقع هذا النوع من التآليف في كتابة تاريخ الجزائر العثمانية بشكل عام، كما سأخصص دراسة البادية الجزائرية في المراحل الموالية لهذا البحث.

وعليه فإن تطرق المؤرخ لدراسة أي جانب حضاري للجزائر العثمانية خاصة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية تجبره على العودة وجوبًا إلى هذا النوع من الكتب، والتي تنوعت بدورها بين المحلية والأجنبية، العربية والغربية، ولعل أبرزها الرحلات الجزائرية التي كانت في الداخل الجزائري أو تلك المتوجهة إلى خارج الجزائر كالرحلات الحجازية، والأمر نفسه مع الرحلات التي كان الجزائر مسرحاً لها أو جزء منها كرحّالة المغرب الأقصى المتوجهين إلى المشرق بمختلف أعراضها كالحج أو السفارة السياسية وحتى الرحلات التي قام بها الأوروبيون. وسأحاول فيما يلي تبين أهم الرحلات التي عرفتها الجزائر في هذه الحقبة في المستويات الثلاثة جزائرياً، ومغربياً واوربيًا.

المبحث الأول: نبذة عن الرحلات الجزائرية خلال العهد العثماني

عرفت الجزائر العثمانية أدب الرحلة كأدب ثري ومتميز، فنجد العديد من الرحالة الذين كانت أرض الجزائر منطلقا لرحلاتهم داخلياً وخارجياً مشرقا ومغرباً، وإن كانت هذه الحركة قوية في فترات وهزيلة في فترات أخرى، ولكن في ظل السياسة المجحفة في حق أهل العلم ورواده فقد اضطر الكثير من العلماء إلى الرحلة في طلبه، فمنهم من أطال الرحلة وعاد إلى موطنه، ومنهم من قطعها وآثر الاستقرار بالمشرق

[1]- طاهر بن علي، الوثيقة بين التوصيف والتصنيف مقاربة ابستيمولوجية في التعريف، **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، المجلد 8، عدد1، 2015، ص:908.

خاصة مصر والشام والحجاز، وبهجرة هذه النخبة من العلماء تركت فجوة عميقة على مستوى الحياة الثقافية بالجزائر.

وبالرغم مما قيل عن الحياة الفكرية في ذلك العهد، غير أنها لم توصف بالعُقْم المطلق، فقد تركت محصولاً لا بأس به في علوم شتى. ولأن اهتماماتنا منصبة حول ما يعرف بأدب الرحلة بقسميها العلمية والحجازية، وبخاصة مع القرن الثاني عشر هجري (الثامن عشر ميلادي) لما تميز به من غزارة عن بقية القرون في تعدد التأليف في هذا الفن، وبالأخص اتجاه البقاع المقدسة الحجازية، وإجمالا يمكن تقسيمها إلى الرحلات الداخلية والرحلات الخارجية، وسأحاول التطرق إلى كنّهها في ما يلي:

1- الرحلات الداخلية :

وهي رحلات قام بها أصحابها داخل الإيالة الجزائرية وتم تقييدها من قبلهم والتي انطلقت من مختلف جهات الوطن إلى أرجاء أخرى فيه، ويمكن أن نجملها تباعا في ما يلي:

أ- رحلة الباي محمد الكبير لابن هطال التلمساني:

كاتب هذه الرحلة هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني، كان يعمل كاتباً ومستشاراً ومبعوثاً للباي محمـــد الكبير باي بايلك الغرب الجزائري، قتل ابن هطال التلمساني في معركة قام بها عبد القادر ابن الشريف الدرقاوي[1] ضد السلطة العثمانية بالجزائر في فترة شهدت العديد من الثورات ضد حكمهم في أوائل (1219هـ/1804م) [2].

---

(1)- **ابن الشريف الدرقاوي**: هو من أولاد سيدي أبي الليل المرابطين، من العرب القاطنين بواد العبد، ثار على العثمانين وانتصر عليهم في بادىء الأمر واستمر بثورته عليهم لعشر سنوات حتى قضى عليها الباي حسن بن موسى سنة 1232هـ/ 1817م. ينظر: الأغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تح: يحيي بوعزيز، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج1، ط: 1990م، ص ص: 303، 304، فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي، المرجع السابق، ص: 552.

(2)- أحمد بن هطال التلمساني، **رحلة الباي محمد الكبير باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي الجزائري**، تح: محمد بن عبد الكريم، ط1، دار مخيمر للطبع، دار عالم الكتب للنشر، القاهرة، مصر، 1969، ص ص: 13، 14.

أما صاحب الرحلة فهو الباي محمد الكبير باي الغرب الجزائري له العديد من الألقاب منها الكبير، الأكحل، المجاهد المنصور، أبوه هو أبو إسحاق الحاج عثمان بن برايم الكردي، الذي كان خليفة على منطقة مليانة ثم ارتقى بايا على بايلك التيطري، وأمه جارية اسمها زائدة أهداها لأبيه الملك مولاي إسماعيل المغربي لمودة بين الرجلين. وتوفي الباي محمد الكبير في مدينة معسكر ودفن بها بعدما حكم لمدة تسعة سنوات، وقد عرف عنه اعتناؤه بالفقراء والمساكين، وحرصه على الثقافة والمثقفين بالإضافة إلى اهتمامه بالتشييد والبناء[1]، كما انه صاحب الفتح الأخير لوهران سنة 1792م.

أما عن مضمون هذه الرحلة فقد قام بها الباي محمد الكبير إلى الصحراء الغربية للجزائر من أجل مد النفوذ الفعلي للسلطة العثمانية بها، وذكر ابن هطال ذلك في قوله" اعلم انه لما اتفق نظر سيدنا المذكور أطال الله بقاءه وأيامه، وجعل النصر دائما خلفه وأمامه، في جهة القبلة رأى أنها ذات بلدان كثيرة وأعراب راحلة ومقيمة غزيرة، إلا أنها لم تنل أيدي السلطنة ولم يكن منها مصلحة ولا منفعة معينة، كأنها أم أبقت من أهلها أو حرة نشزت من بعلها، فشمر لها ساعد الجد عازما على رد ما بها من النفار والصد، فجمع جموعه وقواده ونشر أعلامه ولم يزد على أن كان جيشه حشمه وخدامه"[2].

والقول السابق لابن هطال يدلنا عن غرض هذه الرحلة هو غرض سياسي يتمثل في محاولة صاحبها مد النفوذ السياسي لربوع وأقطار جديدة لم تكن تحت حكمه، حيث أن زمن هذه الرحلة كان في زمن كثرت فيه الاضطرابات سياسية والثورات الداخلية، وبالتالي هذه الرحلة تؤرخ لحقبة غنية بالأحداث في تاريخ الجزائر العثمانية خصوصا في الفترة الأخيرة لها.

ب– رحلة سيدي عبد الرحمان بن إدريس التنلاني:

يعتبر الشيخ سيدي عبد الرحمان بن إدريس بن عمر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التنلاني. واحدا من أبرز علماء الإقليم التواتي خلال القرن الثاني عشر الهجري. ولد سنة 1181هـ بتنلان وكان عالما في أصول الفقه والتفسير أخذ كل ذلك عن شيوخ عدة نذكر منهم تمثيلاً: الشيخ سيدي محمد، والشيخ

(1)- ينظر: أحمد بن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص: 24 وما بعدها.

(2)- نفسه، ص ص: 36، 37.

سيدي محمد بن أحميد، سافر الشيخ التنلاني إلى فاس وأخذ هناك عن الشيخ سيدي عبد القادر بن شقرون وغيره من أعلام عصره[1]. توفي الشيخ سيدي عبد الرحمان إثر عودته من الحج في شهر جمادي الثانية سنة 1233هـ، مخلفا لنا ديوان شعر به العديد من القصائد إضافة إلى رحلته المشهورة إلى الجزائر العاصمة سنة (1231هـ-1816م).

كتب الشيخ سيدي عبد الرحمان بن إدريس التواتي رحلته المشهورة والتي قادته فيها المسيرة إلى الجزائر المحروسة بتاريخ أول شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف(1231هـ) (1816م) . وهو تاريخ الانطلاق من زاوية جده بتنلان مرورا ببلدة تيميمون وشعانبة متليلي[2] ثم بلاد بني مزاب بغارداية أولا وكذا مدن المدية والبليدة وأرض متيجة ثانيا ووصوله أخيرا مع طلوع فجر يوم الأربعاء إلى الجزائر المحروسة. ولسنا ندري هل كانت غاية الرحالة هي الحج أم مدينة الجزائر فقط [3].

وتعتبر رحلة عبد الرحمان بن إدريس التنلاني مصدرا ظهر حديثاً تم الكشف عنه وابرز القيم التاريخية التي كشف عنها هي حملة اللورد" اكسموث" على مدينة الجزائر إذ تعتبر هذه الرحلة اكبر مصدر محلي فصل في الحملة الإنجليزية على مدينة الجزائر، وأورد أخباراً لم يتناولها مصدر معاصر للحملة وهو القنصل الأمريكي وليام شالر.

---

(1)- **رحلة الشيخ سيدي عبد الرحمان بن دريس التنلاني**، مخطوط، خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام (أدرار) الورقة1، وجها.

(2)- **متليلي**: أصل التسمية يرجح أن بعض أعراش الشعانبة حينما وفدوا من شبة الجزيرة العربية مكثوا بناحية "فزان "في ليبيا وفي منطقة اسمها " واد ليلي" ، حيث شيدوا قصراً هناك، وصادف أن هاجر نفر من هناك إلى منطقة متليلي الحالية، فوجدوا تشابه المنطقة بمنطقة فزان لوجود واد بها وأرض خصبة، فقيل هذه بقعة "مثل ليلي" وبفعل التداول الكلمتان لتصبح متليلي، وأول من سكنها الأخوين ثامر وطريف ذو الأصول العربية " بطون بني هلال"، وتوافدت عليهم بطون وأعراش أخرى فتألفت منها قبائل الشعانبة. ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 90، الشيخ لكحل، **مقاومة منطقة متليلي الشعانبة للاستعمار الفرنسي في الفترة ما بين (1851– 1908م)**، متليلي- غرداية: دار صبحي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1: 2019م، ص ص: 35، 36.

(3)- ينظر: عبد الرحمان بن دريس التنلاني، **رحلة عبد الرحمان بن دريس التنلاني التواتي الجزائري إلى الجزائر**، المصدر السابق، ص: 226 وما بعدها.

جـ- رحلة ابن زرفة (الرحلة القمرية (1792م):

وهي رحلة داخلية هي الأخرى قام بها هذا الشخص المسمى بابن زرفة الذي شحت المصادر في التعريف به، غير انه كان يعمل بديوان الباي محمد الكبير بايُ بايلك الغرب، كتب رحلته ليهديها لهذا الباي، حيث تعتبر هذه الرحلة رحلة ذات طابع عسكري، فقد تتبع فيها مراحل الفتح الأخير لمدينة وهران من يد الأسبان على يد الباي محمد الكبير أشهر بايات بايلك الغرب الجزائري، ودقق في وصف ما جرى بالتفصيل حيث كلفه الباي بمتابعة الحصار الذي ضرب على المدينة ونقل لنا ابن زرفة حيثياته، وكان هذا الأخير همزة وصل بين الباي وعديد طلبة العلم المقيمين بالزوايا الذين شاركوا في الحملة العسكرية وفي حصارها[1]، ويمكن أن نجمل القول عن هذه الرحلة أنها رحلة داخلية ذات طابع سياسي عسكري بحت، تحكي فصول أحد أهم المراحل في تاريخ الجزائر العثمانية.

د- رحلة ابن الدين الأغواطي (1242هـ/1826م) :

لعل آخر هذه الرحلات الداخلية وغير الحجازية هي رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء. صحيح أنه زار الجزيرة العربية أثناء أدائه لفريضة الحج، غير أنه تحدث عنها بصفة مختصرة، لأن لب الرحلة يتكلم فيه عن أخبار الصحراء الجزائرية وما جاورها من القرى والمدن بواحاتها وعادات أهلها، كمدينة الأغواط وعين ماضي وتاقدامت، وجبل عمور، ومتليلي، وواد ميزاب، والقليعة (المنيعة)، وتقرت، وورقلة وتوات، وتيميمون، وعين صالح، وغدامس، وشنقيط، وقابس والدرعية، وجزيرة جربة، وحسب هذه الاعتبارات فهذه الرحلة في غاية الأهمية؛ لأنها كتبت في حوالي 1242هـ/1826م، مع وجود بعض الاختلاف بين المؤرخين في هذا التاريخ[2] .

---

[1]- ينظر: ابن زرفة، المصدر السابق، ص ص: 147، 149، ينظر: درعي فاطمة، العالم مصطفى الدحاوي ورحلته القمرية، **مجلة الحوار المتوسطي**، ع:(13،14)، ديسمبر 2016، ص ص: 150، 162.

[2]- أبو القاسم سعد الله ، **مجموع رحلات (ضمنها رحلة ابن الدين الأغواطي محققة)**، الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، طبعة خاصة: 2011م، ص: 83.

بالإضافة إلى ما روي أن سبب كتابتها يرجع لطلب من القنصل الأمريكي لدى الجزائر" وليام هودسون"، وهي تقع في كراسة تضم أربع عشرة صفحة، وقد طلب هذا القنصل من ابن الدين تدوين المزيد لكنه اكتفى بذلك، وأغلب الظن أن ابن الدين كتب أكثر مما عُرف، ولكنه لخصه على ما رآه كافياً، فترجمة تلك النسخة إلى اللغة الإنجليزية بطلب من القنصل[1]، ولهذا كانت مصدراً هاماً لدى الأوربيين والأمريكيين في سلسلة اكتشافاتهم في الصحراء، وبالأحرى أنها كانت بعد ذلك محل استغلال لأغراض استعمارية، وإذا كان ما نشر منها ذا أهمية فما خفي ولم يظهر من الرحلة كاملة أهم، وبخاصة إن تابع ابن الدين كتاباته عن مغامراته و إطلاعاته في المشرق والصحراء الجزائرية[2].

وتعتبر هذه الرحلات التي تم التطرق لها ابرز الرحلات الداخلية التي حدثت خلال الحقبة الحديثة من تاريخ الجزائر، ولكي تكتمل الصورة يتوجب الآن المرور إلى الرحلات الخارجية التي قام بها الجزائريون في ذات الفترة.

2- الرحلات الخارجية

تعددت الرحلات الخارجية التي قام بها الجزائريون وتنوعت أكثر من تلك التي تمت داخل القطر الجزائري، والتي كان الحجاز أهم مقاصدها زيادة على تلك التي اتجهت إلى بلاد المغرب الأقصى والتي من أهمها رحلة ابن حمادوش الجزائري ونستعرضها فيما يلي:

أ- رحلة ابن حمادوش الجزائري:

تعدُّ رحلة عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري من الرحلات المكتوبة، عاش صاحبها خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر ميلادي)، ولد بمدينة الجزائر سنة

---

[1]-كما ترجمها السيد "دافيزاك" إلى الفرنسية عن النص الإنجليزي ونشرها مع تعليقات وتصحيحات هامة، يقول عنها أبو القاسم سعد الله في الهامش إنها طبعت في لندن بدون تاريخ، ثم لخصتها مجلة أمريكا الشمالية في يوليو 1248هـ/1832م، وترجمة الخلاصة إلى الفرنسية في حوليات الرحلات الجديدة في نوفمبر(1248هـ/1832م)، أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي تاريخ الجزائر الثقافي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1998م، ج2، ص: 386.

[2]- المرجع نفسه، ج2، ص:387 .

(1107هـ/1695م)[1]، وأتم تعليمه الأولي بها، كما حصل قدراً من العلوم الشرعية كمعاصريه قراءة وإجازة، في علم الفقه والنحو والتصوف والأدب والتاريخ، غير أنه انفرد عنهم بتخصصه في الجانب العلمي كدراسة العلوم الطبية والرياضية (فقد درس لابن سينا، وإقليدس والقلصادي وغيرهم من علماء المسلمين واليونان)، فأصبح صيدلياً وطبيبا. ولهذه الميول العلمية[2] التي ميزته، جعلت مؤلفاته يغلب عليها ذلك الطابع المخالف لما شاع عند معاصريه، ومن بين ما ألفه في هذا الشأن: تأليف في الأعشاب (لعله هو كشف الرموز[3] المطبوع) الإسطرلاب[4] والسبع المقنطر، الجوهر المكنون (في الطب)[5].

أما عن رحلاته فقد بدأها منذ بلوغه العشرين من عمره، أخذ يجوب فيها العالم الإسلامي، وقد استهلها بأداء فريضة الحج سنة 1125هـ/1713م[6]، كما كرر ذلك مرة ثانية في سنة 1130هـ/1718م،

---

(1)- أما عن تاريخ وفاته فلم يضبط، ويرجح المؤرخون أنه توفي في المشرق، مابين 1197هـ/1782م و1200هـ/1785م، ينظر: أحمد السليماني، **تاريخ مدينة الجزائر** (يتعرض إلى ماضي مدينة الجزائر من النواحي الحضارية والاجتماعية والسياسية والثقافية)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 2000م، ص: 75.

(2)- غير أنه مارس التجارة إلى جانب اتصاله بالعلماء، و حرصه على اقتناء الكتب بالشراء وبالنسخ، ينظر: ابن حمادوش عبد الرزاق(ت1197هـ/1782م)، رحلة ابن حمادوش الجزائري (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)، المصدر السابق، ص ص: 70، 71.

(3)- قال المؤرخ " ليكليرك "، عن كتاب " كشف الرموز "، بأنه يشكل صفحة هامة في تاريخ الطب، وذلك لأنه ذكر أدوية أوروبية، أصبحت متداولة في الجزائر آنذاك، أحمد السليماني، تاريخ مدينة الجزائر، ص: 77.

(4)- **الإسطرلاب**: أو أصطرلاب، وأصل الكلمة يونانية من "أسترلابوس "، أطلقت على عدة آلات فلكية تنحصر في ثلاث أنواع رئيسية، فأول إسطرلاب صنع هو الإسطرلاب السطحي أو المسطح ويسمى بالعربية (ذات الصفائح) يتألف من الأجزاء التالية: الأم، الأقراص المستديرة، العنكبوت أو شبكة المسطرة، المحور، وغيرها والإسطرلاب أهم ما يرصد به هو النجوم، وقد مهد السبيل فيما بعد هذا إلى حل جميع مسائل علم الفلك الكبرى دون التجاء إلى العمليات الحسابية، **دائرة المعارف الإسلامية**، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس، **دائرة المعارف الإسلامية**، دار الشعب،ج3، ص ص: 300، 304.

(5)- ذكر له أبو القاسم سعد الله حوالي أربعة عشر مِلف أغلبها في الطب، والفلك، والحساب، وجل هذه الكتب مذكورة في رحلته أبحاث وأراء، ص ص: 226، 227.

(6)- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص: 9.

ولكنه لم يذكر شيئاً عن تلك الحجات في الجزء الثاني المحقق من الرحلة المطبوعة حالياً، بل خص رحلته تلك للمغرب الأقصى[1]، قام بها لطلب العلم والتجارة معاً، من مدينة الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس، ثم عاد بعدها إلى الجزائر، ومع هذا فهذه النسخة هي الأخرى غير تامة مبتورة أحد الأجزاء، ولأن ابن حمادوش اشتهر بتسجيل دقائق الأمور وتفاصيلها، فقد رجح بعض المؤرخين أنه تكلم في الجزء الأول عن أوضاع الجزيرة العربية أثناء حجاته، وبخاصة أنه توفي وعمره يناهز تسعين سنة، و لكن يبقى الإشكال وارداً أين بقية أجزاء الرحلة ؟[2].

أما عن الفائدة التي يمكن أن تذرها هذه الرحلة؛ فهي جمة ثرية المقاصد يمكن الاستفادة منها حتى في الجوانب السياسية لتلك الفترة، فقد تكلم فيها عن باشاوات الجزائر وسلاطين الدولة العثمانية، والصراع الاسباني العثماني وغيرها، أما اجتماعياً فنجده قد أطنب في الكلام عن عقود الزواج بالجزائر، والعادات المتبعة آنذاك من احتفالات المولد النبوي وليلة القدر، وما اتصل بهما من مراسيم، وأما ثقافياً فهي غنية ومتميزة، خاصة مع شغفه بالجانب العلمي واسترساله في الحديث عنه، فقد سبقت في الأهمية المجال السياسي[3] والاجتماعي، ولكنه لم ينسَ في خضم ذلك العلم الشرعي كغيره، حيث تكلم عن المشايخ والعلماء الذين لقيهم واستجاز منهم[4].

وعليه فتعتبر رحلة ابن حمادوش أهم رحلة خارجية غير حجازية جعلت المغرب الأقصى هدفاً لها، ولكن بالمقابل فقد تعددت الرحلات الحجازية التي تعُدُّ إذا ما قورنت بالسابقة أكثر حظاً ووفرة

---

[1]- لقد وجد ابن حمادوش في المغرب إبان الاضطرابات الخطيرة التي عاشها المغرب الأقصى بعد وفاة المولى إسماعيل (1140هـ/1727م-1171هـ/1757م)، ولكن ذلك لم يمنعه من التنقل والتجوال عبر عدد من مدن ومناطق المغرب ممارساً نشاطه العلمي في ظروف تكاد تكون عادية، عمار هلال، **العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنيين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3هـ)**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1995م، ص: 172.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص:182، 183، سعيدوني، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1999م، ص: 433.

[3] - مثل حادثة أحمد الريفي قائد تطوان تولى الحكم فيها 1125هـ/1713م، عزل ثم أعيد توليتها سنة 1145هـ/1732م، وظل عليها حتى قتل، ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 75.

[4] - ابن حمادوش، المصدر نفسه، ص ص: 238 ،241.

نسبياً، وهي الأخرى تنقسم إلى قسمين: الرحلات النثرية، والرحلات الشعرية أو النظمية، لكن هذه الأخيرة لا تدخل في صلب اهتماماتنا لكون أن اغلب أصحابها سافرو بأشعارهم ولم يقوموا بها فعلا باستثناء رحلات قلة كرحلة عبد الرحمن بن محمد بن خروب المجاجي ورحلة المصعبي بالشعر الفصيح وابن المسايب بالشعر الملحون.

ولهذا فان مصطلح الرحلة بهذا المعنى ارتبط بالرحلات النثرية لا الشعرية ذلك لأن أصحابها سجلوا فيها انطباعاتهم عما سمعوه وشاهدوه، ليس في الحجاز فقط ولكن في مختلف المدن والأمصار التي مروا بها من الجزائر حتى بغداد مرورا بتونس وطرابلس ومصر والجزيرة العربية والشام والقدس وغيرها من الأقطار. وأقرب من اتخذت هذا الوصف من الرحلات رحلة الورتلاني وأبي رأس الناصري، وكان ذلك من إنتاج القرن الثاني عشر هجري (الثامن عشر ميلادي)، لأنه لم يعرف أن أحداً من العلماء الجزائريين سجل رحلة حجازية نثرية خلال القرن العاشر والحادي عشر هجري(السادس عشر والسابع عشر ميلادي)[1]، بالرغم من أن أمثال عبد الكريم الفكون ظل طول حياته تقريباً يقود ركب الحج الجزائري من قسنطينة إلى الحرمين الشريفين، لا يعرف عنه أنه كتب رحلة، على الرغم من أنه كتب في الصرف والنحو والشعر والتراجم وغيرها[2].

ب- رحلة البوني (1099هـ/1687م):

وأول رحلة حجازية تكلمت عنها المصادر التاريخية، هي رحلة البوني المسماة " الروضة الشهية في الرحلة الحجازية "، وصاحبها هو أبو العباس أحمد بن القاسم بن محمد ساسي التميمي البوني، من

(1)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص ص: 387. 390.

(2)- الفكون عبد الكريم بن محمد (ت1073هـ/1662م)، **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، تح: أبو القاسم سعد الله، بيروت: منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1: 1969م، ص ص: 35، 141، أبو القاسم سعد الله، **شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1406هـ/ 1986م، ص ص: 69، 74.

كبار علماء الحديث والفقه المالكي، ولد ببونة[1] المعروفة بعنابة في الشرق الجزائري سنة 1063هـ/1652م، وتوفي بها أيضاً سنة 1139هـ/1726م، رحل إلى المشرق وعاش بها فترة طويلة من الزمن، ولاسيما بتونس ومصر والحرمين الشريفين، فقرأ على عدد من العلماء أجاز وأجيز عنهم، فأهله ذلك لتصدر منصب الإقراء بالأزهر الشريف، ولما عاد للجزائر أخذ عن جملة من العلماء، ليكون بعدها قبلة لطلبة العلم الذين كانوا يأتونه من كل حدب وصوب من كل جهات البلاد، متزاحمين على حلقاته[2]، ومع هذا لم ينشغل عن التأليف، بل بلغت تآليفه أكثر من مئة مؤلف منها كتابه:" فتح الإغلاق على وجوه مسائل الخليل بن إسحاق"، و" إعلام الأحبار بغرائب الأخبار" و"الدرة المكنونة في علماء بونة "[3].

أما عن مضمون الرحلة فقد ذكر أحمد الزروق نجل البوني بأن والده قد تحدث عن شيوخه في رحلته، وعددهم يزيد عن العشرين شيخاً، وقد نصح القراء بقراءة هذه الرحلة في قوله: « فعليك به (أي التأليف) فإن فيه طرفاً وظرفاً»[4]، ولكن مع ما تحمله هذه الرحلة من أهمية فهي تعد من الرحلات الضائعة، و مع هذا فإن البوني قد حج وتجول في المشرق، كما عرف عنه من خلال المصادر التي نقلت ذلك، والأكيد أنه تناول فيها المنازل والمسالك التي مر بها ونحو ذلك، ومما يؤكد هذا

---

[1]- **مدينة بونة**: تقع على مقربة من نهر سيبوز، ويشرف عليها جبل أيدوغ، توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، القاهرة: دار المعارف-البليدة: نشر دار الكتاب، ط2: 1963م، ص: 208.

[2]- العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني،**في مجلة سيرتا**، السنة الثانية، قسنطينة: مطبعة البعث، السنة الثالثة، ع:3: رجب 1400- ماي 1980، ص ص: 58، 76.

[3]- ينظر: محمد مخلوف، شجرة النور، ص: 329، أبي القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، بيروت: مؤسسة الرسالة العتيقة، ط2: 1406هـ/1985م، ج2، ص ص:215، 522، عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، بيروت: مكتب التجاري لطباعة، ط1: 1971م، ص ص:33، 34، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1: 1414هـ/1993م، ج2، ص ص: 49، 85.

[4]- يوجد مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء، ص: 199.

الافتراض ما قاله ابنه أحمد الزروق أن فيها طرفاً و ظرفاً، أي أنها لا تخص المسائل العلمية وتراجم الشيوخ فقط فهي تحوي أكثر من ذلك[1].

جـ- رحلة ابن عمار (1166هـ/1752م):

أما الرحلة الموالية فهي رحلة ابن عمار المسماة « نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب»[2]، وصاحبها هو أبو العباس أحمد بن عمار بن عبد الرحمن بن عمار الجزائري، العالم الفاضل المشتغل بالحديث والتاريخ، ولد ونشأ بمدينة الجزائر في حوالي سنة 1119هـ/1707م، وعاش إلى ما بعد سنة 1205هـ/1790م ولم تحدد المصادر تاريخاً معيناً لوفاته، أوكل لمنصب الإفتاء بمسقط رأسه، وأدى فريضة الحج في أوائل سنة 1166هـ/1752م[3]، ثم ذكر بعدها أنه جاور بالحرمين الشريفين مدة عشرين سنة[4] وصل فيها حتى سنة 1172هـ/1758م[5]، وهذه الإقامة الطويلة بالحجاز جعلته يربط علاقات متينة مع علمائها، فتبادل الإجازات والتقاريظ[6].

---

[1]- المرجع نفسه، ص:182، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص ص: 390، 391.

[2]- يوجد مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة (الحامة)، تحت رقم:2757، فيه 97 ق، غير أن هذا المخطوط يقتصر على الجزء الأول فقط من المؤلف، وهو "المقدمة"، يذكر اسم الرحلة فيه في و 2ظ.

[3]- وفي هذه السنة أخبر زميله حسين الورتلاني صاحب الرحلة أنه كان رفيقه بمصر وقرآ معاً على يد الشيخ خليل المغربي في مسجد الحسين، الورتلاني، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (رحلة الورتلانية)**، تصحيح: محمد بن أبي شنب، جزائر، مطبعة الشرقية، ط: 1326هـ/1908م، ص: 286.

[4]- ومنهم من قال أثنتي عشر سنة فقط، وعاد منها إلى الجزائر سنة 1178هـ/1764م، وتولى الفتوى المالكية سنة 1180هـ/1766م، ولكنه عزل في نفس السنة وأعيد فيها من جديد في نفس السنة، ومكث بها إلى سنة 1184هـ/1770م، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص:226.

[5]-عبد الحي الكتاني، **فهرس الفهارس والإثبات والمعاجم والمشيخات والمسلسلات**، باعتناء: إحسان عباس، بيروت :دار الغرب الإسلامي، ط2: 1982م، ج1، ص: 122، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 226.

[6]- ومن جملة تلك التقاريظ، ما كتبه للوزير أبي محمد حمودة بن محمد بن عبد العزيز التونسي ت1202هـ/1787م، على رسالة رد بها على أسئلة بعض علماء قسنطينة، في مسائل في علم الكلام في سنة 1196هـ/1781م، الوزير حمودة، **الكتاني الباشي**، تح: محمد ماضور، تونس: الدار التونسية للنشر ط: 1970م ج1، ص ص: 19، 20 .

ومن أهم الآثار التي ذكرت عنه كتابه " لواء النصر في علماء العصر"[1] ترجم فيه لجملة من علماء القرن الحادي عشر والثاني عشر هجري(17م/18م)، ولكنه اشتهر برحلته المذكورة سالفاً. وقد قسم ابن عمار رحلته إلى ثلاثة أقسام، وأطلق عليها اسم "مقدمة" و"غرض مقصود"، و"خاتمة"[2]، ففي المقدمة وهي الجزء الوحيد الموجود من الرحلة التي تم طبعها، وصف المؤلف فيها أشواقه للبقاع المقدسة وللرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كما تحدث فيها عن النوادر وموشحات الشعر المولدية والمدائح النبوية، وعادات أهل الجزائر أثناء الاحتفال بالمولد النبوي، كما تحدث عن الداعي للرحلة وسبب تسميتها ب: « نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب»[3]، مبيناً من خلالها الضرورة الشرعية لأداء فريضة الحج، مستشهداً بآيات قرآنية وأحاديث مأثورة وعبر عن عزمه على الحج تلك السنة أي في أوائل سنة 1166هـ/1752م[4]، وبدل أن يستمر في الحديث عن الرحلة، ومنازلها من الديار والمدن والقرى وغيرها، كما فعل الآخرون؛ آثر تخصيص شطرها للكلام عن المولد النبوي في الجزائر قديماً وحديثاً وحتى عن عادة الأندلسيين في ذلك، ثم ترجم للعديد من الأدباء والشعراء من أهل بلده وغيرهم، ليختمها بقطع شعرية من مختلف أشعار المغرب والمشرق في النرجس والورد[5] حتى بلغت المقدمة وحدها حين طبعت (254) صفحة من الحجم المتوسط وكأنه قصد حشوها بتلك القصص والروايات لأجل التفرغ للهدف الأساسي للرحلة عامة في القسم الثاني وهو "الغرض المقصود "، والمؤلف نفسه يذكر بأنه تناول فيه «ما يحدثه السفر إلى الإياب وحط الرحال»، ومعنى هذا أنه

(1)- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص ص:31، 32.

(2)- ابن عمار(ت بعد 1205هـ/1790م)، **"نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"** مقدمة مخطوط، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2757، و1ظ.

(3)- الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص ص: 89، 90، الكتاني، المرجع السابق، ج1، ص: 121، 122، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 230.

(4) - ابن عمار، نحلة اللبيب، و 3 ظ، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ص ص:183، 185.

(5)– ابن عمار، نحلة اللبيب، و87 و، و97 ظ.

تحدث في هذا القسم عن رحلته من الجزائر عبر تونس وطرابلس ومصر حتى أرض الحجاز والعودة منها[1].

وما دام المؤلف جعل "المقدمة" في ذاك الحجم المذكور سالفاً، فالأكيد أن هذا الجزء أكبر حجماً، إن لم يكن مضاعفاً، ولأنه مفقود لا يستطيع أحد أن يتكهن بقيمته التاريخية أو الأدبية، حاله حال الجزء الأخير من الرحلة وهو" الخاتمة" التي جعل فيها كما قال: «ما نشأ عن ذلك (يعني السفر) وما انظم إليه». وأغلب الظن أن ابن عمار قد أكمل الرحلة لسببين: أولاً أن تلميذه أباَ رأس الناصري قد وصف أستاذه بما يدل على أنه أكملها وأصبح اسمه مرتبطاً بها. وقد سجل في مذكراته سنة 1204هـ/1789م، أنه التقى بابن عمار، كما وصف رحلة هذا الأخير بأنها « جمة الفوائد، حلوة الموائد، عذبة الموارد»، وهذا دليل كافٍ يؤكد على أن ابن عمار قد أتمها، ولولا ذلك ما قال أبو رأس عبارته تلك. والسبب الثاني هو أن ابن عمار عاش حوالي أربعين عاماً بعد حجته سنة (1166هـ/1752م)، فلا يمكن من الناحية النظرية لما عرف عنه من جد وحزم أن لا يكمل رحلته خلال تلك المدة، ولأنه عاش فترة زمنية طويلة بالحرمين الشريفين وبمصر وتونس فمن المحتمل أن تكون هناك نسخ لتلك الرحلة بهذه البقاع[2].

د- رحلة أبي رأس الناصري (1204هـ/1789م):

لعل من بين أهم العلماء الجزائريين الذين أكثروا الترحال والكتابة تلميذ ابن عمار المسمى محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري، المعروف بأبي راس الناصري، ولد في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة (18م)، قرب جبل كرسوط بالغرب الجزائري، أخذ بذور تعليمه الأول بالمغرب الأقصى، ثم بمسقط رأسه بمعسكر، ولما اشتد عوده في العلم اشتغل بمهنة التدريس، قام بحجته الأولى سنة (1204هـ/1789م)، أخذ فيها عن جملة من علماء الجزائر تونس ومصر والحرمين الشريفين والشام، فرفعت تلك الرحلة من مقامه، لينشغل بعدها بالتأليف في فترات

---

[1]- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص ص: 391، 392.

[2]- المرجع سابق، ج2، ص ص: 391، 392.

متفاوتة ومع ذلك لم تنقطع رحلته في طلب العلم، كان من حين لآخر يتذاكر بعض المسائل مع شيوخه من المغرب الأقصى[1].

ولأبي رأس كتب كثيرة في التاريخ وغيره، بعضها موجود وبعضها فقِد، قال عنها أحد تلامذته إنها تزيد عن الخمسين مؤلفاً، منها كتب التراجم وأخرى في التاريخ العام أذكر منها: "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار "حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي"، "زهرة الشماريخ في علم التاريخ"، "العز المتين في ذكر ملوك بني مرين"، "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية (وهي أصلاً قصيدة تاريخية) "[2].

إلى جانب هذه المؤلفات التاريخية تميز أبو رأس برحلته التي عنوانها بـ (فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته) [3]، وهذه الرحلة كما صنفت سابقاً هي رحلة حجازية، قسمها صاحبها إلى خمسة أبواب، تحدث في بابها الأول عن طفولته وتعليمه، وحالته الأسرية من زواجه وحجاته الحجازية، أما الباب الثاني فقد خصه لشيوخه والعلماء الذين التقى بهم وأجازوه أو ناظرهم، مستهلاً بوالده مروراً بعلماء الجزائر والمغرب ثم تونس ومصر والحجاز والشام .

أما الباب الثالث فقد خصصه لرحلته بالمشرق وما تعلق بها، ولعل هذا الباب هو الذي أطلق عليه اسم « حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي »[4]، وفي هذا الباب بالذات ظن البعض أنه كتاب خاص

---

(1)–كما كانت لأبي رأس رحلات للمغرب الأقصى، في سنة 1216هـ/1802م، حيث زار السلطان المغربي سليمان وأهدى له العديد من المؤلفات منها " روضة السلوان المؤلفة بمرسى تطوان ".

G.faure-Biguet, « Notice sur le Chikh Mohammed Abou Ras », **Journal Asiatique**,(septembre-octobre) 1899, série 9, tome 14. paris: Imprimerie national, p :311,318.

ينظر: محمد أبو رأس الناصري (ت 1238هـ/1823م)، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته أو "حياة أبي راس الذاتية"**، تح: محمد بن عبد الكريم، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 1990م، ص: 105.

(2)– أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء، ص ص:83 ،92.

(3)– الهاشمي بن بكار، **كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب**، تلمسان: مطبعة ابن خلدون، ط:1371هـ/1961م، ص: 13، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 146.

(4)– هذه الجزئية فيها اختلاف في الرأي عند أبو القاسم سعد الله مرة يقول أنه مؤلف مستقل، ومرة أخرى يعتبره كباب من أبواب كتاب فتح الإله، ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص:393، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ص ص: 185، 186.

بالرحلات لأبي رأس، أما الباب الرابع فقد تناول فيه الأسئلة التي وردت إليه، أو ألقيت عليه أثناء تنقلاته، كما ذكر الأجوبة عنها، وفي الباب الخامس والأخير ذكر فيه تآليفه مرتبة حسب المواضيع ومادتها.

وخلاصة القول في هذا المقام، يعد كتاب «فتح الإله »، أفضل المصادر التي ترجمت لصاحبها، ومنها عرف أحوال عصره وعلمائه، سواءً أكانوا أساتذة أو زملاء إلى جانب معلومات أخرى تخصه شخصياً، بالإضافة إلى أخبار أخرى عن الجزائر والمغرب الإسلامي والمشرق عامة، فهذا الكتاب لا غنى عنه لدراسة وفهم هذه الشخصية «وقد ذكر فيه أنه سار فيه على نهج السيوطي، الذي ألف كتاباً ترجم فيه لنفسه[1]، كما اقتدى في رحلاته بالرحالة المغاربة أمثال: ابن الرشيد، وابن مرزوق الخطيب، والعياشي»، ليختم حياته العلمية بكتاب سماه« إسماع الأصم»، والذي انتهى منه سنة1234هـ/ 1818م، أي حوالي خمس سنوات فقط قبل وفاته أي في سنة(1239هـ/1823م) [2] .

هـ- رحلة الورثلاني:

أما رحلة الورثلاني فقد أخرت الحديث عنها، بالرغم من أنها من حيث الترتيب الزمني متقدمة عن رحلة أبي رأس الناصري، ويرجع ذلك لكونها الرحلة الوحيدة التي تتحدث بإسهاب حول أحوال الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري(18م) إلى جانب كونها موجودة ومطبوعة في شكلها الكامل على خلاف رحلة ابن عمار التي لا يوجد منها سوى المقدمة- كما أسلفنا- ولهذه الاعتبارات سنقف عندها وقفة مطولة على غرار سابقيها.

ولد صاحب هذه الرحلة الجزائرية الحسين بن محمد السعيد المعروف بالورتلاني[3].

---

[1]- ترجم أبو رأس الناصري لنفسه في كتابه (فتح الإله)، ترجمة وافية وصل في حديثه حتى حجته الثانية؛ أي قبل وفاته بحوالي عشر سنوات، وقد تأثر في ذلك بالسيوطي الذي ترجم لنفسه في كتابه (نزول الرحمة في التحدث بالنعمة)، محمد أبو رأس الجزائري فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص ص:91، 120.

[2]- أبو راس الناصري، فتح الإله، ص:61، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ص ص: 25، 127.

[3]- الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 471 .

نسبة إلى قرية بني ورتلان[1]، قرب بجاية سنة(1125هـ/1713م) ينتمي هذا الرحالة إلى أسرة عربية شريفة اشتهرت بالعلم والتصوف والتدريس والإصلاح والتأليف والإفتاء[2]، تربى فيها في مهد والده وجده بزاويته وزوايا أخرى على يد مشايخ بلده[3]، ولكي تكتمل تلك الثقافة كان عليه أن يشد الرحال إلى المراكز العلمية المشهورة، فاغتنم فرصة سفره للحج ووثق صلته بعلماء تونس وطرابلس ومصر والحجاز فدرس عن علمائها فأجاز واستجاز، ليصبح الورتلاني علماً من أعلام عصره في القرن الثاني عشر هجري (الثامن عشر ميلادي).

وقد خلف عدة مؤلفات وشروح ضاع أكثرها، ومن أشهر مؤلفاته رحلته المسماة "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، المعروفة ب "الرحلة الورتلانية"[4] كما له شرح على "المنظومة القدسية" للشيخ عبد الرحمن ألأخضري في التصوف وشرح على "الخطبة الصغرى" للسنوسي، التي وضعها على شرح السنوسي[5].

أما إذا تكلمنا عن الرحلة التي عنونها صاحبها بـ«نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار»، فلا بد أولاً أن نعرج على رحلاته نحو المشرق لأداء فريضة الحج التي استهل أول رحلة منها سنة(1153هـ/1740م)، والثانية سنة (1166هـ/1752م)، والثالثة سنة(1179هـ/1765م)،حيث جمع خلالها الأخبار، غير أن الحجة الأخيرة هي التي حملته على كتابة رحلته التي جاب من خلالها الأقطار العربية وتعرف على أحوالها المختلفة، واتصل بكثير من العلماء والحكام والمرابطين في كل من تونس وليبيا ومصر والحجاز، فعلم وتعلم واستفاد وأفاد، وسأل العلماء والطلبة مجادلاً إياهم في شتى علوم

---

(1) – **بني ورثلان:** موجودة بمنطقة القرقور بالقبائل الصغرى، سعيدوني، دراسات وأبحاث، ص: 100.

(2) – الحسين بن محمد السعيد الورثلاني، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار(الرحلة الورثلانية)**، تصحيح: محمد بن أبي شنب، جزائر: مطبعة بيير الشرقية، ط: 1326هـ/1908م، ص ص: 85، 308، مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 357 سعيدوني، المرجع السابق، ص: 418، مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورثلاني (عرض ودراسة)، ص: 16.

(3)– نذكر منهم: الشيخ يوسف بن بشران، ويحي اليعلاوي، وأحمد زروق، بن أحمد بن الشيخ العنابي، الورثلاني، المصدر السابق، ص ص:292، 297.

(4) - الورثلاني، الرحلة الورثلانية، ص ص: 603، 304، 315.، 655.

(5)- المصدر نفسه، ص ص: 87، 284.

عصره حيثما حل مجيباً عن الأسئلة إذ عرضت له[1]، كما كان يهتم بإقتناء الكتب سواء عن طريق التسجيل أو النسخ أو الشراء، متوجاً تلك الأخبار لرحلاته السابقة في الداخل والخارج في رحلة واحدة، جعلها وثيقة هامة ضمنها الأوضاع والأحوال الثقافية والسياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية لهذه الأقطار.

وقد دفعه شغفه بالأسفار وطلب العلم إلى الصبر والجلد على تحمل المشاق وأتعاب الأسفار وقطع كل تلك المسافات المحفوفة بالمصاعب والمخاوف، وقد صدق قوله: « إن مرتبة العلماء تزيد وتنقص بعلم التاريخ »[2].

أما عن مسار الرحلة فقد كان منطلقه من الجزائر، ثم مركز تجمع الحجاج بقصر الطير[3]، لينزل بعدها بمقام سيدي خالد وأولاد جلال و مدينة بسكرة، ثم يشد الرحال منها إلى زريبة الوادي فزريبة حامد ثم توزر وقابس، وبعد ذلك تابع سيره على الساحل الليبي[4] ليتوقف بطرابلس وبرقة.

ولتعدد رحلاته نجده يصف هذه المناطق أو المحطات بالتفصيل، كما وصف مصر وأهلها وعلماءها وعاداتهم، ومن مصر توجه إلى الجزيرة العربية، وتحدث عن ساحل البحر الأحمر، وعن المدن والقرى التي تحاذيه، وعادات القبائل التي تسكنها مع الركب الحجيج المغربي والمصري، ولما اقترب من مكة واصل حديثه عن طابعها الزراعي وجانبها السياسي في المناطق التي مر بها، ولما بلغ مكة واصل

---

(1)- الورثلاني، الرحلة الورثلانية، ص ص:29، 125 ،284 ،304 ،315، 621، 653، 656.

(2)- المصدر نفسه، ص:597، مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورثلاني، ص:44.

(3)- **قصر الطير**: منطقة واقعة في الجنوب الغربي لمدينة سطيف على بعد حوالي 60 كلم، كانت تحمل في الفترة الاستعمارية اسم كولبير (colbert)، وتسمى اليوم عين ولمان، وبلدية قصر الطير أصبحت تسمى بعد الاستقلال بقصر الأبطال. ينظر: الورثلاني، المصدر السابق، ص ص:81، 86.

- M'hammed Ben Cheneb, « Itinéraire de Tlemcen a La Mekke », (XVIIIe siècle), **R.A.F,** Année: 1900, p: 268 .

(4)- الورثلاني، المصدر السابق، ص:554.

وصفه لها ولأيام موسم الحج بها وعن المدينة المنورة وطبيعة الحياة فيها، وعن العلماء الذين لقيهم فشدت شجونه بالمجاورة، ولكن أهله ضيقوا عليه فلم يتسنَّ له ذلك[1].

وخلاصةً لهذه الجزئية نقول عن رحلة الورتلاني إنها ضمت خضماً هائلاً من الأخبار بالرغم مما فيها من تكرار واقتباسات ونقل غير منظم للمعلومات، ومع ذلك فلا يسع الحديث عنها إلا في مؤلفات تكون شهادة حية عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية، ليس فقط للمغرب الإسلامي بل حتى المشرق على العموم، فقد أعطى صورة متميزة ومنصفة عن الأحوال الداخلية لكل من الجزائر وتونس وليبيا ومصر والحجاز، لفترة زمنية لا يستهان بها، فقد شملت الوطن العربي ككل، والذي كان يكتنفه بعض الغموض في العديد من النواحي في تلك الفترة الزمنية[2].

أما الشطر الثاني من الرحلات الحجازية، فقد خص الرحلات ذات الطابع النظمي، وهي الرحلات الحجازية الشعرية، غير أن هذه الأخيرة قليلة نسبياً مقارنة مع السابقة، نستهلها بنوع خاص من القصائد المديحية التي يتوجه بها أصحابها إلى الديار الشريفة، أين الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، حتى ولو لم يزوروها بأبدانهم أو يكونوا قد سبقوا لها الزيارة قبل ذلك. وفي هذا اللون نظم الشيخ عبد الكريم الفكون ديواناً كاملاً في المدح النبوي رتبه على حروف المعجم، وقد تم ذلك سنة (1031هـ/1621م)، وهو الذي زار الحجاز مراراً أميراً لركب الحج[3]، كما كان على نفس النسق الشاعر المفتي ابن علي والعالم أحمد المانجلاتي، اللذان يعتبران طفرة متميزة في المدائح النبوية، حتى

---

(1)- M..Hadj-Sadok, « A Travers La Berbérie Orientale du XVIIe siècle, avec le Voyageur Al-Warthilani », **R.A.F**, Société Historique Algérienne, 1951, p: 314, 361

=أما طريق العودة فينظر: ناصر الدين سعيدوني، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، (الفترة الحديثة والمعاصرة)**، جزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 1988م، ج2، ص: 73.

(2)- ولهذا فقد وجدت هذه الرحلة اهتماماً من قبل الباحثين منذ أن نسخها عبد القادر بن محمد الصغير، وسعيد بن أحمد بن يدير العباسي القلعي سنة 1182هـ/1768م، ثم توالت دراسة المستشرقين لها أمثال "فيرو"، في كتابه "بجاية في تاريخ مدن مقاطعة قسنطينة" سنة 1869م، و"وليام مارسي" في كتابه "قرن من الأبحاث عن ماضي الجزائر الإسلامية"، كما كانت هناك دراسات عربية لها كدراسة أبو القاسم الحفناوي ومحمد الحاج صدوق وغيرهم مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورثلاني، ص ص: 69، 70 عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص:70.

(3) وقد تحدث أبو سالم العياشي عن هذا الديوان وصاحبه في رحلته، الرحلة العياشية، ج2، ص ص: 515 ، 520.

قيل: إن لا أحد يضاهيهما إلا البوصيري، كما لا ننسى ابن عمار صاحب رحلة « نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب»[1]، فقد أدلى هو الآخر بدلوه في هذا الفن من خلال قصائده وموشحاته التي أوردها لنفسه في رحلته.

ولكن هذا النوع لا يدخل في صميم الرحلات التي نقصدها في هذه العجالة ذلك لأن الذي يهمنا هنا بالدرجة الأولى هي الرحلات الحجازية، المصطلح عليها بالمعنى المعروف والتي تنقل أصحابها- بدنياً لا روحياً أو خيالياً- من مواطنهم إلى أرض الحجاز، وغيرها من مناطق المغرب والمشرق، ليصفوا لنا الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية في مزاراتهم، أو يكتفوا بوصف بعض المظاهر منها.

وزيادة على الرحلات التي سبق ذكرها والتي كانت حجازية في أغلبها لأداء فريضة الحج، فقد توجد نوع ثان للرحلات الخارجية بغرض طلب العلم وهي تدخل في إطار الرحلات العلمية التي ألفها أصحابها في خضم مسيرهم لطلب العلم، والتي اقترنت أحياناً بمقاصد أخرى كالتجارة أو السياحة في حب الإطلاع على البلدان والأمصار عموماً. ومن الأوائل الذين قاموا بذلك عاشور بن موسى القسنطيني المعروف بالفُكيرين 984هـ-1576م/1084هـ-1664م [2] وقد نشأ هذا الأخير في قسنطينة أين أخذ تعليمه الأول عن والده، وغيره من علماء مسقط رأسه نذكر منهم الشيخ عبد الكريم الفكون، ولما حصل على مستوى لا بأس به من العلم آثر الرحيل إلى المشرق؛ ليتم مسيره في ذلك الدرب وبخاصة بعد وفاة والده سنة (1054هـ/1644م)، ولكنه أطال المكوث فيها بنحو عشرين سنة، ولهذا السبب تسنى له الاطلاع والملاحظة والتعرف على الشعوب والبلدان، بادئاً فيها من تراب وطنه من تلمسان إلى المغرب الأقصى، وصولاً إلى أرض السودان، ثم بلاد المشرق من مدينة مصر والحجاز فالشام، آخذاً في طريقه عن العلماء

---

[1] - ابن عمار، نحلة اللبيب (مقدمة)، و3و، و4و.

[2]- ينظر: خوجة حسين، **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، تح: الطاهر المعموري، ليبيا - تونس: الدار العربية للكتاب، ط: 1975م، ص: 189، 248، 249، الوزير السراج، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تح: محمد الحبيب الهيلة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1985م، ج2، ص: 419، مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، المصدر السابق، ص ص: 448، 449، عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية، ص: 76.

الذين التقى بهم هناك، ليعود بعدها إلى بلده ليسرد «غرائب ما شاهده وعجائب ما رأى، وما أخذ عن أولئك العلماء وأرباب الأسرار وحصل منهم فن القراءات وجانباً من الأدب»[1].

فهو العالم الرحالة من فقهاء المالكية، استقر فترة بتونس فدرس بجامع الزيتونة وبغيره، وأخذ عن علمائها ثم مات فيها بعد ان عاد إليها[2]، ولكن رغم ما بلغه من علم وقدرة على التأليف والتدريس لم يذكر أنه دوَّن رحلة، بل اكتفى بقصها شفوياً على تلامذته وغيرهم، حتى وإن وجدت فهي غير متعارف عليها، وخلاصة القول « فرحلة ابن عاشور بن موسى رحلة مسموعة وغير مقروءة حتى الآن»[3].

و- الرحلات النظمية:

نقتصر في هذه الجزئية على الرحلات المنظومة بالشعر الفصيح فقط، وعلى ما إلتمسنا منه بعض المظاهر الاجتماعية والاقتصادية تخص أرياف الجزائر في الفترة العثمانية.

*** رحلة المجاجي(1063هـ /1652م):**

صاحب الرحلة هو عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي. وللأسف صاحب هذه الرحلة غير معروف، فلم نعثر له على ترجمة. ولكن استناداً لما ذكره عن نفسه في رحلته فقد عاش خلال القرن (11هـ/17م)، حسب ما جاء في البيت الأخير من القصيدة، المؤرخ في سنة (1063هـ

---

(1)-أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص ص: 177 178.

(2)-كما أنه مدرس بارع له تلاميذ ومعجبون، ومن بين تلامذته: محمد الحجيج الأندلسي(ت 1108هـ/ 1696م) ومحمد بن سليمان مؤلف (كعبة الطائفين)، الذي التقى به سنة 1055هـ/1645، وعبد العزيز الفراتي، وأبو سالم العياشي صاحب الرحلة =الذي مدح أستاذه ب"الشيخ العلامة الفقيه المشارك ...لقيته وتبركت به واستجزته لنفسي". لقيه العياشي أثناء رحلته في طريق العودة، وقد وجده ينوي الرحيل من تونس قاصداً الحجاز للمجاورة في تلك البلاد، فاعتذر الشيخ عاشور على استجازة العياشي لكثرة انشغاله وقرب سفره، أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص:382، مخلوف محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص:310.

(3) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 384.

/1652م)، وقد زامن هذه الفترة عهد الباشاوات في الجزائر العثمانية، المليئة بالتوتر والاضطرابات على المستوى الداخلي والخارجي[1].

ومن خلال رحلته فقد ذكر المجاجي أصله ومنشأه، فهو من بلدة مجاجة[2] الواقعة قرب مدينة الشلف[3]. كما ذكر بعض شيوخه المصريين كعلي الأجهوري، وأبو سلطان المزاحي، وعامر الفوال، وأبو عمر الصامت. ومن الجزائر أخذ عن أبي القاسم الصالح القاطن بمدينة مقرة. وربما يكون من شيوخه أيضاً أحد أفراد عائلة محمد بن علي ابهلول الذين رافقوه في ركب الحج كالشيخ أبو الحسن علي، وعبد القادر الجيلالي، وأبو علي والسيدة عودة أبناء محمد بن علي أبهلول[14]. كما تذر هذه الرحلة معلومات عن مراسيم استقبال ركب الحج الجزائري عند دخوله مدينة الجزائر ومصر والحجاز، أعطانا فيها لمحة جد هامة عن أوضاع ركب الحج ومرافقيه وطريقة تنظيمه[5].

فمن خلال أسلوبه في الكتابة أو النظم تنعكس ثقافة المجاجي، ذات البعد التاريخي الفلكي الصوفي وذات اللمسة الفقهية الأدبية، استعمل أسلوباً سليماً ومنهجاً دقيقاً، نستوحيه من خلال تأكيده وتوثيقه للمعلومات، باعتماده على المصادر الموثقة سواءً أكانت شفوية أو عينة أو منقولة مع ندرة التكرار والأطناب في النص، وهذا ما يعكس لنا التزام المجاجي للدقة، ولكن مع هذا فقد أخفق في أن يعطي صورة واضحة وجلية عن تاريخ وأوضاع المغرب والمشرق(مصر والحجاز) بشكل كاف.

---

[1] – عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي(1063هـ/ 1652م)، رحلة المجاجي، المصدر السابق، ص: 19.

[2]– **مجاجة**: بلدة قرب مدينة شلف، تبعد عنها ب10 كلم، غرب الجزائر العاصمة، ابن عمّار، **أشعار جزائرية**، تح: أبو القاسم سعد الله الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 1988م، ص: 108، ينظر: الملحق رقم (12)، ص: 476.

[3]– عبد الرحمن المجاجي، المصدر نفسه، ص: 19.

[4]– **ابن علي أبهلول**: مولى مجاجة ولد وتوفي في (945هـ-1515م/1008هـ-1568م)، أمه سيدة عودة بنت سيدي بوعلي وهو صاحب الزاوية المشهورة بمجاجة، كان مربياً ومعلماً بها يدرس أكثر من ثلاثمئة طالب في النحو الصرف والمنطق والعروض وعلوم الشريعة الإسلامية بما فيها من التوحيد وتفسير القرآن والتصوف، ومن بين أولئك الطلبة: سعيد قدورة مفتي الجزائر، والسيد علي مبارك دفين القليعة، والسيد يحي من ناحية التنس، كما أنه لم يكن له صيت على المستوى الداخلي فحسب، بل كان على اتصال وثيق بعلماء المشرق أثناء رحلاته للحج ونظراً لصرامته في الحق فأدى ذلك لمقتله على يد بآيات الأتراك بمازونة لرفضه الإفتاء بالباطل، يذكر له عدة مؤلفات في شتى الفنون كالشعر والنحو وغيره ولكنها في حكم الضائعة، مولود فلاق، علماء مجاجة، و:3، 8، عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ج1، ص:440، 449، علي هني، علماء مجاجة، ص ص: 19، 21، صالح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر ص: 820، 821 .

[5]– عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي، المصدر السابق، ص:22.

ولعل السبب في ذلك يعود لأن الرحلة منظومة مقتضبة الفائدة وبخاصة في وصف المدن والقرى والأودية وغيرها، فهو يعطي أهم الإشارات فقط (كوجود الماء بها ونوع ذلك الماء ، بالإضافة للمؤن التي يحتاجها الحاج أو المسافر، إلى جانب كلأ الدواب)، متفادياً أي وصف آخر كان من شأنه أن يعطي صورة أوضح عن تلك المواضيع، والشيء نفسه بالنسبة للأعلام فلم يذكرهم بصورة دقيقة وواضحة، كالاسم الكامل للعالم المتحدث عنه، أو سنة ميلاده أو وفاته، وقد حدث هذا حتى مع أمير ركبهم، فقد أطنب في الإشارات والمديح عنه ولم يذكر اسمه قط في الرحلة[1].

أما وصفه للديار المصرية وللأراضي الحجازية فهي على ما يعهد في مثل هذه الرحلات، وفائدة هذه الرحلة من هذه الناحية ترجع لإعطاء معلومات عنها في هذه الحقبة من التاريخ، فتكون حلقة من سلسلة الرحلات الطويلة التي وصفت هذه المراحل وعينت المنازل، والمناهل. وتصلح بذلك لوضع خريطة طريق الحجاج عبر التاريخ، وتحقيق أسماء المراحل التي يمرون بها، والمسافات التي بين كل مرحلة والتي تليها. وخروج هذا الركب الحجازي تحت رئاسة أحد مشايخ التصوف، إشارة هامة إلى نفوذ أصحاب الزوايا إذاك.

ويمكننا القول: إن من أهم الأسباب التي دفعت المجاجي إلى كتابة رحلته نظماً، هو حفظها وتيسير تداولها بين الناس، قصد الاستعانة بها في أسفارهم للأراضي المقدسة. ورغم ما جئنا على ذكره في هذه الرحلة، فإنها لا تكتمل فائدتها إلا إذا استعنا برحلات أخرى، تكون مزامنة لها في تلك الفترة[2].

* رحلة المُصْعَبِي (ت 1232هـ/1817م) :

وفي المجال نفسه –أي الشعر الفصيح–نظم الشيخ إِبْراهِيم بنُ بحْمَان بنُ أَبي مُحَمَّد بنُ عَبْد الله ابنُ عبْد العَزيز التَّمِيني اليَسْجنِي المِصْعَبِي[3]. (ت 1232هـ/1817م) قصيدته الحجازية تكلم

---

[1]_ المصدر نفسه، ص ص:22، 24، 228.

[2]– ينظر: عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، ص ص: 228، 229، آل سيد الشيخ سعاد، رحلة عبد الرحمن بن محمد بن الخروب بن الخروب المجاجي نموذج الرحلة الحجية النظمية خلال القرن 11هـ/ 17م، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية،الجزائر، العدد 20، ص ص : 201،215.

[3]– **إبْراهِيم بنُ بحْمَان المُصْعَبِي (ت1232هـ/ 1817م)**: هو أحد شيوخ الإباضية ومن علمائها البارزين بوادي مزاب، كان له جهود في التفسير وشرح الحديث وكتابة السير وفي علم المنطق وغيرها، تولى منصب الإفتاء والتدريس والوعظ ورئاسة مجلس العزابة ببني

فيها عن محطات تنقلاته بدءاً من مسقط رأسه ببني يسجن[1] ثم غرادية في 15 رجب 1196هـ/1781م ليحط الرحال مع ركبه بالبقاع المقدسة وبالحرم المكي في السابع من شهر ذي الحجة 1196هـ/1781م، وبالمدينة في الثالث والعشرين من ذي الحجة 1196هـ/1781م وينهي مناسك الحج وكل المزارات ليعود على إثرها ليدخل مصر في 11 صفر 1197هـ/1782م، ثم إلى وطنه بالجزائر ومسقط رأسه في أوائل ربيع الثاني 1197هـ/1782م. وفي طيات هذه الرحلة التي شملت بعض النثر في بدايتها و خاتمتها، إلى جانب قصيدة مطولة غاية في الإتقان والبراعة اللغوية والتي تضم 221 بيتاً.

وقد استغرقت الرحلة عامة مدة مئة وعشرين يوماً ذهاباً من مزاب إلى الحجاز في حين كانت رحلة العودة على مرحلتين من المدينة المنورة إلى مصر مسيرة شهر ومن هذه الأخيرة إلى مزاب مسيرة شهرين، فكانت رحلة العودة أقصر من رحلة الذهاب؛ وهذا نتيجة للخبرة التي نالها المِصعَبي وركبه بمسار الرحلة[2].

ومن هذه الرحلة النظمية يمكن استخلاص جملة من الفوائد:

- ✓ ***الصدق:** عندما قرر تدوين ما لقيه في سفره ليكون تذكرة لنفسه ولمن بعده قائلاً:
- ✓ « بعثني صدق الهمة إلى نظم بعض ما لقيته في سفري ليكون تذكرة لي ولمن يريد سلوك هذه الطريقة من بعدي..»[3]، وقد ظل بالفعل في كل مرة ينصح بصدق بما تعلق بمواضع المياه التي يجب ملء الأوعية فيها وعدم التسويف في ذلك، والتي يجب تجنب شربها وسقى الدواب منها.

=يسجن، من أهم مؤلفاته " المعدن المصون على سورة الكنز المدفون"، "مختصر المناسك ومهذب المسالك"، ينظر: إبراهيم بن بحمان المصعبي، **رحلة المصعبي**، تح: يحي بن بهون حاج أمحمد، غرداية:Mondial Print Service، ط1: 2006م، ص ص: 26، 41.

[1]- **ني يسجن** :أو " أت يزجن" من أشهر قرى مزاب، أسست عام 720هـ/ 1321م، أصل المدينة " تافلالت" وقد عرفت عدة توسعات، وهي تقابل قصر بنورة ومليكة في ضفة وادي مزاب، الحاج سعيد يوسف بن بكير، تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية، ط1 :1991م ، ص: 22. وهي الآن حي من أحياء ولاية غرداية.

[2]- إبراهيم بن بحمان المِصعَبي، المصدر السابق، ص: 44.

[3]- المصدر نفسه، ص: 55.

- ✓ **التحري:** فقد تحرى الشيخ الوقائع مثل ما وقع بمصر للمقيمين من الطلبة، وما شاهده بأبواب الحرام من الأرجاس، وعدم سكوته عن المنكر عندما قدمت جماعة تطلب الرشوة أو المكس فقد أعرض وصمم الاعتماد على نفسه والمبيت في الطريق، ولا يرتكب محرماً.
- ✓ **عرض الواقع:** بتشاؤمه في بعض المواقع بالرحلة كمصر والحجاز، وما استولى على البلدان من سلطان الظلم والفساد...وما كان من مجانبة الناس للذوق السليم والأخلاق الفاضلة[1].
- ✓ **التحلي بالورع والتقوى:** لمحبته لأهل العلم في الأمصار التي زارها، ناهيك عن وصفه للبقاع المقدسة وكيف صعب عليه فراقها بعدما تعلق بها وأحب ساكنيها.

ولهذا فرحلة المصعبي رحلة قيمة فيها معلومات شتى متنوعة المشارب وبخاصة التاريخية منها، فقد تحدث عن الاحتفالات المعتادة لدى بربر وادي مزاب عند خروجهم إلى الحج، إلى جانب المكوس التي كانت تفرضها السلطة العثمانية على أمتعة الحجاج في الجزائر وعملية الحجز عليها، وسياسة الاضطهاد التي صادفت الإباضيين بمصر وغيرها، متفنناً في كل ذلك بالتحديد الدقيق للأماكن التي يمرون عليها بالتأريخ المضبوط باليوم والشهر لكل مرحلة[2].

المبحث الثاني: نماذج من الرحلات المغربية في العهد العثماني

كانت الجزائر في العهد العثماني محط أنظار واهتمام الرحالة المغاربة، فدوّن العديد منهم رحلاتهم، والتي هي عبارة عن مذكرات يومية تصور الواقع اليومي المعاش للرحالة، وكان لكل رحالة غايته وهدفه في زيارتها، وإن اختلفت مقاصدهم، فقد اتّفقت منابر إعجابهم بخيراتها ومميزاتها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية في بعض الأحيان، فقدّموا مادة علمية معتبرة وقيّمة، تفيد الباحث والمؤرخ في تاريخ الجزائر الحديث. ورغم كثرة تلك الرحلات، نذكر من أهمّها:

---

[1]- المصعبي، المصدر السابق، ص: 44.

[2]-ينظر: المصعبي، المصدر السابق، ص ص: 42، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ط2، ج2، ص: 254 .

1- رحلة التمكروتي (941هـ/ 1534م- 1003هـ/ 1594- 1595م):

صاحب الرحلة هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الجزولي، من قبيلة البكري نسباً الدرعي التمكروتي داراً ومنشأً[1].قيل أنه ولد حوالي(943هـ/ 1534م) وقيل(929هـ/1520م)، حيث تعلم بالزاوية الناصرية[2]، ونشأ في بيت علم وصلاح، فجده علي بن محمد (ت 940هـ/1531م) من أعيان درعة؛ وصف هذا الشيخ بأنه شيخ الإسلام، وأشتهر والده محمد البكري بالصلاح والتقى، وكان عمّه عبد الله بن علي من تلاميذ العالم عبد العـزيز القسنطيني[3] وكان أخوه محمد عالما فقيها وإماما لجامع مشهور بفاس، انتدبه السلطـــان عبد الله الغــالب قبل أخيه سفيراً إلى القسطنطينية سنة (980هـ/1571م) [4]، كما نبغ أخوه الحسن في علوم اللغة والفقه[5].

---

[1] -نسبة إلى قرية تمقروت بوادي درعة بالجنوب الشرقي للمغرب الأقصى،كانت مركز إشعاع ثقافي وصوفي ومعرفي كبير وخاصة بزاويتها الناصرية.ينظر: التمكروتي، **النفحة المسكية في السفارة التركية (1589م)**، تح: محمد صالحي، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1: 2007م، ص: 31.

[2]- قد تكون زاوية جده علي بن محمد التي أسسها بتمجروت بجوار تكمدارت مهد السعديين المعروفة بزاوية سيدي علي. محمد ماكامان: الرحلات المغربية، ص ص: 368،369.

[3]- **عبد العزيز القسنطيني**: هو أبو فارس شيخ المشايخ من أكابر الأولياء وأعلام الصوفية له شأن عظيم من العلماء والعاملين والأولياء المتقين ومن تلاميذه أبو محمد عبد الله بن عمر المصغري وأبو عبد الله محمد بن علي الدرعي، توفي في الفترة الرابعة من القرن العاشر، ينظر: محمد بن أحمد الحضيكي(ت 1189هـ/ 1775م)، **الطبقات**، تح: أحمد بومزكو، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ط1: 1427هـ/2006م، ج1، ص: 434.

[4] -محمد بن أحمد الحضيكي، المصدر نفسه، ج1، ص: 488 .

[5] -ينظر: محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تح: محمد حجي، أحمد التوفيق، الرباط: مطبوعات دار المغرب لتأليف والترجمة والنشر، ط:1397هـ/1977م، ج1، ص: 51، ليفي بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، تر: عبد القادر الخلادي، الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط:1397/ 1977م، ص: 82، محمد بن محمد المراكشي (1283هـ/1369م): **السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية**، تع: أحمد متفكر، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط3: 1432هـ/ 2011م، ص: 59. خير الدين الزركلي، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، بيروت: دار العلم للملايين، ط15: أيار / مايو 2006، ج2، ص: 87.

تقلّد مناصب هامة ببـلاط مــراكش. ومع ذلك تظل ترجمته مقتضبة في كتب التاريخ والتراجم، يصفه صاحب الطبقات بـ:" الفقيه العلامة الأديب، له مشاركة في علوم وتفنن في فنون، أدرك المشايخ وأخذ عنهم "[1]، كما وصفه محمد المكي الناصري في الدرر المرصعة بالإمام العارف وروضة الأدب والصلاح الناعمة الأفنان. وبخصوص رحلته لاحظ أن صاحبها لأطنب فيها وأغرب وأتى بما أذهل وأعجب[2]. وأما المؤرخ محمد بن الطيب القادري فخصّه بترجمة موجزة؛ أهمها مشاركته في العلوم وسفارته مع الفقيه محمد الفشتالي[3] إلى القسطنطينية[4].

وفي عام997هـ/1589م أرسله سلطان المغرب أحمد المنصور [5] مع بعثة إلى القسطنطينية وكان ذلك خوفا أن يشن أتراك الجزائر غارة على بلاده[6]، فأمّن حدود المغرب الشرقية، حتى لا يفاجأ بالاعتداء عليه من هذه الجهة، ولزيادة تمتين العلاقات بين البلدين، وخصوصاً أنه صادف قرار

---

[1] –محمد بن أحمد الحضيكي، المصدر السابق، ص: 488 .

[2]– ينظر: محمد ماكامان، المرجع السابق، ص:369 .

[3]– **محمد الفشتالي**: هو أبو عبد الله محمد علي بن محمد الفشتالي، الفقيه الكاتب الأديب شغل منصب الكتابة عند أحمد المنصور الذهبي عرف بتعاطيه للشعر له بخزانة رباط رقم (538) أرجوزة في التاريخ عنوانها " الوفيات" نظمها كتكملة لكتاب الوفيات لابن قنفذ القسنطيني، ينظر: محمد القادري، المصدر السابق، ج1، ص:174، ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص:82.

[4] – محمد القادري، المصدر السابق، ج1، ص: 49.

[5]– **أحمد المنصور**: هو السلطان أحمد المنصور الذهبي بن محمد الشيخ المهدي بن محمد القائم بأمر الله الزيداني الحسني السعدي، أحد ملوك المغرب العظام وباني قصر البديع. ولد بفاس عام 956هـ/1549م، بويع في ساحة وادي المخازن سنة 986 هـ/1578م، يعتبر عهده الذي دام حوالي ست وعشرين سنة أزهى عهود الدولة السعدية رخاء وعلماً وعمراناً وجاهاً وقوة. توفي بمرض الطاعون، دفن بإزاء مقصورة الجامع الأعظم بفاس الجديدة، ثم نقل إلى مراكش ودفن في قبور الأشراف السعدين، ينظر: أبو القاسم الزياني، **الخبر عن أول دولة من الأشراف العلوييين من أولاد مولانا محمد الشريف بن علي**، باريس: المطبعة الجمهورية، ط: 1303هـ/1886م، ص ص:29، 30.

[6]– مولاي بالحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1979، ص: 16 .

السلطان المولى أحمد المنصور بفتح بلاد السودان[1]، وقد تكررت مثل هذه السفـــارات إلى اسطنبول تحمل الهدايا عدة مرات، وفي هذه البعثة بالذات كلف السلطان السعدي أحمد المنصور التمكروتي بسفارته إلى اسطنبول[2].

فخرج من مراكش في 18 مارس 1589م، ماراً بسجلمـــاسة فاس، ثم تطوان، ثم أبحـــر مـــاراً أو نازلا ببعض المدن الساحلية بالجزائر؛ كمدينة هنين، ووهران، ومستغانم، وشـرشال، ومدينة الجـــزائر ودلس، وبجـــاية، ومرسى القصب، والقل، وبونة(عنابة)، وعشرات الأماكن الأخرى بتونس وليبيا وغيرها قبل أن تعرج سفينته قاطعة البحر الأبيض المتوسط عرضاً لتصل إلى ميناء القسطنطينية يوم 25 نوفمبر1589م. بعد إقامة طويلة دامت ثمانية أشهر حاطين الرحال عند العودة في الموانئ والمراسي ذاتها، وبالأخص مدينة الجزائر، أين أطال المقام بها مدة أربعة أشهر ليعود بعدها إلى مدينتي تطوان ثم مراكش[3].

لتتمخض هذه الرحلة السفارية القيمة في نهايتها بما دوّنه التمكروتي في مؤلف سمّاه:« النفحة المسكية في السفارة التركية »[4]. أين جمع وصف المراحل بين مسالك الطرق والدور التاريخي للمراكز التي مر بها ومقارنة ماضيها بحاضرها[5]، ليتحقق في طيّاتها منهجاً متميزاً خطه التمكروتي لنفسه في هذه الرحلة أين قسمها إلى أجزاء ذكر من خلالها الوصف التالي:

- أدب جغرافي وتاريخي من ترغة إلى طرابلس.
- وصف لبعض مظاهر الحضارة العثمانية.

---

(1) – في الحقيقة كان الغزو السعدي للسودان الغربي عنوة، وذلك للاستفادة من خيراته الاقتصادية خاصة الذهب، وتجسيدا للسياسة التوسعية للمخزن المغربي بغية إخضاع الإمارات السودانية الصغيرة في حوض السنغال. ينظر: محمد ماكمان، المرجع السابق، ص: 371.

(2) – مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص: 16 .

(3) – علي بن محمد التمكروتي: النفحة المسكية، ص ص:14، 16.

(4)– ولقد ترجمها للفرنسية هنري دي كاستري Decastries معتمداً على النسخة الوحيدة الموجودة بالمغرب الأقصى. التمكروتي، المصدر نفسه، ص: 20، ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص: 82.

(5) – محمد ماكامان، المرجع السابق، ص: 371.

– وصف لبعض مظاهر الحضارة المغربية وخصوصاً في عهد أحمد المنصور الذهبي[1].

ومن هذا الزخم التاريخي لأجزاء الرحلة، نخص منها جزئية جوهرية تجلت من خلالها مشارب شتى للحياة الثقافية في الجزائر العثمانية أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي، فعن الأحوال الثقافية بمدينة الجزائر يقول التمكروتي:" وطلبة العلم فيها لا بأس، إلا أن حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيراً والكتب أوجد من غيرها من بلاد إفريقية. وتوجد فيها كتب الأندلس كثيراً " [2].

فمن خلال هذا الوصف، يفهم بأن الحياة الثقافية بمدينة الجزائر كانت مضطربة، لأنها تأثرت بالحياة السياسية السائدة آنذاك، مما جعل أهل الثقافة ينصرفون عنها وينشغلون بمنافع الدنيا. غير أنها أكثر اقتناء للكتب، وخاصة الكتب الأندلسية. ثم أفاض التمكروتي واسترسل في الحديث عن منارة العلم مدينة بجاية وعن تاريخها العتيد الحافل والزاهر بالعلماء والصلحاء؛ مستشهداً بما ذكره عنها الرحالة القدامى، أمثال ابن عبد ربه وخالد البلوي[3]، متذمرا متحسراً عما آلت إليه أحوالها مع عواقب الاحتلال الإسباني لها، إذ هي:" الآن خراب هدمها النصارى...، لم يبق بها إلا ديار قلائل على طرف البحر، وقلعة صغيرة تسمى باللؤلؤة، ينزل بها متولي تلك الناحية من الترك، يمنع المرسى من العدو"[4]. فبهذا الوصف يثير التمكروتي حفيظة التاريخ، كيف لمدينة حررت منذ 28 أيلول 1555م، على يد صالح باشا، تبقى على ركام احتلالها ولم يغير حالها، على الرغم أنه مر على تحريرها حوالي 34 سنة وذلك باعتبار أن التمكروتي مرّ بها سنة 1589م، مع أن المصادر التاريخية تشير على

---

[1] – محمد ماكامان، المرجع السابق، ص: 380 .

[2]– التمكروتي، المصدر السابق، ص :159 .

[3]– التمكروتي، المصدر السابق، ص :43.

[4]– يقول صاحب الاستبصار :" وفي بجاية موقع يعرف باللؤلؤة وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر، متصل بالمدينة، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة، لم ير الراؤون أحسن منها بناء، ولا أنزه موضعا، فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد و لأبواب المخرمة المحنية...". ينظر: مجهول: **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تع: سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ط: 1985، ص:130.

خلاف من ذلك إلى أن صالح باشا منذ أول وهلة من استرجاعها ترك على إثرها حامية تركية بقيادة علي صاردو مع ستمائة إنكشاري للمحافظة على المدينة بصورة دائمة، فقام هذا الأخير بترميم ميناء المدينة وزاد من تحصيناتها[1].

وفي طريق العودة من اسطنبول أمضى التمكروتي شهرين في مدينة الجزائر، فأعجب بنظام أسواقها ووفرة سلعها، وكثرة السفن في مرساها، كما أبدى إعجابه ببسالة رياسها وجرأتهم، حيث يقول عنها:" وهي عامرة كثيرة الأسواق بعيدتها،كثيرة الجند حصينة،...ومرساها عامر بالسفن، ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير، وأعظم هيئة وأكثر رعباً في قلوب العدو، فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد أفريقيا وأعمر وأكثر تجاراً وفضلاً، وأنفذ أسواقاً وأوجد سلعة ومتاعاً، حتى أنهم يسمونها اسطنبول الصغرى"[2].

فالجزائر في نظر التمكروتي بهذا الوصف، كانت قاعدة تجارية ببلاد إفريقيا وأكثرها عماراً، وأروجها سلعة وأنفذها بضاعة لتنوع أسواقها وتعدد مشترياتها حتى وصفة باسطنبول الصغرى، فقد شبّهها بعاصمة الخلافة العثمانية وما أدراك ما عاصمة الخلافة.

وما كانت هذه القوة الاقتصادية والميزة التجارية لمدينة الجزائر حسب التمكروتي، إلا انعكاساً لقوة البحرية الجزائرية آنذاك المتمثلة في رياس البحر؛ وجاء هذا الإعجاب من خلفية للمؤلف كونه نجا بأعجوبة من فخ العلوج النصارى الذين كانوا أسرى ومجذفين على متن سفينتين تركيتين،كانتا قادمتين

---

[1] – سقطت بجاية في يد الاحتلال الاسبان يمند 1510 إلى غاية سنة 1555م، وقد جاءت محاولات الأتراك مبكرة ومتوالية بقيادة الإخوة بربا روس لأجل تحريرها وذلك منذ 921هـ/1515م، لكن أخفقت كل المحاولات العديدة لشدة تحصناتها، وفي 28 أيلول1555م، أستطاع صالح باشا من استرجاعها بعد قتال شديد مع الأسبان. ينظر: المصدر نفسه، ص: 43، عزيز سامح التر: الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية، ط1: 1409هـ/1989م، ص ص:47، 195. ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر ، 1984 ، ص ص: 92 ، 94 .

[2]–التمكروتي، المصدر السابق، ص ص :159، 160، مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص ص: 82، 83 .

من إسطنبول، والتي كان على متن أحدها التمكروتي، فقد كانت نية أولئك العلوج النصارى حسب التمكروتي أيضاً؛ الفتك بهم والانقضاض على سفينتهم، لولا أنهم عدلوا عنها حتى رجوعهما من الجزائر إلى اسطنبول، محملة بالقناطير من الذهب وهي جباية أموال وهدايا للسلطان وحاشيته وأموال تجار وذخائر جند، وكان على متنهما شخصيات مهمة كقاضي البلد ونسائه وأولاده وأمواله والتجار والحجاج وغيرهم.

وقد تمّ الاستيلاء عليها وهم بعرض البحر من قبل العلوج النصارى، فعبثوا بالأنفس وقتلوا من قتلوا وسلبوا الأموال وأسرو من بقي بها وأخذوهم وذهبوا بهم لبلادهم النصرانية. فكانت هذه الحادثة نكسة مادية وبشرية ووقع جلل للجزائر أحدثت مأتماً عظيماً في كل دار من ديار الجزائر حزناً على ما وقع للمسلمين من مصيبة في الأموال والأنفس. وكل هذا قد عايشه التمكروتي ونقله بعين البصيرة كشاهد عيان لهذا المصاب الأليم للبحرية التركية بالأراضي الجزائرية. لذلك نقم التمكروتي على رياس البحر الأتراك ووصفهم بالضعف والتخاذل لتفريطهم في حماية تلك السفن وأثنى على البحرية الجزائرية لأنه لم يكن ليحدث هذا مع رياسها[1] .

وفي الموضع نفسه يتكلّم عن الشق العمراني لمدينة الجزائر عن أبوابها الثلاث، وعن مسجدها الجامع الذي يوصف بالسعة، وفي الجانب الثقافي في تعدد وتسامح المذاهب في هذا المسجد فإمامه مالكي المذهب، وتلقى فيه ثلاث خطب: أحدها للترك، وإمامهم حنفي[2].

توفي التمكروتي – رحمه الله- بمراكش عام (1003هـ/ 1594 – 1595م)، ودفن بجوار القاضي عياض[3].

---

[1]- التمكروتي، المصدر السابق، ص : 160.

[2]- التمكروتي، المصدر نفسه، ص ص :159، 160.

[3]- ينظر: محمد صالحي، الكتابة من الذاكرة من خلال النفحة المسكية في السفارة التركية للتمجروتي، **أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين: اكتشاف الذات والآخر**، ديار الإسلام من الأندلس إلى إستانبول، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1:2009، ص: 265.

2- رحلة العياشي (1037هـ/1628م-1090هـ/1791م):

هو العلامة والرحالة المغربي الشيخ أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي البلد[1]، المالكي المذهب، الفكيكي النسب[2]، وتزرفتي المنشأ[3]، علاوة على كونه شريفاً ادريسياً[4]، ولد بقبيلة آيت عياش، قرب تافلات (شعبان 1037هـ /ماي 1628م).

كانت أسرته أسرة علمية اشتهرت بالعلم والمعرفة؛ فأبوه علم من أعلام المغرب وشيخ زاوية وهو الذي أشرف على دراسته الأولى، ثم شد الرحال لمشايخ المغرب بالحواضر والبوادي كزاوية وادي درعة، أين تتلمذ على يد محمد بن ناصر الدرعي [5] ثم عاد إلى فاس حيث أكمل تعلمه على يد مشايخها

---

[1]- تقع قبيلة آيت عياش، وهي قبيلة من البربر جنوب ميدلت بنحو ستين كلمترا وتمتد حوالي 35كلمتر في الطريق الرابطة بينها وبين الراشدية.كما تتاخم بلادهم الصحراء من أحواز سجلماسة بالجنوب الشرقي المغربي. ينظر: محمد ماكمان: المرجع السابق، ص: 198، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، **رحلة العياشي الحجية الصغرى**، تح: عبد الله حمادي الإدريسي، بيروت: دار الكتب العلمية، ص1: 2013، ص: 15.

[2]- وقد ورد في كتاب الأحياء والانتعاش لعبد الله بن عمر العياشي بأن أصل هذه الأسرة من فجيج. ينظر: محمد ماكمان: المرجع السابق، ص :198.

[3]- وقد أسس والده زاويته بتزرفت سنة 1044هـ، بإذن من شيخه محمد أبي بكر الدلائي، وهي المسماة حالياً بزاوية سيدي حمزة. ينظر: محمد ماكمان، المرجع السابق، ص: 198.

[4]- قيل للعياشي :" مالكم تخفون نسبكم وقد صح عند الناس أن أصلكم شرفاء، فقال له: اذخرناه لآخرتنا إن صح، وقد أنعم الله علينا بما يكفينا من الجاه والتوقير والاحترام عند الخاص والعام". ينظر: محمد القادري، نشر المثاني، ج2، ص ص: 254، 264.

[5]- **محمد بن الناصر الدرعي (908هـ/ 1052وقيل 1085هـ)**: هو النحوي اللغوي، مجدد الطريقة الشاذلية، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسين بن ناصر ابن عمر الدرعي ولد بأغلان من درعة، له مؤلفات عدة منها: " العبد المنيب في التوسل بالصلاة على النبي الحبيب"، وقصيدة رائية في الديانات، تلقن عليه العياشي الذكر وقرأ عليه أصول الطريقة للشيخ زروق. ينظر: أبي سالم العياشي: **اقتفاء الأثر في ذهاب أهل الأثر**، تح: نفيسة الذهبي، المغرب: دار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ط1: 1996، ص: 149، القادري، نشر المثاني، ص ص: 20،21، المحبي محمد أمين (ت1111هـ/1699م)، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، دون دار الطبع، دون طبعة، ج3، ص: 238، الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار الصلحاء القرن الحادي عشر**، تح: عبد المجيد خيالي، المغرب/الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي، ط1: 1425هـ/ 2004م، ص ص: 299، 303.

أمثال: عبد الرحمن بن أبي القاسم بن القاضي[1] و عبد القادر ابن علي الفاسي[2] الذي أجازه سنة 1063هـ /1653م. ومن المشرق أخذ عن علي الأجهوري[3]، والشهاب الأفندي[4]. وكما أجيز فقد أجاز كثيراً فقد ذكر ابن زاكور أنه أخذ عن العياشي الأربعين النووية و« الوظيفة الزروقية » وأجازه وأباح له الرواية والتحدّث عنه [5].له مؤلفاته عدة كمنظومته في البيوع وأخرى في التصوف، وتصانيف في السنة كإظهار المنة على المبشرين بالجنة، وإتحاف الأخلاء بأسانيد الأجلاء وغيرها [6]. قضى

---

[1]- **عبد الرحمن بن القاضي (999/1082هـ)**: أتقن القراءة في القرآن الكريم وطرقها وأحكامها، ومذاهب القراء جميعاً، فسار شيخ الإقراء وأستاذ المغرب كله، أخذ عن: أبي عبد الله بن يوصف التملي وعن عبد الرحمن بن عبد الواحد السجلماسي، من تآليفه :" الفجر الساطع في شرح الدرر اللوامع، ينظر: الحضيكي، الطبقات، ص ص: 401، 402.

[2]- **عبد القادر بن علي الفاسي(1007هـ/ 1091هـ)**: من رواد الحركة التعليمية بفاس في القرن الحادي عشر، تصدر للتدريس اللغة العربية والفقه والأصول، كما أحيا علوم الحديث، وأهتم بالتربية والوعظ، أخذ عنه العياشي عدة علوم وبين طريقته في تحليل بعض النصوص والاستشهاد، ومن جملة ما قرأ عليه " الحكم العطائية " قراءة تفهم وتح. ينظر: العياشي، اقتفاء الأثر، ص: 36.الحضيكي، المصدر نفسه، ص ص: 468، 469، القادري، نشر المثاني، ج2، ص: 270.

[3]- **عَلي الأَجْهُوريّ (967هـ/1066هـ)**: هو أبو الحسن علي بن زين العابدين بن محمد بن أبي محمد عبد الرحمن الأجهوري، نور الدين أبو الأرشاد عرف بالأجهوري نسبة لقرية أجهور بريف مصر لقب بشيخ المالكية في عصره بمصر، ولد وتوفي في (967هـ-1557م/1066هـ-1656م)، أخذ عن شيوخ كثر منهم: محمد الرملي، وحسن الكرخي، وأخذ عنه البابلي، والنور الشبراملسي، والشهاب العجمي، تلقن عنه العياشي الذكر وأجازه بداره، له مؤلفات عدة منها: شروحه الثلاثة على مختصر خليل وشرح على ألفية بن مالك، المحبي أحمد، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج3، ص: 157، 160 القادري محمد الطيب، نشر المثاني، ج2، ص: 81، ينظر: العياشي، اقتفاء الأثر، ص: 149، الحضيكي، المصدر نفسه، ص ص: 468، 469.

[4]- **الشهاب الأفندي (ت 1069هـ)**: هو أحمد بن محمد الخفاجي أفندي، هو إمام الحنفية بمصر،له مؤلفات عدة منها: شرح الشفا في أربع مجلدات، وحاشية على البيضاوي، وكتاب " الريحانة" ذكر فيه من لقيه من الأعيان في الحجاز والمغرب وبلاد الروم"، سمع عليه العياشي مسلسلات ابن الجزري، وثلاثيات البخاري، وجملة من الأحاديث النبوية ومؤلفات الأفندي، وقد أجاز العياشي في سائر مروياته عن سائر أشياخه، وكتب له إجازة بخطه. ينظر: العياشي، اقتفاء الأثر، ص ص: 126، 127، الإفراني، صفوة من انتشر، ص ص: 231.

[5]- ابن زاكور، نشر أزاهير البستان في من أجازني بالجزائر و تطوان من فضلاء أكابر الأعيان، المصدر السابق، ص: 107.

[6]- ينظر: أبي سالم العياشي، رحلة العياشي الصغرى، ص: 17، عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، باعتناء: إحسان عباس، بيروت: دار المغرب الإسلامي، ط2: 1402/1982م، ج1، ص ص: 279، 325، مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص ص: 17،18،

العياشي جل حياته الاشتغال بالعلم والترحال إلى أن وافته المنية رحمه الله بمرض الطاعون في سنة 1090هـ/1679م. هذا المرض الذي انتشر بالمغرب بطريقة مرعبة خلال القرن الحادي عشر الهجري[1].

وبفضل غزارة علمه وصفاء تصوفه أضحى العياشي محدثاً وصوفياً وعالماً وشاعراً محنك، ارتحل للمشرق لأداء فريضة الحج ولطلب العلم كذا من مرة، كانت المرة الأولى سنة 1059هـ /1649موالثانية سنة 1064هـ /1653م، والمرة الثالثة سنة 1073هـ /1661م. وفي حجته الثالثة ألف رحلته الحجازية الشهيرة الموسومة ب« ماء الموائد »أو« الرحلة العياشية » في مجلدين كبيرين، كما تعرف بالرحلة الكبرى[2].

جمعت معلومات شتى في شكل موسوعي حول تجاربه ورحلاته الثلاث[3]، قال عنها الشيخ المسناوي في كتابه " جهد المقل القاصر ":" جمة الفوائد، عذبة الموارد، غزيرة النفع جليلة القدر، جامعة من المسائل العلمية المتنوعة ما يفوت الحصر، سلسة المساق والعبارة، مليحة التصريح والإشارة"[4].

يقول عنه الباحث المؤرخ مولاي بلحميسي:" رزق العياشي الدقة في الملاحظة والميل إلى الاستطلاع وروح المقارنة وساعدته منزلته الاجتماعية على كسب المعلومات والأخبار والعثور على ما

---

[1]- ينظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص ص: 454، 455، العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص: 149، مصطفى الغاشي، **الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة**، بيروت: الانتشار العربي، ط1:2015، ص: 156.سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي، ص ص: 376، 382 .

[2]-كما له رحلة صغرى تعرف ب" : **التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز**" أو " **تعداد المنازل الحجازية**" أو " رحلة العياشي الحجية الصغرى" وهذه الرحلة كتبها العياشي كتلخيص للرحلة العياشية الكبرى لتلميذه أحمد بن سعيد المجيلدي، وهو في بدء طريقه للحج سنة 1068م/ 1658م، حيث زوده بإرشاد عام عن لوازم السفر في طريق الحج من أمتعة وزاد.. ومنازل الحجيج وعرفه بمراكز المياه الصالحة والمشتريات النافعة، كما وجهه للأعلام الذين يأخذ عنهم والمزارات التي يقصدها. ينظر: أبو سالم العياشي، رحلة العياشي الحجية الصغرى، المصدر السابق، ص ص: 32، 35، عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات مكة في مئة رحلة مغربية ورحلة، ج1، ص: 200.

[3] – أبو سالم العياشي، اقتفاء الأثر، ص:12.

[4]- ينظر: محمد القادري، نشر المثاني، ج2، ص: 254، محمد الصغير الإفراني، صفوة من انتشر، ص ص: 325، 330.

فات غيره من الكتب والوثائق، وقد سجل في رحلته معلومات دقيقة ودون فيها ما لا يوجد في الرحلات الأخرى من أخبار البلاد والعباد" [1]، فهي موسوعة في علم الشريعة والتصوف كما وصفها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال[2].

تمتع فيها العياشي بحس مرهف وعين لاقطة وأذن واعية وقلم سيال؛ سجل فيها كل مشاهدته، وما سمعه أثناء أسفاره ووصف طريق الصحراء والسكان والعوائد، وأحوال المعاش والأمن، كما وقف بنفسه على جغرافية مختلف الأقاليم للبلدان العربية واطلع على معاناة الناس من ظلم الولاة ونهب الأعراب والتعرض للمجاعة والأوبئة، فنقل هذه المعاناة بأمانة[3]، بالإضافة إلى معرفته الجيدة بمختلف الأسواق وأنواع المبيعات وأكثرها وفرة وأحسنها جودة[4]، كما وصف المسالك التي سار فيها ركب الحج واصفاً الأقاليم والمدن والأودية والشعاب المختلفة التي مر بها من المغرب إلى الحرمين الشريفين مرورا بالحواضر الصحراوية بالجنوب الجزائري والتونسي فطرابلس والمدن المصرية، فوصف كل مدينة دخلها وتحدث عن أهلها وعاداتهم وتقاليدهم وخاصة المواسم الدينية، ولم يفته ذكر ما شاع بينهم من البدع[5]،كما وصف المساجد وأضرحة الأولياء وخزائن الكتب متعرضاً بشيء من التفصيل إلى الكتب التي أعجبته واطلع عليها،كما ذكر الشيوخ الذين التقى بهم في كل مدينة، وترجم للبعض منهم تراجماً تتفاوت طولاً وقصراً. وذكر المؤلفات والدواوين والمسلسلات التي رواها عنهم [6].

إذ حرص على تسجيل نشاطه العلمي كسيرة ذاتية له في كل حاضرة من الحواضر العلمية التي زارها؛ قراءة وسماعاً، إفادة وإجازة ودون طريقة عيشه في كل مدينة عرج عليها ووصف الأربطة والدور

---

(1) – بلحميسي مولاي، "ورقلة من خلال النصوص الأجنبية"، في **مجلة الآصالة**، الجزائر، 1977، ص: 20.

(2) – ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص ص: 184، 184.

(3)– ينظر: أبو سالم العياشي، اقتفاء الأثر في ذهاب أهل الأثر، ص: 9، مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص: 18، محمد ماكمان، الرحلات المغربية، ص ص: 199، 200.

(4) - ينظر: العياشي، اقتفاء الأثر في ذهاب أهل الأثر، ص: 35.

(5) - ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص ص: 135، 203.

(6) – ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص ص: 261، 401، 406، 408 .

التي نزل بها و ذكر ما قدّم فيها من دروس ومن ناظر من العلماء المجاورين أو الواردين وبالأخص في البقاع المقدسة [1].

كما سجل العيـــاشي بقلم منصف واقع المغرب الإسلامي اجتمـــاعياً وسياسياَ وما دبّ فيه من فتن واضـــطرابات ومجاعات. ولقد احتوت هذه الرحلة النصوص الكاملة للعديد من الرسائل وبعض الكتب المختصرة المفقودة والإجازات، أثبتها العياشي كلها أو اقتصر على بعض الفصول منها فمن هذه الرسائل :

- رسالة معالم التصديق لمعرفة دخول الفقير في الطريق لأبي عبد الله محمد العلمي الرفاعي.
- رسالة الخصال المكفّرة للذنوب المتقدمة و المتأخرة لابن حجر العسقلاني .
- كما أورد كتاب البكري الصدّيقي في المنازل و بعض النقول المطولة من كتاب الفوائد المنتقاة لأبي نصر التيرازي[2].

ومن الوصف العام للرحلة العياشية نخص منها بعض إفادات نافعة ودقيقة عن الجزائر وخاصة الطريق الصحراوي للركب الحج المغربي[3]، معرجاً على أهم مدنها وقراها، واصفاً عمرانها وأسواقها ومياهها وعلمائها وتاريخها ومسالكها ومنازل الحجيج بها، سواء في طريق الذهاب أو في طريق العودة[4]. فعلّق العياشي عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية وحتى الدينية لبعض حواضرها

---

[1]- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص ص:427، 441، 487، 518.

[2]- أبي سالم العياشي، **إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء**، تح: محمد الزّاهي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1999، ص ص: 54 ، 55.

[3]- يعتبر ركب الحج منعكس شرطي للرحلة الحجازية مجسداً للاعتبارات الدينية والعلمية والاجتماعية وهو كالشركة لها نظام خاص، إذ ينصب على رأسها شيخ أو أمير، يحصل على هذا المنصب من السلطة الحاكمة، وللركب الحج المغربي خمس ركائب تزيد وتنقص حسب الأزمنة وهو الركب الفاسي، والمراكشي والركب السجلماسي وهو ركب العياشي والركب الدرعي والشنقيطي، ينظر: رحلة الورتلاني، ص: 86، 88، مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص: 18، محمد ماكمان، المرجع السابق، ص: 133، مصطفى الغاشي، المرجع السابق، ص ص: 401، 408.

[4]- مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص 18 .

كمدينة وركلا على سبيل المثال،والتي زارها في شهر جانفي 1663م، فأول ما أبداه عنها التدني الشديد للمستوى العلمي بالمدينة، ممثلاً في إمام مسجدها بعد تتبّعه الشديد له في خطبته، والذي تخوف من أن تجزي صلاة الجمعة خلفه، فكانت خطبة الجمعة التي ألقاها ذاك الأخير كما وصفها العياشي:" وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتحريف والتقديم والتأخير، مع إدغام أكثر حروفها، حتى كأنها همهمة، فكنت أتخوف ألا تصح لنا معه جمعة إن كانت صلاته كخطبته فنجى الله فأحسن في قراءة الفاتحة. فما ظننا أن صلاتنا معه مجزية"[1]. وبعد انتهائه من الخطبة والدعاء، بعث إليه العياشي أحداً من أصحابه، ليسأله عن" المهدي" المدعو له في الخطبة أهو المنتظر أو أحد المنتحلين ذلك، فإذا هو لا يفقه شيئاً مما قاله، إلى جانب كثرة اللحن والخطأ والتقديم والتأخير في تلك الخطبة، ودأب الجهل بالتوارث متواصل مع من سيخلفه في إمامة ذاك المسجد والذي لا يقل عن أخيه جهلاً، رغم أنهما معروفان بأبناء الفقيه أي أن أباهما كان من قبل إماما، فهم يتوارثون الإمامة أبا عن جد، وقد عبر عن ذلك العياشي أبلغ تعبير ببيت الشعري في قوله:

ولكـــن البـــــلادَ إذا اقشعرتْ وصوَح[2] نبتُـــها رُعـــــى الهشـــــيمُ

فيتجلى من هذا الوصف بصورة مؤلمة الواقع المرير للحياة الفكرية بالمدينة في تلك الفترة، وفي نفس الصياغ جاء ذكر للنفوذ وللولاية والسلطة الحاكمة بها: " ودعا في خطبته للإمام المهدي ثم للسلطان الأعظم الخاقان الأفخم محمد بن إبراهيم بن مراد ثم للسلطان بلده مولاي علاهم[3]"، فيستشف من هذا الكلام أن الصحراء الجزائرية آنذاك كانت تخضع لحكم الجماعة، أو ما يعرف

---

[1] -العياشي، المصدر السابق، ج1،ص:114 .

[2]- **صوح**: تصوح البقل وصوح: تم يبسه، وقيل : إذا أصابته آفة ويبس. وهذا البيت لأبي علي البصير. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار الصادر، ج2، ص ص:519، 520، المعجم الوسيط، ص: 528.

[3] - **مولاي علاهم**: هو مولاي علاهم بن مولاي محمد، وهو من أسرة شريفة استقدمت من فاس المغربية، وقد طال حكمها من 1602 إلى 1849م، أم عن مولاي علاهم فقد حكم مدينة وركلا من 1653إلى 1682م، خلفاً لمولاي عبد الغفار وقد نصب حاكما على وركلا باتفاق شيوخ والأعيان النبلاء للبلاد، أحدث خلالها إصلاحات جمة، وكان يحكم بشيء من شدة. ينظر: الأزهاري عباز، **نظام المشايخ في ورقلة بين العهدين العثماني والفرنسي**، مذكرة رسالة ماجستير، إشراف: عاشوري قمعون، جامعة الوادي: 2013/ 2014م، ص ص: 39 ، 42.

بحكم الأمراء أو الإمارات المحلية[1]، وإن كان النفوذ العثماني شكلياً بها أو روحياً فقط، فقد كانت مدينة وركلا تتمتع بالاستقلالية في تسير شؤونها، كان يحكمها أمير هو " مولاي علاهم" تربطه صلة قرابة بحكام مدينة تقورت من بني جلابي، ولقد صادفت زيارة العياشي نجاة هذا الأمير من مؤامرة دبرها ضده أفراد من حاشيته من الأعيان والأشراف[2]، وبفضل مساعدة السواد من الناس من رعيته حافظ " مولاي علاهم " على سلطته، وفتك بالمتآمرين ضده. ولكن العياشي ساءه ذلك، ووصف هذه الواقعة بالدموية، وبأنها تعد هفوة من هفوات هذا الأمير؛ أسقطت من منزلته عند الكثير من الناس، مع أنه معروف بحسن السيرة ولين الجانب ودماثة الأخلاق، مع ما ألتمسه منه العياشي بنفسه، فمدحه لذلك ببيتين من الشعر[3]، كما أثنى عليه بأن له شيء من الثقافة، فهو يمتلك خزانة من الكتب في قصره تحوي نحو أربعين مجلداً[4]،وله بعض الإلمام بالمسائل الفقهية، ومع ذلك كانت تلك الحادثة الدموية، كما يشير سبباً في توتر العلاقة بين الأمير" علاهم" وأخواله من بني جلاب حكام تقورت، والحقيقة أن التنافس بين الأسرتين كان قديماً بسبب الطموح لمد النفوذ والهيمنة على المنطقة. كما جاء في وصفه للمدينة إلى تأزم العلاقات بين ورقلة وجيرانها مشايخ النقوسة بني بابية[5]

---

[1] – صالح بوسليم، محمد الزين، ملامح من الحياة العامة بالجزائر في كتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني، في **مجلة الحوار المتوسطي**، تصدر عن مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، العدد الخاص المزدوج: 10/9، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، سبتمبر: 2015، ص: 84.

[2]– أصلهم من بقايا الأدارسة وبني مرين، سماهم العياشي(بيضة البلد وعصبة أهلها) كانوا يتمتعون بامتيازات وسلطة واسعة وعاشوا حياة الترف والبذخ، فجمعوا الثروات الضخمة وأصبحوا جماعة لها نفوذ يحسب له حساب، يشكلون طبقة إقطاعية مهيمنة على مقاليد الأمور، ولما أراد الأمير الحد من نفوذهم، تأمروا عليه لخلعه لكنه كشف كيدهم، واستعان بعامة الشعب على الفتك بالمتآمرين. ينظر: الأزهاري عباز، المرجع السابق، ص: 42.

[3]– فإن ولاة الأمـر في كل بلـدة كثير ولكن الأمير عـــلاهم علاهم علاهم إذ تحلوا بحلية من العدل والممدوح رقم حلاهم، ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص:117 .

[4]– منها كتاب التوضيح والتتائي وبهرام والحواشي على الصغرى، ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص:117، مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص: 30.

[5]– **مشايخ النقوسة**: امتد نظام الحكم في أنقوسة من عام 1021 إلى عام 1909، وكان الحكم فيها ملكياً مطلقاً، حكمها آل بابية طول هذه الفترة نتيجة تجانس التركيبة البشرية والانسجام الكبير بين أفرادها، تعاقب عليها 30 ملكاً، من بينهم محمد

وسلاطين وادي ريغ بني جلاب[1]، إلى حد الشك في كل من يتصل بإمارة وركلا حتى الحجيج، وهذا راجح بلا شك للتنافس حول الزعامة وبسط النفوذ[2].

ومما سبق يتضح أهمية وقيمة الرحلة العياشية، فهي كالماء للموائد بالنسبة للمصادر التاريخية، استفاد منها الكثيرين،السابقين منهم واللاحقين، نهلوا منها واقتبسوا من فوائدها كتلميذه أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي عندما دوّن رحلته (الناصرية).كما نقل الحسين الورتلاني من رحلة العياشي فصولا في رحلته" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

وبالنسبة لأبي القاسم الزياني أخذ فقرات وضمنها كتابه الترجمانة الكبرى، أما عن محمد بن قاسم بن زاكور، فحلاه بأفضل تحلية في رحلته الفهرسية" نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان "، كما نوه المؤرخ محمد بن الطيب القادري أهمية هذه الرحلة فاعتمد عليها في كتابة نشر المثاني، ونوه بفضلها قائلاً:" وكان لنا فيها عون على تراجم كثيرة كما تقدم "[3].

كما قام المستشرق الفرنسي بربريجة سنة 1846، بترجمة الأجزاء الخاصة بجنوب الجزائر مع ترجمة مختصرة للرحلة الناصرية في مؤلف واحد"، كما ذكره كراشكوفسكى، ولفي بروفنسال وغيرهم في

الثالث الذي امتد حكمها ل 22 سنة، فترة زيارة العياشي للمنطقة، وفي فترة حكمه بالذات ذهب هذا الأخير للجزائر وجلب الأتراك إلى ورقلة حيث وهبوه لباساً أحمر وأربع قلنسوات حمر، وغرم أهل ورقلة ب 25 خادمة، يحتفظ بواحدة لحاكم آل بابية ويدفع بالأخريات للأتراك. ينظر: الأزهاري عباز، المرجع السابق، ص ص: 45، 48.

[1]- **سلاطين وادي ريغ**: هم سلاطين بني جلاب أيضاً، أسست هذه السلطنة ببني جلاب بتقرت نسبة إلى سليمان الجلابي امتد حكمها أربعة قرون، تداول عليها ستة وثلاثين حاكماً، وقد بلغ نفوذهم حتى منطقة وادي سوف ووادي مية، حتى سقوطها =على يد الاستعمار الفرنسي ديسمبر 1854، ينظر: يمينة بن صغير حضري، قصور منطقة وادي ريغ قصر تمرنة القديمة نموذجاً مابين القرن (8هـ- 13هـ/14م-19م) دراسة تاريخية أثرية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2014، ص: 272.

[2]- العياشي، المصدر السابق، ج1، ص:114 .

[3]- ينظر: الحسين الورثلاني، الرحلة الورثلانية، أبو القاسم الزياني، الرجمانة الكبرى، ابن زاكور، نشر أزاهر البستان، القادري، نشر المثاني، ج2، ص :255.

مؤلفاتهم[1]. وللعياشي رحلة ثانية، وهي رحلة حجية صغرى سميت بـ" تعداد المنازل الحجازية " أو " التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز "، وهي رحلة مختصرة حدد فيها العياشي المنازل والمسالك التي يمر بها ركب الحاج انطلاقاً من سجلماسة إلى البقاع المقدسة، وقد ألّفها كرسالة إلى صاحبه العلامة القاضي أبي العباس أحمد بن سعيد المليدي[2]. بتاريخ 28 ربيع الأول عام 1068هـ/موافق نحو 03 جانفي 1658م. أبدى خلالها العياشي نصحه وتوجيهه لصديقه وبين له خصائص المراحل وتعدادها وقد ترجمها والد الدكتور محمد الأخضر إلى اللغة الفرنسية[3].

3- رحلة ابن زاكور الفاسي (1076هـ/1665م- 1120هـ/1708م):

هو محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد، أبو عبد الله بن زاكور الفاسي، أديب ورحالة وشاعر، ولد بفاس على أرجح الأقوال سنة 1076هـ/ 1665م[4]، تعلّم بفاس، ثم انتقل إلى مدينة تطوان، فأخذ عن علمائها من بينهم: أبو محمد عبد القادر الفاسي، وأبو عبد الله محمد بن عبد القادر، وأبو عيسى محمد المهدي وعبد السلام القادري الحسني [5] وغيرهم.

---

[1]- ينظر: كراتشوفسكي، **تاريخ الأدب العربي الجغرافي**، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة : التأليف والترجمة والنشر، ط: 1957، ج2، ص ص: 731، 732، ليفي بروفنسال، مؤرخو الشرفاء، ص ص: 184، 184،محمد ماكمان، الرحلات المغربية، ص: 206.

[2]- **المليدي**: هو أبو العباس أحمد بن سعيد ويقال له المجيلدي أيضاً، ونسبته الميلدي إلى قبائل بني ميلد في الأطلس الأوسط المغربي، ومن مراكزهم آزرو. وهو قاضي فاس العليا ثم مكناس من أكابر الأعلام، أجاز له أبو سالم العياشي، له تآليف منها =شرحه لمختصر خليل سماه " إمام الحواشي"، توفي رحمه الله عام 1094هـ/ 1682م، ودفن بفاس. ينظر: أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص: 19.

[3]- محمد ماكمان، الرحلات المغربية، ص: 27.

[4]_ اختلف في تاريخ ولادته فمنهم من يقول أنه ولد في سنة 1075هـ، ومنهم من يقول 1079هـ، أما ليفي بروفنسال يحددها بمنتصف القرن السابع عشر ميلادي ويصادف ذلك قدوم ابن زاكور للجزائر سنة 1094هـ وسنه 34 سنة. ينظر: ابن زاكور، نشر أزاهر البستان، صص: 15، 16، ليفي بروفنسال، المصدر السابق، ص ص: 204، 205.

[5] أبو عيسى محمد المهدي وعبد السلام القادري الحسني، ابن زاكور، المصدر السابق، ص: 21.

ثم قدم للجزائر بحراً سنة 1093هـ/1683م، فأخذ عن أبو حفص عمر بن عبد الرحمن المانجلاتي[1].

وأبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني[2]، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم قدورة[3]، وقد نال الإجازات منهم في " مروياتهم ومؤلفاتهم "[4] .

أشتهر بميزته الأدبية شعراً ونثراً إذ جمع بين فنون الأدب والتاريخ والتصوف، فقد بدأت بشائر نبوغه مبكراً إذ أخذ ينظم الشعر الجيد منذ سنة 1092هـ/1681م، ويقدم على التأليف سنة 1095هـ/1683م. له مؤلفات عدة منها: الاستشفاء من الألم في التلذذ بذكر صاحب العلم، ونشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، والمعرب المبين عما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النسرين، والحلة السيراء في الحديث البراء، ومعراج الوصول إلى سماوات الأصول، كما ألف في الطب كتابه الدرة المكنوزة في تذييل الأرجوزة وهو تذييل لأرجوزة ابن سينا في الطب، وله مؤلفات أخرى في الأدب واللغة وعلم التوقيت. توفي ابن زاكور يوم الخميس عشرين من محرم 1120هـ/ 1708م.

---

[1]- **أبو حفص عمر المانجلاتي(ت1104هـ/1693م)**: الجزائري الدار والمنشأ، فقيه وقاضي المالكية بمدينة الجزائر، تتلمذ على يد عبد الواحد الأنصاري، وأبو عثمان قدورة، تصدى للتدريس في كثير من العلوم. ينظر: ابن زاكور، المصدر السابق، ص ص:41، 46 .فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، ص ص: 130، 133.

[2]- **أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني**: رحل للمشرق وأخذ عن ابن الكماد القسنطيني وقد أجازه بسند معروف، كما أخذ عنه ابن زاكور وأجازه إجازة عامة سنة 1094هـ، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 458.

[3]- **أبو عبد الله محمد بن إبراهيم قدورة (ت1107هـ/1695م)**: ولد ب (1034هـ/1624م) بالجزائر درس على شيوخها وعلى رأسهم والده سعيد قدورة، تولى منصب الإفتاء المالكي والخطابة بالجامع الأعظم خلفاً له. ينظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 329، عادل النويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 259، فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، ص: 214.

[4]- مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال الرحلات المغاربة في العهد العثماني، ص: 19 .

لكن ابن حمادوش الجزائر فقد ذكر أن وفاة ابن زاكور كانت سنة 1122هـ /1710م[1]، ودفن خارج باب الجيسة[2].

ومن مؤلفاته المهمة كما أشرنا سابقاً رحلته المسماة ب" نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان"، وتصنف هذه الرحلة أدبياً إلى ما يسمى ب: فهرسة الرحلة؛ فهي فهرسة تكتب في شكل رحلة، يسجل فيها المؤلف ما رآه أثناء رحلته، مع إثبات أسماء الشيوخ الذين لقيهم وأخذ عنهم وما استفاد في مجالسهم من علوم ومرويات وذكر مجمل ما استفاد من روايات الشيوخ ونصوص إجازاتهم، مع وصف جغرافي وتاريخي للمناطق التي مرّ بها[3].

وهذه الرحلة تنقسم إلى قسمين متساويين تقريباً، فالأول خاص بالجزائر وعلمائها وطرق التدريس بها، والثاني حديث عن تطوان ومشايخها[4]. ولقد جاءت هذه الرحلة الفهرسية والتي تردد فيها ابن زاكور بين الجزائر وتطوان،كرحلة تواصل علمي بين البلدين ولتقوية الصلة بين علماء القطرين والوقوف على أصناف الفنون والمؤلفات التي كان يدرسها الجزائريون آنذاك، والتي استغرقت سنة كاملة ما بين سنة 1093هـ إلى 1094هـ[5]، ذكر من خلالها تراجم كثيرة لشيوخه علماء الجزائر الأفذاذ؛ أمثال: العلامة أبو حفص عمر بن محمد المانجلاتي، وأبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني، وأبو عبد الله محمد بن سعيد بن إبراهيم قدورة، وأبو عبد الله ابن خليفة.وقال سأكتفي بذكر هؤلاء النخبة من العلماء،كالاكتفاء بالبحر عن الجداول والأنهار، وبشموس النهار عن الدراري والأقمار؛ وهذا يعني أن العلماء المدرسين بمدينة الجزائر في زمانه،كان عددهم يربو على ما ذكر صاحب الرحلة،

---

(1)- ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص: 58.

(2)- ينظر: ابن زاكور، المصدر السابق، ص ص: 17،27، ليفي بروفنسال، المصدر السابق، ص ص:204، 205، محمد ماكمان، المرجع السابق، ص: 86.

(3)- ينظر: عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ص ص :185، 186، محمد ماكمان، المرجع السابق، ص ص: 28،29.

(4)- مولاي بلحميسي،المرجع السابق، ص: 20.

(5)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 87، القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج3 ، ص:203، البغدادي إسماعيل باشا: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طهران (خيابان بوذرجمهوري): مكتبة الإسلامية، ط: 1947، ج2، ص: 310.

لكونها عاصمة البلاد، فقد كانت قبلة للعلم تشد إليها الرحال، إلا أنه اكتفى بطليعتهم عنده، كما تحدث عن شيوخ هؤلاء المشايخ المشارقة منهم والمغاربة.

كما لم يفته إلقاء الضوء عن أهم المصنفات والكتب التي كانت تدرس والتي عرفت رواجاً منقطع النظير؛كألفية العراقي، والعقائد للسنوسي وجمع الجوامع للسبكي وشروح المحلي وولي الدين العراقي والكوراني، ومختصر بن الحاجب ونظم لعبد الرحمن الأخضري، وآخر لأبي إسحاق التلمساني (في الفرائض)...وغيرها من المؤلفات التي عرفت تداولاً علمياً ساطعاً في المحافل العلمية آنذاك، وهذه الكتب في مجملها تمثل معظم جوانب الحياة الثقافية وقسطاً معتبر من العلوم العقلية والنقلية للجزائر العثمانية، من علم الحساب والمنطق والنحو والعروض والصرف والتوحيد والحديث والتفسير والفقه وكل فن كان شرطاً مطلوباً في العالم الإسلامي[1]. إلى جانب أحداث تاريخية مهمة تخص الجزائر في تلك الفترة؛ كغارة الأميرال دوكين، الغارة الفرنسية الفاشلة على الجزائر في 28 أوت 1682م[2]، ولهذا فقد غدة رحلة ابن زاكور رغم صغر حجمها من أهم المصادر التي غطت فترة مهمة من فترات الدولة العثمانية في الجزائر في الجوانب السياسية والثقافية خاصة[3].

4- رحلة أبو القاسم الزياني (1249/1147هـ، 1734م/1833م):

هو أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الزياني، رحالة وأديب ووزير وعالم وسفير مغربي، من قبيلة زيان الصنهاجية بنواحي فاس، ولد بفاس سنة 1147هـ/1734م، كان جده علي بن إبراهيم إماماً في عهد المولى إسماعيل العلوي[4]، تلقى الزياني الأسس الأولى للعلوم العربية والفقه والحديث والتفسير عن والده، ثم عن ثلة من علماء فاس بجامع الأندلس ومدرستي الصهريج والعطارين

---

[1]- ينظر: مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص ص: 32، 33.

[2]- هذا الفشل الذي أدى بفرنسا إلى طلب السلام مع الجزائر والذي نادى به الدبلوماسي الفرنسي دينيس ديسو المتفقه في لغة التفاهم مع الجزائريين. ينظر: ابن زاكور: المصدر السابق، ص ص:41،77، محمد ماكمان: المرجع السابق، ص: 87.

[3]- ابن زاكور، المصدر السابق، ص: 32، محمد ماكمان، المرجع السابق، ص: 88.

[4]- ينظر: مصطفى الغاشي، **الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة**، بيروت- لبنان: الانتشار العربي، ط:1، 2015، ص: 232، محمد ماكمان، المرجع السابق، ص ص: 28،29.

وبجامع القرويين سنة 1169هـ/1759م، ومن المشايخ الذين أخذ عنهم: محمد بن الطيب القادري، صاحب " نشر المثاني"، وعبد القادر بوخريص وأحمد بن الطاهر الشرقي ومحمد بناني والتاودي بن سودة والفقيه أبي حفص عمر الفاسي، وقد أتاح تعلمه على هذه النخبة من العلماء اكتسابه ثقافة عامة جيدة في علوم الدين واللغة والأدب[1]. ليخبرنا الزياني بعدها عن سر ميوله التاريخية بعثوره على كناش لجده علي الخبير في علم الأنساب أين عرف أن أصوله تعود إلى " مالو " و"مازيغ" جد البربر ثم " حام بن نوح "، حينئذ اكتشف أنه يحتاج إلى الكثير من البحث والاطلاع عبر القرون الخوالي حتى يتمكن من التحقق من نسب جده وقد ساهم هذا الكناش بشكل حاسم ومباشر في رسم مسار الصيانة العلمية والسياسية للزياني، أين نبهه إلى ضرورة العناية بعلم التاريخ وعلم الأنساب فخلق لنفسه قضية كانت سبباً لمعرفة أحوال العالم والمجتمع والثقافة والعمران وقد ضمن هذا الحافز الذاتي للزياني تمكنه من إتقان تاريخ المغرب والقبائل والملل والنحل، بل تجاوز ذلك إلى علم الجغرافيا التاريخية وطبيعية، فاطلع على معلومات تهم البحار والأنهار والجزر والنبات والحيوان والمعادن والأحجار وكفى بها نعمة وفضل ولما أثر عنه من بعده[2]. فبهذا التكوين العلمي المتميز للزياني أهله وبطموحه الخاص للسلطة والاتصال بالبلاط الملكي المغربي، تقلب على إثرها في مناصب عليا عدة ككاتب للسلطان المغربي محمد بن عبد الله ثم سفيراً له للسلطان العثماني عبد الحميد الأول سنة: (1200هـ/1786م)، محملاً بالهدايا كمحاولة للتقرب والتعاون مع العثمانيين، وفي فترات لاحقة عين إما عاملاً أو واليا على ولايات عدة كتازة و تافيلالت[3]، وآخرها ولاية وجدة لأجل إخماد فتنة آنكاد، الذين عاثوا في شرق المملكة فساداً، فهاجموا الزياني ونهبت أمتعته وخشي أن يحمله السلطان

---

[1]- ينظر: جمال حيمر، أبو القاسم الزياني عناصر بيوغرافية وبيبلوغرافية، مقال ضمن **منشورات مكناسة** كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، العدد: 21 ، ص ص: 2،103 ، 114.

[2]- ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص ص: 102، 104.

[3]- مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية والشرق العثماني، ص ص: 235، 236.

المغربي مسؤولية الهزيمة فلجأ للمغرب الأوسط (الجزائر) بعد أن أعيته الولاية[1]، فاستراح منها بشهادته في كتابه " الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب": " واسترحت من أهل المغرب وتقلباته وخلعت ربقة الرق وتغلباته"[2].

فنزل ضيفاً بمدينة وهران على الباي محمد الكبير (1779م – 1797م) [3]، ثم التحق بمدينة تلمسان أين قضى مدة طويلة بجوار أبي مدين الغوث بالعباد مدرساً للطلبة العلم ومذاكراً ومؤنساً لفقهائها وللمسامرة والمحاضرة، وقد أطلعوه على تاريخ المدينة وأحوزها وغيرها من الأقاليم العربية والإسلامية، فقدم من خلالها بعد هذا المقام وصفاً دقيقاً عن الحياة الثقافية لمدينة تلمسان[4] وقد ساءه ما وجد من مدعى العلم من ذوي القضاء وقد استفحلت آفة الرشوة بينهم وفي نيلهم تلك المناصب و التي أسندت حسب الزياني لغير أهلها وهذا كله وجله بسبب تحكم الترك بدواليب حكمها متأسفاً عن تاريخها العتيد فيما مضى[5].

ومع ذلك مكث بتلمسان حوالي سنة ونصف انقطع فيها للمطالعة والتأليف رحل بعدها للمشرق؛بداء من مدينة الجزائر أين أكرمه أهلها وحكامها. وبعد أيام خطر له أن يزور اسطنبول مرة ثانية ليحج ضمن الركب العثماني. فبدأ رحلته ماراً بقسنطينة وتونس، أين جال في المشرق بين عواصمه؛ حيث استطاب له المكوث بمصر مدة معلومة ليعود منها إلى الحجاز ومن هناك إلى فلسطين والشام[6]. ثم عاد إلى الجزائر قادما إليها عن طريق تونس وقسنطينة فوجد الترحاب والضيافة

---

[1]- ينظر: عبد الله كنون، **مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة**، تقديم: محمد عزوز، المغرب/الدار البيضاء:دار ابن حزم، ط1: 1430هـ-/2010م، ج3، ص ص: 623، 626، صالح بوسليم ، محمد الزين، الجزائر في الرحلات المغربية في العهد العثماني، المرجع السابق، ص ص: 86، 87.

[2]- أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً**، تح: عبد الكريم، الرباط: دار النشر المعرفة، ط: 1412، 1991م، ص: 140، مولاي بلحميسي:المرجع السابق، ص: 21.

[3]- مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص: 20.

[4]- مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص: 20. بوساليم صالح، المرجع السابق، ص: 87.

[5]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص:144.

[6]- مصطفى الغاشي، المرجع السابق، ص: 237، جمال حيمر، " أبو القاسم الزياني عناصر بيوغرافية وبيبلوغرافية، ص: 3.

والمساعدة. كان ينوي أن يستقر بتلمسان غير أن ضغوطات والحاجات عديدة من المغرب جعلته يغادر مكانه المحبوب بالعباد وجوار "أبي مدين" ويرجع في النهاية إلى بلاده بعد أن استدعاه المولى سليمان وكتب له عهد الأمان[1]، فغادر الزياني تلمسان متوجهاً إلى مسقط رأسه بفاس، سنة 1210هـ/1795م، كلف على إثرها بمهمة تفتيش مراسي المغرب ومراقبة عمال الموانئ، وفي سنة 1213هـ/1798م، حيث تقلد منصب الكتابة والوزارة والحجابة إلى سنة 1218هـ/ 1803م، حيث ولاه السلطان سجلماسة وظل الزياني ينعم بثقة السلطان إلى أن كثر حساده فأبعد عن مناصب السلطة والنفوذ ابتداء من سنة: 1242هـ/ 1828م. تفرغ على إثرها للتدوين والتقييد منها ما ألفه قبل عزلته ومنها ما ألفه بعد اعتزاله الحياة السياسية[2] نذكر منها: الترجمان المعرب عن الدول المشرق والمغرب[3]. البستان الظريف في دولة أولاد مولاي على الشريف[4].

---

[1]- وقد جاء في هذا العهد على لسان الزياني في كتابه الترجمانة : " إني أعلم أنك فررت من الخدمة السلطانية وأعرف ذلك من قديم، فإني عاهدت الله ورسوله لا أكلفك بخدمة ولا كتابة ولا أقلدك عملاً ...ولك أمان الله ورسوله الذي جئت من حرمه " ينظر: أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص: 380.

[2]- ينظر: أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص: 144، مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص: 20، مصطفى الغاشي، المرجع السابق، ص: 237.

[3]- دون فيه التاريخ من بد الخليقة إلى عصر المؤلف، فيذكر آدم عليه السلام وما بعده من أحداث ثم الدول التي سبقت الإسلام ويتبعها برصد الدول الإسلامية بالمشرق والمغرب مع التفصيل فيما يخص الأتراك العثمانيين والسعديين والعلويين. فرغ منه سنة 1228هـ/1813م، طبعت شذرات منه باسم " الخبر عن أول دولة من الأشراف العلوييين من أولاد مولانا محمد الشريف بن علي، ينظر: أبو القاسم الزياني، الخبر عن أول دولة من الأشراف العلوييين..، ص ص:1، 108، عبد السلام بن عبد القادر بن المري، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، بيروت: دار الفكر، ط1: 1430هـ-/2010م، ص: 96، عبد الله كنون، المرجع السابق، ص ص: 641، 643، جمال حيمر، المرجع السابق، ص: 5.

[4]- يستعرض فيه تاريخ الدولة الإسلامية ثم الدولة العلوية وقد سماه أيضاً الروضة السليمانية دون فيه تاريخ الدولة العلوية منذ نشأتها إلى حدود سنة 1817. رتبه على مقدمة وثلاثة عشر باباً وفصول أربعة وجامعة وخاتمة، توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط نسخة منه على خط المؤلف تحت رقم: 1575. ينظر: عبد السلام بن عبد القادر المري، المرجع السابق، ص: 87، عبد الله كنون، المرجع السابق، ص ص: 644، جمال حيمر، المرجع السابق، ص: 5.

ألفية السلوك في وفيات الملوك[1]، رحلة الحذاق لمشاهد الآفاق في الجغرافية[2].

أما عن رحلته الموسومة ب:" الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براَ وبحراً " والتي أوجز عنها بتفاصيلها فيما سبق فهي رحلة موسوعية شبيهة بالرحلة العياشية إلا أنها أشمل وأعم في الزمان والمكان والمحصول العلمي بمختلف أصنافه ومشاربه، فقد جمعت أمصار المعمور كلها براً وبحراً، رسمها على تقسيم الأقاليم السبعة من المغرب إلى المشرق بالصين، ومن أقصى السودان في الجنوب إلى أقصى بلاد الصقلب في القاصي[3]. فقد جمعت الترجمانة الكبرى: " أخبار العالم براً وبحراً وما تخللها من الأمصار، والمدن والقرى والقفار، والبحر والجبال والأنهار والعيون والمعادن والآبار، وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار، وما يؤيد ذلك من التفسير والآثار، ولي في كل مقام منها مقال، وفي كل روض منها مجال، حسبما يقتضيه الحال من نصوص قرآنية وتأويلات تفسيرية وأحاديث نبوية، وفتاوى فقهية ومواعظ صوفية...وشواهد الأشعار...وأسامي لغوية..."[4]، وقد ضمنها وصف رحلاته الثلاثة إلى الديار المقدسة[5]، ورحلته السفارية لإسطنبول وغيرها من البلاد الإسلامية.

---

[1]- أرجوزة ن ألف بيت لخص فيها تاريخ دول الإسلام مشرقاً ومغرباً، فذكر خلفائهم وملوكهم ووفياتهم وابتداء من الهجرة إلى سنة 1222هـ/1807م. ينظر: عبد السلام بن عبد القادر المري، المرجع السابق، ص: 258.

[2]- يسمى أيضاً "رحلة الحذاق بمشاهدة البلدان والآفاق" أو " الدرة السنية الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الخوارج المبسوطة وبيان الأقاليم السبعة وما جاورها المحطوطة والمعتزلة والرافضة والجهمية والقدرية والزنادقة "،لخصها من رحلته الكبرى" الترجمانة" تقع في نحو أربعة كراريس لا يزال مخطوطاً بجامع القرويين بفاس، تحت عدد 708. ضمن مجموع. ينظر: عبد السلام بن عبد القادر المري، المرجع السابق، ص: 239، عبد الله كنون، المرجع السابق، ص ص: 644، جمال حيمر، المرجع السابق، ص:7.

[3] - أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص ص: 36، 37.

[4]-المصدر نفسه، ص: 34.

[5]- تمت أحدهما سنة 1208هـ/1794م، والثانية سنة:1226هـ/1811م، وقد جمعهما في مؤلف واحد وهو:" الترجمانة الكبرى"، إلى جانب الإشارة إلى رحلته شبابه الأولى مع والده. ينظر حول تفاصيل هذه الرحلات: عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات مكة في مئة رحلة مغربية ورحلة، ص ص: 472، 478.

وما يهمنا هنا ما دوّنه عن زيارته للجزائر وما رصده من وصف لمدنها وحكامها واستحضار تاريخها كمدينة تلمسان التي أشرنا سالفاً وكذا مدينة الجزائر التي أقام بها أربع وعشرون يوماً في طريق الذهاب إلى المشرق، وسبعة أشهر قبل عودته إلى المغرب، وقد صادفه انتشار الوباء، الذي منعه من الإقامة بداخلها، ومع ذلك لم يمنعه من زيارتها ووصف أحد جوامعها، كجامع كتشاوى الذي صادف تجديد بنائه عند زيارته فأعجب بالبناء والهندسة والألوان وترك وصفاً رائعاً لهذا المسجد لم يخص به غيره، كما تكلّم عن سكان الجزائر وعن قرصنة النصارى، وما تعرضت له المراكب الجزائرية من اعتداءات في البحر الأبيض المتوسط، وكذا تكلّم عن قسنطينة وحاكمها حسان باي، وعن أوضاعها السياسية آنذاك وعن جوانب مهمّة من الحياة الثقافية، حيث التقى بنخبة من علمائها من الفقهاء والأدباء وأهل الفضل كالشيخ عمر الصايغي وأبو الحسن علي بن مسعود الونيسي وأبو القاسم المحتالي، وأحمد بن المبارك العلمي والسيد ونيس البورنياري، و رغم فضلهم فقد أهمل أهل التراجم الكثير منهم[1].

واستمرت عزلة الزياني من عام 1224هـ/ 1809م، وهو تاريخ إعفائه من الخدمة السلطانية إلى غاية سنة 1249/ 1833، حيث وفاه الأجل المحتوم في عصر يوم الأحد 4 رجب 17تشرين الثاني/ نوفمبر بعد أن تعدى عمره المائة سنة، وكان ذلك في عهد السلطان المولى عبد الرحمن، الذي أمر بدفنه في الزاوية الناصرية، بالصحن المتّصل بالقبة بحي السياح بجوار الحرم الإدريسي بفاس[2].

وممّا تقدم يتّضح لنا أهمية موقع الجزائر بالنسبة لكل الرحالة المغاربة، فقد كان لزاماً على كل الأركاب الحجية المغربية العروج عليها والاستفادة من خيارتها وخبرات علمائها،كما سحر العديد من الرحالين المغاربة بطبيعتها ومناظرها الخلابة وصحرائها المترامية الأطراف؛ فسجلوا ما جادت به قرائحهم، مما رأوا وسمعوا وقرأوا بين طيات الكتب والمخطوطات، فجاءت كتابات أولئك الرحالين؛ كالمرأة التي عكست صورة النظم السياسية والواقع الاجتماعي والحياة الاقتصادية والثقافية في كثير من

---

[1]- أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص ص: 148، مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص ص: 37، 38.

[2]- عبد الله كنون، المرجع السابق، ص ص:623، 653، مصطفى الغاشي، المرجع السابق، ص: 20.

الأحيان، ولهذا كانت الرحلات المغربية بمثابة ركيزة أساسية ومصدرا هاما لمعرفة جوانب هامة من تاريخ الجزائر الحديث لا يستغنى عنها في الأبحاث العلمية الجادة.

المبحث الثالث: الجزائر في الرحلات الغربية

كان للرحلات الغربية هي الأخرى لها نصيب في تدوين حيثيات تاريخ الجزائر العثماني، فقد كانت الجزائر محطة وهدف للعديد من الرحالة الأوروبيين والتي أسهمت بدورها في رفد النصوص الرحلية التي جعلت من الجزائر محور لها، رغم التحفظ الذي يجب أن يطبع التعامل معها، لكونها كانت من جغرافية معادية وتخدم أهداف سياسية توسعية في الغالب، ويمكن أن نتحدث عن أبرز الرحلات في مايلي:

1- رحلة مارمول كاربخال:

مارمول كاربخال هو رحالة وسائح ومؤرخ وكاتب إسباني وراهب، ولد بغرناطة وعاش في القرن السادس عشر ميلادي، اشتغل ضابطاً في جيش الإمبراطور شارلكان وشارك في الحملة التي شنها على تونس، ووقع أسيراً وبقي في شمال افريقيا قرابة ثماني سنوات[1]، والتي فيها زار الجزائر، وجمع المعلومات عنها ليقوم بعدها بتحرير كتابه المعروف بإفريقيا معتمدا على حسن الوزان كمرجع أساسي ليصبح كتابه من ابرز المراجع لدى الأوروبيين لكتابة ومعرفة تاريخ بلاد المغرب[2].

تطرق الكتاب في حزئه الثاني إلى وصف لمدن الجزائر على غرار مدينة الجزائر[3] وبجاية وملیانة وشرشال وكامل حواضر الغرب الجزائري وصولاً إلى حواضر الشرق في منطقة الاوراس تحت جزء أسماه مملكة تلمسان[4]، وقد اعتمد أسلوب الجغرافيين الوصفي لمختلف الجوانب الحضارية فغالبا كان

---

(1) -Vismara Cinzia. Le Rif oriental côtier dans les pages de voyageurs, explorateurs, historiens, rchéologues, géographes : de Jean-Léon l'Africain à nos jours. In:**Antiquités africaines**, 50,2014. P144.

(2) -Farouk Ahmed. Sources européennes de l'histoire du Maghreb**.**In:**École pratique des hautes études. 4e section, scienceshistoriques et philologiques**. Livret 12. 1996-1997. 1998. pp. 39-41

(3) -Cresti Federico. Description et iconographie de la ville d'Alger au XVIe siècle. In:**Revue de l'Occident musulman et de laMéditerranée**, n°34, 1982. P 7.

(4) - مارمول كاربخال، **إفريقيا**، ج2، ترجمة محمد حجب وآخرون، مطبعة دار المعارف، الرباط، 1989، ص ص:329، 350.

مستهل كلامه ينطلق من الجانب العمراني ثم ينتقل إلى البناء البشري والتركيبة السكانية خاصة ذكر القبائل المنتشرة في تلك المنطقة، وليمر بعدها إلى جوانب متنوعة من الحياة الاجتماعية التي غالبا ما تناول فيها بعض المظاهر كالألبسة ونمط الحياة الأسرية، وكذلك الحال مع الجانب الاقتصادي إذ تناول الزراعة الريفية ونوعية الأشجار المزروعة ومختلف المهن والحرف التي انتشرت في الحواضر التي زارها[1].

ولم يتغير نهج مارمول في الجزء الثالث من الكتاب حسب الأقسام التي وضعت في الترجمة العربية ففي هذا القسم الثالث ورد ذكر عن أقاليم جزائرية تحت أقاليم مملكة تونس ومملكة نوميديا، والتي أورد فيها توصيف لمختلف المناطق التابعة لإقليم قسنطينة كعنابة وسكيكدة، وميلة والتي اتبع فيها مارمول منهجه الذي اعتاد عليه طوال تأليفه بذكره للحدود الجغرافية، والحرص على آثار التاريخ الروماني بالمنطقة، ثم المميزات البشرية من طبيعة الفئات المتواجدة بكل منطقة، ثم التطرق إلى الخصائص الاقتصادية وطبيعة الأنشطة الاقتصادية من زراعة متواجدة وطبيعتها وتقييمها أو الحرف والمهن التي تشتهر بها كل منطقة، ففي حديثه عن عنابة مثلا يستهلها بالحديث عن التأصيل الروماني لها في قوله: "كان الرومان قد بنوها شرقي المكان الذي توجد فيه اليوم بمسافة فرسخ، وكانت تسمى في القديم هيبون وموقعها على ساحل البحر المتوسط..."[2].

وفي الجانب العمراني للمدينة يقول: " ودور هذه المدينة متقنة البناء، وبها مسجد فخم وبجانبه مدرسة يتعلم فيها شرع محمد وتواجد بها خزانات تجري إليها مياه الامطار..."[3]، وفي الجانب الاقتصادي يقول:" ...وتوجد جنوبي الحصن قريباً من جداره بساتين ومنتزهات وأجنّة كثيرة بها اللذيذ الطيب من الثمار، ولعنابة مرسى صغير غير مستور من ريح الشمال وتقصده سفن التجارة لشراء

---

[1]- حفناوي باعلي، **صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين**، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2016، ص ص: 204، 205.

[2] – مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص:8 .

[3]– المصدر نفسه، ص:8.

الجلد والصوف والسمن والتمر وغيرها من البضائع الوفيرة في هذه الجهات، فهي تتكون من سهول طولها أربعة عشر فرسخاً وعرضها ثمانية فراسخ، تضعن فيها جماعات كبيرة من البربر... ورجالها أغنياء يملكون من الأراضي والخيل والمواشي وفي كل يوم جمعة يهرعون إلى سوق تقام على أبواب المدينة يأتي إليها تجار تونس وطرابلس وحتى من جنوة..."[1] .

وعليه يبقى مؤلف مارمول كربخال مصدر مهم للجزائر العثمانية لكونه قارب الحقائق بشكل أكثر دقة ممن كتب عن الجزائر من الكتاب الغربيين إجمالا[2]، ومكانة كتابه لا يضاهيها إلا مؤلف حسن الوزان وصف إفريقيا لكون الثاني قد اعتمد على منهج الأول وأكثر النقل عنه، فهذا الكتاب رغم انه لم يكتب بنمط الرحلات التي عرفها العالم الإسلامي إلا انه كتب نتيجة فعل الرحلة التي قام بها.

2- رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترات:

إن المعلومات التي تتعلق بحياة هذا الرحالة J. E. Hebenstreit تعاني شحاً مصدرياً فهي أسيرة أحادية المصدر، لكون النص الوحيد الذي عرف به هو النص الأصلي للرحلة الذي ترجم من الألمانية إلى اللغة الفرنسية، ولا توجد معلومات تعرف بالرحالة غير تلك التي أوردها المترجم "ايري" J. B. Eyriès الذي يذكر أنجون أرنست هابنسترايت ولد في سنة 1703م، وينحذر هذا الطبيب الرحالة من مدينة "نوشتادتاوناورلا" بمقاطعة صاكس بألمانيا وقد درس الطب بجامعة بينا واستقر بمدينة لايبويغ وعمل بها في بداية حياته بمجال العناية بالنباتات النادرة[3]، وهو ما فتح له باب استكمال الدراسة في هذا التخصص الجديد، ليصل عبر وسطاء إلى البلاط الملكي لبولونيا وحضي بثقة الملك أغسطس

---

[1]-مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص:8 .

[2]- بلقاسم قرباش، دور الكتابات الغربية في تشويه تاريخ الجزائر العثماني، **مجلة رفوف**، عدد4، س 2014، ص138.

[3] -J. E. Hebenstreit , **Vooyage A Alger, Tunis et Tripoli**, in Nouvelles annales des voyages, de la géographie et de l'histoire : Ou Recueil des relations originales inédites, communiquées par des voyageurs français et étrangers / publiées par MM. J. B. Eyriès et Malte-Brun, Imprimerie de Monsieur le Dauphis et de la cour de cassatio, V46, Yom2, Paris, 1830, PP5-6.

الثاني الذي أرسله في 11 أوت 1731م، على رأس بعثة علمية إلى شمال إفريقيا للتعرف عن قرب على النباتات والحيوانات النادرة بهذه المنطقة لفائدة القصر الملكي[1].

وفي الجانب العلمي والبحثي من حياته فان أبحاث هابنسترايت تعتبر من بين أهم الأبحاث في الطب عامة وعلوم النباتات خصوصاً من بين تلك التي قام بها أطباء في أوروبا خلال السادس عشر رفقة علماء آخرين مثل لافوص (La Fosse) ، البيرتي(Alberti) ،دوفو(Devaux) وغيرهم[2]، وأكثر من ذلك فقد كان له ميولات للبحث في التراث القديم الإغريقي والروماني، أينما حلّ وارتحل في كل المناطق التي زارها خاصة في الجزائر، فقدم مساهمة علمية في مجال اللسانيات القديمة، إذ ألف كتاب باللغة الألمانية في أصول الكلمات اليونانية المتعلقة بأمراض الإنسان (Erklärung Griechischerwörter, Vonkrankheiten Des Menschlichenkörpers) الذي أصبح محل اهتمام الباحثين في تاريخ اللسانيات القديمة[3]، بهذا بصرف النظر عن كتاباته المتعلقة بتخصصه الأساسي الذي حرك فيه شغف الرحلة وهو علم النباتات فكانت له مؤلفات أخرى تعلق بالحشرات التي تعيش مع النباتات[4]، حيث يصنف ضمن أكثر الرحالة الأوروبيين الذين تم الاستشهاد بأبحاثهم في الطب وعلم النباتات[5]ومن أمثلة ذلك الاستشهاد به في أمراض الرئة التي تصيب الإنسان عبر الكتاب الذي تطرق فيه لهذا المرض (Diss de consumptionepulmonaliejusqueprodromais et cura) الذي نشر في سنة1801م [6].

---

(1) –Christian Le Roy, Une excursion à Leptis Magna en 1732 (CIL VIII, 1, 11). In:**Bulletin de correspondance hellénique**. Volume100, livraison 1, 1976 , P373.

(2) **-Société de médecins etchirurgiens, Dictionaire des sciences médicales**, C.L. F. Panckoucke Editeur, Paris, 1812, Vu L'introduction .

(3) -Pascale Hummel, **De lingua Graeca: histoire de l'histoire de la langue grecque**, Edition scientifiques internationales, Berne ; 2007, P559.

(4) **-Catalogue des livres de la bibliothéque de Jean Noël Hallé**, libraire de Roi, Paris, 1823, P55.

(5) –Index des auteurs ou voyageurs analysés et cités. In**: Annales de Géographie**, t. 12, n°65, XII° Bibliographie Géographique Annuelle, 1902. 1903, P 310.

(6) –Le Couppey, **Comment on peut guérir laphthisie pulmonaire**, Julian libraire, Imprimerie A. Henry, Alger, 1847. P26.

وبالعودة إلى رحلته إلى الجزائر وتونس فقد تمكن بفضل أسلوبه في التعامل مع حكام الجزائر من الحصول على تسهيلات لأداء مهمته[1]، وتمكن من تدوين الكثير من المعلومات القيمة والموضوعية إلى حد بعيد، فقد اعتمد هابنسترايت في تقسيم كتابه نمط الرسائل وكل رسالة تحمل موضوع معين لكون العمل سيوجه إلى من أرسله لأداء هذه المهمة، فالتقسيم أشبه بكتابة تقارير كل تقرير يهتم بموضوع معين وكان ذلك بناء على ما يراه هو بعين الواقع، وكان بعيد إلى حد كبير عن الأفكار المسبقة التي كان يأتي بها الأوروبيون الأجانب إلى الجزائر خاصة رجال الدين لتحرير الأسرى.

جاءت الرسالة الأولى لتقييد بداية السفر من مدينة دريسدن بألمانيا مروراً بمرسيليا وصولا إلى مدينة الجزائر في 24جانفي1732م ليشرع بعدها في وصيف مشاهداته بدء بالمدينة وتاريخها وأصولها وتركيبتها السكانية وتنوعها وبعض العادات الاجتماعية والدينية كصوم رمضان، إضافة إلى أجهزة الحجم فيها من دووين وقضاء وجيش وثكنات وجهاز المالية وشيء عن الأشجار والنباتات التي دقق معها بحكم اهتماماته البحثية فيها[2].

وحملت الرسالة الثانية في طيّاتها جولات الطبيب في الأرياف والبوادي الجزائرية رفقة الأغا الذي كلف بجمع الضرائب من القبائل المنتشرة بالمتيجة ونواحي مليانة وسور الغزلان والمدية، والتي قيّد فيها مشاهداته وطبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية والقبائل المحلية وخاصة مسالة الجباية الضريبية[3].

واحتوت الرسالة الثالثة انتقال هابنسترايت من مدينة الجزائر إلى الشرق الجزائري لمدن قسنطينة وعنابة بعد الحملة الاسبانية على مدينة الجزائر، والتي ذكر فيها الاستعدادات التي قامت بها حكومة الداي، ليعرج على القبائل المتواجدة بتلك المنطقة وزيارة الآثار الرومانية، وقبر القديس أوغستين ومقر

---

[1]- ج. أو. هابنسترايت، **رحلة العالم الألماني ج. اوهابنسترايت إلى الجزائر (1145هـ – 1732م)**، تر: ناصر الدين سعيدوني، تونس: دار الغرب الإسلامي، ص 14.

[2]- هابنسترايت، المصدر السابق، انظر الرسالة الأولى، من ص:24 إلى ص:50.

[3]- المصدر نفسه، انظر الرسالة الثانية، من ص:53 إلى ص:69، ينظر: الملحق رقم (7)، ص: 470.

الشركة الملكية الإفريقية بالقالة التي عملت على امتياز صيد المرجان بسواحل الشرق، لينتقل بعدها إلى التراب التونسي انطلاقاً من طبرقة ووصولاً إلى تونس العاصمة عبر بنزرت[1].

وكان موضوع الرسالة الرابعة عن مشاهداته في كل من تونس وطرابلس الغرب والتي لم يتعمق في دواخلهما نتيجة الخوف بعد ازدياد منسوب الكراهية ضد الأجانب بعد احتلال الإسبان لوهران والمرسى الكبير بالجزائر، ليشير في ختامها إلى عودته إلى ألمانيا[2]، إجمالا فإن هذه الرحلة قدمت مساهمة كبيرة في تبيين الملامح الجغرافية والعمرانية والحضارية[3] بمختلف فروعها الاجتماعية والثقافية والسياسية للجزائر العثمانية[4]، وهو ما سيسمح لنا بتوظيف الكثير من المعلومات الدقيقة في قادم الفصول من هذه الأطروحة لكونها لامست الموضوع بشكل جيد خاصة في علاقة السكان في المدن والأرياف بالسلطة، وتكشف الكثير عن النظام الضريبي فصلاً عن المعلومات السياسية والعسكرية التي ذكرت على غرار احتلال المرسى الكبير ووهران[5].

3- رحلة سيمون بفايفر:

يعتبر سيمون بفايفر رحّالة ألماني ولد بمدينة "بالاتينات" الألمانية وعاش يتيما للأبوين بعد السنة السادسة من عمره، كما قال في رحلته وقد تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه وكان شغوف بالطب والفيزياء[6]، لكن الرحلة التي قام بها سيمون بفايفر بمثابة رحلة سياسية بالدرجة الأولى لان الرحالة

---

(1)-هابنسترايت، المصدر السابق، انظر الرسالة الثالثة من ص:73 إلى ص:105.

(2)- نفسه، انظر الرسالة الرابعة، من ص:109 إلى ص:127.

(3)- غزالي عبد القعالي، نقادي سيدي محمد، صورة الجزائر في مصادر الرحلة الغربية خلال العهد العثماني، رحلة هابنسترايت نموذجا، **الحوار المتوسطي**، المجلد9، عدد1، 2018، ص:118.

(4)- بوطرفة شفيق، عيلان عمر، الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان ج. او. هابنسبرايت نموذجا، **حوليات جامعة الجزائر 1**، عدد 32، 2018، ص:470.

(5)- هابنسترايت، المصدر السابق، ص: 18.

(6) -Pfeiffer G.S.F , **The Voyages and Five Years' Captivity in Algiers, of Doctor G.S.F. Pfeiffer**, harriseuro John Winebrenner printer, 1836, P2.

تواجد على مدار خمس سنوات أسيرا في قصور الحكام[1] كطاهي في المطبخ ثم كطبيب خاص للداي، فكان مجمل مضمون الرحلة يتعلق بدواليب السلطة، والتي تحمل في طياتها الكثير من المعلومات الخطيرة عن أواخر الحقبة العثمانية بالجزائر وبداية الحملة الفرنسية، وقد عنّون بفايفر رحلته بـ: رحلتي وسنوات أسرى الخمس في الجزائر والتي ترجمها الدكتور أبو العيد دودو تحت عنوان مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، واشتملت هذه الرحلة معلومات تاريخية جد قيمة عن ظروف الاحتلال الفرنسي للجزائر والحالة السائدة في صفوف الجيش الانكشاري والمؤامرات والمكائد التي كانت تحاك من داخل الثكنات والتي اطلع عليها بحكم وظيفته كطبيب، كما تحمل هذه الرحلة تاريخاً عن طبيعة العلاقات الجزائرية الفرنسية في الفترة التي سبقت الاحتلال والعلاقات الجزائرية مع الباب العالي، في ذات الفترة والعلاقات الجزائرية المصرية، بالإضافة لكونه شاهد عيان عن المعركة التي دارت بعد الإنزال الفرنسي بالجزائر، كما تحتوي على وصف دقيق للأوضاع الاجتماعية التي عاشها السكان عشية الاحتلال وفور وقوعه[2].

فقد حملت هذه الرحلة قيمة توثيقية فريدة عن نهاية الحقبة العثمانية بالجزائر، من حديثه عن وصوله للجزائر لأول مرة عبر سفينة قادة من أزمير العثمانية متحدثا عن بعض ملامحها التضاريسية كالسهول والأودية، عن عمارتها والبناءات العسكرية بها كالثكنات وعن نظرته للبحارة الأتراك الذين تعامل معهم في بداية الأمر على السفينة[3]، ليقدم تفصيلا دقيقاً عن المطبخ الذي أوكلت له فيه مهمة خدمة الداي، إلى جامب تنظيف وغسل وذبح للمواشي وتزويد المطابخ بالمستلزمات

---

[1]- حفناوي باعلي، **صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين**، ص: 217.

[2]- سيمون بفايفر، **مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر**، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص ص: 6، 73، 80، 101.

[3]- سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص:14.

الضرورية[1]، فهذا الجانب يكاد يكون المصدر الوحيد الذي تطرق إليه احد بالكتابة خلال الفترة العثمانية.

وبعد أن تغيرت ظروف أسره وانتقاله من عمل الطهي إلى الطبيب الخاص للوزير الخزناجي بعد أن نجح في علاجه من مرضه، فسمح له هذا المنصب الجديد من الوصول إلى معلومات مهمة عن العلاقات الجزائرية الفرنسية والتي قدمها من زاوية جديدة تختلف عن تلك الزوايا التي تقدم بها العلاقات الدبلوماسية، والأمر نفسه مع حادثة المروحة الشهيرة بين القنصل الفرنسي دوفال والداي حسين وصولاً إلى قطع العلاقات نهائيا معها[2]، كما انه يعتبر شاهد عيان على المعركة البحرية التي وقعت بين السفن الفرنسية المحاصرة لميناء الجزائر والقطع التي أرسلها الداي لفك الحصار[3].

أورد بفايفر تفاصيل يكاد يتفرد بها من بين المصادر التي عاصرت نهاية الحجم العثماني وتكلمت عن أوضاع الجزائر عشية الغزو وتفاصيل المعارك التي وقعت بين الطرفين بعد نزول الفرنسيين في سيدي فرج، ومعركة سطاوالي الحاسمة، إضافة إلى أوضاع قصر الداي بعد توقيع معاهدة الاستسلام وبداية جلاء الأتراك عن مدينة الجزائر[4].

وفي النسخة الإنجليزية للرحلة نجد فصولا أخرى تزيد عن تلك التي ترجمت إلى العربية انطلاقاً من الألمانية، فقد أفرد بفايفر فصلاً اسماه ملحق لوصف حقيقة عادات وأخلاق المجتمع الجزائري، والذي فيه استفاض بفايفر في الحديث عن التركيبة السكانية للمجتمع الجزائري وللفئات التي سكنت مدينة الجزائر، وعرف بالكثير من القبائل العربية والبربرية وحتى اليهود، فقد أبرز مميزات كل مكون والمناطق التي يتواجد بها وطبيعة الأنشطة التي كانت تمارسها كل منها بين الرعي والتجارة وغيرها[5].

---

[1]-سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص:18.

[2]- نفسه، ص ص: 32 ، 35.

[3]- نفسه، ص ص:41، 42.

[4]- نفسه، ص:73.

[5] -Pfeiffer G.S.F, Op .Cit, P309.

4- رحلة الطبيب توماس شو:

ولد الطبيب شاو في مدينة كندال بانجلترا في 1692م، وتوفي باكسفورد سنة 1751م تلقى توماس شو تعليمه في جامعة أكسفورد حيث تعلم العبرية والعربية، بالإضافة إلى اليونانية واللاتينية ثم عيّن كاهنًا للكنيسة الأنجليكانية عام 1720م، ليتم تعيينه بعدها قسيسًا للقنصلية البريطانية في الجزائر، وكان لتوماس شو اهتمام خاص بالآثار والتاريخ الطبيعي، وخاصة علم النبات وعلم الفلك إذ سبق له التردد بشكل متواصل على الدائرة الجمعية الملكية قبل وقت طويل من مغادرة إنجلترا.

تظهر مراسلاته أنها للخبير الفلكي"إدموندهالي"، الذي قدمه بالفعل كمسافرين وبإبداء ملاحظات وتقارير في الخارج لصالح إنجلترا، وقد صرح شو بذلك في رسالة من الجزائر بتاريخ 26 يوليو 1728م، موجهة إلى توماس بيرش، المؤرخ والعالم اللاهوتي في الجمعية الملكية[1].

ومكث الدكتور شاو في الجزائر اثني عشر سنة منذ 1720 إلى 1732م، وتولى مهمة كاهن للوكالة الإنجليزية بها وتجول في الولايات العثمانية في كل من تونس وبلاد الشام وفلسطين قبل أن يستقر بإنجلترا سنة 1742م، ليصبح رئيس كلية أكسفورد وعضو الجمعية الملكية بلندن، جمع العديد من المعلومات القيمة عن أقاليم المشرق والمغرب العربيين والتي دونها رحلات أو ملاحظات تتعلق بأجزاء من شمال إفريقيا والمشرق[2]، وقد طبع الكتاب لأول مرة سنة 1738م باللغة الإنجليزية، والذي أهداه إلى ملك إنجلترا [3]، غير أن الترجمة الفرنسية الأولى للرحلة سنة 1743م، في جزئين منفصلين بخلاف النسخة الأصلية الإنجليزية التي فاقت 600 صفحة[4].

---

(1) -ZiziZehor. Thomas Shaw au Proche-Orient, 1721-1722 : élucidation et défense des Textes sacrés. In: XVII-XVIII. **Revue de la société d'études anglo-américaines des XVIIe et XVIIIe siècles**. N°67, 2010. L'attrait de l'Orient / The Call of the East. P P 22. 23.

(2)- انظر: تقديم الدكتور ناصر الدين سعيدوني لرحلة جون ارنيست هابنسبرايت، المصدر السابق، ص: 54.

(3) -Thomas Shaw, (1694-1751), **Travels, orObservations relating to seveval parts of Barbary and the Levant**, Imprimateur Steph Niblett, Xford, 1738.

(4) -Thomas Shaw(1694-1751), **Voyages de M. Shaw dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant** contenant des observations géographiques, physiques, philologiques,

كان الدكتور شاو متشبعاً بالثقافة الكلاسيكية، والمعارف المسيحية بالإضافة إلى معرفته للغة العربية والعبرية إلى جانب اللاتينية واليونانية، وقد كان توماس شو ممثلا للكنيسة الانجليكانية في 1720م. سافر إلى الجزائر العاصمة وزار العديد من المناطق في إيالة الجزائر طيلة فترة إقامته بها ما بين سنتي 1720م و1732م، وتمكن طيلة 12سنة التي قضاها في المنطقة من تدوين ملاحظاته حول المجتمع وعلاقاته وجغرافية المنطقة وطبيعتها وفهرسة لأنواع الحيوانات والنباتات في المغرب العربي[1].

ومن حيث الجانب التوثيقي والتاريخي للرحلة فإنها تكتسي أهمية بالغة في كتابة التاريخ الاجتماعي لكل من الجزائر وتونس خاصة في دراسة الجوانب الخدماتية المتعلقة بالصحة والصيدلة خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي، فقد افرد في كتابه فصلاً يتضمن الحديث عن العلاج الطبي "البربري" بعنوان مهارتهم في الفيزياء أو الطب، وهو أمر ذو أهمية كبيرة لتاريخ الصيدلة[2]، كما تعتبر رحلة الدكتور شاو مصدراً مهما فيما يتعلق بالدراسات الأثرية القديمة الرومانية تحديداً في الجزائر فقد كانت ولازالت هذه الرحلة مرجعاً رئيسياً للدراسات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية، قياساً بما كتبه شاو في رحلته فقد ترك خريطة جغرافية، وان لم تكن دقيقة بشكل كبير عن ابرز المواقع الأثرية التي زارها في قسنطينة وتبسة وعنابة وسطيف وغيرها[3]، وهو ما جعل هذه الرحلة مرجعاً توثيقياً

---

sur les royaumes d'Alger et de Tunis, sur la Syrie, l'Égypte et l'Arabie Pétrée, traduits de l'anglois,1743.

[1]– عبد الحميد عمران، قبائل شرق الجزائري، قراءة في بعض العادات والدهنيات حسب الدكتور توماسشو من خلال كتابه (رحلة في أيالة الجزائر)، **المجلة التاريخية الجزائرية**، العدد5، سنة 2017، ص:57.

[2] –JoëlMontague, Notes sur l'organisation de la pharmacie en Tunisie au XIXe siècle. In:**Revue d'histoire de la pharmacie**, 61eannée, n°219, 1973, P616.

[3] –PierreMorizot, La naissance de l'archéologie romaine en Algérie. In:**Histoire et archéologie méditerranéennes sous Napoléon III**. Actes du 21e colloque de la Villa Kérylos à Beaulieu-sur-Mer les 8 et 9 octobre 2010. Paris : Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 2011, P155, P 157/ Nabila Oulebsir. La découverte des monuments de l'Algérie. Les missions d'AmableRavoisié et d'Edmond Duthoit (1840-1880). In:**Revue du monde musulman et de la Méditerranée**, n°73-74, 1994. Figures de l'orientalisme en architecture.

مهما عن الحقب القديمة والدراسات الانتروبولوجية[1] والاجتماعية الغربية عن الجزائر خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر[2].

لقد قام الدكتور شو من إجراء مسح جغرافي للمناطق التي زارها سواء في الجزائر أو حتى المشرق كمصر وسوريا، الأمر الذي جعله ينجز خرائط مرتبطة بعمله مستفيداً من إقامته الطويلة في الجزائر العاصمة ثم سوريا وتونس، فأنجز البيانات الجغرافية ورسماً للخرائط الجيولوجية والأثرية، ورتبها بعناية في أقسام منفصلة لتلبية المتطلبات الجديدة للجمعية الملكية في لندن[3].

وبصفة إجمالية فقد مكنت هذه الرحلة الدكتور شو من إنجاز قاموس جامع للجغرافيا الفيزيائية السياسية، التاريخية، التجارية، ووضع خريطة لإيالة الجزائر وتونس، متعمداً منهجية تقسيم الكتاب إلى فصول تحمل كل منها وحدة موضوعية، فقد أعطى لكل فصل عنوانا حسب المضمون الخاص به، ففي الفصل الأول تطرق لطبوغرافية مقاطعة الجزائر ربطها، بمناخها ومنتجاتها، تحدث في الفصل الثاني عن الحشرات ورباعية الأقدام، العصافير والأسماك وغيرها، وتكلم في الفصل الثالث عن العلوم، الفنون، المصنوعات،العادات والتقاليد المستخدمة، ووصف مقاطعة قسنطينة. فتوماس شو الذي استغلّ وقته أثناء عمله في الوكالة التجارية الإنجليزية طيلة الاثني عشرة سنة في البحث والدراسة، وظف ذلك في كتابة الجزء المتعلق برحلته في إيالة الجزائر، مبرزاً الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية. فهذه الأخيرة لوحدها شكلت أحد أقسام تصنيفه كمحوراً لرحلاته إلى المغرب والمشرق،

---

(1) –François Pouillon, Simplification ethnique en Afrique du Nord : Maures, Arabes, Berbères (XVIIIe-XXe siècles). In:**Cahiers d'études africaines**, vol. 33, n°129, 1993. Mesurer la différence : l'anthropologie physique P39.

(2) –Denise Brahimi, Approches sociologiques de la Régence d'Alger (vers 1725). In:**Dixhuitième Siècl**e, n°7, 1975, P88.

(3)– عبد الحميد عمران، قبائل شرق الجزائر، قراءة في بعض العادات والدهنيات حسب الدكتور توماسشو من خلال كتابه (رحلة في أيالة الجزائر)، **المجلة التاريخية الجزائرية**، العدد5، سنة 2017، ص:57.

رغم أنَّ عمله في الأساس كان دينياً بحتاً يقتضي منه الإشراف على كنيسة الوكالة التجارية البريطانية والنظر في شؤون الرعايا التابعين لها[1].

5- رحلة جون اندي بيسونال:

ولد الرحالة جون اندي بيسونال في 19 جوان 1694م، بمدينة بمرسليا الفرنسية والده يدعى شارل بايسونيل وهو ينحدر من عائلة نبيلة بالمدينة خاصة، وأبوه كان طبيباً مشهوراً و الذي مات بمرض الطاعون أثناء تأدية عمله في 20 سبتمبر 1720م، درس جون اندي بيسونال الطب في جامعة اكس أون بوفونسب مرسليا ليحصل منها سنة 1718م على الليسانس. وقد عرف عنه اهتمامه بالطبيعيات[2]، فقد اشتهر بأنه طبيب مختص في الطبيعيات خاصة بعد أن أتم تكوينه في الطبيعيات في باريس، فهو ينحدر منن أسرة متخصصة في الطب، حيث وجد الإهتمام من الكونت مارسي قلي صديق العائلة الذي وجهه إلى دراسة التاريخ الطبيعي، لعُين في 21 أوت 1723م مراسلا لأكاديمية العلوم، وكان تعيينه الأول كطبيب بعد تخرجه سنة 1718م[3]، ثم أرسل إلى إفريقيا الشمالية، كانت تلك المهمة في سنة 1724م بأمر ملكي، لأجل دراسة التاريخ الطبيعي لأيالة الجزائر وتونس، فألف كتاب حول رحلته سماها: رحلة على سواحل بربارياRelation d’un voyage sur les cotes de la Barbarie) مدججة بالملاحظات العلمية الهامة وبالمفاهيم والمعلومات عن النظام السياسي للجزائر[4]، وكان بيسونال قد زار عدة دول في حياته بخلاف الجزائر وتونس، كمصر والجزر الغربية الهندية وحوض

---

[1]-كشرود حسان، بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين بايسونيل وديفونتينو الدكتور توماسشو، **قضايا تاريخية**، عدد 06، سنة 2017، ص:52.

[2] -A propos de Jean-André Peyssonnel (1694-1759). In:**Dix-huitième Siècle**, n°9, 1977. Le sain et le malsain. pp. 489-490;

[3] -Duval Noël, La solution d'une énigme : les voyageurs Peyssonnel et Giménez à Sbeitla en 1724. In:**Bulletin de la Société Nationale des Antiquaires de France**, 1965, 1966, P :96.

[4] -Jean-André Peyssonnel , V**oyagesdans les Régences de Tunis et d'Alger. Relation d'un voyage sur les côtes de Barbarie**, publié. par M. Dureau de La Malle, librairie de Gide, Editeur des Annales des voyages, Imprimerie de la cour de Cassation, Paris,1838.

الميسيسيبي ليستقر أخيرا في غوادالوب ويعين فيها طبيبا خاص لملكها ليتوفى فيها سنة 1759[1]، لكنه ترك تقارير أكثر عزارة عن الجزائر وعن المواقع الأثرية بها شأنه في ذلك شان الدكتور شاو[2].

وكان بيسونال عند قيامه بهذه الرحلة إلى الجزائر يهدف إلى كتابة رحلة يكون التركيز فيها عن التاريخ الطبيعي لهذه الدولة، وذكر لأصناف النباتات والحيوانات بها، ولمعرفة الأمراض ووسائل علاجها، مع ذكره للملاحظات حول الجغرافيا القديمة والحديثة، بالإضافة لإهتمامه بالمخطوطات العربية، فتكون حلة امتزج فيها التاريخ والأدب والفيزياء، ذلك أن بايسونال كان مراسلاً لأكاديمية العلوم مونبليي بمرسيليا[3].

وينقسم مؤلف رحلة بيسونال إلى جزئين خصص الجزء الأول للملاحظات بايسونيل أما والجزء الثاني فيه ملاحظات العالم "ديفونتين" للشبه الكبير في ملاحظاتهما،كونهما زارا نفس المنطقة شمال إفريقيا رغم أن بيسونال كان يصف فقط ما يشاهده عكس "دي فونتين"، كان يحللها ويعطي آراءه الخاصة به، وعنوان هذا الكتاب هو رحلة في إيالتي الجزائر وتونس، أما الجزء الخاص ببيسونال فهو تحت عنوان: "رحلة على السواحل البربرية"، هذا الكتاب يحتوي على سبعة فصول، تضمن الفصل السادس ملخصاً عن رحلته من الجزائر إلى قسنطينة إلى بونة، واحتوى الفصل السابع ذكر القالة، حيث تحدث عن المستنقعات غير الصحية أو المضرة وتناول بإسهاب صيد المرجان وأهميته[4].

وتبقى هذه الرحلة مهمة جدا في تاريخ الجزائر وتونس العثماني قياسا بالكم المعرفي الذي احتوته ولكون الرحالة كان يتحرى الموضوعية ويصف مشاهداته دون أن يزج بخلفياته والأفكار المسبقة التي كان يأتي بها غيره، وبالرغم من كل هذا فان هذه الرحلة لم تحتل المكانة التي تستحقها لدى الباحثين خاصة كونها لم تترجم بعد إلى اللغة العربية.

---

(1) –Nordman Daniel. Jean-André Peyssonnel, Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger. In:**Annales. Economies, sociétés, civilisations**. 43e année, N° 6, 1988, P :1370

(2) –PierreMorizot, Op. Cit, P158.

(3)–كشرود حسان، المرجع السابق، ص:52.

(4)–لمرجع نفسه، ص:50.

الفصل الثالث:

مساهمة البوادي والأرياف في الحياة الاجتماعية بالجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات

– المبحث الأول: مفاهيم ومعطيات أولية حول الريف والبادية بالجزائر العثمانية

– المبحث الثاني: المظاهر العمرانية بأرياف وبوادي الجزائر العثمانية

– المبحث الثالث: دور البنية الفئوية للمجتمع الحضري والريفي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للجزائر العثمانية

المبحث الأول: مفاهيم ومعطيات أولية حول الريف والبادية بالجزائر العثمانية

شكل موضوع البادية والريف محور اهتمام لفيف من المؤرخين والجغرافيين وحتى الرحالة في كتاباتهم التوثيقة عن أي منطقة يمرون بها أو جوانب جغرافية يسلطون الضوء عليها في دراساتهم التاريخية؛ لقيمتها العلمية البالغة على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذا الشق الثقافي منها، فتضاربت الأراء في ضبط المفهوم الحقيقي لمصطلح البادية أو البوادي، وإزدوجية المعنى مع الطابع القروي أو ما يعرف بالريف، وللفصل في هذه المسألة نخوض غمار المقارنة والمقاربة والترجيح على حسب ما أتضح لنا من رؤى.

1 – مفهوم الريف لغة واصطلاحا:

أ– لغـــــةً:

تعددت مفاهيم الريف بين المصادر مختلفة الأنماط، غير أن جلها يصب في قالب واحد، فالريف بالمفهوم القرآني عند بعض المفسرين جاء مرتبطاً بلفظ القرية، والتي عرفت بأنها:" المصر الجامع، وكل مكان اتصلت به الأبنية، واتخذ قراراً "[1]، أما في الموسوعات العربية ومعاجم اللغة، فيعرفه ابن منظور على أنه:" الخصب والسعة في المأكل والمشرب وجمعه أرياف، والريف: ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها، ورأفت الماشية أي رعت الريف، وفي الحديث تفتح الأرياف فيخرج إليها الناس، وهي جمع ريف، وهو كل أرض فيها زرع ونخل"[2]، وفي المعجم الوسيط الرَّيف:" أرض فيها زرع وخصب، ويطلق على ما عدا المدن من القرى والكفور، والسعة في المأكل والمشرب، جمع: أرْياف

(1)- حازم حسني زيود، مفهوم القرية ودلالاتها في القرآن الكريم"دراسة موضوعية"، **مجلة الجامعة العربية الأمريكية للبحوث**، مجلد(2)، العدد (2)، ط:2016م، ص: 3 .

(2)- أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط: 1300هـ، مادة ريف، ج7، ص:128.

ورُيُوفُ[1].كما عرف في معجم علم الاجتماع بأنه البيئة التي يعيش فيها الفلاحون ويمارسون فيها نشاطاتهم"[2]

وقد وجد عند العرب كلمات في معنى الريف مثل: القرية، المدر، الحدر، البادية، الوبر"[3]، كما بين محمد حسن في كتابه:" المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي" معاني مرادفة لمعنى الريف، بل يسميها الحزام الريفي الأول ك: السواني، والبساتين، والأجنة، والرياض، والأبراج[4]، أما الحزام الريفي الثاني على حد وصفه أيضاً فيمثل: الأحمية، والفحوص، والضياع، والفدادين، والهناشير[5]، إلى جانب معاني عامة توحي بالمفهوم الريفي في الغالب: كالمروج، والضواحي، والأوطان، والمزارع، والغابات[6].

(1)- المعجم الوسيط، **مجمع اللغة العربية الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث**، جمهورية مصر العربية: مكتبة الشروق الدولية، ط4 : 1425هـ/ 2004م، ص:386 .

(2)- ينظر: جهيدة بوعزيز، **الصراعات الداخلية وأثرها على المجتمع الريفي في بايلك الشرق الجزائري أواخر العهد العثماني (1771-1837م/1185- 1258هـ)**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تخصص: الريف والبادية، جامعة قسنطينة 2، السنة الجامعية : 2011-2012م، ص: 14.

(3)- ينظر: جهيدة بوعزيز، المرجع السابق، ص: 17.

(4)- **الأبراج: مفردها البرج**: المقصود بها هنا صنف من الأبراج المقترنة بالسكن الضحوي المحصن، وقد جاء ذكر لها في نوازل البرزلي عن الأبراج التي يقطنها المزارعين وهي مخصصة للاستغلال الزراعي وللإسكان. ينظر: محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، تونس: جامعة تونس الأولى، ط: 1999، ج1، ص:70.

(5)- **الفدادين، الهناشير**:الفدادين جمع لفدان وهو في الأصل يطلق على البقر الذي يحرث الأرض، ثم أصبح يعني المزرعة وهو وحده قياسية لمساحتها، كانت مستعملة في عدة بلدان إسلامية. خلافاً للهنشير لا يمثل وحدة معينة، إنما هو أراض شاسعة يتولى السلطان إقطاعها، وتخصص في الغالب لزراعة الحبوب وعادة ما تتموضع قرب المدن الكبرى. ينظر: محمد حسن، المرجع نفسه، ص ص: 84، 85.

(6)- بلبروات بن عتو، **المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني**، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: بلقاسمي بوعلام،جامعة وهران، 2007 – 2008م، ص: 210.

ب- اصطلاحاً:

أما عند أهل الأخبار والسير يروون أن المصطلح القروي أكثر تعلقاً بالمفهوم الريفي، فإن لم يكن تصريحاً فبالأوصاف التي توحي بالمعنى:" أن أهل القرى كانوا أصحاب زرع ونخيل وفواكه وخيل وشاء كثير وإبل...إذ إنهم المستوطنون الذين أغراهم عثورهم على الماء، على السكن حوله وعلى الاشتغال بالزراعة "، وهذا ما بينه ابن خلدون في تاريخه وهو يتحدث عن أهل القرى والمدر في قوله:" فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال"[1]،كما وصف أحوالهم في المعاش على اقتصارهم على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن، وسائر الأحوال والعوائد، متخذون من الشعر والوبر والطين بيوتاً[2]، ولكن الواضح من كل ما قيل أن المفهوم الريفي كما أرتبط بالقرى ارتباطا وثيقاً، فقط أرتبط بالزراعة والخصب في المعاش، وكل ذلك جاء منعكساً للطبيعة الجغرافية للسكان بالجزائر والتي تمتاز بالتنوع من منطقة إلى أخرى بين السهول والتلال والهضاب، فهذه الميزة في التنوع خلقت أنشطة اقتصادية وأوضاع اجتماعية متلائمة مع بيئتها. فسكان المناطق السهلية الفسيحة كسهول متيجة ووهران وبونة، إلى جانب السفوح الجبلية لسلسلة الأطلس التلي، مارسوا الزراعة حيث التربة الخصبة والمناخ المعتدل، والأمطار الغزيرة والغابات الكثيفة.كما امتهنوا صناعات متنوعة، واستقروا في بيوت مبنية بالطين والحجارة، فكانت الحياة رغدة نتيجة ملائمة الظروف الطبيعية. وبالتدرج تشكلت النواة الأولى لنشأة القرى والمدن في المنطقة[3].

---

(1)- حازم حسني زيود، المرجع السابق، ص ص: 3، 4 .

(2)- عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2002، ص: 126.

(3)- ينظر: عميور سكينة، **ريف المغرب الأوسط في القرنين 5و6هـ/11و12م "دراسة اقتصادية واجتماعية"**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، تخصص: تاريخ الريف والبادية، إشراف: إبراهيم بكير بحاز،جامعة قسنطينة، السنة الجامعية:1433- 1434هـ/ 2012- 2013م، ص: 5.

وهذا ما عبر عنه الإدريسي في وصفه لجزائر بني مزغنة:" ومدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار، وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر، وزراعاتهم الحنطة والشعير وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيرا، فلذلك العسل والسمن كثير في بلدهم وربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة" [1].فبهذه المؤهلات التي تمتعت بها جزائر بني مزغنة، جعلتها ترتقي في الفترة الحديثة لتصبح عاصمة الدولة العثمانية في المغرب الأوسط. ولكن هناك عبارة تستوقفنا مما قاله الإدريسي:" ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر"، يقصد بها الضواحي والنواحي القريبة منها أطلق عليها اسم البادية، فهنا نرى الترادف لمفهوم الريف عند أبو عبد الله الشريف الإدريسي، في وقت مبكر وإن كان من علماء القرن السادس هجري. وقد شاركه الكثير من المؤرخين في تداول هذا المعنى في كتاباتهم عن الجغرافية الريفية سواء في الفترة الوسيطة أو الحديثة لنرى هذه الرؤية بأكثر وضوح في الجزئية الموالية.

2- مفهوم البادية:

أ- لغــة:

جاء في كتاب العين للفراهيدي والذي يشاركه بنفس المعنى ابن منظور في كتابه لسان العرب **البادية:** مأخوذة من البَدْوَ والبادِيَةُ والبَداةُ، والبِداوةُ مشتقة من الفعل بدا، وهي اسم للأرض التي لا حضر فيها لا محلة فيها دائمة، فإذا خرجوا من الحضر إلى المراعي والصحاري، قيل: بدوا، ويقال: أهل البدو وأهل الحضر[2].

---

[1]- أبو عبد الله الشريف الإدريس، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط: 1422هـ/2002م ج1، ص: 258.

[2]- ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، **كتاب مرتباً على حروف المعجم**، تح: عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1: 1424هـ/2002م،ج1، ص: 119، ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ج14، ص ص: 67، 68.

أما **البادية** في معاجم اللغة المتعددة اختلفت حولها التعاريف؛ ففي المعجم الوسيط **البادية:** مؤنث البادي، جمعها بواد، وهي فضاء واسع فيه المرعى والماء[1]، فالبادية مفرد جمعها باديات وبواد، وهي صيغة المؤنث لفاعل بدأ، قيل عنها: أرض في الصحراء فيها المسكن والمرعى والماء، خلاف الحضر، وأصلها من مصدر بدأ: تعني الإقامة في البادية ويغلب عليها التنقل والترحال، وهي خلاف الحضارة[2]، ويجمل صاحب المعجم الغني في التعريف بالبادية بأنها: مساحة شاسعة تحيط بها حقول يعيش فيها أهل القرى المتقاربة أحياناً والمتباعدة في أحياناً أخرى[3].

في حين تعرض النص القرآني للبادية والبدو بمعاني مختلفة كقول الله عز وجل في سورة يوسف: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[4]، فقد جاءت كلمة البدو في هذه الآية الكريمة بلفظ جمع للبادية وهي خلاف الحَاضَرة، كما وردت بمعنى ظهر ولاح بمصطلح بدا في قوله تعالى:﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وإلى جانب هذه المعاني في الآيات الكريمة، فقد وردت البادية على اختلاف مقاصدها في النص القرآني بأوجه عدة نذكر منها: بدا، بدت، تبدوا، تبدون، تبدونها، تبدوه، لتبدى، يبدها، يبدون، ليبدي، يبدين، تبدو، تبدوه، لتبدى، مبديه، الباد، الأعراب...[5].

---

(1)- المعجم الوسيط، المصدر السابق، ص: 45.

(2)- ينظر: جبران مسعود، **الرائد معجم لغوي عصري رتبت مفرداته وفقاً لحروفها الأولى**، بيروت- لبنان: دار العلم للملايين، ط7:آدار/مارس: 1992م، ص:160 .

(3)- عبد الغني أبو العزم، معجم الغني، **موقع معاجم صخر**، المكتبة الشاملة، ج1، ص: 4305. الصفحة فوق: 903.

(4)- سورة يوسف: الآية 100، في تفسير الآية أن منزل يعقوب عليه السلام كان بأطراف الشام في بادية فلسطين وكان رب إبل وغنم.

(5)- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس للألفاظ القرآن الكريم**، القاهرة: دار الحديث، ط: 1364هـ، ص ص: 116، 456.

كما وردت عبارة البادية أو أهل البادية في العديد من الأحاديث النبوية منها: " عليه مسحة أهل البادية"،" ومن سكن البادية جفا" وفيها إشارة لطبيعة البادية القاسية، فإذا تطبع عليها الإنسان جُبل على القسوة والجفاء "، "ولا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية" لجهله بأحكام الشرع،" "ولا بيع حاضر لباد" لجهل البدوي بأحوال المبادلات التجارية بالأسواق فيغرر به[1]، كما لا نغفل عن السيرة العطرة للنبي صلى الله عليه وسلم وحبه للبادية، فقد استرضع وتربى في ديار بني سعد في طفولته، ورعى الغنم في صباه في بوادي مكة، هذه التنشئة المبكرة للنبي صلى الله عليه وسلم بالبادية أكسبته مؤهلات فذة لحكم ربانية عظيمة، تلك التربية الإلهية التي جعلت منه قدوة للبشرية جمعاء. وقد ظل حب البادية في نفس النبي صلى الله عليه وسلم حتى بعد بعثته، فكان يخرج إليها للتعبد.

ب- اصطلاحاً:

أما عن المفهوم الاصطلاحي للبادية فقد أرتبط في بداية الإسلام بمجال القبائل والبدو، غير أن هذا المفهوم تحور وتحول عند الكثير من المؤرخين في كتاباتهم في العصر الوسيط وخاصة الفقهاء منهم في بلاد الغرب الإسلامي وذلك منذ عهد الأغالبة، فقد أطلق على المزارعين في الريف أساساً[2]، وعلى المجال الريفي بالتحديد، فقد جاء في كتاب "رياض النفوس" حديثاً عن بادية سوسة بمعنى ناحيتها في مجلس بن سحنون القيرواني:" قال سليمان بن سالم: كنت قاعداً عند ابن سحنون[3] حتى

---

[1]- ينظر: محمد حسن، المرجع السابق، ج1، ص: 87.

[2]- عادل بديرة، **بادية المغرب الأوسط في العصر الوسيط (دراسة للواقع الاقتصادي والاجتماعي وتأثيرها على السلوك والذهنيات) من القرن 4 إلى القرن 7هـ/ 10-13م**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: مفتاح خلفات، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: مفتاح خلفات، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، السنة الجامعية: 1438-1439هـ/2017-2018م، ص: 19.

[3]- **ابن سحنون القيرواني(202هـ- 818م/256هـ/ 870م)**: هو الإمام العلامة فقيه المغرب ومفتي القيروان، هو أبو عبد الله محمد ابن فقيه المغرب ومفتيها وقاضيها عبد السلام بن سعيد التنوخي، وصف بالعقل والديانة التامة والورع، قيل عنه سيد أهل المغرب، برز في الفقه و الحديث والآثار، تولى القضاء ومكث فيه أربعين سنة، كان مقصد أهل المشرق والمغرب؛ مجلسه مزدحماً بالطلبة والعباد، يأتون إليه من أقطار الأرض، وقيل بلغ الرواة عنه بلغوا تسعمائة، من مؤلفاته: المسند في الحديث، كتاب الإمامة،

أتاه رجل يقال له حسان بن شاكر، فسأله أين غبت يا حسان؟ فقال: في البادية، أصلحك الله، فقال: إن لله تعالى نبياً في البادية، ثم قال: ما حال مسجدكم ؟ فقال له: كما تعرف البادية، فقال له سحنون:" وإني لأظنه تفتل به الحبال، فقال له: نعم، فما أصنع بهم ؟ [1]".

كما تحدث الحسن الوزان عن إقليم بني راشد، بحيث حدد أبعاده بين خمسين ميلاً[*] طولاً وعرضه بخمسة وعشرين ووصف أرضه بأنها أرضاً خصبة صالحة للزراعة. وقسّم سكانه إلى قسمين؛ سكان المرتفعات وسكان السهول الذين:" يقيمون في البادية ويعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم ولهم عدد وافر من الجمال والخيل "، فحسن الوزان حسب هذا الوصف اعتبر إقليم بني راشد جنوب المرتفعات بادية، رغم أنه عبارة عن سهول خضراء حتى في أقصى حدوده الجنوبية[2]. وبنفس المشهد تحدث مارمول كربخال عن إقليم بني راشد وعن سكانه من البربر[3] وبالأخص عن طرفه التلي في الشمال، أين قسمهم إلى فرقتين:" أهل الجبال ويسكنون القرى ويشتغلون بزراعة الحقول والكروم، أما

=الرسالة السحنونية، شرح أربعة كتب من: المدونة" . ينظر: ابن سحنون القيرواني المالكي، **فتاوى ابن سحنون**، تح: مصطفى محمود الأزهري، مصر: دار ابن عفان للنشر والتوزيع–الرياض: دار ابن القيم للنشر والتوزيع، ط1 : 1431هـ/ 2011م، ص ص:13، 22.

(1)- أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، تح: بشير البكوش، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2:1994، ج1، ص: 369.

(*) - **الميل**: اسم يدل على وحدات مختلفة لقياس الطول، والمستخدمة في عدة بلدان وفي فترات تاريخية مختلفة، يتغير قياسها من 1 إلى 10 كم تقريباً.

(2)- فإذا أخذنا الأبعاد التي حددها الوزان بعين الاعتبار وهي مساوية لخمسة وعشرين ميلاً أي ما يعادل أربعين كيلومترا، وهي من الناحية الجغرافية ما يقع جنوب سيدي قادة بقليل. ينظر: الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2: 1983، ص: 26، كمال صحراوي، أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، ص: 18.

(3)- حدد أبعاده بالفرسخ وليس بالميل كما فعل الوزان غير أن الفرسخ يساوي 3 أميال، فكان القرب بين الأبعاد في التحديد بين الوزان وكربخال، فطول إقليم بني راشد عند كربخال17 فرسخ = 51 ميل وعرضه 9 فراسخ= 27 ميل، أما عن البربر الذين يقطنون التلال من بربر المقاطيع من سلالة بني راشد. ينظر: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، ص: 324.

غيرهم- يقصد أهل الجنوب في الطرف التلي الشمالي- فيجوبون الآفاق كما يفعل الأعراب، وهؤلاء أعظم غنى وشهرة وأكثر خيلاً وجمالاً "[1].

ومع حسن الوزان أيضاً وبنفس السياق يصف مدينة تلمسان وقصرها الملكي فيقول:" وللقصر الملكي الواقع جنوب المدينة...بابان يفضي أحدهما إلى البادية تجاه الجبل، والآخر إلى قلب المدينة، حيث رئيس الحرس[2].

فبمفهوم الوزان كما في هذا الوصف فكل ما هو خارج المدينة وإن كان ضواحي أو أوطان أو مزارع وبساتين بما فيها من سكانها فهي بادية. وهذه من المرادفات لمعنى الريف والتصاقه بمصطلح البادية.

كانت هذه نماذج عن كُتاب العصر الوسيط، أما عن من كتبوا في الفترة الحديثة فهم كثر، فعلى سبيل المثال يقول الرحالة أبو عبد الله محمد ابن الطيب الفاسي (1110هـ/ 1170هـ) في رحلته الحجازية عن إحدى قرية الجزائرية:"يغلب عليها أحوال البادية دون الحاضرة "[3]. ليشاركه الحسين الورثلاني في التداخل بين معاني الريف والبادية في حديثه عن وفود الحجاج الجزائريين في قوله:" وبالجملة فلما سمع الناس من عمالة الجزائر بحج هؤلاء الفضلاء ونخبة العلماء ...وذلك من الحاضرة والبادية، حتى ذهب جميعهم بنسائهم وأولادهم "[4]، ونفس الشيء قاله عن قصر الطير[5] بسهول بايلك الشرق:"بادية، وهو من أحسن الأوطان وأكرمها، قلا ألاّ يكون فيه الخصـب، وعشبه أخضر، ولو في الصيف

(1)- ينظر: مارمول كربخال، المصدر نفسه، ج2، ص: 324.

(2)- ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 20.

(3)- محمد بن الطيب الشرقي الفاسي، **الرحلة الحجازية**، تح: نور الدين شوبذ، أبو ظبي-الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1:2014م، ص: 207.

(4) - ينظر: الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 44.

(5) - منطقة واقعة في الجنوب الغربي لمدينة سطيف، تقدم التعريف بها. ينظر: الورثلاني، المصدر السابق، ص ص:81، 86.

- M'hammed Ben Cheneb, « Itinéraire de Tlemcen a La Mekke », (XVIIIe siècle), R.A.F, Année: 1900, p: 268.

والخريف، وفيه مكان يقال له " المرجة"، من حفر فيه مقدر ذراع وجد الماء عذباً سائغاً شرابه، وزرعه كثيرا وكذا ضرعه، وبالجملة فخير هذا المكان منتشر مشهور"[1]، فالراجح هنا أن معنى البادية شمل أهل القرى بالأرياف وحتى البدو الرحل. وهذا ما نجده أيضاً عند المؤرخ الإسباني فراي ديغو هايدو في كتابه" تاريخ ملوك الجزائر" في وصفه لأحداث حملة" دون هيغودي مونكاد" الإيطالي على الجزائر في 20 أوت 1518م، والتي انتهت بفرار هذا الأخير بسبب عاصفة هوجاء عصفت به وأهلكت أغلب سفنه وجنده وما بقي منها قضى عليه من قبل:" الأعراب والموريون يأتون من البوادي مع الأتراك ويبدؤون في تقتيل كبير للمسيحيين والكثير من الذين ألقي عليهم القبض، والغنائم صارت ملكاً لهم ومنها راح " دون هيغو " يفر مع بعض رجاله وسفنه" لكن " أعراب البادية وأتراك الجزائر راحو يقتلون ويأخذون الكثير من المفقودين الذين قذفت بهم العاصفة"[2]، الشاهد هنا في قوله:" الأعراب والموريون يأتون من البوادي...أعراب البادية "، يغلب الظن أنه يقصد بالبوادي الأرياف وأعتبر أن المفهوم عنده واحد.

وليس بالبعيد من هذا المعنى يقول صالح العنتري واصفاً للأحوال المزرية التي ألت إليها الفلاحة خلال العهد العثماني مع اشتعال الثورات الداخلية ضد الحكم التركي:" أنك لا تجد في هذا الزمان (زمان ثورة ابن الأحرش)ولا في الذي قبله وبعده من يهتم من أمر الزرع أبداً، ومن أجل بخس قيمته...فلا تجد معتنياً بها إلا أهل البادية قدر ما يكفيهم لاقتياتهم فقط وأصحاب المخزن "[3]، نلاحظ هنا قوله أهل البادية ومزاولتهم لحرفة الزراعة، فهذه إشارة مهمة فالزراعة تحتاج إلى الاستقرار

---

[1]- ينظر : المصدر نفسه، ج1، ص:195.

[2]- ينظر :فراي ديغو هايدو، **تاريخ ملوك الجزائر**، تر: أبو لؤي عبد العزيز الأعلى، الجزائر: دار الهدى، ط: 2013، ص ص: 44، 45.

[3]- صالح العنتري، **مجاعات قسنطينة**، تح: رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1394هـ/1974م، ص: 35.

LAbbè, Edmond lambert . A Travers L'ALgèrie, Histoire, Mœurs et lègendrs des Arabes. Rene Haton, Librairie Editeur, Paris,1884.p43 .

لا الترحال واتخاذ الدور والأكواخ موطناً لهم، فتكون بمثابة قرى ريفية لسكان مستقرين، فأضحى بذلك الريف والبادية وجهان لعملة واحدة أو لمعنى واحد. ولكن قد تكون هناك ازدواجية أو تزاوج بين الاستقرار والترحال في بعض المناطق الجزائرية، وهذا ما أكده لامبير في كتاباته عن قبائل الواحات الصحراوية، والتي تتجه في الفصول الأولى للسنة بماشيتها نحو السهوب، وفي الفصول الثانية–فترة الجفاف–تتجه نحو التل بحثاً عن الكلأ والقمح والمروج[1].

لنحط الرحال بعدها عند المؤرخ الجزائري حمدان خوجة وهو من الكتاب المخضرمين والذي عايش أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، فقدم إحصائيات عن تعداد سكان إيالة الجزائر، والذي بلغ في تصوره عشرة ملايين نسمة، موزعة على المدن والقرى والموانىء والأرياف، والجزء الأكبر من سكانها ومصدر ثروتها، يوجد خارج المدن، ويطلق عليهم اسم البدو[2].ثم قسم أولئك البدو إلى طبقتين أو على الأصح إلى نوعين متمايزين من السكان؛ فالذين يسكنون السهول هم العرب الحقيقيون، أصلهم من الشرق وينحدرون من قبائل عربية مختلفة. أما الذين يسكنون الجبال أو الأماكن الوعرة المنحدرة فهم البرابرة الحقيقيون أو " القبائل" الذين تختلف لغتهم عن لغة العرب"[3].

ولكن هناك ملحوظة مهمة يجب الإشارة إليها، تخص الظروف الطبيعية المناخية للجزائر، والتي دفعت بالكثير من السكان إلى الازدواجية في نمط المعيشة، بين بدو رحل ومزارعين مستقرين، وهذا التقسيم تبعاً لما ظهر من اختلاف في أساليب الحياة بالدرجة الأولى، ثم الأمر الثاني متعلق باللباس أو حسب الأساس الثقافي واللغوي، ومن هذا فمفهوم أهل البادية يشمل في عمومه المستوطنين بالريف، أي العاملين بالزراعة في القرى والمداشر[4] والضاعنين والمنتجين والبدو الرحل على العموم. إذاً

---

(1) -L'Abbé Edmond lambert…,p43.

(2)- ينظر: حمدن خوجة، المرآة، ص:13.

(3)- ينظر: المصدر نفسه، ص:15.

(4)- **المداشر**:(دشرة) جمع: مداشر، وهي لفظ جزائري يعني قرية أو قبيلة، هي في المقام الأول مجموعة المساكن الثابتة أو المتنقلة أو المؤقتة أو الدائمة، تجمع بين الأفراد المرتبطين بصلات قرابة معينة.

التداخل واضح بين معنى الريف ومعنى البادية وهو ما جعلني أقوم بدمجهما معاً ضمن استخدام عام لكلمة الريف رغم وجود بعض الفروقات، وقد ارتأيت هذا لأن البادية أصلاً امتداد للريف، وهو ما جعل الأستاذ سعيدوني يسميها بالريف العميق، على أن هذا الاستعمال الواسع _ مقابل استخدام المجال الحضري – لم يفقد أيا منهما خصائصه[1].

المبحث الثاني: المظاهر العمرانية بأرياف وبوادي الجزائر العثمانية

إن التداخل واضح في المظاهر العمرانية بين البادية والريف وهذا ما أقر به الكثير من المؤرخين والباحثين بطريقة أو بأخرى، وسنثبت هذا في أخر المطـاف. ولكن ما نراه مناسباً في هذه الجـــزئية لنستهل بها الحديث عن هذا الموضوع، هي التجمعات الريفية القروية والتي انتشرت بكثرة في الجزائر العثمانية، وبالأخص بالمناطق الجبلية التلية والهضابية مثل قرى بلاد القبائل ولأوراس، والمناطق الصحراوية. وما يلفت الانتباه هنا العنصر المشترك بين هذه التجمعات القروية في طابعها المعماري العام وفي تكوينها. ولكن قبل الخوض في التفاصيل العمرانية لهذه القرى، نعطي تعريفاً موجزاً للأصل اللغوي للقرية، فهي مأخوذة من " القاف والراء والحرف المعتل " وهو أصل صحيح يدل على جمع واجتماع، وهي المكان الذي اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً. أما عن المعنى الاصطلاحي لها فهي المكان الذي يعيش فيه مجتمع قليل من الناس في منازل مركبة من الجدران والسقف[2]. إذا فمن خلال هذا التعريف المختصر يتضح أن الطابع العام للقرى في العموم هو طابع البساطة؛ في المواد المستخدمة في بنائها وفي هندستها الخارجية، فهي قرى بيوتها مبنية بالحجارة والطوب مطلاة بالطين، متراصة

[1]- ينظر: ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1: 2000م، ص: 286.

[2] – ينظر: حازم حسني زيود، المرجع السابق، ص ص:2، 3 .

متماسكة مع بعضها البعض بدون طوابق، ولعل أجمل بناية فيها المسجد، سكنها البربر والعرب على حد سواء[1]،كما سنبينه في الآتي:

1- القرى التلية:

ركزت الكتابات التاريخية وبالأخص ببايليك الشرق على القبائل البربرية بقراها في إقليم سيباو، أين انتشرت القرى الريفية بالمرتفعات الجبلية. فإقليم سيباو إقليم حصين وتحصينه هذا جاء من أختيار سكانه لقمم الجبال موطناً لبناء دورهم وقراهم، فجاءت استراتيجية هذا النمط من البناء المعماري كحصانة ومناعة دفاعية، تبنته هذه القبائل عبر العصور، ليسهل عليها التصدى لهجمات أعدائها، فوجدت فيه المنعة والغلبة على الخصوم. وهذا ما يؤكد شلوصر في قوله:" لا يحب القبائل أن تكون لهم مشكلة مع العربان في السهل، وإنما يستدرجونهم إلى الجبل، حيث تكون السيادة لهم . ولذلك يبنون قراهم فوق قمم الجبال، ليحموا أنفسهم من الغارات، وإذا اقترب عدو من مساكنهم، فإنهم ينادون بعضهم بعضا من جبل إلى آخر وبعد فترة قصيرة يتدجج الجميع بسلاحهم"[2]. وما ساعدهم على حصانة جبالهم إقامة أسوار لها يصعب إختراقها:" وتحيط الأسوار بالقرى كلها، وهي محصنة جداً، لا يستطيع العدو مهاجتمها بدون مدفعية"[3]. وهذا ما كان حتى مع الأتراك العثمانيين، فقد لقوا صعوبة في إخضاع إقليم سيباو، ويثبت هذا شلوصر أيضاً في قوله: "فالجبال ليست تابعة

---

[1] - ينظر: بالبراوت بن عتو، **المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني**، إشراف: بقاسمي بوعلام، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم: التاريخ وعلم الآثار، السنة الجامعية: 2007، 2008م، ص: 210.

[2] - ينظر: فندلين شلوصر، **قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)**، ترجمة وتقديم: أبو العيد دودو، الجزائر: عاصمة الثقافة العربية، ط: 2007م، ص:98، هاينريش فون مالتسان، **ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا**، تر: أبو العيد دودو، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج1، ص: 76.

[3] - المصدر نفسه، ص:98.

للبايلك...ويخشى الباي الاصطدام بالقبائل، ولا يحارب العرب إلا إذا تأكد من حيادهم"[1]، ولم يحل السلام بهذا الإقليم إلا بعد عقد اتفاقيات بين أعيان الاقليم والسلطة العثمانية الحاكمة[2].

أما عن طابعه المعماري فيسكن القبائلي القرى والمدن الصغيرة النقية الهواء، التي لا تقع في السهول وإنما تقع فوق قمم الجبال، وبيوته مبنية من الحجارة على الطريقة الأوروبية، وتحيط به الحدائق والبساتين، وغابات الزيتون، التي تلتمع فيها الغلال البديعة، هواؤه نقي وبيوته مؤثثة بصورة مريحة ولها حوش مخصص للماشية ولكنهم لا يربونها إلا قليلاً [3].

وذكر الرحالة الألماني هاينريش أن سكان منطقة القبائل الكبرى يسكنون بيوتاً مبنية بالحجارة[4]، أما شالر فكتب :" أن القبائل يسكنون الجبال دائماً ويفضلون قممها حيث يقطنون في قرى يسمونها " دشرة" تتكون من أكواخ مبنية بالطين والوتل، وإذا نزلوا إلى السهل فلكي يواجهوا عدواً أو يقوموا بمغامرة"[5]. وتحدث لامبير عن قرى سيباو ذكراً أنها محاطة بالاخضرار وأشجار الزيتون، إلا أن وضعيتها متدهورة بحيث أن أوسع المنازل مساحة هي ما كانت تتجاوز ثلاثة أمتار عرضاً على أربعة أمتار طولاً، وهذه المساحة الضيقة تجمع الرجال والنساء والأطفال للعائلة الواحدة وكذا ماشيتهم من أغنام وماعز ودجاج وليس لهذه المنازل طوابق، وتسمح لقامة الرجل أن يلامس سقف البيت الذي تشده أعمدة خشبية، وباب المنزل عريض وليس بالطويل لكنه غير محكم، مفتوح على الساحة داخلية ضيقة ومغطاة. والقبائل[6] لا يعرفون المدخنة والنوافذ فالضوء لا يدخل إلا من

---

(1) – هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص:99.

(2)– ينظر: بالبراوت بن عتو، المرجع السابق، ص: 211.

(3)– ينظر: فندلين شلوصر، المصدر نفسه، ص: 96.

(4)– هاينريش فون مالتسان، المصدر نفسه، ج2، ص: 102.

(5)– وليام شالر، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر(1816–1824م)**، تع: إسماعيل العربي، ط: 1982، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص: 114 .

(6)– يلاحظ تركيز الكتابات التاريخية على منطقة القبائل وخاصة الغربية، وأغفلوا ما حل بقرى الساحل على سبيل المثال هنين وما قاله عنها المكناسي في وقت مبكر من الوجود العثماني بالجزائر بعد تحريرها من قبضة الأسبان: " هي بلدة مسورة وهي اليوم خربة

الباب الذي يبقى مفتوحاً طول النهار ومنه يخرج الدخان، مما يعرض أفراد الأسرة إلى أمراض وخاصة أمراض العيون. ويتوسط المنزل المطبخ الذي يجتمع في أفراد الأسرة لتناول الغذاء وهم جلوس على الأرض، يتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم، ويخزن القبايل في قاعة خاصة مواد غذائية سنوية مثل الشعير والتين والزيت في قلل أو جراع فخارية تصل حمولتها إلى عدة هيكتولترات. وتقع خلف هذه القاعة، قاعة أخرى، مخصصة لمبيت أبقار الحرث، أي غير الحلوب والبغال والماعز والدواجن، أما الأغنام فتبيت مع الأسرة والتي يتحدد عددها من طرف مجلس الجماعة، فكان كل منزل قروي بجرجرة عليه أن لا تتعدى ملكيته للأغنام أربعة رؤوس نظراً لضيق المساحة الرعوية في المناطق الجبلية[1].

وقد شاركهم في هذا النمط من المعاش على قمم الجبال وحتى الطابع المعماري للمسكن منطقة لأوراس، بجبالها الجنوبية الممتدة في جنوب قسنطينة بين باتنة وبسكرة على جبال الأطلس التلي، بسلاسله المختلفة بين الجزائر وتونس. يقطنه قبائل عدة هم في الأصل مزيج من العرب وبربر الشاوية[2]، ذكر ابن خلدون أن عناصر من قبائل بني هلال استقرت في مناطق الأوراس وامتزجت إلى حد ما بالبربر من الشاوية[3]. غير أن السبب الأساسي في عزوف تلك القبائل عن سكنى السهول والأراضي الخصبة وتركها فراغاً والامتناع بالمناطق الوعرة لتكون لهم حصناً آمنا، والتي تمثلت في الغالب قمم الجبال والمرتفعات والفيافي، حيث شكلت المجال الأكثر استقطابا للمجتمع الريفي، طالما أن السهول كانت مطمعاً لجمع الضرائب والغارات المفاجئة للمتنعين عن تسديدها للسلطة الحاكمة.

=لم يبقى فيها إلا سورها ومسجدها وبداخل السور أشجار تين". ينظر: علي بن محمد التمكروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية (1589م)، ص ص: 40، 41.

. PP:327 329.

(1) -L'Abbé Edmond Lambert .Op. Cit.

ينظر:بالبراوت بن عتو، المرجع السابق، ص ص: 211، 212.

(2)- **الشاوية**: جمع شاوي، أي راعي الغنم، وأهم جماعات الشاوية التي يسميها الحسن بن محمد الوزان، (Saaua). ينظر: وليام شالر، المصدر السابق، الهامش: 11، ص: 122.

(3)- ينظر: وليام شالر، المصدر نفسه، ص: 122.

لأن الأرضي الخصبة في مجملها من الأهداف الأساسية للأطراف المتنازعة وللنهب، لسهولة إخضاعها والسيطرة عليها. وليس أدل على ذلك رسوخ مثل هذا الوضع مما تذكره مصادر عن هروب قصري للفلاحين تجاه المعتصمات الجبلية، فراراً من قبضة السلطة المركزية، كما تثبت مصادر أخرى عن مدى كثرة الفلاحين الذين هاجروا السهول الخصبة ليلجاوا إلى الجبال ويسكنوا قمما لا سبيل إلى وصول الأتراك وأعوانهم إليها[1]. وهذا بالفعل ما أثبته المكناسي في وصفه لمنطقة البيبان بالشرق الجزائري الواقعة بين قسنطينة و مدينة الجزائر؛ لما لها من حصانة طبيعية جعلت فيها منعة من قبضة الأتراك أو أي سلطة أخرى[2].

2- القرى الصحراوية:

تطلق العمارة الصحراوية هذه التسمية على العمارة التي نشأة في المناطق التي تندرج ضمن نطاق الصحاري الحارة والتي من ضمنها الصحراء الجزائرية شاسعة المساحة، فخصائص المناخ الصحرواي الجزائري بتفاوته الكبير في إرتفاع درجة الحرارته موسمياً ويومياً وكثرة الجفاف بندرة الأمطار وهبوب العواصف الرملية، بالإضاقة إلى خصائص الطابع الثقافي الإسلامي للمنطقة والذي يتضح تأثيره جلياً في كل مناحي العمارة، فهذه الظروف بإجتماعها تشترك في فرض واقع معين على الإنسان الذي يختار العيش بها، ليصوغ مساكن وقصور بالشكل الذي توفر له أحسن حماية تتأقلم من الظروف المناخية القاسية من جهة والمقومات الإسلامية من جهة أخرى، وفي نفس الوقت يضطر إلى الاقتصاد والإبداع معاً في بناءها، بما يتوفر من مواد محلية[3]، وبطبيعة الحال تلعب طوبراغرفية

(1)- ينظر: جهيدة بوعزيز، **الصراعات الداخلية وأثرها على المجتمع الريفي في بايلك الشرق الجزائري أواخر العهد العثماني (1771-1837م/1185- 1253هـ)**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: جميلة معاشي، جامعة قسنطينة 2، 2011-2012م، ص: 59.

(2)- المكناسي، المصدر السابق، ص 330.

(3)- ينظر: قبابلة مبارك، **تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية**، إشراف: بن قربة صالح، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار، **تخصص آثار صحراوية**، جامعة بسكرة السنة الجامعية: 2010/2009، ص:15 .

الأرض ومواد البناء المتوفرة دوراً كبيراً في تحديد خصائص هذه العمارة، حيث تحتم على الإنسان أن يحسن استغلالها بما يتوافق مع متطلباته[1].

وحسب الكتابات التاريخية فقرى الصحراء الجزائرية كلها مبنية بالطوب، إلى جانب الطين[2] وخشب النخيل، فإنها تشكل المصدر الرئيسي لمواد البناء المستعملة في العمارة التقليدية، كما لا تخلو من البناء بالحجارة [3]. وهذا ما أكده الناصري في وصفه لمسجد قرية عين ماضي:" وبها مسجد على ربوة مبنية بأحجار كبار تحاكي الأحجار المنجورة[4] باستقامة وليست منجورة"[5]، وأحياناً يمتزج البناء ما بين الطين والحجارة كقرية تاجموت شمال مدينة الأغواط، أما عن الأغواط نفسها فبناءها: "من الطين بالدرجة الأولى، غير أن بعض المنازل مبنية بالحجر والملاط[6]" على حد وصف الأغواطي[7] أما العياشي فوصف سكنى واد سوف:" بزرائب من جريد النخل فإليها يأوون وبها يخزنن "[8]. ويجمل في هذا كله فون مالتسان:" بأن جميع الأماكن الصحراوية مبنية بالطوب مثل القنطرة وسيدي عقبة، باستثناء بسكرة الأنيقة مبنية بالآجر[9].

---

(1)- ينظر: قبابلة مبارك، المرجع السابق، ص:23.

(2)- من القرى والتي ذكر بنائها بالطين قرية أوالن، تيميمون، أولف وقراها توات الحناء وطيت. ينظر: الأغواطي، المصدر السابق، ص ص:88، 92، 93، 94 .

(3)- ينظر: قبابلة مبارك، المرجع السابق، ص:26.

(4)- **المنجورة:** يعني حجارة منحوته من فعل نَجَرَ، يقال نجر الخشب صنعه أو أصلحه، ينظر: المعجم الوسيط، المرجع السابق، ص: 903.

(5)- أبو العباس بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص:132 ، محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص: 204.

(6)- **الملاط:** تَمَلّطَ الشيء تملس، المِلاَطُ هو الطين الذي يطلى به الحائط، ويجعل بين كل لبينتين أو آجرتين أو حجرين، المعجم الوسيط، المرجع السابق، ص: 885

(7)- ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 88.

(8)- العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 123.

(9)- ينظر : هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق،ج3، ص: 148.

أما عن منازلها فهي ذات طابق أرضي ولا تعلو عليها سوى المنارة والقلعة، وكل قرية تسمى واحة تعج بتمرها وآبارها المائية، وبدكاكينها المصطفة، وكثير من الكتابات تنعتها بالمدن الصغيرة، ولكن ما يفرقها عن المدينة بعض الإختلافات: فليس للقرية الصحراوية فحص ريفي، كما أنها ثابتة في بنيتها العمرانية عكس المدينة، إلى جانب تأثيراتها المحدودة على مستواها الخارجي، أما عن تعداد السكان فوزنها البشري قليل يصل الحد الأدنى فيها إلى ثلاثة أشخاص فما فوق[1]، وقد تصبح قبيلة أو قبائل متجمعة بتكاثرها، تسيرها الجماعة أو القبيلة القوية. عكس المدينة التي يسيرها موظف حكومي، كما يتجمع لبعض القرى في بعض الأحيان بين الاستقرار والترحال، فترتحل بسكانها ومواشيها مؤقتاً، مقسمة فصول السنة لموسمين الموسم الأول تقضيه في السهوب، والموسم الثاني عند الجفاف تتجه نحو التل بحثاً عن الماء والكلأ والقمح والمروج، فهي في هذه الحالة مجموعات نصف راحلة[2]. أما عن الطابع العام للعمارة الصحراوية، فتصنف حسب أشكال تجمعاتها العمرانية إلى: قصور، مدن، ومنشآت معزولة.

3- القصور:

جمع قصر وهو في المعنى الشائع بيت فخم أو بناية فخمة واسعة يتخذها الأثرياء وأصحاب السلطة عادة. ويختلف هذا المفهوم عن القصر المعروف في المناطق الصحراوية ببلاد المغرب العربي، فهو بهذه المناطق عبارة عن تكتلات سكنية متراصة ومتلاحمة فيما بينها تقطنها مجموعات بشرية تنتمي لأصول عرقية أو طبقات اجتماعية واحدة أو مختلفة، ويسمى في بعض المناطق بالدشرة أو الأغام أو إيغارم[3]، والقصر في الصحراء فضاء مشترك بين مجموعات بشرية، ذات مصلحة واحدة أو

(1)- يجتمع الناس بمكان واحد عن طريق المساكنة: فإن قلوا قيل لها قرية، وإن كثروا قيل لها مدينة. ينظر: حازم حسني زيود، المرجع السابق، ص: 3.

(2)- ينظر: بالبراوت بن عتو، المرجع السابق، ص ص: 212، 215.

(3)- قبابلة مبارك، المرجع السابق، ص:15 .

انتماء واحد[1]، مثل واحات وادي سوف والتي تتوفر على عدد كبير من المداشر أي القصور، ومداشر بلاد توات المترامية بين قراها العديدة كمدشر "ان صالح" و" افران" [2]. تنتشر هذه القصور وغيرها بالجنوب الجزائري حيث قصور وادي ريغ ، ومنطقة ورقلة، لتتجه في الجنوب الغربي نحو إقليم توات بتيدكلت وقورارة[3] وفي نفس المسار الغربي تستمر باتجاه بني ميزاب وجبال عمور لتواصل امتدادها حتى جبال القصور[4].

ومن الميـــزات الأســاسية التي تمتاز بها هذه القصور موقعها الإستراتيجي فـــوق قمم الجـــبال أو سفوحها أو هضبات صخرية صلبة تسهل عملية الدفاع عنها،كما تحيط بها وفي كثير من الأحيان أسوار تتخللها عدة مداخل وأبراج ، ومركز الدفاع بها القصبة فهي قلعة يحيطها سور مشيدة على

(1)- أحمد بوسعيد، احمد بوسعيد، **الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن 12هـ/ 18م**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ العام، تخصص: التاريخ المغاربي الاجتماعي والثقافي، جامعة أدرار، السنة الجامعية: 1432-1433هـ/ 2011-2012م، ص: 8.

(2)-ينظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، الشهير بالسراج، والملقب بابن المليح، **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الأمال والمأرب سيد الأعاجم والأعارب صلى الله عليه وسلـم (1040-1042هـ/1630-1633م)**، تح: عبد القادر شكود، المغرب: مطابع سلا، ص ص:80، 229، ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص:96.

(3) - **إقليم توات وتيدكلت وقورارة:** يضم إقليم توات أقاليم ثلاث جهات محلية متباينة جغرافياً ومتمايزة ديمغرافياً، وهي قورارة في الشمال وتيدكلت إلى الجنوب الشرقي وتوات الوسطى أو تسوات الوسطى ،يقال تديكلت عند ابن المليح: وهي أسفل بلاد توات، على مسير ثلاث أيام من مدشر ان صالح(عين صالح)، أما عن قورارة فهي واحة على مساحة يوم من بلاد تيميمون، وتضم حوالي عشرين قرية. تسمى أيضا بتيكورارين أو تينجوراين، قصورها كثيرة تقارب المائة. عبد الرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح: خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ج07، ص: 77. ابن المليح، المصدر السابق، ص: 229، ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 94، أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص: 3.

(4) - تنتشر القصور بمنطقة المغرب العربي على حزام واسع يمتد من حوالي 100كلم شرق مدينة طرابلس الليبية ويمر جنوباً غرب مسلك جبل نفوسة ثم يتجه نحو الشمال مروراً بالجنوب التونسي حيث قصور تطاوين ومطماطة ثم يتجه غرباً نحو الجنوب الجزائري =حيث قصور وادي ريغ ومنطقة ورقلة، ليتجه جنوب غرب نحو إقليم توات وتيدكلت وقورارة وغرباً باتجاه بني ميزاب وجبال عمور لتواصل امتدادها عبر جبال القصور حتى المغرب الأقصى، ينظر: قبابلة مبارك، المرجع السابق، ص: 17.

أساس دفاعي، وهي جزء من القصر[1]. وعادة ما يتكون القصر الواحد من مجموعة من القصور تعرف باسم واحد مثل: قصر " بودا" بتوات ، وقصور واحات وادي ريغ ذكر الرحالة هاينريش فون مالتسان ويشاركه في تقارب الوصف ابن الدين الأغواطي، أن قرى وادي ريغ تكون في مجموعها وحدة قبائل وادي ريغ، وقد عدد قراها بواحاتها إلى أربع وعشرين قرية متجاورة كواحة تمرنة، وسيدي راشد، والغمرة، وسيدي عقبة، وسيدي خليل، وتنديلة، والنزلة، وتيبسبست، والمقارين، وواحة المغير، غير أن واحة تقرت هي أكبر واحة في المنطقة، بل تعد العاصمة لها على حد وصف الأغواطي وهي تحتوي حوالي أربعمائة منزل، محاطة بأسوار ولها أبواب، وهذه الأسوار محاطة بدورها بخندق يمكن مقارنته ببحر من الماء وهذا يتصل بعيون ماء تصب جميعاً فيه[2].

كما تشاركها في هذا الزي المعماري الخاص من كثرة الأبواب والأسوار وخنادق الماء مدينة ورقلة[3] يقول عنها العياشي في رحلته: "هي مدينة لها سبعة أبواب، وهي في وسط خط من النخيل ومساحة المدينة بالتخمين نحو من نصف فرسخ[4] في مثله، محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها لا يصل أحد إلى سورها إلا ناحية الأبواب"[5] وأحد أبوابها يسمى باب السلطان[6]. ويتفق معه أبو القاسم الزياني في وصفه لها :" ورغلة مدينة أزلية لها سبعة أبواب، ولها سور حصين ومحيط به خندق

(1)- أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص: 8.

(2)- جاء هذا الوصف للأغواطي في رحلته المدونة أواخر العهد العثماني ما يقارب 1829م. ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 100، هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج1، ص: 154.

(3)- يعتبر قصر ورقلة أحد القصور الصحراوية التراثية الضاربة في التاريخ، وقد تزامن ظهوره مع عدة قصور على غرار: (قصور بني عباس بولاية بشار وقصر قمار بولاية الوادي وقصر تيميون بولاية بولاية أدرار، وقصور غدامس بالتراب الليبي...)كما يرجع بعض المؤرخين نشأته إلى الفترة النوميدية ما بين القرن 7 و 10 قبل الميلاد، كما توجد مراجع ترجع نشأته إلى القرون الوسطى الإسلامية، شواش عبد القادر، بوسماحة أحمد، المخالفات العمرانية والتحولات الاجتماعية أية علاقة، **حالة قصر ورقلة العتيق**، مخبر المصادر الطبيعية وتهيئة الفضاءات الحساسة، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر، ص: 1.

(4) -**الفرسخ**: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال، المعجم الوسيط، المرجع السابق، ص: 681.

(5) -العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص:115 .

(6)- المصدر نفسه، ج1، ص: 114 .

ممتلىء بالماء خلف سورها"[1]. وبالجنوب الصحراوي الجزائري أيضاً بلدة أولف والتي تعتبر البلدة الرئيسية بواحة توات، ومركز السلطة بالمنطقة تتحصن بأسوار طينية، كونها محل السلطان بتلك الواحات، أين تضرب بين يديه الطبول، ويفرض سلطته على القرى المجاورة مثل قرية " طيت" وقرية "وات الحناء"[2].

وأحياناً تكون البيوت متراصة فتكون بمثابة أسوار تحميها، كما هو الشأن بتيميمون قال عنها الأغواطي: " تيميمون بلدة كبيرة، ليس لها أسوار تحميها لأن منازلها جميعاً متراصة، وهي مبنية بالطين أو الطوب، "[3]. وعلى مقربة منها قصور واحة قورارة تبعد عنها مسير يوم، وهي تضم بدورها حوالي عشرين قرية [4]، وبنفس النمط المعماري للقصور الصحراوية يقال عن قرى وادي مزاب والتي تشمل خمسة قرى أكبرها غرداية، ثم بني يزقن، وبونورة، والعطف، ومليكة[5]. وهي في وادي محصن طبيعياً بجبال صخرية، يضم بين دفتيه حوالي ألفين وأربعمائة مسكن، ولغرادية سور، كما لها سوق كبير ومنارتان وبوابتان في السور[6].

وبنفس التشابه في النسق المعماري وعلى مقربة منها قصر بريان والقرارة هذا الأخير الذي يتموضع على قمة جبل يصفه عبد الرحمن التنلاني في قوله "جبل الصحاري"...هذا الجبل ما رأيت

---

(1)- العيـــاشي يسميها واكلا والزياني ورغلة والأغواطي ورقلة. ينظر: العيـاشي، المصـدر السابق، ص: ج1، ص:114 ، أبو القاسم الزياني. الترجمانة الكبرى، ص: 149 ، ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 92.

(2)- **توات الحناء**: تقع غرب أولف، وسميت بتوات الحناء لأنها تنتج الحناء.ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 93، 94.

(3)- المصدر نفسه، ص: 93.

(4)- ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 94.

(5)- يزيد الأغواطي على عدد القرى الخمسة قصر سادس ويسميه أبو القاسم سعد الله قصر سيدي سعيد. ينظر: عبد الرحمن أبن ادريس التنلاني التواتي الجزائري (ت 1233هـ/ 1817م) إلى الجزائر العاصمة، **ثلاث رحلات مغاربية**، تح: مصطفى ضيف محفوظ بوكراع، الجزائر : المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، طبعة خاصة: 2011م، ص ص: 240، 241، ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 90.

(6)- ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر نفسه، ص: 90.

مثل طوله وكثرة أشجاره وطولها وفيه الأنهار المطردة والطيور المغردة ويوجد فيه " القرمز " الجيد الكثير[1]. وفي جنوب قصور وادي مزاب يشرف قصر القليعة وهو قصر قديم فوق جبل هرمي الشكل، بني هذا القصر في جبل معزول كأنه جزيرة في وسط كثبان رملية، تحيط به واحات غناء من النخيل، وتصميمه الهندسي والدفاعي يبين مدى عبقرية من بناه[2]. وهذا ما يأكده العياشي في وصفه لقرية القليعة:" وهي قرية حصينة على حجر صلد، في سفح جبل منقطع عنه"[3] لأن ذلك القصر هجر مع التقادم في الزمن وسكن الناس سفوحه الصخرية المتربعة في وسط الرمال الفسيحة[4].

ومن إقليم بني مزاب بإتجاه جبال عمور تتوسط مدينة الأغواط، تذكر الروايات التاريخية أن مدينة الأغواط كانت تزخر بمجموعة من القصور المعمارية مثل: قصر بن بوطة، وبومندالة، ونجال، وقصبة بن فتوح، وندجال لأولاد بوزيان، وسيدي ميمون لأولاد بوزيان، وقصر بدلة لأولاد يوسف، في الواحات الشمالية وهم من أسسوا قصر تاجموت سنة 1666م.

كانت هذه القصور والقصبات في بداية تأسيسها مستقلة تضم كل منها قبيلة أو أكثر يترأس كل منها شيخ لا يربط بينهما سوى علاقة الجوار، لكن لأسباب أمنية دفعتهم للتجمع حول أكبر قصور الأغواط قصر بن بوطة. فبعد تجمع تلك القصور أضحت الأغواط بلدة كبيرة، محاطة بسور وحولها تحصينات ولها أربعة أبواب وأربعة مساجد[5]. وقد كانت قصور الأغواط كلها كقصر

(1)- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، ص: 242.

(2)- يرتفع الجبل الذي بني عليه القصر ب75م على مستوى "واد إمقيدن"، مشرف على كافة واحات المنيعة ومداخل المدينة تم تأسيس القصر في بداية القرن العاشر ميلادي، من طرف قبيلة زناتية قدمت من نواحي تيميمون وقورارة، وقد حكم القصر ملكة تسمى " امباركة بنت الخص". ينظر: قصر المنيعة، ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته، وزارة الثقافة الجمهورية الجزائرية الشعبية، في 2020/05/14، على الساعة: 17:17 على موقع: http://www.opvm.dz/ar.

(3)- قليعة تصغير قلعة وهي المنيعة حالياً وقد سماها بذلك أيضا الأغواطي. ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 111.

(4)- ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 91.

(5)– ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 87.

العسافية[1]وقصر الحيران والقرى الزراعية المتواجدة كلها على حواف وادي مزي تبذل جهدها لكي لا تفقد نفوذها وتفوقها في قصر الأغواط[2]. ومن قراها القريبة قرية تاجموت تأسس قصرها من البدو الرحل القادمين من الزيبان وبعض القبائل الفارة من الصراعات التي كانت موجودة على الكلأ لتستقر على أربعين كلم من منبع واد مزي في مكان كان يسمى تاجموت ويقصد به مكان ارتبطت بذكرى ملكة حكم عليها بالموت والتسمية مشكلة من كلمة تاج وكلمة موت، وكان من بين الذين سكنوا القصر أولاد يعقوب والعموريين والشعانبة القادمين من متليلي الذي جاؤوا للرعي في المنطقة [3].

يصف طابعها العمراني البسيط الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان، مبيناً من خلالها موقعها الجغرافي المرتفع، لدواعي دفاعية كما أسلفنا، والحوائط الطينية للحماية والزراعية للمعاش؛ وهذه ميزة أغلب القرى الصحراوية في كثير من الأحيان:" تقع تاجموت فوق مرتفع حجري كونته طبيعة الأرض الصحراوية البديعة، لقد كانت هذه الهضبة الصغيرة، التي تقع فوقها المدينة وبساتينها، ذات شكل مثلث الزوايا وحول قاعدة هذا المثلث الصخري كانت تمتد أشجار النخيل، وكان هناك سور يبدو كسور المدينة من بعيد، ولكنه لم يكن في الحقيقة سوى مرتفع من الطين يحيط بالمدينة وينحدر ليحيط ببساتين النخيل أيضا، ويرى فوقه في بعض الأحيان برج هرمي الشكل، مسنن ذو كوى لاطلاق النار"[4]. أما عن عين ماضي يقول الأغواطي:"إن هذه البلدة تقع غربي تجموت، ولها بابان

= قصر العسافية الذي يبعد باثنا عشر كلم عن الاغواط وكان يمارس التجارة بشكل منافس للمدينة وحتى في الزراعة كان يقوم بقط ماء وادي مزي عن الاغواط لري زراعته وكانوا يطالبون بحماية البدو.

(1)- **قصر العسافية:** وهو من القصور الثانوية يبعد باثني عشر كلم عن الأغواط وكان يمارس التجارة بشكل منافس للمدينة وحتى في الزراعة كان يقوم بقطع ماء وادي مزي عن الاغواط لري زراعته . ينظر:

Goorges Hertz, **L'algerie nomade et Ksourienne 1830-1954**, L'imprimer A. Robert, Marseille, 1989 p137.

(2) -Goorges Hertz, Op .Cit, p133.

(3) -Goorges Hertz, Op. Cit, P140..

(4)- هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص:247 .

عظيمان"[1]، يصفها الحضيكي:" عين ماضي قرية فيها أجنة تين وعين محفوظة بالحوائط والزروب، وللقرية كذلك سور ممنوع"[2]. يقول عنه أبو مدين الدرعي:" أحاطوا على قريتهم وبساتينها بسور متقن البناء وأبراج"[3]. هذا السور الحصين الذي أثنى على صنعه فون مالتسان أيضاً في قوله:" كانت عين ماضي أحسن حصن في الجزائر كلها، على الأقل أحسن حصن بناه العرب، يحيط بها سور كبير قوي، كانت بروجه الكثيرة ذات سقوف هرمية الشكل. دخلنا إليها عبر الباب الكبير، الذي كان شبيهاً بالقلعة، وكان أعلى بكثير من أبواب المدن العربية الأخرى، تحيط به أسوار حصينة، وقد ارتفع على جنبيه برجان مربعان، جعلاه ذا مظهر ضخم[4]، وكان للشارع الأول الذي دخلناه مظهر فخم أيضاً، ذات منظر أسود رهيب"، أما عن موقعها هي الأخرى :" فتقع فوق تل بيضاوي الشكل، ولذلك يقول العرب عين ماضي بيضة نعامة شقت طولها"، أما عن بيوتها من الداخل فكلها مبنية بالطين باستثناء بيت التجاني:" مرابط عين ماضي الشهير، كان بيتاً عربياً أبيض، وهو البيت الوحيد في عين ماضي الذي لم يكن مبنياً من الطين"[5]. كما لا نغفل عن مداشر الجنوب الغربي للجزائر كمداشر قرى مدينة بشار، منها ما عرف بمدشر وَكْد[6] ومدشر القنادسة.

---

[1]- ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر نفسه، ص: 88، أبو الناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص: 130، 132.

[2]- أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي (ت 1189هـ)، **الرحلة الحجازية**، تع: عبد العالي لمدبر، الرباط: المغرب مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط1 : 1432هـ/ 2011م، ص: 83 .

[3]- أبو مدين الدرعي (1152هـ/ 1739م)، رحلة أبو مدين الدرعي، **مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط**، رقم: 297، و 42 و.

(4)- ينظر: هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص:253 . .

[5]- لقد حاصر الأمير عبد القادر هذه المدينة عام كاملاً ولم يستطع أن يخضعها لقوة سورها الحصين. ينظر: هاينريش فون مالتسان، المصدر نفسه، ج3، ص:253 . .

[6]- ينظر أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري (ت 1239هـ/ 1823م)، **الرحلة الناصرية الكبرى**، تح: المهدي الغالي، ط: 1434هـ/2013م، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج1، ص: 187.

كما تحتوي هذه القصور إضافة إلى بيوت السكان على مرافق متنوعة أهمها المسجد الذي يحتل موقعاً مركزياً بالنسبة للقصر، وفي الغالب نجد أكثر من مسجد، مثل تقرت عاصمة واد ريغ يقول العياشي:" في مسجدهم صومعة وثيقة البناء، طويلة جداً فيها نحو مائة درجة، على بابها اسم صانعها وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي، وتاريخ بنائها سنة سبع عشر وثمانمائة"[1]، بالإضافة لقصور تميمون ذات الأربع مساجد، وقرية "وات الحناء" الواقعة غرب أولف، وبالرغم كونها قرية صغيرة تابعة لمركز السلطة المتواجد باولف، إلا أنها تتوفر على عدد من المساجد كما ذكر ذلك الأغواطي[2]، ودائماً مع الأغواطي وقرى الصحراء نجده يصف أمراً مستغرباً لم تعهده العمارة الدينية بمساجد المغرب الإسلامي عموماً والجزائر على الخصوص، وهذا مع مدينته الأغواط يقول ليس بمساجدها منارات وهذا على خلاف المعتاد في الهندسة المعمارية المعروفة أنذاك [3]. أما عن عين ماضي يقول أبو ناصر الدرعي:" بها مسجد على ربوة مبنية بأحجار كبار تحاكي الأحجار المنجورة، باستقامة وليست منجورة، وحوله قبور عديدة وأسفله واد بماء جار وبازائه عدة أشجار تين وهو مفرش بقطائف جيدة وحصر جيدة وله نور يعلوه وبازائه مطبخ طعام مبني على صورة بيت وصحائف وقدور"[4].

كما تحوي تلك القصور أو المداشر على أسواق ودكاكين ورحبات(ساحات)، كما تحوي بعض القصور على قصبة محصنة تكون مقـراً للحاكم، مثل: ورقلة وتقرت بواد ريغ وقد ذكرنا ذلك أيضاً مع قصر أولف بواحة توات [5]. وأهم ما يميز هذه القصور إرتباطها الوثيق بالجانب الفلاحي فهي تقع بالقرب من أراضي صالحة للزراعة، ولموقعها الجغرافي المرتفع كما أسلفنا فقد ابتكروا طريقة لاستغلال

---

[1] – العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 119.

[2] – ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص:92.

[3] – المصدر نفسه، ص: 88.

[4]– ينظر: أبو ناصر الناصري، المصدر السابق، ص:132 .

[5]– ينظر: العياشي، المصدر السابق،ج1، ص ص:114 ، 123، هاينريش، المصدر السابق، ج3، ص:178 .

الماء وتوزيعه بشكل مضبوط ومحكم بالنسبة لسكان القصر الذين بداخله من جهة ولسقي مزروعاتهم في خارجه من جهة أخرى لذلك فمعظم القصور الصحراوية تحيط بها واحات النخيل التي تعتبر الأساس الإقتصادي لسكانها وتوفر لها مجالاً بيئياً حامياً، فهي حاجز طبيعي في وجه الزوابع الرملية[1].

وقد شمل الطابع الفلاحي للقصور أغلب القرى والمدن الصحراوية مثل: واحات تقرت بقراها المتقاربة يتحدث الأغواطي عن مشهدها الفلاحي ف:" من أعالي منئر البلدة يمكن مشاهدة عدد من القرى وغابات (النخيل) في المناطق المجاورة، كالنزلة وتيبسبست وتماسين والمقارية والمغير"[2] ، يقول العياشي عن واد سوف:" هي خط من النخل متعرض في وسط الرمل...فيه بلاد عديدة وماؤها طيب غزير قريب من وجه الأرض"[3]، وعن تماسين :" هي بلدة كثيرة العمارة والنخيل "[4]، وبأقصى الجنوب مدينة قورارة وواحاتها التي تضم عشرين قرية، وببلاد توات أيضاً ببلدة بني أركان:" يصفها ابن المليح هي:"بلد طيبة كثيرة الزرع والثمار المختلفة بالجنس والنوع، ذات عيون جارية وأنهار"[5] وفي طريق تديكلت أسفل بلاد توات:"بلغنا ...مدشراً-أي قصر – صغيراً يقال له" ان صالح" أحدقت به عيون ونخيل كثيرة"[6]، ونفس الشأن بقرى بني مزاب فعن القرارة بينا ذلك مع وصف التنلاني لجبل الصحاري الذي تتموضع فيه القرية:" هذا الجبل ما رأيت مثل طوله وكثرة أشجاره وطولها وفيه الأنهار المطردة والطيور المغردة"[7] وعن عين ماضي فذات أجنة تين والزروب

---

[1]- ينظر: قبابلة مبارك، المرجع السابق، ص: 16 .

[2]- ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 100.

[3]- يسميها العياشي سوف. ينظر: العياشي، المصدر السابق،ج1، ص:123.

[4]- المصدر نفسه،ج1، ص:119.

[5]- أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، الشهير بالسراج، والملقب بابن المليح، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الأمال والمأرب سيد الأعاجم والأعارب صلى الله عليه وسلم، ص:79.

[6]- ابن المليح، المصدر السابق، ص: 229.

[7]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، ص: 242.

وعيون الماء المحفوظة بالحوائط [1]. فالقصر من خلال كل ما تقدم يوصف بأنه نوع من التجمعات البدوية الزراعية، وقد دأب الباحثون الفرنسيون على تسميتها ب(Villages) أي القرى[2].

4- المدن الصحراوية:

عرفت الصحراء ما يعرف بالمدينة تمييز بينها وبين القصر، وإن لم تكن تحمل اسم المدينة، فالمتأمل للدراسات المختلفة حول العمران الصحراوي القديم يرى بوضوح نوعاً من الاختلاط عند الباحثين بين القصر والمدينة، فمنهم من يستعمل المصطلحين دون تمييز وهناك من يرى وجود فرق بينهما. وهو الرأي لأصوب لعدة اعتبارات منها كون المدينة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالدولة أو الخلافة، يقول ابن خلدون في وصفه للمدينة:"ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير،...ولتمصير الأمصار واختطاط المدن لابد من الدولة والملك"[3] وبالرغم من وجود حاكم بالقصر والذي يتمثل غالباً في جماعة تمارس السلطة فيه وتسهر على تسيير شؤونه، إلا أن هذه السلطة لا تتعدى حدود القصر وسكانه، بينما تمتد سلطة حاكم المدينة إلى أبعد من ذلك. ومن ناحية أخرى فإن المدينة تعريف بشري قبل أن تكون جغرافي، فالمدينة تمتاز بالضخامة والأتساع وكثرة ساكنيها وتعدد الحرف فيها. فهي تجمع حضري فعلي تسكنها قبائل عديدة ويمارس أهلها صناعات متنوعة حيث لا تقوم الحياة إلا بوجودها. بينما يسكن القصر عدد أقل من الناس ويعتمدون في عيشهم على الزراعة بالخصوص،كما أن المدينة تنمو وتتسع مع الزمن بينما القصر بحكم موقعه وطبيعته، لا توجد له أرباض تسمح باتساعه، بل يبقى منغلقاً داخل أسواره وإذا زاد سكانه فأنهم يهاجرون منه، لذلك لم

---

[1]- ينظر: الحضيكي، المصدر السابق، ص: 83 .

[2]- ينظر: قبابلة مبارك، المرجع السابق، ص ص:16، 17.

[3]- عبد الرحمن ابن خلدون (732-808هـ)، **مقدمة ابن خلدون**، تح: عبد الله محمد الدرويش، دمشق: دار البلخي، ط1:1325هـ/ 2004م، ج2، ص: 11.

تتعرض معظم القصور لتغيرات جوهرية كحال المدن بل بقيت محافظة على أصالتها وطابعها القديم، وهو ما دفع المهتمين بهذا المجال إلى اعتبار القصر أحد العناصر الثابتة في البنية المعمارية[1].

ومع هذه المقاربة فإن أغلب التجمعات العمرانية المهمة بالمنطقة عبارة عن قصور، إضافة إلى أن بعض القصور الكبيرة كانت تؤدي دور المدينة بامتياز مثل: الأغواط وبسكرة ورقلة وتقرت، بشار[2]، حيث كانت مقراً لأمارات حكمت مدة طويلة، إضافة إلى كل ذلك فإن أغلب المدن الصحراوية، قد تطورت من نواة قديمة عبارة عن قصر أو مجموعة من القصور المتقاربة[3].

5- البيوت المعزولة:

تنتشر في مختلف مناطق الصحراء منازل معزولة عن التجمعات العمرانية، لكن دون أن تكون بعيدة كثيراً عنها وأغلب هذه المساكن لا تكون مأهولة إلا في مواسم معينة حسب الحاجة إليها، البعض منها تتواجد في الغيطان(جمع غوط) والواحات وتستعمل عند جني المحاصيل، أو تكون أحياناً مخصصة للخدم، وهذا ما يبينه العياشي في وصفه لسكنى غيطان واد سوف عبارة عن :" زرائب من جريد النخل فإليها يأوون وبها يخزنزن "[4].

كما توجد بيوت منعزلة بقرى صحراوية يجعلها أصحابها زوايا لعابري السبيل ولا يتعدى أفرادها عشرة أفراد يقول العياشي أيضاً عن إحدى القرى القريبة من القليعة التابعة في سلطتها لحاكم ورقلة: " ولولا أن هذه القرية في مثل هذه المفازة ما حسن تسميتها قرية " والا " إذ ليس فيها إلا نخلات

---

[1]- قبابلة مبارك، المرجع السابق، ص:18.

[2]- ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ج2، ص ص: 114،124، 539، 540، أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص:124، 132، 133، 138، 145، السجلماسي، المصدر السابق، ص:113 ، أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص ص: 124،149، ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 87، 90،92 ،93 ،95، 96،99، هاينريش، المصدر السابق، ج3، ص ص: 147، 182.

[3]-كقصور واد مزاب الخمسة: بني يزقن، بونورة، العطف، مليكة، غرداية، والتي أصبحت هذه القصور مع الوقت مدينة غرداية ، ونفس الأمر كان مع الأغواط . ينظر أيضاً ص: 217 .

[4]- العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 123.

معدودة قد يبس أكثرها، وبقيت جدران تسفى عليها الرياح وحجرات من جريد النخل وعرش من الجريد مرفوعة من الأرض مقدار يبس فيها تمر ذلك النخل، إذا لا يقدرون على وضعه على الأرض لئلا يغلب عليها الرمل فيذهب أدراج الرياح، ولم نجد في هذه القرية إلا رجلا واحد ومعه نساء من قربته يعولهن، وهو من ذرية رجل من الصالحين "[1]. وبنفس المعنى وقلة العمارة يقول السجلماسي عن أم القرار الشرقية[2] إحدى القرى القريبة من عين الصفراء بضواحي الظهرا بأنها: " قرية ضعيفة جداً قليلة العمارة "[3].

كما يقيم البدو بيوتاً منعزلة موسمية قرب المراعي، إضافة لكل هذه الأنماط العمرانية، فقد كانت نسبة كبيرة من سكان الصحراء البدويين يسكنون الخيام ويعيشون حياة التنقل مع مواشيهم طلباً للمراعي والماء، وإن كنا لا ندرجها هنا تحت مسميات العمارة، فقد أدت وظيفتها السكنية عهوداً طويلة ولا تزال[4].

6-الدوایر والخیام والأكواخ:

يعتبر الدوار بمثابة قرية ريفية مركبة من خيام تشبه المخيم، وكل خيمة تستخدم في الاسكان العائلي وعادة ما يوجد عدة دواوير يؤلفون قبيلة واحدة، والدواوير في الأصل معيار عائلي داخل القبيلة، ومعنى الدوار أن كل رب عائلة ومالك لأراضي زراعية، يحيط حوله أولاده وأقاربه وحلفاءه وعماله المزارعون، ويحكم ذلك الدوار شيخ يدعى " شيخ الدوار " وما يميزه في مسكنه توسط خيمته الدوار، وهي منصوبة بشكل يجعلها ترتفع عن الخيام الأخرى. وقد ذكر لامبير أن القبيلة العربية تتكون من عدة دواوير أو تجمع خيام تربط بينهم علاقات تحالف أو مصالح مشتركة تخضع لرئيس

---

[1] - ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص ص: 107، 108.

[2] - **أم القرار الشرقية** : بقاف معقودة من بلديات ولاية النعامة بالجزائر، جنوب عين الصفراء تبعد عنها ب 55كلم، المتجهة نحو بشار وهي قسمان: المقرار الفوقاني او الشرقي والمقرار التحتاني أو الغربي، ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص: 129.

[3] - أبو العباس الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص: 129.

[4] - قبابلة مبارك، المرجع السابق، ص:18.

يحكمها ويسير شؤونها.كما يمكن للدور أن يتشكل حول الزاوية–مقر المرابط–وهي التي تدعى بالدواوير المرابطية[1].

ومن خلال الكتابات التاريخية تم استخلاص أنه إذا كان سكان الجبال والصحراء يسكنون القرى التي تعكس استقرارهم، فإن سكان السهول من القبائل كانوا يسكنون الخيام والأكواخ التي تنصب على شكر دائرة فسميت كل دائرة من الخيام دواراً[2].

كما وجدت بالمناطق التلية دواوير معروفة كدواوير إقليم بني راشد، فقد قسم الحسن الوزان كما أسلفنا سابقاً سكان إقليم بني راشد إلى قسمين، سكان المرتفعات وسكان السهول الذين:" يقيمون في البادية ويعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم ولهم عدد وافر من الجمال والخيل "[3]، وبنفس الوصف تحدث مارمول كربخال عن إقليم بني راشد وعن سكانه من البربر وبالأخص في طرفه التلي بالشمال، أين قسمهم إلى فرقتين:" أهل الجبال ويسكنون القرى ويشتغلون بزراعة الحقول والكروم، أما غيرهم–يقصد أهل الجنوب في الطرف التلي الشمالي– فيجوبون الآفاق كما يفعل الأعراب، وهؤلاء أعظم غنى وشهرة وأكثر خيلاً وجمالاً "[4]. فهذه صفة الأرياف أو البوادي التلية، أين يغطي الريف أكثر المناطق التلية والسهبية للبلاد الجزائرية، فالريف التلي وهو الغالب يسكن أهله القرابي أو الأكواخ في المناطق الجبلية والقرى الطينية والخيام في السهول، أما الريف شبه الصحراوي فيقتصر على تربية المواشي فقط، ويسكن أهله وهم قلة القرابي والقرى الطينية أو القصور وعليه فسكان الريف الجزائري في العهد العثماني صنفان: صنف مستقر لمدة معينة، وبالتالي يجمع هذا

(1)-L'Abbè Edmond lambert .Op.cit ,PP41.333.Laugier de tassy.Op.cit, p45.

(2) – ينظر: بلبراوات بن عتو، المرجع السابق، ص:18.

(3) – ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 26.

(4) – ينظر : مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، ص: 324.

الصنف بين الاستقرار والترحال، وعادة هم سكان الخيام. وصنف أخر مستقر على الدوام، وعادة هم سكان الأكواخ والقرى الطينية[1].

ولكن من ألتصقت بهم تسميت الأعراب هم سكانوا الخيام وقد شكلوا دواوير في العهد العثماني سواء بالمناطق التلية كالسهول والهضاب أو المناطق الوسطى أو الصحراوية فقد كانوا بدو رحل يتنقلوا بكل ما يملكون أين وجدو الماء والكلا لماشيتهم وإبلهم، فالبدو الرحل كما يقال أصحاب النجمة والخيمة،كالتوارق[2] بالجنوب الشرقي الجزائري، فهم بدو الإبل يرتحلون في فترة الجفاف نحو المراعي الخصبة في مالي والنيجر تاركين وراءهم الخيام وقطعان الماعز في الهقار. وهناك أصحاب الشاة والضأن أو البقر يمثلون الشاوية، لا يتوغلون في الصحراء لعدم قدرة الشأة والبقر على إحتمال الجفاف الشديد، يسمون بدو شمال الصحراء الجزائرية، تنقلاتهم غالباً جماعية أي شاملة للبشر والحيوان والخيام، دون ترك أي شيء وراءهم. وقد يسكن بعضهم الخيام ويبني بعضهم الآخر بيوتاً من الطين والحجارة (القرابي)[3]. ومن خصائص هذه الحياة البدوية الرعوية البساطة في المسكن والملبس والمعدات، لأن الترحال ومواجهة الظروف الصعبة يفرض خفة الحركة التي لا تتأتى إلا بالبساطة، إلى جانب التجمع القبلي أي أن الظروف المعيشية الصعبة تفرض على البدو الرعاة التوحد في شكل تجمع قبلي قد يكبر بتحالفاته مع قبائل أخرى[4].

---

[1] – ينظر: بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: 210.

[2] – **التوارق**: كلمة تأرقي أو الطوارق هي كلمة من " تارجا " وهي منطقة في ليبيا والتي يسكنها الآن "كيل تارجا " والتي كانت قديماً مكان تلاقي القوافل التجارية فيحدث فيها التبادل التجاري المقايضة، ومنه أطلق على اموهاغ من طرف التجار العرب الطوارق أي أهل تارجا. ينظر: حسن مرموري، **الطوارق بين السلطة التقليدية والإدارة الفرنسية في بداية القرن 20**، رسالة ماجستير، بقسم علم الاجتماع، ط: 2001، 2000م، ص: 30.

[3] – بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: 210.

[4] – المرجع نفسه، ص: 209.

أما عن الأكواخ فالبعض منها تتواجد في الغيطان(جمع غوط) والواحات وتستعمل عند جني المحاصيـل، أو تكون أحياناً مخصصة للخدم، وهذا ما يبينه العياشي في وصفه لسكنى غيطان واد سوف عبارة عن:" زرائب من جريد النخل فإليها يأوون وبها يخزنزن "[1]. أما عن أهل النجمة والخيمة فقد عرفوا عند الكثير من الرحالة بإسم الأعراب كاعراب ورقلة وتقرت وبشار وبالمناطق الوسطى الشبه صحراوية أعراب عين ماضي قرب الأغواط، وأعراب سيدي خالد قرب بسكرة، كما راجت الظهرا ببايلك الغرب بأعراب قرى الغاسول وبوسمغون وغيرها [2].

وكما تقدم سالفاً فأهم المجموعات السكانية والعرقية التي تمثل الإيالة الجزائرية تشكلت من قسمين: سكان المدن ومن سكان الأرياف والتي تشمل بدورها أهل القرى وأهل البادية من البدو الرحل والتي سيكون حولها التركيز باعتبارها محور الدراسة. ولكن نستهلها مع الفئة الرئيسية المسيطرة على دواليب السلطة السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية والتي لها انعكاساتها على تكون المجتمع الريفي في الجزائر العثمانية وهم سكان المدن.

المبحث الثالث: دور البنية الفئوية للمجتمع الحضري والريفي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للجزائر العثمانية

اختلفت تقسيمات المؤرخين في دراساتهم للتركيبة السكانية للمجتمع الجزائري خلال العهد العثماني (926هـ-1246هـ/1519-1830م)، فقسمه الأوروبيون إلى عدة مجموعات هم: الأتراك، والكراغلة، والعرب والبربر والأندلسيون واليهود والزنوج[3]. والبعض الآخر قسم هذه المجموعات إلى

---

[1]- العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 123.

[2]- ينظر: العياشي، المصدر نفسه، ج1، ص ص: 64 ، 115،122، أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص: 130، 134، السجلماسي، المصدر السابق، ص ص:113 ، 134، 136.

[1]- Mèmoire dey Boutin reconnaissance des ville forts et batteries d'ALGER 1808 in Mémoires et Documents Algérie ,1790 -1827 ,AR M R E ,France, pp

أربع درجات اجتماعية كبرى هم: الأتراك والمغاربة؛ بما فيهم الكراغلة والمسيحيون واليهود[1]، وهناك من قال عن سكان المدن أنهم: عبارة عن خليط من العرب والبربر وبقايا الأجناس التي غزت البلاد عبر العصور، والمهاجرين من الأندلس والأتراك وهذا الامتزاج بين مختلف الطوائف والأجناس وصفه وليم شالر في قوله:" وهذا الاختلاط في العرق نجم عنه تحسن ملحوظ في هذا الجنس- يقصد الأتراك- وذلك فيما يتعلق بالخصائص الجسمية والأخلاقية معاً"[2]، وغيرها من التقسيمات والتي تصب في قالب واحد، وبالرغم من هذا الخليط في الأجناس والأعراف والأعراق في المجتمع الجزائري وتنوع فئاته الاجتماعية، فإنها بلغة درجة عالية من التميز والانسجام في الترابط الاجتماعي [3].

ومن هذا المنطلق يمكن تقسيم المجتمع الجزائري في العهد العثماني إلى من مجموعتين أساسيتين هما: سكان المدن الذين تتراوح نسبتهم ما بين 5 و10%، وسكان الأرياف الذين يمثلون الأغلبية الساحقة [4]. وكل مجموعة من المجموعتين تتكون من عدة فئات، تختلف كل واحدة عن الأخرى، من حيث العدد والمكانة الاجتماعية، وعلى رأس الهرم الاجتماعي بالمدن فئة الأتراك العثمانيين، والتي

---

[1]- ينظر: وليام سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، المرجع السابق، ص: 97.

[2]- ويجتهد البعض الآخر بأن الامتزاج الذي عرفه المجتمع الجزائري، والذي أدخل عليه بعض الملامح الأوروبية، قد كان عن طريق الأندلسيين، والأتراك العثمانيين، والأعلاج الذين اختلطوا بالعنصر المحلي: الأمازيغ والعرب. ينظر: وليم شالر، المصدر السابق، ص: 56، أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني1519 – 1830م**، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور: عمار بن خروف، السنة الجامعية: 2005 – 2006م، ص: 54.

[3]- وليام سبنسر، المرجع السابق، ص:97.

[4]- وحسب إحصائيات حمدان خوجة أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، أن تعداد سكان الإيالة الجزائر بلغ عشرة ملايين نسمة، موزعة على المدن والقرى والموانىء والأرياف، والجزء الأكبر من سكانها ومصدر ثروتها، يوجد خارج المدن، ويطلق عليهم اسم البدو. في حين يعقب نصر الدين السعيدوني في كتابه:" النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني" في قوله عن هذه الإحصائية فيها مبالغة في تضخيم تعداد سكان الجزائر آنذاك وأن أكثر الإحصائيات تواتراً أن أكثر السكان يتراوح بين ثلاثة ملايين وثلاثة ملايين ونصف نسمة. ينظر: حمدان خوجة، المرآة، ص:13، ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2: 1985م، ص: 41. وأكثر من فصل في هذا الأمر ينظر أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، ص: 52.

تتألف من القابضين على السلطة السياسية والعسكرية في حين كانت قبائل المخزن وبعض الأسر؛ تحتل الصدارة في الأرياف، وبغض النظر عن الفوارق والتي تتميز بها كل فئة فإن المجتمع الجزائري يشكل طائفة متماسكة، يكاد لا يظهر التفاوت بين فئاته[1]. سنشرح تفاصيلها فيما يلي:

1- سكان المدن:

وتتمثل في الأقلية التركية العثمانية وجماعة الكراغلة وجماعة الحضر والتي كانت تشكل الفئة البارزة من سكان المدن خلال العهد العثماني وتضم بدورها عدة مجموعات نجملهم في: جماعة البلدية، والبرانية والأندلسية والأشراف والسودانية؛ وهي العناصر التي توجد في أغلب المدن والحواضر الكبرى على الخصوص، ولاسيما بمدينة الجزائر، إلى جانب الدخلاء اليهود والأوربيون من الأجانب والتجار والقناصل.

أ- الأقلية التركية:

إن التنظيم الاجتماعي لسكان المدن في الجزائر في العهد العثمانية اتخذ شكل هرمياً تحتل قمته الطائفة التركية، وتشمل هذه الطائفة قوات الإنكشارية والموظفين وقادة رياس البحر. وعلى الرغم من قلة تلك الطائفة والتي لم يتجاوز عددهم أكثر من عشرين ألف نسمة حتى سنة 1830م؛ إلا أنها ظلت الطائفة المسيطرة على سدة الحكم ولها نفوذ واسع بحكم تسلمها المناصب الحكومية المهمة في الدولة[2]، وكان هؤلاء الأتراك يشكلون طائفة مغلقة منعزلة عن المجتمع، متمسكة بلغتها التركية وبتقاليدها الخاصة في نظم العيش والسلوك وبمذهبها الحنفي، تخضع لنظام قضائي خاص، ولها

---

[1]- ينظر: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 52. ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص: 42 .

[2]- ينظر: مؤيد محمود حمد المشهداني، سلوان رشيد رمضان، **أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1830-1518**، **مقال بمجلة الدراسات التاريخية والحضارية**، جامعة تكرت، المجلد 5 العدد 16 نيسان 2013م- جمادى الآخر 1434هـ، ص: 425، نصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني، ص: 42.

امتيازات خاصة في إبقاء هيمنتها على المناصب الحكومية [1]، وقد تشكلت النواة الأولى لفئة الأتراك العثمانيين في الجزائر من الجند الأنكشاري، ومن المتطوعين الذين أرسلهم السلطان العثماني سليم الأول (918-927هـ/1512- 1520م)، إلى خير الدين بربروس في أعقاب انضواء الجزائر تحت لوائه، فجاء من اسطنبول ألف إنكشاري، ثم أنضاف إليهم من الأتراك العثمانيين الذين كانوا يتوافدون من أنحاء الدولة العثمانية أربعة آلاف متطوع آخر، وبهذا الشكل غدت التشكيلات العسكرية لأوجاق[2] الجزائر مشابهة لإنكشارية إسطنبول، وقد استمر ذلك التوافد إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر[3]. وقد استمر توافد المجندين الأتراك على الجزائر طيلة التواجد العثماني بها، بأعداد متفاوتة حسب المستجدات وحاجة الإيالة، ففي سنة 1754م جاء تقرير لسفير البندقية بالجزائر أن حاجي عصمان أرسل بهدايا إلى الباب العالي لأخذ الإذن بتجنيد 5000 جندي من أراضي الإمبراطورية وذلك لأحداث طارئة حلت بالجزائر بعد تقلص عدد الجند بسبب الثورات الداخلية ووباء حل بالبلاد[4]، وكنموذج أخر في تزايد عدد الجند ففي عهد عمر باشا (1231-1233هـ/ 1815-1817م) وصل الجزائر حوالي 933 مجند [5]. وهذا ما أثبتته وثائق عثمانية صرح فيها بإجراء معاملات متكررة بعد

---

[1]- فالتركي فخور بعمله العسكري، لا يميل إلى استعمار الأرض، ويقنع بالعيش من مرتبه الإداري أو من دكانه الخاص أو بستانه الواقع بالأراضي المجاورة للمدينة. ينظر: سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني**، ص: 42.

[2]- **الأوجاق (ocak)**:كلمة تركية لها عدة معان: كل ما تنفخ وتشعل فيه النار من طين أو قرميد أو حديد، وأطلق على الجماعة التي يلتقي أفرادها في مكان واحد، ثم أطلق على المجتمع أرباب الحرف. كما أطلق كذلك على صنف من الجند، كالسباهية، وهم فرق من العساكر في الجيش الإنكشاري. سهيل صبان، **المعجم الموسوعي للمطلحات العثمانية التارخية**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط3: 1421هـ/ 2000م، ص: 42.

[3] ينظر: عزيز سامح التر، **الأتراك العثمانية في أفريقيا الشمالية**، تر: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية، ط1: 1409هـ/ 1989م، ص ص: 132، 133، أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 52.

[4]- ينظر: جميلة معاشي، **الإنكشارية والمجتمع بايالك قسنطينة في نهاية العهد العثماني**، إشراف: كمال فيلالي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، السنة الجامعية: (1428_1429هـ/2007- 2008م)، ص: 18 .

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 17.

فرمانات سلطانية لجمع المتطوعين من ولايات عثمانية كألوية أزمير من منطقة تكه وحميد ومن ولاية كآيدين وصوغله وصاروخان ومنتشا وقوجا ألى وخدا وندكار واسكن شهر وقره سى. وكل هذه الإجراءات حسب الوثائق جاءت طوعاً دون إكراه من السلطة العثمانية على المتطوعين نزولاً عند رغبة حكام الجزائر على أن تدفع رواتبهم من قبل أوجاق الجزائر[1].

وبسب التباين في الظروف والأحداث اختلفت تقارير الرحالة والمؤرخين الأوروبيين[2] في تحديد عدد أفراد الانكشارية في الجزائر، ويعود السبب الرئيسي فيها للحروب والثروات والاضطرابات وللكوارث والأوبئة التي كانت تجتاح البلاد من الفينة والأخرى. والتي تستدعي جلب الجند من الإمبراطورية العثمانية. فبينما يحددها "Haèdo" (1578-1581م) بـ 6000 جندي[3].

وقدرها "Shaw "(1720-1732م) ب« 25 إلى 30 ألف جندي وقد تصل إلى 100 ألف جندي منهم 15,000 إلى 16,000 من الأتراك[4]»، أما وليم شالر (1816-1824م) فيقدر الجيش التركي في الجزائر ب 15 ألف من الجنود والضباط أغلبهم من الأتراك كمشاة (الإنكشارية) في

---

[1]- وتذكر إحدى الوثائق الأرشيفية أنها جاءت كتلبية لرغبة داي الجزائر والأهالي وفي وثيقة أخرى حدد فيها عدد المجندين بمائتي جندي. ينظر: **الجزائر في الوثائق العثمانية**، لمجموعة من المؤلفين: مصطفى بوداق، كوثر شكر وغيرهم، تر: فاضل بيات، يشار محمد صالح الشريف، تحت إشراف: رئاسة الوزراء المديرية العامة لدور المحفوظات(رئاسة دائرة الأرشيف العثماني)، رقم المنشور: 115، أنقرة/ تركيا: سيستام أوفسات، ط: 2010، ص ص :70 -71، 72-74، 106-108، 126-128.

[2] وما يثير الشكوك حول إحصائيات الرحالة والسفراء والمؤرخين الغربيين في تعداد الجند الإنكشاري ما أورده أحمد شريف الزهار عن محمد باشا (1230هـ/ 1814م) والذي قتل ظلماً جراء كشفه لاختلاسات أموال الدولة وملابسات مرتبات جند لا وجود لهم في الأصل وأمره بتصحيح دفاتر الجيش. ينظر: أحمد شريف الزهار، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1974، ص: 115.

(3)-SHUVAL (Tal), **La ville d'Alger Ver la Fin du XVIIIe siecle**, CNRS Edition, Paris, 1998 ,P64.

[4]- وبعدد قريب منه حدد L.De Tassy القوات التركية بالجزائر ب 12,000

- SHAW (Th),**Voyages dans les règences d'Alger ,traduit de langlais par Mac Carthy**,Paris 1830, P :182.

LAUGIER (De Tassy),**Histoire du Royaume d'Alger (1724)** , Amsterdam, Henri du Sauzet, sans date, 1815,p204.

تشكيلة الجيش [1]. وقد كان تمركز قوات الإنكشارية بمدينة الجزائر أولاً[2]، ومنها يتم توزيعها على الحدود وداخل البلاد على شكل فرق عسكرية مستقلة، عرفت ب"الحاميات"، وتتكون من عدد من " الصفرات "(كتائب)، يتم توزيعها على المدن والقلاع المختلفة وذلك حسب الحاجة، وقد تمركزوا في الحصون والثكنات مثل حصن القصبة، وثكنة الخراطين وثكنة اللمباجية[3]، وتمركزوا كذلك في الحاميات والسفارات الموجودة بكل من قسنطينة، وهران، عنابة. وكان عددهم لا يزيد عن 12 ألف نسمة في الربع الأول من القرن 19م وترجع قلة العنصر التركي إلى حالة العزوبة التي كان يعيشها أغلب أفراد الجيش فضلا عن تعرض الكثير منهم إلى الأمراض والأوبئة، ونظرا لقلة عدد الطائفة إلا أنها لم تخل بالتركيب الآفنوغرافي وأن تأثيرهم لم يتعدى الأنظمة الإدارية ولم يتجاوز الرتب العسكرية[4].

---

[1] – يتشارك الأتراك والكراغلة في تشكيل مشاة الجيش أم العرب هم الخيالة. ينظر: وليم شالر، المرجع السابق، ص: 61.

[2]– ما إن يصل المنخرطين والمجندين إلى ميناء الجزائر يدمجون في ثكنات تسمى بدار جنتشري (Dar Jenitchérie) والتي تحوي بدورها الجند الإنكشاري الجديد (Yen Yaladach) أو يولداش جديد يخضع هؤلاء المجندين الجدد للتجارب والتدريبات العسكرية المحكمة مع تلقي التقنين بالانضباط مع القوانين العسكرية العثمانية المعتمدة، و قد سخر في خدمتهم الأسرى المسحيين. ينظر: حسان كشرود، **رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثماني من 1659 إلى 1830**، إشراف: فاطيمة الزهراء قشي، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في تاريخ الحديث، تخصص: التاريخ الاجتماعي لدول المغرب العربي، جامعة منتوري: قسنطينة، السنة الجامعية: (1428هـ/ 1429هـ-2008/2007م)، ص: 50.

[3]-كان يوجد بمدينة الجزائر ثمانية ثكنات عسكرية منها قديمة العمران إسكي جنتشري(Eskid Dar jenitchérie)، أو العمران الحديث (Yen Dar jenitchérie)، وقد فصل في هذا الشأن الباحث الفرنسي (JEAN DENY)، ينظر :

Jean Deny, **Les Regeistres de Solde des janissiares conservès à la B.N.A** .In, R.A 1920 ,pp:223-260.

[4]– ينظر: محمد بن ميمون، **التحفة المرضية في لدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تح: محمد بن عبد الكريم، الجزائر: الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، ط2: 1402هـ /1981م، ص: 34، محمد صالح العنتري، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاءهم على أوطانها، أو "تاريخ قسنطينة"**، تقديم وتعليق: يحي بوعزيز، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1991م، ص: 33، محمود السيد، **تاريخ دول المغرب العربي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا) الإسكندرية:** مؤسسة شباب الجامعة، ط: 2000م، ص: 163، أحمد السليماني، **تاريخ مدينة الجزائر (يتعرض إلى ماضي**

هذا واكتفى أغلب الأتراك مع امتيازاتهم الكثيرة بالعمل في الجيش وممارسة الوظائف الإدارية أو الاشتغال في دكاكين الأقمشة والحلي والمواد الكمالية، أو استغلال أملاكهم بالمدن وبساتينهم في الفحوص وهنا تجلى نشاطهم الاقتصادي في الأرياف[1]. وعند تقاعد أحدهم يفضل الإقامة بمدينة الجزائر وضواحيها أو في بعض المدن العتيقة كالبليدة والقليعة وقلعة بني راشد وتلمسان[2]. ورغم طيلة التواجد العثماني بالجزائر والذي امتد ثلاثة قرون، فلم تؤثر في البنية الاجتماعية في المدن ولا في طريقة الحياة وأسلوب المعيشة، فإن تأثيرهم لم يتعدى الأنظمة الإدارية ولم يتجاوز الألقاب والرتب العسكرية وبعض الأنواع من الملابس والمأكولات والفنون. وهذا ما اتفق عليه المؤرخون أن وجود العنصر التركي بالجزائر كان وجوداً عسكرياً وإدارياً فقط وليس له أي طابع استعماري كما إدعى الكتاب الفرنسيين[3].

كما يضاف لهذه المجموعة –الأتراك– مجموعة أخرى لها امتيازات عالية كانت تشارك وتنافس الأتراك في المناصب السامية وهم الأعلاج الذي تشكلوا من الأوروبيين الذين كانوا يلحقون بفئة الأتراك العثمانيين بعد أن يعتنقوا الإسلام. وتعود أصولهم إلى مختلف بلدان أوربا ولاسيما المطلة على البحر المتوسط، وقد اتخذ هؤلاء الأعلاج الجزائر وطناً لهم لتحقيق طموحاتهم ولتحسين أوضاعهم المادية. وقد عرف عددهم ارتفاعاً ملحوظاً في النصف الأول من القرن 10هـ/ 16م حتى أصبحوا

=مدينة الجزائر من النواحي الحضارية والاجتماعية والسياسية والثقافية)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 2000م، ص: 31، ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، ص ص: 92 ، 94 .

[1]– لم يكن كل أفراد هذه الفئة–الأتراك– ينتمون للفرق الإنكشارية، بل هناك من كان يمارس حرف صناعية وزراعية ، وأعمالاً أخرى. ينظر: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 60 . نقلاً عن

-HAEDO (Fray diego de), **De la capitivité à Alger**, traduit par Moliner-Violle, in R.A n°39, pp: 496-499.

[2]– ففي عام **1621م** تم إحصاء للعائلات التي تقطن مدينة الجزائر فكانت العائلات العثمانية ثلاثين ألف عائلة، ينظر: حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تح: محمد العربي الزبيدي، الجزائر: منشورات سلسلة التراث ANEP ، ط:2005م، ص: 63.

[3]– ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، **الجزائر في التاريخ العهد العثماني**، ص: 94 .

يشكلون أغلبية البحرية الجزائرية، وحتى القرن 11هـ/17م نتيجة للتطور المشهود الذي عرفته البحرية أنذاك [1].

ب- جماعة الكراغلة: تحتل المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي، فهي جماعة تكونت نتيجة التزاوج بين الجند الانكشاري ونساء البلاد وبمعنى أخر الكراغلة[2] هم: أبناء الأتراك من أمهات جزائريات[3]، ويشكل هؤلاء الكراغلة طائفة فوق الطوائف الأخرى ولكن تحت طائفة الأتراك، فمن الناحية العددية كانت طائفة الكراغلة أكثر من طائفة الأتراك كما أنها أكثر انتشارا، وقد وجد هذا العنصر بأرض الجزائر منذ استقرار الأتراك بها، وبخاصة بالمدن التي وجدت بها حامياتهم العسكرية كالجزائر وتلمسان ومعسكر وقلعة بني راشد ومستغانم وملیانة والبليدة والمدية والقليعة وبسكرة وقسنطينة وعنابة وغيرها، ففي بداية ظهور هذه الجماعة أصبحوا بعد فترة قصيرة من الوجود التركي يؤلفون طبقة وسطى، ميسورة الحال تمارس التجارة وتشتغل بالمهن وتستثمر الملكيات الزراعية بالفحوص، وكانت في بعض الأحيان تقوم بوظائف إدارية متوسطة الأهمية، ومع نهاية القرن 10هـ/16م، تزايد عددهم بمدينة الجزائر وحدها حوالي ستة آلاف نسمة[4]، ثم تزايد حتى ناهز 9000 نسمة في أوائل القرن التاسع عشر في وقت كانت تتعرض فيه الجزائر لانهيار ديموغرافي مريع، ومع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر حددت السلطات الفرنسية تعدادهم ب 4000 نسمة بمدينة الجزائر وحدها و20,000 في كل البلاد، وهذا ما

---

(1)- ينظر: حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص: 63، أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص: 60. نقلاً عن:
- DE HAEDO, **Topographie et histoire d'Alger**, trad, de l'Espagnol par A. Berbrugger et nereau, in R.A N° 14 Alger 1870, pp :496,499.
- M.BELHAMISSI, **L'état des navires et les hommes préambules de marine et marins d'Alger 158-1830**, thèsed'état, Bordeaux 1985 .

(2)- **الكورغولي**: مفرد لجمع كراغلة معناها أبناء العبيد. ينظر: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج9، الفهارس العامة، الجزائر: دار الغرب الإسلامي، ط1: 2008م، ص: 11 .

(3)- صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)**، الجزائر: دار هومة، ط2: 2008م، ص ص: 357، 358.

(4)- ينظر: أما سعيدوني قال بهذا العدد- 6000 نسمة- في مدينة الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر. ينظر: نصر الدين سعيدوني، النظام المالي ...، ص:43.

أكده وليم شالر[1]. ومن البلاد التي تميزوا بتواجد بها بكثرة مدينة تلمسان حتى أصبحوا يشكلون غالبية سكانها وأصحاب الرأي فيها ويؤلفون شبه حكومة خاصة بهم، ويتقاسمون المدينة مع طبقة الحضر. ولهم ديوان خاص بهم وصلاحيات معترف بها ويسمح لهم باستخلاص الضرائب حتى من الجهات الجبلية الصعبة كبني سنوس وبني رافاس وطرارة[2].

وفي مدينة تبسة شكلوا طائفة متميزة بل العنصر المهيمن من حيث العدد ومن حيث النفوذ، فهم الذين يملكون كل أراضي الملك المحيطة بالمدينة، على الرغم من أن الحامية التركية لم يتم إنشائها في تبسة إلا في أوساط القرن 18م. ولا يقتصر وجود الكراغلة على المدن، كما هو الحال بالنسبة للأتراك، بل كانوا متواجدين في الأرياف كذلك، ويعود أصل كراغلة الأرياف إلى أولئك الذين طردوا من مدينة الجزائر أثناء تمردهم[3]عن السلطة التركية في 29 رمضان سنة (1038هـ /1629م) [4]، وقد ابتدأت جذور هذا التوتر وتنافس والصراع مبكراً منذ عام 1596م؛ عندما تطلع الكراغلة لنيل مراتب أعلى في الامتيازات والمشاركة في حكم البلاد وبالرغم أن هؤلاء الكراغلة يشتركون مع الأتراك في الأصل، إلا أنهم أبعدوا عن المهام الكبرى، خوفاً من سيطرتهم على شؤون البلاد، ويرجع ذلك للقرابة التي كانت بينهم وبين الأهالي، ولكنه يمكنهم الترقي في البحرية، كما يمكنهم الوصول إلى منصب "

---

[1] – تتضارب الإحصائيات حول تعداد الكراغلة بين المؤرخين يقدرهم فانتوري دي بارادي سنة 1754بحوالي 10000 رجلاً ووليم شالر في سنة 1825بـ 20000 نسمة. ينظر: وليم شالر، المصدر السابق، ص: 56، أما سعيدوني قال بهذا العدد: 6000 نسمة– في مدينة الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر. ينظر: نصر الدين سعيدوني، النظام المالي في الجزائر أواخر العهد العثماني ، ص:43. ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ص: 95.

[2]– سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص: 95.

[3]– وعلى الرغم من حركات التمرد هذه إلا أنهم احتفظوا ببعض الامتيازات مثل حق الانخراط في الإنكشارية وأهليتهم لتولي بعض المسؤوليات الهامة نسبيا. ينظر: صالح عباد، المرجع السابق، ص ص: 357، 358. ينظر: سعيدوني، المرجع السابق، ص: 95.

[4]– ففي سنة 1038هـ/1629م، حاولت مجموعة تحوي خمسين رجلا من الكراغلة والجزائريين الاستيلاء على " القصبة" بمدينة الجزائر، ولكن لسوء التخطيط حاصرتهم القوى الإنكشارية بها، ولما أيقنوا الهلاك عمدوا على إضرام النار بخزان البارود فتسبب =ذلك بقتل ستة ألاف شخص وتدمير خمسمئة منزل. ينظر: محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ص: 61، عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ص: 128.

القائد" والباي، ومع أعدادهم المتزايدة طيلة العهد العثماني، فقد كانوا قادرين على تكوين حلف وطني، يهدر امتيازات الطائفة التركية، لعلاقتهم الازدواجية بين الأتراك والأهالي[1]. وقد علق المؤرخون على هذه الحادثة_تمرد الكراغلة_ أنه لو استلموا مقاليد الحكم بالجزائر آنذاك لسطروا في التاريخ مدينة رائعة وحضارة تبقى عبر الأجيال، لأنهم كانوا ذوي ثقافة متينة وفكر ناضج لتخضرمهم بين الأصول التركية والجذور الجزائرية، وبين القدرات العسكرية والإدارية والوعي الاجتماعي والبعد الحضاري[2].

ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن وقد التجأت طائفة منهم والتي لم تهلك في هذه الحادثة بعد أن صودرت أملاكهم وثرواتهم إلى وادي الزيتون " نواحي الأخضرية " يشتغلون بالفلاحة ولا يختلطون بالسكان المحليين، ومع مرور الوقت أصبحوا طائفة متميزة ذو مصالح إستراتيجية عن باقي السكان بالأرياف[3].

ولم تستمر عزلة جماعة الكراغلة طيلة العهد العثماني مبعدين عن أضواء السياسة وقوة العسكر، ففي عهد شعبان أغا (1661-1665م) سمح لهم بحق الانتساب للأوجاق، وإن كان هذا الانتساب لا يصل إلى حد المشاركة الفعلية في الجيش والإدارة أو الصعود إلى السلطة كمسؤولين[4]. وفي عهد الدايات في عام 1693م[5] سمح لهم الحاج شعبان داي (1688-1695م) بالتجنيد مرة أخرى ضمن قوات الانكشارية، وقد جاء هذا الإجراء والقرار جراء حاجة الداي للجند بعد تأخر وصول المجندين

---

(1)- ينظر: وليم شالر، المصدر السابق، ص: 56، نصر الدين سعيدوني- المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ص ص: 94، 95، أحمد السليماني، تاريخ مدينة الجزائر، ص: 31، صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص:357.

(2)- ينظر: محمد بن عبد الكريم، **المقري وكتابه "نفح الطيب "**، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ص: 30.

(3)- ينظر: ناصر الدين سعيدوني-المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ص:95 .

(4)- حنفي هلايلي، **بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني**، الجزائر: دار الهدى، ط 1: 1428هـ/ 2007م، ص: 81.

(5)- يقول ناصر الدين سعيدوني أنه في عام 1683 تم ذلك. ينظر: الجزائر في التاريخ، ص: 96.

الجدد من الأناضول[1]، وباستثناء دار السلطان التي كان عدد الأتراك بها كافياً فبقية البايلكات الثلاث الشرق والغرب والتيطري فالاعتماد على طائفة الكراغلة كان ضرورياً لتولى المناصب الهامة والمشاركة في الفرق الانكشارية، ومن ضمنها ومقدمتها تولى منصب الباي، وقد تم إحصاء أربع بايات من الكراغلة من ضمن خمسة لهذا المنصب في بايليك قسنطينة خلال الفترة الممتـــدة من (1700إلى 1713م): أحمد خوجة باي (1700-1703م)، عبد الرحمن باي (1709م)، حسين شاوش (1708م)، علي بن صالح باي (1710- 1713)[2] .

وفي بايليك الغرب تم تسجيل كرغلي واحد في الفترة من الفترة (1780-1803م و1805 _ 1812) وفي بايليك التيطري كرغلي واحد أيضاً محمد الذباح (1668-1671 وببايليك الشرق حسن باي بن حسن بوحنك (1803-1807م) وحسين باي ولد صالح (1812-1815م) ومحمد نعمان و أشهرهم أحمد الباي (1826-1837م) [3].

لتليها بعد ذلك جماعة[4] الحضر بما فيها من الأندلسيين والأشراف، ثم جماعة البرانية والدخلاء، وتشمل اليهود والمسيحيين الذين يتفرعون إلى أحرار وأسرى[5] وهذا لا ينطبق على

---

[1]- ينظر: حنفي هلايلي، المرجع السابق، ص: 82.

[2]- ينظر: محمد الصالح بن العنتري، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها " تاريخ قسنطينة"**، تح: يحي بوعزيز، ط: 2009م، الجزائر : عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ص ص: 50، 53، حنفي هلايلي، المرجع السابق، ص ص: 82، 83، ناصر الدين سعيدوني-المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ص:95 .

[3]- حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص: 83. عبد الله شريط، محمد الميلي، **الجزائر في مرآة التاريخ**، مكتبة البعث، قسنطينة، 1925، ص 147 .

[4]- يعلق أرزقي شويتام على هذه الجزئية بالذات أن أنسب تقسيم للتركيبة السكانية للمجتمع الجزائري نمثله ب" المجموعات" أو " الجماعة " كنوع من التدقيق في ضبط المصطلح ك: جماعة الأتراك، وجماعة الكراغلة، وجماعة الحضر ...وهكذا، لأن مفهوم "الطبقية " أو " الطبقة " لا ينطبق على المجتمع الجزائري كما كان سائدا في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى كالطبقة البرجوازية... بل كان يشكل مجتمعاً ذا طبقة واحدة متماسكة بمجموعات مختلفة متباينة في امتيازاتها. ينظر: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 55 .

[5]- ناصر الدين سعيدوني- المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ص:100، 102، أحمد السليماني، المرجع السابق، ص: 37.

التركيبة السكانية في جميع المدن الجزائرية، بل يقتصر على البعض منها كمدينة الجزائر باعتبارها عاصمة الإيالة، أما المدن الأخرى تكاد تكون مقصورة على المسلمين واليهود [1].

جـ- جماعة الحضر: فمن الناحية اللغوية الحضر خلاف البدو[2]، وبالمعنى الاصطلاحي تتشكل جماعة الحضر أو البلدية كما تسمى أيضا؛ من المجموعات السكانية القاطنة بالمدن، وهم السكان الأوائل لتلك المدن[3]، وقد ولدت وترعرعت فيها عبر مراحل تاريخية متعاقبة من الوجود الإسلامي بالمنطقة. وكانت هذه الفئة تتكون أساساً من العرب والأمازيغ[4]، ومن انضم إليها من الأندلسيين والأشراف، فالأندلسيون استمر توافدهم على المدن الجزائرية منذ مجيء الأتراك إليها وتشجيعهم على الجهاد البحري ضد النصارى، أثر صدور قرارات الطرد الجماعي[5] نتيجة محاكم التفتيش والاضطهاد والنفي الذي تعرضوا له من قبل الحاقدين الأسبان[6] طوال القرن 10هـ/ 16م، والعقدين الأولين من القرن الذي يليه، فقد تميزت سنوات (1610و1667و1670م) بوصول عدد كبير منهم إلى مدينة الجزائر حتى أصبح عددهم يفوق25 ألف نسمة[7]. وقد تميزوا جماعة الحضر ككل بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة وبوضعهم الاجتماعي المتميز كطبقة ميسورة الحال، تضم البحارة المحترفين والعلماء الأفاضل من قضاة وفقهاء ومنابر علم موقرين؛ فمنهم من تولى الخطابة وإمارة ركب الحج كعبد الكريم الفكون، ومنهم من تولى الإفتاء كابن العنابي ومنهم من نال ثقة واحترام الحكام كحمدان بن عثمان خوجة.

---

(1)- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 55.

(2)- ينظر تفاصيل المعنى اللغوي للحضر والبدو المبحث الأول لهذا الفصل، ص ص: 128، 133.

(3)- ينظر: ج.أو.هابنسترايت، **رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145هـ/ 1732م)**، تر: ناصر الدين سعيدوني، تونس: دار الغرب الإسلامي، ط: 2013، ص: 32.

(4)- ينظر: نصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص: 97، نصر الدين سعيدوني، النظام المالي في الجزائر أواخر العهد العثماني، أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 55.

(5) – ضبطها ناصر الدين سعيدوني بـ (1609-1614). ينظر : الجزائر في التاريخ، ص: 98.

(6)- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 55.

(7)- ينظر : سعيدوني، المرجع السابق، ص: 98.

ومن الناحية الاقتصادية اشتغلوا بالتجارة والاستثمار فأضحوا أرباب التجارة وأصحاب الحرف يمتلكون دكاكين ومحلات بأسواق عرقية الصيت[1]، كما اهتموا بالنشاط الزراعي فكان لهم بساتين يعيشون من منتجاتها كالقمح والشعير والحرير وتربية المواشي من الأبقار والأغنام. وهذا ما جعلهم يألفون طبقة برجوازية الملاكين والتجار بالمدن الصغيرة خاضعة لسلطة البايليك، وقد عرفت بزهدها بالسياسة وشؤون الحكم[2]، وكانت الهجرة الأندلسية عامل ازدهار اقتصادي مهم تبعاً لثقافتهم الواسعة، وتطورهم الحضاري عن باقي جماعات الحضر؛ فقد طوروا المهن والنشاط الحرفي بالمدن[3]،كما اهتموا بالزراعة فاستصلحوا الأراضي وانشأوا السواني بالفحوص وجلبوا المياه إلى المدن، ومن ناحية الاقتصادية أيضاً كان لهم تأثيرات ملموسة في رواج العملة الفضية والذهبية الاسبانية بالأسواق الجزائرية، كما استفيد من مهاراتهم وكفاءتهم ومعرفتهم بالمعاملات المالية والمبادلات التجارية، إلى جانب تمرسهم على ركوب البحر واطلاعهم على بلاد النصارى، الأمر الذي مكنهم من امتلاك المنازل وشراء الضيعات وحيازة الأراضي الزراعية، فكان مقدار الضرائب والأوقاف التي يساهمون بها تدل على مدى غنى جماعة الأندلسيين[4].

---

[1] – وقد اشتغلت العديد من البلدية في حرف مختلفة من الحرارة والعطارة والقزازة والسراجة والدباغة. ينظر: عبد الله بن متولى الشويهد، قانون أسواق مدينة الجزائر، تح: ناصر الدين سعيدوني، بيروت: دار الغرب، ط1 :2006، عائشة غطاس، **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1830–1700) مقاربة اجتماعية– إقتصادية**، أطروحة لنيل دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، إشراف: مولاي بلحميسي،ط: 2000-2001م، جامعة الجزائر، قسم التاريخ:كلية العلوم الإنسانية، ص ص: 160-163.

[2]– فبرغم من سيطرتهم على النشاطات الاقتصادية للمدن المهمة طيلة القرن 16 و17م غير أنهم لم يؤثروا على سياسة الحكام في الشؤون الاقتصادية واقتصر دورهم على المحافظة على امتيازاتهم الممنوحة من قبل الأتراك كعائلة ابن الفكون وابن عبد الجليل وابن باديس بقسنطينة. ينظر: سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص: 97.

[3]–كحرفة غرس الأشجار في القرى، وصناعة الشاشية والبرنوس وصنع الأسلحة والبارود واشتغلوا بصناعة الأقفال وبالخياطة وصناعة الأحذية والخزف. والتجارة يبيعون الأقمشة وغيرها.

حنفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر، ص: 208.

[4]– سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص: 98.

كل هذا كان له منعكساً وسبباً في التطور العمراني والتفنن فيه بأشكال وزخرفة وتخريمات مع النحت بمسحة أندلسية حضارية جميلة، فبعثوا مدناً من أنقاضها بعد أن أصابها الاضمحلال مثل: تنس ودلس وجيجل وشرشال وبرشك،كما أنشئت مدن جديدة كالقليعة والبليدة، وطوروا بعض المدن القديمة كتلمسان ومستغانم وآرزيو وعنابة[1]. إلا أن تأثيرهم كان يمس مختلف أوجه الحياة فمن تأثيرات الثقافية ساعدوا على شيوع اللغة العربية في بعض جهات التي تتكلم باللهجات المحلية كآرزيو وتنس وشرشال ودلس وبجاية. وكما يتميزون بدقة الذوق والملبس والمتاع والتفنن في العمارة كما أشرنا والموسيقى والغناء[2] . وقد حافظة الجالية الأندلسية على عاداتها وتقاليدها الخاصة سواء في الأفراح أو الأعياد أو المواسم الدينية (المولد النبوي الشريف، ليلة القدر، عاشوراء، عيد الأضحى والفطر) وقد امتزجت هذه التقاليد المخضرمة بأذواق تركية عربية وأوروبية، فكان التميز لهذه الجالية[3]. وكانوا ينقسمون إلى صنفين:

- **المدجنون** : وهم الذين خرجوا من غرناطة والأندلس .
- **الثغريون** : جاءوا من ممالك أرغونة وبلنسية وقطلونيا [4] .

---

[1]- صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي(1514– 1830م)**، الجزائر: دار هومه، ط: 2012م، ص: 359 .

[2] -Lucette Valensi , **Le Maghreb Avant La Prise d'Algérie (1790 – 1830)** , Flammarion , France ,1962 , pp 20-24 .

[3]- ينظر: يامنة بحيري، **نماذج من العائلة الأندلسية في مدينة الجزائر في الفترة العثمانية (القرنين 17–18م)**، م.د.ت، ع:14، جامعة الجزائر، ط: 1433هـ/ 2012م، ص: 180.

[4]- صالح عباد، المرجع السابق، ص: 359.

أما جماعة الأشراف[1] فهي فئة قليلة العدد تنسب[2] إلى آل البيت، اشتهرت بالورع والتقوى[3]، وقد شكلت في كثير من الأحيان واسطة خير بين الأهالي والحكام في فض النزاعات وحماية الضعفاء من الناس، وإصلاح ذات البين. فاكتسبوا بهذا الدور الفعال مكانة اجتماعية مرموقة لدى العامة وحظوة عالية لدى الحكام، وهذا ما أكسبهم احتراماً وتقديراً لدى الجميع. فأكرمهم الحكام بامتيازات خاصة كالإعفاء من الضرائب وجعل بعض الأملاك حبوس لبعض العائلات الشريفة. كما تقلدوا مناصب مهمة كالقضاء والإفتاء والتعليم وغيرها كمحمد الصادق الحميسي الذي كان قاضياً بوهران، ومحمد كمصطفى اين زرفة الدحاوي الذي كان كاتب ومؤرخ الباي محمد الكبير وأحمد بن يوسف الزياني المؤرخ، وأحمد ابن الهاشمي الذي كان قاضياً بمعسكر، ومن العلماء الطيب بن عبد الرحمن من شرفاء الشهرة ببني راشد الذي كان من تلامذته العربي المشرفي[4] وتنسب

---

[1]- **الأشراف:** مفردها الشريف و قد كان يطلق لقب الشريف في الصدر الأول للإسلام على كل من ينتسب لأهل البيت سواء من أبناء الحسن والحسين أو من أبناء علي وجعفر وعقيل والعباس . أما في العصر الحديث اقتصر على أبناء الحسن والحسين. ينظر: كمال دحومان الحسني، **الأشراف ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري**، الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ط: 2008، ص: 40 .

[2]- **النَسبُ:** القَرابَة مصدرها الانتساب، ويقال نسبه في بني فلان: هو منهم، جمع أنساب ويقصد بالنسب القرابة والانتماء وغالباً ما يكون في الآباء ثم البلاد ثم المهن. ينظر: المعجم الوسيط، المرجع السابق، ص:916 .

[3]- أحمد توفيق المدني، **محمد عثمان باشا (داي الجزائر) (1766 –1791)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص: 173 .

(4) - **العربي المشرفي(ت 1313هـ/ 1895م)** هو أبو حامد العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المؤرخ، أديب نسابة، من أهل قرية " الكرط" من ضواحي معسكر، تعلم بوهران وهاجر إلى المغرب بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، أخذ على كبار علمائها من أثاره: "**ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولاي مجاجة**" وتعرف أيضا:" **باليواقيت الثمينة =الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولاي مجاجة**" وتعرف أيضاً:" **ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول**" ، و" **نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار** ". ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 303.

إلى الشيخ أحمد بن علي دفين غريس[1]. كما كان لهم نقابة خاصة بهم تمثلهم تسمى نقابة الأشراف تدافع عن حقوقهم وتقوم بتمثيلهم لدى الباي والسلطات التركية، وقد كان بعض المؤرخين الوهرانيين مثل: المزاري والزياني يطلقون على نقيب الأشراف شيخ الجماعة مثل: الشيخ البحثاوي في وهران والشيخ محي الدين بن مصطفى بن المختار في معسكر والشيخ محي الدين بن مصطفى بن المختار في معسكر[2]. وكما أثبت أحمد توفيق مدني أن أخر النقباء الأشراف في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي (1830م) كان الحاج أحمد شريف الزهار مؤلف كتاب " مذكرات أحمد الشريف الزهار"[3].

على الرغم من الوضعية الحسنة التي تمتع بها حضر مدينة الجزائر والامتيازات التي منحت لهم من قبل الأتراك، إلا أنهم أبعدوا عن السلطة مثل كل الطوائف وبقيت دواليب الحكم منحصرة بيدهم- الأتراك – دون غيرهم[4].

إن التنوع السكاني للمدن الجزائرية في العهد العثماني أصبغ عليها انتعاشاً وازدهارا اقتصاديا واجتماعياً وعمرانياً وثقافياً متميزاً ؛ فأضحت بعدها مركز استقطاب وجذب للسكان، فانتشرت على إثرها ظاهرة النزوح الريفي نحو المدن، للبحث عن العمل والارتزاق، فترتب خلف هذه الظاهرة بروز

---

[1]- ينظر: المشرفي العربي بن عبد القادر، **ياقوتة النسب الوهاجة في ذكر نسب سيدي علي مولى مجاجة**، ص:35، عبد القادر بالغيص، الحياة **ولاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني**، مذكرة ماجستير تاريخ وحضارة إسلامية، إشراف: أحمد الحمدي، جامعة وهران، 2013 – 2014م، ص: 109.

[2]- ينظر: عبد القادر بالغيث، المرجع السابق، ص: 53.

[3]- **أحمد شريف الزهار (1196هـ/1781م–1289هـ/1872م)**: ولد أيام المجاهد العظيم محمد عثمان باشا، وتعلم وتفقه على يد كبراء العلماء، تولى نقابة الأشراف خلفاً لوالده، حلت كارثة الاحتلال الفرنسي وهو ابن خمسين سنة، فشارك في الدفاع عن الجزائر ضد المحتل فأبعدته فرنسا سنة 1832 فبقيا بتونس بعض الوقت أخذ العلم على يد شيخها إبراهيم الرياحي ثم التحق بأحمد باي قسنطينة فاشتغل ككاتب عنده وشارك معه في الدفاع ضد المحتل حتى انتهت المقاومة 1837، ثم التحق بالأمير عبد القادر وأصبح كاتم سره حتى أسر الأمير فالتحق بالمغرب الأقصى ثم عاد للجزائر واشتغل بالتجارة وأعيد إليه منصب نقيب الأشراف، كما اشتغل بالتأليف حول تاريخ الجزائر العثماني. ينظر: أحمد الشريف الزهار، **مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر**، تح: أحمد توفيق مدني، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1974، ص ص: 9، 10.

[4] – ينظر: صالح عباد، المرجع السابق، ص:359 .

فئة سكانية جديدة قادمة من الأرياف والمناطق الصحراوية، أصطلح عليها حسب المصادر بجماعة البرانية[1].

د- المجموعات البرانية: تتألف من المجموعات السكانية التي هاجرت من مدنهم الصغيرة، وقراهم أو بما أصطلح عليه الريف إلى المدن الكبيرة كمدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان وغيرها للإقامة والعمل بها، وقد اختصت كل مجموعة بمهام وأعمال تقوم بها تحت إشراف أمين منها يختاره البايليك، ويوكل له حق مراقبة جماعته وتولى شؤونها فيما يتعلق بأمور الشرطة والقضايا العدلية ويساعده على ذلك أعوان كتاب وشواش، وقد فرض عليها الوضع الاجتماعي ونوعية النشاط الاقتصادي في المدن أن تنتظم حسب أصولها الجهوية ومواطنها الأولى، ويطلق عليهم أسم البرانية[2] وتتمثل في:

- **البسكريون** : يعملون في الحمامات العمومية .
- **الأغواطيون** : يشتغلون بنقل الأوساخ .
- **بنوميزاب:** يحتكرون قسما هاما من النشاطات التجارية، وهم أغنى المجموعات .
- **القبائليون:** تسمية القبائل مشتقة من الكلمة العربية" قبيلة "ويطلق هذا الاسم على سكان الجبال، ويقطنون بقرى تسمى " دشرة " تتكون بأكواخ مبنية بالطين، انحدروا من مناطق جبلية، القريبة من المدن الكبرى مثل مدينة الجزائر، تلمسان، المدية، قسنطينة[3]،كانوا يسيطرون على أشغال البناء وقد اكتسبوا مهارة المهنة في مناطقهم الجبلية التي كان سكانها يعتمدون على بيوت الحجارة بنسبة عالية [4]. وبحكم قرب بلاد القبائل من الجزائر، كان عدد القبائل كثيراً بها، وكانوا يشتغلون في خدمة الأتراك أو الحضر الأغنياء، أو يعملون في بساتين الكروم، أو التجذيف على ظهور السفن

(1)_ ينظر: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 56،

(2) _ ينظر: سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص: 99 ، أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 56. صالح عباد، المرجع السابق، ص: 359، عمار عمورة ، **الجزائر بوابة التاريخ (ما قبل التاريخ الى 1962) ج1** ، دار المعرفة، الجزائر، 2006 ، ص 251.

(3)- ينظر: وليام شالر، المصدر السابق، ص: 114 .

(4)- صالح عباد، المرجع السابق، ص: 359.

مقابل أجرة، ومنهم من كان يبيع الأعشاب والفواكه والفحم، الزيت و الزبدة، البيض ...الخ، كما كان يعمل في بعض الأحيان الزواوة في الفرق العسكرية التركية مقابل أجرة زهيدة. وقد قدر عددهم حوالي 700 أسرة إضافة للعزاب، وقد ناهز عددهم أوائل القرن التاسع عشر الأربعة آلاف نسمة[1].

د- جماعة الوصفان أو الزنوج: تتألف من العبيد السود الذين استقدموا من السودان عن طريق الواحات الصحراوية للعمل في المنازل، وقد ثبت وجودهم في كذا من عقد من عقود الزواج التي ضمنها ابن حمادوش رحلته، بحيث تقدم الإماء السودانيات باختلاف العدد بين أمة أو اثنين،كمهر من مهور العروس عند الفئات الاجتماعية المرموقة كالأتراك أو العائلات الغنية في جماعة الحضر[2]. كما برزت ظاهرة أخرى تجلى هذه الفئة الاجتماعية في الجزائر العثمانية؛ ظاهرة عتق الإماء السود أو الوصفان عند الموتى من حكام وباشوات الجزائر[3]، كنوع من مراسيم التكريم بالصدقات للباشا الميت بعد ختم القرآن عند رأسه قبل الدفن. وبالإجمال عن هذه المجموعة فقد بلغ عددهم مع نهاية القرن الثامن عشر ألفين وثلاث ألاف وخمسمائة نسمة في الجزائر وحدها، وأغلبهم يشتغلون في المخابز وأعمال البناء وصنع الحصر والنسيج وصنع القفاف من القصب والحلفاء بالإضافة إلى امتهان بعض الفنون الجميلة كالغناء والرقص والموسيقى، كما كان لهذه المجموعة المنظمة قائد يترأسها يسمى بقائد الوصفان [4].

و- الجالية اليهودية: كانت جالية قليلة العدد منهم من يرجع أصولها إلى ما قبل الفترة الإسلامية، ومنهم من فر مع المسلمين من الأندلس -" والذين يسمون بالسافرديم"- جراء اضطهاد النصارى لهم منذ نهاية القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر ميلادي، فأزداد عددهم بمدينة الجزائر

(1)- سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص: 101. صالح عباد، المرجع السابق، ص: 360.

(2)- يلاحظ أن هذا التكريم بإهداء الإماء في المهور خصت به الفتاة البكر في الزواج دون الثيب حسب صيغ عقود الزواج عند ابن حمادوش. ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص ص: 239، 240، 244.

(3)- عبد الرزاق ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 236.

(4)- سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص: 359.

جراء ذلك فكانت مأهولة بعدد كبير منهم[1]، فقد أحصى الأسير هايدو في أواخر القرن 16م حوالي 150 منزلاً يهودياً بمدينة الجزائر وحدها، أما الأب (دان) فقد قدر عددهم دائماً في مدينة الجزائر عام (1634م) بـ 10 آلاف يهودي، و(لوجيه دي تاسي) عام (1725م) بـ 15 ألف من مجموع كل يهود الجزائر البالغ عددهم 30 ألف نسمة [2] تزيد وتنقص حس الظروف والأحداث السياسية والاقتصادية التي تمر بها البلاد والتي تتحكم في توزيعهم وتشتتهم الجغرافي[3]، ورغم هذا التحديد النسبي لأعداد اليهود الموجودين بالجزائر بين المؤرخين والباحثين للاختلافات بين المصادر لكنها متقاربة فيما بينها، أما عن مدينة وهران فقد قدر عددهم ب2800 يهودي، ويعود ذلك لتشجيع الباي محمد الكبير(1193هـ/1779م_1212هـ/ 1796م) لليهود المتواجدين في إيالة الجزائر للهجرة إليها قادمين من مدينة الجزائر، وتلمسان، ندرومة، مستغانم، معسكر، وحتى من المغرب الأقصى، و قد اتخذ خلف هذه الإجراءات تسهيلات ومنح لهم امتيازات خاصة؛ فقد باع بثمن زهيد موقعاً مهم ليكون حياً يقطنه اليهود على طول السور الشرقي بأعلى المدينة، حتى يتمكنوا من بناء منازلهم بأنفسهم، كما تنازل لهم مجاناً عن قطعة أرض لإقامة مقبرتهم[4]. وقد كان لتلك الهجرات انعكاسات إيجابية على الأوضاع الاقتصادية للبلاد[5].

---

[1]– ج.أو.هابنسترايت، **رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145هـ/1732م)**، تر: ناصر الدين سعيدوني، تونس: دار الغرب الإسلامي، ص:33 .

[2]– أما سعيدوني يثبت غير ذلك ففي نهاية القرن الثامن عشر لا يزيد عدد اليهود عن 7000 نسمة. ينظر: سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص: 103، عمار عمورة، المرجع السابق، ص: 252 .

(3)- عيسى شوقي، **يهود الجزائر 2000سنة من الوجود**، الجزائر: دار المعرفة، ط: 2008، ص: 37.

(4) - فسجل عام 1792 ميلاد جالية يهودية جديدة بوهران لن تعرف الاجتثاث ولا النفي قبل تاريخ 1962م. ينظر: عيسى شوقي، المرجع السابق، ص:47.

[5]– أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 133، عبد القادر بالغيث، المرجع السابق، ص: 113، عيسى شوقي، المرجع السابق، ص:47 .

وحتى مدينة قسنطينة منح لهم أيام صالح باي (1185هـ/1771-1206هـ/ 1791م) قطعة أرض لجمع شملهم في حي واحد؛ بعد أن كانوا مشتتين في مختلف أحياء المدينة[1]، وقد وكل تسيير شؤون هذه الجالية إلى أحد أعيانهم المعروف بمقدم اليهود، وهو بمثابة أمين لجماعتهم يتعامل باسمهم مع موظفي البايليك، أين كان يسدد كل واحد منهم ضريبة تقدر بريالين في الشهر ويقصد بها الجزية الخاصة بهم، أي حوالي ألف ريال للجماعة شهرياً للبايليك، وهذا ما يذر على الخزينة مبلغ معتبراً من المال[2].

واستطاع هؤلاء اليهود الاندماج كلياً في المجتمع الجزائري يقلدون الأهالي في تقاليدهم وعاداتهم، ويتكلمون اللغة العربية كما كان لهم شأن كبير في الحياة العامة استمر 25 سنة (1780م – 1805م) وبالأخص العائلات اليهودية الليفورنية التي هاجرت من إيطاليا في نهاية القرن 17م والقرن 18م، والتي ازدهرت أعمالها وتجارتها في خضم الفوضى والضعف اللذين سادا الإيالة في أواخر القرن 18م وبدايات القرن 19م، مثل: موسى سليمان، هارون المعطي، وعائلتي بكري وموسى بوشناق فاغتنموا من تجارتهم مع أوروبا وكان لأكثرهم نفوذا كبيرا في الشؤون الجزائرية[3]، وكان اليهود من الممارسين للسمسرة والربا، وكانوا يتوسطون في كل العمليات التجارية مهما كانت كبيرة أو صغيرة أو تافهة، على الرغم من أنهم محرومون من المشاركة في الحياة الإدارية والسياسية للبلاد لأنهم أهل ذمة، ولكنهم وضفوا أموالهم وعلاقاتهم الحسنة مع الأندلسيين، فاحتلوا موقعا إستراتيجياً للبلاد، فاحتكروا صناعة المجوهرات وضرب العملة في مدينة الجزائر،كما كان لهم متاجر يبيعون فيها الأقمشة والخردوات بالتجزئة، وكان بعضهم يبيعون نفس السلع في الطرقات كباعة متجولين، ومنهم من اشتغل بالخياطة،

---

[1]- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 133.

[2]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السابق، ص: 33، سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص: 103.

[3]- فوزي سعد الله، **يهود الجزائر هؤلاء المجهولون**، الجزائر: شركة دار الأمة، ط2:2004م، ص: 139.

ومنهم من كان تاجرا متنقلاً بين طرابلس وتونس وجربة وعنابة وقسنطينة ووهران وتلمسان وتطوان وفاس، ومنهم من كان يصل حتى القسطنطينية عاصمة الايالة العثمانية [1].

وعلى الرغم من التميز الاقتصادي والمادي لطائفة اليهود فقد ظلوا يشكلون أدني الطوائف الاجتماعية، يذكر هايدو أن اليهودي إذا حدث له خصومة مع مسيحي فالمسلم الجزائري ينصر المسيحي على اليهودي. وإذا كانت الخصومة مع الأهالي فما عليه إلا الفرار فلن ينصفه أحد. وحتى مع السلطة فكانوا يخشون بطشها إذا بلغها مخالفات معلنة من اليهود أو أبسط من ذلك إذا أساء أحد اليهود لعبده المسيحي فتقوم بمصادرته منهم، ولذلك لم يأمن الأهالي مكرهم وبالفعل كانوا أهل غدر وكيدة فقدر روى ابن حمادوش عن يهودياً كان من موظفي الباي مصطفى ابن المسراتي ومن المقربين منه، سلب من هذا الأخير أموال طائلة، وليتخلص من تبيعات المسائلة من قبل الباي ولية نعمته، قام بالكيد للباي عند الداي، فاضطر للفرار للأسبان بوهران قبل تحريرها[2]، كما مكن المال كبارهم من التأثير على الحياة السياسية والاقتصادية خاصة في المراحل الأخيرة من العهد التركي وذلك بشراء ذمم بعض رجال الدولة والتي أودت بمستقبل الجزائر إلى الهاوية مع الاستعمار الفرنسي[3].

ي– الدخلاء: يقصد بهم العناصر الأجنبية عن المجتمع الجزائري، وينقسمون بدورهم إلى مجموعتين المجموعة الأولى وهم الأحرار أو الطلقاء، وتتشكل هذه المجموعة من القناصل الأوربيين وموظفي القنصليات ووكلاء المؤسسات التجارية والقساوسة كرجال البعثات الدينية والإرساليات التبشيرية والتجار الأجانب[4]، وقد عرفوا تزايد ملحوظ ابتداء من أواخر القرن 10هـ/16م؛ نتيجة الازدهار الاقتصادي الذي شهدته المدن الجزائرية والظروف المتردية في بلدانهم كانتشار الحروب الدينية والأوبئة

(1)– صالح عباد، المرجع السابق، ص: 361.

(2)– ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 253.

(3)– صالح عباد، المرجع السابق، ص: 361.

(4)– المرجع نفسه، ص:138.

والمجاعات في تلك الفترة وكان الفرنسيون يمثلون النسبة الكبيرة من الوافدين[1]. والمجموعة الثانية هي جماعة الأسرى المسيحيين والذين يؤلفون غالبية العناصر الدخيـلة المستخدمة في الحانات أو السجون أو المسخـرين للخـدمة في قصر الداي[2] أو الباي نذكر على سبيل المثال الأسير تدينا والذي أصبح خزنداراً عند باي معسكر محمد بن عثمان باشا المعروف بمحمد الكبير والذي شهد له بالخير في قوله:" كان شديد الإنسانية وذا سلوك طيب"[3]، وعن أهل الجزائر بعد معاشرته لهم والمكوث بين ظهرانيهم في قوله: أين هي تلك البربرية واللإنسانية التي تنسبها معظم أوروبا لهذا الشعب الذي انتهي إليه حالياً ؟،...يجب على من ينسبوا إليهم ما لا يشرفهم أن يعرفوهم أولاً لأنهم لم يعيشوا أبداً معهم"[4]،كما استخدموا كعبيد أو خدم خاص عند بعض الأعيان الترك والعرب أو اليهود الأغنياء[5].

كما اشتغلوا برعاية بعض البساتين وفي الأشغال العامة أو التجذيف على متن سفن الرياس[6].

---

[1]–صالح عباد، المرجع السابق، ص:138.

[2]– يذكر منهم جميس كاثكارت بإعتباره كان أسيراً لدى الداي 33 عبداً من الأسرى المسيحيين والذين ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية. وقد جاء ذلك في مذكراته أثرى أسره بالجزائر عام 1785م. ينظر: جميس كاثكارت، **مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**، تر: اسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1982 م، ص: 27.

[3]– عميراوي أحميده، **الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني(مذكرات تيدينا أنموذجاً)**، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 2003، ص: 54 .

[4]– تيدنا، مصدر السابق، ص: 56.

[5]– عن تفاصيل الأسرى بين الخواص فيصنفون لطبقات فمنهم أصحاب المهن والمهارات كالنجارين والبنائين والأطباء والجراحين، فقد كانوا ذو مكانة اجتماعية جيدة ويعاملون معاملة حسنة وهناك أسرى الرهبان والقسيسين وهناك أسرى الطبقة الدنيا مماً أشتغل في الأعمال العامة. ينظر: أحمد توفيق مدني، **محمد بن عثمان باشا داي الجزائر(1766–1791 م) سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده**، دار البصائر، الجزائر: 2009، ص: 207، قرباش بلقاسم، **الأسرى الأوربيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671– 1830)**، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت إشراف: بوغفالة ودان، جامعة مصطفى اسطمبولي– معسكر، (2015 / 2016م)، ص ص: 229، 231 .

[6]– صالح عباد، المرجع السابق، ص ص: 360،361 .

كما شكلوا يد عاملة ممتازة في مجال صناعة السفن[1]، وقد صنفوا بالإجمال حسب مهنهم إلى أربع مجموعات: الحرفيون، الملاحون، الحمالون، والمكلفون بالأشغال العامة[2]، وقد شهدت هذه الطائفة تذبذباً في أعدادهم في مرحلة ضعف النشاط البحري، فلم يعودوا يتجاوزون في الربع الأول من القرن 18م عشرة آلاف أسير يتوزعون في سجون البايلك الخاصة، ثم تناقص عددهم أكثر ليرتفع مع تجدد نشاط البحرية الجزائرية في أواخر القرن 18م، وفي أوائل القرن 19م كاد عددهم يتلاشى بعد هجوم " **اللورد إكسموث** " سنة (1816م)[3]، ولهذا أصبحت طائفة الدخلاء تتكون غالبيتها من الجالية اليهودية سواء من كان منها مستقرا بالبلاد منذ القدم أو من أتى إليها من إسبانيا في أوائل القرن 17م، وهذه الطائفة الأخيرة من اليهود الأندلسيين تنتمي إليها أغلب العائلات اليهودية الموسرة[4].

2- سكان الأرياف:

حسب إحصائيات حمدان خوجة أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، فقد بلغ تعداد سكان إيالة الجزائر عشرة ملايين نسمة، موزعة على المدن والقرى والموانء

---

[1]- كان خير الدين بربروس أول من استعمل الأسرى الأوروبين لهذا الغرض، ففي سنة 1530م، استعان بحوالي سبعة آلاف عبد أوروبي في بناء وإصلاح السفن، يحي بوعزيز، **علاقات الجزائر مع دول وممالك أوروبا(1500- 1830م)**، د.م.ج، الجزائر: 1985، ص:39 .

[2]- ينظر: أرزقي شويتام، المرجع نفسه، ص:141، عائشة محمة، **الأسرى الأوربيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس والسابع عشر للميلاد**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تحت إشراف: عمار بن خروف، جامعة غرداية، 2011-2012م، ص ص: 41، 42.

[3]- خير من فصل بعين المشاهدة بوصف ممتاز حملة اللورد إكسموث على الجزائر الرحالة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني الجزائري (ت 1233هـ/ 1817م)، ينظر: رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي الجزائري (ت 1233هـ/ 1817م) إلى الجزائر العاصمة، ص ص: 244، 257.

[4]- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني، ص 46.

والأرياف، والجزء الأكبر من سكانها ومصدر ثروتها، يوجد خارج المدن، ويطلق عليهم اسم البدو[1].

كما يقسم البدو _سكان الأرياف_: " إلى نوعين متميزين من السكان فالذين يسكنون السهول هم العرب الحقيقيون، أصلهم من الشرق وينحدرون من قبائل عربية مختلفة، أما الذين يسكنون الجبال أو الأماكن الوعرة المنحدرة فهم البرابرة الحقيقيون أو" القبائل" الذين تختلف لغتهم عن لغة العرب"[2].

فمن هذا المنطلق لحمدان خوجة نجد أن المجتمع الريفي بإيالة الجزائر يتألف من عناصر عربية و أخرى أمازيغية تلاحمت وتفاعلت، واندمجت فيما بينها بفضل وحدة اللغة والعقيدة، اللتين جاء بهما الدين الحنيف لهذه البلاد مع مطلع القرن السابع ميلادي، وما أعقبها من أجناس وافدة مع مطلع القرن الخامس عشر للميلاد بتبعية الجزائر للدولة العثمانية وما استجد مع الفئة الجديدة وهم الأتراك بظهور المولدين من صلبهم – يقصد الكراغلة – وما أنجز عنهما من مظاهر حضارية مختلفة نمت وترعرعت خلال الوجود العثماني بالجزائر بالنسبة للمدينة وبالنسبة للريف على حد سواء [3].

فجاءت البنيات الاجتماعية في ريف الجزائر خلال العهد العثماني على العموم لا تختلف اختلافا كبيراً من منطقة لأخرى سواء في الشرق أو الغرب في الشمال أو في الجنوب فإن الأسرة هي الخلية الحية التي تساهم في تكوين الجماعات وتوسيعها. فتكون هذه الأخيرة تحت إشراف الوالد أو الأخ الأكبر فيما يخص علاقاتها اليومية مع المحيط الخارجي، أما في داخل الديار فان الأم أو الأخت الكبرى هي صاحبة الأمر والنهي. وتنضبط هذه الأسرة في نظام دقيق من تسيير شؤونها الداخلية من

---

[1]– ينظر: حمدن خوجة، المرآة، ص:13.

[2]– المصدر نفسه، ص:15.

[3]– ينظر: يحي بوعزيز، الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن التاسع عشر، **مجلة الثقافة**، العدد: رقم: 80، لجزائر: 1984، ص: 161.

طاعة صاحب الأسرة سواء أكان الوالد أو الأخ الأكبر؛ مما أكسبها تماسكاً وانضباطا ومكانة واحتراما لدى الغير[1].

أ- مفهوم القبيلة :

أما الوحدة الاجتماعية التي تأتي بعد الأسرة مباشرة فهي الدشرة أو العرش والتي تشمل عدد من "الكوانين" تتراوح ما بين العشرة والثلاثين، والتي تخضع في تسيير شؤونها لأكثر أبنائها مالاً وجاهاً وحكمة، وكثيراً ما تجتمع هذه الصفات إلا في أكبرهم سناً. وكانت الأعراش تجتمع فيما بينها لتكوّن القبيلة[2] التي تعتبر وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية، تسيّر تسييرا جماعيا يختار أعيانها القائد[3]. ويسمى أيضاً رئيس القبيلة، وله سلطة كبيرة وواسعة على مجموع أسرها وفروعها وأعراشها وهو ممثلها لدى القبائل الأخرى ويدافع عن مصالحها[4] .

كما يرى بعض الباحثين أن القبيلة تتكون من مجموعة من العشائر لا يشترط انحدارها من أصل واحد؛ فقد تندمج عائلة وعشيرة في قبيلة أو تخرج منها لتندمج في أخرى، فتفرض عليها حتمية

---

(1)- ينظر: يحيى بوعزيز، المرجع نفسه، ص: 161، الزبيري محمد العربي، **التجارة الخارجيّة للشرق الجزائري في الفترة ما بين (1792-1830م)**، الجزائر: دار الحكمة، ط 3: 2014، ص: 45.

(2)- فقد جاء ذكر القبيلة بصيغة الجمع في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾، القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية: 13. ومن المفهوم القرآني استمد مؤرخو الحضارة العربية مفهوم القبيلة .

(3) - ينظر: محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجيّة للشرق ...، المرجع السابق، ص: 45.

(4)- فالقلقشندي أخذاً عن الماوردي وغيرهم من المؤرخين جعل الشعب في قمة المراتب ومنه تتفرع القبائل التي سميت كذلك لتقارب الأنساب فيها وبعد القبيلة تأتي العمارة فالبطن فالخذ فالفصيلة والعشيرة. وبصيغة أخرى فالفخذ تجمع الفصائل، والبطن تجمع الأفخاذ، والعمارة تجمع البطون، والقبيلة تجمع العمائر، والشعب تجمع القبائل". أما يحي بوعزيز يصنف التركيبة البشرية للمجتمع الريفي تصنيف مختلف؛ منطلقها الأسرة ثم القبيلة ثم العشيرة ثم العرش. ينظر: أبي العباس القلقشندي، **صبح الأعشى**، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط: 1340هـ/1922م، ج1، ص ص: 308، 309، يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ص:161، 162.

التــداخل العميق مع الزمن بين أفرادها ومن الأفراد إلى المجموعات السكانية ذات الأصول العــربية أو البربرية مما يصعب التمييز بينها فيما بعد[1].

ومن هنا فقد وسع ابن خلدون مفهوم النسب في القبيلة إلى درجة أنه أدخل في إطاره كل رابطة نشأت بين الأفراد بسبب طول المعاشرة، فهو لم يقيد العصبية بالقرابة الدموية فقط، بل بالالتحام الذي يوجب مع صلة الأرحام حتى تقع بموجبه المناصرة عند الضرورة [2]. فالإضافة إلى صلة الدم والأصل المشترك الذي يقوي روابط الوحدة والتضامن والانتماء بين أفراد القبيلة الواحدة، هناك عامل الرقعة الجغرافية المشتركة الذي يفرض هو الأخر علاقات ترابط متينة بين أفراد القبيلة الواحدة[3].

والقبيلة في الريف خلية اجتماعية تشكلها المجموعات الريفية، وقد هيمن هذا الطابع القبلي على الريف الجزائري سواء في المناطق الجبلية أو السهلية أو على الهضاب العليا وفي الصحراء، ونظراً لأهمية العصبية القبلية صارت المجموعات تنتظم ضمن تنظيمات قبلية رغم انتفاء العلاقة القرابة بينهم أحياناً، وقد انعكس هذا التأثير حتى على المدينة حتى أصبحت أحياؤها في كثير من الأحيان امتداد لقبيلة ما [4].

(1)– ينظر: مرقومة منصور، **القبيلة والسلطة والمجتمع في الجزائر بحث انثروبولوجي في المجال السياسي التيهرتي**، رسالة لنيل دكتوراه علوم، إشراف: العايدي عبد الكريم، جامعة وهران: 2010/2009، ص ص: 66، 67،كمال صحراوي، أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث، إشراف: دحو فغرور، جامعة وهران: 2013/2012، ص ص:237 ، 238 .

(2)– ينظر: كمال صحراوي، المرجع نفسه، ص:238، إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1: 1997، ص ص: 218، 219.

(3)– ينظر: محمد نجيب بوطالب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،ط1: 2002م، ص: 56.

(4)- ينظر: كمال صحراوي، المرجع السابق، ص:238، صالح عباد، المرجع السابق، ص: 362.

وهكذا فقد كان المجتمع الريفي بالجزائر العثمانية عبارة عن زخم من القبائل وشعوب وافرة منها البربرية ومنها العربية، تصاهرت فيما بينها وذابت وانصهرت واختلطت مع بعضها البعض في السكن، وتعسر التمييز بينها، كما اختلفت في حياتها المعيشية ونشاطاتها عن مجتمعات المدن، وقد شكلت نمطاً حضارياً يحمل خمس مظاهر تميزه عن مجتمع المدينة نذكرها كالآتي:

- استمرار سلوك اجتماعي معين قد يصبح عادة يتم تناقلها من جيل إلى جيل.
  - تحكم الأعراف في السلوك الاجتماعي.
  - أكثر العادات المتوارثة في المجتمع الريفي التقليدي هي المسيطرة، يرفض معها التجديد في الغالب.
  - بساطة النسق الاجتماعي والذي يؤثر بتدرج ثابت في العلاقات الاجتماعية الأساسية.
  - انخفاض الإنتاجية الاقتصادية مقارنة بمجتمع المدينة[1].

كما صنفت الدراسات التاريخية القبائل الجزائرية في العهد العثماني إلى:

- قبائل حافظت على قوتها عدداً وعدة .
- قبائل ذابت في قبائل أخرى، رغم وجودها لكن فقدت استقلالها بسبب تضاؤل عددها وعدتها، فهي قبائل مستضعفة ومغلوبة على أمرها.
- قبائل مندثرة [2].

وحسب تقدير مؤرخي العهد العثماني بالجزائر يشكل سكان الأرياف أواخر هذا العهد الأغلبية بنسبة ما بين (90-95%) من إجمالي سكان البالغ عددهم نحو (2-3) ملايين نسمة[1] من مجموع السكان منهم قبائل المخزن وقبائل الرعية والقبائل المتحالفة والقبائل الممتنعة أو المستقلة[2].

---

(1)- بلبروات بن عتو، **المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني**، ص: 248 .

(1)-Daumas Eugène ,**Mœurs et coutumes de L Algèrie introduction egehloul sind Bad** ,Paris ,1988 ,p31.

- بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: 249 .

وفي هذا الصدد أنجز لويس رين دراسة حول الجزائر في عهد الداي حسين، ضمنها جدولاً حول ما سماه الجماعات الأربع والتي تتشكل من الجماعات المخزنية وجماعة الرعية والجماعة المتحالفة (الأجواد والمرابطين) والجماعة المستقلة، والتي بدورها تنقسم إلى 516 جماعة فرعية؛ تتوزع على بايلكات الإيالة[4]، وهو ما وضحه كمال صحراوي في رسم بياني مع جدول ندرجهما كالأتي[35]:

الجماعة	دار السلطان	التيطري	بايلك الغرب	بايلك الشرق
المخزن المحاربة	19	9	36	25
المخزن غير المحاربة	/	5	10	22
الرعية	11	23	56	14
الخادمة أو المتحالفة	20	12	29	25
المستقلة أو الممتنعة	23	13	26	138
المجموع	**73**	**62**	**157**	**224**

جدول يوضح الجماعات الكبرى المكونة لسكان الجزائر عام 1830م

وحسب أهمية بايليكات الإدارية الجزائرية خلال العهد العثماني نبتدئها بدار السلطان.

ب- قبائل المخزنية:

ارتبطت الإدارة العثمانية في الجزائر وبالأخص في المناطق الريفية بمصطلح المخزن، ويعود أصل هذه الكلمة إلى جذور تاريخية لتلك المؤسسة الضاربة في تاريخ المنطقة، والتي وجدت بدول المغرب قبل الفتح الإسلامي لها؛ والمتمثلة في الأعوان الإداريين المكلفين بتسيير وحفظ المحاصيل الزراعية والتي

(1)- مؤيد محمود حمد المشهداني وسلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني (1518- 1830م)، **مجلة الدراسات التاريخية والحضارية**، جامعة تكريت، المجلد 5، العدد 16، جمادى الآخر 1434هـ، نيسان 2013م، ص: 421.

(2)- عمار عمورة، المرجع السابق، ص: 253 .

(4)- LOUIS RINN, **Le royaume d'Alger sous le dernier Day**, Adolphe Jourdan, Imprimeur, Libraire, éditeur, 4, Place du Gouvernement, Alger,1900, P131.

- ينظر: الملحق رقم (11)، ص: 474.

(5)- ينظر: الملحق رقم (10)، ص: 473.

كانت تجمع الضرائب العينية وتكدسها بالمخازن، ثم انسحب هذا الاسم ليعمم بعد ذلك ويطلق على هذه الإدارة بأكملها، ليزيد تطوراً مع العثمانيين ليشمل كل الأعيان الإداريين التابعيين للبايليك تقريباً، ثم أصبح لفظاً مرادفاً لكلمة " سلطة أو حكومة " [1].

وقد عرف بن عودة المزاري المخزن ب:" إن المخزن هو الناصر للدولة كيفما كانت، وحيثما وجدت وتملكت وباتت، وبالنسبة إليه مخزني، ومخازني، مفرد مخازنية في تحقيق المباني وسمي بذلك لأنه يخزن بصدره ما يؤمله إلى وقت الظفر وحصول الانتقام فيفعله بصاحبه وبه يلزمه، وقد يطلق المخزن مجازاً على دار الحاكم نفسها...ومنه قولهم أني ذاهب إلى دار المخزن"[2].

كما يعرفها ناصر الدين سعيدوني بأنها: تجمعات سكانية تعميرية ذات تكوين اصطناعي، لها صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية، متمايزة في أصولها مختلفة في أعراقها، فمنها ما أقره الأتراك العثمانيون في الأراضي التي وجدت عليها لتكون سنداً لهم، ومنها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة، لتؤلف جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية. فمنهم العبيد والكراغلة وعرب الصحراء وسكان الهضاب والجبال، كما أنها تشكل حلقة وصل ورابطة متينة تشد المحكوم للحاكم، تربط الأهالي في الأرياف بالحكام الأتراك بالمدن و قد تجذر هذا الأمر بشكل جلي أواخر العهد العثماني بالجزائر [3].

ويمكن تصنيف القبائل المخزنية حسب أصولها إلى ثلاث أنواع هي: القبائل التي تحتل الأراضي الخصبة الواقعة في المناطق التلية أو تقطن الفحوص القريبة من المدن ولأهمية موقعها هذا جعلها عرضة

---

[1]- عمر حرفوش، **الإدارة الجزائرية في العهد العثماني" الإدارة المركزية أنموذجاً**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2008- 2009م، ص: 39،46.

[2]- الأغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تح: يحيي بوعزيز، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج1، ط: 1990، ص: 30.

[3]- ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية ودراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، الجزائر: دار البصائر، ط2 :2009 م، ص:207، ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، ص:207.

للحملات العسكرية وسهلة المنال، ففضلت من البداية حماية مصالحها بالتعاون والتحالف مع العثمانيين مقابل الحفاظ على أراضيها والانتفاع ببعض الامتيازات كالإعفاء من الضرائب واستخلاص الضرائب من قبائل الرعية. ويضاف إلى هذه القبائل قبائل المرابطين والتي التفت حول الأتراك وساندتهم وخاصة في بداية وجودهم بالجزائر؛ باعتبارهم منقذين لها وللعالم الإسلامي من الغزو الصليبي المتمثل في الاحتلال الاسباني والايطالي[1]. وهناك قبائل اصطناعية غير متجانسة شكلها الأتراك من أصول مختلفة، وكان معظم أفراد هذه القبـائل المصطنعة من المغـامرين ومغتنمي الفـــرص والفارين من قبائلهم الأصلية لسبب أو لآخر ويشاركهم طبقة العبيد الذين أعتقوا وتجمعوا وشكلوا قبيلة دفعتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية لأن تكون في خدمة الأتراك العثمانيين مقابل استفادتها من أراضي زراعية وبعض الوظائف العسكرية والإدارية ومن هذه القبائل برزت فرق الزمالة والدوايرو والعبيد. أما الصنف الثالث فقد تشكل من بعض القبائل الممتنعة أو المستقلة التي أرغمت عن طريق القوة من الانطواء ضمن قبائل المخزن، وهي على مضض كلما تعكر جو السلطة الحاكمة بمشاكلها الداخلية أو الخارجية نفضت بساط الطاعة لتعود لوضعها الأصلية كقبائل ممتنعة أو مستقلة عن السلطة الحاكمة[2].

انتشرت هذه القبائل المخزنية في البايلك الثلاثة، وضواحي دار السلطان، فكانت تتمركز بصفة خاصة في الأراضي السهلية بالقرب من الأبراج و الحصون الريفية وفي الأماكن التي تقام فيها الأسواق الأسبوعية، وعند مخارج المدن وعند أهم الطرقات والأماكن التي توجد بها المنشآت الإستراتيجية مثل الجسور، المطامير، والطواحن والقناطر الرئيسية وعلى مقربة من الطرق السلطانية، وفي المواضع التي تمر

---

[1]- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 164.

(2)- أرزقي شويتام، المرجع نفسه، ص ص : 164، 165، دغموش كاميلية، **قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الاسباني والسلطة العثمانية، (1509_1792م)**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: محمد دادة، جامعة وهران، 2013 _2014م، ص ص: 95، 96.

بها المحلات العسكرية وفي الأماكن الثائرة والمواقع المهددة بالغزو الأجنبي وهذا على امتداد البايلكات ومقاطعات الجزائر العثمانية[1].

أما المهام العسكرية التي تكلف بها هذه القبائل وبشكل أساسي المشاركة في المحلات الفصلية لاستخلاص الضرائب من قبائل الرعية أو لقمع القبائل العاصية الممتنعة والمعادية لسلطة البايليك. إلى جانب الحيلولة دون تحرك القبائل الجبلية أو الصحراوية وزحفها نحو السهول الخصبة حيث توجد ملكيات البايليك وأين تعيش قبائل الرعية الخاضعة[2]. ومقابل هذه الخدمات كانت قبائل المخزن تحظى ببعض الامتيازات وتنال بعض الحقوق دون بقية سكان الأرياف، كالتمتع بالأمن والحماية من طرف سلطات البايليك والإعفاء من المطالب المخزنية كالضرائب الإضافية كاللزمة[3] والغرامة والمعونة والحكور، والاكتفاء فقط بتقديم مساهمات عينية خفيفة والتي لا تتجاوز سدسي المحصول، وفي بعض الأحيان لا تتعدى حصان واحد وبعض الخراف مع دفع الضريبة الشرعية " العشر والزكاة " زيادة على تلقي قبائل المخزن التجهيزات والمنح مجاناً من الدولة كالسلاح والمؤونة ووسائل النقل وأدوات العمل الفلاحي وغير ذلك[4].

---

(1)- سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية...، المرجع السابق، ص ص: 212، 213، بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: ص: 250، 251.

(2)- سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص: 106،

(3)- **اللزمة:** ضريبة عينية أو تقدية، تفرض بغرض تموين الحامية والمساهمة في الدنوش، وتفرض عادة على قبائل الرعية الخاضعة والتي غالباً من تعيش على أراضي العرش، وقد تلزم بها بعض القبائل بالمناطق الصحراوية، أو الجهات الجبلية،. ينظر: فلة =القشاعي، **النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العصماني (1771-1837م)**، رسالة ماجستير في التاريخ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر، 1989-1990، ص: 64.

(4)- كانت تعطى لهم أجور مؤقتة تماثل في بعض الأحيان أجور الإنكشارية، إلى جانب ما ينتفعون به من غنائم وأسلاب يحصلون عليها أثناء مشاركتهم في المحلات العسكرية. ينظر: سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص: 107، سعيدوني، ورقات جزائرية..، ص ص: 214،215،217.

1- قبائل المخزن بدار السلطان :

من القبائل المخزنية الأكثر انضباطاً بالمهام العسكرية والتي تختلف في إدارتها عن قبائل الرعية قبيلة سهل حجوط وقبيلة اللواطة، وهذه القبائل في تركيبتها السكانية هم عبارة عن خليط من الأجواد والمزارعين وكبار موظفي قصر الداي، يوزعون جغرافيا في وطن السبت وبني خليل وبوحلوان بمضيق وادي جر وموزاية ومخزن الزواتنة [1]، ومن هذه القبائل المخزنية قبيلة سهل حجوط يتولى سلطتها الإدارية خوجة الخيل، تقدر قدرتها العسكرية بألف فارس مخزني[2].

ومن القبائل المخزنية أيضاً مخزن سوماتة؛ يتواجد هذا المخزن بمنطقة غابية، اشتهرت بكثرت العدد والعدة كانت من القبائل المتمردة عن الحكم العثماني، وقد استطاع محمد الكبير تأديبها وتطويعها للحكم العثماني بأمر من الداي حسن(1791_1798) فصارت قبيلة مخزنية[3].

وضمن القبائل المخزنية بدار السلطان قبائل نزليوه، والتي كانت في الأصل قبائل ممتنعة في أعالي وادي يسر بمنطقة القبائل، فأصبح رجالها يشكلون فرق الصباحية التي وضعت تحت قيادة قائد برج بوغني، وقد كانت قبلا تقوم بعدة انتفاضات مما دفع السلطة إلى شن عدة حملات عسكرية ضدها[4]، تمكن على أثرها يحيي أغا من إخضاعها وتحويلها لقبائل مخزنية، شكلت منها فرق الزمالة وهي جماعة شبه عسكرية [5]. والتي وطدت أركان السلطة العثمانية بالريف الجزائري في هذه الفترة.

---

[1]- صالح عباد، المرجع السابق، ص: 291،

(3)-RINN LOUIS, le royaum d ALGER,Op.cit.P43.

[3]- يتظر : أحمد بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تح: المهدي البوعبدلي، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1: 2013م، ص ص: 145، 146، بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: 250.

[4]-كانت أعنفها عام 1806م، إثر اعتداء بعض أفرادها على مسافرين قبيلة بني عائشة. ينظر: عقاد سعاد، **الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية في الجزائر (1519-1830م) دار السلطان – أنموذجاً–**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، محمد دادة، جامعة وهران، 2013 _2014، ص ص: 40، 41.

[2]-M :GUIN NOTES, **Historiques sur les Nezlious, cercle DRA e ELMIZAN IN R .A** ,N°6,ALGER, 1862, p 425 .

مخزن الزواتنة وهم في الأصول من كراغلة، عرفوا بهذا الاسم لتوطنهم على ضفتي وادي الزيتون فنسبوا إليه، يقع هذا الوادي بجنوب شرق مدينة الجزائر العاصمة، أين توطنوا بين قبيلتي الخشنة وبني جعاد بالضفة اليسرى بمضيق وادي يسر(الأخضرية)[1]. وفي هذا الوادي أيضاً تجتمع زمالة بني هارون وحرشاوة وزمالة شعبة العامر، وشعبة سيباو أو العمراوة، التي نقلت إدارتها إلى دار السلطان سنة 1769م، بعد تمرد قبيلة فليسة، فعمراوة برج سيباو وأم نائل ببرج يسر اختار لها الأتراك الإقامة حول الحاميات العسكرية الصغيرة المعروفة بالنوبات (جمع نوبة) بجانب أبراج وحصون دار السلطان، وهو نوع من الإستراتيجية العسكرية التي أقامها الأتراك في تسخير فرسان تلك القبائل المخزنية وجعلهم في أهبة الاستعداد لحمل السلاح وخوض المعارك إذا طلب منهم قائد الحامية التركية ذلك[2]. وينظم لهم كمخازن دار السلطان زمالة عين الزاوية (غشتولة)[3] أو زمالة بوغني وزمالة ايترليون، ومخزن بني سليمان وهم من الصبايحية التي ضم إليها زاوية طورطاتين، ومن القبائل المخزنية أيضاً ذات الصبغة الاصطناعية قبيلة عريب[4]؛ والتي أقامها الأتراك بممر سور الغزلان وهو من أهم الممرات والفجاج

---

(1)- اتخذت الغالبية الكبرى من القبائل المخزنية تسميات محلية وألقاباً خاصة بها، استمدتها إما من مواطنها الجديدة التي سكنتها أو اشتقتها من الوظائف أو المهام التي كانت تمارسها وتقوم بها، أو من نوع السلاح الذي كانت تحمله أو من التنظيم العسكري الذي كانوا يخضعون له والحيز الإداري الذي استقرارا ضمنه. ينظر: سعيدوني، ورقات جزائرية...، ص: 207.

(2) –ينظر: سعيدوني، ورقات جزائرية..، ص: 218.

Warnier et carette,**Description et divison de l'ALgèrie**,hachette,Paris,1847,p47 .

(3)- ففي سنة 1818م خربت قبيلتا غشولة وبني صدقة برج بوغني فأعاد يحيي أغا بناءه، وبرج بوغني كان وقت ذاك تحت قيادة سباو وهو الذي يسمى أيضاً بقائد يسر. ينظر: صالح عباد، المرجع السابق، ص ص: 224،291.

Rinn Louis,Op-Ctp, P :43.

(4)- أصول هذه القبيلة عربية جاءت للمغرب الأوسط مع الغزو الهلالي في القرن 11م، استقرت بمنطقة الزاب إلى غاية القرن 14م، أنظمت تحت قيادة المرابط سيدي هجرس المرابط المغرب الأقصى واستولوا على الحضنة، ثم خضعت لأمير بني عباس، ثم طردت من الحضنة لمعاداتها أجواد عين ماضي وغيرهم إلى وادي معمورة بين العناورة وبني موسى قبل 1541، ثم استقرت بنواحي حمزة (البويرة حالياً) بدعم من الأتراك.كان أول قائد لهم رابح بن طالب الذي قتله باي التيطري بعد تمرده على السلطة في حوالي 1807م، وقد خلفه نايلي محمد الذي توفي سنة 1825م، فقسمت القيادة بعده بين الأخضر بن طالب وفرحات بن طاجين. ينظر: صالح عباد، المرجع السابق، ص: 367، سعيدوني ورقات جزائرية...، ص: 218 .

الجبلية وذلك لإحكام السيطرة على المراكز والممرات المهمة بدار السلطان، وقد زودهم الأتراك بالأسلحة والذخيرة وأقروهم على المنطقة في أواخر القرن 18م. ولم يقتصر تواجد القبائل المخزنية بالممرات السلطانية فقط، بل تعد تواجدهم حتى الممرات الثانوية، كالطريق الرابط بين المدية والأغواط أين جعل مخزن البرواقية المكون من العبيد والدوابر مشرفاً عليها[1].

ويضاف للعائلات المخازنية الكثير من المزارعين والأجراء بسهل متيجة، أين يمثلون عائلات معزولة ويمتلك إقطاعيات من الأراضي الزراعية [2].

2- قبائل المخزن بايلك التيطري:

كسياسية محكمة اتبعتها الحكومة التركية بالجزائر، بعدما غاب عنها الدعم المادي والبشرية من السلطة العثمانية وخاصة في أواخر عهدها بالجزائر، تسخير قبائل المخزنية لإحكام سيطرتها على الجهات المتباعدة من الإيالة الجزائرية هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى لتخفيف عداء القبائل المعارضة لها قامت بإدراج البعض منهم ضمن قبائل المخزن بمهمة مراقبة المناطق التي شهدت ثوراتهم[3]. وبهذه السياسة الثاقبة أمن البايليك شر تلك القبائل من جهة، ومن جهة أخرى سخر البعض منهم لتأديب وإخضاع القبائل التي تقطن المناطق الجبلية أو الصحراوية المعادية لهم[4]. وهذا ما يؤكده ابن سحنون الراشدي بقوله:" أن دولة الأتراك ألقت ببلاد المغرب الأوسط كلها ... فدوخوا عصاتها ودانت لهم أهلها، فانقطعت عروق الفتن، وذهبت مواد الشقاق، ولم يبقى بها صائل غيرهم"[5].

---

(1) -سعيدوني، المرجع السابق، ص:221 .

(2) - بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: 250.

(3)- نفس شيء كان مع قبيلة عريب العربية في التأديب ثم التوظيف في مصالح السلطة الحاكمة. المرجع السابق، ص:151.

(4)- سعيدوني، المرجع السابق، ص ص: 213، 214.

(5)- ولكنه يعقب بعدها أن هناك بعض قبائل لم تخضع لحكمهم إلا بالاسم :" أن انقياد برابر جبال جنوب تلمسان، وشمال الظهرة للحكم العثماني كان بالاسم فقط، وكذلك الظاعنون من العرب، ما عدا أعراض قليلة مستخدمة في المخزن لكونها قريباً

ولهذا السبب وجدت الكثير من القبائل المخزنية في الأراضي الجبلية والسهبية؛ ففي الجهات الجنوبية الشرقية من بايليك التيطري أصبح أولاد سيدي عبد الله من القبائل المخزنية، بعد أن تغاضى البايليك عن أعمال اللصوصية التي كانوا يقومون بها، وصبغها بالصبغة الشرعية عندما أوكل لهم مراقبة المنطقة الممتدة بين سيدي عيسى وبوسعادة. ونفس شيء حدث جنوب التيطري، إذ أصبحت قبيلة أولاد مختار مهيأة للقيام بدور قبائل المخزن، ونافست قبائل بوعياش وأولاد شايب في المهمة المخزنية، مع غياب الإذن الرسمي من البايليك[1].

كما تمركزت في المناطق التي تمر بها المحلات الفصلية عند قيامها بمهام جمع الضرائب أو خروجها لمعاقبة الثائرين، وكذلك في الأماكن التي تتكرر فيها الثورات والهجمات على موظفي البايلك، وهذا ما يفسر استقرار دوائر المخزن في الأماكن التالية: نواحي ساباو وبوغني ويسر والخشنة وعين بوسيف والبرواقية وبوغار؛ ولهذا استطاع الأتراك بفضل قبائل المخزن هذه أن تبقى قبائل جرجرة والتيطري تحافظ على الهدوء وسكينة مدة طويلة [2].

– **مخزن البرواقية:** يضم مجموعة الزنبطوط، ينخرط فيه الكراغلة غير المتزوجين، للمشاركة في محلات جمع الضرائب، إلى جانب مخزن الدواير المتكون من أربعة أعراش، والتي أقامها الأتراك على أراضي البايليك، بأراضي أولاد خديم المصادرة، وزمول العبيد الشراقة والغرابة، وقد تكونت هذه القبائل في الأصل من أشخاص كانوا عبيدا؛ أين استوطنوا بايليك تيطري، وظفهم الأتراك في الخدمة المخزنية بهم قوة احتياطية كبيرة، تستطيع أن تساهم عند الحاجة ب 1200 محارب زيادة عن 600 فارس، تشارك بهم القبيلتان في الأوقات العادية بغية حفظ الأمن وجمع الضرائب ومعاقبة الجناة

=من رمية مدافع الحصون، مثل عين ماضي والأغواط والشلالة". ينظر: أحمد بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تح: المهدي بوعبدلي، منشورات وزارة التعليم والشؤون الدينية، سلسلة التراث، قسنطينة: مطبعة البعث، ط: 1973، ص ص: 147، 148.

[1]– ينظر: أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر نفسه، ص: 145، 146، سعيدوني، ورقات جزائرية...، ص: 214.

[2]– سعيدوني، المرجع نفسه، ص: 221.

وحراسة الطرق[1]، مخزن صباحية التيطري ويضم أولاد دياب والأولاد عثمان المستقرين ببوغار واللذان يحظيان بالنبالة العسكرية.ويشاركهم عرشي المعاقيف وأولاد سيدي عامر، اللذان يزودان الداي بالحراس المسلحين، ويبعثان بالمقاتلين لبرج حمزة.

عرش أولاد بوعيش، بقصر البخاري حالياً، والذي تحول إلى صبايحية سنة 1825م، بأربعمائة فارس مخزن أولاد شعيب وهم من الأجواد، وقد تحالفوا سنة 1825م، مع عرش أولاد الشيخ وهم من الأشراف، كما يوجد عرش مقان[2]. أما الأعراش المخزنية الزراعية: مخزن غريب مخزن سلامات وبني راشد، مخزن الزناخرة ومخزن مامورة [3].

4- قبائل المخزن بباياليك الشرق:

يتركّز اغلب قبائل وأعراش الشرق الجزائري في الأرياف، وقد وصلت نسبتهم في بعض الأحيان إلى 95% وهي نسبة مرتفعة مقارنة بسكان الجزائر في العهد العثماني وهي نفس النسبة تقريباً بالنسبة لسكان الأرياف بالإيالة الجزائرية على العموم، قدر "Vayssetes" عدد سكان بايلك قسنطينة بحوالي 5/2 من مجموع سكان الجزائر العثمانية[4]، ورغم محاولات البايليك لإحصاء السكان وضبط مداخيل أريافه، في الفترة المدروسة إلا أن ذلك لم يكن ممكنا نظرا لوجود جهات منعزلة وقبائل ممتنعة تعسر ضبط عدد أفرادها مما ينقص من قيمة أي تقدير، في حين حسب بعض التقارير أحصى بعض

---

[1] - المرجع نفسه، ص ص: 211، 212.

RINN LOUIS, le royaum d ALGER…,.P71 :73.
-Urbain , **Notice sur l ancienen du Titteri** ,in Revue africaine ,1843.

[2]- RINN LOUIS, le royaum d ALGER…,.P71 :73.

[3]- بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: 250 .

(1)-VAYSSETTES, **Histoire des dernier beys de constantine depuis 1793 jusqu'a la chute d'Hadj Ahmed "** ,R.A,N°3,1858,P166.

الضباط الفرنسيين في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر وبعض الرحالة ك"Noushi" أن تعداد سكان أرياف قسنطينة بلغ 1.156.716 نسمة [1]

وعلى صعيد آخر يعتبر البايلك بصفة عامة في معظمه من حيث المظهر التضاريسي يغلب عليه الطابع الصحراوي في الجنوب، والذي تتميز فيه الحياة بقسوة الطبيعة وما ينجز من عدم الاستقرار وصعوبة التنقل ونقص المياه وانعدام الإمكانيات ومشقة العيش [2].

كما يعتبر بايليك الشرق من ناحية أخرى من أهم بايليكات الإيالة العثمانية بالجزائر بعد بايليك دار السلطان؛ لمساحته الشاسعة وكثافته السكانية وأهميته الاقتصادية، بل يعد حسب بعض الباحثين بناء على مميزاته التي تصطفيه أهم بايلك في الجزائر؛ فموقعه الجغرافي له أهمية كبيرة في خصوصيته[3]؛ فهو الأوسع من حيث المساحة والأغنى من حيث الثروة، بالإضافة للتميز في بنيته الاجتماعية وخاصة مجتمعه الريفي[4].كما يضم مدينة قسنطينة ثاني مدينة بعد مدينة الجزائر، وهي مقر البايلك وحاضرة من الحواضر السياسية والاقتصادية والثقافية في الجزائر العثمانية ووريثة الحضارة

(1)- فلة القشاعي، **النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1771–1837**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: ناصر الدين السعيدوني، جامعة الجزائر، 1989–1990 م، ص 24.

-NOUSHI, **Enquète sur le niveau de vie des populatios rurales constantinois de la conquète jusqu en 1919 'histoire économique et sociale**,P.U.F,Essaid, Paris,1961,p15.

(2)– أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص ص: 113، 114.

(3)– يعتبر بيالك الشرق المجال الحيوي الذي تنتهي إليه الصحراء من قسمه الجنوبي، وكمعبر بري مهم نحو تونس وطرابلس ونحو المشرق، ومن ناحية الشمال تعتبر سواحله وموانئه منفذ حيوي للملاحة في البحر الأبيض المتوسط، المطلة على السواحل الأوروبية للحوض الغربي للمتوسط، فلة القشاعي، النظام الضريبي...، ص: 2.

(4) – يتألف المجتمع الريفي القسنطيني من ثلاث إثنيات مختلفة العادات والتقاليد وأنماط العيش واللغة وهي: العرب المنتشرون على جنوب البايلك والشاوية على المنطقة الوسطى منه، والقبائل على الساحل في شمال البايلك. ينظر: جهيدة بوعزيز، المرجع السابق، ص: 22.

الحفصية في الشرق الجزائري؛ وخاصة أن مدينة وهران تأخر تحريرها من الأسبان حتى 1792م، وتلمسان قد أفل نجمها [1].

أما من الناحية الاجتماعية لهذا البايلك يبرز قوة النفوذ المسيطر لبعض الأسرة بالشرق الجزائري لدرجة أنها تشارك البايلك في الحكم؛ وهي خمس أسر قوية رئيسية تتمثل في أسرة أولاد مقران أو المقراني كما تسمى في الغرب وأسرة الأحرار أو الحنانشة في الشرق وأسرة ابن قانة و بوعكاز وابن جلاب في الجنوب بوادي ريغ [2]، فضلاً عن القبائل ذات النفوذ الواسع أمثال: النمامشة، الحراكتة، البابور، البرّانية، قبائل الأوراس الجبلية، زواغة، عامر الشراقة، فرجيوه وغيرها[3].

أما عن الجانب الإداري قسّم بايليك قسنطينة في تنظيمه الإداري إلى أربعة أقسام إدارية، على كل منها حاكم مستقل عن الآخر يخضع مباشرة لسلطة الباي وهي كالتالي القسم الشرقي: الذي يشمل مواطن الحنانشة[4]، ووادي الزناتي، وعامر الشراقة، ومن أبرز زعمائه الأحرار كبار الحنانشة.

القسم الشمالي : يمتد من عنابة الى بجاية، ومن ابرز زعمائه أولاد بن عاشور في فرجيوة، وأولاد بن عز الدين في الزواغة . القسم الغربي : يمتد من سطيف إلى جبال البيبان[1] وقرى بني منصور و

---

[1]- يقول عنها أبو القاسم الزياني: كانت تلمسان بالأعلام صائلة وبالجيـــاد ولم تربط بها الحمر
أصابها المسخ إذ عادت تباع بها مناصب العلم للاجلاف والخور
ينظر عن تلمسان وما آل إليه أمرها في العهد العثماني: أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، ص:142.

[2]- محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجيّة للشرق الجزائري ... ، المرجع السابق، ص: 32، جهيدة بوعزيز، المرجع السابق، ص: 21.

[3]- جهيدة بوعزيز، المرجع السابق، ص: 21.

[4]- **الحنانشة**: تقع بين تبسة وسوق أهراس وقالمة ومركزها سوق أهراس، وهي قبيلة مهابة يعيّن لها الباي قائدا وتتحالف هذه القبيلة مع قبائل الشابية التي يضرب رئيسها معسكره قرب عيون الفسقية وتحكم هذه القبائل عائلة بن بوعزيز بالوراثة منذ زمن بعيد، كما اكتسب شيخها مكانة لدى الحكام العثمانيين ونال امتيازات واسعة. كانت قبيلة الحنانشة أقوى تلك الأسر تأثيراً في السلطة، وقد استطاع صالح باي باعتباره أقوى بايات عصره القضاء على نفوذها، أيام تولي قيادتها إبراهيم بن بوعزيز ينظر: جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق ا....، ص: 267، طاهري عبد الحليم، تأثير الجانب الاجتماعي في تكوين شخصية صالح باي السياسية والاقتصادية، **مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية**، مج 4، ع 8، الجزائر، 2016، ص: 18.

ونوغة، ومن أبرز زعمائه نجد أولاد مقران بقلعة بني عباس و مجانة. القسم الجنوبي: من أهم زعمائه نجد الدواودة وأولاد بن قانة[2].

وحسب لويس رين كما وضح في الجدول سابقا بإحصاء لعدد المجموعات في بايلك الشرق (قبائل المخزن، قبائل الرعية، القبائل المتحالفة، القبائل المستقلة) تم تحديد 224 مجموعة من أصل 516 في البياليك الأربعة، فاستنتج من خلال تلك الإحصائيات الملاحظات التالية:

- ✓ بايلك الشرق أكثر كثافة سكانية في الريف عن بقية البايلكات.
- ✓ القبائل المستقلة تشكل أكبر نسبة بالمقارنة مع القبائل الأخرى ويفسر ذلك بشساعة مساحة البايلك المترامي الأطراف وصعوبة تضاريسه الجبلية والصحراوية.
- ✓ وجود الأسر المتنفذة والقبائل القوية والتي كانت تشارك البايلك في الحكم، مما أدى بصورة منطقية إلى انخفاض نسبة قبائل الرعية مقارنة ب المجموعات القبلية الأخرى [3].

وفيما يلي توضيح لقبائل المخزن:

كانت قبائل المخزن في طابعها الرسمي، أطراف حليفة وعنصراً أساسياً في معادلة القوة والضعف بالنسبة للجيش العثماني بالجزائر، ولا شك أن سلطة البايلك بقسنطينة كحال بقية البايلكات بالجزائر العثمانية، حافظت على استمرار قوتها وبسط نفوذها على أساس تعدد المشاركين من القبائل الموالية لها لتضمن البقاء مع الغلبة [4]، يصفهم "Robin " بأنهم من بين أكبر القبائل بالبايلك؛ بما فيهم

---

[1]- تستوطنه قبائل ممتنعة عن السلطة تمتنع بالحصانة الطبيعية لتلك الجبال. ينظر: المكناسي، المصدر السابق، ص ص:330 ، 331.

[2]- جهيدة بوعزيز، المرجع السابق، ص: 26 .

[3]- محمد بن صالح العنتري، فريدة منسيّة، المصدر السابق، ص: 18.

[4]- ينظر: سعيدوني و المهدي بوعبدلي، ص ص: 105، 106، جهيدة بوعزيز، المرجع السابق، ص: 27 .

بعض الهاربين من قبائلهم الأصلية خوفاً من الأحكام التي فرضت عليهم ومن الانتقام[1]،.قدر عددهم حسب Vayssetter بحوالي ستة آلاف فـــارس وستة آلاف من المشاة.

كما أن دواير مدينة ميلة قادرة على تجنيد 1000 فارس عند الحاجة، وكذلك الحال بالنسبة لدواير جميلة ووادي الزناتي[2]، واعتبر مخزن الزمالة المرابطة بسهل عين مليلة أهم المجموعات المخزنية ببايلك الشرق [3]، ينعتهم ابن العطار بأنهم:" أهل غلظة وفظاظة لكون غالبهم من أهل البادية" [4].

جعلت مواطن هذه القبائل أو الفرق المخزنية حسب رغبة البايلك بالممرات والفجاج الجبلية المهمة كممر الكنتور بين شطورة وقسنطينة الذي كانت تحرسه قبيلة أولاد إبراهيم المخزنية، وممر رأس العقبة بين قالمة وقسنطينة الذي كانت تراقبه دائرة الزناتية، ومضايق وادي مينا وتراقبها مجموعات مخزن المكاحلية، والعثمانية بسطيف، ودائرة وادي الذهب بنواحي العلمة، ودائرة بوصلاح والصحراوية بنواحي قسنطينة [5]، هذا ولم تقتصر حراسة قبائل المخزن على الطرق السلطانية فقط كما أسلفنا، بل تعدتها إلى مراقبة الطرق الثانوية الرابطة بين مراكز البايليكات وباقي المدن الأخرى، مثل قسنطينة– تونس التي كانت تحرسها زمالة بني مراد وطريق قسنطينة_القل، التي كان يراقبها مخزن أولاد إبراهيم والمعاوية وطريق قسنطينة _عنابة التي كانت تتحكم فيها الدائرة الزناتية.

---

[3]–N.ROBIN:" **Note sur l'organisation miitaire et administrative derands turcs dans la gr andd kqbylie** ,R.A, N° 17 ALGER ,1873,P196.

[2]– سعيدوني، ورقات جزائرية...، ص ص: 211، 212.

RINN LOUIS, le royaum d ALGER…,.P71 :73

-Urbain , **Notice sur l ancienen du Titteri** ,in Revue africaine ,1843.

[5]VAYSSETTES:"Histoire des dernier beys...", Op.Cit, P38.

[4]– أحمد بن المبارك ابن العطار، أحمد بن المبارك ابن العطار، ص: 49.

[5]– ينظر: سعيدوني، ورقات جزائرية... ، ص ص: 218، 219، 220.

-Warnier et carette,Op.Cit.p50.

أما نشاطها فهو عسكري بحت في كثير من الأوقات في حين تمارس الفلاحة أوقات السلم والاستقرار، حيث تشارك في المحلات الفصلية لاستخلاص الضرائب[1]، وأحياناً تتمركز في المناطق التي تمر بها تلك المحلات عند قيامها بمهام جمع الضرائب،كما تتولى مهمة رفع المكوس على أعمال الآخرين وتقدير حجم الضرائب التي تثقل كاهل الخماسة، الذين كثيرا ما استعبدوا لعجزهم عن أداء ديونهم.كما تقوم بدور محوري في الحروب توقع العقاب بالممتنعين والمعادين أو الثائرين على سلطة البايلك. وهذا ما يفسر تعين عدد مخصوص من الجند في كل ثغر من الثغور، واستقرارهم إلى جانب دوائر المخزن بالمناطق الحساسة للبايلك كنواحي ميلة وجميلة [2]، وذلك لأجل حراسة الأبراج والممرات الصعبة والأسواق الموسمية وغيرها. ولهذا تمكن بايلك قسنطينة في فترة صالح باي ومن بعده أحمد باي من قمع ثورات الأوراس والهضاب العليا[3] بإسكان قبائل الزمول في الهضاب العليا وسفوح الأوراس الشمالية بعد طرد قبائل عبد النور وأحلافها من تلك الجهات[4].

ونذكر من بين فرق المخزن بالبايلك:

– **مخزن الحراكتة:** من أهم مخازن البايلك يخضع لسلطة قائد العواسي أو أولاد عيسى كما يسمى، وأصل التسمية لأحد الأبناء الأربعة الملقب ب" عيسى " جمع " العواسي" لرجل نشيط متحرك "

---

[1]– يشير أبو القاسم الزياني إلى سفر باي قسنطينة حسن بن حسن بوحنك (1792-1795م) للمحلة لجمع الضرائب، والتقى به بعد ذلك ليجده يعد دراهم الفضلة بعد رجوعه من محلته تلك. ينظر: الترجمانة الكبرى...، ص ص: 154، 155.

[2]– ينظر: أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص: 442. جهيدة بوعزيز، المرجع السابق، ص: 27.

[3]– وهذا ما يجسده الزياني في وصفه : خير ما مررنا به من الجزائر إلى قسنطينة من المدن فكله خراب ؛ ويرجح ذلك لكثرت قيام الثورات المحلية على النظام التركي، وكذا بسبب وباء الطاعون تلك السنة. ينظر: أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى..، ص: 148، مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ص: 40 .

[4]– سعيدوني، المرجع السابق، ص: 221، سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص ص: 106 ، 107، صالح عباد، المرجع السابق، ص ص: 319، 320، أندري برنيان، أندري نوشي، ايف لاكست، **الجزائر بين الماضي والحاضر**، تر: رابح اسطنبولي ومنصف عاشور، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1984، ص: 209.

حركات" والذي نسبت باسمه القبيلة. ومخزن الحراكتة قبيلة واسعة ومركبة، انتقلت من منطقة البلزمة[1] بسبب الكوارث الطبيعية والصراعات الداخلية، اتجاه آريس ومنطقة عين البيضاء[2]، أين استقرت بوادي مينا وكلفت كمخزن للبايلك بمراقبته.

ويضم هذا المخزن أربعة مجموعات، مجموع قبائلها اثنين وثلاثين قبيلة صغيرة، واغلبهم يشكلون القوة العسكرية لقائد العواسي، وهو أحد المقربين ومستشاري باي قسنطينة، وقد نال هذا المنصب بترشيح واشتراط من سادة القبيلة نفسها لنفوذها الواسع؛ بأن يكون قائدهم أحد أقارب الباي ابنه أو أخوه أو صهره، ومن أهم زعمائها وقادتها صالح بن مصطفى الذي ترقى وأصبح صالح باي فيما بعد، فمنصب قائد الحراكتة منصب عالي جداً وذا حظوة عند الباي، يسكنه بقربه بقسنطينة ويجعل له حاشية،كما يكون تحت تصرفه ثلاثمائة فارس احتياطي ويمكن لمخزنه أن يمد البايلك في أي وقت من الأوقات بأربعمائة فارس قومية، بل قيل عن بعض الباحثين أنها كانت تمد البايلك بعشرة آلاف جندي من بينهم أربعة آلاف فارس أثناء الحروب[3].

وإلى جانب الحراكتة من المخازنية هناك قبائل دواير الآغا ودايرة خليفة الباي، والزمول وأولاد عبد النور، والتلاغمة، وعالمة مسلة، وساحل سكيكدة وساحل ستورة، ومخزن القرفة وأولاد فاضل وأولاد يليل بالبويرة حالياً، وقرية مسيلة ودايرة العزل لأولاد دحاب، وغرازلة الغرابة، وصحاري شيح

---

[1]- **البلزمة:** تعدّ «بلَّزمة» التي تقع على بُعد نحو 420 كليو مترا شرق الجزائر من أجمل مناطق الفلاحية والطبيعية في الجزائر، وهي اليوم تابعة لولاية باتنة على مساحة 26250 هكتار.

[2]_ **عين البيضاء:** تقع في شمال شرق الجزائر 35.48 شمالا 7.8 شرقا وهي تبعد عن مدينة أم البواقي ب 24كلم .

[3]- ينظر: سعيدوني، ورقات جزائرية... ، ص: 221، طاهري عبد الحليم، المرجع السابق، ص ص : 8، 10، بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: 252 .

العرب ومخزن دمبر وعرب شتايعة المكلفة بضمان البريد بين الصحراء وقسنطينة، والتي تقوم بدور الشرطة بين القبائل البدوية[1].

أما عن مخزن الموظفين والمزارعين ببايلك الشرق فهم في غالبهم قبائل عزل يذكر منهم: أولاد بن قرات وأولاد القطن وأولاد كباب وأولاد دراج وأولاد إبراهيـــم ومخازن عامر الشـــراقة وميلة، وبني هـارون، ومخزن واجل وشطابة، وقرمودة وزواغة القبلية وموية بالميلية وغيرهم [2].

4- قبائل المخزن بايلك الغرب :

قسم الأتراك الجزائر إلى أربعة أقاليم إدارية جديدة بعد أن استقروا بها وأصبحت إيالة عثمانية، فكان بايلك الغرب واحداً منها، ونظراً لموقعه الاستراتجي جعله مطمعاً للأسبان منذ بداية القرن 16م قبل الأضواء تحت الحكم العثماني، باحتلال وهران (1509م) والمرسى الكبير (1505م) وتأخر تحريرهما التحرير النهائي مع الأتراك حتى 1792م[3]، على يد محمد بن عثمان الكبير الذي أتخذها عاصمة لحكمه، وبسبب هذا التأخر وفي تلك الفترة الحرجة تدافعت عدة أحداث مع مجموعة من التغيرات والتي مست المجتمع والدولة، فقد انساق كثير من القبائل للتعامل مع الأسبان سعياً وراء الربح والمصالح الخاصة، مما جعل الدولة الناشئة- الدولة العثمانية بالجزائر- تعاني صعوبات جمة في إطار التجاذب الحاصل في المنطقة. هذا من جهة ومن جهة أخرى الارتباط الجغرافي بمحاذاة المغرب الأقصى جعله منطلقاً ومرتكزاً ومنعكساً لتواترت سياسية بين الجانبين؛ بسبب المحاولات التوسعية للسلطة العثمانية على حسابه انطلاقا من بايلك الغرب، مما جر عنها متاعب جمة ومشاكل شتى،

---

[1]- كل من هذه القبائل المخزنية ذكر لها تعداد فرسانها التي تشارك بها البايلك عند الحاجة، أو تسير بها وظائفها العامة التي كلفت بها. ينظر: بلبروات بن عتو، المرجع نفسه، ص: 253 .

[2]- ينظر: بلبروات بن عتو، المرجع نفسه، ص ص : 253، 254.

[3]- التحرير الأول سنة 1708 م على يد الباي مصطفى أبو شلاغم ابن يوسف المسراتي فسكنها بأهله وصيرها دار ملكه فهو أول بایاتها وبقي بها حتى احتلت مرة أخرى سنة 1732م. ينظر: ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 256،.

بسب الرد القوي للمغاربة، كان ريف بايلك الغرب له منها أوفر نصيب [1]. وحسب إحصاء لويس رين[2] كما سبق[3] بجمع تعداد القبائل القاطنة بهذا البايلك، كانت الحصيلة 157 مجموعة أو قبيلة من أصل 516[4]، والملاحظ هنا الكثافة السكانية المرتفعة بريف بايلك الغرب إذا ما قورنت ببقية البايليكات؛ حيث تشكل قبائل الرعية أعلى نسبة فيها ب 56 قبيلة، ويرجع ذلك إلى شساعة مساحة البايلك فهو البايلك الثاني بعد بايلك الشرق من ناحية المساحة والأهمية في مداخيل الدولة، لكثرة قبائل الرعية التي تسكنه. وكذلك بالنسبة للقبائل المخزنية المحاربة والقبائل المتحالفة كقبائل المرابطين والأجواد مجتمعة بتقدير 65 قبيلة، ويعود ذلك لأمرين كما تمت الإشارة لهما سابقاَ: الوجود الإسباني في وهران ومرسى الكبير وتأخر تحريرهما حتى 1792م، ومجاورة المغرب الأقصى وتابعيات تلك المجاورة، أما القبائل المستقلة قدرها ب "26 قبيلة " وهي أقل من قبائل بايلك الشرق وأعلى من القبائل الممتنعة بدار السلطان والتيطري وذلك لقدرة بعض البايات كمحمد بن عثمان الكبير من إخضاع العديد منها لسلطة البايلك .

أما عن توطين هذه القبائل ببايلك الغرب وفي مقدمتها القبائل المخزنية الزمالة والدوابر فقد تم توطينها في المواقع الحساسة والمهددة بهجمات الأسبان وغارات المغاربة باستمرار كالسهول الوهرانية وذلك عبر ثلاث فترات متعاقبة المرحلة الأولى: تعود إلى الثلث الأول من القرن السادس عشر، وقد تمكن أثناءها الأتراك من مصادرة أراضي قبيلة الأمحال بالسهول الخصبة الممتدة من البحر إلى سفوح الأطلس التلي، ومن وادي المالح (صالادو) إلى نهري الشلف ومينا، بما في ذلك مدينتي آرزيو ومستغانم حيث لا زال برج الأمحال يحمل اسم هذه القبيلة العتيدة، وقد استقرت مجموعات المخزن في

---

[1]- ينظر: كمال صحراوي، المرجع نفسه، ص: 18.

[2] – LOUIS RINN,le royaum d' ALGER… Op.Cit , P131.

[3]- ينظر الجدول السابق للويس رين: ص:185.

[4]- ينظر: ص: ينظر: الملحق رقم (13)، ص: 676.

الأراضي المصادرة، وبذلك أمكن التقليل من الخطر الإسباني، ووضع حد نهائي لمقاومة قبيلة الأمحال[1]. وبالإستراتيجية نفسها كانت الفترة الثانية أين استقرت فيها القبائل المخزنية بالسهول الوهرانية، وكان ذلك بعد التحرير الأول لمدينة وهران والمرسى الكبير سنة 1708م مع الباي مصطفى بوشلاغم[2] وبعد طرد الأسبان منها صودرت أراضي القبائل المساندة لهم من عشائر بني عامر وفليتة، عقاباً لها على تعاملها مع الأسبان، وبذلك استطاع توطين الزمول والدوابر من جديد بالسهول القريبة من وهران، سعياً منه للحيلولة دون أية محاولة أخرى قد يقوم بها الأسبان والمغاربة[3].

أما الفترة الثالثة والأخيرة فقد ارتبطت بطرد الأسبان من وهران سنة 1792م للمرة الثانية، وقد بادر الباي محمد الكبير أثناءها إلى إقرار مجموعات الدوابر والزمالة بالجهات المحيطة بوهران مباشرة، بعد أن أحس بالحاجة إلى خلق قوة محلية تشد عضده في صد هجمات درقاوة وتحبط تدخلات المغاربة، فضلاً عن أن هذه القوة تكفل له القضاء على شوكة المتعاونين مع الأسبان من العرب المسالمين من عشائر حميان وقبائل بني عامر وفي مقدمتهم أولاد عبد الله وقيزة المعروفون بإخلاصهم للأسبان، وهكذا تم توطين الدوائر والزمالة بالجهات الوهرانية، وبذلك اكتمل دور هذه قبائل في تدعيم الحكم العثماني بالإيالة[4].

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني، أوراق جزائرية...، ص ص:221، 222.

[2]- أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: 199.

[3]- والأمر نفسه زمن الباي محمد بن عثمان عام 1193هـ، بتطويعه لقبيلة فليتة المشهورة، كانت من القبائل الممتنعة وكانوا قطاع طرق:" يقطعون السبيل ويجرعون من غزاهم الزعاف الوبيل"، ونفس الأمر كان مع قبيلة الأعشاش قرب مغنية، وقبيلة الشحم وهي الأخرى كانت ممتنعة وقطاع طرق صاروا من قبائل المخزن، و قبائل أحرار العرب وكذلك قبيلة حميان، و قبائل الأغواط، وأعراب العمور وسعيد. ينظر: أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ص: 145، 146، أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحرير وتقديم: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د، ت)، ص ص : 67، 68.

[4]- بالإضافة لأولاد راشد بن محمد ومن بطون بني عامر الصوالحية والسعايدة والردايدة وغيرهم. ينظر: عبد القادر المشرفي الجزائري، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، بدون طبعة، بدون دار طبع(طبعة حجرية)، ص ص : 02، 03، 04، 23، 24.

وفيما يخص قبائل الدوائر بباليك الغرب فهي الأقوى في مخزن وهران وكانت تستحوذ على سهل خصب على بعد ثلاث مراحل من وهران فيه حوالي 140000 وقد استقرت به منذ 1750م.

أما رئاستها فكانت تنتقل بين ثلاث مجموعات: البحايثية[1]، البناعدية[2] والكراطة. أما عن الكراطة أو الكرطية فينقسمون إلى سبعة دوابر: كراتسة، شرايفة، كراطة، فراطسة، أولاد سيدي البشير، أولاد بن ساعد، أغواط بوحجر، إضافة إلى قسم من بني عامر استقروا عندهم [3].

أما القبائل المخزنية التابعة لآغا الدوابر: الدوابر، البرجية، الحشم وينقسمون بدورهم إلى حشم غريس، والحشم الشراقة، وحشم أولاد عيسى[4].

أما قبائل المخزن التابعة لآغا الزمالة[5] فتضم (الغرابة والشراقة) وهم: بنوشقران وسجرارة[1]. وكانت الزمالة كما عرفت مخزناً ثابتاً من الفرسان تدور رئاستها في 08 أعراش: الشوايلية، الونازرة المخاطرية، المخاليف، القدادرة، القرايدية، المغايزية، الوراردية[2].

---

[1]- **البحايثية** من أولاد مسعود وهم من سويد، وأصل تسميتهم لجدهم أحمد بَحْث، وقد قيل تسمى بالباحث لشدة بحثه في الأمور الدينية والدنيوية، وقيل لبحثه عن قائل أخيه لأمه سعيد بن محرز المهدي بن يعقوب العامري، ولعل هذا هو أصل العداوة بينهم وبين بني عامر. ينظر: ابن عودة المزاري، المصدر السابق، ج2، ص ص: 275، 276.

[2]- فقبيلة الحشم تتكون من حشم الشراقة والتي تضم خمس مجموعات محاربة وحشم الغرابة يضم أربع مجموعات. ينظر: بالبراوات بن عتو، المرجع نفسه، ص:255 .

[3]- **البناعدية**: هم من الأجواد؛ من واد الحمام من الحشم، من أجواد الحشم، كانت الرئاسة فيهم لأولاد شريف وأولاد بن عفان وجدهم بن عودة بن خدة، وهم من العرب من قبيلة قريش. ينظر: ابن عودة المزاري، المصدر السابق، ج2، ص: 321.

[4]- **الحشم**: قبيلة عربية مشهورة بين معسكر وسعيدة، تتكون من حشم الشراقة والتي تضم خمس مجموعات محاربة وحشم الغرابة يضم أربع مجموعات خصها الطيب بن المختار ابن عم الأمير عبد القادر، بتأليف سماه:" القول الأعم في بيان الحشم، ينظر: أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: 145، بالبراوات بن عتو، المرجع نفسه، ص:255 .

[5]- **الزمالة**: مخيم دال على التنقل والترحال، يقال مزملين أي مخيمين في مكان ما. والزمول قبائل المخزن في حالة عسكرتها وهي ظاهرة مغاربية عامة على اختلاف التسميات. والزمول يضعون أنفسهم في خدمة الباليك هروباً لهم من الضرائب، كما يضعون أنفسهم في خدمة الشيخ فيقال عنهم " حرم الشيخ". ينظر: محمد نجيب بوطالب، المرجع السابق، ص: 117. كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 255.

كما تمركزت بقية القبائل المخزنية على الطريق الرابط بين الجزائر وكل من مدينتي وهران ومعسكر، كمخزن بن يحيى على وادي الروينة، وزمالة البغدادي على وادي الفضة، ومجموعتين من قبائل الزمالة عند ملتقى وادي اسلي بالشلف، وعزارة وزمالة الحاج عند ملتقى وادي رهيو بالشلف، كما وطنوا قبائل الزمالة عند ملتقى وادي مينا بالشلف، ومخزن الصحاري على وادي الهليل، ثم مجموعات الدوابر والزمالة المنتشرة بين وهران ومعسكر[3].

أما عن بقية القبائل المخزنية فنجملها فيما يلي: مخزن الغرابة أو عبيد الغرابة بتليلات، مخزن الدرادب، برجية السيراط أو مستغانم ويضم أربع قبائل: برجية الجبايلية، سجرارة، عكرمة الغرابة، مخزن المكاحلية ويضم خمسة قبائل، بالإضافة لأولاد أحمد، أولاد سلامة، وأولاد رياح.كما تمركزت قبائل مخزنية مهمة بالقطاع الشرقي لبايلك الغرب: كمخزن بني فاطم بجندل وهم صباحية آغا العرب ومجموعاته هي: أولاد عفيف، بني فاطم وأولاد سيدة، كما ساهمت عبيد عين الدفلى، وعبيد سدرة، وزمالة واد وقناي دوراً هاماً بهذا القطاع في بايلك الغرب[4].

أما عن القبائل المخزنية المكلفة بالنشاط الزراعي فهم: الزهالدية وهم مزارعون تابعون لآغا الزمالة، ويشاركهم في نفس النشاط مخزن قرية بني مسطور وهي قرية بفحص مدينة تلمسان، سكنها الخماسون والمزارعون التابعون للأتراك والكراغلة بتلمسان. أما عن النشاط الرعوي فكلفت به كل من قبيلة دوادجية وعتبة الجمالة وهم قبائل صحراوية تقوم بتربية الجمال التابعة للبايلك، ويشاركهم في تربية خيوله مخزن أولاد صابر وبتربية الماشية للبايلك ومخزن الدوابر أولاد خالفة. أما عن مخزن عتبة

---

[1]- **سجرارة:** ومنهم من يعتبرهم عبيد الشراقة، ويضم قبيلتين القدادردة والشوايعية بستيديا نواحي مستغانم .ينظر: عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص: 286.

[2]- كمال صحراوي، المرجع نفسه، ص:255. .

[3]- ناصر الدين سعيدوني، أوراق جزائرية...، ص:220.

[4]- عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص ص: 254، 255.

- Rinn, Louis,Op.Cit, p : 86,94.96.

الجلابة وأهل الهبرة وشارب الريح وبطن الواد، فكانوا كلهم تابعون للبايلك مزارعون ورعاة. كما كلفت قبيلة فراقة بمهمة تجهيز عتاد الرحلات الرسمية للباي وخليفته وكذا أعوانه، وقبيلة شغران التابعة لآغا الزمالة، بحراسة أمتعة المحلات العسكرية، عندما تجوب أرياف بايليك الغرب، كما تقوم بتوزيع المؤونة والبريد وتسخير البغال وتصليح البنادق وغيرها من الخدمات لفائدة السلطة التركية العثمانية ومخزنه المحارب بهذا البايلك[1].

6-القبائل الممتنعة:

سنقدم في هذه الجزئية بعض النماذج عن القبائل الجبلية والصحراوية والتي كانت تمتنع عن دفع الضرائب للسلطة العثمانية، وقد ساعدها على ذلك موقعها الجغرافي وتضاريسها، وبعدها عن مركز الإدارة، وما دفعها في الغالب لهذا الموقف المعادي برفض تقديم الإتاوات ودفع الضرائب للإدارة العثمانية؛ حالها الاقتصادي الصعب أو المزري في بعض الأحيان خاصة مع انتشار الأوبئة أو المجاعات أو في مواسم القحط والجفاف وخاصة مع اشتدادها في أواخر العهد العثماني بالجزائر[2].

فعن السجلماسي في شهادته عن بعض قرى الظهرا عام (1150هـ/ 1737م) بالقرب من قرية الغسول يقول:" لم نجد من أعراب ذلك الموضع إلا النادر لجدب أرضهم في هذه السنة، ولم نجد عند أهل القرية شيئاً من المحتاج إليه، وذكروا لنا أنهم يقتاتون في هذا الوقت البلوط"[3]، ونفس الأمر سبقه به العياشي في وصفه لحالة الجوع والفقر والفاقة لبعض القرى الصحراوية التي مر بها عام (1076هـ/1663م) مثل: قرية لماية نواحي الأغواط:" ليس فيها إلا رحلان أو ثلاث في غاية ما يكون

---

[1]- ينظر عن الأوبئة والمجاعات والجفاف ماقاله الرحالة في سنوات وحقب متباينة بالجزائر العثمانية: العياشي، المصدر السابق، ج1، ج2، ص:80، 538،539، 546،548 ، السجلماسي، المصدر السابق، ص: 137، 141، أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص: 151، المكناسي، المصدر السابق، ص: 330، 331.

[2]- عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص ص: 255، 256.

Rinn, Louis.**OP**.CIT,p p : 86,94, 96,99.

[3]- السجلماسي، المصدر السابق، ص: 137.

من الجوع،...ولم يجد الناس ما يشترون منهم إلا الملح يبيعونه بالطعام، وكان لطف الله بهم أن الركب المتقدم أقام هناك يوماً من المطر فماتت لهم ثلاثة من الإبل وانتفع أولئك الضعفاء بلحمها"[1]. وإذا توغلنا في عمق الصحراء يروي العياشي عن زاوية عبد الله ابن طمطم بقرى الدغامشة ببلاد توات، بأن صاحبها هذا الأخير "يطعم الواردين عليه في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء "[2]، إذا كان هذا حال البعض منهم لا يجدون ما يسدون به جوعهم ويملؤون به بطونهم فكيف لهم تقديم الأتاوات والضرائب لسلطة عاجزة عن إطعامهم أو مد العون لهم. هذا أمر الأمر الآخر فبسبب هذه الظروف الصعبة امتهنت بعض القبائل مهنة اللصوصية بسبب الحاجة، مثل قبيلة العمور بالظهرا، فتسلطوا على أرازق الناس، فسلبوهم الزرع والماشية وكل ما له قيمة، كما حدث مع قرية الكراكدة نواحي البيض، إلى جانب زرع الذعر والرعب في بقية القرى كربا وبوسمغون وغيرهم[3]، وهذا الموقف تكرر كثيرا بمشاهد الرحالة المغاربة مثل: السجلماسي بشكل كبير والناصري من تخوف أهل القرى من أعراب النواحي بسبب تفشي ظاهرة السرقة والسطو من قبل الأعراب وبعض القبائل التي امتهنت اللصوصية كأولاد صولة وبوعكاز بنواحي الزاب[4]، وفليتة والأعشاش والحشم بباليك الغرب وغيرهم[5]. فإذا غاب الأمن وسلبت الممتلكات من أهل القرى والأرياف، فكيف لأهلها أن يقدموا الضريبة لسلطة عاجزة أن تأمن لهم الحماية من قطاع الطرق وممتهني اللصوصية فإن غاب مقومات الحياة من استتباب الأمن وسد الرمق من الجوع فسيعافى البدن مصدقاً لقوله صلى الله عليه وسلم:" من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا"[6]، وإن

---

[1]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 548.

[2]- المصدر نفسه، ج1، ص:80.

[3]-المصدر نفسه، ج2، ص:548، 549.

[4]- السجلماسي، المصدر نفسه، ص:154،167، المصعبي، المصدر السابق، ص: 68 .

[5]- ينظر: أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ص : 146، 147.

[6]- فقد أخرج الترمذي في سننه عن سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي، عن أبيه، وكانت له صحبة،

كان هذا الحال ليس أدومه في العهد العثماني، فقد ذكر عن محمد بن عثمان أنه أدب بعض القبائل وأرجعها لحادة الصواب وجعل منها قبائل مخزنية بعدما كانت قبائل ممتنعة [1].

فقبل أن نعطي نماذج عن هذه القبائل الممتنعة يجب أن نعطي ضبط لهذا المصطلح، فيسمى أيضاً عند المؤرخين بالقبائل المستقلة أو السايبة بالمصطلح المغربي[2]، وهي القبائل التي عرفت نوعاً من التمرد عن السلطة العثمانية، وساعدها موقعها الجغرافي على هذه الجرأة في الإفلات من سلطة البايلك، كما كان الأمر مع منطقة البيبان فعن المكناسي في وصفه لمنطقة البيبان بالشرق الجزائري الواقعة بين قسنطينة و مدينة الجزائر؛ لما لها من حصانة طبيعية جعلت فيها منعة من قبضة الأتراك أو أي سلطة أخرى:" وقد مررنا في بلاد في هذه المسافة يقال لها " البيبان " ما رأيت أصعب ولا أمنع منها فهي بيبان حقيقية لأن الطريق تمر بين جبال في وسط نهر، وربما تدنو الجبال بعضها من بعض حتى لا يبقى إلا مجرى الوداي في أضيق ما يكون كأنه الباب فلو جعلت له دفة لسدته، وقع ذلك مراراً ومن أجل ذلك سمي هذا المكان البيبان، وأهل هذه البلاد أهل إباء لا ينقادون إلى البادي أي الحاكم، بل ربما قبضوا منه عند إرادته المرور إلى الجزائر في بعض الأعوام فصار عادة لازمة"[3]، وقد بلغ بأهالي هذه الجبال التعسف في أمر الرعية وأصبحوا كقطاع الطرق يأخذون الإتاوات حتى من عامة الناس، ولا نجاة لهم أو ممر لبايلك السلطان إلا بحماية من عسكر باي قسنطينة:" وكذا القفل (القوافل) والمسافرين لا يقدمون على المسير في هذه البلاد إلا مع رفقة، ويرصد الناس ما يبعث باي قصمطينة من الخراج عند كل ثلاثة أشهر، فيبعث معه العسكر فيمر الناس معهم"[4] .

---

[1]- ينظر: أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ص : 146، 147، ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص: 69.

[2]- يعقب كمال صحراوي على مصطلح القبائل المستقلة بأنه مصطلح واسع المعنى، أما مصطلح القبائل الممتنعة فهو أكثر دقة باعتبار أن هذه القبائل تظل مطاردة حتى تخضع للسلطة وتدفع الضريبة. ينظر: كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 258.

[3]- المكناسي، المصدر السابق، ص 330.

[4]- المصدر نفسه، ص 330.

فبسبب تلك العراقيل في تحكم السلطة في زمام الأمور وفرض سلطتها على القبائل الكثيرة الموزعة على البايلكات والمستقرة في الأماكن الصعبة كالجبال والصحاري كما أسلفنا، فإنها انتهجت سياسة وسطى لا إفراط في الحرب إذا قلة الحيلة، ولا تفريط في جمع الضريبة وإن كانت رمزية؛ المهم تحصل على الولاء من هذه القبائل وتبعيتها للإدارة، كما كان مع حملة الباي محمد الكبير على منطقة الأغواط[1] والتي أرخ لها ابن هطال التلمساني خلال القرن (12هـ/18م) في رحلته العسكرية التأديبية للقبائل الممتنعة بمنطقة العمور[2] وبدير الكاف، والبيضاء وجبل خنق الملح والمدينة الخضراء، وقصر أوفل والدبداب وتاجموت وعين ماضي، وأخر محطات هذه الحملة كان تأديب قبائل مدينة الأغواط[3]، وقدموا بعد الاستسلام الولاء والطاعة للباي، وقد فرض عليهم بعدما عفى عنهم، في مقابل دفعهم مائة خادم، وخمسة آلاف ريال بوجو، ومائتين وخمسين بعيراً وأربعة أفراس من عتاق الخيل ومائتي ثوب، وهذا زائد على القدر الذي يعطونه إياه كل عام، وتركوا له أولاد كبرائهم رهائن عنده لحين يسددوا ما عليهم من إتاوات[4].

غير محمد بن عبد السلام لما مر بمدينة الأغواط عام (1196هـ/1782م) علق بهذا القول عن هذه المدينة و عن قرية عين ماضي فهي: "جامعة مشتملة على ما يناهز ألف رام–أي مقاتل– ولها كأهل عين ماضي قوة ومنعة رامتها الأتراك فلم يقدروا إلا أنهم يداروهم"[5]، قد يكون صحيحاً ومن أستطع أن

---

(1)- **الأغواط**: تقع على نهر مزي الذي يتخذ منابعه من جبل عمور، وينتهي بعد أن يحمل اسم الجدي ملغز جنوبي قسطنية، ينظر: إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، الجزائر: المكتبة الوطنية للكتاب: ط: 1983م، ص: 51.

(2)- **منطقة العمور**: تكاد تكون جنة يانعة مياة دافقة، وخضرة وخصب مثمر ، شمالها النجود وجنوبها رمال الصحراء، وأهم هذه الجبال جبل سيدي عقبة الذي يرتفع 1707متر، ينظر: أحمد توفيق المدني، **جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية**، مطبعة العربية، الجزائر : 1984، ص: 38.

(3)- ينظر: ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص ص: 35، 36، 40، 41، 44، 46، 48، 49...، 67، 68.

(4)- المصدر نفسه، ص: 69.

(5)-محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص: 206.

يخضعهم للسلطة العثمانية إلا الباي محمد الكبير أو صالح باي عام (1202هـ/ 1788م)،كما أسلفنا أما أغلب البايات فقد كانوا يداروانهم كما قال محمد بن عبد السلام .

وبسبب هذه الظروف الصعبة والتي كانت تعاني منها عدة قبائل ممتنعة عن السلطة، كالإتاوات والغرامات الثقيلة التي تفرض عليها من قبل السلطة، عند الانقضاض عليها، دفعت بالعديد من هذه القبائل إلى تغير منهج عيشها من الاستقرار إلى الترحال؛ مثل: سكان الونشريس، وسكان الأنجاد بجبل طرارة على الحدود المغربية[1].

ونظراً لأهمية هذه القبائل بالنسبة للبايلك عمد إلى إخضاعها باتخاذ وسيلة ناجعة، وذلك بمنع التعامل الاقتصادي معها، خارج الأسواق الرسمية والأسبوعية التي أنشئت بالقرب من مواطنها، بهدف إجبارها على قبول قرارات السلطة أو الانزواء تحت قبضتها، فهذه الأسواق كانت تحت إشراف قياد أتراك يستعينون بحاميات عسكرية يدعمها فرسان المخزن، فحين تقصد هذه القبائل الجبلية والصحراوية الأسواق المذكورة، تدفع رسماً يساوي عشر ثمن البضاعة المحمولة إلى السوق، وإلا منعت من البيع بل وحتى اقتناء ما كانت بحاجة إليه[2].

فعن قبيلة أولاد نايل كانت في أكتوبر 1773م، تابعة لبايلك تيطري جغرافيا، لكن بسبب ترددها على سهول قسنطينة وأسواقها، كان عليها تأدية الإتاوات لبايلك الشرق، ولكن بسبب شقها لعصا الطاعة أخذ صالح رايس حملته ضدها وأظهر عنفه الشديد ضد المجتمع الريفي بنواحي الجلفة وبوسعادة[3]. وفي أثناء رجوعه مع محلته توقف في جنوب قسنطينة وعاقب العصاة من أولاد زايد من قبيلة البرانية، ونظم حملات ضد أولاد بوعون وأولاد عمور بالأوراس،كما عاقب دشرة نميلة أشد العقاب، وفي نفس السنة إتجه نحو زنينة وأفلو وتاجموت والأغواط، واضطروا لإعلان الخضوع، وما

---

[1]- ينظر:كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 258.

[2]- ينظر:ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص:110.

[3]- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 199.

يلاحظ هنا أن هذه المناطق تارة تخضع لبايلك الغرب كما حدث مع محمد الكبير وتارة مع بايلك الشرق زمن صالح باي.كما أخضع مناطق الزيبان بعد شنه لأربع حملات ضدها ، وتوج نشاطه بنواحي الزيبان بمهاجمة توقرت وإخضاع أمرائها من بني جلاب سنة، فقدرت الغرامة التي فرضت عليها بثلاثمائة ألف ريال يضاف إليها مجموعة من الخيل والعبيد ، وذلك مقابل الحصول على عهد الأمان ونيل رسوم التولية على إقليم وادي ريغ[1].

لم يكن حال العقوبة التي فرضتها السلطة على القبائل الممتنعة كلها كالتي كانت مع قبائل الأغواط زمن محمد الكبير وصالح باي، فليس كل البايات كهذين الرجلين في القوة الجأش والتصميم وإحكام سيطرته على بايلكاتهم، فلذلك فقد انتهج بقية البايات سياسة إمساك العصا من الوسط لإحداث التوازن كما قلنا، فلم يكن همها الضريبة فقط، لان الواقع الجغرافي لهذه القبائل فرض هيمنه، فكانت ترضى بالقليل بولاء ظاهري، حتى لا يوالوا الأعداء ضدها كالأسبان والنفوذ المغربي والتونسي.

7- قبائل الرعية:

رعية جمع رعايا(Reaya): وتعني المواطن العثماني المطيع للدولة، وتستخدم على وجه الخاص للقروي الذي يدفع الضريبة، وأصبح فيما بعد يطلق على غير المسلمين من أتباع الدولة[2]. هذا التعريف العام لمصطلح الرعية، وبالجزائر هي القبائل التي لم تحظ بأي امتياز من السلطة التركية، وهي التي كانت تدفع الضريبة كما كانت تفرض عليها أعمال شاقة، فكانت وضعيتها أسوأ من وضعية تلك القبائل التي لم تكن تخضع للسلطة المركزية[3]، إلا أنها كانت تمثل المصدر الأساسي لاقتصاد

---

[1]- ينظر: هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص: 154.

-Eh.Feraud. Bendjellqb Sultans Toggourt NOTRS historiques sur la province de constantine in, R.A,N°24,Année 1879 ,p109.

[2]- سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 128.

[3]- ناصر الدين سعيدوني، **الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر دار السطان أواخر العهد العثماني (1789- 1830م)**، الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة: 2013م، ص: 420.

البلاد، لما توفره من مداخيل مالية، وإنتاج زراعي وحيواني، حيث كانت قبائل الرعية مطالبة بدفع الضرائب النقدية والعينية[1]، والضرائب الشرعية والإضافية، أما عن موقعها الجغرافي فهي في الغالب القبائل المقيمة بالسهول الخصبة، بالدواوير والمداشر والقرى والمنتشرة في جهات تسهل مراقبتها من قبل قبائل المخزن والحاميات العثمانية. يقسم حمدان خوجة:" سكان الأماكن المنخفضة أو السهول إلى قسمين: أهل الصحراء الرملية وأهل التل ساكني الجبال الصغيرة القليلة الارتفاع، والجميع من أصل عربي ويتكلمون اللغة العربية"[2]، كما يعرف بمهنها في قوله:" مهنتهم كلها فلاحة مسكنهم تحت الخيام المصنوعة من الوبر، ليس لهم مكان مستقر، ينزلون حيث يجدون المرعى لماشيتهم، ونظراً للأهمية التي يولونها للزراعة ولما يريدونه من حماية لغللهم وضمان لأملاكهم فإنهم يدفعون طواعية ضريبة لرئيس الإيالة "[3] .

فمن خلال ما سبق نستوحي إشارة مهمة أدلى بها حمدان خوجة في دمجه لصفة الترحال والاستقرار لأهل الأماكن المخفضة وهم أهل الصحراء وأهل وبر وأهل الجبال الصغيرة قليلة الارتفاع وهم أهل التل، وكلهم من أصل واحد ولغتهم واحدة، وقد جمعوا بين الحل والترحال بين الرعي والفلاحة، ويشتركون في خانة واحدة وهي الخضوع للسلطة الحاكمة كقبائل رعية، وهنا يظهر الترادف في المعنى بين الريف والبادية بصورة جلية كما أسلفنا، هذا من جانب ومن جانب أخر يدخل ضمن مفهوم الرعية بالمعنى الواسع إلى جانب الفلاحين، التجار الصغار والحرفيون، وغيرهم المستغلون في الأعمال الفلاحية والصناعية سواء بالريف أو المدن وليس بالمفهوم الضيف المقتصر على أهل الريف

[1]- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 179.

[2]- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص: 31

[3]- ينظر: المصدر نفسه، ص: 31، جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص: 194.

فحسب، كما لم يكونوا يخضعون للسلطة الحاكمة فقط؛ بل كانوا أيضاً تحت ضغط الإقطاعية المحلية والإقطاعية التركية التي تكونت من أسر البايات والموظفين السامين[1].

وبتفسير أدق كانت معظم الأراضي الفلاحية الخصبة في يد قبائل المخزن، والقبائل المتعاونة، وبعض الأسر القوية، أما نصيب قبائل الرعية كان ضئيلاً جداً، بل كان منهم من لا يملك شبراً واحداً، وهذا ما دفع بعض قبائل تدخل طواعية كقبائل رعية للاستفادة من قطعة أرض، وهو قول حمدان خوجة:" فإنهم يدفعون طواعية ضريبة لرئيس الإيالة "[2]، مقابل تقديم خدمات للإدارة، ودفع الضرائب المقررة، وقد قدر عدد قبائل الرعية لهذا السبب ارتفاعاً ملحوظ مع الوقت، حسب المساحة الأراضي الإجمالية التي كانت تستغلها، والتي قدرت بحوالي أربعة ملايين وأربع مائة وخمسة وعشرين ألف (4.425.000) هكتار [3].

أما عن ثقل وتعدد هذه الضرائب فأن الرحالة Peysonnel: يقول عن حالة الفلاح بايلك قسنطينة،:" إن الضرائب لم تكن سبباً في فقر الفلاح بهذه المنطقة، بل كانت حافزاً له على زيادة إنتاجه، لأنه لولا الضرائب لاكتفى بالقليل من الإنتاج، كما أنني لم ألاحظ فرقاً بين معيشة الفلاح الخاضع للنظام الضريبي والفلاح الذي لا يدفع الضريبة[4].

وهذا ما يؤكده حمدان خوجة بصورة أخرى لما أراد الدوق دوروفيكو بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر أن يفرض الضرائب على قبائل الرعية بسهول متيجة كتلك التي كانت تفرض عليهم عهد

---

[1]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص: 194.

[2]- ينظر: حمدان خوجة، المصدر نفسه، ص: 31، أرزقي شويتام ، المرجع السابق، ص: 179.

[3] -أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص:179.

[4]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص: 194،

Peyssomel, pp:212,213

Desfontaines:voyages dans les règences tunis et ALger,Paris,1838.

حكومة الأتراك فردوا عليه:" إننا كنا ندفع الضرائب للأتراك مقابل قيامهم بتهدئة البلاد وتأمين الطرق وحمايتنا الخ...فافعلوا مثلهم وسندفعها لكم "[1] .

أما عن تنظيمها فكان معقداً لاختلافه من قبيلة لأخرى، فهناك من كان خاضعاً لشيوخ المخزن أو أغوات الدوائر أو القياد أو الخوجات أوخلفاء البايات، وهناك من كان تابعاً لخوجة الخيل وآغا العرب بمدينة الجزائر، وقد تعود طبيعة هذا التقسام في قيادتها للانتفاع بخدمتها والظفر بالنصيب من الضرائب التي كانت تقدمها، والمعين لهم في ذلك سهولة التحكم فيها وإخضاعها [2].

ففي دار السلطان مثلاً كانت الرعية التي تتمركز في المنطقة الممتدة من بوحلوان غرباً إلى يسر شرقاً تابعة لآغا العرب بدار السلطان، كما كان الآغا يشرف على تلك القبائل بواسطة القياد الذي تساعدهم في مهامهم فرق الزمالة والعبيد وزمول في سباو، وفي وطن حجوط بني مناد، وبني خليل بجبل مسعود وغيرهم [3].

أما تنظيم قبائل الرعية في البايلك الثلاثة الأخرى يكاد يكون نفسه في دار السلطان، إلا أن لكل بايلك خصوصياته. فنظام الرعية في بايلك الغرب معقد في التبعية والولاء لعدة جهات وفي الاستقرار من جهة أخرى، وليسهل السيطرة عليها تم تقسيمها في التسيير لعدة مجموعات؛ مجموعة تخضع للباي مباشرة، وهي بنو عامر ومجاهر، ومجموعات أخرى يتقاسم الإشراف عليها: خليفة الباي وقايد فليتة وقايد المدينة وقايد الجبل وقائد اليعقوبية الشرقية واليعقوبية الغربية[4]. فمثلاً عن خليفة الباي فمن وظائفه ومهامه التوسط بين قبائل الرعية والبايلك لحل النزاعات، في حال ما تمردت هذه

---

[1]-ينظر: حمدان خوجة، المصدر السابق، ص: 51.

[2]- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص:180 .

[3]- أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص: 48

[4] -سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص ص: 107، 108،كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 259.

القبائل وصارت ممتنعة فإذا أذعنت، شفع لها هذا الخليقة عند الباي لكي لا يوقع بهم الإبادة أو قتل الرجال، كما حدث مع أهل الأغواط في حملة محمد الكبير ضدهم[1] .

ومن بين قبائل الرعية الموجودة ببايلك الغرب: أولاد قصير، أولا سعيد، الأحرار(الأحرار الشراقة، الأحرار الغرابة)، قبائل المحال، بنو عامر، فليتة، الحشم، هازج، بنو راشد، أولاد سيدي بن يحيى، بلاد جندل، أولاد دحو بن زرفة[2]، وقبيلة هاشم، وعن هذه القبيلة الأخيرة يقول الرحالة الألماني موريتس فاغنر في انطباعاته حولها فهي تسكن قرب سهل غريس وينقسمين إلى قسمين هاشم الشراقة وهاشم الغرابة، وهم على قدرة تامة على تكون جيش تعداده 3000 فارس و1000راجل، كما بدى له أن عدد أفراد القبيلة بقسميها قد لا يكون أقل من قبيلة بني عامر، ولكنها أكثر غنى وأشد قوة وعزيمة، بل إن هاشم تفوق حتى قبيلة الغرابة في وحدة كلمتها، وخاصة لموقعها المركزي قرب معسكر[3]. ومن هاشم أولاد سيدي عبد القادر بالمختار الذين منهم الأمير عبد القادر[4].

أما عن بايلك التيطري فقد وجد بها عدد من قبائل الرعية منها: قبيلة حسين بن علي، وبني عيش وهوارة وريغة ومنانشة وزورة، وبني يعقوب وأولاد ناجي وأولاد ديار وأولاد هديم، وبني حسن

---

[1]- ولكن تلك الشافعة للباي كانت بمقابل مالي باهض، فقد دفعوا غرامة تقدر ب: مائة خادم، وخمسة آلاف الريال بوجو، ومائتين وخمسين بعيراً وأربعة أفراس من عتاق الخيل، ومائتي ثوب، وهذا زائد على القدر الذي يعطونه إياه كل عام، وتركوا أولاد كبرائهم رهائن لحين يسددوا ما عليهم من إتاوات. ينظر: ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص: 69.

[2]- ينظر: أحمد بن سحنون، المصدر السابق، ص ص: 146، 147، الطيب بن مختار الغريسي، **القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم**، المطبعة الخلدونية التلمسانية، ط1:(د.ت)، ص ص: 328،334،...349، ابن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، المصدر السابق، ج1، ج2، ص ص: 116، 332، 325، محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص:144.

[3]- أبو العيد دودو، المرجع السابق، ص ص:43، 55.

[4]-كمال صحراوي، المرجع السابق، ص ص:270، 271.

والربيعة وأولاد معرف وأولاد علان وغيرها. وقد وضعت القبائل القاطنة بنواحي المدية تحت قيادة الباي أما البعيدة فقد عين عليها شيوخ هناك من كان تابع للأغا وخوجة الخيل بدار السلطان[1].

وفيما يخص بايلك الشرق فقد بلغ عدد القياد الذين لهم نفوذ على الرعية 24 قائداً، و11شيخاً[2] فكانت قبائل الرعية تتمركز في المناطق السهلية الداخلية، مثل : عين مليلة وميلة وسطيف وعين بسام وواد الزنادي والمسيلة والعامة، وفي السهول الساحلية مثل: عنابة وسكيكدة وكانت أهم القبائل هي قبائل عامر الشراقة والغرابة والسقنية وديرد، إلى جانب بني ثور، بني خلفون، بني سليجم ، نزليوه، بني عريف، أعرور، عطوش، حمامته، بني خالفة، بترونة، قسم من معاتقة، بني دوالة، فرديوة، بوهينون، حسنوة، بني عيسى، ترافة[3]. ومن أمثلة القبائل التي كانت تارة تكون تحت سلطة بايلك الغرب وأحيانا الشرق قبائل بوادي مدينة الأغواط حسب وصف قرقيس هارتز:

– قبيلة الأرباع بناحية الاغواط[4]: في اوخر القرن 17 جاءت قبائل الارباع من جبال الزاب ببسكرة إلى منطقة الأغواط وسمي المكان الذي تمركزو به بالأرباع، وكانوا بدوًا متأصلين مند قدومهم إلى بلاد المعرب إبان الهجرات الهلالية، عرفت هذه القبيلة بتربية الأغنام والخيول فكانوا من المحاربين الأشداء، ودأب الأرباع أن يتتبعوا المناطق العشبية في فصل الصيف الضرورية لنشاطهم الاقتصادي بتوجههم إلى المناطق الواقعة بين سيدي عيسى وعين وسارة وطاقين، أما في فصل الشتاء فكانوا يتوجهون جنوباً حتى منطقة الضاية بغارداية حتى واد الريح للتموين بالتمور والماشية والجمال. ولم يتجاوز عدد سكان هذه القبيلة سبعة ألاف نسمة في نهاية القرن الثامن عشر، وكان لانعدام الأمن وحالة الخوف والتوجس الدائمة من الأعداء السبب الرئيس في تكون هذه الخاصية لنمط معيشتها..[5]

---

[1]– أرزقي شويتام، الرجع السابق، ص:185 .

[2]– سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص:108.

[3]– ينظر: أرزقي شويتام، الرجع السابق، ص ص:182 ، 184.

[4]– ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ص:205.

[1] -Goorges Hertz ,. Op Cit, P142.

تعتبر قبائل الأرباع في منطقة الأغواط مثال للمجتمع البدوي الرحالة، على الرغم من أنهم لا يمثلون أكثرية عددية في المنطقة ولا يمتلكون من الموارد والثروة التي تمتلكها قبائل صحراوية أخرى مجاورة لها مثل قبيلة أولاد نائل وقبيلة أولاد سيد الشيخ، وهي قبائل تفوقهم عددا بأضعاف كثيرة ومناطق تواجدهم ورعيهم أوسع بكثير، وهو الأمر الذي جعل الأرباع يواجهون مشاكل ومنافسة في التواجد بمناطق الكلأ وفي حركة التنقل الموسمية بسبب أخطار السطو واللصوصية التي كانت تعترض التنقلات بصورة عامة بين شمال الصحراء والمناطق السهّبية.....[1]

وتنقسم قبيلة الأرباع الى ثلاثة مجموعات من البدو الرحل ويتراوح عددهم بين ستة آلاف وسبعة آلاف نسمة هم: أولاد يعقوب، وأولاد خالد وأولاد سعد بن سالم لكل منهم حوالي ألفين نسمة وهي فرق تنشط في مجال رئيسي هو رعي الغنم والحيوانات، وشكل اندماجهم وتلاحمهم وجودا حقيقيا في بوادي الاغواط[2].

– **قبيلة المخاليف:** ينحدر المخاليف من سلالة المرابطين على عكس الأرباع والاغواطيين، وكان استقروهم في جبل لزرق شمال الاغواط في القرن الخامس عشر، وهم من الساقية الحمراء جنوب المغرب الأقصى.

عرف المخاليف بعلاج الجمال الجرباء وكانوا يصلون إلى مناطق بني ميزاب لعلاج جمالهم، حتى شاع عنهم تسميتهم بالمخاليف الجرب والقصد هنا ليس الإنسان وإنما جرب الجمال، كما برع المخاليف في صيد النعام وهو الأمر الذي كان يتطلب وجود رجال يقاومون الوقوف لعدة أيام في أشعة الشمس الساخنة قرب الكمائن المنصوبة للصيد، وكثيرا ما كان ينقطع بهم الزاد أثناء الصيد، وكان النعام الذي يصطادونه يقومون ببيع دهونه إلى صيادلة قصور الاغواط التي تستخدم في علاج

(2) -Goorges Hertz, Op Cit, P 129.
(3) -Goorges Hertz, Op Cit, P133.

الأمراض خاصة الروماتيزم وكانوا يبيعون ريشه إلى بني ميزاب[1]... وكان الجزء الأكبر من تعداد القبيلة يتمركزون قرب الجبل لزرق، ممتهنين عمل الزراعة والنجارة الخشبية عبر استغلال الأشجار الجبلية ليصنعوا الأطباق والحصائر المنسوجة من الحلفاء وحتى استخراج الصمغ من الشجر[2].

وبصيغة مجملة فمن بين المهام الاجتماعية لقبائل الرعية تموين مدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال وموظفي الأوجاق بالمنتجات الزراعية والمواد الغذائية وكذا المساهمة في الفرق المسلحة التي تجند بأمر من آغا العرب[3].

هـ- القبائل المتحالفة: هناك قسم أخر يعرف بالقبائل الحليفة،، لا هو خادم كالمخزن ولا هو خاضع كالرعية ولا هو متمرد كالممتنعة، ولكن يمكن إدراجه ضمن قبائل المخزن باعتبار الوظيفة الأمنية التي يؤديها للبايلك، والمتمثلة في إقرار الهدوء في المجتمع الريفي، باستخدام سلاح أخر وهو سلاح السلطة الروحية، وهو ما سهل للبايلك مهمة جمع الضريبة، وإقرار مستوى من النظام يحفظ للسلطة هيبتها[4]. كما أن هذه القبائل تشكل تجمعات قبيلة كبيرة تعرف بالأحلاف أو المشيخات أو النجوع[5]، وقد أضطر البايلك إلى التحالف مع شيوخ وزعامات محليين سواء دينية أو قبلية، والتي لم تعطه ولاءها حتى ضمنت امتيازات هامة، كجمع الضرائب من المناطق التي بها قبائل الرعية،

---

[1]- **بني مزاب:** نسبة لسكان واد مزاب في هذا الوادي يوجد ستة بلدان وقرى أكبرها غرداية، تضم هذه البلدة ألفين وأربعمئة مسكن، بما في ذلك المساجد، ولا يستخرج الماء إلا من الآبار، وفي وادي ميزاب يكثر أشجار نخيل، لها سور وسوق كبير ومنارتان وبوابتان في السور وهي ليست نفوذ أي سلطان ويتكلم السكان فيها البربرية.ينظر: إبراهيم بن بحمان المصعبي، رحلة المصعبي، ص ص: 42، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ط2، ج2، ص: 254. ينظر: ابن الدين الأغواطي: المصدر السابق، ص: 90.

[2] -Goorges Hertz, Op Cit, P 142

[3]- سعيدوني، الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر، المرجع السابق، ص ص: 420، 421.

[4]- كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 273.

[5]- سعيدوني، ولايات المغربية الثلاث، المرجع السابق، ص: 121.

واحترام الحكام لحق اللجوء إلى زواياها، إضافة إلى أهم مكسب والمتمثل في حق اختيار الشيوخ، وهو ما لم يتوفر حتى لقبائل المخزن التي كان قادتها يعينون عليها من قبل الباي أو الداي [1].

حتى أضحى هؤلاء الشيوخ أو الزعماء المحليين الذين أصبحوا بحكم العادة والعرف يتوارثون حكمها، معتمدين في ذلك على نفوذهم الديني أو كفاءتهم الحربية أو أصالة النسب، وقد غلب على هذه العائلات التي تولت حكم المجموعات القبلية المتحالفة في غرب البلاد الدافع الروحي لعائلات "المرابطين"، والطابع الحربي في شرق البلاد وجنوب التيطري" الأجناد"، بينما العائلات التي تولت زعامة هذه المجموعات القبلية الحليفة بمناطق جرجرة والبابور والصومام اعتمدت في فرض زعامتها على أصولها العريقة " الأشراف" أو امتثالها لرأي الجماعة " الخروبة "[2].

وكما أسلفنا سابقاً فإن الإدارة العثمانية حتى تستطيع بسط نفوذها على أقصى منطقة بالجزائر فقد قامت بعدت إجراءات منها دمج بعض القبائل في نظامها العام وهي قبائل المخزن، مثل: الزمول، والدوابر، والعبيد، ومن لم تسعفها الظروف بأن تجعلها قبائل مخزنية تابعة لها، استحدثت استراتيجية أخرى وهي التحالف مع بعض الزعامات المحلية، القائمة على أساس قبلي أو ديني، أمثال مقران بمجانة، وبني جلاب بتقرت، وبوعكاز وابن عاشور بفرجبوة، وبن قانة شيوخ العرب وحكام بسكرة، وأسرة بن ناصر حاكم خنقة سيدي ناجي[3]، وبن شنوف حكام الزاب، وبوعكاز الدواودة شيوخ العرب وحكام الصحراء، والحنانشة والحراكتة، وابن عز الدين وبن حبيلس في بايلك قسطينة،

---

[1] –أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 171، كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 273.

[2]–سعيدوني المهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص:108.

[3] –**خنقة سيدي ناجي**: هي بلدة جبلية تقع على وادي العرب بولاية بسكرة حالياً، أما عن الأسرة المؤسسة للبلدة فهم من أبناء وأحفاد أسرة قاسم بن ناجي التي هاجرت من الأندلس بعد سقوط غرناطة، واستقرت بتونس ثم تفرقوا البعض منهم عاش بتوقرت والبعض الآخر بواد سوف والبعض الأخر هو المبارك بن قاسم بن ناجي سنة(1011 هـ/1601م) شرقي بسكرة بحوالي 100كلم، وسميت بالخنقة لأنها تقع بين جبلين، وتميز أهلها بحب العلم واشتهرت بتخريج ثل من العلماء. ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 521، الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 152، فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي، المرجع السابق، ص ص:219، 221.

وآل القاضي في منطقة القبائل، وأولاد سيدي الشيخ، والحشم في بايلك العرب، وبنو مزاب بقرى غرادايا[1]، وأولاد نايل[2] في بايلك التيطري[3].

ومن تلك القبائل أو الزعمات المحلية نذكر أمثلة: فعلى مستوى اليعقوبية ببايلك الغرب مع سيدي بوبكر بن الدين ولد عبد القادر بن أبي سماحة المعروف بسيدي الشيخ، الذي ظل يحظى باحترام البايات لأنه يسهل عليهم مسألة الجباية، حتى أنهم كانوا يكتفون ببعث عدد قليل من الجنود عندما يحين أوانها[4]. فقد تمتعت قبيلة أولاد سيدي الشيخ [5]بامتيازات ضخمة لم تعط لأحد غيرهم،

---

(1)– يقول عن ولائهم عبد الرحمن التنلاني:" لا هم في طاعة مولانا سليمان نصره الله ولا في طاعة سلطان الجزائر ووهران وتلمسان...وهم في التسمية تحت طاعة صاحب الجزائر، وفي الحقيقة ليسوا تحت طاعة أحد "، ينظر : عبد الرحمن أبن ادريس **التنلاني التواتي الجزائري (ت 1233هـ/ 1817م) إلى الجزائر العاصمة**، المصدر السابق، ص ص: 240، 241.

(2)– عن أولاد نايل من أكبر القبائل العربية في الجزائر، تتفرع عنها أعراش كثيرة وعاصمتهم الجلفة، يقول عنهم عبد الرحمن التنلاني:" هم أكثر قبائل العرب رجالاً وماشية وخيلاً ومساكنهم ما بين مدينة قسنطينة والجزائر وبوسعادة وواد الجريد امزاب ووركلة والقرارة، ونعم العرب هم، وهم بيت رحمة ما رأيت وما سمعت من يعظم العلماء وحمالة القرآن مثلهم ". ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص: 153، التنلاني، المصدر السابق، ص: 242.

(3)– ينظر: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص:171، جميلة معاشي، المرجع السابق، ص ص: 31، 98.

(4)- كمال صحراوي، المرجع السابق، ص:271.

(5)- **قبيلة أولاد سيد الشيخ**: هي قبيلة عربية عريقة بالغرب الجزائري، تتربع على مساحة كبيرة بضواحي البيض، كما تتداخل أراضيها من ناحية الشمال والغرب مع حلفائهم التاريخيين من قبائل حميان(الشراقة والغرابة)، أما عن نسبهم فهم أولاد سيدي الشيخ البوبكريين من نسل أبي بكر الصديق التيميون الأجواد؛ نسبة لبنو تيم، إحدى بطون قريش يعود تاريخ دخولهم للمغرب العربي إلى القرن 14م، حيث دخل أسلافهم المغرب الأوسط بقيادة سيدي معمر بن سليمان العالية، مع القبائل الهلالية في الهجرة =العربية الشهيرة (التغريبة الهلالية)، وكان استقراره الأول مع تكاثر أعدادهم بصحراء شلف (من حدود شلف إلى منطقة البيض وصولاً لواحات فجيج بالمغرب الأقصى. وقد برز من خلف سيدي معمر التيمي رجل يدعى سليمان بن أبي سماحة الذي خلفه =حفيده عبد القادر بن محمد وقد أشتهر بالزهد والتقوى والتصوف وأثرت عنه كرامات وعرفت عنه طريقته الشيخية نسبة له، وأصبح له أتباع كثر ومريدين، من مؤلفاته "الياقوتة" وغيرها من القصائد في الزهد والفقه والتقوى. كما يعتبر هذا الأخير المؤسس والموحد الحقيقي لقبيلة أولاد سيد الشيخ، وهي التسمية التي أطلقت على البوبكريين الأجواد من بعد ذلك حتى اليوم.ينظر: محمد =بن عبد السلام، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص: 194، خليفة بن عمارة، سيرة البوبكرية أجداد أولاد

حيث لم يعف سادتهم فقط من الضريبة، بل كل أتباعهم، وإذا انتقل واحد من أشرافهم إلى وهران بعث الباي الفرقة الموسيقية بمعية مجموعة من الفرسان لاستقباله، ثم يغدق عليه العطاء مادام ضيفا عنده، دون أن ننسى ذكر الهدايا التي كانت ترسل كل سنة تقريباً إلى زعيمي أولاد سيدي الشيخ الغرابة والشراقة [1].

فعن العياشي في حديثه عن أحد أولاد سيد الشيخ المعروف بأبي حفص وعن التقدير الذي كانت تحظى به هذه الأسرة العريقة من قبل الحكام والمسؤولين والعامة على حد سواء ونفوذهم الروحي الذي غطى كل النواحي الجنوبية الغربية لبايلك الغرب، فمن:" قرية القليعة[2] كان ينزل الشيخ أبو حفص بن الولي سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان ابن سماحة، ويعرف بأهل بلده بسيدي الشيخ، وأولاده حتى الآن يدعون أولاد سيدي الشيخ، وله حرمة وصيت في هذه النواحي يمها وصحرائها خصوصاً ولده هذا سيدي أبو حفص، فله هدي وصيت حسن وتنسك، مثابر على فعل الخيرات من جهاد وحج، فقد أفنى عمره في التردد على الحرمين الشريفين، وربما رجع من الطريق قبل أن يصل، ولم يزل كذلك إلى أن توفي في سنة إحدى وسبعين وألف، ودفن عند والده بمقبرتهم المعروفة بالأبيض قرب بوسمغون، ... تؤثر عنه كرامات وله أتباع، وكان يسير غالباً للحجاز بنسائه وأولاده ويعامله الناس كثيراً الأمراء فمن دونهم، ويتبركون به"[3]. فمن خلال النص يتضح أن هذا الأخير كان

=سيدي الشيخ (من سيدي معمر أبو العالية إلى أبناء سيدي سليمان بن بوسماحة، سيدي محمد، لالة صفية، سيدي أحمد المجدوب)، **تاريخ هيجيوغرافية الجنوب الغربي الجزائري، القرن 14، 15، 16م**)، تر: محمد قندوسي، وهران، الجزائر: مكتبة جودي مسعود، ، ط1: 2002م،ج1، ص: 85

[1] –Louis Rinn , **Nos frontières Sahariènnes** ,Revue Africaine,vol N°30 , 1886 ,P179.

[2] –العياشي، المصدر السابق،ج1، ص ص: 111. 112.

[3] –**القليعة:** وهي قرية حصينة على حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه، وبها آبار كثيرة طيبة الماء، ونخيل ليس بكثير، وهي من طاعة سلطان واركلا. وسكانها يسمون الشعانبة، والمسافة بين المنيعة وورقلة، مسيرة خمسة أيام. ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 111، ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 91.

مجاهداً ضد الأسبان، كما أثر هذا الجهاد عن والده سيد الشيخ ومقاتلته لهم بمدينة وهران، ويقال أنه استشهد في إحدى المواقع ضدهم عام 1615م، وغسل في منطقة نسبت لهذا الحدث "المغسل" قرب الكراكدة نواحي البيض[1].

كما مثل ذلك التحالف بين البايلك وأولاد سيدي الشيخ منفعة للبايك في التصدي لأطماع امتداد المغرب الشريفي في النواحي الجنوب الغربي، فقد اعتبرت قبائل أولاد سيد الشيخ حائل في وجه التهديد المغربي، ولم تكن الامتيازات التي منحها أيها البايلك تساوي شيء في مقابل تحقق هذا الهدف، حتى يتفرغ للثورات التي كانت تشتعل في جهات مختلفة من البايلك.

ومن الأسر البارزة ببايلك الشرق والتي جاء ذكرها في كتب الرحالة المغاربة، أسرة بوعكاز الدواودة شيوخ العرب وحكام الصحراء، فعن هذه الأخيرة فقد ذكرت بصورة مرعبة للرحالة المغاربة فكونوا بمثابة قطاع طرق لا يمر بساحتهم، إلا بشق الأنفس، وذلك ما صرح به كل من العياشي في منتصف القرن السابع عشر والسجلماسي في المنتصف الأول للقرن الثامن عشر و ابن بحمان المصعبي في نهاية القرن الثامن عشر وكلهم تشاركوا نفس الهواجس والمعاناة من قبيلة بوعكاز بمنطقة الزيبان[2]، وقد شاركتهم مهنة الظلم والسطو على الحجاج قبيلة صولة كما وصفها المصعبي في أبياته هاته:

كـــأولاد عـــكاز وأولاد صـــولـة وغيرهم من كـــل طاغ معادياً[3]

أما عن سلاطين بني جلاب ويسمون أيضاً سلاطين واد ريغ أسست هذه السلطنة ببني جلاب بتقرت نسبة إلى سليمان الجلابي، امتد حكمها أربعة قرون، تداول عليها ستة وثلاثين حاكماً، وقد

---

[1] –العياشي، المصدر السابق،ج2، ص: 584. وهناك روايات شفوية تتناقل بين أحفاد هذه الأسرة حتى اليوم عن ذكرى استشهاد جدهم سيد الشيخ وتغسيله بهذا الموضع مع كرامات تؤثر عنه.

[2] –ينظر: الفصل الرابع، عنصر أثار المجاعات والكوارث الطبيعية، ص:278، العياشي (رحلته بالجزائر عام: 1076هـ /1663م) ، المصدر نفسه، ج2، ص ص:538 ،539. السجلماسي (رحلته عام:1150هـ/1737م)، المصدر السابق، ص ص:151، 159.

[3]–ابن بحمان المصعبي(تاريخ الرحلة: 1196هـ/ 1783م)، المصدر السابق، ص: 68.

بلغ نفوذهم حتى منطقة وادي سوف ووادي مية، عاصمة ملكهم تقرت ونفوذها يشمل أربع وعشرين قرية حسب قول الأغواطي[1]، غير هناك من يقول غير ذلك فقد وضع بني جلاب عاصمتين لإمارتهم الأولى "تقرت" والثانية "تماسين"، زعامة المدينتين بين أبناء أسرة بني جلاب، الفرع الرئيسي يحكم "تقرت" وأبناء العمومة يتزعمون "تماسين"، وهذا ما أكده العياشي في قوله عن تماسين:" بلدة كثيرة العمارة والنخيل وأميرها ابن عم أمراء تقرت وهو كالمستقل في بلده"[2]، وعن تقرت يقول:"أمراء هذه البلدة أولاد بني جلاب، وأسلافهم من بني مرين، ووالدهم كان من أمراء العدل على ما يحكى عنه، وأولادهم على سيرته لا يقدمون على أمر إلا بعد سؤال متفقهتهم"[3]، يقول أبو القاسم سعد الله في حكم بني جلاب بأنه شمل في معظم الأوقات منطقة وادي ريغ ووادي سوف وورقلة ووادي ميزاب، وكانوا خلال العهد العثماني مستقلين تارة وتابعين لبايات قسنطينة تارة أخرى وبالأخص في فترة الحكام الأقوياء الذين كانوا يفرضون عليها سلطانهم بقوة السلاح أمثال الحاكمين العثمانيين صالح رايس الذي أخضعها سنة 959هـ/ 1552م، وصالح باي سنة 1202هـ/ 1788م [4]، وأحياناً يكونوا تحت ضغط بايات تونس[5]. وهذا شأن الحكام العثمانيين في العديد من الأحيان مع القبائل المتحالفة، فقد كانوا يشنون عليهم حملات عسكرية على كل من حاول منهم

---

[1] – ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 100.

[2] –ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 119،

[3]–ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص: 122، يمينة بن صغير حضري، قصور منطقة وادي ريغ قصر تمرنة القديمة نموذجاً مابين القرن (8هـ- 13هـ/14م-19م) ،المرجع السابق، ص: 272.

[4]– تكلم محمد بن عبد السلام عن الشيخ أحمد أمير تكرت كان ذو منعة وثروة حكم ثلاثين سنة ودارت عليه الدوائر، وأخذ منه ابن عمه السلطة، مسمى عبد القادر باذلا للترك من سكان الجزائر مائة ألف الريال، وحاول هو فعل نفس الشيء واستنجد بالترك =وقبائل مزاب ولم ينجح ففر مع ركب الحج المغربي، ووصل إلى توزر وعاش بها. ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ص: 216 ، جميلة معاشي، المرجع السابق، ص: 76.

[5] –ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، الهامش 01، ص: 100.

الخروج عن طاعتهم كما حدث ذلك مع شيخ بني عباس وشيخ بني جلاب كما أسلفنا وابن القاضي وغيرهم.

وكحوصلة لهذه الجزئية يستنتج أن الكثير من القبائل وخاصة قبائل الرعية كانت تضع ثقتها التامة في المرابطين؛ بحيث تقوم سلطتهم على الوازع الديني والأخلاقي وعلى الاحترام والوقار وحتى شيخ الجماعة يشاركه نفس الصفات التقديرية والتي تعطيه سلاح روحي فتاك يقود قبائل الرعية، عكس سلطة القياد التي تعتمد في سلطتها على قوة السلاح المادي مثلها مثل السلطة المركزية بالمدينة.

كما نستخلص مما سبق نتيجة حتمية وهي أن السلطة العثمانية كانت تبني علاقتها مع الزعامات المحلية كيفما كانت مصدر قوتها، المبنية إما على قوة السلاح المادي أو المعنوي أو الروحي فهي توصل إلى خلاصة حاسمة وهي المصالح المشتركة بين عطاء وأخذ؛ الإدارة العثمانية تأخذ الضرائب مع الولاء لسلطتها مع استتباب الأمن بين القبائل في فض النزاعات القبلية بطريقة سلمية، وفي الطرق بتأمين المواصلات الجغرافية المعينة وفي الحدود في الحيلولة دون اجتياح العدو للأراضي الجزائرية سواء بالشرق الجزائري أو في الغرب. أما عن الشيوخ والمرابطين والزعامات المحلية فالحصاد من هذه العلاقة المحافظة على مكانتها الاجتماعية وعلى أتباعها وامتيازاتها الخاصة كالإعفاء من الضرائب بالإضافة لبعض الفوائد المادية من هدايا وغيرها.

ومهما كان دور هذه القبائل المتحالفة فإن الإدارة العثمانية عرفت كيف تقلل من نفوذها وإضعاف تأثيرها في أوساط الريفيين وقد نهجت أساليب محكمة لتحقيق تلك الأهداف ومن جملتها:

قيام بعض الحكام العثمانيين أمثال: حسن بن خير الدين، وعلي بتشين وأحمد القلي وغيرهم بربط علاقات مصاهرة مع بعض الأسر القوية أمثال: آل القاضي وآل مقران وابن قانة.

أما عن بقية النتائج المستخلصة عن التركيبة السكانية لأرياف الجزائر العثمانية نمثلها فيما يلي:

- تمثل قبائل المخزن الجهاز الإداري الذي اعتمدت عليه الإدارة العثمانية لاستخلاص الضرائب واستغلال الأراضي الزراعية وحفظ الأمن والاستقرار وتسيير شؤون المجتمع الريفي، كما أنها بمثابة أعين السلطة فجعلتها العين الساهرة على مصالح البايلك والقوة الفعالة التي يستخدمها الحكام في إبقاء نفوذهم.
- أن العلاقة بين الإدارة والقبائل الممتنعة كان يغلب عليها طابع الصراع والحروب، طوال العهد العثماني، كما أن العثمانيين رغم قلة عدد قواتهم العسكرية تمكنوا من فرض سلطتهم على معظم أجزاء البلاد واعتمدوا في ذلك على القوى المحلية الفاعلة والمتمثلة في رجال المخزن والزعامات المحلية، فكانوا أداة فعالة في إخضاع سكان الأرياف لسلطتهم واستخلاص الضرائب.
- أما قبائل الرعية فإن الضغط المتزايد الذي تعرضت له هذه القبائل، فقد أدى بالضرورة إلى تفككها فلم تعد تعتمد في تجانسها وتلاحمها على الأصل المشترك والانتساب العرقي، كما هو شائع في القبائل الأخرى وإنما أصبح تجانسها وتلاحمها يرتكز على الظروف المعيشية ومعاملتها مع الحكام.
- أما عن القبائل المتحالفة فقد لجأ بعض الحكام الأتراك إلى ربط علاقات المصاهرة مع الأسر المحلية المؤثرة وهذا ما يجعلنا نعتقد بل نجزم أن علاقات العثمانيين مع القوى المحلية كانت مبنية على المصلحة المشتركة بين أخذ وعطاء.

إلا أن السياسة التركية العثمانية فرقت بينهم سياسياً فجعلت من هذا مخزنياً محظوظاً، ومن ذاك حليفاً محترماً، ومن الآخر ممتنعاً حذراً وخاضعاً مضطهداً، ولعل ذلك يندرج فيما يسمى بسط النفوذ بالحكمة الإدارية، وهي التي جعلت من الأتراك العثمانيين سادة البلاد لما يزيد عن ثلاثة قرون بلا منازع على الرغم من أنهم شكلوا أقلية في المجتمع الجزائري وخير ما يختم به هذه الجزئية قول حمدان

خوجة عن رد أهل متيجة للمستدمر الفرنسي لما طالب بالضرائب:" إننا كنا ندفع الضرائب للأتراك مقابل قيامهم بتهدئة البلاد وتأمين الطرق وحمايتنا الخ...فافعلوا مثلهم وسندفعها لكم "[1].

وفي ختام هذا الفصل يجب الإشارة والتنويه إلى أن موضوع المجتمع الريفي موضوع معقد، وكتابات الرحالة سواء المغاربة أو الرحالة الغربيين عن تركيبة قبائله قليلة ومقتضبة ولا تعطي صورة واضحة وجلية، دون اللجوء لمصادر أخرى محلية عايشت الأحداث وكتبت عنها سواء بدافع ذاتي أو بإيعاز من السلطة. فالرحالة يتكلم عن جزئية عابرة ويمكن بلورتها في وعاء التاريخ مع المصادر الأخرى تكون أكثر وضوحاً وموضوعية، أما عن الاختلاف أو ترادف المعنى بين الريف والبادية، فذلك أخذ من الباحثين حصة الأسد بين راضي لترادف المعنى ومعارض بالحجج اللغوية والكتابات التاريخية، ولكن مسألة الترجيح كان الفضل فيه للمادة المصدرية الطاغية على الساحة من نصوص رحلية أو غيرها.

[1] -ينظر: حمدان خوجة، المصدر نفسه، ص: 51.

الفصل الرابع:

معالم ومميزات المجتمع الريفي والبدوي في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات

- المبحث الأول: مقومات المجتمع الريفي في الجزائر العثمانية
- المبحث الثاني: الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعيا واقتصاديا
- المبحث الثالث: مكانة المرأة والعادات والتقاليد في المجتمع الريفي البدوي

المبحث الأول: مقومات المجتمع الريفي في الجزائر العثمانية

1- اللغــة:

فاللغة ذات أهمية بمكان للتعرف على أي شعب كان، فهي البوابة التي تلج إليها للدخول على أي حضارة، أما عن اللغة الرسمية في الجزائر العثمانية فتبايت بين لغة السلطة العليا الحاكمة في البلاد وبين لغة العوام أو لغة الرعية. فاللغة الرسمية للديوان اللغة العثمانية العصمانلية [1] وفي كل الاتصالات الحكومية وقد كتبت بالخط العربي، وهي شديدة الصعوبة للترجمة، وقد جلب توارد الموظفين الأوجاق من الأناضول شكلا آخر من التركيبة الاجتماعية، الأكثر صلابة في التعلق باللغة العثمانية إلى شمال إفريقيا.

وبسبب اهتمام الجزائر بالعمل العسكري البحري واحتكاكهم بالقادة العثمانيين تزاوجت اللغة العربية بالكثير من الألفاظ العثمانية، فدخلت المصطلحات العسكرية العثمانية إلى لهجة العامة في حين بقيت اللغة العربية [2] شائعة الاستعمال لأنها كانت اللغة التي تجمع العرب داخل الإيطار الديني مع التركي والمهاجرين الأندلسيين، أما التجار الأوروبيين فقد وجودت لغة عمل(Lingua France) تدعى فرنكو (France) أو سبير (Sabir)، وهي خليط من اللغة العربية والإسبانية والتركية والإيطالية غير أن الرحالة الألماني فيلهلم شيمبر (1804- 1878م) يبين أكثر من ذلك يقول عن اللغات

---

[1] -وليام سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تر : عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1980، ص:85.

[2] -هناك 72 كلمة عسكرية في طبيعتها بين 634 كلمة تركية الأصل مستعملة اليوم، أعتبر الفرنسيون في أوائل الاحتلال أن معرفة اللغة العربية أساسية لهم لكي يحكموا سيطرتهم على الجزائر ، ورغم وقوع خلاف نظري حول إذا كان على الجزائريين أن يعرفوا الفرنسية أو على الفرنسيين أن يعرفوا العربية، فإن الأمر قد حسم في العقود الأولى لصالح الرأي الثاني، انظر: احمد باي ، **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة**، تقدم وترجمة: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر ، 1982، ص:81 .

المستعملة في مدينة الجزائر وحدها لغات عدة:" وهي العربية والاسبانية والفرنسية والايطالية والألمانية والانجليزية والهولاندية وغيرها مما لا يعرف له أصلا ولا نسبا"[1].

وفي هذا الشأن ينصح فاغنر الرحالة الألماني أيضاً بزيارة المقاهي العربية لمدينة الجزائر في قوله:" تعتبر المقاهي من الأماكن التي تتيح للأجنبي أن يتعرف على الشعب، ويتعلم لغته، بل لا يوجد بالنسبة له مكان يتعلم فيه التعابير الشعبية مثلما يتعلمها في المقاهي "[2] .

وإذا تتبعنا لمن كان له الفضل الملموس في تعريب المجتمع الجزائري ونخص بالذكر المناطق الساحلية والتي تقطن فيها الكثير من القبائل الأمازيغية، فقد ساهم الأندلسيين بتأثير عميق في مختلف أوجه الحياة فيها، فمن تأثيراتهم الثقافية ساعدوا على شيوع اللغة العربية في بعض جهات التي تتكلم باللهجات المحلية كآرزيو وتنس وشرشال ودلس وبجاية[1]. وقد تأثرت بهذه التغيرات الثقافية حتى الجالية اليهودية بالمدن الجزائرية، فقد حدث نوع من الاندماج الكلي في المجتمع الجزائري يقلدون الأهالي في تقاليدهم وعاداتهم، ويتكلمون اللغة العربية[3] .

أما عن المجتمع الريفي بإيالة الجزائر يبين حمدان خوجة الملامح البارزة لهذا المجتمع، فهو يتألف من عناصر عربية وأخرى أمازيغية تلاحمت وتفاعلت، واندمجت فيما بينها بفضل وحدة اللغة والعقيدة، اللتين جاء بهما الدين الحنيف لهذه البلاد مع مطلع القرن السابع ميلادي، وما أعقبها من أجناس وافدة مع مطلع القرن الخامس عشر للميلاد بتبعية الجزائر للدولة العثمانية وما استجد مع

---

[1] –أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلفات الراحلين الألمان (1815 – 1830)**، المرجع السابق، ص: 12.

[2] –Lucette Valensi , **Le Maghreb Avant La Prise d'Algérie (1790 – 1830)** , Flammarion , France ,1962 , pp 20-24 .) Lucette Valensi , **Le Maghreb Avant La Prise d'Algérie (1790 – 1830)** , Flammarion , France ,1962 , pp 20-24 .

[2]– فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ص: 139.

[3] –ينظر: يحي بوعزيز، الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن التاسع عشر، ص: 161، سيمون بفايفر، لمحة تاريخية عن الجزائر، ص: 112 .

الفئة الجديدة وهم الأتراك بظهور المولدين من صلبهم - يقصد الكراغلة – وما أنجز عنهما من مظاهر حضارية مختلفة نمت وترعرعت خلال الوجود العثماني بالجزائر بالنسبة للمدينة وبالنسبة للريف على حد سواء [1].

وبتتبع ملاحظات الرحالة في اللغات الشائعة بالمجتمع الريفي فقد تباينت، بين اللغة العربية واللغة البربرية، وخير من فصل في الأمر ابن الدين الأغواطي في رحلته؛ فعن المدن والقرى التي تتكلم اللغة العربية فذكر مدينة الأغواط وقرية عين ماضي وجبل عمور، وقرى ورقلة كسيدي خويلد والمنيعة، وتوات وقريتها أوالن فأهلها يتكلمون العربية[2]، وفي الشق الشرقي للصحراء الجزائرية بواد سوف وتقرت[3] فاللغة الشائعة فيهم اللغة العربية أيضاً، كما يوجد مناطق تشترك فيها اللغة العربية إلى جانب البربرية حسب طبيعة سكانها، كمدينة ورقلة وقرية متليلي بمنطقة واد مزاب وأم القرار الشرقية بالظهرا يقول عنهم محمد بن عبد السلام:" أصلهم من فكيك يتكلمون بالعجمية وغيرها"[4]. أما قرى هذا الوادي فقد غلبت عليها اللغة البربرية وهي ستة قرى أكبرها غرداية وتستثنى منها قرية مليكة والتي يتكلم أهلها اللغة العربية[5]، أما عن أقصى الجنوب الصحرواي للجزائر فعن تيميمون وقرية طيت جنوب أولف وقورارة فمجمل هذه القرى يتكلم أهلها البربرية[6].

---

[1] –ينظر: يحي بوعزيز، الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن التاسع عشر، ص: 161، سيمون بفايفر، لمحة تاريخية عن الجزائر، ص: 112 .

[2] –ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 87 ، 89، 92، 95، 96.

[3] –تعتبر تقرت عاصمة المنطقة لها نفوذ على أربع وعشرين قرية مجاورة لها، وحكامها يسمون بسلاطين بني جلاب. ينظر: المصدر نفسه، الهامش رقم : 17، ص: 100.

[4] –محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص: 192.

[5] –يقول عنهم محمد بن عبد السلام الناصري: هم جيل من الناس يسكنون القرى، يتكلمون باللسانين العربي والعجمي على مسافة ثلاث مراحل من الأغواط وأربع من واركلا. ينظر: الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص:206.

[6] ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 93، 94.

كانت هذه الجزئية الموجزة حسب ما ذكرته مصادر الرحلة عن الوسيلة المستعملة للتفاهم بين الأهالي وهي مكرمة إلهية للبشرية أجمع وليست ميزة للجزائر وسكانها خاصة، ولكن التمايز يبرز في شق أخر وهو التعليم وما ألت إليه مقوماته في الجزائر العثماني، وبالتحديد بأريفه وما قاله الرحالة عن الموضوع.

2- التعليـــم:

فحسب التقارير الفرنسية بعد حملتها على الجزائر أقرت بحقيقة حاولت أنكارها رغم البراهين القاطعة في شأنها، بأن جل الجزائريين قبل 1830م يحسنون القراءة والكتابة، وكانت الحجة عليهم من بني جلدتهم وشهد شاهد من أهلها، وهو ما أثبته مارسيل إميريت[1] بالدليل في الرد على بيير بوايي Pierre Boyer[2] الجاحد لهذه الحقيقة في قوله:" لقد برهنت على أن الجزائريين كانوا على العموم – قبل 1834– يحسنون القراءة والكتابة،... ولا يتعلق الأمر بكتابات حول ق 18م، وإنما حول بداية

---

[1]–**مارسيل إميريت:** مؤرخ واستاد باحث في كلية الآداب بجامعة كليرمون فراند، عضو أكاديمية العلوم لما وراء البحار، له العديد من الدراسات الأبحاث في التاريخ الروماني والدراسات المتعلقة بالمستعمرات الفرنسية بالشمال الافريقي خاصة تونس والجزائر ساهم في التاليف ونشر العديد من الأبحاث الاكاديمية ندكر منها: الجزائر في عهد الأمير عبد القادر، والبحرية الجزائرية في القرن 18.ينظر:

-Yver Georges. Marcel Emerit, L'Algérie à l'époque d'Abd-el-Kader. In:**Annales. Economies, sociétés, civilisations**. 7e année, N°4, 1952. pp. 562-564

-Soumille Pierre. Mélanges Marcel Emerit, Revue d'histoire maghrébine. In:**Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée**, N°24, 1977, pp. 285-286.

[2] **بيير بوايي:** مؤرخ فرنسي ولد بباريس سنة 1865 وتوفي في تونس سنة 1933، كتب كتاب اسماه الحياة اليومية في الجزائر عشية التدخل الفرنسي، وعدة دراسات منها تطور الجزائر المتوسطية، ينظر:

-Pierre Boyer, La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française. In:**Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée**, N°1, 1966, pp. 246-248.

-Émerit Marcel. Pierre Boyer , A Alger à la veille de l'intervention française. In:**Revue française d'histoire d'outre-mer**, tome 50, n°179, deuxième trimestre 1963, pp. 271-272.

Esquer Gabriel. Pierre Boyer, **L'Évolution de l'Algérie médiane (ancien déparlement d'Alger), de 1830 à 1956..**In: Annales. Economies, sociétés, civilisations. 16e année, N°2, 1961. pp. 392-395.

الحملة الفرنسية، فقد ورد الحديث في محاضر اللجنة الإفريقية الصفحة 41 عن طلب بضربة[1] إنشاء جريدة عربية تتحدث بالخصوص عن الصناعة والزراعة وبعض العلوم الضرورية لأن (جميع العرب تقريباً يحسنون القراءة والكتابة)" [2]

وهذا ما يؤكده الرحالة الألماني فيلهلم شيمبر بعد استقراره في الجزائر حوالي عشرة أشهر في بدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر في ديسمبر 1831 والذي أقر بما يلي:" لقد بحثت قصداً عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أروبا "[3]

أما في الريف فيصعب التسليم بأن التعليم كان منتشراً بنفس النسبة، ولكن ما تبينه المصادر أن الزوايا قد ساهمت بدور هام في تلقين المبادىء الأساسية للتعليم والثقافة الدينية، فأوجدت بذلك نوعاً من التوزان بين الريف والمدينة، ومسحت مساوىء الأمية بنسب مهمة وتناقصت مضار الجهل في الكثير من القرى والأرياف الجزائرية.

---

[1]–**بضربة:** هو أحمد بوضربة ترجع أصوله إلى عرب الأندلس، والده من كبار تجار مدينة الجزائر، شكل أول جبهة جزائرية لمقاومة الاحتلال، وهي لجنة المغاربة التي ترأسها حمدان خوجة إلى جانب بوضربة وابن عمر وإسماعيل ابن مصطفى وحمدان آغة، وهي اللجنة التي راحت تكشف الممارسات التعسفية وللإنسانية للجيش الفرنسي بالجزائر، والتي كانت تتنافى مع التزامات الطرف الفرنسي الموقعة بموجب معاهدة الاستسلام مع الداي حسين. ينظر: سلطانة عابد، قراءة في خصائص تجار مدينة الجزائر سنة 1830 أنموذج "حمدان خوجة وأحمد بوضربة "، **مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية**، العدد الثاني، جوان: 2012، ص ص: 336، 337.

-Mercel Emerit , **Apropos de L Algérie en 1830 A propos de l'Algérie en 1830**. Réponse à P. Boyer **/ correspondance Annales économies sociétés ,civilistions,** Volume 23, Numéro 3**,** Juin 1968 , p 720

[2] –محمد العربي الزوبيري، **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة**، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1981، ص ص: 171، 201.

[3]– أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الراحلين الألمان، ص: 13.

لكثرة الكتاتيب القرآنية[1] التي لا تكاد تخلو منها قرية من القرى في الريف، بل كانت منتشرة حتى بين أهل البادية، والجبال النائية وهذا ما أبهر جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني وهذا ما اشرنا إليه سالفاً[2].

وفي ذلك ما ذهب إليه عبد الرحمن المجاجي وكلامه عن علماء مجاجة[3] ودورهم التعليمي الرائد بمنطقة تنس بباباليك دار السلطان، بفضل نخبة من أعلامها الأجلاء، فقد خصهم المجاجي بثلاثة وخمسين بيت في رحلته المنظومة، لعائلة محمد بن علي أبهلول وحدها، متقلباً فيها بين المدح وتعديد المناقب والدعاء، ولم يكتف بذلك بل صرح بحبه الشديد لهم بصريح العبارة: [4]

وَلا يَلِذُّ لِقَلَمِي غَيْرُ حَدِيثِهِمْ وَيَكْثُرُ نَظْمِي فِيهِمَا بِسُهُولَـــــةٍ

وَرَبِّي عَلِيمٌ بِالمحَبَّةِ فِيهِـــــمْ إِلَى أَنْ يَتَقَضَّى العُـمْرُ مِنِّي بِسـرْعَةٍ

وفي مقدمة هذه العائلة العالم الجليل أبو الحسن علي (أبو حسون) بن عبد الرحمن بن أمحمد بن علي أبهلول المعروف ب "علي أبو حسون"ولد بمجاجة، تربى ونبغ في علوم عدة حتى فاق أقرانه، فامتاز بالسر والحكمة، فقد شاع خبره وذاع صيته. يقول الحفناوي عن أبي الحسن علي وأخوته في سياق كلامه عن ذرية جده محمد بن علي أبهلول: « ولا زالت ذريته تمتد لها الأعناق في النجدة والسماحة والجود ويحتمي الجاني بساحتهم، ولهم حرمة وتعظيم عند الملوك»[5]، وقد خصه المجاجي بسبعة عشر بيتاً، كلها مدح وتعديد مناقب، مجلياً فيها صغر سن أبي الحسن في قوله" فتى"، مع

---

[1]– ينظر : الملحق رقم (03)، ص: 466.

[2]– فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، ص ص: 63، 64.

[3]–**مجاجة:** بلدة قرب مدينة شلف، تبعد عنها ب10 كلم، غرب الجزائر العاصمة، ابن عمّار، أشعار جزائرية، تح: أبو القاسم سعد الله الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 1988م، ص: 108.

[3] –عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي (1063هـ/ 1652م)، رحلة المجاجي، ص: 160.

[5]– ولأبي الحسن علي قصة مع ملك المغرب أحمد المنصور في حوالي سنة 1027هـ/1617م، ينظر: أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص:50.

خصاله الرفيعة كالجود والعلم والحلم والسخاء، وقدره العالي والهيبة التي يتمتع بها، إلى جانب توليه مشيخة زاوية جده محمد بن علي أبهلول، فساعده ذلك المنصب على إعانة الناس والأقارب منهم خاصة:

أَبُو الحَسَنِ عَلي[1] إِذْ قَلَّ مِثْلهُ فِيمَا قَدْ مَضَى وَالا تِي مِنْ كلِ جِهَة

هُوَ النائِبُ عَنْ القَرِيبِ وَغَيْـرِهِ فَيُطْعِمُ كُلَ مَنْ أَتاَهُمْ لحِاَجَـــــة[2]

وله شقيق كريم القدر مثل أخيه وهو عبد القادر الجيلالي بن عبد الرحمن بن أمحمد بن علي أبهلول، وصفه أحد أحفاده مولود فلاق في كتابه علماء مجاجة، بأنه:« العالم العامل التقي والفاضل الأفضل الذكي من غاص في بحر العلوم والمعاني، وانتقى منها رباني العلم والسر النوراني، فقد ظهر بعلمه في وقته وبلغ صيته المدن والبلدان ولازال سره ظاهراً، وتأتي الناس لزيارته»[3]. خصه هو الآخر بثمانية أبيات يمدحه فيها بعلو قدره في علم التصوف(علم الدراية) والزهد والتقوى، وهذه العلوم والخصال ورثها من والده عبد الرحمن وعمه أبي علي، كما أخبرنا عن الإجازات التي أخذها من علماء الحواضر العلمية بالمشرق من مكة والمدينة ومصر:

أَجَازَه[4] كُلُّ عَالِمٍ فِي طَرِيقِـــهِ بِمِصْرَ وَبيْتِ اللهِ ثُمَّ المِدِيْنَةِ

قَدْ اسْتَخبَرُوهُ فِي العُلومِ جَمِيعِها فَالفَوهُ فِيهَا حَافِظاً ذَا بَصِيرةٍ

---

[1]- ينظر: هني علي، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة، ص:20، 32 أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص:50، مولود فلاق بن علي جيلالي، علماء مجاجة، و9 ظ، و10 و.

[2] -عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، ص ص: 158، 159، 212.

[3] -ينظر: مولود فلاق، علماء مجاجة و8 ظ، و10و، علي هني، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة، ص:23 .

[4] -**الإجازة**: مصدر وأصلها من إجوازة، وهي مشتقة من الفعل جوز، أي أنفذ أما مفهومها الاصطلاحي فيختلف حسب مناط كل علم ما بين الشعر والتصوف والأدب وغيرها، ولأن كلاً من هؤلاء المجالات فهي علوم، فالإجازة العلمية هي الإذن من الشيخ لطالب أو العلم آخر في رواية الحديث الشريف، أو الفقه أو التاريخ، أو غيرها من العلوم أو هي إذن في تولي منصب ما كالفتوى والتدريس وغيره وعليه فمفهومها بصفة عامة هو" الإذن في أمر يتعلق بعلم"، شمس الدين السخاوي، **فتح المغيث " شرح ألفية**

كما تكلم المجاجي عن عمهما أبي علي، وعمتهما السيدة عودة بنت محمد بن علي أَبَهْلُولَ غير أن السيدة عودة [1]خصها بالذكر مرتين الأولى في بداية القصيدة، عند وفاتها بأرض الحجاز بعد أدائها لمناسك الحج ودفنها بالبقيع سنة 1063هـ/1652م، عن عمر يتعدى 91 سنة[2]، فكانت لها منقبة وأي منقبة أن تدفن في البقيع، فرثها المجاجي بسبعة أبيات، والمرة الثانية ذكرها من باب تقديره الخاص لها، لكونها من الذين رافقوهم في ركب الحج وزيادة على ما عدده لها من خصال ومزايا الصلاح في بداية الرحلة، راح يؤكد ما قاله عنها سالفاً، وهذه لفتة مهمة من المؤلف تبين مكانة المرأة الشريفة في المجتمع الجزائري آنذاك، ودورها الفعال في إنماء المجتمع مادياً وعلمياً؛ مادياً في إعانة المحتاج، وكفالة اليتيم، وإطعام المسكين، وإكرام عابر السبيل، ودحض الظلم عن المظلومين بدفع الظلم عنهم، أما علمياً فقد ورثت من أبيها العلم فدرسته في زاويته بمدينة مجاجة القريبة من مدينة شلف[3]، فنالت به الحضوة والتقدير والاحترام، من العام والخاص، وقد أكد هذا أحد أحفاد العائلة الكريمة[4]، وليس هذا فحسب بل عرفت بالتقوى والورع[5].

=الحديث"، شرح ألفاظه: صلاح محمد عويضة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط: 1966م، ج2، ص: 62، 69، ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص: 531، محمد المنوني، **ورقات من حضارة المرينين**، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط: 1996م، ص:279، لزغم فوزية، **الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية (924هـ-1245هـ/1518م-1830م)**، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، تحت إشراف: د. بن معمر محمد جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم: التاريخ والحضارة الإسلامية، سنة: 2005م-2006م، ص ص: 1، 3 .

[1]-ينظر: الحاج علي هني بنعشيط المجاجي، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة، ص: 23.

[2]-عبد الرحمن المجاجي، المصدر نفسه، ص ص: 171، 172.

[3]- لم يكن هذا الأمر غريباً أو نادراً، فقد بقي مستمراً حتى مع مطلع القرن 13هـ/19م ، أين كان البنات يتعلمن في المدارس (كتاتيب لتحفيظ القرآن)، تشرف عليها نساء، ينظر: وليام شالر، مذكرات وليام شالر، ص: 82 .

[4]-فلاق، علماء مجاجة، و9و ، 10و .

[5]- ذكرت بعض المصادر عن السيدة عودة بأنها لم تخلف أولاداً، يقال: إنها ربت ولدا اسمه أحمد بن عودة وعلمته، مقامه مشهور بنواحي غليزان.ينظر: الحاج علي هني بنعشيط المجاجي، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة، ص: 23.

وكثرة العبادة حتى شبهها برابعة العدوية[1] في قوله:

وليسَ لها مثلُ سوَى من تقَدَّمَت في ماضِي السِّنين مِثلُ العَدَوِيَة [2]

أما عن أبو علي بن محمد بن علي أبهلول أخو السيدة عودة فهو الآخر عالم قدير من فقهاء الجزائر العثمانية، وصفه عبد الكريم الفكون بأنه فطن وصاحب شعر كثير وفصاحة وفهم وقد كان من أحبابه وله معه أخوة صادقة ومراسلات كثيرة، كما كان له علاقات وثيقة مع أحمد المقري فقد التقى به في حدود (1010هـ/1601) بتلمسان أثناء زيارته مع جملة من العلماء والأعيان لمدرسة أولاد الإمام بتلمسان، يقول عنه مولود فلاق بأنه مدفون في ضريح جده علي أبهلول[3].

هذا عن الأبناء والأحفاد ولكن لم يَنْسَ المجاجي الأصل والجد والوالد الولي الصالح الذائع الصيت سيدي محمد بن علي أبهلول المعروف بمولى مجاجة، ولأهمية هذه الشخصية في إحياء الحياة العلمية والثقافية وحتى الروحية بمنطقة تنس وضواحيها، ومكانتها المعتبرة عند السلطة والرعية على حد سواء، سندرج لها ترجمة موجزة حتى نبرز من خلالها بصمة هذا العالم الجليل في إحدى أرياف وثغور الجزائر العثمانية، ولد الشيخ محمد بن علي أبهلول في سنة (945هـ/1538م) أمه سيدة عودة بنت

---

[1]- **رَابْعَة العَدَوِيَة:** بنت إسماعيل أصلها من مدينة البصرة، وكانت مولاة لآل عتيك، تكنى بأم الخير، كانت تعزف المعازف ولما تنسكت أدخلت على التصوف فكرة الحب الإلهي بدلاً من الخوف والرهبة، وقد سميت كذلك بشهيدة العشق الإلهي، توفيت بظاهر القدس في الأرجح، وقيل بالبصرة سنة 135هـ/752م، ينظر: أبو عبد الرحمان محمد بن الحسين السلمي، **طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات**، تح: مصطفى عبد الله عطاء، بيروت: دار الكتب العلمية، ط2: 1424هـ- 2002م، ص: 387، عبد الرؤوف المناوف، **الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية أو طبقات المناوى الكبرى**، تح: عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة: المكتبة الأزهرية للثرات، ط:1499م، ص: 200، 204، أبو الحسن السخاوي، **تحفة الأحباب وبغية الطلاب**، القاهرة: مكتبة الكليات الازهرية، ط2: 1406هـ- 1986م، ص:108، الزركلي، الأعلام، ج6 ص: 7

[2]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، البيت رقم 19، ص: 171.

[3]- لم يذكر أنه لم يخلف أولاداً. ينظر: مولود فلاق، علماء مجاجة، و8ظ، عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ج1، ص: 440، 449، أبي العباس أحمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، ص:140، حاج علي بعشيط، المرجع السابق، ص:23.

سيدي بوعلي وهو صاحب الزاوية المشهورة بمجاجة، كان مربياً ومعلماً بها يدرس أكثر من ثلاثمئة طالب في النحو والصرف والمنطق والعروض وعلوم الشريعة الإسلامية بما فيها من التوحيد وتفسير القرآن والتصوف، ومن بين أولئك الطلبة: سعيد قدورة مفتى الجزائر، والسيد علي مبارك دفين القليعة، والسيد يحي من ناحية التنس، كما أنه لم يكن له صيت وسمعة على المستوى الداخلي فحسب، بل كان على اتصال وثيق بعلماء المشرق أثناء رحلاته للحج ونظراً لصرامته في الحق فأدى ذلك لمقتله على يد أحد البايات الأتراك بمازونة لرفضه الإفتاء بالباطل، يذكر له عدة مؤلفات في شتى الفنون كالشعر والنحو وغيرها ولكنها في حكم الضائعة، توفى رحمه الله سنة (1008هـ-1599م) [1].

أما عن أثار الشيخ البارزة فقد تجسدت في زاويته الشهيرة بمجاجة، والتي وصفها المشرفي في قوله:" مجاجة دار علم وعمل"[2] قامت هذه الزواية بوظائف شتى في ميادين مختلفة في حياة الشيخ، فقد اشتهرت بنشر العلم، فكانت تشد إليها الرحال كما أشرنا سالفاً، وإلى جانب نشاطها الثقافي الذي تجسد في التعليم، كانت تؤدي دوراً مهماً في التصوف وقد برز دور أسرة محمد بن علي أبهلول بروزاً هاماً على الصعيد الديني والعلمي والروحي بالمنطقة، وقد أهلها لهذه المكانة المرموقة إنتساب هذه الأسرة للاشراف ولشهرة أبنائها بالصلاح والتقوى، إلى جانب العلم الذي تزين به عدداً منهم. كما كان الدور الذي لعبته زاويتهم في التصوف والجهاد أبلغ الأثر في رفع مكانتهم بإعتبار منطقة تنس ثغر ورباط للجهاد[3].

---

[1]-ينظر: عبد الرحن المجاجي، المصدر نفسه، ص ص:159، 215، مولود فلاق، علماء مجاجة، و:3، 8، عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ج1، ص:440، 449، علي هني، علماء مجاجة، ص ص: 19، 21، صالح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر ص: 820، 821 ،

[2]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب الوهاجة "، مخ، ص: 35.

[3]- ينظر: ابن عشيط، الأحرف الوهاجة، ص: 20، فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ، المرجع السابق، ص:345.

ظلت زاوية مجاجة تشع بنشاطها الثقافي حتى خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، بين هذا الدور الفعال للزواية أبو حامد المشرفي في زيارته لها عام 1249هـ/ 1833م، فقد وجد فيها من العلماء المتضلعين في علم المعقول والمنقول كأحفاد الشيخ الذي قال عنهم:" وله أعقاب من أولاده ورثوا رتبة جدهم في الجود والكرم، وحسن الخلق والمروءة...يلقون الضيوف بالبشاشة وطلاقة الوجه، ولا تخلوا زوايتهم من العلم"[1].

ولا يتوقف الأمر عند زاوية مجاجة فحسب، بل عرف الريف الجزائري عدة زوايا نشطة قامت بأدور إيجابية أكثر منها في المدن؛ وخاصة في مجال التعليم، فأحدثت بذلك نوعاً من التوزان بين الريف والمدينة، كما هو الشأن ببايليك الشرق بمنطقة الزواوة والتي عرفت هي الأخرى حركة علمية نشطة وهذا ما شهد به أحد ابنها الرحالة الجزائري الحسين الورثلاني في قوله: "وطننا طيب فيه العلم". على غرار ما كانت عليه الحواضر العلمية في الجزائر العثمانية كمدينة قسنطينة وزاويتها العريقة زاوية بيت الفكون و زاوية ابن الساسي البوني وغيرها[2].

شهدت منطقة زواوة عدة زوايا حملت على عاتقها نشر العلم وتعليم العامة أصول دينهم، وجل هذه الزوايا كانت ملك لبيوتات وأسر علمية، توارثها ابنائها ساعين للحفاظ على نشاطها العلمي، متكفلين باعبائها المادية والروحية، كما أبدى ذلك عبد الكريم الفكون في كتابه منشور الهداية عن أحد تلاميذه ومشايخها المعروف بأبي الحسن علي ابن عثمان الشريف في قوله:" وهو الآن صاحب درس عظيم على ما بلغني وأصحاب كثيرة وأقبلت عليه الدنيا، وصار يطعم الطلبة من عنده نفعه الله بما قرأ "[3] .

---

[1]-ينظر: أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، ص:35 ، فوزية لزغم، المرجع السابق، ص:345 .

[2]- الورثلاني، رحلة الورثلاني، ج1، ص: 44.

[3]-ينظر: عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 207، فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، ص ص : 67، 68.

ومن الزوايا القائمة ببلاد زواوة زواية أسرة ابن المصباح ببني يعلى العجيسي بضواحي بجاية ذات الباع الروحي العالي، يقول عنها الشيخ المهدي بوعبدلي بأنه معهد أشاد به الكثير من العلماء والمؤلفين أمثال عبد الكريم الفكون القسنطيني والحسين الورثلاني صاحب الرحلة، يعد الشيخ الحسن ابن أحمد الزروق بن المصباح أحد مدرسيها البارزين وهو معاصر للحسين الورثلاني[1].

ومن الزوايا البارزة أيضاً بهذه المنطقة زاوية هذا الأخير الزاوية الورثلانية. زاوية هذه الأسرة التي جمعت بين العلم والتصوف، ففي الشق العلمي عد التعليم من أهم مقوماتها، حيث كان الشيخ الورثلاني الجد مدرساً بها حتى توفي، وخلفه ابنه الفقيه محمد السعيد، وعمه محمد الصغير العالم المحقق[2]، إلى جانب الحسين الورثلاني الحفيد صاحب الرحلة، الذي تحدث هو عن نفسه في مزاولته للتعليم بالزاوية في كذا من موضع في رحلاته، كتدريسه لأولاد سيدي عمر من قرية مجانة :" أكثر أولادهم يتعلمون علينا"[3]، وفي عزمه للسفر للحرمين الشريفين في حجته الأولى سنة 1153هـ/1740م، أين جمع طلابة العلم عنده وأوصاهم ب:" العلم والمودة بينهم والطاعة لله تعالى" ودعى لهم مع أولاده في قوله:" عمرهم الله تعالى على الدوام بالعلم والعمل مع أولادنا الذكور"[4].

أما عن التصوف فقد كان الحسين الورتلاني من الشيوخ المتصوفة المأهلين لتلقين الأوراد، وهذا ما أشار إليه في رحلته الحجية عند مروره بمدينة بسكرة، عند التقائه بجمع غفير من المريدين الخاصة

---

[1]- ينظر: الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص:58، ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، ص: 152، فوزية لزغم، المرجع السابق، ص: 351.

[2]-الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 57.

[3]- المصدر نفسه، ج1، ص: 57.

[4]- المصدر نفسه، ج1، ص:44.

منهم كالعلماء والعامة من الناس، فلقن الكثير منهم الأوراد" وقد أخذ كثير منهم العهد عنا"[1]، فإن كان هذا في ترحاله فما بالك عن حله، فذاك شيئا معتاد[2].

ومن الجهة الشمالية الشرقية للجزائر بالقرب من مدينة بسكرة، زاوية عريقة ومدرسة شهيرة تعرف بخنقة سيدي ناجي[3]، والتي تعد من أشهر المدارس من غير عواصم الجزائر العثمانية إلى جانب مدرسة مازونة[4]، وقد حملت لواء العلم في منطقة نائية جداً، وقد أشاد بفضلها المؤرخ الجليل حسين خوجة في كتابه " الذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان":" بأنها معروفة بالعلم وبتخريجها لمشايخ كرام وعلماء أعلام، وبأنها:" مقر الصلحاء"[5]. وقد برزت أهميتها خلال القرن الثاني عشر الهجري (18م)، حيث وصفها الورتلاني في قوله:" الخنقة قرية مباركة طيبة...لها فضل عظيم، سيَّما إظهار العلم فيها، فإنهم مشتغلون بالنحو والفقه والحديث خصوصاً مختصر البخاري لابن أبي جمرة "[6]. على خلاف ما قاله العياشي والتي زارها خلال القرن (11هـ/17م) بأنها بلاد قلَّ فيها أهل التحصيل[7].

هذا الاختلاف بين آراء الرَّحالة يعني أن الحركة الفكرية عرفت انتعاشاً خلال القرن الثاني عشر على يد بيت سيدي ناجي، والذي تعد زاويته المعروفة بالزاوية الناصرية أقدم الزوايا بالخنقة، وقد

---

[1]- ينظر: الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 200.

[2]- ينظر: فوزية لزغم، المرجع السابق، ص: 353.

[3]-يعتبر أحمد بن ناصر بن محمد الطيب المؤسس للزاوية، وهو من بنى المدرسة الناصرية التي عرفت بإسمه سنة 1147هـ/ 1734م، إلى جانب الجامع والقبة وتم تجديدها سنة 1171هـ/ 1757م. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 284، فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية، المرجع السابق، ص ص: 354، 355.

[4]-ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 284.

[5]-ينظر: حسين خوجة، **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، المصدر السابق، ص: 253، فوزية لزغم، المرجع السابق، ص: 353.

[6]-ينظر: الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص ص:251، 252.

[7]-ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص: 538.

أشعت بجامعها الكبير ومدرستها[1] على الناحية بالعلم والمعرفة طيلة قرنين أو أزيد، وكانت موئل علماء الزيبان، وواد سوف بالصحراء والأوراس وقسنطينة وعنابة وزواوة بل وتونس وطرابلس أيضاً ومن أبرز خريجيها[2] أحمد التليلي وخليفة بن حسن القماري[3].

أما عن المدارس والزوايا ببايليك الغرب فقد كان إقليم الراشدية وضمنه سهول غريس[4] أكثر المناطق غنى بالزوايا، فقد شدت الرحال لهذا الوطن لطلب العلم ما بين القرن العاشر والحادي والثاني عشر لكثرة تاسيس الزوايا به ورواج العلم بهذا الإقليم منذ القرن 10هـ/ 16م، واحتضانها مهمة التعليم، ولهذا يصف أحمد الشريف الزهار أهل غريس بالعلم والصلاح وأهل السنة والورع[5]، ومن أهم الزوايا به: زاوية سيد عبد القادر بن المختار الادريسي الزاوية القادرية بالقيطنة[6]، وزاوية الشيخ سيدي عبد

---

[1]-تحوي المدرسة الناصرية على (25) غرفة، ويقيم بكل غرفة من خمسة إلى عشرة طلاب، ولها بابان خارجي وداخلي يؤدي إلى الجامع. ينظر: فوزية لزغم، المرجع السابق، ص: 354. نقلاً عن أبو القاسم سعد الله، زيارة لخنقة سيدي ناجي، ص ص:116، 117.

[2]-ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص ص: 284، 285، فوزية لزغم، المرجع السابق، ص ص: 354، 355.

[3]-**خليفة بن حسن القماري السوفي (كان حياً عام 1318هـ/1901م)** : فقيه، وشاعر وأديب من أهل" قمار "بوادي سوف، من آثاره" جواهر الاكليل في نظم مختصر الشيخ خليل "في فقه المالكية " قال عنه الحفناوي : نظمه نظما عجيباً." ينظر: =عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، بيروت: مؤسسة نويهض للثقافة والتراث، ط2: 1400هـ/ 1980م،ج1، ص:182 .

[4]-**غريس:** من سهول الوطن الراشدي، وسمي غريساً لانه كان مغروساً بأنواع الشجر ذوات الاثمار. وكان سكانه من بني زروال وبني توجين ومغراوة قاطنين في قرى صغيرة تزيد على المائة، ومع الفتح الإسلامي قطن بها بيوت من الأشراف الفاطميين منهم الحسينيون والحسينيون الأدريسيون والسليمانيون. ينظر: بالهاشمي بن بكار، **كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربع كتب**، تلمسان: مطبعة ابن خلدون، ط:(1381هـ/1961م)، ص: 34.

[5]-أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص:159 .

[6]-**القيطنة:** تقع قرية القيطنة بضواحي بوحنيفية، وهي البلدة التي اختطها الشيخ مصطفى بن المختار(ت 1212هـ/ 1798م)سليل عبد القادر بن المختار، أدى هذا البيت وزاويته التي أسست عام (1206هـ/1791م) دوراً بارزاً في نشر العلم فقصدها طلبة العلم والعلماء من مختلف النواحي، كما كانت مقصداً لمريدي الطريقة القادرية باعتباره الممثل الرئيسي لها في الجزائر

الله بن عبد الرزاق الإدريسي، وزاوية الشيخ سيدي محمد الإدريسي شيخ مصطفى الرماصي[1]، وزاوية الشيخ عبد القادر المشرفي، وهو أبرز علماء بيت المشارف، وزاوية سيدي محمد بن يحيى السليماني وزاوية سيدي عبد الرحمان المحمودي الادريسي المكنى بدحو، وزاوية سيدي الخظير الصنهاجي الادريس وزاوية سيدي محمد الاعرج السليماني وزاوية سيدي محي الدين ابن المصطفى الإدريسي وزاوية سيدي سحنون بن أحمد الحسيني وزاوية حفيده سيدي الهاشمي بن علي بوشنتوف وغيرهم ممن يطول سردهم ولذلك انتشر العلم بسهول غريس كما هو مشهور في الوطن الراشدي وغيرها، وجل هذه الزوايا تابعة لبيوتات علمية وصوفية ذات مكانة مرموقة في المنطقة من صناديد العرب من أشراف آل البيت على حد وصف بالهاشمي بن بكار[2].

ومن تلك الأسر العلمية التي اجتمع فيها النسب الشريف والعلم والتصوف أسرة الشيخ عبد القادر بن المختار وابنه مصطفى بن المختار الغريسي مؤسس الزواية والمدرسة بالقيطنة بواد الحمام أواخر القرن 18م، وقد ورثه إبنه محي الدين وحفيده الأمير عبد القادر في العلم والعطاء المعرفي المتميز بمنطقة غريس. ونظراً لشهرتها العلمية توافد عليها العديد من العلماء وطلبة العلم من مناطق مختلفة حتى بلغ عددهم حوالي ستمائة طالب، فقد كانت قبلة للعلم وتلقن أوراد الطريقة القادرية، وذلك ما ذكره الأمير عبد القادر حفيد ذاك الأخير في مذكراته: " أما طلبة القرآن الذين قرأوا القرآن والعلم

=كلها وخاصة أيام حفيدهم الأمير عبد القادر. ينظر: الأمير عبد القادر، **العالم المجاهد**، تح: نزار أباظة، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، ط1: 1414هـ/ 1994م، ص ص:09،10، فوزية لزغم، المرجع السابق، ص: 356.

[1]-**مصطفى الرماصي (ت1137هـ)**: تعد نوازله عمدة الفقهاء المغاربة والمشارقة، فقد لقبه معاصروه بمحقق الفقه المالكي بلا منازع، له حاشية على شرح التتائي على مختصر الخليل، وأصبحت معتمد للفقهاء من بعده. ينظر: حمدادو بن عمر، **المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب خلال القرنين (11-12هـ/17-18م)**، إشراف: عبد المجيد بن نعمية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2012-2013م، ص ص: 164، 165،167 .

[2]-ينظر: بالهاشمي بن بكار، المرجع السابق، ص ص:34 ، 35.

بقريته المذكورة (القيطنة) فلا يحصون كثرة...لا يخلو موضع قراءتهم من خمسمائة إلى ستمائة، بحيث لا يسمع المار بهذا إلا دوي القراءة في كل وقت" مضيفاً إلى أنه كان يعقد فيها" نحو السبعة مجالس للتدريس" لمختلف لعلوم ومن أهم العلماء الذين تولوا مهمة التدريس بها: المؤسس الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي، وعالم غريس الشيخ محمد المشرفي تلميذ مصطفى الرماصي، والشيخ عبد القادر المشرفي[1].

ومن هذا الأخير الشيخ عبد القادر المشرفي[2] عرفت زاوية الكرط[3] التي أسسها خلال القرن الثاني عشر الهجري(18م) وهو أحد أحفاد الشيخ سيدي يوسف بن عيسى البوخليلي الذي خط هذه الزاوية، وأتمها حفيده هذا من بعده، فأصبحت تضاهي زاوية القيطنة في المنزلة على حد قول الطيب بن مختار الغريسي:" فقد كانت زاويته بالكرط بمنزلة زاوية سيدي محي الدين بواد الحمام "[4]. وقد كان له عدد من الطلبة بزاويته ما بين المائتين والثلاثمائة طالب يأخذون العلم عنه بالمداومة ليل نهار، وينفق عليهم من ماله الخاص رافضاً لعطايا أهل السلطة في ذلك [5].

لنحط الرحال عند مدرسة مازونة، أقدم المدارس العهد العثماني، وأبرز المدارس بالنواحي الغربية للجزائر وهي على درجة كبيرة من الأهمية العلمية، فقد استمدت تعاليمها في متانة علمها من الحاضرة

---

[1]-ينظر: الطيب بن مختار الغريسي المختاري (ت 1320هـ)، **القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم**، نشر: الحاج بالهاشمي بن بكارة، ص: 339، حمدادو بن عمر، المرجع السابق، ص: 166.

[2]-**عبد القادر بن عبد الله بن محمد المشرفي** (ت رمضان 1192هـ/أكتوبر 1778م)، ولد بالكرط قرب معسكر نشأ وتعلم بالمنطقة، ثم درّس بها، من أشهر تلامذته: الشيخ أبو راس الناصري، كانت له مشاركة في مقاومة النصارى الأسبان بوهران، من مؤلفاته: رسالة في التشهير بالقبائل التي تتعاون مع الأسبان سماها " بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبانيين من الأعراب كبني عامر"، يحي بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: 1995م، ج2، ص:231، ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي،ص: 412 414.

[3]-**الكرط**: بلدة صغيرة على مقربة من مدينة معسكر.

[4]-ينظر: الطيب بن مختار الغريسي المختاري، المصدر نفسه، ص ص: 332، 333، فوزية لزغم، المرجع السابق، ص:357.

[5]-ينظر: الطيب بن مختار الغريسي المختاري، المصدر نفسه، ص:332 ، فوزية لزغم، المرجع السابق، ص:358.

تلمسان والأندلس ومن المغرب الأقصى، حتى أضحت مقصداً لكثير من الطلاب بالنواحي الغربية ببالبك الغرب كندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان ووهران وغيرها من المدن والمناطق الريفية [1]. وقد اشتهرت هذه المدرسة برسوخ قدمها في الفقه، وما قرب منه من العلوم كالحديث والمنطق واللغة[2]، ومن أبرز خريجيها أبو راس الناصر والذي تحدث عن شيوخه فيها في رحلته فتح الإله كالشيخ محمد بن عبد القادر من أجل قضاة مازونة، والشيخ محمد بن عوالي[3]. وقد ذاع صيت علماء مازونة في هذه العلوم إلى القدر الذي دفع بعض علماء فاس لطلب الإجازة منهم. فهذا ابن رحمون الفاسي، يكاتب شمس الدين أبو عبد الله محمد بن المهدي المازوني لطلب الإجازة منه، على كثرة العلماء في مدينة فاس، مما يدل شهرة مازونة ورسوخ قدم علمائها في هذا الفنون من العلوم[4].

وبنتيجة موجزة وحقيقة جلية يمكن القول أنه بفضل الزوايا والمدارس التي انتشرت ببوادي وأرياف الجزائر العثمانية، استطاعت الجزائر وقتئذ أن تتفلت من جائحة الجهل المدقع، وبراثن الأمية القاتلة، ليحكم عليها بأقلام المنصفين من الكتاب الأوروبيين بأن جل أهلها يعلم القراءة والكتابة خير مما كانت عليه أرياف أوروبا في عصر النهضة. بل أكثر من ذلك فقد أنجبت علماء أقحاح يشهد لهم بالفضل والسبق في علوم شتى، فشدت إليهم الرحال من داخل الجزائر وخارجها للأخذ عنهم والإستجازة منهم .

---

[1]-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 285.

[2]-ينظر: أحمد بحري، **حاصرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث (1500– 1900م)**، إشراف: محمد بن معمر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران السنة الجامعية:2012 – 2013، ص: 211.

[3]-ينظر: أبو راس الناصري، فتح الإله، ص ص: 43، 46.

[4]-ينظر: أحمد بحري، المرجع السابق، ص ص: 213، 214.

3- اللبـاس:

ميز بعض الباحثين حسب ما وجد في مصنفات الرحالة والمؤرخين بين لباس سـكان السهول والجبـال وبين المناطق الصحراوية بالمجتمع الريفي والبدوي، لتختلف نوعية اللباس باختلاف الطبقات وثروة الأفراد وفصول السنة[1]، ولكن لا يرى ذلك التمايز بشكل جلي في المجتمع الريفي؛ كما هو الحال بالنسبة للمدينة[2]، التي تكثر فيها الأجناس وتختلف فيها طبقات المجتمع بين الحاكم والمحكوم بمختلف شرائحه وأصوله وبين مختلف وظائفه ومهامه. فلباس العربي الريفي الساكن بالسهول في الدواوير المنتشرة عبر المساحات السهلية والداخلية فحسب " لوجي دي تاسي ": فلباسه الحايك الذي يغطي الجسد كله وهو من الصوف الأبيض، في حين يتميز شيخ القبيلة بلباسه عن العامة حيث يرتدي برنوساً[3] من صوف أبيض أو لون آخر وله قلمونة [4].

وبنفس الوصف تقريباً يتفق معه " دارفيو " في الربع الأخير من القرن 17م، فذكر أنهم يلتحفون بلحاف أبيض، والبعض منهم يلبسون قمصاناً وسراويل، ويشجعهم حر الصيف على الاكتفاء بهذا اللحاف. بينما يولي المرابطون أهمية خاصة للقمصان والسروال رغبة في الظهور في أحسن حال. بل يتميز عن عامة الناس بان يضع لحاف من كتان يغطيه من رأسه إلى قدميه، والذي

---

[1]-عمار عمورة، الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى 1962، المرجع السابق، ج2، ص 224.

[2]- يصف هاينريش هندام المرأة الحضرية بأنها ترتدي الحجاب على الحايك في الشارع، والقناع الذي يسمى " العجار" بالعامية الجزائرية...وداخل البيت ترتدي بدلة من قماش مطرز بالحرير والخيوط الذهبية، وتغطي شعرها بطاقية حمراء تسمى " البنيقة" . ينظر: هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج1، 137.

[3]- **برنوس:** نوع من المعاطف ذات قبعة Capuchon، ينظر: أحمد سليماني، تاريخ المدن الجزائرية، دار القصبة، الجزائر ، 2007 ، ص 75.

[4]- عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص:277.

- Tassy (L.de), **Histoire du royaume d'Alger**, Amesterdam, Henir du Sauzet, sont date , P56.

يرى فيه نوعاً من الالتزام بالطهارة التي يوجبها الإسلام[1]. أما وليم سبنسر كتب:" أن الرجل العربي الريفي يلبس لباس أبيض يغطي جسمه ويحيط به، يسمى القندورة أو الحايك، هو ثوب فضفاض عريض متصل جوانبه بأكمام، ويتحزم بحبل ويغطيه البرنوس يدعى الجلابة في المغرب الأقصى[2]، وتدعى في تونس جبة وفي الجزائر البرنوس، غير أن الرحالة المغربي أبو العباس الهلالي السجلماسي، يعرفه بإسم البرنس جمع برانس في قوله :"واشترى الحجاج هنا برانس كثيرة، بيضاء ومخططة وبرانس هذه البلدة[3] محتاج إليها في الطريق أوان الشتاء نافعة جداً لصفاقتها ومتنانتها مع رخضها هنا غالباً "[4]، هذا عن التسمية كما يزيد ويتميز العلماء وزعماء القبائل العربية والرسميون المعينون من طرف الأتراك العثمانيون بلبس عمامة صغيرة وهي قطعة شاش من الصوف تزينها الصور والرموز ويشير عدد القطع منها وترتيبها إلى رتبة وشغل لابسها [5].

والبرنس أو البرنوس كما وصفه دارفيو لحاف من الحرير أو من الصوف يكون عادة أسود اللون ليلائم فضل الشتاء، وله حاشية من الحرير كزينة توضع على أطرافه، وهو ضيق في أعلاه واسع جداً في أسفله، وله جزء يلتصق به يشبه ذاك الذي يضعه الراهب ويقصد ما يغطى به الرأس وهو أيضاً أما من الصوف أو الحرير وهو مثلث الشكل ملتصق بالبرنس يسدل تحت الرأس من الخلف

---

[1]- كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 330.

Chevalier d'Arvieux , **Mémories du chevalier d'Arvieux**, Paris, Libraire le Fils, sans date,p :284.

[2]- ويسميه أبو القاسم الزياني (1147هـ/1249): جبة في قوله" وكانت لهم جبة لباس "، ينظر:" الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، ص: 144.

[3]- يقصد مدينة فجيج وهي في الحدود بين الجزائر والمغرب.

[4]- قد يكون سبب الإشتراك في نفس التسمية مع الجزائريين؛ هو قرب مدينة سجلماسة بلاد الرحالة من أرض الجزائر فتشابهت التسميات فيما بينهم. ينظر: أبو العباس الهلالي السجلماسي(1114هـ/ 1175هـ)، التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، تح: محمد بوزيان بنعلي، تقديم: أحمد بوحسن، ط1:2012م، ص ص: 115، 129 .

[5]- وليام سبنسر، المرجع السابق ، ص ص: 103، 105.

ويستمل عند الضرورة في فضل الشتاء، ويظن دارفيو أن اعتماد اللون الأسود فيه نوع من التواضع ويضفي جمالاً وأناقة على الرجل حين يلبسه، كما تميز اللون الأحمر في البرنس لذوي الجاه في البادية وللأطفال أيضاً، و يلبس البرنس الأبيض من قبل المفتين ورجال العلم[1].

وبشأن لباس المرأة الريفية وكما يصفها وليم سبنسر بالمرأة الفلاحة في البادية ويقصد الأراضي السهلية، فقد ذكر سبنسر أنها تلبس حايكاً وتحته قميصاً وسروال، وجعل الجزء الأعلى من الحايك على شكل كيس بقصد حمل الولد الرضيع. وتغطي رأسها بقطعة قماش قد زينت بخيوط ذهبية وفضية، وتلبس معها قطعة مثلثة من القماش قد زركشت ولونت بتفنن كبير وتدلت على الظهر[2]. أما لوجي دي تاسي فكتب أن نساء المور الريفيات يلبسن عباءة صوفية من الكتفين إلى أسفل الركبتين، ويضفرن شعرهن ويتزين بحلي من المرجان، وأسورة تسور المعصمين والكعبين[3].

أما عن لباس سكان المناطق الجبلية كمنطقة القبائل فيصف حمدان خوجة لباس أهل الريف والبادية في قوله: وتلبس النساء بمنطقة القبائل حايك يشبك بالدبابيس وهو ينسج من قماش ثم يكف بقماش آخر أحمر أو أزرق. ويغطى الرأس بقطعة من الكتان أو منديل قطني. بينما يرتدي الرجل البدوي لباساً من الصوف على شكل كيس مثقوب في الوسط لإخراج الرأس، وبه ثقبان آخران على الجانبين لإخراج اليدين، ويصنع عادة من الصوف الأسود. ويضيف إليه الأغنياء لباساً أخر يسمى البرنوس وعادة ما يكفي برنس واحد صاحبه طول حياته لا يفارق جسده. ويبقى إلى أن يتساقط إرباً إرباً وعادة فإن برنساً واحداً يتبلل وييبس على ظهر صاحبه إما بمفعول الهواء أو بفعل

---

[1]- كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 330، ينظر: الملحق رقم (02)، ص: 465.

-Chevalier d'Arvieux , Op.cit,p284.

[2]- أخذ وليام سبنسر هذا الوصف استنادا لما قاله Shaw في رحلته، ينظر: وليم سبنسر، المرجع السابق، ص:106.

[3] -De Tassy.Laugier.Op.cit.P.46.

حرارة النار[1]. وفي السياق نفسه أشار هاينريش إلى أن لباس الريفي الجزائري هو عادة برنوس مهترىء يلبسونه ليلاً ونهاراً ولا يغيرونه إلى أن يبلغ أقصى حد من الرثاثة والقدم والاهتراء"[2]. ويشاركه شلوصر في وصفه للباس القروي الساكن بإقليم سيباو (جرجرة) قائلاً: " يرتدي قندورة صوفية، وبرنوس أبيض... يضع فوق رأسه قلنسوة حمراء...وتحتها قلنسوة بيضاء...وعلى الرغم من أن القبائلي ليس نظيف الثياب، ولا هو من هواة الثياب الفاخرة، فإن الأولاد وأولاد أولادهم يحتفظون بالثوب الذي حمله أبوهما، يناهز مائة سنة، ويرقعونه رقعة إلى أن يتساقط عن الجسم، ولا يطرح حتى في هذه الحالة لعدم صلاحيته بل يباع في سوق من الأسواق، أما عن أحذية القرويين بنفس الإقليم يقول:" وحذاؤه خف من الجلد الخام، ويلف ساقيه حتى الركبة بخرق، ويربط بها خفه" [3]، وبنظرة حمدان خوجة في وصف الأحذية عند أغنياء القبائل يلبسون مثل الرومان نوعاً من الكوثرن مربوط بالجلد[4].

ويتضح من هذا الوصف أن شلوصر وهانريش أرادا أن يبرزا درجة الفقر الذي كان يعاني منه الريفي الجزائري وهو تحت حكم الأتراك العثمانيين لأهداف استعمارية، فإن سلمنا بهذا التفسير فلماذا وافقهما حمدان خوجة صاحب الآراء السديدة والمنصفة والرؤيا الثاقبة والكتابة الموضوعية عن الجزائر العثمانية والفترة التي بعدها. ولكن المفارقة هنا لماذا تهتم المرأة القروية أو زوجته بهندامها على خلاف هو، قد يكون التفسير للتذمر النفسي للفلاح القروي من قلة ذات اليد لدخله الضعيف؛ وإنهاكه بالضرائب التي أثقلت كاهله. ولكن لا نغفل مع هذا التفسير أن بعض القبائل كانت مستقلة في حكمها عن الحكم التركي، لذلك لا يلقى عليه اللوم كله-الحكم التركي بالجزائر- في شظف العيش لهؤلاء القرويين.

---

[1]- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص:23.

[2]- هاينريش فون مالتسان،المصدر السابق، ج1، ص:187 .

[3]- ينظر: شلوصر فندلين، المصدر السابق، ص: 96، 99، عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص:278.

[4]- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص:24.

وبوصف هاينريش وشلوصر أيضاً للمرأة الريفية القروية بإقليم سيباو الأكثر أناقة من الرجل، فهي ترتدي حائكاً وقندورة صوفية وقميصاً، وتزين رأسها بظفيرتين مصنوعتين من خيوط صوفية زرقاء تتدليان من الجانبين، وتثبت بهما حلقتين فضيتين مرصعتين بالجواهر ومعلقتين فوق الأذنين، وتضع في معصميها ورجليها أساور وخلاخيل كبيرة، ولما تخرج من البيت فإنها لا تحجب وجهها ويقصد المرأة الأمازيغية[1]. فإذا مرت على " أجنبي " أدارت وجهها، فإن لم تفعل ذكرها زوجها- بضربات خاطفة على رأسها – وقد يكون دواعي السفور والتخلص من النقاب إلا لدواعي اقتصادية، على خلاف المرأة العربية فقد كانت منقبة على حد وصف هوداس[2]. وفي الاحتفالات تظهر المرأة الأمازيغية أمام الرجال تشاركهم الغناء والرقص مستعينة بالمكحلة (البندقية) أو السيف[3].

أما عن لباس سكان الصحراء بالجنوب الجزائري من الرجال، فكانت ألبستهم أقمصة وسراويل قصيرة ومعاطف، ويرتدون فوقها البرنوس ذي لون أحمر أو أزرق بضفائر من حرير [4] ، وهذا الحرير والملف[5]، كما يسميه العياشي يجلب للمناطق الجنوبية كمدينة ورقلة من تنبكت ومن بلاد أكيدز

---

[1]- ينظر: هاينريش فون مالتسان، ج2، ص:148، شلوصر فندلين، المصدر السابق، ص: 100، عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص:278، كمال صحرواي، المرجع السابق، ص: 331.

[2] -Houdas, Op.cit,p 83.

[3]- أما عن لباسها في هذه المناسبة نفس لباس نساء السهول الريفيات لباس عادي هو الحايك الذي يربط بحزام من الصوف، ويتعدى الحايك أسفل الركبتين وتتزين بأقراط كبيرة الحجم من الفضة وغالباً نحاسية وحديدية، وأساور تسور المعصمين والقدمين وسلاسل من مرجان توضع على الصدر. ينظر: **الملحق رقم (01)**:ص464.

-De Tassy Laugier,Op.Cit,P 337.

[4]- عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص:280.

[5]- **الملف:** فيه ألوان فهناك ملف وردي أو العكري كما ذكر ذلك ابن حمادوش. ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري(1125هـ/ 1713م)، رحلة ابن حمادوش، ص ص: 98، 118.

من أطراف السودان وهذه البلدة هي مجمع للقوافل الآتية من تلك المناطق البعيدة"[1]، كما يؤكد صحة جلب واستراد الحرير من المناطق الجنوبية الرحالة ابن الدين الأغواطي؛ وبالضبط من منطقة توات والقورارة [2]. وسكان ورقلة يسمون الرواغة ولونهم أسود ولباس أهلها من الصوف والقطن[3]،

ولم يقتصر لباسهم على الحرير والصوف أو الملف فقط بل كانت هناك ألبسة تصنع من الكتان[4]. وهذا هو لباس المرأة الريفية الصحراوية فقد كانت ترتدي أقمصة من كتان وهي من نوع جيد وسراويل قصيرة مبتورة مثل الرجال، ومعطف حريري، وفوق ذلك عباءة إلى منتصف الساق بذراعين طويلتين. وفي المناسبات الاحتفالية تلبس معطفاُ أحمراً أو أزرقاً في العادة، وتربطه بكتفيها بواسطة إبزيمات من الفضة. كما تضع هذه الإبزيمات أيضاً بأذنيها للتزين، مع خواتم فضية وأسورة في المعصمين والكعبين. ولا يختلف لباس المرأة النبيلة عن لباس المرأة العادية من حيث الصنع فلباس الأولى مصنوع من الحرير والثانية من الصوف في فصل الشتاء ومن الكتان في فصل الصيف. وقد تميز جل أهل الصحراء برتداء الملابس الصوفية من مدن وقرى كمدينة الأغواط[5] وقرية المنيعة من بلاد الزاب، وأهل تيميمون وقورارة، الذين تميزوا بلباس ما يعرف بالساي الأسود المصنوع إما من الصوف أو القطن، وهذا النوع من الثياب عرف به

---

[1]- ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 80 .

[2]- ابن الدين الأغواطي، رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين في شمال أفريقيا والسودان والدرعية (1243هـ/1829م)، ص: 95.

[3]- المصدر نفسه، ص: 92.

[4] العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 118.

[5]- **الأغواط**: ترى أوديت بوتيت أن أصل الكلمة هو جمع لكلمة غوط، ويعني المنزل المحاط بالبساتين، ومجموع غوط هو أغواط. بينما يرجع البعض أصل التسمية إلى طبيعة الجبال المسننة على شكل منشار تسمى باللهجة الأمازيغية الأغواط، وهذا الشكل موجود فعلاً شمال غربي المدينة. تقع منطقة الأغواط في الجهة الجنوبية الشرقية للجزائر وهي عبارة عن سهول ممتدة بين وادي مزي وواد مساعد من الجهة الجنوبية للمدينة، ينظر: فاطمة دجاج، مجتمع الأغواط خلال القرن 13هـ/ 19م، من خلال الكتابات الفرنسية" دراسة تاريخية، أطروحة دكتوراه، جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي، 2019/2018م، ص ص: 21، 23.

أهل الطوارق أيضاً وسراويلهم كما يقول ابن الدين الأغواطي تشبه سراويل المسيحيين[1].كما تتصنع الفتيات بألوان مختلفة يضعنها على الوجه، وأسفل الأصابع [2] .

وقد أكد الفرنسي فرومونتين في رحلته إلى الصحراء الجزائرية عام 1853م أن الرجال والنساء يشتركون في ارتداء لباس واسع فضفاض، فهو لباس الأمراء ولباس الزهاد المتقربين إلى الله ولباس الراعي المسكين على حد سواء[3].كما أبدى فرومونتين إعجابه بهذا اللباس الذي يمتلك الصبغة محلية وهو على حد وصفه أكثر جمالاً من الزي اليوناني[4]. وهذا ما أثبته العياشي منذ القرن 11هـ/ 17م، في زيارته لمدينة تقرت ووصفه لأميرهم من بني جلاب في قوله:" وليس عليهم أبهة الملك، بل يخرج الأمير منهم وحده، أو مع رجلين وهو عند أهله كواحد منهم في جلوسه وكلامه "[5]. وبوضوح المعنى يستقرا العياشي بساطة الهيئة في المظهر والرفقة ومنعكساً لبساطة اللباس وإن كانوا من أهل السلطان. وبنفس الوصف والهيئة كان عامل سلطان ورقلة على قرية تسمى المنيعة[6]، بل أسوء كما قال العياشي:" وهمته على قدر مستعمله، وقد أخبرني من رآه أسود حافي الرجل عاري الرأس، في ملاءة وسخة، ومع ذلك يتحاكم إليه أهل قريته ويذعنون لأمره"[7].

ومن العادات الغريبة والتي تمس اللباس عند أهل القرى الصحراوية يصف العياشي مدينة ورقلة وتخوفهم وتخلصهم من ملابس مواتاهم في قوله :" وفي باب المدينة التي نزلنا من قبله خرق كثيرة من صوف وكتان، أكثرها صحيحة لا قطع فيها يصلح للانتفاع بها، وليس مثلها مما يرمى به في العادة.

---

(1)- ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص:91، 98.

(2) -De Tassy.Laugier.Op.cit.P.53.54.

(3)- كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 330.

(4)- المرجع نفسه، ص: 331.

(5)-العياشي، المصدر السابق،ج1، ص:122 .

(6)-ينظر: المصدر نفسه ، ج1، ص: 111.

(7)-المصدر نفسه، ج1، ص: 111.

تعجبنا من كثرتها مع صحتها، ولا نعلم في عدم أخذ الناس لها وتركهم الانتفاع بها، وهي لو جمعت لكانت أحمالا. وسمعنا هناك أنها ثياب الموتى، وأن من مات ألقيت ثيابه التي عليه عند الموت هناك ولا تمس، ولا نعلم صحة ذلك والله أعلم "[1].

4- الغـــذاء:

يعتبر الطعام واللباس والسكن من مقومات الحياة لأي مجتمع بشري على أرض البسيطة، ومن صلب الحياة اليومية لأي مجتمع،كيفما كان دينه وأصله وموطنه، ومنه تتضح الرؤيا والملامح الجلية للمستوى المعيشي له من فقر وغنى، من رغد العيش أو شظفه، وبأكثر دقة يعرف تحظر مجتمع من تخلفه، بتسليط الأضواء على تجمعاته البسيطة، من قراه ودشوره وبواديه، وبمسمى أخر من أريافه العديدة إلى أطيافه البعيدة يتم الحكم عليه، ومن المؤشر الأول وهو الغذاء الذي يعتد به في هذا المجال بالنسبة لسكان الأرياف والبوادي بالجزائر خلال العهد العثماني، نستهل الحديث عن هذه الضروريات:

يقوم مفهوم النظام الغذائي على التعريف بجنس الأطعمة والاشربة وطرق الحصول عليها وتوفيرها وتوزيعها واستعمالها وادخارها، وعلى آثار مجموع العلاقات القائمة عليها، من قيم ورموز وضوابط سواء في حالة الوفرة أو القلة من مؤسسات وتراتب اجتماعيين وسلوك وممارسات، وعوائد وأعراف، وتصورات ومواقف وتدبير زمني وجغرافي وكمي ونوعي للموائد والأطباق"[2]، هذا كمفهوم شامل للنظام الغذائي.

في حين يقول أبو العباس الهلالي السجلماسي(1114هـ/ 1175م) في رحلته عن التعريف بمعنى الطعام إصطلاحاً :" أن الطعام ما غلب اعتياده لأكل أدمي أو إصلاحه أو شربه غير ماء... لكنه قد

---

[1]-المصدر نفسه، ج1، ص:118 .

[2]- محمد البركة، سعيد بنحمادة-عبد الهادي البياض، النظام الغذائي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط دراسة في سوسيولوجيا الأحكام والقيم والعوائد، ص: 1.

يكون الشيء معتاداً للأكل في بعض البلدان ولمجرد التداوي في بعضها، ويجري عليه في كل بلد حكمه كما قال البرزلي"[1]. ويقول الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان:" أن معرفة الأطعمة الوطنية لشعب من الشعوب تندرج في إطار معرفة عاداته وتقاليده"[2] .

ومن هذا المنطلق فقد ارتبط النظام الغذائي في الجزائر بعوامل مختلفة على رأسها الوضعية الاقتصادية للسكان، حيث كان سكان الأرياف أو البوادي يتمتعون بالقناعة والبساطة وغذائهم كان غير متنوع حيث كانت الأغذية بسيطة عبارة عن حليب وفواكه (كسكسي، خبز (كسرة)، تين، زيتون، تمور، زيت)، وكان اللحم يحتل مكانة الشرف في كل الوجبات ولا يستهلك إلا مرة واحدة في الأسبوع من طرف العائلات الميسورة الحال، أما الفقراء فلا يتناولونه إلا في المناسبات أو في أحداث هامة، أو في حالة قسمة شاة مضحاة بعد حادث أو موت في جماعة[3]، بالإضافة إلى استهلاك الحليب الذي من المفترض أنه كان غير متاح لكل السكان[4].

هذا بالإجمال عن الطعام المستهلك بالجزائر العثمانية، وبنوع من التفصيل فقد اختلفت مصادر الطعام الذي عرفه ريف الجزائر خلال الفترة المدروسة:

أ- المصادر النباتية :

- **الحبوب:** تحظى الحبوب بنوع من القداسة عند سكان بلاد المغرب، وتعتبر الغذاء الأساسي لهم، فلا يليق أن تدنس أو تداس بالأقدام، أو بحوافر الدواب خاصة بعد تصفيتها

---

[1]- أبو العباس السجلماسي، **التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبر عليه الصلاة والسلام**، تح: محمد بوزيان بنعلي، تقديم: أحمد بوحسن، وجدة: مطبعة الجسور، ط1: 2012م، ص: 138. البرزلي.

[2]- هاينريش فون مالتسان، **ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا**، المصدر السابق، ج3، ص:60، بن عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص: 139 .

[3] -Nacereddine Saidouni ,OP .Cit , 284 , 285 .

[4]- حمدان خوجة، المصدر السابق ، ص: 62 .

وخزنها[1]. وقد وجد هذا النوع من الإنتاج بكثرة في العديد من القرى الجزائرية التي مر بها الرحالة المغاربة خلال العهد العثماني، بإعتبار أن شغلهم الشاغل البحث عن الماء والكلا والمؤونة، وما يهمهم في تلك المؤونة ما يساعدهم ورواحلهم على البقاء أحياء، بأهم مطعم للإنسان والدواب على حد سواء، وهو حب الشعير وبه يكون الدقيق ويصنع الخبز كغذاء للغني والفقير. وأهم من فصل في الموضوع عن قرية بوسمغون الرحالة أبو العباس الهلالي السجلماسي في قوله:" وفي هذه البلدة شعير جيد جداً وأخبرونا أنهم يعالجونه في الحرث وما بعده ويقاسون فيه جهداً...ونالت دوابنا بكثرة الشعير عيشاً رغدا "[2]، كما وجد بقرية أولاد جلال وأم قرار والزرايب والأغواط[3] ووكذا قرية سيدي عقبة فائضة الإنتاج رخيضة الأثمان لحب شعير في حديث السجلماسي ايضاً:" وأشترى الناس ما احتاجوا إليه من الشعير ووجده رخيصاً بالنسبة إلى بسكرة "[4]، أما عن مدينة بسكرة فقد كانت محط تمويل للمناطق المجاورة لها بالدقيق على اعتبار وجود أرحاء الماء فيها دون غيرها، وهي مطاحن الحبوب الخاصة وتكاد تكون الوحيدة بالمنطقة. ومن الدقيق يصنع العديد من أنواع الطعام كالخبز، والذي يعتبر المادة الرئيسية في غذاء سكان الأرياف، وللخبز أنواع منه الخبز الأبيض ويكون من دقيق الدرمك الدقيق الصافي الخالص، ويستهلك من قبل الطبقة المترفة، أما خبز عامة الناس فهو من الشعير والذرة والدخن ويسمى الأسمر أو الأسود [5].

---

[1]- عبد المالك بكاي، الحياة **الريفية في المغرب الأوسط من القرن (07-10هـ/ 13-16م)**، تلمسان-الجزائر: النشر الجامعي الجديد، ط: 2017م، ص: 94. محمد استيتو، **الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16و17**، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، 2004، ص: 335.

[2]-السجلماسي، المصدر السابق، ص:131 .

[3]- ينظر: أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 127، السجلماسي، المصدر السابق، ص ص: 143، 155، 167.

[4]-ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص ص: 166، 167، محمد بن عبد السلام، المصدر السابق، ج1، ص: 192.

[5]-عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 94.

وطريقة صنعه تكون بأخذ السميد ويبلل ويخلط بالملح ويترك لفترة حتى يرطب ثم يعجن جيداً ويخلط بالخميرة ويضاف له قليل من الماء ويوضع عليه دقيق رقيق ويعجن به، ثم يصنع به شكل قرص ويوضع على منديل أو كتان أو صوف ويغطى بجلود الضأن ويترك حتى يتخمر، وعلامات تخمره ارتفاعه، ثم يوضع في الفرن وعند نضجه يخرج وينظف ويوضع في وعاء ويستعمل عند الحاجة إليه[1].

ومن الأكلات التي يستعمل فيها الخبز شرب اللبن من القربة، ومن الدقيق أو السميد أيضاً يصنع ما يسمى بالفطير في بعض المناطق الشرقية للجزائر كبني ورتلان حسب نعت الورتلاني وفي مناطق أخرى يسمى بالمسمن [2] .

ولكن حسب أبو العباس السجلماسي كما سبق، يختلف الطعام بالجزائر خلال العهد العثماني وطبيعته من بلد لآخر ومن منطقة لأخرى، فللموقع الجغرافي والإمكانات الإقتصادية هيمنتها في فرض طبيعة الغذاء أنذاك، ولكن الطعام المشهور في كل بلاد الجزائر مدناً وأريافاً قرى وبوادي، والذي يعتبر الأكلة الرئيسية لدى الجزائريين بإختلاف طبقاتهم، وهو من الأطعمة الموغلة في القدم والتي ورثت من الأجداد[3]، هو الكسكسي غذاء ممتاز أساسه القمح، أما عن طريقة تحضيره فمختلفة يؤخذ القمح المطحون أو كما يسمى بالسميد ويوضع في قصعة مصنوعة من الخشب، ويرش بماء به ملح ثم يحرك بأطراف الأصابع حتى يلتئم بعضه ببعض ثم يحرك بين الكفين برفق، ويفتل حبات صغيرة عادة، حتى يصير بحجم رؤوس حبات النمل وبعدها ينفض بغربال حتى يسقط ما بقى من الدقيق، ثم

---

[1]-عبد المالك بكاي، المرجع نفسه، ص: 94. الحسين فقادي، **من مظاهر التغذية في تاريخ المغرب الوسيط، مقال في مجلة أمل عدد خاص حول الأطعمة والأشربة في تاريخ المغاربة**، العدد 16، السنة السادسة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب 1999، ص: 36.

[2]- الحسين بن محمد الورثلاني السطيفي الجزائري، الرحلة الورثلانية"، ج2، ص ص: 248، 249.

[3]-عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 95.

يوضع في كسكاس ويطهى بالبخار[1]، ويقدم على شكل كومة به سمن وزبدة وحساء وبصل وفلفل وخضار ويسقى بالمرق، ولا يخلو من اللحم أبداً. وقد تكون هذه الملحقات وغيرها قليلة أو كثيرة، متنوعة حسب الإستطاعة. وكثيراً ما يصب اللبن أو الحليب فوق كومة الكسكسي، ويكلل ذلك كله عند الأغنياء بالزبيب وبالتين وشرائح البطيخ، ويمكن تقديمه أيضاً بالبيض المسلوق أو أعشاب حلوة[2].

كما كان الكسكسي الطبق المتميز في إكرام الضيف عند الجزائريين[3]، وخاصة بالمناطق الصحراوية وهذا ما أشار إليه بعض الرحالة المغاربة أمثال: أحمد بن ناصر الدرعي في قوله عن كرم أهل وادي الأساورة من إقليم توات:" نزلنا بإزاء دار الأخ سيدي محمد بن أبي زيان وأدخلنا مع جماعة من أصحابنا ...وأطعمنا البسر والكسكس واللحم حتى شبعنا" [4] ، والبسر هو تمر النخل قبل أن يرطب [5] ، ويعتبر التمر من الأغذية الرئيسية ومن الثمار الوافرة في المناطق الصحراوية إلى جانب الحليب، وهذا ما أثبته ابن الدين الأغواطي في وصفه للواحات الصحراوية الجنوبية، كواحة توات وقراها المتعددة كتميمون وبلدة أولف وقرية أوالن، وواحة واد سوف ودشورها الكثيرة، والتي تعتمد على حليب الإبل[6].

---

[1]-ينظر: وليام شالر، المصدر السابق، ص: 87، احمد سليماني، المرجع السابق، ص 74، عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 95.

[2]- ينظر: هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج1، ص: 227، وليم شالر، المصدر السابق، ص: 87.

[3]- وقد كان الكسكس لأهميته الغذائية والاقتصادية ضمن ما أهداه باي قسنطينة لأبو القاسم الزياني، كتكريم له عند تجهزيه بمؤنة السفر للبقاع المقدسة:"، في قوله:" فانه حامل له على عشرة بغال مخلص كراؤها ...ثمانية من كل شيء بشماطاً، وكسكساً وارزا وسمناً وخليعاً وزيتاً وزيتوناً، وخلاً وعسلاً وصابوناً وشمعاً وابزار وتمراً وزبيباً وتيناً، الادم في أوانها في " الكريوات" والطعام في " الخناشي " عدى الملح والبصل لم يذكروا في الزمام ". ينظر : أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص: 159.

[4]-أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية (1709م- 1710م)، ص:124.

[5] -**بسر**: من مادة (ب، س، ر)، لسان العرب، ص: 124.

[6]-ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 96 .

وعلى التمر كغذاء أساسي لها وتمرهم من أطيب ثمار تلك البلاد[1]، ومن أقصى الجنوب إلى الجنوب الشرقي ومدينة النخيل ورقلة، وكما يسميها العياشي واركلا وقراها المذكورة سيدي خويلد وقرية الطيبات كلها قرى غنية بالتمور[2]. إلى جانب قرى واد ريغ وما تزخر به من واحات النخيل الغناء، كواحة تقرت بلدة الثروة والرخاء ولها نفوذ على أربع وعشرين قرية، فمن أعالي منائر البلدة يمكن مشاهدة عدد من القرى وغابات (النخيل) في المناطق المجاورة، كالنزلة وتيسبست وتماسين والمقارين والمغير وغيرها[3]. وهي واحة خصبة منتجة للتمر والتين والعنب والرمان والتفاح والمشماش والاجاص، وغيرها من الفواكه وسوقها كبير جداً [4].

ب- المصادر الحيوانية:

- **اللحوم:** تعتبر الماشية المصدر الأساسي للحم، ولأن من مقومات الاقتصاد الريفي الرعي، ولقد اعتبرت القبائل العربية التي دخلت المغرب من البدو الرحل، وحتى القبائل البربرية قبائل رعوية بامتياز[5].

وتفيدنا تأليف الجغرافيين والرحالة في فترات متلاحقة، بمعلومات مهمة عن كثرة المراعي ووفرة الماشية في أرياف الجزائر العثمانية، فمثلاً سكان إقليم بني راشد والذين يسكون السهول أو البادية على حد وصف حسن الوزان في تلاله الشمالية، أين يصلح الزرع وتجود المراعي[6]، وأين يعيشون

---

[1]-ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 123 .

[2]-ينظر: العياشي، المصدر نفسه، ج1، ص:114 ، ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص:95، 96 .

[3]-حسب سكان مدينة تقرت يقال: أنه من المستحيل رأيت قرى مدينة تقرت من المنائر لبعدها، فمثلاً قرية المغير تبعد 100كلم عن تقرت. ولهذا قد يكون وصف الأغواطي ليس كشاهد عيان بل سامع ونقلاً فقط عن غيره .

[4]-ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص:100، 101.

[5]-عبد المالك بكاي، الحياة الريفية في المغرب الأوسط، ص: 97.

[6]-يقول مرمول كربخال عن سكان إقليم بني راشد :" سكانها بربر من قبيلة مقاطع من سلالة بني راشد، وهم فرقتين: أهل الجبال ويسكنون القرى ويشتغلون بزراعة الحقول والكروم، أما غيرهم فيجوبون الآفاق كما يفعل الأعراب، وهؤلاء أعظم غنى وشهرة وأكثر خيلاً وجمالاً "، إفريقيا، ج2، ص: 324.

تحت الخيام معتنين بماشيتهم ولهم عدد وافر من الجمال والخيل[1]، كما لهم سوق أسبوعي يعقد يوم الاثنين بمدينة معسكر، إحدى القرى الكبرى لإقليم بني راشد يقصده كل من البربر والأعراب لبيع ماشيتهم، ومن هذه السوق تتزود باقي النواحي بالمنطقة، ونفس المقال عن جبال الجزائر بدار السلطان، فقد أكسبها موقعها الجغرافي الخصب "كمية عظيمة من الماشية والخيل"[2]. ومن الأطلس التلي للأطلس الصحراوي وجبل عمور فسكانه أيضاً كان لهم اهتمام بالغاً بتربية الإبل والماعز والغنم.

وهذا الشأن اشتركت فيه الكثير من المناطق الريفية بالجزائر خلال العهد العثماني، ففي الشق الشمالي للغرب الجزائري وقرية زمورة يقول عنها الورتلاني:" وهذه البلدة كثيرة اللحم...ذات زرع وضرع"[3]، وفي الجهة المقابلة مع أرياف بايليك الشرق قريباً من قصر الطير في مكان يقال له المرجة الكثير الزرع والضرع أيضاً[4]. وفي الصحراء الجزائرية يصف ابن الدين الأغواطي أهل قرية تيميمون، بأنهم يملكون قطعاناً كبيرة من الماشية ... أغنامهم مثل غنم السودان، مغطاة بشعر أسود يشبه شعر الماعز ولها أذناب طويلة"[5]. وبقصور واد مزاب[6] تحط " العريان بما لا يحد ولا يوصف ويجلبون إليها الكثير من المنتجات من بينها الغنم والزرع ما فوق الكافية "[7]، وفي نواحي الظهرا المشهورة بكثرة الماشية يقول أبو طيب الفاسي عن قرية مشرية:" وألقينا فيها من السمن والأغنام غنيمة الأنام "[8]،

---

[1]–حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 26 .

[2]–حسن الوزان، المصدر نفسه، ج2، ص: 46، عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 97.

[3]– الحسين الورتلاني، الرحلة الورتلانية، ج1، ج3، ص ص: 189، 190، 376.

[4]–نفسه، ج1، ص ص: 194، 195.

[5]– ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 93.

[6]–قصور واد مزاب خمسة قصور هي :" العطف ، بُنُر، بني يسكن، مليكة وغرداية. ينظر: عبد الرحمن أبن ادريس التنلاني التواتي الجزائري (ت 1233هـ/ 1817م) إلى الجزائر العاصمة، المصدر السابق، ص: 256.

[7]– المصدر نفسه، ص: 256.

[8]–محمد الطيب الفاسي، المصدر السابق، ص: 212.

وقبل منطقة الظهرا في الطريق الرابط بين مدينة البيض وبشار وجدت قبائل أولاد جرير يعرفوا بكثرة الغنم عندهم[1].

أما المصدر الثاني للحوم فهي لحوم الصيد وقد أفردنا له عنصر خاص كمهنة ممارسة في أرياف وبوادي الجزائر العثمانية، وسيكون التفصيل فيه حول الحيوانات المصطادة الجائز فيها والمحرم.

ومن المواد الحيوانية التي أكلت في أرياف الجزائر الأسماك، حيث كانت دلس من أهم مناطق اصطياداً للسمك فقد كان صيدهم وفير لا يباع ولا يشترى، بل يهدونه لمن يرغب فيه، أو تكون فيه المقايضة لقضاء حوائجهم الأخرى[2]. كما ذكر واد الأشبور وهو واديا قريب من قرية عين ماضي والغاسول وقرية صغيرة تسمى بالنخيلة في المناطق الوسطى للجزائر، سميا كذلك نسبة لنوع من السمك يسمى الأشبور كان يعيش فيه، يقول عنه الحضيكي المتوفي (ت 1189هـ): وادي الشبور واد كبير جار بالماء صيفاً وشتاء وغيصته الطرفاء"[3]. وقد نعته السجلماسي بشاطىء لأشبور[4]، ولكن مع مرور الزمن جف أيام محمد بن الطيب الشرقي:" وهو واد عظيم لا ماء به فضلاً عن السمك"[5]

ومن المأكولات الحيوانية التي أكلت في أرياف الجزائر منذ العصر الوسيط في المغرب الأوسط وخاصة في توات أكل الجراد وهو كثير عندهم، ويخرجون لصيده قبل طلوع الشمس فهو لا يطير تحت تأثير البرد ويقومون باكتنازه كما يكتنزون التمر[6].

---

[1]-والأمر تكرر بإبراز الثروة الحيوانية بقرى وبوادي الجزائر العثمانية.ينظر: محمد بن عبد السلام، المصدر السابق،ج1، ص ص:187، 192، 197.

[2]-ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق،ج2، ص: 42.

[3]-ينظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي (ت 1189هـ)، **الرحلة الحجازية**، تعليق: عبد العالي لمدبر ، الرباط: المغرب مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط1: 1432هـ/ 2011م، ص: 83 .

[4]-ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص: 143.

[5]-ينظر: المصدر نفسه، الهامش رقم: 2، ص:139 .

[6]-عبد المالك بكاي، الحياة الريفية في المغرب الأوسط، ص ص: 97، 98.

وهذا ما يثبته العياشي ليس بتوات فقط بل في كثير من المناطق الريفية للجزائر كقرية كلابية القريبة من زريبة حامد[1]، ولأن العادات متشابهة بين المغاربة في المأكل كما لاحظنا سابقاً، فإن الركب الحج المغربي يستعين في بعض الأحيان في رحلاته الحجية وخاصة في القفار بأكل الجراد[2] في قوله: " وبات الجراد بإزاء الركب في الكلابية وسرى إليه طائفة من الحجاج فأخذوا منه ما استعانوا به في زادهم تلك المدة، وكان الجراد في إبان ولادته بيوضاً "[3].

يستهلك أهل البوادي والأرياف اللحوم، ولكن بشكل محدود ويكاد يقتصر على ميسوري الحال، ومن يملكون المواشي أو القطعان من الأغنام أو الماعز أو الإبل، ولحوم هذه الدواب هي الرائجة في مأكلهم، إلى جانب لحم البقر[4] ولحم الدجاج ولحم النعام والحمام[5]، وهذا ما ذكره أحمد بن ناصر الدرعي في ثنائه على كرم وضيافة البلدان والقرى التي مروا بها مع ركبهم في أرض الجزائر كتوات وورقلة وبلاد الظهرا وغيرها، وأكرم إكرام للضيف عندهم وأحسن إقراء للضيوف بنواحيهم بإطعامهم اللحم، وهذا ما قاله في وصفه لقرية أبوسمغون:" وأضافنا الحاج الشيخ المرابط مفتاحي رحمه الله، صاحب الوالد ونزلنا بداره عام رجوعنا (الحجة ستة وتسعين وألف 1096هـ) بإناء من طعام عليه

---

[1]-**زريبة حامد:** قرية تقع قرب موضع يسمى" الأعرج"، قرب مدينة سيدي عقبة بالجزائر، كان يقطنها عرب نميلة وأولاد سيدي مبارك بن ناجي، أيام مرور العياشي بها سنة 1064هـ/1653م، العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص:537، مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ص: 97.

[2]-أجمع الفقهاء على جواز أكله لما روي عن الرسول صلى الله عليه أنه قال:" أحلت لي ميتتان ودمان، الميتتتان الجراد والسمك،والدمان الكبد والطحان ". ابن ماجة، **سنن بن ماجة**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ج2، دار الفكر: بيروت، ص: 1102، وإذا كان جواز أكله لاقى الإجماع فقد اختلف فيما إذا كان يجب تذكية الجراد أم لا، وإذا كان يجب تذكيته فكيف تكون؟ فهل تكون التذكية بالتسمية فقط، أم تكون بقطع الأرجل والأيدي والأجنحة وإذا اختلك الجراد المذكى والجراد الغير المذكى في القدر عند الطهي، هل يحل الأكل من هذا الجراد. ينظر: عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 98.

[3]-ينظر: ابن الرزين التجيبي، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، ص: 275، العياشي، المصدر السابق، ج2، ص:537 .

[4]-الحسين الورتلاني، الرحلة الورتلانية، ج1، ص: 51، أبو العباس الهلالي السجلماسي، التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام (1114هـ/ 1175م)، ص: 139.

[5]-ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص: 152، مارمول كربخال، إفريقيا، ج3، ص: 159.

نصف شاة لحماً وأناس آخر بثلاث أواني، كثر الله خير الجميع"[1]، وأحياناً إذ لم يتسنى لهم إطعامهم- نقصد أبو ناصر الدرعي وركبه- يقدمون لهم الأضاحي،كهدايا للشيخ وضيوفهم الحجاج فقد:" أضافنا أهل الشلالات بأربع شياه"[2]، وأهل قرية الغاسول:" أتونا بشاتين وسيدي عبد الكريم التواتي بتسع شياه ...وقسمنا ذلك كله للحجاج تقبل الله ذلك من أربابه "[3]، وعن قرية تجموت:" بثلاثة أكباش...وأتى رجل آخر بكبش..."[4]، ومن قرية أم القرار وعين الصفراء :" سبعة رؤوس من الغنم "[5] والكراكدة :" شاة " ومن قرية عمورة فقد أتو بالدجاج[6] كل حسب طاقته ومقدار كرمه. أما عن قرية تبلبالت الواقعة في جوف الصحراء الجزائرية فهم يصطادون النعام ويتغذون بلحومها ويبيعونها للسودان[7]. أما المدن الصحراوية فاللحم فيها بكثرة كمدينة بسكرة وورقلة وغيرها[8].

وما كان يعين سكان بعض القرى والمدن الصحراوية مرور ركائب الحجيج المغربية عليها، فتزدهر اقتصاديا عن طريق التبادل التجاري، وتلتئم وتتضامن اجتماعيا مع ذوي الحاجة وفقراء تلك البلاد، ويجسد ذلك العياشي في حديثه عند دخول قافلة تجارية إلى مدينة ورقلة:" من أعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وابل وزرع اشترى الناس ما احتاجوا إليه بأرخص ثمن، وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك وأكثر، فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن، واشترى الحجاج غنماً كثيرة حتى كأن تلك الليالي الثلاث التي أقاموها ليالي منى؛ من كثرة اللحم"[9].

---

[1]-أحمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص:128.

[2]-المصدر نفسه، ص:128.

[3]-أحمد بن ناصر الدرعي، المصدر نفسه، ص ص:129 .

[4]-ينظر: المصدر نفسه، ص ص: 129 ، 131.

[5]-المصدر نفسه، ص: 127.

[6]-المصدر نفسه، ص:134 .

[7]-ينظر: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص: 159.

[8]-العياشي، المصدر السابق، ج2، ص:540 .

[9]-المصدر نفسه، ج1، ص:114.

ولكن اختلفت طرق إعداد الأكلات باللحم، إذ أدرج التجيبي عشرة أقسام وفي كل قسم عدة فصول لألوان إعداد أطباق اللحم من مختلف أنواعه من لحم الخروف والماعز والإبل والبقر والدجاج ولحوم الصيد كبقر الوحش والوعل والغزال، الحمام واليمام، الأرنب، الفراخ، العصافير، الزرازير وغيره[1].

ومن الأغذية النباتية المأكولة بكثرة وبالأخص في المناطق الريفية ذات الطابع الزرعي الخضار والفواكه.

- **الخضار** : بطبيعة الحال إذا جاء ذكر للخضار في نصوص الرحالة الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني وتمتعوا بخيراتها تأتي في الغالب مجملة وبصيغة الخضار فقط؛ كون تواجدها أمراً بديهي تنتجه وتتغذى به أغلب الشعوب المزاولة للزراعة، وهذه الملاحظات في عمومها تكون حول المدن كمدينة الجزائر[2] قسنطينة[3] وبسكرة[4] وحتى بعض القرى المعروفة بمدينة تقرت وغيرها، وهذا ما نجده في وصف العياشي عنها:" وماؤها طيب عزيز قريب من وجه الأرض ...وكذلك يفعلون بأنواع الخضار والبقول "[5]، ومن الملاحظ هنا تعلق انتاج البقول بمنتوج الخضار وحتى الفواكه ويأتي ذكرهم معاً في غالب الأحيان. ومن الخضار التي جاء ذكرها بالاسم:

---

[1]–ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، ص ص: 18، 288، 312.

[2]–التمقروتي، الفحة المسكية في السفارة التركية، ص: 159.

[3]–أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، ص:

[4]–العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص: 540، الدرعي، الرحلة الناصرية، السجلماسي، المصدر السابق، ص ص: 164. 165، عبد الرحمن المجاجي، رحلة المجاجي، ص ص: 210، 211.

[5]–العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 123.

– **اللفت:** يقول عنه السجلماسي في زيارته للرباوات احدى القرى القريبة من الغاسول وبوسمغون بنواحي البيض:" وجاءوا بلفت يبيعونه للحجاج فرغب الناس فيه مع رداءة لفت هذه البلدة، كما قيل في طوى أجاء إلى محبة عرقوب"[1] ، وبعين ماضي وصلت شكوى لأحد قضاة القرية، من فلاحيها يشكو سرقة لفته من أحد الأعراب[2]. وعن مشرية يصفها أبو مدين الدرعي في قوله :" قرية كبيرة في سفح جبل فيها ماء جاري وأكثر ما فيها اللفت العجيب الرخيص "[3].

كما جاء ذكر للبادجان بالرحلة الناصرية بأم القرار إحدى قرى الظهرا، أين أهديا لضيوف الرحمن للحجاج المغاربة مع القرع كمؤونة يستعينون بها في سفرهم[4]. وللقرع شأن مع قرية عين ماضي؛ إذا جاء أحدهم يبيع برنساً يلبسه يستبدله بقرعة، وأخر يقدم بعيراً أعياً يبيعه بالقرع أيضاً عن طريق المقايضة[5]. وهذا أمر غريب لا نجد له إلا تفسيراً واحد ومن منطلق شرعي، كون عين ماضي قرية عرفت بكثرة الفقهاء والمتمدرسين في الفقه فحباً لما يحب النبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الحديث النبوي عن أنس بن مالك: قدم للنبي (صلى الله عليه وسلم) مرق فيه دباء "قرع" وقديد، فجعل يتبع الدباء حوالي القصعة قال: أنس فلم أزل أحب الدباء من يومئذ، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحبه ويقول:" إنها شجرة أخي يونس"[6] ومن أسماء القرع أيضا الدباء.

---

[1]–السجلماسي، المصدر السابق، ص: 132.

[2]–المصدر نفسه، ص: 142

[3]–أبو مدين بن أحمد بن الصغير الدرعي (1152هـ/ 1739م)، رحلة أبو مدين الدرعي، المصدر السابق، مخطوط بالرباط رقم: 297، و 243 و .

[4]–أبو ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية، ص: 127.

[5]–السجلماسي، المصدر السابق، ص: 141.

[6]–حديث حسن، ينظر: جمال الدين الزيلعي، **تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري**، تح: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، الرياض: دار النشر، ط1: 1414هـ، ج3 ، ص: 181.

كان هذا في المجمل عن ما جاء ذكره لبعض الخضار، أما عن عين ماضي وللأسف وبالرغم من أن قريتهم عليها أساور إلا أن مزارعهم بمحاصيلها،كانت عرضة للنهب من أعراب تلك الناحية، فقط أضروا بهم أيما ضرر فتركوا الزراعة لهذا السبب[1].

أما عن البقوليات كما أشرنا سالفاً فهي في العموم مرادفة للخضار في كثير من الأحيان، كهذه اللفتة الغريبة بنظرة الرحالة المغربي أبو العباس السجلماسي، وعن الفول المطبوخ الذين يباع في الأسواق التونسية من قبل تجار من منطقة بني مزاب كانوا مرافقين لهم في ركب الحج المغربي[2].

وما يعطي للطعام ذوق ونكهة ويضفي عليه لذة، ولا يستغنى عنه عند تحضيره، وهو من مكوناته الرئيسية والأساسية، ما يعرف بالملح أو ملح الطعام، حيث يعتبر من الضروريات للأطعمة المالحة والأطباق المملحة. وقد جاء تواجده في شطوط ملحية، تناثر ذكرها في كتابات الرحالة،كجبل من الملح واقع بالقرب من جبل عمور في الجهة الشمالية من قرية تجمعوت بضواحي مدينة الأغواط[3]، وبنفس المعنى وصف ابن الدين الأغواطي مدينة ورقلة، فكل أرضيها أو أغلبها عبارة عن سبخة من الملح، يدخل في نطاقها مكان يسمى الشط، ومنها تستفيد قرها المجاورة والتي ترى من أعلى مناراتها، كقرية الرويسات، وعجاجب، ومقوسة[4]، وحتى بعين ماضي توزعت الشطوط الملحية على منحدر وادي قريب من القرية من جهتها اليمنى، ينعته السجلماسي بالملح الكثير[5].

---

[1]-ينظر: الحضيكي:" أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي (ت 1189هـ)، **الرحلة الحجازية**، تعليق: عبد العالي لمدبر ، الرباط: المغرب مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط1 : 1432هـ/ 2011م، ص: 83، السجلماسي، المصدر السابق، ص: 141.

[2]- المصدر نفسه، ص:151 .

[3]-السجلماسي، المصدر السابق، ص: 140.

[4]-المصدر نفسه، ص:92.

[5]-المصدر نفسه، ص:92.

- **الفواكــه:** بتصفح كتب الجغرافيا والرحلات نجدها تتكلم بإسهاب بمسميات مختلفة عن كثرة الأشجار والنخيل والبساتين والمزارع، والجنان والثمار والفاكهة بأرياف الجزائر العثمانية وبواديها، فعن قـرية تجــموت يصــفها أحمد بن ناصر الدرعي بكثرت بساتينها وجنانها وتنوع فواكها [1]، وعلى مقربة منها مدينة الأغواط ذات المحاريث الكثيرة والفواكه المتنوعة[2]، يقول عنها الحضيكي_ الأغواط_ قرية ذات نخيل ومياه وفواكه "[3] وبنفس العطاء قرية بسيطة تابعة لها تسمى دمت ذات الأشجار الباسقة والأنواع من الفواكه الطيبة[4]، وهكذا جاءت الأوصاف عن مدينة بشار وضواحيها كالقنادسة وفكيك وتيميمون وورقلة وبلاد توات وقراهم المتعددة كالطيبات وبني أركان وتدكلت. ومن أقصى الجنوب إلى واحات النخيل ومدينة بسكرة بحقولها الغناء المجاورة لها، إلى بلدة سيدي عقبة وقرية بني يعلى في الشمال الشرقي للريف الجزائري وغيرها[5]. فالكل يزخر بطابع فلاحي تباينت أشجاره بين المناطق الوسطى والصحراوية والمناطق التلية والسهول الساحلية فكلها منتجة ومعطاءة للثمار والطيبات من الفاكهة.
- **العنب:** وجد في الكثير من أرياف الجزائر العثمانية وسنحاول ذكر بعض المناطق تواجده بها، فبضواحي مدينة تلمسان أنتشرت أشجار الكروم المعروشة الممتازة المنتجة للعنب من كل نوع طيب المذاق[6]. في حين وصف مارمول كربخال أشجار كرمها ب:" كروماً كبيرة تحمل عنباً حلواً لذيذ

---

[1]-ينظر: أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 127.

[2]-ينظر: المصدر السابق، ص:132.

[3]-ينظر: الحضيكي، المصدر السابق، ص:85.

[4]- أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص:133.

[5]-ينظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، الشهير بالسراج، والملقب بابن المليح، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الأمال والمأرب سيد الأعاجم والأعارب صلى الله عليه وسلم (1040-1042هـ/1630-1633م)، ص: 79، العياشي، ج2، ص: 540، أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 124، الحضيكي، المصدر السابق، ص ص: 83، 85، الورتلاني، المصدر السابق،ج1، ص: 191، 244،الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 90، 96، 99.

[6]-ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق،ج2، ص: 20.

الطعم جيد "[1]، وفي أفنية منازل هنين وبساتينها أشجار الكروم معروشة وغيرها من أنواع الفاكهة[2]. أما فيما يقول أبو ناصر الدرعي عن عنب أبو سمغون بضواحي الظهرا:" لم أرى مثله حلاوة طولاً، ومنذ خرجنا من بلدنا لم أرى مثل عنبنا إلا هذه البلدة "[3] وأستمر وصف الدرعي لهدايا أهالي الظهرا وكرمهم معه وركب حجه، فجاءت من بين العطايا ثمار العنب من قبل أهالي قرية الكراكدة وأم إلياس. كما وجد بقرية بني يعلى وغيرها من القرى القريبة من تقرت والأغواط[4] .

- **التيـــن**:ومن الفاكهة الذائعت الصيت كثيرة الإنتشار في أغلب أرياف الجزائر العثمانية فاكهة التين ذات الأصول العريقة، يصف حسن الوزان تين ضواحي تلمسان بأنه:" شديد الحلاوة "[5] ومارمول كربخال بأن بها :" أجود ثمار التين بإفريقية، وتحمل إلى تنس والجزائر وقسنطينة، وإذا كانت يابسة فإنها تحمل إلى جميع مدن بلاد البربر إلى حدود تنس "[6]، وعن تين هنين يقول التمكروتي :" وهي بلدة مسورة وهي اليوم خربة لم يبقى فيها إلا سورها ومسجدها وبداخل السور أشجار تين"[7] كما جاء ذكر للتين وأشجاره في عدة قرى شأنه شأن الفاكهة الأخرى عند العديد من الرحالة كبني يعلى والكراكدة وعين ماضي، كما أشتهرت الأغواط وتقرت بكثرة تينها[8].

---

[1]–مارمول كربخال، المصدر السابق،ج2، ص:299.

[2]–ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق،ج2، ص:15، عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 96.

[3]– ينظر: أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص:131، 132.

[4]–ينظر: المصدر نفسه، ص ص:129.

[5]–الحسن الوزان، مصدر السابق، ج2، ص: 20.

[6]–وتعتبر تلمسان مضرب المثل في خروب التين والزيتون. ينظر:أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص:108 ، مارمول كربخال، المصدر السابق،ج2، ص:355 .

[7]–علي بن محمد التمكروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية (1589م)، ص ص: 40، 41.

[8]–ينظر: أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص: 129، 132، السجلماسي، المصدر السابق، ص ص:143، 144، الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص:191، الاغواطي، المصدر السابق، ص ص:87،99.

أما عن بقية الثمار والفاكهة فقد تنوعت في ألوانها وأمكنتها بين الأغواط وضواحيها وخوخ أم قرار وكرم أهلها مع الحجاج يقول أبو الناصر الدرعي:" أكثرو من الخوخ أكل كل من حضر حتى شبع وحمل من أراد،..وخوخهم من أجل الخوخ وأطيبه" [1]. كما وجد التفاح والمشماش والرمان والسفرجل [2] والدلاع[3] وغيرها من طيبات الفاكهة، ودلاع قرية أولاد جلال أغربه؛ لأنهم يخزنونه في فضل الصيف ويبيعونه في الشتاء للحجاج المغاربة[4]. أما التمر فقد تكلمنا عنه سابقاً وعن كثرت انتاجه بالمناطق الصحراوية.

- **الدهون:** تحتل الدهون مرتبة مهمة في التغذية وأهم هذه الدهون: زيت الزيتون: اشتهرت به معظم الأرياف، ففي قرية بني يعلى في الشرق الجزائري عرفت بكثرة شجر الزيتون، يقول عنها الورتلاني:" وبلدنا كثيرة الشجر من الزيتون... وإنها كثيرة الثلج ...ومهما كثر الثلج كثر الزيتون "[5]، وفي بسكرة وما جاورها يكثر شجر الزيتون يقول المجاجي[6]:

وفِيهَا مِنْ الزَّيْتُونِ وَالنَّخْلِ مَا لاَ قَدْ يُحِيْطُ بِهِ فِي العَدِ صَاحِبُ فِطْنَةٍ

وفي مدينة بجاية وضواحيها يكثر شجر الزيتون وزيته، والذي يستعمل كأكلة أساسية مع الخبز، كما يقول حمدان خوجة عن الوجبة الأساسية للقبائلي:" غذاؤهم الشعير وزيت الزيتون والتين المجفف والبلوط" [7]. وهو الأخر فيه أنواع منها الزيت الجديد يصفه شلوصر": خاثر لونه غامق وله طعم لذيذ، ويوضع مصفى كان أو غير مصفى في جلود الماعز، وينقل فوق البغال إلى أبعد القرى ويباع

---

[1]– أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص : 127، 132.

[2]– الأغواطي، المصدر السابق، ص ص:87، 99.

[3]–**الدلاع** : البطيخ الأحمر .

[4]–السجلماسي، المصدر السابق، ص: 158.

[5]–الورتلاني، المصدر السابق،ج1، ص: 191 .

[6]– البيت رقم: 310، عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، ص: 211.

[7]–عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، ص ص: 50، 157، حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق، ص: 24.

هناك، ويدعى زيت القبائل ويستعمل في جميع الأطعمة" كما فرق شلوصر بينه وبين زيت أخر أقل جودة منه في قوله: "ويجب التفريق بينه وبين نوع آخر يدعى سيسنى، يستخرج من زيت مر، وهو فاتح اللون وذو طعم كريه، ولا يستعمل إلا بمثابة وقود"، كما يأكل الزيتون بأنواع وأشهره الزيتون الأخضر، والذي ينتج في فصل الصيف، ويجمع الزيتون العذب منه بكمية كبيرة، ويشق طولاً وعرضاً بسكين، ويوضع لفترة وجيزة في ماء ساخن مالح ثم يؤكل، وطعمه مر ولكنه مقبول[1]. أما عن تقاليد عصر زيت الزيتون فعند البعض منهم طقوس خاصة؛ فعن بني ورتلان يروي الورتلاني عن جده:"وجدي كان عنده الزيتون...فجعل حظاً من الزيتون...يلتقطه بطهارة ويعصره بطهارة أيضاً لتتم معارف الشيخ ونوره ولتغتنم بركته"[2].

كما تداولت كتب الرحالة وبكثرة مصطلح السمن وهو من مشتقات الحليب، وقد ارتبط وجوده بما يستانس ويستفاد منه من منتجات الدواب كالمواشي والماعز والبقر والإبل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾"[3] ، وبنوع من التفصيل عن منتجات اللبان في ذاك الزمان حسب ما بينه ابن حمادوش : " زبد وسمن وجبن واقط ومخيض ومضروب"[4]. وقد كثر هذا النوع من الإنتاج الحيواني ونقصد السمن في العديد من الأرياف والقرى الجزائرية كقرية زمورة[5] وعين ماضي والشلالات والغاسول وأم القرار والكراكدة ومشرية[6] وقرية ربا التي قال عنها العياشي:"

---

[1] – فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص: 96.

[2]– عبد الرحمن المجاجي، المصدر نفسه، ص: 158.

[3]– سورة يس، الآية 73.

[4]– **واقط ومخيض ومضروب:** أقط بفتح الهمزة وكسر القاف، وهو لبن محمض يجمد حتى يصبح متحجراً ثم يطبخ. ينظر:ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 144.

[5]– المصدر نفسه، ج3، ص: 376.

[6]– الدرعي، المصدر السابق، ص ص: 127،129، 132، محمد الطيب الفاسي، المصدر السابق، ص: 212.

فوجدنا لديهم سمناً كثيراً وقليلاً من الأبل واشترى الناس حاجتهم من السمن"[1]، وبطبيعة الحال كانت المدن أو القرى الكبيرة بمفهوم بعض الرحالة، أكثر غنىً وأوفر تواجداً لمثل هذه المنتجات مثل: بسكرة وورقلة والأغواط وغيرها[2].

- **العسل:** يتحدث فندلين شلوصر عن طريقة تربية النحل بمنطقة القبائل، "ويستعمل لذلك سلالاً طويلة من الخيزران أو بيوتاً صغيرة من الطين، ويضع السلال خلف بيته، فيدخلها النحل بنفسه، ويبلغ ارتفاع البيوت الطينية ثلاثة أقدام وعرضها قدمين، وهي مزودة بجدارن في داخلها ومقسمة إلى غرف، ويبنيها خارج القرية حيث تكثر الزهور، وإذا شاهد القبائلي تجمع كاف من النحل فإنه يكسر البيت ويأخذ العسل والشمع ويبيعها في المدينة، وطعم العسل جد لذيذ ويوجد بكثرة"[3]. وقد أثر عن الجزائريين سواء في المدن أو الأرياف تقديم العسل للضيوف، لأنه من الأكل العزيزة التي تقدم لهم، فكان يقرن العسل كتحليه للضيف بعد أكل اللحم، ويوجد به أنواع منها العسل الأبيض[4].

أما عن أوقات تناول الغذاء، فلم يكن محدداً بزمن معين، غير أن الترجيح فيه على غالب الظن هناك ثلاث وجبات رئيسية وجبة صباحية والثانية خلال الظهرية ووجبة المساء[5]. وقد تتخللتها وجبات خفيفة وخاصة عند أهل الصحراء بالتمر والماء أو التمر بالحليب، أما مع الضيوف فتختلف

---

[1]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص:548.

[2]- ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص ص:114، 540، السجلماسي، المصدر السابق، ص:143، التنلاني، المصدر السابق، ص: 256، الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 353، أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص: 159، محمد بن عبد السلام، المصدر السابق، ج1، ص: 197.

[3]- فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص: 96.

[4]- ينظر: أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني (ت 810هـ/1407- 1408م)، **أنس الفقير وعز الحقير**، نشر وتصحيح: محمد الفاسي، أدولف فور، المغرب: المركز الجامعي للبحث العلمي جامعة محمد الخامس، ط: 1965م، ص ص: 21، 39.

[5]- عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 99.

الموازين ويغدق الإكرام وتتحف الموائد ويطيب الطعام حباً لله واليوم الآخر[1]، وخاصة حجاج بيت الله الحرام تبركاً بهم؛ كما أجلى ذلك العديد من الرحالة المغاربة وعلى رأسهم أبو ناصر الدرعي وغيرهم [2].

وفيما يمكن استخلاصه في عرضنا لأهم الأطعمة والتي عرفت بأرياف وبوادي الجزائر العثمانية، أن المائدة الجزائرية في الفترة العثمانية، كانت متنوعة وبها العديد من أنواع الطعام بمصادره المختلفة نباتية وحيوانية ودهنية، ولسكوت المصادر عن طبيعة هذه الأكلات، هل أختص بها الأغنياء فقط أم كانت من حظ الفقراء أيضاَ. ولهذا جاء الترجيح على العادية الإنسانية كون الطعام لكل الفئات الاجتماعية وأنما يكون الاختلاف بين الوفرة والندرة وبين الجودة والرداءة.

شهدت أرياف الجزائر العثمانية فترات متعاقبة من المجاعات والأوبئة، على غرار ما كانت عليه المدن، فقد تكلمت عنها المصادر بنوع من الإسهاب سنتطرق للبعض منها أثناء الحديث عن الزراعة وما واجهها من كوارث طبيعية، إلى جانب بعض الأوبئة أثناء الحديث عن الأمراض. أما في هذه الجزئية فسنشير للأطعمة الرائجة زمن الأزمات. حيث كان الأهالي في مثل هذه الأوقات يتناولون اية مادة تسمح لهم بالتخفيف من روع وألم الجوع والبقاء على قيد الحياة.

فعن أعراب وادي بوسمغون يصور السجلماسي معاناة هؤلاء الأعراب مع شدة الجوع والفاقة ونفص الحنطة والحاجة فيضطرون للمقايضة بأغلى ما يملكون لسد الرمق والإبقاء على الحياة ولكن في الغالب يطغى عليهم الجهل في مثل هذه المبادلات كقوله:" تعرضوا لنا أعراب يبيعونهم جلود البقر والمزاود والقرب وذكروا لنا أنهم ليس لهم في هذا الوقت زرع ولا تمر، وإنما يقتاتون اللحم، وأن قافلتهم غالبة لجلب الميرة من وركلا وأنها رخيصة هناك جداً وبينهم وبينها عشر مراحل، وقد شهدت بصدق أقوالهم مشاهدة قرائن أحوالهم فإنهم يبيعون جلد البقرة بالخبزة ويبيعون المزود بكتيلة من التمر، وقد

---

[1]- مصداقاً لما جاء في الحديث النبوي في رواية أبي شريح : قال ﷺ : { ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه }

[2]- ينظر: أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص: 127، 129، 131، 132، 134.

مررنا بهم عجالى ولو وقفنا معهم للبيع لربح الناس معهم...وقد اشترى منهم رجل ناقة بجلود غنم مدبوغة، واشترى آخر شاة فيما ذكر بشيء تافه تافه من ورق العشبة المذمومة المسماة عند أهلها " تبغى " وطلبوا من يشترى منهم حمار بها"[1].

كما تناول أهل الصحراء الجمار وهو قلب النخلة، أما سكان الأطلس المتيجي وسكان الظهرا فقد استهلكوا البلوط بأنواعه ومسمياته كقرية قرب الغاسول وواد المخاليف، مر بهم السجلماسي وركبه فلم يجدوا عندهم شيء يحتاج إليه الركب؛ لشدة فقرهم وفي ثمر البلوط وجدوا قوتهم في ذاك الموسم لجذب أراضيهم وحسب السجلماسي أيضاً فقد فرق بأنواع في هذا ثمر بين المعروف للبلوط وبين بلوط إذا قطع طرفه الرقيق صار الباقي شبيهاً بالبندقة وهو قريب من اللوز في الطعم، وشبيه في الصورة بالبلوط، كما عرف نوعاً أخر من البلوط وهو نبات ورقه كالهندباء يستعمل للعلاج كأدوية أستشافئية [2]. إلى جانب بذور الخروب حيث يقومون بتهريسه، حتى يصبح كالفرينة لجعلها كسرة أو كسكسي[3]، بالإضافة إلى نواة الزيتون بعد طحنها يستفاد منها، ونبات التبودا وهو شبيه بالقصب ينبت عادة في الأنهار والسواقي فيجفف ويصنع منه الخبز"[4] وعسلوج البسباس البري، والخرشوف البري، وعناب السدر، والترفاس أو كما يعرف لغة بالكمأة جمعه كمئات، أستفاد منه عبد الرحمن المجاجي وركبه في رحلتهم الحجية كمطعم لهم ومؤونة في قطع قفار برقة المقفرة في قوله:

وَصَارَتْ لَنَا الكَمَئاتُ قُوتاً لِكُلّ مَنْ قَدْ احْتَاجَهَا فِي رَكْبِنَا فِي البَرِيّةِ[5]

ولمواجهة تلك الأزمات اتبع بعض الحكام وبايات الجزائر العثمانية إجراءات استثنائية لتفادي الكوارث البشرية، كما وقع في زمن محمد المقلش مجاعة أثرت على أهل تلمسان حتى قامت حرب

---

[1]- ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص: 139.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ص ص: 136، 137.

[3] -Nacereddine Saidouni, OP.cit , 284 , 285 .

[4]- عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 100.

[5]- البيت رقم :162 ، عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، ص: 196.

بين الكراغلة والحضر، فتدخل الباي بإحضار 900 جمل تحمل القمح الذي صودر من مطامير بني عامر إثر مشاركتهم مع ابن الشريف الدرقاوي في ثورته ضد البايلك، وفي نصف سنة 1827م على عهد الباي حسن " وقع غلاء عظيم وقحط في الناس إلى أن صار الباشا يفرق خبزاً صغيراً كالرغيف على الناس فسمي العام بعام خبز الباشا[1]. وللعلاج من الأمراض كانت هناك أطعمة مخصوصة تساعد على الشفاء، فعلى سبيل المثال: عندما يصاب الجذافون المسيحيون على السفن الجزائرية بالحمى، كان رب السفينة يرغمهم على الاستمرار في الجدف ويطعمهم بالخبز المجفف ، والماء العذب واللحم المملح، مما يعجل شفاءهم[2].

وما يمكن استنتاجه وقت الأزمة في الحديث عن المأكل بانه غذاء بسيط، وقليل بل قليل جداً وقد يكون منعدماً، مما يدفع الكثير على التغذية بأعشاب البادية وقد تكون مأذية، فتتحول البلية إلى كارثة حقيقية في هلاك الرعية .

- **الأشربة:** تنوعت الأشربة فمنها ماهو طبيعي ومنها ما هو من صنع الإنسان، والذي يدخل في صنع الإنسان فمنها ماهو جائز ومنها ما دخل في دائرة التحريم .

– المـــاء:

تمت الإشارة سابقاً للأشربة البسيطة في مقدمتها الماء، والتي يحتل فيها مكانة مهمة ورئيسية في المنظومة الغذائية، فإن غاب أو قل تصبح معضلة عصيبة. وقد رأينا الأمر مشابهاً للرحالة في ترحالهم وبحثهم المستميت عن مصدر الحياة في مسارهم للبقاع المقدسة وتفصيلهم في الموضوع بين الوفرة والندرة وبين صلاح شربه وملوحة طعمه. فكذلك القاطنين إذا توفرت العيون ووجدت الأبار وجرت الأنهار وجادت الأرض بخيراتها، عاش الناس في رخاء وإطمئنان فكل شيء للماء تابع من زراعة

---

[1]– محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، ص: 247،كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 176.

[2]– أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته وفعالياته، ص: 280.

وإغتناء وصحة وبقاء، أما إذ غاب غابت معه أسباب الاستقرار في المدن نهايك عن الارياف والبوادي. والتفاصيل في الموضوع مع الزراعة ونظام الري[1]. ولكن ما يشار إليه في هذا الموضع كون الماء المشروب الوحيد بالنسبة للقبائل الفقيرة المتمركزة على الحوض المتوسطي والقرى البعيدة في جوف الصحراء أو في المناطق الوسطى. أما باقي المشارب كالحليب واللبان فيقع في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد الماء.

– الحليب(اللبن):

يقول أبو عبد البكري عن البدو وقبائل الصحراء الرحل كان:" شرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب الماء وقوتهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة"[2] وهذا ما يصدق مع سكان الصحراء الجزائرية بوصف الأغواطي؛ من يعرفون بإسم الطوارق، وهم أناس أشداء، طعامهم من اللحم والحليب فقط، والراجح أنه حليب الإبل لكثرتها عندهم ولا يستعملون غيرها كرواحل، وليس لهم حبوب اطلاقاً ومن عاداتهم أنهم لا ياكلون أو يشربون بحضور الناس[3]. وفي واد سوف بالجنوب الشرقي للجزائر عدد وافر من الدشور:"يعيشون على التمر وحليب الابل" على حد وصف الأغواطي[4]

وبطبيعة الحال مصدر اللبن من أصول حيوانية من الأغنام والماعز والبقر والإبل، وهذا ما سبق الإشارة إليه مع الدهون كالسمن والزبدة وهي مشتقات للحليب، وقد عرف الريف الجزائري وفرة على غرار وفرة هذه المصادر[5] إلى جانب ما ذكرناه فقد كانت أعمال تنس من المناطق التي تكثر بها

---

[1]– أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك**، مكتبة المثنى ببغداد، ص: 170.

[2]– ينظر المبحث خاص بنظام الري في الأرياف رقم ص: 369.

[3]– ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 98.

[4]– ابن الدين الأغواطي، المصدر نفسه، ص:96.

[5]– ينظر ص ص: 267،273.

الماشية[1]، وبأرياف عنابة في جنوبها "سهول يعيش فيها جماعات كبيرة من البربر تعيش في دووايرمثل العرب ورجالها أغنياء بما يملكون من الأراضي والخيل والمواشي "[2]. كانت هذه نماذج تعرفنا عن توفر هذه المادة الفعالة في الغذاء الجزائري، ولها مشتقات من الزبدة والسمن وتشترك كل من المدينة والريف في إنتاجها، فماذا عن الأقط والمخيض والمضروب على حد وصف ابن حمادوش في منتجات ألبان المدينة[3]؟، هل يوجود هذا التنوع في الإنتاج بالنسبة لمشتقات الألبان في البوادي والأرياف أيضاً؟ .

إذا وقفنا على مفهوم الأقط فقهياً:(بفتح الهمزة وكسر القاف) هو: شيء من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يحصل (أي ينفصل عنه الماء) والقطعة منه أقطه، وطريقة تحضيره أن يغـلي اللبـن لحامـض المنزوع الزبد على النار حتى ينعقد ويجعل قطعاً صغاراً ويجفف في الشمس، وقال ابن الأعرابي: يعـمل من ألبان الإبل خاصة. يصنع منه الحيس المعروف بالأرياف الجزائرية وهو نوع من الحلوى المتخذ من التمر، والأقط، والسمن "[4].

أما عن مخيض اللبن فهو الطريقة التي تتم إعداده بها عن طريق مخض اللبن أي تحريكه بشدة بعد زيادة الماء فيه وإخراج الزبدة منه، فيصبح شراباً طيب المذاق مغذي للأبدان مهدئ للإنسان. على كل فقد اعتبرت هذه الحيوانات المادة الأساسية في غذاء الجزائريين لسببين فهي تمدهم بالحليب من جهة و باللحم من جهة أخرى.

كما شاع بين سكان تقرت مشروب متميز يسمى (اللاقمي) وهم يستخرجونه من فروع النخيل وذلك بقطعها والضغط عليها، فيحصل من ذلك شراب يميل إلى اللون الأحمر وهو حلو

---

[1]- ينظر: عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 101.

[2]- مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص:8 .

[3]- ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 144.

[4]- محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ج1، ص: 266.

كالشربات (المبردات) وهذا الشراب يباع بمكاييل في الأسواق. ويعقب على ذلك أبو القاسم سعد الله بقوله:" فالواقع أن هذا العصير يستخرج من الجمار وهو قلب النخلة وليس من الفروع[1].

كان هذا عن المشروبات الباردة أما عن الساخنة منها والمنعشة، بوصف هانيريش فون مالتسان في قوله:" ومن جميع الواحات الصحراوية يجتمع العربي والبسكري والقبائلي والميزابي والنائلي والتوقرتي، والأغواطي وباختصار أناس من جميع مناطق الجنوب الشرقي للجزائر؛ لاحتساء فنجان قهوة في إحدى المقاهى الصغيرة بمدينة بسكرة[2]. قد يكون هذا الوصف غريب ولكن لا يستغرب في مثل تلك الفترة، فشرب القهوة ليس ميسر للجميع لعدم رواجها بالمناطق الداخلية والصحراوية بالجزائر العثمانية وحتى مع بداية الاحتلال، ومع ذلك فقد وجدت وشربت من بعض سكان الأرياف فإن لم يكن في مواطنهم ودورهم ولكن في المدن القريبة منهم.

– الأشربة المتخمرة:

تعددت الأشربة المتخمرة أو المنقعة مثل ماء الزهر وماء قصب السكر، والزبيب المنقع في الماء وعصير بعض الفواكه كالعنب"[3]، أما المشروبات المسكرة فهي محرمة بنص القرآن والأحاديث النبوية، لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[4]، وفي الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وسلم:" كل مسكر حرام"[5] فقد ظل شرب الخمر رائجاً في الجزائر العثمانية مدنها وأريافها ولكن حرص العلماء لم يخمد فقد ظل

---

[1] ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر نفسه، ص: 101.

[2] ينظر: هانيريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص ص: 112، 113.

[3] ينظر: عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 101.

[4] سورة المائدة: الآية 90.

[5] ينظر: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر الكتاني العسقلاني الشافعي، **تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد المعوض، باب حد شارب الخمر، رقم الحديث: 1785، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1971، ج4، ص:188.

متقدا على إبراز هذا التحريم لكافة الأطياف وفيئات المجتمع، واتخاذ إجراءات ردعية ضد المتاجرين بهذا الصنف المحرم من الشراب[1]. ولكن تبقى الاستثناءات واردة وحتى مع أرباب السلطة ولكن ليس في العلن بل بتخفي وحذر، وقد حدث عن هذا أبو القاسم الزياني وقصته مع باي قسنطينة الباي حسن بوحنك (1803-1807م) معروفة في كتابه الترجمانة الكبرى حيث قال عنه لما جلست مع هذا الباي:" استنشقت منه رائحة الخمر...ثم قام ودخل من محله الأول والمملوك معه، ثم عاد وجلس فشاعت رائحة الخمر أكثر مما كانت، وعلا كلامه فارتفع الشك وزال الوهم"[2]. هذا عن الحكام فما بالك بالعوام ؟

وقد جالت الكتابات وبصخب شديد عن المدن وما شاع فيها من فساد بشرب المحرمات[3]. ولكن الأرياف والبادية لم نصادف إلا نتفق قليلة إن لم نقل نادرة في هذا الشأن، وإن كان هناك فاعل فبطبيعة الحال ليس من سكانها وإن كان فعلى غفلة من أهلها، أما المعلن عنه قد يكونوا سواحاً أو أجانب كالذي قاله هانريش فون مالسان عن سائحتين بقرية الجلفة تشروبان الابسنث[4]وهي نوع من الخمور على مرأى من أهلها تطل من نافذة بإحدى فنادقها الصغيرة[5]. ولكن هذا المنع الظاهري

---

[1]- ينظر: عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص: 101.

[2]- أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، ص: 157.

[3]- وقد أبدى ذلك عبد الخالق بن السلام واستيائه الشديد من أخلاق الشرذمة من أتراك مدينة الجزئر وتلمسان حتى وصفهم بسفرة الأتراك ورعاعهم فقد شاهد بعضهم في سفرهم في أزقة مدينة الجزائر يتجاهرون بشرب لالخمر ويعربضون في الأزقة. ينظر: عبد الخالق أحمدون، **الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي(ت 1239هـ/ 1823م، مجلة الإحياء**، طنجة، د.ع، د.ت، ص: 235.

[4]- **الأبسنت أو الأفسنتين أو شراب الشيح بالإنجليزيةAbsinthe** : هو شراب كحولي بنكهة الينسون شديد العرق (أي ذو محتوى الكحولي عالي(45%-70%) مقطَّر مستخرج من الأعشاب، خاصة زهور وأوراق الشيح الرومي Artemisia Absinthium, و"الشيحWormwood عموماً." والأبسنت في المعتاد لونه أخضر إلا أنه يُنتج كذلك شفافاً أو يُصبَغ اصطناعياً. ينظر: https://www.marefa.org.يوم: 08 /03/ 2020 الساعة :12:00.

[5]- ينظر: هانريش فوم مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص: 205.

مس المشروب المحرم لكنه استبدل بما يشابهه أو أشد منه يستنشق ويشم ويؤكل فيذهب العقل ويهلك البدن ويفسد المال وهو محرم بالإجماع وهنا العجب؟؟.

يصف هذه الظاهرة المستهجنة عن المجتمع الجزائري هانيريش فون مالتسان بنوع من الإستغراب قي تعاطيهم للأعشاب المخذرة: في قوله" وينتشر تدخين الكيف في ولاية قسنطينة بصورة خاصة...فتدخين الكيف لا يتسبب عادة إلا في وضع حالم يحس فيه المرء أنه سعيد سعادة لا حد لها، غير أنه يصبح عاجز عن ممارسة أي عمل من الأعمال...فقد نتجت عن تعاطي كمية ....من هذا النقب الحقير. فهناك كثير منهم يأكلون الكيف، فكما يتناولونه عجيناً يتناولونه أيضاً كعكا، ويطلق العربي على المستحضر الكيف المسكر اسم المعجون"[1] ، وقد تؤدي هذه العشبة الضارة للوفاة في بعض الأحيان :" ولا أزال أذكر أن أحد أصدقائي في الجزائر ...كان قد أوقع به حضري عجوز وقدم له المعجون، فأكل كعكة دون أن يعرف طبيعتها وفي المساء آوى صديقي للفراش ولم ينهض ثانية. فقد توفي بعد ثلاثة أيام "[2]. وكانت هذه الأفة الخطيرة قد مست بالعدوى عن جهل أو من دونه العديد من سكان البدو والريف ممن يترددون على الحواضر والمدن[3]. قد يكون هذا المصير المظلم إنبهاراً بالمدنية القاتلة جهلاً منهم بالعواقب.

ومن جهة أخرى لا نغفل عن ظاهرة مشابهة وإن قلت خطورتها لكن على المدى البعيد تختم باستعجال الموت المحتم على كل من يتعاطى عشبة التبغ، مع ظاهرة التدخين. وقد صالت هذه القضية وجالت بين فتاوى العلماء الجزائريين في العهد العثماني وخصص لها البعض مؤلفات لأهميتها كمسألة فقهية استحدثت لم يعرفها العلماء المتقدمين. أمثال: عبد الكريم الفكون وكتابه: محدد

---

[1]- ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص ص: 23، 24.

[2]- ينظر: هانريش فون مالتسان، المصدر نفسه، ج3، ص: 24.

[3]- كان هانريش فون مالسان قد رافقه في طريق رحلته بعض البدو ورأهم يدخنون هذه العشبة الخبيثة. ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص: 24.

السنان في نحور إخوان الدخان[1] وغيرهم. ولأن الرحالة المغاربة كان في أغلبهم علماء فقد كانوا محط فتوى للعوام والخواص في هذه النازلة بالذات، فقد استفتيا السجلماسي هل تصح المتاجرة في هذه العشبة "التبغي"؟، فأجاب: فما يمنع استعماله يمنع التجارة فيه، وقد استشهد بما قاله الإمام أبو سالم العياشي حولها:" أكثر العلماء على تحريمه وهو الصحيح لما اشتمل عليه من المفاسد، واتفق أرباب القلوب شرقاً وغرباً على التنفير منه وكراهته [2]. وقد جاءت هذه الفتوى من السجلماسي بعد اعترض ركبهم أعراباً من وادي بوسمغون، أخذتهم الفاقة والحاجة والجهل معاً، بحيث اشترى منهم أحد الحجاج شاة فيما ذكر بشيء تافه من ورق العشبة المذمومة المسماة عند أهلها " تبغى "[3] وطلبوا من يشترى منهم حمار بها"[4]. فكان هذا حال الأعراب أهل البوادي لجهلم بأحكام الشرع والعرف وتفشى فيهم التدخين رغم مضاره وفتاوى العلماء فيها.

- المبحث الثالث: الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعيا واقتصادياً

تعد الأمراض والأوبئة بالإضافة إلى المجاعات والكوارث الطبيعية من أهم العوامل المسببة في تأخر أي المجتمع وضعفه، نظراً لما تلحقه من أضرار بالقطاعات الاقتصادية والاجتماعية والنمو الديموغرافي، لأن مستوى المعيشة لأي عصر أو بلد يقاس بالأحوال الصحية السائدة فيه، فلهذه الأحوال الصحية دور هام وحاسم وأهمية بالغة لفهم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وذلك أن

---

[1]- ينظر: طوبال فاطمة الزهراء، **ظاهرة التدخين في الكتابة التاريخية في العهد العثماني مخطوط " محدد السنان " لابن الفكون أنموذجاً**، مقال ضمن مجلة آفاق للعلوم، مجلة دولية محكمة للعلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة الجلفة، ص: 1.

[2]- السجلماسي، المصدر السابق، ص ص: 138، 139.

[3]- **التبغ (التبغي)**: الطبغ وطابة والطابغة والطباق والتوبغة والدخان...والاسم الغالب هو التبغ: وهو نبات معروف عن قدماء الهنود والفرس، استعمل أولاً في الأغراض الطبية، ثم في التدخين، انتشرت هذه الظاهرة في العالم منذ القرن 15م، وخاصة مع حركة الكشوف الجغرافية، ودخلت فاس بعد عودة حملة المنصور السعدي من السودان أواخر القرن 16. ينظر : المصدر نفسه، الهامش رقم 4، ص: 138.

[4]- ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص ص: 138، 139.

الأحوال الصحية غالباً ما تؤثر إيجاباً أو سلباً على مستوى المعيشة ومن ثم تكون لها انعكاسات على الحياة الاجتماعية والنمو الديمغرافي، وبالتطرق لأهم الأمراض والأوبئة التي انتشرت بالمدن الجزائرية العثمانية وانعكاساتها على القرى والبوادي الريفية والصحراوية يكشف النقاب عن الوضع الصحي لتلك المناطق المحورية في الجزائر العثمانية وبطبيعة الحال مع التركيز على ما تم ذكره في كتب الرحالة.

1- الأمراض:

على الرغم من المناخ الصحي المعتدل الذي كانت تتمتع به الجزائر خاصة بالمناطق الساحلية منها، ومع ذلك كانت عرضة لأمراض مختلفة، وإن كانت قليلة ولكنها ليست بالخطيرة إذا ما استثنينا الأوبئة ومرض الطاعون ولعل أخطرها داء الطاعون الذي كان يظهر حسب بعض المصادر في البلاد مرة كل خمس عشرة سنة أو خمس وعشرين سنة[1]. وقبل التطرف لأثار هذا الداء عن قرب بريف الجزائر العثمانية برؤية بعض الرحالة والمؤرخين للفترة المعنية، سنعطي مسحة موجزة عن أهم الأمراض التي انتشرت بها.

تعرض سكان الجزائر بمدنها وأريافها للعديد من الأوبئة والأمراض المتكررة من بينها الجذام والرمد الحبيبي وأمراض العيون المتقيحة ومرض الجذري، أو ما يعرف بحمى المستنقعات وحمى التيفوس[2]. وقد اعتبر هذا الداء من أخطر الأمراض التي فتكت بالسكان فذهب ضحيتها عن ما يزيد عن ألفي شخص[3]. كما انتشر داء الملاريا وخاصة بالأهالي القاطنون بجوار المستشفيات، فكانوا أكثر عرضت لهذا المرض أو حمى المستنقعات، ومن أهم المناطق التي عانت منه منطقة سهل متيجة وخاصة سكان

---

[1]-ينظر: عائشة غطاس، الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، ص: 124، أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 277.

[2]- يسميها كمال صحراوي بحمى السيفيليس (La Syphilis). ينظر: المرجع السابق، ص: 178.

[3]- وقد أرجع المؤرخون وجود داء الجدري في منطقة إفريقيا إلى ثلاثة آلاف سنة ماضية، عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 126.

الأرياف القاطنين به وما يشابهها، عكس المناطق الجبلية والتي يتميز جوها بالصفاء[1]. وقد أكد هذه الحقيقة " حمدان خوجة" بقوله:" فهذه الأرض لا تعدو تكون أرض أوحال أو مستنقعات ومحط ضرر وأذى...لقد استولت على هذا السهل الحمى"[2].

كما ذكر العالم النباتي دوفنتان بأن هواء متيجة مضر جداً في فصل الصيف بسبب المياه التي تتراكم في السهل خلال فصل الشتاء فينتج عنها مع ارتفاع درجة حرارة الصيف انتشار الروائح الكريهة والحشرات الضارة في المنطقة، وتمتد مضار هذه الحمى طيلة فصل الصيف حتى الخريف، ومنهم من يرى وطأتها كانت أكثر ضرر في فصل الربيع، فتلتهب الحمى في الأهالي فيجدون صعوبة جمة في معالجتها لقلة معارفهم الطبية فيستحيل عليهم الاستقرار بهذه المناطق الضارة[3].

كما كان سكان عنابة عرضة للحمى العنيفة المستوطنة في المنطقة،كما عرفت المناطق المجاورة لوهران انتشار للبحيرات المالحة وكثرة المستنقعات[4]،كما كان كثرة الضباب مع اقتراب الليل في المناطق التي تسود فيها المستنقعات المضرة بالصحة[5]، وهذه الحمى الوبائية تفشت في العديد من المدن والأرياف ببواديها على حد سواء، وهذا ما ذكره أبو ناصر الدرعي عن حمى أهل أم القرار القبلية بناحية الظهرا بالغرب الجزائري:" وتلقانا بعض من أهل أم القرار القبلية واشتكوا الحمى وذكروا أنها أضرت بهم كثيراً ودعونا الله لهم بالعافية الدائمة[6].

والأمر مشابه مع مدينة تقرت وضواحيها وهذا ما شهد به العديد من الرحالة أمثال: ابن الدين الأغواطي وهانريش فون مالتسان، يقول الأغواطي:" ولا يأتي لهذا المكان عربي ما عدا المصاب

---

[1]- ينظر: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 278.

[2]- حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق، ص ص: 47، 49، 50.

[3]- ينظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 127، أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 277.

[4] كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 179.

[6] - E,Guetin,**Guide du voyageur en Algèrie**, Paris,L. Maison . Libraire-Editeur, 1848,p 12.

[6]- أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 151 .

بالحمى، ولكن منابع المياه فيها بكثرة"[1]. ومن هذه الأخيرة وهي العلة في تفشي الحمى المستنقعات المنتشرة حول المدينة بسبب كثرة مياهها ومصدر نعمتها ونقمتها في نفس الوقت، ومن أحسن من فصل في هذا الأمر فون مالتسان في قوله: " ويحيط بتقرت مستنقع، ومن الغريب أن أهل توقرت يطلقون عليه البحر وأثناء نزول المطر كان المكان كله يبدو وكأنه قد تحول إلى مستنقع، وجو مدينة تقرت غير صحي إلى أبعد حد، اذ تنتشر الحمى في جميع الشهور تقريباً، ويقال أنها لا تريح الناس من شرها إلا في الشتاء،... ولكن مصدر هذه الحمى يعتبر في الوقت نفسه...أكبر نعمة في هذه البلاد، فهو يكمن في نظام الآبار الارتوازية، ذلك أن هذه الآبار تجود بماء غزير يفوق حاجة الناس إليه، فتنشأ عن الفائض من برك ومستنقعات، تتولد عنها الجراثيم الخطيرة، ومن أراد أن يشفى من الحمى فإن عليه أن يضرب خميته في الصحراء فترة طويلة "[2]، يقول عنها أبو القاسم سعد الله هي حمى:" مشهورة عند سكان الناحية بمرض يسمى التهم (التهم) بتشديد التاء وفتحها وفتح الهاء وسكون الميم وهو نوع من الحمى وذلك في بعض السنة"[3].

ليعمم هاينريش هذا الحكم عن الوضع الصحي المزري مع الحمى على جميع الواحات الصحراوية في قوله:" وجو الواحات الصحراوية كلها غير صحي مثل جو توقرت، في حين أن الصحراء الحقيقية، أي التي تخلو من الواحات تتمتع بجو صحي بصفة عامة"، ولكن في الواقع لم تشر المصادر وكتب الرحالة وغيرها لهذا التعميم على الواحات الصحراوية؛ فليست كل الواحات الصحراوية تزخر بمياه جوفية كأنها بحار من تحتها لتضر بها.

---

[1]- ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 101.

[2]- هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص: 154.

[3]- ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 101، تعليق: أبو القاسم سعد الله محقق الرحلة الهامش رقم 02، نفس الصفحة.

هذا من ناحية بالنسبة لمسببات الحمى ومن ناحية أخرى وهو سبب وجيه يتمثل في الظروف الصعبة التي كان يعيشها بعض سكان الجزائر مثل الفقر والمجاعات المهلكة، فكانت سببا مركزياً في ظهور الحمى التيفوسية التي تعتبر بنت الفاقة وسوء التغذية[1]. ومن هنا ذهب البعض إلى أن معظم سكان الجزائر كانوا عرضة للحمة بأنواعها المختلفة، الحمى المثلثية والحمى الباردة ولهذا كتب بعض الكتاب الفرنسيين أمثال Finot متحدثاً عن الشعب الجزائري:" أنه شعب يعيش مع الحمى"، وكتب أخر بنوع من السخط على ما أصاب الجند الفرنسي من حمى لما دخل الجزائر بداية الإحتلال ليصب جماح غضبه باللوم على البيئة الجزائرية الجافة، التي تغزوها الحشرات وتسيطر على أراضيها المستنقعات[2]. وهنا أيضا نفس نقد يقال من عدم قبول التعميم؛ فهذا لا ينطبق على المنهج العلمي الدقيق، فليست كل أرض الجزائر بيئة جافة ومستنقع أو مرتع للحشرات. وكلها تدخل ضمن الإنزلاقات عن الموضوعية وطغيان الذاتية في الكتابة التاريخية لأغراض استعمارية. ومع ذلك لا ننكرر الحقائق التاريخية فجهل أغلبية السكان بالوسائل الوقائية وانعدام الرعاية الصحية أنتج بالضرورة انتشار العديد من الأمراض كداء العينين وأمراض جلدية مختلفة[3].

والواقع كان هناك عدة طرق لعلاج الحمى بمعارف الطب التقليدي أو غيرها، فعلى سبيل المثال بحارة الساحل كيف كانوا يعالجونها عن طريق الخبرة، فعندما يصاب الجدافون المسيحيون على السفن الجزائرية بالحمى كان رب السفينة يرغمهم على الاستمرار في الجدف ويطعمهم الخبز المجفف، والماء العذب، واللحم المملح، فكان ذلك يساعدهم على إخراج العرق مما كان يعجل في شفاءهم. وكان

---

[1]- ينظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 127.

[2]- ففي بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر تفشت الأمراض والأوبئة، فأصيب الجنود الفرنسيين بالحمى مما أضطرهم لنقل 14000مريض إلى مرسليا خلال بضعة أيام فجاءت كتابتهم لاذعة في هذا الشأن . ينظر: كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 179.

[3]- ينظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 127.

رب السفينية يلجأ أحياناً إلى استعمال إحدى الحيل، التي أثبتت نجاعتها، فينزل إلى البر، و يحمل معه المريض مقيد الأيدي ثم يأمر بقية البحارين بإشعال النار، ويوهم المريض بأنه سيلقى به في النار، وعندما يدرك المريض ما كان ينتظره، يلوذ بالفرار. وقد لوحظ أن الجري، كان يساعد المريض على إخراج العرق، ويشفى بذلك من مرضه[1].

ومن الأدوية الناجعة عند المتخصصين في علاج الحمى، نقصد الأطباء أمثال عبد الرزاق بن حمادوش، أقراص الكين أو الكينة[*]، وهذا ما قاله عنه هذا الطبيب الجزائري وهو بالمغرب الأقصى:"أصابتني حمى شديدة، فلم أستطع القراءة، حتى ألهمني الله أن أشتري ثلاثة أثمان من الكين كينه، فاشتريتها بستة موزونات...دققت الثمن الأول وشربته في فنجال قهوة من البن، فلما استقر في بطني أمسكت الأعضاء كلها عن الاختلاج إلا عرقاً واحداً في يد اليمنى بقي يختلج اختلاجاً يسير، فلما شربت الثمن الثاني انقطع من كل عضو، ثم شربت الثمن الثالث فلم يبقى ألم منها"[2]. أما الرحالة المغربي أبو القاسم الزياني فهو الآخر عالج نفسه من حمى ألمت به بمعرفته الطبية الخاصة من تورم أصابه بأحد أعضاء جسده ولكنه للأسف لم يصف لنا هذا الدواء واكتفى بقوله:" رأيت المحل الذي أصبت فيه متورما فعالجته بما عرفت وأنفجر، وصرت أعالجه بالمراهم إلى أن حصلت الراحة "[3]، أما عن الظاهرة الإستشفائية المنتشرة في بعض الأرياف والتي تدخل ضمن المعتقدات الخاصة،كتردد بعض الأمهات بأطفالهن على بعض العيون اعتقادا من هن أن مياهها تشفي من كل الأمراض ومن أشهر تلك العيون عين الدواء الواقعة بعرش بني إيراثن الواقعة في منطقة القبائل [4].

---

[1]- ينظر: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص: 280.

[*] **الكين كينة (Quinine)**: دواء يستخرج من قشرة أشجار الكين المنتشرة في المناطق الإستوائية، تم اكتشفها في القارة الأمريكيين في القرن السادس عشر.

[2]- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 84.

[3]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص: 151.

[4]- يعلق أرزقي شويتام على هذه الظاهرة بأنها لا زالت شائعة ليومنا هذا. ينظر: مرجعه السابق، ص: 281.

2- الأوبئة:

يروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن الطاعون قال: " غدة كغدة الإبل، المقيم فيها كالشهيد والفار منها كالفار من الزحف"[1]، فهو بهذا التعريف النبوي الشريف يثبت أنه جرثومة معدية سريعة الفتك بالإنسان مثلها مثل الجيوش الزاحفة، أما التعريف العلمي للطاعون فهو:" مرض تتسبب فيه جرثومة يارسين[2] "، كان انتقاله إلى الإنسان عن طريق الحشرات أو الحيوانات أهمها: الفئران أو قمل الفئران، يعرفه ابن النجيم المصري بأنه قروح تخرج في الجسد فتكون في المرفق والآباط والأيدي وسائر البدن ويكون معه ورم وألم شديد وتخرج تلك القروح مع لهيب في ارتفاع درجة الجسم[3].

ولهذا المرض عدة أنواع وهي كالتالي: الطاعون الحيواني والطاعون الرئوي[4].

أما الوباء فيعرفه ابن خلدون بأنه الموتان[5]، وتفسير ذلك يعود إلى كثرة الموت أو شمولية الموت الذي ينتج عن الوباء والهول الذي يحدثه الوباء بعد انتشاره وسط الإنسان والماشية، بالإضافة

---

[1]-باب ما جاء في كراهية الفرار من الطاعون، أخرج أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: قلت : يارسول الله فما الطاعون؟ قال: "غدة كغدة الإبل....كالفار من الزحف". ينظر: عبد الرحمن المباركفوري(ت1353هـ)، **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، بيروت: دار الكتب العلمية، ج4، ط14: نوفمبر 2010م، ص: 147.

[2]- نسبة إلى يارسين مكتشف جرثومة الداء، وهي طبيب فرنسي من أصل سويسري (1863-1943م) .

[3]- ابن نجيم المصري، **رسالة فيما ضبطه أهل النقل في خبر الفصد بالطاعون**، مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو-اليابن: نسخة مصورة من الموقع الإلكتروني:file://C:/Users/Nae/Downloads/m002803.pdf ، ورقة 418أ.

[4]- ينظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 124.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون، العبر **وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار العلم للجميع، بيروت، ص: 302.

لانتشاره وسط الحيوانات الأخرى. أو لكونها أمراض عامة تشمل وفداً كبيراً من الناس، وقد عرفت بأنها الأمراض الوافدة؛ أي التي تأتي من خارج البلد [1]. فهي أيضاً مرض مشترك بين الإنسان والحيوان تسببه بكتيريا، أو فيروسات تختلف حسب نوع المرض الوبائي، وتكون سريعة الانتشار من الشخص المصاب إلى الشخص السليم عن طريق عدة وسائط أهمها: الإنسان، والماء والهواء وبعض الحيوانات القارضة كالجرذان والكلاب البرية والسنجاب والأرنب[2]. إن الخلط بين مفهوم الوباء والطاعون لم يقتصر على بعض اللغويين فقط بل شمل الإخباريين أيضاً، في حين كان مفهوم الوباء في المصطلح العلمي أشمل وأعم من مرض الطاعون، فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا، أي أن الوباء قد يشمل أمراضاً عديدة من بينها الطاعون[3].

اجتاحت علة وباء الطاعون الجزائر العثمانية مرات عديدة، وفي سنوات مختلفة، وأدى إلى وفاة خلقاً كثيراً من الناس في المدن والأرياف، إضافة إلى الخسائر المادية الأخرى كهلاك الماشية، وأسباب كل ذلك جاء من البعد؛ انتقل هذا الوباء إلى الجزائر سنة 1523م بعد أن اكتسح تونس سنة 1522م، كما أجمع العديد من المؤلفين أن الحقبة الفعلية بالجزائر لوباء الطاعون بدأت سنة 1552م؛ مع دخول الجزائر في عهد رياس البحر والتبعية للدولة العثمانية[4].

---

[1]–مزدور سمية، **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588–927هـ/1192–1520م)**، ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة قسنطينة، 2008–2009، ص ص: 19، 20.

[2]– نفسه، ص ص: 20، 21.

[3]– يقول ابن النجيم المصري:" اختلفوا في حقيقة الوباء والصحيح الذي عليه المحققون انه مرض الكثير من الناس في جهة من الأرض دون سائر الجهات ويكون مخالفا للمعتاد من الأمراض الكثيرة ويكون مرضهم نوعاً واحداً بخلاف سائر الآفات". ينظر: المصدر السابق، ورقة 418أ.

[4]– تم إحصاء 26سنة من مرض الطاعون في الجزائر من أحد الباحثين، ومنهم من رصدi في المؤلفات العربية 26مرة بين 1552و1784.مصطفى خياطي، **الطب والأطباء في الجزائر العثمانية**، الجزائر: منشورات ANEP، ط: 2013، ص: 46.

ثم توالت طعنات هذا الوباء القاتل بتواريخ بارزة حطت رحالها على الجزائر في سنوات متلاحقة مخلفة وراءها المهالك نذكر منها سنة 1582م، إذ ضرب الطاعون قسنطينة وإقليمها، ومات بسببه أناس كثر[1]. ثم وباء طاعون عام 1602م أيضاً بقسنطينة، وكذلك سنة 1622م، وسنة 1644م، وطاعون 1648م-1650م الذي فتـــك بالجزائريين فتكا رهيباً، وقد تحـــدث عنه أبو سالم العياشي بنوع من الإسهاب في رحلته بالمناطق التي مر بها بالجزائر عام (1060هـ/1649م-1650م)، عن هذا الوباء الفتاك الذي ضرب مدينة بسكرة والقرى المجاورة لها مثل خنقة سيدي ناجي وبلدة سيدي عقبة، فعن هذه الأخيرة يقول العياشي:" وفي الغد جئنا لبلد سيدي عقبة وتحققنا الوباء فيه وفي البلاد التي في أطرافه وفي بسكرة ولم ندخل لزيارته وبتنا بينه وبين بسكرة "[2]، وعن خطورة وباء مدينة بسكرة يقول العياشي:" كان وباء مفرطا مات به في بسكرة على ما قيل نحو سبعين ألف نفس وقد دخلنا المدينة عقبه فوجدناها أكثر حوماتها خاليا، ومساجدها دائرة"[3]،

ونفس الأمر قاله محمد بن عبد السلام الناصري عن هذا الوباء:" أنه مات بالوباء بالمسجد الأعظم من البلد سنة خمس وخمسين ومائة وألف اثنا عشر ومائة رجل، وفي السنة المذكورة مات بها في ثلاثة أيام خمسة عشر مائة ألف نفس، فكان ذلك سبب خلائها إلى الآن، فقلت البلاد اعتراها الخلاء قبل زمان أبي سالم العياشي، كما في رحلته، ولم تعهد بعد ذلك بها ولا عشر معشار هذه العمارة، اللهم إلا إن كان المراد بالعدد المذكور من مات بسائر بلاد الزاب سهلاً ووعراً فممكن" [4].

ونفس الشأن حدث بخنقة سيدي ناجي مما دفع أهلها لطلب فتوى من العياشي في جواز الفرار من الوباء إذا طرق بلادهم، وفي هذا الشأن تحدث أيضاً عن الشيخ أبو المهدي ودوره البالغ في

---

[1]- محمد الصالح العنتري، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلاد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها**، تح: يحي بوعزيز، ص: 32.

[2]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 127.

[3]- المصدر نفسه، ج2، ص ص: 540، 541.

[4]- محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق،ج1، ص: 223.

خدمة شيخه التواتي الذي طعن وتوفي بسبب ذاك الوباء، ورغم قدر هذا الشيخ بين أهله وذويه فلم يجد غير صديقه الشيخ أبي المهدي عونه له في مرضه حتى وافته المنية[1]. وكل ذلك يعود للهول والفزع الذي أصاب الناس من هذا الوباء الفتاك، وهذا ما أكده الورثلاني في شدته على مدينة بسكرة وضواحيها تأكيداً لما قاله العياشي سابقاً في قوله: " ثم نزل عليهم الوباء فلم يبقى إلا ضالة من الناس"، وفي موضع أخر عن وباء بسكرة أيضاً " مع نفوذ الوعيد فيها من أمر الوباء" [2]

كما وصل الذعر من ذاك الطاعون حتى أبواب مدينة الأغواط التي ناءت بسلامة أهلها من الوباء عن منافعها الاقتصادية والثقافية مع ركب الحج المغربي وانعكاسات ذلك الذعر على كل الأصعدة النفسية والاقتصادية برفع الأسعار والإضرار بالرعية والتجار يصف ذلك العياشي في قوله: "وجدنا الغلاء كثيرا عندهم مقدار مدين فاسيين بريال قمح، فلم يخرج أحد منهم إلى الركب، وكانوا يدلون الزرع من فوق السور ويأخذون الريال ويغسلونه ولا يتناولونه إلا بعد الغسل "[3]، على الرغم مما تتمتع به مدينة الأغواط بموقعها الجغرافي الحصين ضد الأوبئة وهوام الأرض؛ كما بين ذلك ابن الدين الأغواطي:" لا تقترب العقارب ولا الطاعون منها لأنها مبنية في موقع مفضل"[4] .

واستمر هذا البلاء مدوياً من فترة لأخرى وكان أشدهم فتكاً طاعون عام 1654م الذي أودى بحياة ثلث سكان الجزائر، وكذلك طاعون سنة 1662م، وطاعون 1664م، الذي أدى إلى تناقص سكان مدينة الجزائر إلى أقل من النصف، فلم يعودوا يتجاوزن الثلاثين ألف نسمة، وهلك من جرائه حوالي عشرة آلاف أسير أوروبي سنة 1680م، قبل أن ينتشر انتشاراً واسعاً سنة 1786م بالمغرب الأقصى، ففي عام (1199هـ/1784م) يذكر ابن حمادوش في رحلته أن أحد رفقائه في الرحلة إلى

---

[1]- المصدر نفسه، ج2، ص: 538.

[2]- الورثلاني، المصدر السابق،ج1، ص ص: 200،212، 213، 241.

[3]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 546.

[4]- ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 88.

المغرب الأقصى، توفي على ظهر سفينة أثناء وصولهم إلى جبل طارق[1]. فيما عم شرق الجزائر إضافة إلى القطر التونسي سنة 1198هـ/ 1787م، ثم زحف نحو بايلك الغرب زحفاً كاسحاً؛ حيث مس سكان تلمسان ومعسكر على الخصوص، حتى خرج أبو القاسم الزياني صاحب الترجمانة الكبرى من تلمسان هروباً منه، لأنه كان عاماً في العمائر بين هذه المدينة وبين مدينة الجزائر، وقد أخلى البلاد وأفنى أهلها من شدته، حتى أن الزياني ما مر بمنزل إلا وجد أهله يدفنون موتاهم[2]. ليصل عدد ضحاياه عام 1788م إلى 15793 ضحية منهم 13482مسلم و 1771يهودي و540 مسيحي، وكان عدد ضحايا المسلمين يصل يومياً إلى 200 أو 240 ضحية[3].

ومزامناً للزياني في فترة حكم الباي محمد الكبير على معسكر، اجتاحت البلاد مجاعة كبيرة كانت آثارها وخيمة جداً، فقد " حدث بأول مملكته بالمعسكر مسغبة عظيمة هلك بها أناس كثيرون إلى أن أكلت فيها الميتة والدم ولحم الإنسان والخنزير والعياذ بالله من ذلك، ثم حدث الطاعون الذي لم يحدث في هذا الإقليم قبله، فمات به جل الناس بدواً وحضراً، آل الأمر فيه إلى أن انتقل أهل الحضر والباي بأهله ومخزنه إلى البدو في خيام الشعر ظاعنين ظعون الأعراب البادية زماناً طويلاً، وقد جعل الباي خيمة حمراء من الوبر وأدار بها الزمالة، فسمي العام بعام الخيمة الحمراء[4].

---

[1]- ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 91.

[2]- ينظر: أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، ص: 149.

[3]- ينظر: أرزقي شويتام، **نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل أنهياره (1800م-1830م)**، الجزائر : دار الكتاب العربي، ط1:2011 م، ص: 84.

[4]- محمد بن يوسف الزياني، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تح: المهدي البوعبدلي، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1 : 2013، ص: 269،.

وهذا ما ذكرته الدراسات المختلفة فخلال سنة (1200هـ/ 1786م) [1] أي في زمن حكم " محمد بن عثمان الأكحل" ظهر طاعون ببيلك الغرب الجزائري، بعدما كانت المجاعة السابقة له قد تركت آثارها السلبية بشكل كبير في حياة سكان البيلك بخمس سنوات، أي سنة (1195هـ/ 1781م) وبتتابع القحط مع الوباء وكثيراً ما يحدث عندها تكون نتائجهما وخيمة، لأن الجوع أو القحط الشديد يفقد الجسم كل قدراته على التجاوب مع الحياة فإذا تبعه الوباء يكون فتاكاً والعكس. وهو ما حدث فعلاً ببايلك الغرب الجزائري خلال تلك الفترة [2].

كما أصاب طاعون مدينة الجزائر عام 1793م ووصلها عن طريق بحارة القسطنطية، وهذا ما تؤكده رسالة من القنصل الفرنسي إلى مرسوله في عنابة في 23 جونفي 1793م، قائلاً:" إن الطاعون أصاب البساكرة العاملين بمدينة الجزائر وانتقل بعدها للأرياف حتى وصل مدينة البليدة"[3]، ثم إمتد إلى جهات أخرى ومن بينها قسنطينة ولم ينقطع هذا الوباء بل استمر في التصاعد إلى أن بلغ أوجه سنة 1794م، بحيث أرغم السكان للهروب نحو الأرياف، وهذا عكس ما أوصى به النبي صلى الله

---

[1]-يقال أن أسباب هذا الوباء من المشرق كونه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية، فخلف بعده الكثير من الضحايا وصل عددهم في بعض الأحيان إلى خمسماية جنازة كل يوم، ويسمى بالوبا الكبير، وطال هذا الوباء حتى 1211هـ. ينظر: أحمد شريف الزهار، **مذكرات الحاج أحمد شريف الزهار نقيب إشراف الجزائر(1168-1246م/1754-1830م)**، تح: احمد توفيق المدني،الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1974، ص: 51.

[2]- ينظر: خير الدين سعيدي، **المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني (1700-1830م)**، إشراف: شايب قدادرة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم، الشعبة تاريخ حديث ومعاصر، الكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، ص:184 .

[3]- ينظر: بوحجرة عثمان، **الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830م) (مقاربة اجتماعية)**، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، السنة الجامعية: 2014-2015م، ص: 56.

عليه وسلم عندما قال:" إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه"[1].

حتى قدر عدد ضحاياه بين سنتي 1792م -1793م ب12ألف ضحية [2].

ثم توالى انتشاره أعوام متتالية منذ عام 1799، 1800، 1801، 1802، 1803، 1804م[3]، هذا إضافة إلى طاعون سنة 1812م، وبعد سنين قلة من ذاك الوباء يتحدث أبو عبد الله ابن عثمان المكناسي عام 1816م، عن وباء أخر يطل من جديد على الجزائر بحصاد دامي للأنفس مما أضطر بهذا الأخير من تخفيف زيارته للجزائر:" ولما وصلنا إلى الجزائر خيمنا بظاهرها ولم ندخل إليها وقد وجدنا فيها الوباء نعوذ بالله، وقد كان قبل وصولنا إليها قوياً، فكان يموت كل يوم على ما يحكى لنا نحو الثلاثمائة وقد حق أمره لما كنا هنالك فكان يموت في اليوم نحو العشرة، وأقمنا بظاهرها يومين "، وقد أكد المكناسي على خطورته وانتشاره بمدينة الجزائر وأعمالها أي المناطق والمدن المحيطة بها وقد مات بسببه خلقاً كثيراً[4].

أما في سنة 1817م فدام الطاعون ثلاث سنوات وعم جميع أنحاء البلاد، وحسب شهادة القنصل البريطاني وليام شو فإن جماعات من الأهالي كانوا يموتون في الشوارع، وفي السنة الموالية قضى وباء 1818م، على ما يزيد عن أربع عشرة ألف نسمة وتضررت به أغلبية الجهات الجبلية ومنطقة

---

[1]- ينظر: تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، **تخريج أحاديث مجموعة فتاوي**، إعداد: مروان كجك، بيروت: دار بن حزم، ط: 1998، السفر الثاني، مج 10، ص: 106، الزوبيري محمد العربي، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، الجزائر: الوكالة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1972م، ص: 51 .

[2]- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص:84.

[3]- محمد الزين، نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، الجزائر: جامعة غرداية، العدد 17:(2012م)، ص: 129.

[4]- ينظر: أبو عبد الله ابن عثمان المكناسي (1789م)، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، ص: 330.

القبائل، وقد زادت حدته ما بين سنتي 1817-1822م، ويعد هذا الطاعون أكبر معضلة عرفتها البلاد خلال العهد العثماني، فقد عم جميع أرجاء الإيالة، ووصل إلى مشارف الصحراء مخلفاً وراءه كارثة إنسانية[1]، كانت نهاية هذا الطاعون حسب أحمد شريف الزهار في سنة 1238هـ، حيث انقطع هذا الوباء من الجزائر، وكان قد حل بها في رجب من سنة 1232هـ وبقي سبع سنين إلى آخر سنة 1239هـ[2]، إذ قدر عدد ضحاياه بـ 20 ألف ضحية بإيالة الجزائر وحدها، وكان هذا التاريخ أخر عهد للطاعون بالجزائر قبل الاحتلال الفرنسي[3].

ما يستهل به الحديث بعد هذا العرض الموجز عن أهم الأمراض والأوبئة التي عانت منها الجزائر خلال الفترة المدروسة، موقف السلطة الحاكمة في البلاد من تفشي هذه الأمراض وسط الرعية وخاصة وباء الطاعون منها ؟. وبصيغة أدق هل حاولت هذه السلطة القيام بإجراءات خاصة اتجاه هذه المشاكل الطارئة، كنظام الحجر الصحي الذي يعرف اليوم تفاديا لكارثة الوباء أو على الأقل الحد من انتشاره .

فحسب ما ذكرته بعض المصادر لا يمكن الجزم بالإجابة القطعية أن تطبيق الحجر الصحي كان قاعدة حكومية في مواجهة الوباء، فالطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري ذا الدراية الكافية بأهمية هذا الإجراء إذا وجد وباء، ذكر قصة تدل أن الحجر الصحي كان معمولاً به في ذلك الزمان:" إذ فرض

---

[1]- أثبتت دراسات بأن قلة تأثير الأوبئة في المنطقة الجنوبية والتي غالباً ما تتميز بدرجة حرارة مرتفعة تجعل من عيش وتطور الطفيليات والفيروسات أمر صعب واستثنائي، غير أن هذا لا يعني انعدام تأثير الوباء تماماً، وإنما يمكننا القول أن الطبيعة الصحراوية أوجدت نوعاً الحصانة الطبيعية لساكنة هذه المناطق ضد النشاط الوبائي. خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص:71 .

[2]- ينظر: أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص: 151.

[3]- يعد هذا من بين الأسباب الوجيهة التي الذي دفعت بالجزائر إلى براثن الإست دمار الفرنسي؛ وهو سوء الأوضاع الصحية وانعكاساتها على كل الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية. ينظر: أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر...، ص:84، سابق، عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 126.

الداي الحاكم آنذاك دخول سفينة على متنها حجيج موبوءين من الإسكندرية، وأمر بأن لا يسمح لها بالدخول إلى بعد التأكد من برء من على متنها"[1]

ولكن ما يثبت أن أمر الحجر الصحي كان معمول به الإجراء الذي قام به الحاكم الفرنسي للقالة عام 1794م بفضل التدابير الوقائية التي أتخذها حاكم القالة الفرنسي بإذن من الباي، وتتلخص هذه التدابير في إغلاق الموانئ ومنع القادمين إليها من الدخول وعدم الاتصال بالبواخر الآتية المجهولة الأصل، فأتت هذه التدابير أكلها مع أهل الساحل من الوباء، وإن كانوا مسيحين ولكن أخذوا بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث السالف الذكر، وإن كان عن غير قصد بخلاف المسلمين[2]؛ فقد تهاونوا فيها بحجة الرضا بالقضاء والقدر فماذا كانت النتائج وخيمة ووبالاً على الجزائر.

ومثل هذه الحادثة تكررت في أواخر العهد العثماني بالجزائر؛ مع العدوى التي انتقلت إلى الجزائر عن طريق البحر من الإسكندرية، وقد أعيد من الميناء سبعة أشخاص كانوا قد حملوه معهم، فاستدعى الداي الدكتور أسانسي، وطلب منه أن يتأكد من أنه الطاعون الذي يطلق عليه اسم الحبوبة بالجزائر، وعندما تأكد أسانسي من أنه الطاعون، أخبر الداي وقال له بأن الطاعون لا يزال في أماكن يمكن الحد من انتشاره والتحكم فيه، ما دام قد انحصر حتى ذلك الحين في ملاحي الباخرة الذين حملوه معهم، وكان الداي مقتنعاً برأي أسانسي غير أنه لا يستطيع أن يتخذ القرار الحجر الصحي قبل أن يأخذ رأي الديوان، ولما اجتمع الديوان لدراسة الأمر عارض الوزير الأول إتخاذ الإجراءات الوقائية وقال :" أن ذلك يعني تعريض المؤمنون لمحن أعظم[3]، ومصائب أكبر فوافقه

---

[1]- ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، ص:121 ، عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 129.

[2]- ينظر: الزوبيري محمد العربي، المرجع السابق، ص: 51 .

[3]-ينظر: فوزية لزغم، الطب والأطباء بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال كتاب " الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال " لألبر فون شونبيرغ، **مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية**، مجلة دورية دولية محكمة، العدد 21، ص: 127.

الديوان على رأيه وبذلك تحتم على الداي أن يتخلى عن نيته الحسنة. يؤكد هذا النص كما ورد في العديد من المصادر من أن الحجر الصحي بالجزائر مرتبط بإرادة الداي وباقي رجال الدولة ومدى وعيهم لأهميته، فمنهم من كان يطبقه ومنهم كان يرفض تطبيقه تسليماً بالقضاء والقدر كما في هذه الحالة التي ذكرها شونبيرغ، حيث رفض الديوان تطبيق الحجر الصحي رغم موافقة الداي "، فماذا كانت النتيجة كما وصفها " الدكتور أسانسي وقتئذ كان: " الطاعون يحصد أرواح الناس خلال أربع سنوات" الموالية لتلك الحادثة[1].

وهذا ما يصرح به "حمدان خوجة " الذي سمحت له مكانته الاجتماعية بالتعرف على أوربا، حيث عاب على المسلمين تعصبهم لما اكتشفه الأوروبيون وعدم اقتدائهم بهم لدفع المضرة، والمقصود هنا عدم استعمالهم للحجر الصحي:" ان بعض بلاد الفرنج كاسبانيه... فإذا قدم أحد من بلاد بها الوباء لم يقبلوه ويردونه " [2].

ما يمكن استخلاصه من أن تطبيق الحجر الصحي لم يكن قاعدة صحية أو وسيلة وقائية التزم بها النظام الحاكم خلال كل الفترة، بل إن الأمر كان متوقفاً على الحكام أنفسهم، وما زاد في خطورة هذا الداء وتفاقمه هو موقف الأهالي؛ بدعوى التوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر جعلهم يقللون من شأن الإجراءات الوقاية[3]. إلى جانب غياب عامل مهم جداً وخاصة بالأرياف عامل النظافة عند بعض القرى كقرية عين ماضي بنواحي الأغواط وخاصة عند النساء، ذكر هذا كل من الحضيكي وأبو ناصر الدرعي فهن:" لا يغتسلن من الحيض ولا من الجنابة، مخافة من الماء "[4]، وهذا له تبعاته على الجانب الصحي على أهل تلك القرية وما شابها، باعتبار المرأة كما يقال نصف المجتمع

---

[1]-ينظر: فوزية لزغم، المرجع نفسه، ص: 127.

[2]- ينظر: حمدان خوجة خوجة، اتحاف المنصفين. ص ص:45،46.

[3]- عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 129.

[4]- ينظر: محمد الحضيكي (ت 1189هـ)، الرحلة الحجازية، ص ص: 42، 83، 84، أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 131.

وتنجب النصف الأخر. ولكن الأمر لا يقال على جميع القرى والأرياف الجزائرية في ذلك الوقت، فعلى سبيل المثال ما قاله الرحالة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني الجزائري (ت1233هـ/ 1817م)، عن إحدى قرى واد مزاب المعروفة بالقرارة وما عرف به أهلها عرب النوايل من حب النظافة:" بل هم الغاية في ذلك، أهل وضوء وصلاة... "[1].

ولعل من أهم الأسباب المباشرة لانتشار وباء الطاعون عدم الاهتمام بالعلوم الطبية من قبل الجزائريين أو اضمحلال العلوم العقلية بما فيها العلوم الطبية[2]، خلف من وراءه نتيجة محتومة ولعلها من الأسباب الرئيسية التي ساهمت في عدم السيطرة السريعة على انتشار الأوبئة، مع غياب مؤسسات استشفائية أو طبية محترمة أو بالأحرى تكاد تكون منعدمة، إذ لا تشير المصادر على اختلافها إلا إلى النزر القليل جداً منها إلا المستشفات الخاصة بالأسرى المسيحيين وكان أولها الذي أسس عام 1546م، ثم المستشفى الاسباني والذي يعد أكبر مستشفى في مدينة الجزائر، أسسه" الأب كيبسان "عام 1575م،كما أسست مستشفيات أخرى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وكلها خاصة بالمسيحيين. أما عن المستشفيات الجزائرية أو التركية بالجزائر فهي مغيبة، ومن قامت بأدوارها وكبديل عنها وإن كانت بشكل متواضع بعض الزوايا وخاصة بالأرياف، فقد قامت مقام المرافق الصحية، تستقبل الحجيج والمسافرين والفقراء، وتقدم لهم بعض الإسعافات حسب طاقتها[3].

أما عن وضع الطب والعلاج والأطباء بالجزائر فلعل أصدق تعبير ما ذهب إليه الطبيب الرحالة الإنجليزي توماس شو (Dr thomas shaw) الذي أكد تدهور وضعية الطب بالجزائر، كما في بقية الولايات العثمانية، وخلص إلى القول: بأن " الطب لم يكن يسير وفق قوانين معينة أو مدارس، بل كان يعتمد على ما ألفه العرف " ولكنه اعترف بقدرة بعض الأطباء الجزائريين على المعالجة ببعض

---

[1]- التنلاني، المصدر السابق، ص: 242.

[2]-ينظر: فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، ص: 68.

[3]-ينظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 128.

الأعشاب"[1]. أما عن عدد المشتغلين بالطب في الجزائر فهو قليل، إلى الحد الذي جعل بعض الرحالة الأوربيين يجزم بعدم وجود طبيب واحد بالجزائر من ذلك لوجي دوتاسي (Laugier de tassy)، الذي زار الجزائر سنة 1724م، وذهب إلى أن:" العرب لا يعرفون طبيبا غير الطبيعة "، وبأنه " لا يوجد أي طبيب لا في مدينة الجزائر، ولا في أي ناحية من المملكة "[2] ، ولكن الحكم ليس على هذا الإطلاق فالواقع على الرغم من عدم وجود أطباء متخرجين من مدارس طبية، فقد وجد بعض الأطباء التقليديين المهرة، الذين أحرزوا نجاحاً في معالجة بعض الأمراض بالطرق التقليدية البسيطة التي يعرفونها ولكن كان عددهم قليلا، ويبدو أن كفاءة الأطباء الأوربيين المتخرجين من الجامعات المتخصصة في الطب نالت قصب السبق في الجزائر[3].

وكما أسلفنا ونظراً لقلة المتطببين بالجزائر وثق الجزائريون حكاماً ومحكومين بالأطباء الأوربيين، الذين اكتسبوا احتراماً وتقديرا لمعارفهم الطبية، وذلك ما أكده هابنسترايت بقوله بأن الجزائريين:" يحملون نظرة جيدة عن كفاءة الأطباء النصارى في هذا الشأن، ويدعوهم بالعلماء تعبيرا عن التقدير الخاص الذي يحضون به لديهم "[4]. أما عن الحكام فقد كان دايات الجزائر وكبار المسؤولين في الدولة يهتمون بشؤون صحتهم الخاصة؛ ويتخذون لهم أطباء كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وكانوا حريصين على اتخاذ أطباء أكفاء، ولهذا لجأوا إلى الأطباء الأوربيين ومن الدايات الذين استفادوا من خدمات الأطباء الأوربيين أمثال: الداي علي خوجة (1817-1818م) الذي أتى بالطبيب الإسباني خوان فرنندز دي لاس هراس (Dr juan fermangez de las Heras) بعد اشتداد وطأة الطاعون في

---

(3) -L'algérie un siècle avant l'occupation française (au 18 ème siècle), tèmoignage de Shaw. Traduit par :j **.Mac.Carthy. paris:Editione lmprimerie de carthage (2eèd) ,1968.p:48.**

(1) -Paris:Editions loysel,1992.p:82.. Laugier de Tassy,Histoire du royaume l'Alger.

(3)- ينظر: فوزية لزغم، الأطباء الأوربيون بالجزائر خلال العهد العثماني، ص:237.

(4)- ج.أو هابنسترايت، المصدر السابق، ص: 77.

جانفي 1818م[1]،كما كان لبعض البايات أطباء يرعون صحتهم من ذلك باي قسنطينة الباي قليان حسين بوكمية (1713-1736م) الذي كان له عام 1713م طبيب هولندي يسمى سانسون (Sanson) يشرف على صحته[2].

وعلى الرغم من ذلك فقد وجد بالجزائر أطباء ومتطببين أحرون من أصول جزائرية، كانت لهم مؤلفات في الطب منهم الرحالة أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني[3].كما ألف عبد الرزاق بن حمادوش كتاباً في الطب وصنع مستحضرات طبية، وقد نوه بمكانته العديد من المؤرخين الجزائريين كالمؤرخ أبو القاسم سعد الله الذي قال عنه أنه :" جاء بعد ظلام دامس أصاب الحضارة الإسلامية، ويضيف قائلا:"...وإذا عرفنا أنه كان في القرن الثاني (18م) معاصر لعهد الاستنارة في أوربا، أنه كان عندئذ أقرب في تفكيره واهتمامه إلى العلماء الأوربيين منه إلى العلماء المسلمين الخاملين "[4]

كما وصف القسيس لابي بوراي (L'Abbè poirt) رأي هلتون سمبسون (Hilton Sompson) الذي قضى أربع سنوات بالجزائر واختلط بسكان الريف، وصاحب أطباء الجزائر –في

---

[1]– غادر الداي علي خوجة قصره واستقر بالقصبة نتيجة الوباء ،كما قام بطرد الطبيب الإسباني أسانتي ولم يشفع في الطبيب الفرنسي توسال (DR TOUSEL) الذي أرغم على مغادرة الأيالة الجزائرية، فلة قشاعي، المرجع السابق، ص ص: 240، 241.

[2]– ينظر: فوزية لزغم، الأطباء الأوربيون بالجزائر خلال العهد العثماني، ص:238.

[3]–**أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني(ت 1139هـ/1726م)**: هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني ولد ببونة المعروفة اليوم بعنابة عام (1063هـ/1653م)، يعتبر أشهر علماء هذه الأسرة وواسطة عقدها، أخذ على عدة علماء من المشرق والمغرب برز في علم الحديث، الفقه، التصوف، النحو التاريخ، الطب، وله مؤلفات بلغت 100مؤلف بين مختصر ومطول منها: التعريف بما للفقير من تأليف، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة. ينظر: أحمد بن قاسم البوني، **الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة**، تح: سعد بوفلاقة، عنابة–الجزائر: مؤسسة بونة للبحوث =والدراسات، ط1: (1428هـ/ 2007م)، فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، ص ص: 182، 183.

[4]– أبو القاسم سعد الله، **الطبيب الرحالة ابن حمادوش حياته وآثارة**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1982، ص: 40. ينظر ترجمة لعبد الرزاق بن حمادوش الفصل الأول ص: .

قوله بأن:" حرفة الطب بالجزائر يرثها الابن عن أبيه، ولهم كتب قيمة في هذا الميدان...وهي حرفة سرية أصحابها ماهرون في علم ثقب العظام أو استبدال عظام الإنسان بعظام الحيوان...ولهم دراية فائقة بعلم النبات، يجمع الطبيب بنفسه الأعشاب من الغابة، ثم يجففها أو يقطرها، ويزنها ويمزجها ويحضرها للمرضى"[1]. أما عن أوصاف الأدوية بالإضافة لما قيل يروي الطبيب والرحالة الألماني هابنسترايت، الذي حضر للداي عبدي باشا (1724-1732م) دواء واحد بطلب منه، وعلل ذلك بقوله:" ما دمت لا أستطيع أن أقنع هؤلاء الناس، بأن كل مرض من الأمراض يتطلب دواء خاصاً، فهم يعتقدون بأن دواء واحد كفيلا أن يشفي كل الحالات المرضية[2]، وإن كان هذا الكلام لهابنسترايت فيه أخذ ورد وتظهر فيه بعض المبالغة.

أما التداوي بالأعشاب الطبية فكان أمراً شائعاً أيضاً عند سكان الأرياف، مع الطب الشعبي أين يعلق حمدان خوجة عن أهل البوادي سكان السهول، قائلا بأن العلاج عندهم :" عبارة عن نباتات معروفة بنجاعتها لأن السكان هنا لا يعرفون مبادئ التطبيب، وبالنسبة لهم فالطبيعة وحدها هي التي تصنع المعجزات، ومن العادة أنهم في مثل هذه الحالات يلجؤون إلى الحمية [3] .

كما يرد نفس الشأن في رحلة هابنسترايت نصوصاً مهمة حول أهمية التطبيب بالأعشاب عند سكان الأرياف:" وقد لاحظت أن حمل باقة من النباتات في اليد هو بمثابة جواز مرور معروف ووسيلة ممتازة لضمان السلامة، لأن من يذهب للبحث عن النباتات ينظر إليه هناك بأنه متطبب أو مداوي بالأعشاب...وفي هذا الصدد قدمت خدمات للمرضى الذي عرضوا علي حسبما أمكنني ذلك، وقد استعملت في ذلك بعض النباتات الشائعة التي تنمو بناحيتهم وأوضحت لهم كيفية

---

[1]- عبد القادر علي حليمي، **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م**، بدون دار طبع، ط1:1972م، ص:274 ، فوزية لزغم، المرجع نفسه، ص: 234 .

[2]- ج.أو هابنسترايت، المصدر السابق، ص: 77.

[3]- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص:36 .

استعمالها فقد كان يدفعني إلى ذلك بأن نعمة الخالق جعلت الدواء الذي يحتاجونه في شكل نباتات تنمو عند أقدامهم، وكانت أتعابي كطبيب في هذه المعالجات لا تتجاوز غالباً تقديم كأس من الماء أو تناول قليل من الحليب اللذيذ... "[1]،كما يبين هابنسترايت في عدة مواضع من رحلته احترام سكان الجزائر له لأنه طبيب، وبأنه كان يرد على حسن ضيافتهم بأن يقدم لهم بعض الأدوية:" سكان تلك الجهات من بربر وعرب كانوا يخصوننا بكميات أوفر من الطعام...ولكوني طبيب...فقد كان الطعام يقدم لي مباشرة بعد الآغا، وقد كلفتني هذه المعاملة بعض الأدوية التي كنت قد حضرتها مسبقاً، فقد كنت أقوم بتوزيعها على المرضى من جنود المحلة أو سكان تلك البلاد "[2] .

كما عرف علاج أخر إلى جانب طب الأعشاب ما يعرف بالحجامة والتي يعتقد بفاعليتها كثيراً عند سكان الشرق الجزائري بمنطقة القالة خصوصاً، فهي طريقة تقليدية جداً وأحياناً تكون بعيدة كل البعد عن كونها صحيحة.كما عرف عن بعض أهالي البوادي والأرياف عموماً بالجزائر العثمانية إيمانهم بالخرافات والتمائم التي يعطيها لهم المرابطون لعلاج مرضاهم[3].

3- المجاعات والكوارث الطبيعية:

كان من بين الأسباب المباشرة لموجات المجاعات بالجزائر العثمانية مدنها وأريافها تردي الأحوال الصحية للسكان جراء تفشي الأوبئة والطواعين في غالب الأحيان، فجرت من خلفها وبالاً على البلاد والعباد باختفاء الأقوات في الأسواق فساءت الأحوال الاقتصادية، مما جعل الحالة المعيشية للرعية في بعض السنوات سيئة للغاية وغير محتملة، فهلك الناس نتيجة الجوع والمسغبة [4]. ومن نجى

---

[1]- ج.أو هابنسترايت، المصدر السابق، ص ص:56، 57.

[2]- المصدر نفسه، ص ص: 57 ، 58.

[3]- ينظر: فوزية لزغم، الأطباء الأوربيون بالجزائر خلال العهد العثماني، ص: 235 .

[4]- محمد الزين، نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، ص:2.

من بلاء الوباء أو الطاعون خطفه مخلب الجوع والفاقة، مما نتج عنه انهيار ديمغرافي سريع في أواخر العهد العثماني بالجزائر كما أسلف الذكر.

وإلى جانب تفشي الأوبئة والطواعين كأسباب جوهرية لظهور المجاعات، هناك عامل المناخ وأثره في كل ذلك؛ إن تذبذب التساقط أدى في الكثير من الأحيان إلى حدوث سنوات قحط أدت بدورها إلى الدفع باتجاه وجود مجاعات خطيرة، ومما كان يزاد في حدة هذه الأزمات إلى جانب الجفاف الكثير آفة غزو الجراد، وكان كلما أصاب البلاد ألحق أضرارا جسيمة بالإنتاج. مثلما حدث في السنوات التالية عام 1710، و1716و1724و1760و1794و1799و1804و1813و 1816و1822م[1]. فعلى سبيل المثال ففي عام (1717م) حل الجفاف وأعقبتها المجاعة سنة (1130هـ/ 1718م) فتركت خلفها أثراً كبيراً على أهالي مدينة الجزائر، ثم تلتها مجاعة أخرى يقول عنها أحمد شريف الزهار :"بعد ذهاب الاصبانيول في المرة الأخيرة سنة 1184هـ/1769م، وقع الغلاء في القمح مدة ست سنوات، وأعطى الله القحط، وهو الجوع في الناس حتى صارت قيمة الصاع الجزائري أربع بجة والناس يموتون جوعاً في الأسواق"[2]. وبزمن ليس ببعيد عن هذا الحادثة قيل قبل تولي محمد الكبير الحكم بباليك الغرب أصابهم قحط شديد دام حتى منتصف 1191هـ/1777م، وقد أشار إلى هذا القحط الشاعر الشعبي سيدي الأكحل بن خلوف في قوله:

"ستين والثلاثين تقحط العباد ونصف عام من بعد تذهب الكثرا"

---

[1]- ينظر: عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدنية الجزائر (1700-1830م) (مقاربة اجتماعية واقتصادية)، إشراف: مولاي بالحميسي، اطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: (2000م-2001م)، ص: 56.

[2]- أحمد شريف الزهار، المصدر السابق، ص: 31.

ولما تولى على البايلك محمد الكبير ارتفع القحط وأخصب الناس. ولكن الأخباري مسلم بن عبد القادر يلاحظ أن القحط قد امتد بعد توليه للحكم حتى سنة 1192هـ/ 1778م[1]، كما جاء ذكر لمجاعة أخرى في إحدى الوثائق الأرشيفية الفرنسية عام 1781م، جراء تذبذب التساقط[2]. وهذا ما أثبته محمد بن عبد السلام في حديثه عن نازلة سأل عنها بمدينة الأغواط عام (1196هـ/1782م) وتشمل بيع الحبوس أو الأوقاف الخاصة بالفقراء والمساكين زمن المسغبة، فأجاب بجواز بيع أرض المساكين عليهم في مثل هذه السنة وحياة أنفسهم أفضل عند الله من بقاء الأرض بعد هلاكهم، وقد أمر ببيع كثيرا منها تلك السنة بمدينة الأغواط للحاجة وللضرورة[3]. وفي عام 1207هـ/1793م تحدث كتاب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف عن حدوث قحط أضر بالحياة العامة للناس مما دفع بهم إلى الانتقال عن مضاربهم إلى أماكن أخرى:" وفي آخر هذه السنة وقع جدب بالصحراء أضر بالمواشي وتزاحم الناس على موقع المطر"[4].

وفي أواخر العهد العثماني حلت على الجزائر فترة قاسية عانى منها السكان ضائقة خانقة بفعل توالي الكوارث المتعددة بدون انقطاع، ورغم أن مقاطعة الجزائر " دار السلطان عرفت نوعاً من الرخاء استمر حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، لكن أعقبتها مجاعات توالت بإقليم الجزائر الوسطى بصفة منتظمة، فعلى سبيل المثال مجاعات عام 1800، و 1804م[5].

---

[1]- ينظر: مسلم بن عبد القادر، **أنيس الغريب والمسافر**، تح: رابح بونار، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: (1394هـ-1974م)، ص:24.

[3]- H-D.DE Grammont :Histoire D'ALger sous la domination turaue (1515-1830), p278.

حتى قيل أنه بيع لحم البشر في الأسواق. ينظر: خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص: 69.

[3]- ثم جوز الرهن تلك الأوقاف رجاء عودتها لأصحابها، بعد أنجلاء المسغبة. ينظر:محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص: 903.

[4]- ينظر: براهيم محمد الساسي العوامر، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق الجيلاني بن ابراهيم العوامر، منشورات ثالة، الجزائر: 2007م، ص: 279.

[5]- محمد الزين، المرجع نفسه، ص:129.

ونفس الأمر كان بالشرق الجزائري وقعت مجاعة شديدة سنة 1804م وأزمة قحط في قسنطينة، مهدت لها ثورة الشريف ابن الأحرش التي اندلعت في وادي الزهور من الأعمال التابعة لقسنطينة، وقد جاء عنها في كتاب صالح العنتري " مجاعات قسنطينة ما يلي: " في سنة 1219هـ/ 1804-1805م، زمان الأتراك وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول أضر بلد قسنطينة ووطنها، ودام الحال كذلك عليهم مدة ثلاث سنين متوالية، والوالي في ذلك الزمان على البلد عثمان. سببها الجائحة بأكله واعدم حصاده في جهات كثيرة سيما ناحية القبلة[1]- يقصد الجنوب- وأعراشها كالحراكتة والنمامشة وأولاد يحي بن طالب والخرارب وغيرهم ولم تنجو من ذلك إلا ناحية السواحل والمناطق الصحراوية فإن زرعها لم يقع فيه ضرر كبير "[2].

وعلة هذه المجاعة[3] كما أشار العنتري مرض أصاب الزرع فأفسده، ثم جاء الجراد فأتم ما بقي، بالإضافة إلى الاضطرابات الناتجة عن الحروب المتتالية وانعدام الأمن الذي لم يشجع الناس على الحراثة ولا على الاهتمام بالأرض[4]. وبنوع من التفصيل عن انعكاسات هذه الأوضاع المزرية على الحياة الاقتصادية يبين العنتري بقوله:" مات عثمان باي سنة 1219هـ/ 1804م، وتلفت خزائنه وكل ما احتوت عليه محلته من أرزاق وأملاك ومال ونحو ذلك، وهذه الواقعة مشهورة بوادي زهور وجلبناها هنا لأنها أحد الأسباب التي نشأت عنها المجاعة وقلة الحبوب من كثرة الهول واضطراب الرعية بموت الباي وتشتيت أهل محلته، فإن الأعراش قاموا على بعضهم بعضاً بالنهب والفساد، ومن أجل ذلك

---

[1]- القبلة في الإطلاق الجزائري والمغربي يراد بها الجنوب. ينظر: صالح العنتري، **مجاعات قسنطينة**، تح : رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1394هـ- 1974م، ص:28 .

[2]- المصدر نفسه، ص:28 .

[3]- تم أحصاد 37 حالة مجاعة، منها 16حالة كان سببها الجراد في القرن 18. ينظر: مصطفى خياطي، المرجع السابق، ص:46.

[4]- ينظر: عبد الخالق أحمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي(ت 1239هـ/ 1823م، المرجع السابق، ص 234، الزوبيري محمد العربي، المرجع السابق، ص:55 .

الاضطراب انعدمت الحراثة في تلك السنة أيضاً في جهات كثيرة وفقدت حبوب الزرع بقيام ذلك الهول، وعز إخراجها وقل من يأتي بها للأسواق مخافة الطرقات وقتئذ، فحصلت للناس شدة ومجاعة... والحاصل أن ارتفعت أسعار الحبوب إلى ما لا نهاية فبيع الصاع الواحد من البر وقتئذ بخمسة عشر الريال سكة الوقت، والصاع من الشعير بسبعة ريالات ودام القحط والغلاء في الحبوب كذلك مدة سنة كاملة وهي سنة 19(يعني سنة 1219هـ/ 1804م) ثم بعد ذلك نزل سعره شيئا فشيئا، غير أن حال الوطن لم يعتدل بعدها ولم يرجع إلى أصله إلا سنة (1223هـ/ 1808م) [1] وفي خضم هذه المغبة هلك الكثير من الناس حتى العلماء، من بينهم الفقيه عبد القادر السنوسي ابن زرفة[2] وأخيه الفقيه الهاشمي وابن عمهما الأديب صاحب تأليف " فتح وهران " مصطفى بن عبد الله[3].

وفي الغرب الجزائري بعد الوباء الذي أصاب تلمسان أواخر القرن 12هـ/ 18م عام 1787م والذي قال عنه الرحالة أبو القاسم الزياني:" كان عاماً في العمائر التي بينها وبين الجزائر، فما نزلنا منزلاً إلا وجدنا أهلها يدفنون موتاهم "[4] حتى أعقبته ثورة درقاوة عام 1805م، والتي انتقلت بدورها إلى تلمسان فجرت خلفها مجاعة ضارية ضربت أطنابها في البلاد فأرغمت أهلها إلى مهاجرتها إلى الحدود الغربية نحو المغرب الأقصى، فتلقوا ترحيباً ومساعدة مالية من سلطان المغرب وأقاموا عنده وبعد انتهاء المجاعة عادوا إلى تلمسان [5]. ولم يلبث الأمر على الاستقرار حتى جاء بعده الجراد في سنة 1230هـ/ 1815م يقول عنه أحمد الشريف الزهار:" أتى طائرا ثم غرس وأقام أياما في الأرض ثم خرج وأكل الزرع والأشجار والثمار ووقع الغلاء في تلك السنة وأعطى الأمير – يقصد الداي علي باشا –القمح لجميع الخبازين أن يقوموا بعمل ما يلزم للبلاد لكن صار الناس يقتتلون على ذلك الخبز، وبقي الأمر

---

[1]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص ص: 33،34 .

[2]– صاحب الرحلة القمرية. ينظر: الفصل الثاني، ص:71.

[3]– محمد الزين، المرجع نفسه، ص:130.

[4]– أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، ص:149.

[5]– محمد الزين، المرجع نفسه، ص:130.

كذلك إلى أن وجد الزرع الجديد، وقد أخصبت الأرض تلك السنة ورخصة الأسعار"[1]، فعن هذا الوصف الذي جاء به الشريف الزهار في تكاثر الجراد، فبصورة مشابهة ذكرها العياشي قبل ذلك فقرب زريبة حامد بقرية تسمى الكلابية:" سرى إليه-يقصد الجراد- طائفة من الحجاج فأخذوا منه ما استعانوا به في زادهم تلك المدة، وكان الجراد في إبان ولادته بيوضأ "[2]. والملاحظ هنا أن تكاثر الجراد جاء مزامناً للوباء بهذه المنطقة عام (1060هـ/1649م)، قد يكون تحصيل حاصل فبعد المجاعة جاء الوباء ليلحق بهما الجراد فيهلك الحرث والنسل وهذا ما حدث في كثير من الأحيان زمن الأوبئة والكوارث الطبيعية بالجزائر العثمانية.

فمن هذه الأخيرة نتكلم عن أسباب الآفة أي أفة الجراد وما ساعد على ظهورها الظروف المناخية السائدة بالجزائر، والمرتبطة بالمناخ الصحراوي في الجنوب وتأثيره على مناطق الهضاب العليا الرعوية في الوسط ومناطق التل الزراعية الخصبة المحاذية للبحر في الشمال، فكان زحفه متوقعاً كل أربع أو خمس سنوات، وأثره لا يتجاوز في غالب الأحيان تضرر بعض المحاصيل الزراعية، ولكن متى يتفاقم خطره عندما يشتد الجفاف لفترة طويلة نسبياً وتهطل بعده الأمطار المتأخرة بنسبة كبيرة متسببة في حدوث فيضانات مفاجئة، فإن ظهور الجراد بعد ذلك يكون شبه مؤكد واجتياحه للحقول أمر لا يمكن تجنبه، كما أن انتشار المجاعة وحلول الوباء بعده يكون نتيجة طبيعية لانهيار الإنتاج الزراعي وارتفاع الأسعار أرتفاعاً فاحشاً. وهذا ما أصاب مدينة الجزائر من موجات جراد لسنوات متتالية: 1798، 1799، 1800، 1804م، وقد اجتاح الجراد كذلك قسنطينة سنة 1804م[3]. وإذا ذكرنا مدينة الجزائر وقسنطينة وغيرها من المدن فبحقول أريافها تتغذى وإذا قحطت وجاعة أريافها بطبيعة الحال امتدت الفاقة لحواضرها ومدنها الأخرى.

---

[1]- أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص: 117.

[2]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 537.

[3]- ينظر: محمد الزين، المرجع السابق، ص: 131، الزوبيري محمد العربي، المرجع السابق، ص:55.

أما عن المعضلة التالية فهي معضلة الجفاف وهي مرتبطة ارتباط وثيق باضطرابات الجو وقلة التساقط بإيالة الجزائر؛ فبالعودة إلى مواصفات المناخ المتوسطي السائد بالجزائر الشمالية فهي ظاهرة طبيعية، ولكن العامل الفعال في الحكم على حال البلاد هو توقيت نزول المطر[1]؛ فإذا نزل في فضل الربيع بشهريه مارس وأفريل،كانت بشرى خير بحلول عام يعم فيه الرخاء. أما إذا كان العكس وانقطعت الأمطار في هذا الفصل وخاصة إذا تكرر الأمر لسنة أو سنتين، فإنه لا مناص من ندرة المحاصيل وحلول القحط وشيوع الحاجة وتفاقم الفاقة بين أفراد الرعية بدو وحضر على حد سواء[2].

وبالجملة فمع الجفاف يأتي الجراد ومع الجراد يأتي الجوع ومن الجوع يأتي الوباء كل ساحب لما قبله أحياناً يتقدمه وأحياناً أخرى يكون سبباً له، وما بلاء الزلازل عن ذلك ببعيد، ولكن نستهلها ببعض التحليل عن دواعي المجاعات المتوالية على البلاد فأسبابها كما أشرنا عديدة ولكن أكثر ما يمس في العضد الجفاف وما أدراك ما الجفاف. فقلّة استغلال الأمطار المتساقطة، وندرة السدود وانعدام استغلال المياه الجوفية، وعدم الاهتمام بالمياه الموجودة بأعالي الجبال في عمليتي الري والزرع، بالإضافة لقلة التساقط كل هذا خلق نوع من قلة الوفرة في الثروة المائية فحدثت مشاكل جمة للنشاط الزراعي في البلاد فجرت خلفها ندرة الغذاء فهلكت العباد. ولكن هذا الأمر لا يمكن تعميمه على كال أرجاء الإيالة[3]، إذ تذكر بعض الدراسات أن نظام السقي في فحص مدينة الجزائر كان متطوراً نسبياً مقارنة بمعارف تلك الفترة وهو ما سمح بإقامة زراعية كثيفة للأشجار والخضار والحبوب في المناطق القريبة من دار السلطان، معتمدة في ذلك على مجموعة كبيرة من الآبار والعيون والسواقي والقنوات

---

[1]-يشير الكثير من الرحالة للجفاف الذي عانت منه الجزائر أمثال: العياشي والسجلماسي، على عكس زمن أبو العباس بن نصر الدرعي ومحمد بن عبد السلام الناصري (1196هـ/1782م) وخاصة هذا الأخير في رحلته الناصرية الكبرى يشير لكثرة التساقط بغدران الماء في المناطق التي مر بها في منطقة الظهرا والزاب. ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ص ص: 197، 203، 208، 209.

[2]- ينظر: محمد الزين، المرجع نفسه، ص: 131.

[3]- ينظر: خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص ص:75 ،76 .

والصهاريج استغلت بكفاءة عالية. بينما لا نكاد نقف على أي إشارة تدلنا على استغلالها من طرف الفلاحين خلال تلك الفترة، بل العكس من ذلك تماما فإننا على إشارات مختلفة في كتب الرحالة الغربيين والكتابات المحلية خلال تلك الفترة بندرة استغلال هذه الموارد، حيث تشير إلى جهل السكان لطريقة استغلال مياه المنابع[1]، ومن جهة ثانية لانتقالهم في الكثير من الأحيان إذا أعجزهم الحال للرعي في السنوات التي عرفت جفافاً حاد[2].

أما عن الزلازل والتي تعتبر بفعل آثارها المدمرة من العوامل المساعدة على انتشار المجاعة واشتداد وطئتها نظراً للخسائر والدمار الذي تتسبب فيه، والاضطراب الذي نتج عنها من جراء تعطل أعمال الفلاحة وهجرة السكان وتحول الفلاحين من الحقول، وقد كانت الزلازل في الجزائر الشمالية بفعل تكوينها الجيولوجي وطبيعتها الطوبوغرافية من الشدة والتواتر، ما يجعلها بحق أحد الأسباب المؤثرة في المواسم الفلاحية[3]. ومن أشد الهزات الأرضية تدميرا زلزال 1217هـ/ 1803م الذي ضرب الجزائر وعمالتها فترتب عنها خراب قرية القليعة فتهدمت" ومات بها خلق كثير تحت الهدم "[4]

كما تحدثت المصادر عن زلزلة عنيفة أصابت مدينة وهران وضواحيها عام 1790م، كما لم تحدث من قبل بقوتها؛ واشتدت على مدينة وهران أكثر من غيرها، إلى سقطت بها الدور والأبراج على أمم من النصارى يقصد الأسبان فأهلكوا بذلك، إلى أن اتخذ النصارى بيوتاً من اللوح، وقيل بأن تلك الزلزلة هي سبب فتحها[5]، يقول ابن زرفة أن هذا الزلزال وقع في جوف ليلة التاسع والعشرين من محرم، سنة خمس ومائتين وألف (1205هـ) [6]، فيما يذكر ابن سحنون أن الزلزلة وقعت

---

[1]- ينظر: أو.هابنسترايت، المصدر السابق، ص: 60.

[2]- ينظر: خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص ص: 75 ،76.

[3]- ينظر: محمد الزين، المرجع نفسه، ص ص : 131، 132.

[4]- أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص:83 .

[5]- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران، ص: 270،.

[6]- ينظر: ابن زرفة، الرحلة القمرية، المصدر السابق، ص:253.

ليلة السبت الأولى من صفر سنة خمس ومائتين وألف هجرية بعد مضي سبع ساعات ونصف من الليل[1]. قال بأن عدد ضحايا هذا الزلزال سبعة آلاف(7000) قتيل وأربعة آلاف (4000) تحت الأنقاذ[2]. ليختم العهد العثماني بالجزائر عام (1241هـ/ 1825م) بزلزال مدينة البليدة يقول عنه الشريف الزهار:" كانت الزلزة التي تصدمت منها البليدة ومات فيها خلق كثير"[3].

ومما سبق يتضح أن المجتمع الجزائري تعرض في العهد العثماني إلى عدة كوارث طبيعية وآفات مختلفة أدت إلى زعزعت استقراره الاجتماعي والاقتصادي؛ بتناقص عدد السكان في كل من الأرياف والمدن. فقد كان للحالة الصحية والمعاشية للمجتمع تأثيراً حاسم على الوضع الديمغرافي والاقتصادي للمدينة والريف على حد سواء، وذلك نتيجة للتأثير السيئ للأمراض والأوبئة المهلكة التي كانت تجتاحها في فترات متلاحقة تكاد تكون غير منقطعة طيلة الفترة العثمانية، وكانت تجتاح هذه الأوبئة الجزائر نتيجة اتصالها المستمر بالخارج وانفتاحها على المبادلات التجارية ومنها يصدر للقرى والبوادي والأرياف فيعم البلاء أرجاء البلاد هذا من جهة، ومن جهة أخرى فمع التشدد والتقشف الذي عرفت به الإدارة فإنها كانت تقف دائما إلى جانب الأهالي كلما تطلب الأمر ذلك، وأتضح موقف السلطة بجلاء عندما تعرضت مدينة الجزائر وضواحيها لزلزال عنيف عام 1217هـ/ 1802م[4].

ومن جهة أخرى فمن النتائج الحالة المزرية في البايلكات فرار الناس وتشتتهم في الآفاق، حيث فضل سكان الأرياف الهروب إلى المناطق التي لم يصلها مرض الطاعون ولو كانت بعيدة وهو ما أثر على الوضعين الاقتصادي والاجتماعي بهجر الأراضي وترك الممتلكات وافتقار كثير من الأسر نتيجة لذلك، وما زاد الأمور سوءاً غلاء المعيشة ومع قلة المنتوج ارتفعت الأسعار فعجز الكثير من الناس

---

[1]- ابن سحنون، المصدر السابق، ص: 211.

[2]- ينظر: كاميلية دغموش، بن عمر حمدادو، الوضع الصحي والمعيشي لبايلك الغرب الجزائري في أواخر العهد العثماني، **مجلة الحوار المتوسطي**، المجلد العاشر، العدد 2، جوان 2019م، ص: 341.

[3]- أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص: 155.

[4]- ينظر: المصدر نفسه، ص: 155.

على اقتناء ضروريات الحياة من غذاء، وهذا ما ذكره العياشي عند مروره بمدينة الأغواط وقراها المجاورة:" وجدنا الغلاء كثيراً عندهم مقدار مدين فاسيين بريال قمح" [1]، ونفس الشيء قاله عن قرية الكراكدة ضواحي البيض:" وجدناها في غاية ما يكون من الغلاء" [2]. لتزيد حدة المعاناة عند العياشي وركب حجه مع الجوع خاصة في الطريق الرابط بين الأغواط ونواحي الظهرا وعلة ذلك غلاء الأسعار بهذه المناطق:" كان أهل الركب قد جاعوا جوعاً عظيماً...بلغ الشعير قريباً من ريال للصاع، وبلغ الدقيق أكثر من ذلك، وبقيت لي هناك ناقة أحمل عليها كتب فبعتها بثلاث ريالات"[3]. ونفس الأمر تكرر في عهد أبو العباس الهلالي السجلماسي (1175هـ/1761م) في كلامه عن الأغواط وبعض قراها فعن الأغواط يقول:" قرية كبيرة ذات نخل وشجر، ووجدناها غالية الأسعار "، وعن قرية تجموت شمال الأغواط يتذمر السجلماسي من غلاء أسعارها:" فسألناهم بكم الشعير عندهم فأخبرونا بما دل على غلائه، فلم نعرج عليهم.." [4]، ونفس الحال عن قرية سيدي خالد": وجدنا الشعير عندهم كاد لا يرى فضلاً عن ذكره"[5].

فمع غلاء الأسعار وقلة الحاجة وتفشي الجوع والفاقة، انتشرت ظاهرة اللصوصية في الكثير من مناطق الجزائر العثمانية، ومع غياب في غالب الأحيان إحكام قبضة السلطة على الرعية بإلإنفلات الأمني، ظهرت على الساحة قبائل احترفت مهنة السرقة؛ ومثال على ذلك قبيلة عشاش في أقصى غرب بايلك الغرب تعيث في الأرض فساداً بقطع الطريق، وهو ما استدعى تدخل الباي بإرسال حملة

---

[1]- ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 546.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص: 548.

[3]- ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 548.

[4]- السجلماسي، االمصدر السابق، ص: 143.

[5]- المصدر نفسه، ص: 155، ينظر: فاطمة بلهوراي، وصف الجنوب الصحراوي الجزائري في ظل الحكم العثماني من خلال "رحلة أبي العباس الهلالي السجلماسي"، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامي، جامعة وهران، ص: 43.

على القبيلة ففرقتها في أرجاء الأرض، ونفس الإجراء اتخذ ضد قبائل المهدية وأولاد علي بن طلحة والنمامشة والشائبة[1] والذين انتهجوا نفس المنحى. ولكن للأسف لم يكن دور السلطة فعال على العموم في قمع اللصوص ومرتزقة القبائل والأعراب المفسدين؛ فمن نصوص الرحلة وجد الدليل والشاهد وبكثرة خلاف لما قيل عن تحكم السلطة في زمام الأمور؛ فعن العياشي وبأقصى الجنوب الجزائري وبلاد أوكرت –خلف قرى توات –يروي قصة قطاع الطرق من أعراب تلك النواحي بقوله:" نزلنا بقرى الدغامشة[2] قرب زاوية سيدي عبد الله ابن طمطم[3]، وانه من أهل الخير والدين، يطعم الواردين عليه في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء...ومما تواترت به الأخبار عن هذا السيد أنه لا يترك أحد من الأعراب ذلك البلد يأكل طعامه، فإن لم يشعر به حتى جلس بين الناس أقامه، ويقول لهم هؤلاء اللصوص لا أتركهم يأكلون طعامي يستعينون به على ظلم المسلمين"[4]، وبالتمعن فيما قيل في هذا النص وما يلفت الانتباه قوله :" في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء" ، دليل أخر على تفشي الجوع في تلك البلاد الصحراوية، فدفعت الحاجة للبعض منهم كالأعراب، ضعاف النفوس للسرقة وسلب أرزاق الناس لأجل الغذاء.

---

[1]– قامت هذه القبائل بمنطقة غسران وهو واد جاري عليه دشرة عامرة بمنطقة الزاب، كانت تسكنها الظلمة الفجرة النمامشة والشائبة، فأخذهم الله أخذا وبيلا...فسلط الله عليهم بعض أمراء الترك ومن أنضاف إليهم من الأعراب، فأجلوهم لنواحي إفريقية من جهة تونس. ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص: 242.

[2]– **الدغامشة:** ضبطها ابن مليح بالعين(الدعامشة)، وسماها الإفراني في الصفوة الدغامسة، هي قرى كثيرة بقرب بلاد توات. ينظر: أنس الساري والسارب، المصدر السابق، ص: 30، محمد بن الحاج الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، المصدر السابق، ص: 169.

[3]– **سيدي عبد الله ابن طمطم:** هو أبو محمد سيدي عبد الله ابن طمطم الدغامسي من المشاهر هناك بالولاية والفضل، ينظر: الإفراني، المصدر السابق، ص: 169، محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج2، ص: 405.

[4] العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 80.

كما تبنت بعض القبائل حرفة السرقة واللصوصية[1] بمنطقة الزاب والطهرا واقتران ظاهرة السرقة بالجوع والفاقة مثل: عرب أم القرار الغربية[2]، وعرب النمامشة وقبيلة أولاد صولة وأولاد نصر ابن بوعكاز [3]، وبشهادة من ابن بحمان المصعبي عن ظلم هذه القبائل وتعديها على حقوق الناس:

كـــأولاد عـــكاز وأولاد صـــولـة وغيرهم من كـــل طاغ معادياً[4]

يقول عنهم محمد بن عبد السلام:" آل بوعكاز أشد الأعراب على الحجاج حرابة وسرقة واختلاساً"[5].

وبنوع من التفصيل عن أفة الجوع وارتباطه الوثيق بظاهرة اللصوصية يحكي العياشي ما هم بهم في رحلته بمنطقة الزاب:" نزلنا ظهراً بالمكان المسمى بالدويسة بينه وبين أولاد جلال نحو فرسخ وهناك تحقق الناس أمر العرب وأنهم معترضون الركب قاصدين أخذه معهم نحو من ثلاثمائة فارس، وأنهم ارتحلوا بحللهم ونزلوا أعلى واد سيدي خالد على حافتي الطريق، ومرادهم إذا توسطهم الركب وثبوا عليه رجالاً ونساء وصبياناً، وأخبرونا أهل البلد أنهم في غاية ما يكون من الجوع، وقالوا لنا لا طاقة لكم بهم ولو قاتلتموهم وقتلتم ما عسى أن تقتلوه. فإن ذلك لا يردعهم عنكم لشدة جوعهم"[6].

---

[1]- انتشرت ظاهرة اللصوصية والصعلكة خاصة من أعراف البوادي على العموم وعلى ركب حج المغربي خصوصا . لما كان يحمله معه من الزاد الضخم نظراً لبعد المسافة المؤدية إلى الحجاز. وهذا يفسر استعانة الحجاج بالجنود والفرسان للحماية من اللصوص. ينظر: عبد الخالق أحمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي (ت 1239هـ/ 1823م، المرجع السابق، ص: 233.

[2] – يقول عنهم محمد بن عبد السلام:" أهل سرقة واختلاسات" ينظر: الرحلة الناصرية الكبرى، ج1، ص: 192.

[3] – ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص ص:538 ،539،

[4] – ابن بحمان المصعبي، المصدر السابق، ص: 68.

[5] – محمد بن عبد السلام، المصدر السابق، ج1، ص:209 .

[6] – ابن بحمان المصعبي، المصدر السابق، ج2، ص: 544.

وبنفس الموضع تقريباً قرب قرى بني جلال يتسلط أبناء هذه المنطقة على ركب الحج المغربي لأبي مدين الدرعي، ووصل بهم الأمر لقتال الحجاج، وأكرم الله وفده بأن ردهم عنهم خائبين [1]. وعن عرب النمامشة بمنطقة الزاب في الطريق قبل منطقة غزران يصفهم الورثلاني بقوله:" فهم أقبح الناس وأكثرهم شراً، فمنهم من يأتي للسرقة، ومنهم من يأتي الخطفة، ولا يحكم بعضهم في بعض، ومع ذلك إنهم لم يكونوا في حكم سلطان تونس ولا في حكم باي قسنطينة، فإنهم هاربون في الصحراء"[2].

والأمر مشابه مع السجلماسي وأعراب عين ماضي:" نزلنا قرب القرية، وهي قرية منقطعة عن العمارة، ذات ماء معين والأعراب يؤذون أهلها كثيراً حتى أنهم ذكروا لنا أنهم تركوا الحرث لئلا تأكله الأعراب كما أكلوه في العام الماضي"[3]. وقد تحدث السجلماسي عن نازلة وقعت بها وكان حاضراً في حكم قاضي هذه القرية، وفحوى المسالة سرقة أعرابي لفت أحد مزارعي القرية والذي أطلق عليه إسم البلدي فكان حكم القاضي ليس صائباً فعاتبه السجلماسي فرد قالاً :" إن هؤلاء الأعراب حراميون يفعلون أمثال ذلك كثيراً، فلو كلفنا المدعي عليهم البينة لضيعوا أموال الناس،....فنهيته عن العودة إلى مثل هذا الحكم ...فأظهر الرجوع عن الحكم بذلك وبأشياء من نمطها ذكرها لي"[4]

---

[1]- والوجه له نفس الملامح وإن كان في أزمنة متعاقبة؛ على تسلط الأعراب بالـزاب على ركـب الحـج المغربي كزمن محمد الطيب الفاسي، وإن كان هذه المرة أخذ أمير ركبهم بالحيطة والفرار منهم. ينظر: محمد الطيب الفاسي (ت1110هـ/1170هـ)، الرحلة الحجازية، المصدر السابق، ص: 222، أبو مدين الدرعي، رحلة أبو مدين الدرعي (1152هـ/ 1739م)، مخطوط سابق: و241 و.

[2]- الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 236.

[3]- السجلماسي، المصدر السابق، ص: 141.

[4]- المصدر نفسه، ص:142 .

وقد سبقه لمثل هذا الأمر أبو ناصر الدرعي وعن عين ماضي وتكالب الأعداء على أهلها:" سلط الله عليهم مولاي عبد الملك، مزق أعراضهم وكسر عليهم الهيبة، وأخذ خزائن الأعراب وسط ديارهم زرعاً وسمناً وتمراً وأخذ عندهم ألف ريال ولم يترك لهم شيئاً"[1].

فمن خلال ما سبق يتضح أذى الأعراب واستفحال أمرهم للغاية وقد أضروا بأهالي الأقاليم ضرراً بالغاً وأوصلهم في كثير من الأحيان للمهالك بالعديد من مناطق الجزائر العثمانية، فعن معاناة سكان قرية أبو سمغون وتسلحهم الدائم مخافة أعراب النواحي خاصة أعراب حميان، حتى في المواسم والأعياد لم يسلموا من شرهم، حتى صارت من عادتهم اليومية التأهب للقتال، يروي عن ذلك العياشي وصلاته لعيد الفطر بمسجد أبو سمغون:" كان من عادتهم أنهم يخرجون إلى المصلى بسلاحهم لا يخرج أحد بغير سلاح صغيراً كان أو كبيراً ويبيتون في المصلى أحجاراً يتخذونها غرضاً للرمي حتى في حال الصلاة والخطبة إلى أن فرغ الإمام من الخطبة"،يقول عنهم محمد بن عبد السلام أثناء رحلته عام (1196هـ/1782م):"وأهلها ضعفاء فقراء تنهبهم أعراب حميان وغيرهم، ويأخذون منهم العطاء ويخزنونه لديهم"[2]. ومن يقتال أولئك الأعراب ولا يؤدون إليهم الإتاوات، يسمى مجاهداً في عرف سكان قرية أولاد جلال:" من أكبر قرى الزاب...وهم في قوة ومنعة من العرب لا يؤدون إليهم إتاوة، ويسمون كل من لا يؤذي إتاوة للعرب بالمجاهدين وقد صدقوا في ذلك"[3].

فكل هذه الأدلة تشير إلى انتشار الفوضى وللأمن في العديد من مناطق بلاد الجنوب الجزائري خلال مرحلة الحكم العثماني، وهو ما يقيم الحجة على غياب نفوذ السلطة الحاكمة في فرض وجودها

---

[1]- أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 130.

[2]- ينظر:العياشي، المصدر السابق،ج2. ص548، السجلماسي، المصدر السابق، ص: 144، محمد بن عبد السلام، المصدر السابق، ج1، ص: 193.

[3]- لكن المصعبي يوجه نقد بشعره لبني جلال في رحلته ويتهمهم بتعديهم على ركب الحج المغربي الفيلالي الذي كان معهم:

رجال بني جلال غارت بخيلهم طليعة شمس إثر ركب فلاليا

- المصعبي، المصدر السابق، ص: 69، السجلماسي، المصدر نفسه، ص:138 .

لأجل ضبط سلامة المسالك[1]، كما يبدو واضحاً أن من أسباب تفشي ظاهرة النهب والسلب بهذه الربوع الصحراوية؛ البؤس الشديد والذي تعود أسبابه إلى قسوة ظروف المنطقة اقتصادياً، بسبب الجفاف المزمن، فمع قلة المياه يقل الكلأ، وهو ما دفع بالكثير من القبائل الرحل الأعراب إلى السطو على أموال وأملاك الناس[2].

ومن أسباب الجوع والسرقة أيضاً وهما من توابعها، ما عرف بالفتن الداخلية ما ظهر منها وما بطن، فد يكون بين القبائل فيما بينها، أو حتى في القبيلة ذاتها، والتي كنت تشتعل من الفينة والأخرى في كثير من الأمصار كقرية زمورة وبني يعلى وقصر الطير موطن الرحالة الحسين الورثلاني والذي قال عنهم: " فإن أشر الشرور في وطننا الفتنة والقتال بينهم، فليس أشر من هذا" وبريكة ومدكال وغيرها من المواطن ببايلك الشرق[3]، وكذا الأمر شاع في المناطق الصحراوية بالجنوب الشرقي الجزائري يقول الورثلاني:" أولاد دراج طائفة من العرب، وقد رأيت في بعض منهم من ربيعة،...وأولاد رحمة وأولاد مخلوف، فمهما طغت إحدى الطوائف إلا أغرمت الأخرين، وبلد هؤلاء " بلاد الصحراء"...وهم أكثر من أن يحصوا وهم فرق، وقد تحصل الفتنة بينهم فيموت الثلاثون والأربعون في يوم واحد "[4].

---

[1]- وبسبب غياب الأمن في الكثير من المسالك التي يمر بها الحجاج سواء في المشرق أو المغرب ولكن بالصحراء الجزائرية في العهد العثماني على الخصوص يستوجب الحذر؛ وهذا ما أكده العياشي في وصيته لصاحبه في رحلته الحجية الصغرى الموسومة ب" تعداد المنازل الحجازية أو التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز (1068هـ/1658م) في قوله:" وخذ لنفسك ما تحتاج إله من البارود والرصاص، وأتخذ لأصحاب ولنفسك مدافع فإنما في الطريق هيبته، وأي هيبة فاستكثر منها جهدك، وأمر من يستمع لك بذلك، فإنهم نعم السلاح لمن هو في تلك الطريق"، ينظر:أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية الصغرى، تح: عبد الله حمادي الإدريسي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:2013م، ص: 51، محمد بن عبد السلام، المصدر السابق، ج1، ص: 216.

[2]- ينظر: فاطيمة بالهواري، المرجع السابق، ص: 44.

[3]- الورثلاني، المصدر السابق،ج1، ج3، ص ص: 191،195، 375، 384.

[4]- المصدر نفسه، ج1، ص ص: 196، 198.

وعن الفتنة بمدينة بسكرة والتي أضرت بالمدينة وما مجاورها فقد تحدث عنها كل من الدرعي والورتلاني والسجلماسي نقلاً عن العياشي بأنها:" ابتليت بتخلف الترك عليها وعساكر الأعراب يستولي عليها هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى ...فاجتمعت عليها غارة العرب من الخارج وظلم الترك من الداخل، وقد أشرفت على الخراب"[1].

كما تسببت الأوبئة في التغيير جذري للبنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري، فاندثرت بعض الأسر والقبائل بأكملها، كما هو الحال مع قبائل الأمحال[2] الذي سمى طاعون 1785ب" حبوبة المحال" نسبة إليهم بعد ما أفناهم عن أخرهم. كما ترتب عن كثرة المجاعات والكوارث الطبيعية قلة المحاصيل الفلاحية وهذا ما أدى إلى تقهقر الوضع الاقتصادي الذي عانت منه الطبقات الاجتماعية المحرومة التي ازدادت فقراً وتعاسة، مما جعلها تتقوقع على نفسها. مثل ما كان مع قرية ألماية قرب واد الآشبور قريباً من مدينة الأغواط يقول عنها العياشي:" وليس فيها إل رجلان أو ثلاثة في غاية ما يكون من الضعف والجوع وزعموا أنهم شرفاء، ولم يجد الناس ما يشترون إلا الملح يبعونه بالطعام، وكان لطف الله بهم أن الركب المتقدم أقام هناك يوماً من المطر ماتت لهم ثلاثة من الإبل وأنتفع أولئك الضعفاء بلحمها"[3]، ونفس شيء قاله عن قبيلة أولاد سيدي مخلوف بأنهم فقراء على الرغم

---

[1]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 540، أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص:145، السجلماسي، المصدر السابق، ص: 166، الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص ص: 200، 203.

[2]- **قبائل الأمحال**: أصلها من التل الكبير من مصر، بعث بها العبيديون إلى المغرب الأوسط، اقترن اسم هذه القبيلة بقبائل سويد المتحالفة مع الأسبان، فأبادتها السلطة العثمانية لهذه الخيانة، ومن بقى منهم نزلوا في المالح وسيق ومستغانم وتنس وإقليم الشلف، وقيل أنه بقى منهم سوى مجاهر بناحية مستغانم، وفليتة بناحية مينا. كما كانت قبيلة المحال التي يعود نسبها إلى سويد بن عامر بن مالك بن زغبة، قوية تهاجم القبائل الضعيفة وتقطع الطريق، فقام الباي عصمان بتفرق شملهم و طارد بعضهم إلى الصحراء وبعضهم إلى الشرق، بينما طلب آخرون الأمان وخضعوا لسلطة البايلك. ينظر: كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 264.

[3]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 548.

من أصلهم الشريف، فقد بلغ الجهد منهم كل مبلغ[1]. وعن قرية دمد وأهلها الجياع يقول عنها السجلماسي:" ونكبناها قصداً لأن دأبهم شدة أذية الحجاج سرقة واختلاس، حتى أنهم يختلسون القدور وهي تغلي، نسأل الله العافية ...ووجدناهم جياعاً ضعافاً فلم يعرضوا سمناً ولا شعيرا "[2].

ومن الملاحظات المهمة والتي تستدعي التوقف عندها مع نصوص الرحلة بأن عام (1074هـ/1663م) وهو العام الذي مر به أبو سالم العياشي بالجزائر عام جوع وقحط وليس على الجزائر وحدها وحتى بتونس، كما أثبته في قوله:" لأن السنة كانت سنة قحط وجوع"، وحتى مع رحلة السجلماسي يستشف ذلك (1150هـ/ 1737م) [3]، عكس زمن رحلة أبو العباس أحمد بن ناصر ر الدرعي(1120هـ/ 1709م-1121هـ/ 1710م) [4].

المبحث الثالث: مكانة المرأة والعادات والتقاليدفي المجتمع الريفي البدوي

زخر المجتمع الريفي والبدوي ببيلكات الجزائر العثمانية ومناطقها الداخلية والصحراوية، بكثير من المظاهر الدالة على الثراء والتوع في الحياة الاجتماعية بايجابياتها وسلبياتها، وحتى بتناقضاتها في الكثير من الأحيان، ويظهر ذلك من خلال العلاقات السائدة بين عناصره الأساسية المشكلة لتفاعلات هذا المجتمع، ونخص بالذكر في هذا السياق مكانة المرأة الريفية أو البدوية في الجزائر

---

[1]- تستوطن أرضاً قريبة من قرية أولاد جلال. ينظر العياشي، المصدر نفسه، ج2، ص:546 .

[2]- الواقعة بين مدينة الأغواط وقرية عمورة، ذكرها العياشي باسم دمك. ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 546، السجلماسي، المصدر السابق، ص: 152.

[3]- تمت هذه الرحلة في يوم الخميس من 30جمادى الآخرة من السنة الهجرية 1150هـ الموافق 6 أكتوبر 1737م، كانت الانطلاقة من الزاوية الزينية بإقليم سجلماسة بجنوب المغرب الأقصى إلى توزر التونسية مروراً بالمنطقة الصحراوية الجزائرية، فتم خلالها ذكر عدد هام من أسماء المناطق الحضرية والبدوية على طول هذا الخط كمدينة سجلماسة، سهلة، البريكات، ماء دلس، واد الصفصاف، وادي جير، مسور، القنادسة، بشار، واكدة، زريف، المعرر، أم ألياس، فيقيق، المقرار، الكراكدة، بوسمغون، الغاسول، عين ماضي، تاجموت، دمد، أولاد جلال، بسكرة، سيدي عقبة، الزرايب (زريبة الوادي)، الشبيكة، حامة، توزر. ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص ص: 72، 169، فاطيمة بالهواري، المرجع السابق، ص: 41.

[4]- ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 127، وأبو ناصر الدرعي، والسجلماسي .

العثمانية، وما تعلق بها من عادات وتقاليد إلى جانب بعض الملامح الخاصة عن المناسبات الاجتماعية للأرياف كالأعياد وعلاقات الزواج على ضوء ما دونته ألسنة الرحالة والمؤرخين.

1- مكانة المرأة في المجتمع الريفي البدوي:

لم تعدم الجزائر في الفترة العثمانية وجود نساء رائدات فاضلات، ارتبطت اسماؤهن بالنبوغ في مجالات شتى، فقد تميزت البعض منهن ولمع صيتها حتى أضحت مثلاً يقتدى به في العبادة والعلم والصلاح، وهذا ما شهد به عبد الرحمن المجاجي في رحلته عن السيدة عُودَة بنت سيدي محمد بن علي أَبَهْلُولَ، فراح يتغنى بخصال هذه المرأة الشريفة، التي تعدى سنها التسعين سنة، في إكساب المعدوم، وإقراء الضيف والإعانة على نوائب الدهر، حتى شبهها في صلاحها برابعة العدوية، ليكرمها الله بخير ختام الوفاة بعد أداء فريضة الحج عام 1063هـ/1652م، والدفن بأطهر بقاع الأرض بأرض البقيع[1] :

هُنَاكَ تَوَفّيتْ بِنْتُ شَيْخِ شُيُوخِنَـــا ... لَهَا فِي طُرُقِ الخَيْرِ يَا صَاحِ شُهْرَةٌ

لهَا فِي العُمْرِ نَقْطُ ضَادٍ وَنَيْفــاً[2] ... وَلَا لَهَا شُغلٌ فِيهِ غَيْرُ العِبَـــادَة

وَصَوَّامةٌ قَوَّامَةٌ طُولَ لَيْلِهَـــــــا ... ودَأبُهَا فِي الأَوْرَادِ فِيهِ عُجُوبَـــةٌ

وَثـمَّ الْيَتَامىَ وَالأَرَامِلُ ثُمَّ مَـــن ... تَكُونُ بِهِ خَصَاصَةٌ فَيُقَـــــوَّتُ

وَكُلُّ عَدِيمٍ فِي الأَنَامِ تَكُفُّـــــهُ ... عَنِ السُّؤْلِ حتّى تُعْطِيهِ بِالكِفايَةِ

وَلَيسَ لَهَا مِثْلٌ سِوَى مَن تقَـدَّمَت ... فِي مَاضِي السِّنينَ مِثْلُ العَدَوِيَةِ[3]

---

[1]- ينظر : عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، ص ص:108 ،171، 172.

[2]- بحساب الجمل على طريق المغاربة، فإن ض =90، ونيفاً في اللغة: هو الزيادة وكل ما زاد على العقد فهو نَيْف أي من واحد إلى غاية تسعة ويعني ذلك أن عمرها تعدى 91سنة ولم يبلغ 100، قاسم علي سعد، "الأرقام العربية تاريخها وأصالتها وما استعمله المحدثون وغيرهم منها "**مقال ضمن مجلة الأحمدية**، ص:645، حسين يوسف موسى- عبد الفتاح الصعيدي، الإفصاح في اللغة، ج2، ص:1255.

[3]- يقصد بها **رَابْعَة العَدَوِيَة** بنت إسماعيل أصلها من مدينة البصرية، وكانت مولاة لآل عتيك، تكنى بأم الخير، كانت تعزف المعازف ولما تنسكت أدخلت على التصوف فكرة الحب الإلهي بدلاً من الخوف و الرهبة، وقد سميت كذلك بشهيدة العشق الإلهي، توفيت بظاهر القدس في الأرجح، وقيل بالبصرة سنة 135هـ/752م، ينظر: أبو عبد الرحمان محمد بن الحسين السلمي،

وإلى جانب ما قاله المجاجي عن هذه المرأة الفاضلة، فيذكر عنها أنها كانت تدرس بزاوية أبيها في بلدة مجاجة، ولم تخلف أولاداً، يقال: إنها ربت ولدا اسمه أحمد بن عودة وعلمته، مقامه مشهور بنواحي غليزان[1].

ومن هذه الأخيرة وشرف التربية والمهمة الإلهية للمرأة ويكفيهن فخراً بها أنهن يعتنين بتربية أبنائهن تربية دينية، ويمهدن لهم طريق العلم والريادة، ذلك ما قامت به على سبيل المثال: والدة الشيخ سعيد المقَّري شيخ الرحالة أحمد المقري، وكذا عمة المصلح الإمام محمد بن علي السنوسي وغيرها[2]. ومن نماذج النساء الرائدات أيضاً في العلم والأدب والعبادة على ما ذكره الرحالة الحسين الورثلاني عن الحاجة " عويشة " بنت الشيخ سيدي عبد الله بن رحاب، وأصلها من عرش أولاد دراج (نواحي الحضنة)، حيث أضحت محل إعجاب وتقدير الحجاج بمعية أختها، لكونها"...غاية في الأدب والفهم والفطانة، تقرا نحو الربع من القرآن، وتحفظ العقيدة الصغرى للشيخ السنوسي، وبعض الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وكذا وظيفة الشيخ زروق البرنسي من الأذكار، وكذا أختها فاطمة لا تقل عنها قدراً[3]. ونفس الشأن قاله عن صهرته زوجة الشيخ سيدي بركات بأنها :" من الصالحات القانتات الصادقات الصابرات"[4].

=طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، ص: 387، عبد الرؤوف المناوف، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية أو طبقات المناوى الكبرى، ص: 200، 204، أبو الحسن السخاوي، تحفة الأحباب وبغية الطلاب، ص:108، الزركلي، الأعلام، ج6 ص: 7 .

[1]- ينظر: الحاج علي هني بنعشيط المجاجي، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة، ص: 23.

[2]- ينظر: أحمد بوسعيد، ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني (1518-1830م) دراسة تاريخية واجتماعية من خلال الرحلات الحجازية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، المشرف: محمد حوتية ، جامعة أدرار، الموسم الجامعي:(1438هـ-1439هـ/ 2017م-2018م)، ص: 113.

[3]- ينظر: الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج3، ص: 112، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص:395 ، أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص: 116.

[4]- ينظر: الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 189.

كما دأبت النساء الجزائريات على زيارة الحرمين الشريفين في كل موسم حج، وخصة عندما يسود الأمن في الطريق لسنوات متتالية، فإن العزم على الحج يقع_ كما ذكر الورثلاني_ من عامة الجزائريين ومن خاصتهم، من أهل الحاضرة وأهل البادية، لدرجة أن معظمهم يذهبون إليه بنسائهم وأولادهم "[1] ويصبح اسم المرأة بعده متحلياً بوسم" الحاجة"، على منوال : الحاجة عائشة بنت سيدي السعيد، والحاجة شريفة والدة الحاج أحمد باي، والحاجة فاطمة بنت أحمد السلاوي، والحاجة فاطمة بنت عبد الله، وأختها الحاجة عويشة[2].

وعلى الرغم من ظروف الحج الصعبة في ذلك الزمان إلا أن النساء كن حريصات على مرافقة الرجال ضمن الركب، فنساء شيوخ الركب كن يرافقن أزواجهن، بل ويذهبن إلى الحج بأولادهن الصغار. وهذا ما أشار إليه الرحالة العياشي في وصفه للشيخ سيدي أبو حفص ابن الوالي الصالح سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان ابن سماحة، الذي لقيه في طريق الحج عام 1065هـ/ بأنه" كان يسير غالباً للحجار بنسائه وأولاده"[3]. ومن الأدلة الأخرى والتي تؤكد إقبال النساء على الحج، ما قاله الورثلاني عن ذهاب أحد رجال السلطة المدعو " سيدي محمد بن قسوم"، وهو من أصحاب المخزن، بعياله وأولاده جميعاً [4].

كانت هذه نماذج عن مواطن التميز للمرأة الجزائرية في العهد العثماني، ولكن كتب الرحلة رصدت أيضاً مواطن أخرى، قد يقال عنها مواطن الظل للمرأة الجزائرية، قد سكتت عنها الكثير من

---

[1]– ينظر: الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج1، ص:44.

[2]– يمكن إحصاء عشرات الأسماء جزائريات حاجات من كتب الرحلات وغيرها، ولكن دون ذكر تفاصيل وافية عنهن. ينظر: ص: 116، أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص ص:115، 116.

[3]– قال عنه أيضاً – الشيخ أبو حفص– أنه حج معه عام 1059هـ، تؤثر عنه كرامات وله أتباع، له صيت حسن وتنسك مثابر على الخيرات من جهاد وحج، أفنى عمره في التردد على الحرمين الشريفين، وربما رجع من الطريق قبل أن يصل، ولم يزل كذلك إلى أن توفي سنة 1071هـ.ينظر: العياشي، المصدر نفسه، ج1، ص: 111.

[4]– ينظر: الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 407، أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص: 114.

المصادر قصداً أو بدون قصد، فعلى سبيل المثال ما ارتسمه لنا الرحالة أبو عبد الله الحضيكي(ت1175هـ/1778م) بلسان الواعظ الغيور على حرمة المرأة المسلمة وأبدى سخطه الشديد على نساء عين ماضي كخروج نسائهن إلى الأسواق، والاختلاط بالرجال للتجارة لأنه: " لا يبيع ولا يشتري في تلك البلاد غالبا إلا النساء، ولقد أفتتن بهن عامة الحجاج إذ نزلنا بها والعياذ بالله من فتنة الأهواء وإتباع الشهوات والغريب أن لبعض أهلها نوع من مخالطة العلم وخاصة الفقه[1] ولا ينهون نسائهم عن ذلك، ويقول أيضا في السياق نفسه:" فلا تبيعهن شيئاً من ذلك للنساء المفتنات، واحذر ما يفعله عامة الحجاج وسفلتهم من مخالطتهم مع نساء العرب ومعاملتهم لهن، واختلائهم بهن، ومضاحكتهم معهن، إياك وارتقب الشاهد ربك"، ووصفهن أيضاً بقلة الحياء حيث قال:" ترى نساءهم كذلك متبرجات بزينتهن، لا حياء معهن ولا دين، متغلبات عليهن وحكي أنهن لا يصلين أصلاً، ولا يغتسلن من الحيض ولا من الجنابة، مخافة من الماء، مع أنهم ادعوا الشرف ". ولكنه لم ينكر جمالهن وهو سبب الفتنة في كل ذلك في قوله:" ونساؤها برعن بالحسن والجمال...فإنهن يفتن من رمقهن"[2]. ونفس الشيء قاله أبو ناصر الدرعي (1096هـ/1685م) وقد سبقه الحضيكي في ذاك النقد عن تبرج وسفور نساء عين ماضي[3]:" أنهم لا يبالون بالحجاب، ترى نساءهم الشواب تبيع

---

[1]- يقول السجلماسي عنهم:" كنت قد سمعت أن طلبة العلم بها كثير، فسألت أحد من تلقانا عن فقيهها، ...فقل لي الفقهاء فيها كثيرون..." كما ذكر الدرعي الكثير من فقهائها. ينظر: المصدر السابق، ص: 141، أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 131.

[2]- ينظر: محمد الحضيكي(ت 1189هـ)، **الرحلة الحجازية**، تعليق: عبد العالي لمدبر، ط1:1432/2011م، الرباط: دار الأمان للنشر والتوزيع، ص: 42، 83، 84 .

[3]- عن قرية عين ماضي يقول عنها أبو مدين الدرعي:" هي قرية جامعة نزلت عينها من جبل يجري بماء غزير عذب، أهلها كلهم من أصل واحد، وليس معهم أجنبي"، و242ظ، ونفس الأمر ذكره أبو ناصر الدرعي:" وهم منعزلون بقريتهم، لا يساكنهم غيرهم...وكلهم تفرعوا من أصل واحد". أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 131. والسجلماسي:" وهي قرية منقطعة بعيدة عن العمارة ". ص: 141، فانعزال هذه القرية والأصل الواحد لسكانها لعله هو السبب الراجح في زرع بين رجالها عدم

وتشتري، مع الحجيج غير مستترات"، يقول محمد بن عبد السلام عن حجابهن:" فما رأينا في هذه البلاد مثلهن في تركه، ترى الرجل وزوجته وابنته يسوقون الركب، باديات مزينات مع ما وسمن به من الحسن البديع، ولا يتولى البيع والشراء غالباً إلا النساء فلا حول ولا قوة إلا بالله"[1]، وبوصف لاذع لهن يزيد الشيخ الواعظ الرحالة أبو ناصر الدرعي:" نسائهم سارحات كالبهائم كدأب نساء هذه النواحي وكلمتهم وزجرتهم ويوم إقامتنا لم تتحرك امرأة بالركب فالله يتوب علينا وعليهم..وكلمناهم على ذلك في حجة ستة وتسعين، فقالوا هذه عاداتنا ونحن العرب وأهل البوادي، ولا بد لنا من ذلك لقلة ما بأيدينا، وأكبر من هذا أن نساءهم لا يغتسلن من جنابة ولا من حيض ولا نفاس وكلمناهم على ذلك أيضا ولمناهم واستعذروا بأن ذلك يضر بهن يضرهن في أرحامهن، يزعمن أن الاغتسال بمائهم يعقمهن [2]، على أن جماعة من يوثق به من أصحابنا قالوا: رأينا نساءهم يغسلن الصوف وسط الساقية بماء بارد، فلا حول ولا قوة إلا بالله"[3]، ونفس المقال قاله ابن الدين الأغواطي وإن أوجز في ذلك بأن نساء عين ماضي يظهرن في الشوارع [4].

وقد شاركهن هذا التبرج نسوة أهل بوسمغون والكراكدة وهو دأب نساء تلك النواحي كما قال الدرعي والسجلماسي على الرغم من أنهم أهل بادية أو أهل مدر:" لا حجاب عندهم تخرج نساؤهم يتسوقن مع الركب...فليحذر الحاج كل الحذر من الوقوع معهن في محرم، رؤية فما فوقها، فإن النساء

=الغيرة من بعض على نساءهم، وإعطائهم الحرية في عدم الحجاب والسفور، ومع الوقت أعتقد أصبح طبع ومن العادات المتوارثة بينهم، وعدم الاستحياء حتى من الغريب.

[1]- أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص:205 .

[2]- وهذا منقول أيضاً عن رحلة أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي المسماة" **نسمة الأس في حجة سيدي أبي العباس**" في قوله:" أنهم لا يغتسلون من الجنابة أصلاً"، فيعقب محمد بن عبد السلام الناصري على حجة نسوة عين ماضي بعدم الاغتسال:" فقلت لمن حدثني بذلك: ما هي إلا عقوبة من الله تعالى لهن على ترك الواجبات". ينظر: الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص:204 .

[3]- أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص: 130، 131.

[4]- ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 89.

حبائل الشيطان،.."[1]. وهذا هو الأخر الحسين الورثلاني باعتباره عالم ومصلح يوجه مرارة غضبه على نساء موطنه "بني يعلى"و" زمورة":" فنساءهم باديات مكشوفات، هداهم الله لحجبهن، لأنه من أعظم الآفات"[2].

وعن نساء زمورة ببايلك الشرق فقد تعدوا بتبرجهن وزينتهن كل متوقع على رأي الورثلاني، فقد وصفهن في زينتهن وهن بالأزقة والعيون كأنهن في ليلة زفاف، مكشوفات العورات باديات المستحسن؛ كالصدر والثدي وتحت الإبط والساق والفخذ، وما زاد من فتنتهن جمالهن الأخاذ، فإنهن أجمل خلق الله من رآهن من أهل الأهواء فتن بهن. ولكن مكمن المعضلة في تبرج وسفور نساء زمورة بأنهن يفتخرن بذاك التفسخ الاجتماعي" فلا يسمعون إن وعظتهم- كما يقول الورثلاني- ولا يرجعون إن ذكرتهم...وقد ألفوا ذلك من أبائهم وأجدادهم ...وهذا ظاهر منهم بين إلى الآن"[3].

لنعود بعدها لنساء الصحراء ونحط الرحال بوادي سوف، أين يصفهن الأغواطي بقوله:" ونساؤهم يذهبن إلى السوق غير محجبات كما في البساتين، ويشيع بينهن الحنا كثيراً". ليعقب بعده أبو القاسم سعد الله على ما قاله الأغواطي عن الحنا الذي يشيع بينهن، لعله العادة التي كانت منتشرة في السوق وهي لقاء الشبان والشابات للتعارف والتفاهم على الزواج، وقد كان هذا اللقاء يتم على مرأى الجميع، في المناسبات الاجتماعية والمواسم وفي الطرقات العامة، ورغم شهرة التعفف في هذه العادة فإن فتيات العائلات التقليدية المحترمة لا يشتركن فيها[4].

لنخرج مما قيل بحوصلة بأن تبرج المرأة في بعض المناطق الريفية والصحراوية لم يكن عاماً بالجزائر العثمانية، بل أقتصر على بعض المناطق فقط ولكنها زفرات كتبتها مواعظ رجال دين أكسبتهم حلة

---

[1]- ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص: 131، محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص: 198.

[2]- ينظر: الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 191.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص: 377.

[4]-ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 96.

الرحلة والحج صفة الواعظ لما شذ عن تعليم الشرع والأخلاق الإسلامية المتعارف عليها في لباس المرأة المسلمة واحتشامها. فها هو ذا الأغواطي يطل من جديد بنعته لنساء تقرت يصفهن بأنهن متحجبات، وإن كن يظهرن في الأسواق[1]، فحتى خرجهن للتسوق مع الظهور في الشوارع تعتبر مسبة في حقهن، لأن الشرع بما تعارف عليه الرحالة المغاربة آنذاك أنهن يقرن في بيوتهن.

أما عن نساء الأرياف ببقية بايليكات الجزائر العثمانية وخاصة بجبال جرجرة يتدخل الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان ليفرض رأي جديد بأن السفور النساء وبالأخص المرأة الأمازيغية هناك أمراً عادياً للحاجة الاقتصادية التي تفرض على المرأة الريفية الاشتغال في الحقول، لمساعدة الرجل لأجل لقمة العيش، على غرار كل النساء اللواتي يسكن الريف. على عكس ما ذهب إليه الرحالة دي تاسي بأنهن منقبات وليس فقط محجبات ولما تخرج أحدهن من بيتها ترتدي قناعاً على وجهها حياء من الرجال[2]. كما أكد ذلك الرحالة الأوروبي هوداس بأن المرأة العربية كانت منقبة [3].

أما عن الحرية للمرأة الريفية فقط تمتعت بها والدليل على ذلك خروجها للتسوق مع ركائب الحج، وخاصة بالقرى الموالية لمسالك هذه الركائب، كقرى تقرت وبوسمغون وقرية سيدي خالد التي يقول عنها السجلماسي:" تسوقوا وسط الركب، رجالاً ونساء وولدانا" [4]وغيرها، بل أكثر من ذلك بل هن من يبعن ويشترين مع الحجاج وهذا ما أثار سخط الرحالة ونقمتهم على نساء تلك النواحي كما أسلفنا. ونفس الشيء يقال عن استقبال ركائب الحج الجزائرية كانت أو المغربية، فامرأة المدينة أو الريف كلهن على حد سواء كن في الصفوف الأولى في استقبال وفد الله أو توديعه، وقد عرضت محافل الرحلة عن ذلك مشاهد جمة عن حفاوة الاستقبال بحضور القض والقضيض كما قاله

---

[1]- ينظر: المصدر نفسه، ص: 100 .

[2]- ينظر: بن عتو، المرجع السابق، ص: 279.

[4]- Houdas, Op.cit,p 83.

[4]- ينظر: السجلماسي، المصدر السابق ، ص: 155.

السجلماسي:"و قد خرج إلينا قرية سيدي خالد قضهم بقضيضهم"[1]. وحتى في العراك أو الخصام الاجتماعي كان للمرأة بصمتها، وإن كان جدال عقيم قد يصل حد القتال، فها هي ذا بوسمغون ونسوتها يشاركن أزواجهن في القتال بين فريقين على عين ماء:" فتبعت كل فريق شيعته، وتبعتهم بعض نسائهم فاكثروا اللغط والتخليط...وكان خصمهم على عيني ماء"[2].

أما عن نساء الجبال فقد كتب لامبير أن المرأة القبايلية تظهر أمام الرجال في الاحتفالات، وتشاركهم الغناء والرقص مستعينة بالمكحلة (البندقية) أو السيف"[3]. لكن هذا لا يمنع من هضم حقوق المرأة وخاصة بالأرياف، كما ضرب لنا مثلاً الورثلاني عن موطنه ببني يعلى وزمزرة بأرياف بايلك الشرق وعن:" عادتهم القبيحة وأفعالهم الشنيعة بقطع الميراث للنساء، بل زادوا في الضلال أن الرجل إذا مات ورث أخوه ماله وزوجته، كما كان في الجاهلية قبل الإسلام". بل زادوا عتواً بأن الإنسان إذا رأى أخاه وابن عمه ذا مال قتله وأخذ ماله وأهله إلى غير ذلك من أوصافهم الرديئة، وقد نهاهم الورثلاني عن ذلك فأذعنوا له[4].كما أشار" لوجي دي تاسي" أن المرأة الريفية عربية كانت أو أمازيغية مقيدة بأشغال ومسؤوليات بيتها ولا يسمح لها أن تتدخل في شؤون القبيلة السياسية والاقتصادية، فقد عودها رجل قبيلتها على عدم طرح التساؤلات في هذا الشأن، بل حتى الزوج لا يتحدث لزوجته في قضايا القبيلة، إلا أن ما ينغص عيشها هو تعدد زوجات الرجل، فالغيرة التي قد تكون بين الزوجات، تؤدي بهن إلى التخاصم، ولجوء بعضهن إلى ممارسة الشعوذة وتعاطي السحر[5].

---

[1]- **القض**: الحصى الكبير و**القضيض**: الحصى الصغير، يعنى جاءوا جميعاً بكبارهم وصغارهم لم يتخلف منهم أحد، ص: المصدر نفسه، ص:155 ، المعجم الوسيط، ص:742 ، ونفس الشيء قاله أبو ناصر الدرعي عن استقبال أهالي كل القرى التي مرو بها بالجزائر. ينظر: المصدر السابق، ص ص: 124، 129، 132.

[2]- السجلماسي، المصدر السابق، ص:131.

[3]- ينظر: عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص: 278.

[4]- الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص:243.

[5]- عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص: 280.

أما بالنسبة لأعمال المرأة الريفية البدوية، فقد فرضت عليها بيئتها البدوية أن تهتم بعملها المنزلي وبماشيتها، وهما من أولويات الحياة عندها,,ومن خطوطها العامة لنشاطها اليومي مايلي: تحلب المرأة الريفية الأبقار والأغنام عند صلاة الفجر، ثم تمخض الحليب وتهيئ الزبدة، بعد تنظيم الخيمة، تسوق الماشية رفقة أطفالها إلى المرعي، وتنسج ألبسة لزوجها وأبنائها وقماشاً للخيمة، ثم تهيئ الفطور للأسرة كلها، كما تحلب الحطب الذي قلما يعثر عليه لذا يتم الاكتفاء بفضلات الأغنام وتعريضها للشمس لتصبح قابلة للاستعمال، ومن ثم تقيد الماشية أي تربطها في حضيرتها، وإلى جانب كل هذا هناك أعمال ضرورية يومية ببيتها: كغربلة طحين القمح والشعير وتحضير الخبز الطازج منه، فهي كما قيل تشارك الحمير والبغال والأحصنة في ممارسة الأشغال الشاقة[1]. ونظراً لكثرة مهامها وانشغالها الدائم لم تكن تعتني بهندامها، فإذا مرضت تمت مداواتها ببعض الأعشاب[2].

أما عن الحياة اليومية للمرأة بقرى الصحراء الجزائرية فقد كتب عنها الأغواطي سطوراً مركزا على فكرة واحدة وهي خروج بعضهن إلى الشوارع والسوق والبساتين، وسقي الماء من الآبار وحمله على ظهورهن في القرب، كنساء المنيعة:" والنساء هنا كالبدويات يذهبن إلى الآبار ويسقين الماء ثم يحملنه على ظهورهن في القرب"[3]. والتزام بعضهن الآخر البيت وقد نعتهن هذا الأخير بالمحترمات[4].

أما عن زينة المرأة يقول لوجي دي تاسي أن شعر المرأة الريفية عادة ما يكون مضفراً، ويتدلى المرجان على رقبتها إلى أن يصل إلى صدرها، في حين يصف هاينريش وشلوصر المرأة الريفية القروية بإقليم سيباو بأنها أكثر أناقة من الرجل، ويمتزن بجمال الوجه، كما تزين رأسها بظفيرتين مصنوعتين من خيوط صوفية زرقاء تتدليان من الجانبين، وتثبت بهما حلقتين فضيتين مرصعتين بالجواهر ومعلقتين

---

[1]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 280، كمال صحراوي، المرجع السابق، ص:309 .

[2]- حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق، ص:36 .

[3]- ينظر:ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 91، محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ص:187.

[4]- عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص: 280.

فوق الأذنين، وتضع في معصميها ورجليها أساور وخلاخيل كبيرة، ولما تخرج من البيت فإنها لا تحجب وجهها ويقصد المرأة الأمازيغية[1]. فإذا مرت على " أجنبي " أدارت وجهها، فإن لم تفعل ذكرها زوجها- بضربات خاطفة على رأسها – وقد يكون دواعي السفور والتخلص من النقاب إلا لدواعي اقتصادية كما أشارنا سابقاً[2].

كما تتصنع الفتيات الريفيات بالجنوب الجزائري بألوان مختلفة يضعنها على الوجه، وأسفل الأصابع وعلى الصدر. أما في المناسبات الاحتفالية تلبس معطفاً أحمراً أو أزرقاً في العادة، وتربطه بكتفيها بواسطة إبزيمات من الفضة، كما تضع هذه الإبزيمات أيضاً بأذنيها للتزين، مع خواتم فضية وأسورة في المعصمين والكعبين[3]. إلى جانب الوشم على الكعب والذراع واليد والوجه وتخضيب الشعر بالحنة الممزوجة بالقرمز[4] وهو نوع من المواد الطبيعية لتثبيت صبغة الشعر والتي تقلل بها من أثر الشيب وخاصة عند عرب النوايل بالقرارة نواحي غرداية بمنطقة مزاب [5]، كما تستعمل الحنة لزينة اليدين والقدمين أين تشعر بتجدد شبابها مع تلك الزينة[6].

أما عن الأطفال فقد لاحظ أن عملهم في المجتمع الجزائري كان شائعاً، حيث يساعدون أهاليهم في الأعمال المنزلية، كإعداد الطعام وجلب الماء ورعاية من هم أصغر منهم سناً من الأخوة،

---

[1]- ينظر: هاينريش فون مالتسان، ج2، ص:148، شلوصر فندلين، المصدر السابق، ص: 100، عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص:278، كمال صحرواي، المرجع السابق، ص: 331.

[2]- عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص: 278.

[3]- المرجع نفسه، ص: 279.

[4]- **القِرْمِزُ**: صبغ لونه أحمر قان، أنه عصير نوع من الديدان الصخرية، كما يقال بأنه مادة طبيعية وهو عبارة عن حبيبات صغيرة ملتصقة بعضها البعض على شكل أقراص تنتجها حشرات متشرنقة، على أغصان شجر البلوط، وتبقى كذلك حتى تجفف تماماً ثم تجفف وتطحن وتستخدم في تلوين الشعر، وميزتها تثبيت اللون لفترات طويلة.

[5]- ينظر: التنلاني، المصدر السابق، ص: 242.

[6]- ينظر: كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 310.

كما يشتغلون خارج المنزل في أعمال الزراعة ورعي الماشية خاصة الذكور، وتكلف البنات بمساعدة الأمهات في حياكة الثياب الصوفية ونسج الأغطية والأفرشة[1] .

4- الزواج والأعياد:

أ- الزواج:

تخطب المرأة الريفية من أهلها ويقدم لها صداق[2]، بالإضافة إلى هدية معتبرة تتماشى ووضعها وجمالها، وتسمى هذه الهدية بالماكلة، غير أن أهل المدن كانوا ينظرون إليها على أنها شيء غير مشرف[3]. وخطبة البنات بالأرياف ميسرة لكثرة العلاقات الاجتماعية وترابطهم ببعض، وتكون المصاهرة في الغالب بين أبناء العمومة في العائلة الواحدة أو في فروع نفس العائلة. على خلاف ما كان سائداً بالمدن والتي تشيع فيها الخطبة عن طريق وسائط وهو عرف المدن كمدينة الجزائر مثلاً؛ ويتم ذلك عن طريق امرأة مسنة صديقة لعائلتي الزوجة وزوج المستقبل [4].

ونظراً للزواج المبكر الذي كان شائعاً بالأرياف والبوادي، فإن السن الوسط الذي يفصل الطفلة عن المرأة صار غائباً، فالشابة آنذاك هي الطفلة التي تخطب وعمرها 10سنوات لتزف سنتين بعد ذلك، أما حين يصبح عمرها 16عاماً، تكون قد أنجبت 03 أطفال، في حين أفاد لوجي دي تاسي عن الزواج المبكر لسكان الريف والبادية، بأن الذكور يتزوجون في سن 14و15 سنة، والإناث في سن

---

[1]- كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 310.

[2]- **الصداق**: في معناه العام يطلق على كل ما يقدمه الزوج لزوجته مقابل زواجها منه كما تنص على ذلك أحكام الشريعة، وفي معناه الخاص يقصد به المبلغ من المال المقدم للزوجة لوحده دون سائر الأشياء الأخرى، التي تقدم لها معه من ألبسة وأفرشة وحلي وبهائم وغيرها. ينظر: خليفة حماش، **الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني**، رسالة مقدمة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، جامعة منتوري_قسنطينة، 1427هـ/2006م، ص ص: 349، 350.

[3]- Esterhazy, De la domination turque…Op.cit,p :281 .

[4]- يقول وليم شالر:" ويجري التخطيط للزواج وعقده بواسطة الأمهات والعلاقات النسوية التي تسعى بين الطرفين، والنساء يلتقين في الزيارات المتبادلة في المنازل أو في الحمامات العمومية التي يترددن عليها كثيراً والتي تفتح أبوابها ما بعد الظهر للنساء فقط". المصدر السابق، ص: 87، وليام سبنسر، المرجع السابق، ص ص: 116، 117.

08 إلى 10 سنوات، ويمكن لهن أن يلدن في سن 10 أو 11سنة [1]. وبسبب صغر سن الفتيات عند الزواج فقد كان جلهن شبه مغيبات، سلب حقهن في الاختيار في غالب الأحيان، فالوالدين وبالأرجح الأب هو من يختار لها من يراه مناسباً لأبنته، ويحكم في ذلك الاختيار شخصية الوالد والظروف. وهناك سبب أخر يمنع المرأة من حرية الاختيار؛ ألا وهو العرف والتقاليد، التي تفرضها بعض العائلات أو القبائل على نفسها، بعلة النسب أو المذهب؛ وتحـــرم بناتهم من أن تتـــزواج أو تنصهر في مصاهرة غير أصولهم في النسب أو اعتقادهم في المذهب مثل: سكان بني مزاب في قرى وادي مزاب[2]، والمجاهرية بمدينة تقرت فعن الأغواطي بشهادته يقول:"وهم لا يتزاوجون مع العرب، ومن النادر أن يتزوج عربي بامرأة من المجاهرية"[3].

أما عن عادات الاحتفال بالزواج في الأرياف كتب" لوجي دي تاسي " دون أن يحدد جهة بعينها لمراسيم ذلك الزواج، ذكر أنه لما يقبل والد العروس طلب العريس للزواج ببنته، يشترط عليه مهراً ثم عدداً من العجول والأبقار والماشية، وعندما يعلن زواج ابنته، وتستعد العروس لاستقبال زوجها، يحضر الأقارب والأصدقاء حفل الزواج في الخيمة، ويقدمون التهاني للزوجان اللذان يمكثان بداخل الخيمة، إلى أن تصل كل فتيات ونساء الدوار، فتمتطي الزوجة ظهر جواد زوجها، وصديقاتها وقريباتها يرافقنها وهن ينشدن ويزغردن، متجهين إلى خيمة الزوج، فيستقبلون من طرف أهل العريس وفي مقدمتهم والديه، ويقدم للزوجة حليباً وعسلاً، إشارة إلى خير الأسرة الناشئة وحلاوة وطيب المعاشرة

---

[1]- أعجب شالر بالنضوج المبكر للمرأة الحضرية، حيث تتزوج في سن الثانية عشر وتصبح جدة في سن الخامسة والعشرين، إذا كان هذا عن الحضريات فمابلك بالمرأة الريفية. ينظر: وليم شالر، المصدر السابق، ص: 79، عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص ص: 282، 288.

[2]- **بني مزاب في قرى وادي مزاب:** في هذا الوادي ستة قرى أكبرها غرداية، كلهم يعتقدون بالمذهب الإباضي باستثناء قرية امليكة فيها عرب يعتقدون بالمذهب المالكي. ينظر: التنلاني، المصدر السابق، ص ص : 240، 241.

[3]- ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 100.

الزوجية، ولما تشرب منها تتعالى الزغاريد والأناشيد، ويدعون بالبركة والخير للزوجين، وأن يرزقهما الله بالذرية والمال[1].

ولما ينتهي حفل الموكب، تنزل الزوجة على الأرض، عند باب الخيمة زوجها، ويقدم لها هراوة[2] تغرسها في التراب، إيحاء إلى أنها لن تغادر خيمة زوجها إذا لم يطردها، مثل الهراوة المغروسة التي لا تغادر الخيمة إلا إذا اقتلعت، وبعد ذلك يعرض عليها الماشية التي يملكها الزوج حتى تقوم بخدمتها، وتستمر الزوجة وصديقاتها وقريباتها في الإنشاد والرقص إلى المساء[3].

أما عن عقد القران[4] فيوثق بحضور قاضي الذي يستدعى من طرف شيخ القبيلة، ويقوم والد الزوجة بتحضير مأدبة الغذاء مع حفلاً على شرف القاضي والحضور الذين يرافقون ابنته إلى بيت زوجها، حيث تستقبل بالترحاب وطلقات البنادق، وتقام حفلة الزواج لمدة أربعة وعشرون ساعة تتخللها ألعاب فروسية لينفض بعد ذلك الجمع وتأوي الزوجة لزوجها [5].

أما عن ظاهرة تعدد الزوجات فقد ساهمت فيها الظروف الاجتماعية والاقتصادية إلى حد كبير؛ ولكن لم يكن ميسوري حال فقط من يستطيعوا تغطية مصاريف البيت الثاني، بل حتى الخماس على فقره يتزوج أكثر من واحدة، لتعينه على أداء مهامه الكثيرة، إذ تساعده الأسرة كلها على زرع الأرض

---

(1)- De Tassy, laugier , Op . CIT, PP : 47 48.

(2)- **الهراوة** : هي العصا الغليظة التي يصعب كسرها.

(3)- ينظر: عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص: 282.

(4)- أبرز ابن حمادوش الجزائري في رحلته عدة عقوة للزواج و التي كانت شائعة في زمانه بالنسبة للحواضر، للطبقات البسيطة أو الراقية، للبكر وللثيب، وحتى للأندلسيين. ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، ص ص: 236، 251.

(5)- LAbbè, Edmond lambert . **A Travers L'ALgèrie, Histoire, Mœurs et lègendrs des Arabes**. Rene Haton, Librairie Editeur, Paris,1884.pp :237,238.

لم تحكي كتب الرحلة وخاصة رحلات المغاربة عن تفاصيل حفلات الزواج وهم بطريقهم للحج، واكتفوا بالإشارة فقط كما قال الورثلاني: " وأولاد سيدي رحاب تزوجت بنتهم"، المصدر السابق، ج1، ص: 198.

وإنجاز مختلف الأشغال[1]. وهذا ما أشار إليه الرحالة الألماني فون مالتسان بقوله:" وكل بدوي تقريباً يتزوج عدة نساء لأنهن ـعوض أن يكلفنه ثمناً ـيصبحن على العكس من ذلك مكسباً له، فهن فتيات عاملات يشتغلن في حقله، دون أن يقدم لهن أجراً أما الحضري فإنه يكاد يقتصر دائماً على امرأة واحدة[2]، كما عرف التعدد في الزواج بالنسبة لشيوخ الزوايا في العهد العثماني، والسبب في ذلك الحاجة الملحة لمن يحضر الطعام للفقراء والمساكين وخدمة عابري السبيل وطلبة العلم والضيوف. فقد ثبت ذلك عن الورثلاني الذي كان شيخ زاوية الأسرة ببني ورثلان، فقد ذكر أنه أثناء رحلته الأخيرة أخذ زوجتيه: عيوشة التي كانت من عائلة المسعود بن عبد الرحمن من بني عيدل، وعائشة وقال عن زوجته عيوشة بأنها توفيت له في تونس أثناء عودته من الحج"[3]، وغيرهم من المشايخ كثر مثل الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن صاحب زاوية كرزاز بنواحي بشار [4].

وفيما يخص الطلاق في بعض البوادي والأرياف فقيل أن الزوج يغيب عن زوجته العروس سبعة أيام إذا نوى تطليقها؛ ولكن هذا التصرف يكون بعد الزواج مباشرة، ويطلب من والديه اصطحاب زوجته إلى بيت أهلها، فيستقبلها والدها ويرجع له حق الصداق الذي دفعه، ويعوضه عن مصاريف حفلة زواجه، إذا أمر القاضي بذلك[5]. ولكن متى يتم كل هذا؟، فبطبيعة الحال عندما يكشف عيب

---

[1]- ينظر: حمدان خوجة، المصدر السابق، ص: 73،كمال صحراوي، المرجع السابق، ص:320 .

[2]- أما عن التعدد في المدن يقول شالر:" أنه لا يوجد سوى عدد صغير من الجزائريين الذين يستفيدون من ترخيص الإسلام، لهم بالتزويج بعدد من النساء، فإن القاعدة العامة هي أن الرجل يكتفي بامرأة واحدة تلحق بها عدد من الإماء يختلف باختلاف مركز الرجل الاجتماعي وثروته"، المصدر السابق، ص: 86، هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص: 73.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص ص: 394، 395.

[4]- ينظر: عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، ص: 66، السجلماسي، المصدر السابق، ص: 115، الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج3، ص: 112، أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص: 116.

[5]- ينظر: عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص: 282.

جلي للزوج بعد زواجه ويكون عيباً قاهراً في زوجته كأن تكون رتقاء مثلاً[1]، فيشعر الزوج أنه خدع فيتصرف هذا التصرف بعد الزواج مباشرة وتكون فضيحة للزوجة وأهلها، مما يحدث ذلك صدعاً اجتماعيا فيما بين تلك الأسر. أما إذا شذت المرأة وعصت زوجها بسطوتها وحدت طبعها تدفع بالزوج لحيلة بمنوط شرعي لتأديبها؛ كما يحدث مع المرأة التواتية مثلما روى العياشي:" أخبرني من أثق به من طلبة توات وتجارن[2] أن من عادة أهل بلدهم إن نشزت آمراته وطلقها، يأتي إلى شهود يسترعيهم ويقول:" أشهدوا أني ما طلقت امرأتي إلا كي أكسر من سورتها وشدتها، فمتى أرادت التزوج استظهر بذلك الرسم، فلا يتزوجها أحد حتى ترجع إليه، وأخبروا أن حكامهم يحكمون بذلك، وأن عندهم فتوى لبعض الفقهاء بصحة ذلك، ولا أعلم الآن وجها لما ذكروا إذ ليس نشوزها بإكراه لا يلزم معه طلاق الزوج، اللهم إلا أن يكون الزوج لم يصدر منه طلاق ويأمر من يشيع عند الناس أنها مطلقة، ويستحفظ عند الشهود بأن ما شاع لا أصل له، وسكوته عند تحدث الناس بذلك إنما هو للغرض المذكور، فقد يقبل هذا أو يطلقها بلفظ ليس بصريح وإنما هو كناية مما ينوي فيه المطلق، ويشهد على نفسه أنه ما نوى به الطلاق أو غيره ذلك من الحيل المقبولة شرعا والله أعلم " [3]، ولكن في بعض الأحيان كان يحدث الطلاق لأتفه الأسباب؛ كأن تأخذ الزوج العزة إذا تماطلت زوجته في طاعته، فيرمي بيمين الطلاق عليها، إن لم تفعل ما أمرها به، كما ذكر ذلك محمد بن عبد السلام عن نازلة عرضت عليه بإحدى قرى مدينة بشار من أحد أعراب ذوي منيع:" سئلت عمن حلف

---

[1]- يقال رتقت المرأة إذا انسدت فلا تؤتى، كما حدث بهذه النازلة محمد بن عبد السلام وهو بمدينة بسكرة في رحلة عودته من الحجاز، ينظر: المصدر السابق،ج1، ص: 899، المعجم الوسيط، المرجع السابق، ص: 327.

[2] **تجارن أو تيكورارين:** جمع للكلمة البربرية تاجرارت ومعناها المحلة، أو المجتمع في لغة البربر: وهي قصور كثيرة تقارب المائة في بسيط واد منحدر من المغرب إلى المشرق، وكانت مركزاً تجارياً هاماً، تنزله القوافل التي تأتي من السودان إلى المغرب. ينظر: عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ)، **مقدمة ابن الخلدون**، تقديم: محمد بن تاويت الطنجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1: (1425هـ/ 2004م)، الهامش:02، ص: 180.

[3]- العياشي، المصدر السابق، ج1، ص:85.

بحرم زوجته إن لم تسق الماء"[1]. هذا عن ظاهرة الطلاق بالمجتمع الريفي فماذا عن الخلع هل وجد في مثل هذه المجتمعات البدوية البسيطة حسب ما أشار إليها الرحالة؟، حقيقة وقفت على نازلة ذكرها الرحالة السابق الذكر محمد بن عبد السلام وهو بمدينة بسكرة، عن رجل قبل خلع زوجته له مقابل تنازلها عن ما لها من مؤخر الصداق والذي لا يزال في ذمته، مع أربعين ديناراً زيادة على ذلك تدفعها إليه[2]. وهذا دليل على وجود ظاهرة الخلع أيضاً وإن كانت محدودة الذكر بالمدن فضلاً عن القرى.

وفيما يخص النفقة المفروضة شرعاً للزوجة فقط أوجب على الرجل أن يبقي لها نفقتها عند سفره، وهذا ما أكده السجلماسي في نازلت عرضت له بإحدى قرى بشار تسمى بالقنادسة[3]، عن زوجة غاب عنها زوجها، فرفعت دعوة للحاكم تسأل النفقة من زوجها الغائب، فباع لها الحاكم بعض ممتلكات ذاك الزوج لسد حاجتها. ولكن لما عاد الزوج أثبت أنه ترك النفقة لزوجته، فأفتى السجلماسي بصحة البيع مع أخذ الزوج ماله مماً قبضه وهي زوجته[4]. فهذه النازلة على بساطتها لها دلائل عدة؛ تثبت حقوق المرأة في النفقة والتي حفظها لها الشرع والسلطة، ولم يهضم حقها وإن كانت في قرى صحراوية نائية، هذا من جهة ومن جهة أخرى يظهر وجه أخر مقابل لهذه النازلة عن المرأة الريفية البدوية، ألا وهو سمة التحايل في إنكارها بأن زوجها ترك نفقتها، وهناك احتمال أخر في تصرف هذه المرأة كون النفقة التي تركها لها زوجها لم تكن كافية فاضطرت للشكوى على زوجها.

---

[1]- محمد بن عبد السلام، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ص: 187.

[2]- المصدر نفسه، ص:221.

[3]- **القنادسة**:كانت تسمى العوينة أو عوينة القنادسة، نسبة للشيخ محمد بن أبي الزيان القندوسي، الذي أسس بها زاوية القنادسية، وهي بلاد من واد الأساورة من إقليم توات، ذات نخيل وأشجار تبعد خمسة أيام من سجلماسة، قرب فكيك ومدينة بشار بحوالي 125كلم.ينظر: أبو سالم العياشي، **الرحلة العياشية الصغرى أو " تعداد المنازل الحجازية (1068هـ/1658م)"**، تح: عبد الله حمادي الإدريسي، بيروت: دار الكتب العالمية، ط: 2013م، ص: 49، الحضيكي، المصدر السابق، ص: 83، محمد بن عبد السلام، المصدر السابق، ص:184 .

[4]- السجلماسي، المصدر السابق، ص: 112.

فأمر القضايا في النفقة وارد وقد جالت به وثائق المحاكم الشرعية في العهد العثماني ولا غبار على ذلك في المجتمعات الإسلامية، فهو الحق الشرعي للزوجة كفلها به الشرع كما أسلفنا، فها هو ذا الورثلاني في هذا المضان يتحدث عن نفسه، وهو يعزم الرحيل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج يثبت إبقاؤه لنفقات زوجاته وأهله بنص مفاده:" إلا ما ألزمتك به الشريعة من الوصية على الأولاد والنفقة على من تلزمك نفقته، لأن الذي ذاهب إليه هو الذي ألزمك بها"[1].

كان ذلك على النفقة ومن يلزم بها، ولكن هناك عامل أخر مس شخصية المرأة الريفية وخاصة الصحراوية أو البدوية، وهو قوة الصبر وتحمل المسؤولية في عون زوجها مما لهم مكانة اجتماعية بارزة، وإن كانت كتب الرحلة سكتت عن هذا، وإن وجد فنتف قليلة على سبيل المثال: شيوخ الزوايا كزواج الشيخ محمد بن عبد الكريم الكرزازي من إمرأة من قرية فيجيج، وتركها عند أهله بعد زواجهما مباشرة ليشد الرحال للبقاع المقدسة مع ركب الحج السجلماسي لأداء فريضة الحج، فلما سؤال من مقربيه: لو تكت المرأة عند أهلها حتى ترجع من الحج، كان أفضل لجهلها ببلد زوجها وأهله. فأجاب:" والله ما بعثتها للبلد – يقصد قريته كرزاز –حتى رأيت فيها عمارة دار سيدي بوفلجة–يقصد نفسه– وأنا لن أرجع للبلد وقصد الحرمين"[2].

ب– الأعياد:

جاءت الكتابات التاريخية في نصوص الرحلة عن الأعياد والمناسبات الاجتماعية بأرياف الجزائر العثمانية شحيحة، وما وجد منها فنتف قليلة، إذا استثنيا اهتمام بعض الرحالة باحتفالات هذه المناسبات بالمدن والحواضر الجزائرية، باعتبارها مركز تسليط الأضواء لكل رحالة حاج، أو مستكشف يشده بريق المدن عن غيرها.

---

[1]– الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص:185.

[2]– نقلاً من مخطوط:" المناقب المعزية في مآثر الأشياخ الكرزازية" الهامش رقم : 04، ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص: 115.

فمثلاً ما رواه العياشي عن قرية أبو سمغون ضواحي البيض، أين صادفته مقادير الرحلة مع عيد الفطر المبارك بعد إقامتهم بها في أخر يوم من شهر رمضان، وفي صبيحة يوم العيد خرج المبشرون من أهالي القرية قبل طلوع الشمس يعلمون ركب حج العياشي بهذه المناسبة. لينتقل العياشي مباشرة بعدها للكلام عن صلاة العيد بهذه القرية، ساكتاً عن مظاهر الاحتفال عندهم، قد لا تكون هناك احتفالات بسبب غياب الأمن بهذه المناطق الصحراوية المعزولة وخاصة لمعرفتهم ما كان من أعراب العمور[1] وأغارتهم على قرية الكراكدة[2] القريبة منهم وقد سبقهم في الإغارة على هذه القرية المنكوبة أيضاً عرب الشريف مولاي محمد صاحب تافلالت[3]. وما راه العياشي وصفه مكتفياً بقوله:"بقينا بعدهم إلى أن صلينا مع أهل البلد، وكان من عاداتهم أنهم يخرجون إلى المصلى بسلاحهم لا يخرج أحد بغير سلاح صغيرا كان أو كبيراً ويبيتون في المصلى أحجارا يتخذونها غرضا للرمي حتى في حال الصلاة والخطابة إلى أن فرغ الإمام من الخطابة. فرجعنا واشتريت من هناك حماراً لركوبي بأربع ريالات ". فإذا كان هذا حالهم من الخوف والذعر والجاهزية للقتال والتصدي لأعراب تلك البلاد، فكيف يكون الاحتفال، ومع ذلك لم تغيب الأسواق واشترى العياشي حاجته يوم العيد[4].

---

[1]- **العمور**: قبيلة عربية هلالية مضرية ممن يلحقون بالأتيح، يرجح أنهم من ولد عمرو بن عبد مناف بن هلال الذي كان حيا أوائل القرن الخامس الهجري، التي وصفها الأغواطي أن أهلها لا يحكمهم سلطان. ينظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بعناية ومراجعة: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ط1: 1981م، ج6، ص:34 ، السجلماسي، المصدر السابق، ص:115، ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص:89.

[2]- **الكراكدة**: وهي قرية صغيرة بالظهرا نواحي البيض، بها نهر جار وشجرات ومزارع، وواد به ماء عذب لا ينقطع صيفاً ولا شتاء، عليه للأغواط دويرات، وبعض اشجار عنب، وكرم وزراعة قليلة.ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية =الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص ص: 199،198،العياشي، المصدر السابق، ج2، ص:548.أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 129،السجلماسي، المصدر السابق، ص: 134.

[3]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 548.

[4]-المصدر نفسه، ج2، ص: 549.

كان هذا عن عيد الفطر ولكن لا نغفل عن الاحتفال في ليلة السابع والعشرين من رمضان بليلة القدر، ولكن من تكلم عنها هو عبد الرزاق ابن حمادوش في رحلته عن مدينة الجزائر– قد تكون الاحتفالات مشابهة بالمساجد الريفية بالجزائر العثمانية– لأنها تقتصر على ختم كتاب البخاري في الحديث النبوي الشريف، وصلاة على النبي بصيغة معهودة عندهم وهي:" اللهم صلي أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، عدد معلوماتك ومداد كلماته، كلما ذكرك وذكره الذاكرين وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون"، ثم يرش بماء الورد على الناس[1].

أما عن العيد الديني الموالي فهو عيد الأضحى والذي يلي عيد الفطر بعد شهرين متتابعين، فقد كان الناس يولونه عناية خاصة، حيث يستقدم الرجل كبشاً " سرندي" وهو الذي حول عينيه وأطراف سواد، ويكون الفحل أفضل، والذكر أفضل من الأنثى، ويقول عند الذبح " باسم الله، الله أكبر " ثلاث مرات، وفي أيام العيد الثلاثة يرتدي الأهالي_حسب فاغنر _أجمل ما لديهم من لباس، ويكسى الأطفال بثياب مطرزة بالذهب والفضة وسراويل الصوف أو القطن وهو ما يجعل مظهرهم رائعاً، بينما ترتدي النساء وحتى الفتيات الحجاب ويخرجن إلى الشوارع حتى أن عددهن لا يقل عن عدد الرجال"[2] .

كان ذلك عن الأعياد الدينية الرسمية بالجزائر منذ بزوغ فجر الإسلام بها، سواء في مدنها أو قراها وبواديها، لكن تخللت مناسبات دينية أخرى كان لها بصمتها بالمجتمع الجزائري، كالاحتفال بيوم عاشوراء[3]، وهو اليوم الذي أنجى فيه الله نبيه سيدنا موسى عليه السلام من فرعون، وقد شاءت الأقدار أن يكلمنا عنه عبد الرحمن المجاجي وهو بمنازل درب الحجاز الرابطة بين المدينة المنورة ومصر

---

[1]– ابن حمادوش، المصدر السابق، ص ص: 125، 126.

[1]– ينظر: أبو العيد دودو، مرجع سابق، ص: 118. كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 332.

-Esterhazy, De la domination turque... Op.cit, 321, 322.

[2] – **عَاشُورَاءُ**: العَاشُورُ: اليومُ العَاشِرُ من شهر مُحَرَّم، المعجم الوسيط، ج2، ص: 624 .

أثرى عودته من الحج، فابقوا على عاداتهم الاحتفالية وإن كانوا في سفر، فاحتفلوا به بأولى محطات الدرب ببندر الينبع والذي صادف 10 من محرم سنة 1064هـ/1653م، أين نحروا شياه سمينة حسب وصفه وتنعم الركب بهذه المناسبة أيما تنعيم، وبعد ذلك الاحتفال شدت شجونهم لغربهم:

إِلَى أَنْ نَزَلْنَا يَنْبُوعًا[1] فِي بُيُوتِـــــــهِ أَقَمنَا فِيهِ يَوْماً لأَجلِ استِرَاحَـــةٍ

وَوَافَقْنَا فِيهَا مَوْسِمًا بَعْدَ عِيدِنَـــــــا بِعَاشُورَةَ يُسَمّى بِفِيهِ الفَضِيلَـــة

نَحَرْنَا فِيهَا أَيْضًا شِيَاهًا سَمِينَـــــــةً وَوَسّعَ فِيهَا الرَّكْبُ مِنْ كُلّ نِعْمَةٍ[2]

ومن الاحتفالات الدينية الأخرى والتي تعلق بها المجتمع الجزائري تعلقاً كبيراً، ألا وهي المولد النبوي الشريف، رغم اختلافات العلماء في شأنه، ولكن جل الجزائريون ببدوهم وحواضرهم أحبوا هذه المناسبة ومنهم من نظم لها قصائد طوال حباً للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد أفرد لها ابن عمار سبعة أجزاء من مؤلفه:"نخلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"،كلها تتحدث عن المولد النبي الشريف وخص جزء منها بعنوان:"المديح النبوي وشعر المولديات"، غير أنه استنكر وحذر من الانسياق إلى الزلل خلال الاحتفال به، وذلك بالابتعاد عن البدع؛ وهو ما يفعله الجهلة من العوام من

---

[1] – **اليَنْبُوع**: اليَنْبُع مدينة على الساحل تقابل المدينة، على أربعة أميال منها، بها عيون غزيرة وهي قريبة من طريق الحاج القادم من الشام، وسميت بالينبع لكثرة ينباعها فيها مئة وستون عيناً نابعة، كما سميت بينبع النخل، تميزت بكثرة أشجارها وأنهارها، ومن ورائها جبال شاهقة منها جبل أحد، يقول عنها العياشي إنها أول بلاد الحجاز العامرة، فيها قرى كثيرة ومزارع ونخيل وعيون جارية، عمرانها متصل نحو ثلاثة أيام، بها سوق كبيرة تجلب لها البضائع ذوات الأثمان كالثمار والفواكه والحبوب وغيرها، بها عامل أمير مكة، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص: 511، العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 296، يحي بن مطهر بن إسماعيل، بُلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام ص: 178 .

[2] – عبد الرحمن المجاجي، رحلة المجاجي، ص ص:109، 179.

اختلاط الرجال بالنساء ورفع الشارات والغناء وغيرها مما لا علاقة له بالمولد النبوي، لأن الاجتماع والرقص والأكل والشرب بهذه الصورة لا يشك عاقل فضلاً عن أن يكون عالماً في حرمتها[1].

ومن نماذج الاحتفالات بمدينة تلمسان نتحدث هنا عن نساء المدينة لكن هذه العادات مشابهة لتلك الموجودة في الريف فإن نساء تلمسان يصعدن بمجرد بزوغ الفجر هلال شهر ربيع الأول – فوق السطوح ويزغردن عند مشاهدته، ثم تخرج البنات اللاتي هن دون سن البلوغ أفواجاً في الأيام الموالية في كل حي من أحياء المدينة وهن ينشدن بأصواتهن الرخيمة الأنشودة التالية:

أمـولود أمـــولود هذا مـولود النبـــي
والملايكة في السما يفرحو بأولاد النبـي
أعايشة ولا ترقدي والليلة يزاد النبـــي
أسعدي من شاف النبي يعطينا أماراتـه
عينه كحلة مهذبة والشوشة واتاتـــه[2]

وكما أسلفنا في حب الجزائريين للمولد النبوي الشرف، سواء في حلهم وترحالهم لا يتركون عاداتهم التي اعتادوا عليها في مواطنهم، فعن عبد الرحمن المجاجي وهو بباب درب الحجاز[3] بالأراضي المصرية في رحلة العودة من الحج، تستوقفهم هذه المناسبة خمسة أيام، ويحتفلوا بليلة المولد ويوماً كاملاً أحياء لهذه المناسبة ويصف هذا اليوم بيوم عظيم:

---

[1]– ينظر: أبو العباس سيد أحمد ابن عمار، **نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب دراسة وتحقيق**، تح: عبد الجليل شقرون رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تحقيق المخطوطات، جامعة أبي بكر بلقايد(تلمسان)، السنة الجامعية: 1437-1438هـ/ 2016 -2017م، ص ص: 79، 301.

[2]– وعن احتفالات المولد النبوي بمدينة الجزائر. ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 84، كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 332.

[3]– العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 273، أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، ص:217.

أَقَمْنَا بِهَا لاماً وَوَاواً[1] وَبَعدَهَا نَزَلْنَا لُبَابَ[2] عِنْدَ وَقْتِ الظّهِيـــــرَةِ

أَقَمْنَا بِهَا يَومًا وَيَومًا وَثَالِثًـــــا وَيَومَينِ أَيْضاً ضِفْهَا للثَلاثَـــــــــةِ

تَجَاوَزْنَا فِيهَا مَولُودًا لنَبِيّنَـــا فيَا لَهُ مِنْ يَومٍ عَظِيمٍ وَلَيلَـــــــــةٍ[3]

ج- الختان:

كتب هاينريش عن طريق احتفال سكان الريف الجزائري أواخر الفترة العثمانية بختان وتحديداً ببلاد جرجرة وتلمسان، نلخصها على الشكل الآتي: يركب الطفل الذي يختن الداية في موكب يجوب شوارع القرية، يحفه المحتفلون بالطبل والناي وهم يرددون مقاطع غنائية، بعد حضور المدعوين إلى بيت الختان، يبدأ الحفل بالرقص، تجمع النقود من طرف شخص، يكلف بذلك الذي يدعو الحاضرين إلى المزيد من الكرم ويضع ما يجمعه تحت رداء يتوسط قاعة الختان، بعد الجهر بها والتعريف بصاحبها. تزغرد النساء تحية لكل رجل أكرم الصبي المختون، وفي الإطار يتنافس ذوي المال والجاه على دفع الهدايا ويحاول كل واحد منهم أن يتحدى نظيره، بعد الغناء والرقص وجمع الهدايا، تبدأ عملية الختان الرسمية[4]، وأشار فاغنر إلى حفلة الطفل الريفي في سياق حديثه عن ختان الطفل الحضري، فقال أن ختان أبناء الريف يتم على يد المرابط، والختان بالنسبة لسكان الريف حفلة دينية أكثر منها دنيوية، عكس الحضر الذين يعتبرون حفلة الختان حفلة دنيوية لا تختلف عن حفلة العرس[5].

---

[1]-وبحساب الجمل على طريقة المغاربة: فلام تعني =30، والواو =6، المجموع =36 يوم بقوا في بولاق.

[2]- **لُبَاب:** بلدة تعد أولى محطات منازل الحجاز، ومحل تجمع الركائب المتجهة نحوه،، تبعد عن مصر قرابة ثلاث ساعات، تعرف بالبويب بالتصغير، وفي الأصل هي باب الدرب، العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص: 273، أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، ص:217 .

[3]- عبد الرحمن المجاجي، رحلة المجاجي، ص ص:112 ، 184.

[4]- ينظر: هاينريش، المصدر السابق، ج2، ص: 151، عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص: 281.

[5]- ينظر: أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات، المرجع السابق، ص: 122، عتو بالبراوات، المرجع السابق، ص: 281.

ولكن ابن حمادوش أعطى صورة لختان بسيط وإن كان بالمدينة، قد يشابهه كثيراً ما يحدث عند أهل الريف لمن ضاقت به الحاجة مع قلة ذات اليد، كلما أعطى ابن حمادوش اسم حرفي لمن يقوم بها ويسمى حجاماً[1]، كما يسمى الختان طهارة :

"وفي يوم الجمعة لقيت حجاماً أخذته معي إلى داري...ولم يعلم أهل المنزل ما هو الأمر فقبضته- يقصد ابنه[2]- وأتيت به للطابق العلوي وأمسكته فطهرته وكان ختاناً لم يعلم به أحد، وكان أهلي طامعين أن يجعلوه وليمة عرس فسقط في أيديهم ولاموني عليه"[3].

كان هذا ما كتبه بعض الرحالة والمؤرخين عن مكانة المرأة والزواج والأعياد بالمجتمع الريفي بالجزائر العثمانية، ولكن ما رسمت به كتب الرحلة وتصدرته صفحاتها عادات وتقاليد ميزت المجتمع الجزائري عن غيره، وبالأخص في الأرياف والبوادي؛ بخصال قل نظيرها يفتخر بها أهل القرى والزوايا والبوادي عن غيرهم، وتمادح بها الرحالة المغاربة على الخصوص في حب الجزائر وأهلها الكرام، ومع ذلك لا يحجب الكلام عن ما غم وذم منهم في بعض الأخلاق الرذيلة من بعض جهالهم وصعاليك بواديهم. سنعرض فيما يلي بعض العادات الحميدة والذميمة في بوادي الجزائر من خلال كتب الرحالة والمؤرخين للفترة العثمانية في الجزائر .

3- العادات الحميدة والذميمة:

أ- العادات الحميدة:

- **الضيافة والكرم** : إن إكرام الضيف من مكارم الأخلاق، وجميل الخصال التي تحلَّى بها الأنبياء، وحثَّ عليها المرسلون، واتصف بها الأجود كرام النفوس، فمَنْ عُرِفَ بالضيافة عُرِف

---

[1]-**حجاماً**: قد تكون نسبة لحرفة الحجامة وهي العلاج بالحجامة، ومن يقوم بالختان فهو أصلح لها.

[2]- أحد أبنائه غير الحسن والحسين. تعليق أبو القاسم سعد الله في هامش الرحلة. ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 118.

[3]- المصدر نفسه، ص: 118.

بشرف المنزلة وعُلُوِّ المكانة، وانقاد له قومُه، فما ساد أحد في الجاهلية ولا في الإسلام، إلا كان من كمال سُؤدده إطعام الطعام وإكرام الضيَّف، وقد حثَّنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على إكرام الضيف؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفَه» [1] .

فالحديث عن كرم أهل الريف بالجزائر لا يحتاج إلى دليل، ورغم ذلك فقد شهد لهم به أناس ليسوا منهم وعلى غير ملتهم أو أصولهم مثل الرحالة الفرنسي أوجين فرومنتان[2] (Eugène Fromentin) الذي أعترف أن الجزائريين أعطوه درساً في حسن الضيافة والاهتمام الخاص بالأجنبي بموجب وصية ربانية لا انطلاقاً من واجبات اجتماعية[3].

إلى جانب كلام هذا الأخير وغيره ممن صرحوا ومدحوا كرم أهل الريف بالجزائر عموماً وأهل الصحراء على الخصوص، مديح الرحالة المغربي أبو عبد الله السراج الملقب بابن المليح ففي عام (1042هـ/1632م) في أثناء عبوره وركب الحج صحراء تدكلت، أين وجدوا الكرم وحسن الضيافة من

---

[1]- رواه البخاري ومسلم يراجع: سعد الدين التفتازاني، **شرح التفتازاني على الأحاديث الأربعين النووية**، تح: محمد حسن إسماعيل، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1: 2004، ص: 119، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمان بن شهاب الدين الحنبلي البغدادي، **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، تح: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة :دار السلام، ط: 2004م، مج1، ص ص: 362، 363.

[2]- **أوجين فرومنتان (1820– 1876)**: أديب وفنان فرنسي ولد في مدينة لاروشيل وتوفي في سان موريس، نشأ في عائلة برجوازية تعتني بالثقافة مما أتاح له صقل موهبته الفنية ومعرفة أعمال كبار الفنانين والأدباء الفرنسيين. زار الرحالة الجزائر في 07 نوفمبر 1852. وفي شهر ماي 1853 يتوجه مع وفد مكون من عسكريين فرنسيين، ومدنيين جزائريين إلى مدينة الأغواط، التي وصلها في 03 جوان من السنة نفسها، ومكث فيها فترة لاباس بها، ونقل تفاصيليها في كتابه" صيف في الصحراء" ينظر: عيسى عطاشي، صورة الحرب في كتاب " صيف في الصحراء" للرحالة الفرنسي": أوجين فرومنتان، **مجلة علوم اللسان**-مخبر علوم اللسان-جامعة عمار ثلجي-الأغواط- العدد السابع، ديسمبر 2014، ص ص: 49، 50، حسان عباس، فرومنتان (أوجين- 1820- 1876) الموسوعة العربية : يوم2020/08/21، الساعة: 15:20

http://arab-ency.com.sy/detail/8841

[3]- ينظر:كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 329.

أهلها، وفي توات تلقوهم أهلها بالترحيب والسرور مع الجود بأعز ما هو موجود في إقراء ضيوف الرحمن وقد استضافهم شيخها الشيخ عافة:" سبعة عشر يوما في نعمة شاملة، وآلاء الله عليه متواصلة"، وهذا ليس بالأمر الهين بأن يستضيف الركب كله هذه المدة، وما ذاك إلا من عظيم السخاء والجود من هذا الشيخ وأهل بلده، حتى مدحه ابن المليح في قوله:" حسن أريب يقال له الشيخ عافة لا تطرق من ألم به آفة "[1]. ونفس الحال قاله العياشي (ت1090هـ/1679م) عن زاوية سيدي عبد الله ابن طمطم بقرى الدغامشة ببلاد أوكرت أو تقرت، وإكرامه لهم أيما إكرام وهو يطعم الواردين عليه في أيام المسغبة في صحراء قاحلة:" في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء"[2]، وفي الغالب الدور المقصودة والمعروفة في إكرام الضيوف وخاصة بالمناطق الصحراوية، كان جلها من الزوايا كزاوية أحمد بن موسى القريبة من وادي الأساور نواحي مدينة بشار [3]، فقد أكرموا العياشي وركبه. وتكرر الأمر مع أهل وركلا وأميرها حتى مدحه العياشي بأبيات شعر ثناء على كرمه وحسن ضيافته[4]، كما أكرمهم أمير بلدة تماسين بوادي ريغ، وقد أجزل ضيافة الحجاج، وهكذا مع أهل الخنقة فقد أضافوهم ضيافة حسنة على حد وصف العياشي [5].

فمن تعابير هذا الأخير يتبين وبوضوح العلاقات الودية والترابط العميق بين أهل الجزائر والمغرب وما ذاك إلا من انعكاسات وأدوار ركب الحج وما يجسده من تعميق الصلة بين الشعبين ومن ثبوت

---

[1]- ينظر: ابن المليح، المصدر السابق، ص ص: 79، 229.

[2]- ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 80.

[3]- تقع هذه الزاوية على مسيرة يوم من قرية تسمى بني خلف وهي الأخرى قريبة من قرى بني العباس.نواحي بشار. أما عن قرى وادي الأساور فهي قرى متصلة نحو من عشرة أيام إلى قريب من توات.وهو أطول أودية المغرب مسافة ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 78،77، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري(ت 1239هـ/ 1823م)، الرحلة الناصرية الكبرى،ج1 ص: 184.

[4]- ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 78 ،117.116 ، 118،

[5]- المصدر نفسه، ج1، ج2، ص ص:118 ، 119. 538.

الأصل الواحد مع العقيدة وحسن الجوار[1]؛ وهذا الأمر نلمحه مع كل الرحلات المغربة تقريباً، بين علماءها وعلماء الجزائر على الخصوص ورجال الدين والتصوف، وإن اختلفت السياسات وتباعدت فالشعوب كانت في معزل عن ذلك. هذا من جانب ومن جانب أخر فمن خلال رحلة العياشي يتبين أنه زمن قحط وجوع خاصة مع انتشار الوباء ببعض البلاد التي مروا عليها مثل بسكرة وبعض ضواحيها، ومع ذلك وجد الكرم من بعض أهلها وخاصة من الزوايا كما أسلفنا. على خلاف زمن رحلة أبو ناصر الدرعي (1096هـ/1683م) فهو زمن خير ورخاء وألاء ونعم وهذا يتضح بجلاء من خلال سخاء أهل المناطق التي مروا بها ونوع العطايا التي قدمت لهم.

والجميل في رحلة الدرعي أنه يفصل في الوصف بما كرم به ركبه عموماً وفي شخصه كشيخ للزواية الناصرية بالمغرب، وكأمير لركب الحج المغربي ذلك العام؛ يلتمسون بركته بتلك الهدايا، لما عرف عنه من صلاح واستجابة الدعوات:" وتلقانا بعض من أهل أم القرار القبلية واشتكوا الحمى وذكروا أنها أضرت بهم كثيراً ودعونا الله لهم بالعافية الدائمة" [2]. وقد تنوعت عطايا أهالي القرى بظهرا الجزائر وصحرائها (عين الصفراء، أبو سمغون، أم قرار الغربية، عين مصباح شرقي الشلالات، الكراكدة، الغاسول. ،عين ماضي، تجموت) للدرعي وركبه ما بين طعام وشراب، وزرع والدقيق ولحم، وخضر وفواكه وسمن وماشية.

كما يلتمس من كل تلك المنح والعطايا أمور عدة؛ فأهلها كانوا يتصدقون بأجود وأطيب ما عندهم كما أسلفنا، مصدقاً لقوله تعالى:﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [3] فعن أهل أم القرار الغربية يقول الدرعي:"أكثروا من الخوخ وأكل كل من حضر حتى شبع وحمل من أراد، وبعثنا البعض إلى الأولاد ...وخوخهم من أجل الخوخ وأطيبه" ، وعن

---

[1]- ينظر: عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، ص ص: 148، 149.

[2]- ينظر: أبو ناصر الدرعي المصدر السابق، ص: 127.

[3]- سورة: آل عمران، الآية: 91.

قرية أبو سمغون يقول أيضاً أتوا" بعنب لم أرى مثله حلاوة وطولاً، ومنذ خرجنا من بلدنا لم أرى مثل عنبنا إلا في هذه البلدة "[1] . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فمجمل الرحالة المغاربة بقصد أو من دونه كابن المليح أو العياشي والدرعي والسجلماسي وغيرهم دونوا وسمام شرف وشهادة تقدير لأهل القرى على خلاف أهل المدن وإن كانت صحراوية؛ بأن أهل القرى أكثر كرماً من بعض أهل المدن وإن كانوا أقل غنى منهم. وأحياناً يكونوا فقراء ولكن ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [2]، فعلى سبيل المثال يقول أبو ناصر الدرعي عن إكرام بعض أهل مدينة بسكرة لهم:" وزرنا في تلك الحجة أولاد سيدي محمد الصالح وأخرج لنا ولده السيد علي تمراً ولبناً "[3]، وفي المقابل يقول:" عن أولاد سيدي أبي دخيل وهم بعين الصفراء وأتوا بكثرة العنب والسمن والزرع والدقيق وسبعة رؤوس من الغنم كثر الله خيرهم وأجزل قراهم وشكر صنيعهم ..وباتوا عندنا بنحو خمسين نفس هم وأولادهم"[4]. بل لم يكتفوا بإكرام الضيوف بل تفانوا في الإحسان لهم بأن جاءوهم وفوداً بأبناءهم للمبيت معهم وهذا من كمال الخلق في الجود والإحسان معاً.

---

[1]- ينظر: أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص:124 ،127 .

[2] - سورة: الحشر، الآية: 09.

[3]- لكنه يوجد أكرام من نوع أخر من أهل السلطة كما روى لنا أبو القاسم الزياني في إكرام الداي له وبعض حاشيته وباي قسنطينة. " فجاء الكاتب والحاجب والصهر والقاضي لوداعنا ومعهم صلة من حسن باشا بواسطتهم دون شعوري وعلمي ومعهم لطف وحلاوات من دورهم للزاد، وقولوا أن مولانا الباشا يقراك السلام ويطلب منه الدعاء في الحرمين الشريفين فاستعن على سفرك بهذا النزر القليل الذي ستمائة سلطاني، والثاني لوكيله بتونس، فكان ذلك من فضل الله دون قصد ولا طلب فحمدت الله على فضله ورزقه " ينظر: أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص ص: 151 ، 155، 156 أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 142.

[4]- ينظر: الدرعي، المصدر السابق ، ص: 127.

أما عن طريقة استقبال أهل الركب من قبل أهل القرى فبلبشاشة والحبور وكثرة العدد[1]، فعن بشار وقراها يقول الدرعي:" تلقانا أهله أفواجا فرادى وأزواجا شيوخا وكهولا وشبانا ورجالا وركبانا، وأتوا إلينا بفواكه كثيرة "، "ونزلنا أباسمغون قبل الظهر وتلقانا أهلها على مسافة خيولا ومشاة شبانا وكهولا وشيوخا وصبيانا وأتوا بعنب كثير، وأضافنا الحاج الشيخ بن المرابط مفتاحي رحمه الله صاحب الوالد ..ونزلنا بداره عام رجوعنا من الحج عام ستة وتسعين وألف بإناء من طعام عليه نصف شاة لحما وأناس آخر بثلاث أواني، كثر الله خير الجميع"[2]، والأمر مشابه مع ركب محمد الطيب الفاسي وترحيب أهل بسكرة وما مجاورها لهم:" تعرض لملاقاتنا الأقوام أفواجاً أفواجا، يبالغون في التهنئة والسلام ويلاطفون وفد الله تعالى بالكلام"[3]. ونفس الكلام قاله أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري (ت 1239هـ/ 1823م) عن أهل القنادسة بقرى بشار:" تلقانا سكانها من المرابطين بني الشيخ ابن أبي زيان مظهرين الفرح والسرور، مشاة وركبانا، كهولاً وشيوخاً وصبيانا، فتسابقوا وأخلوا بنادقهم، ونزل الركب على العادة بساحة ديارهم وبالغوا في القِرى"[4]

كانت هذه نماذج من الضيافة والكرم مع كتب الرحلة وما شهد به الرحالة لقرى الجزائر وبواديها وحتى بعض مدنها بالخصال الحميدة في إكرام الضيوف وخاصة وفد الرحمن والإحسان لهم

---

[1]– وقد نوه محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته الصغرى عن كرم أهل البوادي والأرياف وإحسانهم الشديد وفي جو حماس ديني بكثرة الهتاف وجزيل الاستقبال. ينظر: عبد الخالق أحمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي(ت 1239هـ/ 1823م، المرجع السابق، ص: 233.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، ص ص: 124، 129، 132، السجلماسي، المصدر السابق، ص: 113.

[3]– مثل قرية أومش وتسمى اليوم أوماش، وهي بلدة تقع جنوب ولاية بسكرة. ينظر: محمد الطيب الفاسي، المصدر السابق، ص: 227.

[4] ونفس المشهد تكرر مع قرى دار دخيسة في طريق بشار البيض، يقول نفس الرحالة:" وتعرض لنا أولاد جرير، حلفاء حميان، بالولاول والخيل والبارود، وبالغوا في ضيافة الحجاج"، وأمر الكرم والضيافة تكرر مواضع عديد بقرى ومدن التي مر بها = الرحالة. ينظر: أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري(ت 1239هـ/ 1823م)، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ص ص: 184، 188، 192، 193،898، 911.

أيما إحسان ونفس الأمر ذكره أبو العباس السجلماسي عن محطاته ببوادي الجزائر في مسار طريقه إلى الحج، وإن كان عهده يشابه إلى حد كبير عهد العياشي من قحط وجوع مس الجزائر في تلك الفترة وعلى الخصوص عام (1150هـ/ 1737م) فكان الإقراء ضعيف [1]. أما عن ابن إدريس التنلاني الجزائري(ت 1233 هـ/ 1817:" فقد وصفة إقامته بقرية متليلي بين ذويها من قبائل الشعانبة[2] بما يدل على التفاني في الإحسان لضيف وخاصة إن من أهل العلم والصلاح فذاك يكون الإحسان إليه مضاعف تقديراً لمنزلته ومكانته من ربه: " ونعم الرفقة هم...رأيت فيهم من الخدمة والطاعة والشفقة، ما لا أظن ولا يخطر ببالي، كأني بينهم مثل الأمير في رعيته"[3].

كما لم تكن الضيافة للمغاربة فقط بل حتى للجزائريين فيما بينهم، وهذا ما تحدث عنه الورثلاني في الإقراء الذي تلقاه هو وركبه بالقرى التي مر بها من موطنه من بني ورثلان إلى قصر الطير وهم في طريق الذهاب متجهين للحجاز بالمشرق، وفي طريق عودتهم من الحج مروا ببرج زمورة أين استقبلوهم أهلها بضرب البارود والفرح والحبور، بعدما خرجوا على بكرة أبيهم لاستقبال الحجاج،

---

[1]- ينظر: السجلماسي، المصدر نفسه، ص ص: 106، 113.

[2]- **الشعانبة:** وهم قبائل عربية تعود أصولهم التاريخية حسب الروايات إلى علاق بن عوف، من سليم بن منصور، من العدنانية، وفدوا إلى شمال إفريقيا إبان التغريبة الهلالية، في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، تحت قيادة رافع بن حماد رئيس فرع علاق بن عوف، ثم استقروا بمتليلي نواحي غرادية. أما عن أصل التسمية فنجد أن أصل التسمية تعود لكلمتي " شعاع نبا" أو "شعاع بان "، أي شعاع الظهر، ذلك أنهم قديماً كانوا يشعلون النار ويقونها مشتعلة ليلاً، فلما يرى عابر السبيل شعاع تلك النار يقول فرحاً:" هذا شعاع بان" أو شعاع نبأ"، وبفعل التداول تداخلت الكلمتان" شعاع" و" نبأ" لتصبح كلمة واحدة وهي الشعانبة". ينظر: الشيخ لكحل، مقاومة منطقة متليلي الشعانبة للاستعمار الفرنسي، المرجع السابق، ص ص: 33، 35، عبد الحميد مسعود بن ولهة، أبناء الشعانبة ومراحل التصور الحضاري لبلاد الشبكة سكانياً عقائدياً وعمرانياً، متليلي_غرادية: دار الصبحي للطباعة والنشر، ط1: 2014، ص: 25.

[3]- التنلاني، المصدر السابق، ص:238.

وهم يتنافسون فيما بينهم فيمن يطعم الحجاج، حتى وصل الأمر بينهم لدرجة الفتنة والهرج بسبب ذلك[1].

بالإضافة لما قيل من العادات الحميدة والتي زخرت بها كتب الرحالة وبالأخص الجزائرية منها مظاهر الفرح والسرور بمقدم ركب الحج الجزائري، ونظراً لحجم المتاعب والمشقات التي كان الحجاج الجزائريون يعانون منها في سفرهم ذهاباً وإياباً أصبح أهالي الحجاج يتلهفون إلى عودتهم سالمين، وكأنهم عائدون من دار حرب وقتال[2].

ومن ذلك ما وصفه عبد الرحمن المجاجي عن استقبال قبيلة بني موسى لهم وهم على مقربة من مدينة الجزائر:

بَني مُوسَى[3] أهْلاً حَبَّذا بِلِقَائِهِمْ فَزَادَهُمُ الإِلْهُ عِزّاً ومِنْعَـةً

تَلَقَّوْنَا بالتَرْحِيبِ وَالفَـــرَحِ الذْي أصَابَـهُم فَحَبَّذَا بِالقَبِيلَةِ[4]

وقد كان من عادات أهل القرى والمدن الجزائرية يستقبلون الحجاج بالطبول والمزامير، وإقامة الولائم والأفراح وتجديد واجهات المنازل وفرشها، لا فرق في ذلك بين أمير وفقير، وحيثما حل الركب يلقى الضيافة والبشاشة من لدن سكان القرى والمدن التي تملأ طريقهم، بدءاً من مداخل البلاد الشرقية، فيزدحمون رغبة في الوصول إلى الحجاج إلى درجة " النهم للتقبيل والمعانقة "[5]

---

[1]- الورثلاني، المصدر السابق، ج1،ص:193.

[2]- أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص: 208.

[3]- **بني موسى**: يقال لهم " الموايسة"، نسبة لجدهم " موسى " بن عامر بن إبراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد بن رياب بن حامد بن حجوش بن حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة، إذا فهم هلال بني عامر العدنانية كانوا يقيمون بإفريقية الشمالية، ينظر: عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تح: محمد عبد الكريم، دون دار نشر، ص: 21، عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، ج3، ص: 1159.

[4]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، ص ص : 220، 221.

[5]- أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص:208 .

والأمر مشابه مع ركب الحج المغربي فقد أحبه الجزائريون واستقبلوه بنفس الحفاوة في الكثير من القرى والمدن الجزائرية كما أوضحنا سابقاً، فعلى سبيل المثال يقول الحضيكي عن أهل بسكرة: " خرجوا للقاء الركب بالترحيب والتحبيب يلعبون بالخيل والبغال في زينتهم "[1]

ومن الأخلاق الحسنة أيضاً والتي تصبح في كثير من الأحيان عادات حميدة بعد ذلك، ما قاله أبو ناصر الدرعي عن سكان قرية عين ماضي:" يعظم صغيرهم كبيرهم وكلهم تفرعوا من أصل واحد، ولا حسد بينهم ولا تباغض فيما يبدو لنا"[2]

وفي ختام هذه الخلال الزكية للمجتمع الريفي والبدوي في الجزائر العثمانية، يجب أن يشار إلى عادات أخرى تركت بصمتها مما يذم على هذه المجتمعات، والتي تنعت بالذميمة ويكره ذكرها أو يستنكر من غير أهلها؛ على حسب ما جاء بأقلام الرحالة ومشاهدات وانتقادات عين مجردة من الإتهمات الذاتية أو الميول الشخصية بتاثيرات خارجية، وإنما جاء النقد بناء على قيم إسلامية أو مبادىء إنسانية.

ب- العادات الذميمة:

فكما تكلمنا عن الكرم والجود في المجتمع الريفي الجزائري في العهد العثماني، هناك من لمح صفة البخل والشح فيه أيضاً، وإن قل أفراده وعد أصحابه، مثلما خرج به الورثلاني بشخصية الناقد الواعظ لبني جلدته في بيئته، بثوب على غير المعتاد من الرحالة بمقته للبخل وأهله في نعته لأحد قادة قصر الطير وشيوخه بموطنه بباليك الشرق المسمى ابن يلس والشيخ أحمد بن الصخري نجل الشيخ أبي عبد الله بن سعد بن سعيد في عدم استضافتهم لركب الحج الجزائري، لما كان مجتمعاً كالمعتاد بهذا المكان ليأخذوا وجهتهم نحو المشرق في قوله:" لم يرد الله بهما خيراً، فلم يتكرم أحد منهما بطعامه ولا

---

[1]- الحضيكي، المصدر السابق، ص ص: 85، 86.

[2]- أبو ناصر الدرعي، المرجع السابق، ص ص:131 ، 132.

بشعيرة على الحجاج، فإنهم وفد الله ووفد رسوله[1] وتلى قوله تعالى:﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ [2]

ومما استهجن أو استغرب عن إحدى المدن الصحراوية، عادة إسراف ذميمة يرويها العياشي بمصطلح" غريبة" عن مدينة وركلا كما يسميها العياشي- وإن كانت مدينة وليست قرية أو بادية ولكن قد يكون الأمر مشابه في القرى المجاورة لها لأن العادات في كثير من الأحيان تنسخ وتنتشر العدوى بين المدن وقرى الجوار للنفوذ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي المتبادل فيما بينهم- وهذه العادة المستهجنة تتمثل في تعليق ثياب الموتى على باب المدينة، أي أنه إذا مات لهم شخص ألقيت ثيابه التي عليه عند الموت هناك ولا تمس، أو بالأحرى ترمي تخوفاً منها، وإن كان أغلبها يصلح للاستعمال على حد تعبير العياشي، وهي خرق كثيرة من الصوف والكتان، وهذه العادة ليست من الدين في شيء وهي من المعتقدات الباطلة والبدع المذمومة تحوي عن الموروث الثقافي لتلك البلاد[3].

أما عن العادات السيئة للمجتمع الريفي والبدوي الأخرى، فقد أشارنا للبعض منها عند الكلام عن السرقة وقلة الأمن بمسالك الحجاج ومعاناة ركائب الحج المغربية ببوادي وصحراء الجزائر، وخاصة من نهب الأعراب، كما تكلمنا عن صفات أخلاقية مشينة وتفسخ أخلاقي مهين لبعض نساء القرى الصحراوية كنساء عين ماضي[4] وبوسمغون أو التلية كنساء زمورة[5].

---

[1]- المصدر نفسه، ج3، ص:385 .

[2]- سورة محمد، الآية : 39.

[3]- العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 118.

[4]- نفس النقد اللذع يذكرها محمد عبد السلام الناصري في رحلته الناصرية الصغرى عن ظاهرة التبرج عند نساء عين الماضي وعدم اغتسالهم من الحيض والجنابة بزعمهن ظان ذلك يضر بهن. ينظر: عبد الخالق أحمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي(ت 1239هـ/ 1823م، المرجع السابق، ص: 233.

[5]- ينظر: أبو ناصر الدين الدرعي، المصدر السابق، ص ص: 130، 131، الورثلاني، المصدر السابق، ج3 ، ص: 377، الحضيكي، المصدر السابق، ص ص:42 ، 83، 84 .

ولكن هناك مسألة يجب الإشارة إليها فما يخص نساء عين ماضي وما شاع عليهن في كتابات الرحالة المغاربة على الخصوص، بعدم اغتسالهن عند الجنابة والحيض والنفاس؛ مخافة أن يضر بهن الماء فيعقمهن. ولكن الأمر لم يقتصر على نساءهم فقط، فقد ذكر محمد بن عبد السلام ظاهرة قد تكون غريبة، وهي حتى رجال عين ماضي لا يتوضؤون فضلاً عن الاغتسال بحجة أنه يضر بأعيونهم ويلجأون للتيمم في قوله:"أعظم من ذلك اعتيادهم للطهارة الترابية من غير عذر، حتى من وسم بالفقه، منهم تراه يضرب الأرض عند كل صلاة، اتكلوا في ذلك على زعمهم أن ماءهم يضر بالبصر، ولقد والله توضأنا منه مراراً، وما رأينا منه من ضرر، فإن كان ذلك يحدث بكثرة الاستعمال أو في فصل دون آخر، وتحقق الضرر وتعذر الوضوء بغيره من مياه الآبار، فلا شك أن ذلك يبيح الانتقال للتميم"[1].

ومن العادات المشينة أيضاً عن أهل هذه القرية، وهي من عادات الجاهلية على أناس وسموا بالعلم والفقه؛ أن المرأة عندهم محرومة من الميراث في" رباعهم وديارهم ومياههم كلها حبس على الذكور دون الإناث" وحتى من عاش معهم من الأجانب فلا يملكونه أرضاً عندهم:" من ساكنهم من غيرهم فبالإرفاق أو الكراء" فقط دون تمليك" هكذا حدث بذلك البعض منهم"[2]. وقد شاركهم في هذه العادة الجاهلية الشنيعة على حد وصف الورثلاني عن موطنه بقرى مدينة بجاية في قطع الميراث عن النساء:" بل زادوا في الضلال أن الرجل إذا مات ورث أخوه ماله وزوجته، ...فقويت دسائسهم" بذلك فكان الواحد منهم :" إذا رأى أخاه أو أبن عمه ذا مال قتله وأخذ ماله وأهله إلى غير ذلك من الأوصاف الرديئة"و قد عادوا للإذعان للشريعة الإسلامية وللحق بعدما نصحهم الورثلاني[3].

---

[1]- محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص: 205.

[2]- المصدر نفسه، ج1، ص:220.

[3]- الورثلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 243.

وأقبح ما ذكر على لسان الرحالة ما قيل عن بعض أحوز بسكرة بل عن :"قبيلة يقال لها أولاد داود من قبيلة الثواب-برابر-لايعقدون النكاح، يبدلون النساء على زيادة يأخذها أحد المتبادلين، ويقولون أشرِ تربح، والعقوبة بالمال في نحو سرقة المعز مثلاً أكثر وأعظم من العقوبة على نحو زنى أو غصب وغير ذلك من أحكامهم وعوائدهم الفاسدة"[1].

ومن العادات المشينة أيضاً لأهل قرية عين ماضي على ما ذكره ابن هطال التلمساني، في سرده لأحداث حملة الباي محمد الكبير على الجنوب الصحراوي الجزائري وبالأخص الأغواط وعين ماضي:" فلما رأوا أهلها خيله قد طلعت، وبنوده قد أقبلت، فزعت قلوبهم، وطاشت عقولهم وغلقوا الديار وصرخوا طالبين الطاعة، وكان من عادتهم أن يقدموا النساء على العلماء ولما رأى الباي، ذلك أمر بإبعاد النساء وتحاور مع العلماء واتفق معهم على تحقيق اللزمة[2]"[3]، فكانت هذه العادات الذميمة في الحروب من قبل سكان عين ماضي؛ أن تقدم النساء في الصفوف الأولى للمواجهة مع الخصوم لطلب الشفاعة فأي عادة هذه عن الرجال؟.

ولا يقتصر الأمر على عين ماضي ومشاركة نساء الريف والبادية في مواجهة الخصوم في الحروب؛ ففي إطار ثورة درقاوة، قيل عن بعض أعراب بايلك الغرب زمن الباي المقلش[4]: لما نزل بهم هذا الأخير بمنطقة تاسلة" يريد واد الحد ببلد أولاد الزاير، وعيونه ذاهبة وراجعة بأخبار الدرقاوي، كما هو شأن أولي العزم والحزم من الملوك، إلى أن تحقق بأن الأعراب بالوادي المذكور يريدون لقاءه،

---

[1]- محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص ص: 220، 221.

[2]- **اللزمة:** ضريبة عينية أو تقدية، تفرض بغرض تموين الحامية والمساهمة في الدنوش. ينظر: فلة القشاعي، النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني (1771-1837م)، المرجع السابق، ص: 64.

[3]- ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص: 69.

[4]- **الباي المقلش:** هو محمد بن محمد بن عثمان لقبه المقلش، تولى بايلك الغرب سنة (1220هـ/1804م)، يقال أنه لما قام ابن الشريق الدرقاوي على الباي مصطفى بن عبد الله وعجز هذا الأخير عن مقاومته، عزل وعين مكانه وهو ابن 18سنة لشجاعته ورياسته، وبقي في حكم البايلك ثلاث سنين فقط. ينظر :محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران، ص: 276.

مقدمين زياداتهم بين أيديهم،...والزيادات في عرف العرب بالجزائر بوازل الجمال عليها الهوادج، بداخل كل هودج امرأة تولول[1] بين الصفوف الحرب، يزعمون أن ذلك يشجع الجبان، ويزيد في زعامة الشجعان"[2].

وقد شاركه هذا الوصف فندلين شلوصر في غلظة وجهل بعض القرى ونسائهم وخاصة بمنطقة القبائل، فكثيراً ما تحدث بينهم اشتباكات صغيرة عادة لأسباب تافهة، فلا تستعمل فيها الأسلحة، ولكنهم يجتمعون في عدد كبير من الرجال والنساء ويتقابلون ويترامون بالحجارة، ويستمر ذلك إلى أن يقتل أو يجرح عدد كبير من أحد الطرفين، ومن يؤجج نار الفتنة بين تلك القرى النساء؛ فهن من يتولين في أثناء العراك والتراشق بالحجارة، حمل تلك الحجارة إلى أزوجهن وتشجيعهن [3].

وليس ببعيد من تلك التصرفات الهمجية، والأخلاق المشينة ما قاله السجلماسي عن قرية بوسمغون:" وفي هذه البلدة يقع القتال بين أهلها كثيراً، والعياذ بالله وقد استولى الجهل عليهم وجساوة[4] الطبع، فلا يكادون يفقهون حديثاً، تحاكم إلي فريقان، فتبعت كل فريق شيعته، وتبعتهم بعض نسائهم فاثروا اللغط والتخليط، ولم يترك بعضهم بعضاً أن يتم كلامه، وكان خصامهم على عيني ماء، إحداهما تسمى عين ماله، بتشديد اللام، والأخر عين القدح"، ولا يستبعد من أهل هذه القرية التراشق بالحجارة كقرى القبائل، بعد التراشق بالكلام لقلة الأدب والاحترام، فتكثر الخصومات في مجتمعهم وينتج عنها كثرة التعدي والقهر[5]. ومن شارك في هذا الجهل معشر النساء، وهذا من

---

[1]- **تولول**: يعني تزغرت، وهو صوت رخيم تطلقه النساء بالجزائر عند الفرح وفي المناسبات كالأعراس وغيرها.

[2]- محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص: 286.

[3]- ينظر: فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص: 98.

[4]- **الجساوة**: الغلاظة، الصلابة، وتعنى غلاظة الطبع وهي من سوء الخلق.

[5]- السجلماسي، المصدر السابق، ص: 131.

فرط جهلهن، فالتعاون يكون على البر والتقوى،كما أمرنا الله عز وجل، وليس على الإثم والعدوان[1]، فالأحرى بها أن تكون ماء يطفئ لهيب الفتن وليس العكس.

من العادات المنكرة أيضا والمعتقدات الباطلة والتي استحدثتها العامة من سكان الأغواط وضواحيها بمنطقة المخيلي[2]، بنحو فرسخ منه المزار المسماة بميسرة، وهي كما قيل خلاء من الأرض لا عمارة عنده في أعلى الوادي عند مضيقه، وهو مكان يفد عليه الأولياء والسياح من كل بلد، وقلما يخلو من منقطع للعبادة، فاتخذوا منها مأوى للأولياء والزيارات ولم يكتفوا بذلك بل أشاعوا عنها مفاهيم عقائدية وتاريخية ليس لها أصول صحيحة لا من ناحية الدين ولا من التاريخ، فقد أحدثت منكرات وزورت فيه تزويرات لا تقوم على ساق، ولا لها فصل من أصل نذكر منها حسب محمد بن عبد السلام:"طوافهم بمسجده سبعاً كالكعبة، بل يزعمون في خرافاتهم أن الكعبة إذا خربت في آخر الزمان ينتقل الحج إليه، حتى حدثني بعض الطلبة الأغواط أن رأى في ذلك تأليفا مشروحاً وإن صح ما زعمه فما هي إلا أساطير الأولين يرويها الأخيرون عن الأولين. ومنها أن بهذا المسجد طاقة قبلية عن يمين المحراب على ما يقرب من قامة، يزعمون أن من قدر على الدخول من خارجها لداخل كان ذلك علامة على سعادته، ومن لا فلا ومنها أن بقربه كركورا مكوناً من الصخور، يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس عليه"[3] مع غيرها من المعتقدات الباطلة.

---

[1]- مصدقاً لقوله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [سورة: المائدة، الآية: 3].

[2]- **المخيلي**: يقال له المخيل والمخيلي وعليه الأغواط اليوم وغيرهم من الأعراب، ولا وجه له في التسمية إذ ليس بالمكان ولا نخلة واحدة. ينظر:أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 546 ، أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص:132، 133.محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص: 199.

[3]- ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق،ج1، ص ص:200، 201، بن قايد عمر، منطقة الأغواط وجوارها من خلال رحلة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي السجلماسي(ت 1239هـ/ 1823م)؛ قراءة اجتماعية ثقافية، **المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية**، المجلد09، العدد الأولى، جوان 2018، ص ص: 211، 212.

وكخلاصة لما قيل في أصول وفروع الفصل الموسوم ب"معالم ومميزات المجتمع الريفي والبدوي في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات"، والذي كان مستهله مع مقومات المجتمع الريفي في الجزائر العثمانية بداء من اللغة، فلغة أهل الريف والبادية فهي ممزوجة بين اللغة العربية ولهجتها العامية، واللغة البربرية أو ما يعرف بالأمازيغية والتي تعتبر لهجة محلية تميزت هي الأخرى فيما بينها بين منطقة القبائل والهقار وبني مزاب وقبائل أقصى الجنوب الجزائري، وخير من أشار لهذا الأمر الرحلة الجزائري ابن الدين الأغواطي إلى جانب محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي السجلماسي.

أما عن التعليم في الريف الجزائري خلال العهد العثماني، فيصعب التسليم بأنه كان منتشراً بنفس النسبة التي وجدت بالمدن، ولكن ما تبينه المصادر أن الزوايا قد لعبت دوراً هاماً في تلقين المبادئ الأساسية للتعليم والثقافة الدينية وخير من فصل في الأمر الرحالة المغاربة، أمثال: العياشي، والدرعي، والسجلماسي والناصري.

وفيما يخص للباس عند أهل البوادي والأرياف فقد ميز بعض الباحثين حسب ما وجد في مصنفات الرحالة والمؤرخين بين لباس سكان السهول والجبال وبين المناطق الصحراوية بالمجتمع الريفي والبدوي، وخير من تكلم عن لباس المرأة والرجل بالأرياف الرحالة الأوروبيين أمثال: لوجي دي تاسي، وفندلين شلوصر، ودارفيو، وهاينريش فون مالتسان، إلى جانب بعض الإشارات من العياشي والأغواطي والسجلماسي.

وكحوصلة عن الغداء بأرياف الجزائر العثمانية فقد ارتبط النظام الغذائي فيها بعوامل مختلفة على رأسها الوضعية الاقتصادية للسكان، حيث كان سكان الأرياف أو البوادي يتمتعون بالقناعة والبساطة وغذائهم كان غير متنوع حيث كانت الأغذية بسيطة؛ فشظف العيش بالأرياف مع كثرة توالي الأزمات من أوبئة وزلازل ومجاعات قد تركت أثرها في نظامهم الغذائي من فترة لأخرى خلال الوجود العثماني في الجزائر، ففي كثير من الأحيان كانوا يبحثون عن اللقمة فقط لأجل البقاء على قيد الحياة لا غير.

أما عن الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعياً واقتصادياً، فتعد الأمراض والأوبئة بالإضافة إلى المجاعات والكوارث الطبيعية من أهم العوامل المسببة في تأخر المجتمع الجزائري وضعفه وخاصة في أواخر العهد العثماني به سواء بالمدن أو الأرياف.

كما برزت مكانة المرأة والعادات والتقاليد في المجتمع الريفي والبدوي في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحالة، فقد زخر المجتمع الريفي والبدوي ببيلكات الجزائر العثمانية ومناطقها الداخلية والصحراوية، بكثير من المظاهر الدالة على الثراء والتنوع في الحياة الاجتماعية بايجابياتها وسلبياتها، وحتى بتناقضاتها في الكثير من الأحيان.

ليختم هذا الفصل إلى جانب هذه النتائج بخلاصة مفادها أن كتب الرحلة معينها طيب يصلح لأن يؤرخ منها في العديد من الجوانب للتاريخ الاجتماعي للجزائر العثمانية، ونخص بالذكر الريف والبادية، ولكن لا تصلح لأن تكون وعاء للتاريخ لوحدها بل لا تستكمل حلقاته المفقودة إلا بمصادر أخرى أرخت لنفس الظاهرة الاجتماعية ليكتمل الإطار العام وتتضح الرؤية التاريخية في أخر المطاف.

الفصل الخامس:

دور المجتمع في النشاط الاقتصادي بالبوادي والأرياف من خلال كتب الرحلات

- المبحث الأول: الزراعة بالأرياف والبوادي التلية
- المبحث الثاني: الفلاحة في الواحات والبوادي الصحراوية
- المبحث الثالث: الحرف والصناعات والتجارة من خلال كتب الرحلة

إن النشاط الاقتصادي في الأرياف والبوادي الجزائرية يستوجب المرور على قطاعات الاقتصاد الرئيسية وهي الزراعة والصناعة والحرف ثم التجارة، مع الأخذ بعين الاعتبار المجالات الفرعية الرئيسية لكل قطاع اقتصادي هذا من جهة، ومن جهة ثانية سيتم التركز على الحياة الاقتصادية على ضوء ما باحت به كتب الرحلة بالدرجة الأولى، لكونها المصدر التوثيقي الرئيسي في هذا العمل وهو الفيصل في تلك المجالات التي سنستفيض فيها أكثر من غيرها، خاصة وان هناك مجالات اقتصادية أساسية لكنها متمركزة في المدن التي هي خارج الجغرافية المستهدفة أو تلك المجالات الاقتصادية التي لم يعطها المتن الرحلي حقها.

المبحث الأول: النشاط الزراعي بالأرياف والبوادي التلية

للإلمام بالنشاط الزراعي والفلاحة التي كانت تمارس على نطاق ضيق ولتتبع خصوصية النشاط في كل منطقة فالأمر يستوجب أن نفصل بين الزراعة التلية والفلاحة الصحراوية لكي نتعرف على خصائص ومميزات كل منطقة على ضوء نصوص الرحلة.

لدارسة الزراعة بالأرياف التلية[1] فالأمر يتطلب معرفة وضعية ملكية الأراضي لكونها الرافد الأساسي للحياة الريفية بالمنطقة التلية، ليتم الحديث بعدها على أقسام العمل الزراعي من زراعة للخضر والفواكه فالحبوب وغرس الأشجار المثمرة[2].

1- وضعية الأراضي الزراعية بالريف التلي:

إن الزراعة ممارستها تعتمد بشكل أساسي على الأرض من حيث موقعها الجغرافي وطبيعتها ومدى صلاحيتها للممارسة الزراعية، وعليه فقد تعددت أنواع الأراضي في المنطقة التلية للجزائر

---

[1]- قسمت جغرافية الجزائر العثمانية أفقياً إلى ثلاث مناطق تلية وتشمل المناطق الساحلية، ومناطق داخلية وصحراوية حتى يبرز النشاط الزراعي بالأرياف والبوادي بشكل جلي.

[2]- قسمت جغرافية الجزائر العثمانية أفقياً إلى ثلاث مناطق تلية وتشمل المناطق الساحلية، ومناطق داخلية وصحراوية حتى يبرز النشاط الزراعي بالأرياف والبوادي بشكل جلي، ينظر: الملحق رقم (06)، ص: 469.

وخاصة تلك الأراضي البعيدة عن المدن والحواضر والتي كانت محل استغلال من طرف القبائل[1] على أوجه متعددة، وفي مختلف النواحي الاقتصادية كالزراعة والرعي، ويمكن تقسيم الأراضي في الجزائر العثمانية إلى الملكيات الخاصة للأراضي، الأراضي السلطانية التابعة للبايلك أو لدار السلطان، والأراضي المشاعة للقبائل الموالية للسلطة العثمانية، وأراضي الأعراش القبلية المملوكة جماعياً، وأراضي الوقف[2].

أ- الأراضي الزراعية الخاصة:

ويقصد بها مساحات الأرضي التي كانت تستغل في النشاط الزراعي من طرف أصحابها أو من يوكلونه العمل بها وهي معلومة المكان والمالك ولها وثائق لدى الهيئات العرفية والإدارية تثبت حيازتها، وقد انتشر هذا النوع من الأراضي الزراعية في المناطق القريبة من الحواضر الكبرى كمدينة الجزائر وقسنطينة وعنابة[3]، لعل أبرزها فحص مدينة الجزائر الذي كان يسيل لعاب الجميع من السكان والإدارة، وحتى الاستعمار الفرنسي بعد غزوه للبلاد بدأ بالاستحواذ عليه بصورة مباشرة، وقد تميزت هذه الأراضي بتنقل ملكيتها بين الأفراد عبر عملية البيع والشراء[4]، أو عن طريق الإرث أباً عن جد أمثال: أسر أبي قندورة، وأبي هراوة، وناصف خوجة وحمدان خوجة الذي كان من الملاك لجزء كبير من هذا سهل متيجة[5]، يذهب حمدن بن عثمان خوجة في كتابه " المرأة" متحدثاً عن ثروته قائلاً:" علي أن أصرح بملكيتي لقطعة كبيرة من الأرض كافية من هذا السهل توارثناها أبا عن جد،" " ليواصل "

---

[1]- نقصد قبائل المخزن وقبائل الرعية والقبائل المتحالفة ينظر: الفصل الثالث، ص ص: 186، 217.

[2] - Jean Terras, **Essai sur les biens habous en Algérie et en Tunisie, étude de législation coloniale**, thèse doctorat ; Université de Lyon. Faculté dedroit., 1899. P85.

[3]-ناصر الدين سعيدوني، **دراسات في الملكية والوقف والجباية الفترة الحديثة**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2001، ص:81.

[4] -Dresch Jean. La réorganisation de la propriété rurale dans la Mitidja et ses conséquences sur la vie indigène. In:**Annales deGéographie**, t. 60, n°320, 1951. pp. 216-217....

- ينظر: الملحق رقم (08)، ص: 471.

[5]- ينظر: الملحق رقم (09)، ص: 472.

فانا ملاك لأملاك بسهل متيجة يقدر ما أبذره بهذا السهل سنوياً 160حمولة إبل من قمح وما بين 100 و120 حمولة من الشعير..."[1].

ب – أراضي البايلك:

وهي الأراضي التي تعود ملكيتها للدولة مباشرة ممثلة في البايلك، والتي كانت مسجلة ابتداء باسم البايلك أو ألحقت به عبر المصادرة أو وضع اليد في حالة الشغور، أو عند ترحيل السكان المقيمين عليها بناء على توصيات القبائل المخزنية؛ في حال الامتناع عن تسديد الضرائب والديون، وقد انتشرت هذه الأراضي في إقليم دار السلطان تحت مسمى أحواش البايلك، إضافة إلى المزارع الشاسعة التي كانت تابعة لمقرات البايلكات في قسنطينة ووهران والمدية، وكانت تستغل مباشرة من طرف عمال البايات وبعض القبائل التي كانت تقوم بالعمل فيها تحت مسمى التويزة[2].

جـ– الأراضي المشاعة (أراضي العرش):

تعددت مسميات هذا النوع من الأراضي في مختلف أنحاء البلاد فتعرف في الجهات الشرقية بأراضي العرش، وفي بعض النواحي الغربية بأراضي السبيقة، أما طريقة استغلالها فيقوم أفراد القبيلة بخدمتها حسب مقدرتهم وإمكانياتهم، ويستغل هذا النوع من الأراضي بشكل جماعي ويعود حق التصرف فيها إلى سكان القبيلة أو الدوار، ويترك جزء منها لاستغلاله في الرعي وعند تغيب أحد الأفراد أو إهماله لحصته من الأرض فإن أعيان الجماعة يقومون بتسليم الأرض لمن يقوم بخدمتها[3]، وينتشر هذا النوع من الأراضي في الهضاب العليا حيث تكثر زراعة الحبوب[4]، بالموازاة مع تربية

---

[1]– يقول حمدان خوجة عن أطماع الجنرال كلوزيل بسهل متيجة:" إن المتيجة هي التي دوخت بعض الشيء ذلك الكاتب المشهور –يقصد كلوزيل –وجعلته يحلم بأنها الأرض الموعودة..."، المرآة، المصدر السابق، ص ص: 47، 48، سلطانة عابد، قراءة في خصائص تجار مدينة الجزائر سنة 1830، المرجع السابق، ص ص: 338، 339.

[2] – سعيدوني، دراسات في الملكية، المرجع السابق، ص: 82.

[3] – صالح فركوس، **تاريخ الجزائر ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال**، دار العلوم للنشر ، الجزائر ، 2005 ، ص: 123 .

[4] –كمال صحراوي، أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري، المرجع السابق، ص: 137.

الماشية، وهو ما يحتم التنقل من جهة إلى أخرى بحثاً عن الكلأ، وفي المناطق الإستبس حيث تكثر حرفة الرعي، وتحتم الظروف الطبيعية على أصحاب المواشي الانتقال بها إلى التل في فصل الصيف[1].

د- أراضي الوقف[2]:

وهي تشرف على تسيير المصالح الإدارية بمساعدة قبائل المخزن[3] وهي التي حبست للإنفاق على الأموال الخيرية والمؤسسات الدينية وأوكل التصرف فيها لناظر الأوقاف ومساعدين من الوكلاء والشواش وقد انتشرت الأوقاف في أواخر العهد العثماني وتركزت بالقرب من المدن الكبرى، حتى أصبحت حسب بعض التقارير تغطي ثلاثة أرباع الأراضي الصالحة للزراعة بالمناطق الخاضعة مباشرة للبايلك، ونظرا للأحكام الشرعية المتعلقة بها والمعاملات القانونية الخاضعة لها، فإنها لم تكن تخضع لأية ضريبة أو رسم ولم تكن تتعرض لأية مصادرة أو حجز من طرف الحكام[4].

هـ- أراضي الموات:

وهي قليلة تكاد تكون موجودة إلا في ضواحي المدن وهي شبه إقطاعية[5] وهي الأراضي التي تركت بدون استغلال أو التي كانت غير صالحة للفلاحة ورغم إمكانية امتلاكها والانتفاع بها شريطة إحيائها ، إلا أن الأهالي بالأرياف لم يكونوا يقبلون على استثمارها لا سيما أواخر العهد العثماني الذي تميز خاصة بانتشار هذا النوع من الأراضي بعد تحول كثير من السكان من ممارسة الفلاحة ، وقد فرض أسلوب الحياة نوعا من الاقتصاد الزراعي الرعوي المزدوج ، الذي خلق نوعا من التوازن السلبي بين شروط البيئة الخاصة ومتطلبات العيش الضرورية ، وعلى كل فإن أسلوب الحياة وشروط

---

(1) -كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 137.

(2)- إن الوقف في أصل اللغة يراد الحبس، وهو مصدر مشتق من وقف أي حبس، ونقول وقف الأرض على المساكين، أي حبسها وجعلها في باب البر والإحسان. ينظر: حبيس مليكة، قراءة سوسيولوجية لدور الوقف في نشر العلم والبحث العلمي بالمجتمع الجزائري خلال فترة الحكم العثماني، ص ص: 3، 4.

(3)- صالح فركوس، المرجع السابق، ص: 123.

(4) - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص: 53 .

(5) - صالح فركوس، المرجع السابق ،ص: 166 .

المناخ وطبيعة التضاريس أدت في العهد العثماني إلى اقتصاد مغلق يتصف بضآلة المردود وقلة الإنتاج الذي أصبح مع مطلع القرن التاسع عشر لا يتعدى تلبية مطلبين أساسيين هما سد حاجة الأهالي وإمداد البايليك ببعض المحاصيل[1].

2- الإنتاج الفلاحي بالريف التلي:

اعتمد المجتمع الجزائري خلال الفترة المدروسة على موارد أساسية، ميزت نشاطه الاقتصادي فعرف فيها العهد العثماني تطوراً ملحوظاً في المنتجات الزراعية، والحرف الصناعية والمهن اليدوية، والمبادلات التجارية، مع حلول القرن السادس عشر هجري والنصف الأول من القرن السابع عشر. وبخاصة بعد قدوم أعداد كبيرة من مهاجري الأندلس، إلى أرض الجزائر واستقرارهم بالجهات الساحلية، يستصلحون أراضيها ويعمرون مدنها وقراها مستغلين مواردها الاقتصادية[2]، والتي يمكن أن نجملها في ستة موارد أساسية تتمثل في الثروات: الفلاحية، الحيوانية، البحرية، المعدنية، الصناعية، التجارية:

لقد كان المجتمع الجزائري مجتمعاً فلاحياً خلال العهد العثماني[3]، ويعود السبب الأساسي في ذلك لنوعية التربة الصالحة للزراعة والتشجير، ووفرة المياه، حيث قدر المؤرخون أن نسبة سكان الأرياف بأكثر من 90 %، جلهم يمتهن حرفة الزراعة[4]، أما عن أنواع المحاصيل الزراعية فهي متنوعة، كالقمح والشعير[5] والعدس، والحمص، والفول، والذرة وغيرها من البقول، والخضار، إلى جانب

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق ، ص: 54 .

[2] - المرجع نفسه، ج4، ص:49.

[3] - محمد صالح العنتري، الفريدة المنسية، ص: 28، ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي، ص: 31.

[3] - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص:335.

[4]- تقدر المساحة المزروعة أحياناً لهذين النوعين فقط من الحبوب ب (4000 متر مربع)، أما القمح الجزائري فهو من النوع الصلب والدقيق، الذي يطحن منه يشبه الرمل في مظهره، وهو صعب للعجن ولكن الخبز الذي يصنع منه فهو ألذ أنواع الخبز، وليام شالر، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816م-1824م**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تر: إسماعيل العربي، ط: 1982م، ص:29.

الأشجار المثمرة المنتجة للتين، والزيتون، والبرتقال، والعنب، والخوخ، والأجاص والبلوط، والخروب، والتفاح، والنخيل، وغيرها من المنتجات ذات الطابع التجاري كالقطن، والكتان، والأرز، والتبغ[1].

كان هذا بصفة مجملة عن الطابع الفلاحي للجزائر العثمانية، ولكن قبل أن نتحدث عن ما ورد في النصوص الرحلية عن الزراعة والفلاحة في الأرياف والبوادي التلية لابد أن نشير إلى أن النصوص الرحلية التي هي مرتكز عملنا لم تفصل في النشاطات الزراعية كل على حدى، فنجد الرحالة يتحدث عن الفلاحة الموسمية من خضر وفواكه، ويشير بعدها إلى زراعة الحبوب والبقوليات، وقد يضيف لها المنتجات المرتبطة بتربية الحيوانات، ثم يمزجها مع مرئياته للسلع في الأسواق المختلفة والحرف التي شاهدها، فالأمر يتطلب الإشارة إلى الزراعة على ضوء ما باحت به المصادر غير الرحلية وكذا المراجع، ثم نورد ما زخر بهه المتن الرحلين لنتمكن من تقييم القيمة العلمية للنصوص الرحلية في الحياة الاقتصادية.

لقد تعدد النشاط الزراعي بالجزائر العثمانية بين الفلاحة الموسمية كزراعة الخضر والفواكه، وزراعة الحبوب والبقوليات وغرس الأشجار المثمرة مع تربية الحيوانات ويمكن أن نجمله في العناصر التالية:

أ- الخضر والفواكه والحبوب:

أجمعت المصادر الرحلية[2] على امتلاك الجزائر لمقومات البلد الزراعي وقدموا الإشادة بنوعية الأراضي وخصوبتها وكونها من أجود الأراضي في دول حوض المتوسط، وكمثال على ذلك فقد ذكر الرحالة دي فونتين ذلك فقال: " تتميز التربة الزراعية بالجزائر بكونها تربة طينية ممزوجة بالرمال وبقايا النباتات، وهي خصبة بدرجة كبيرة مما يجعلها من أخصب الأراضي في حوض البحر المتوسط، وتتوزع

---

[1] – ينظر: مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ص: 46، وليام شالر، المصدر السابق، ص: 30.

[2] – نخص بالذكر الرحالات المغربية كرحلة العياشي والدرعي والسلجامسي والناصري بالخصوص، إلى جانب الرحلات الجزائرية وإن كانت مقتضبة كالورثلاني والمجاجي والمصعبي، وابن هطال التلمساني، أما الرحالة الأوروبيين منهم فاغنر وهاينريش فون مالتسان وفندلين شلوصر وغيرهم.

هذه الأراضي على سهول الجزائر من شرقها إلى غربها من السهول المتاخمة لتونس بنواحي عنابة وسكيكدة وقسنطينة مروراً بسهول المتيجة والبليدة في الوسط وصولا إلى سهول معسكر وشلف والهبرة وتلمسان غربا، فهي السهول الواقعة شمال جبال الأطلس التلي بصفة عامة[1]، وقد قال التمكروتي عن خصوبة السهول القريبة من مدينة الجزئر:" ثم سافرنا منها وأرسينا بميناء الجزائر حرسها الله...قال ابن عبد ربه : "هي جزائر بني مزغنا وهي مدينة أهلة مانعة كثيرة الخصب"[2].

كما دأب سكان المناطق الجبلية و البوادي القريبة من المدن على زراعة الخضر والفواكه بشكل عام وقد ساعدها الموقع الاستراتيجي، لما له من أهمية كبيرة خاصة في الأرياف القريبة من المدن والسواحل التي تتوفر على مساحات واسعة، وتوفر كميات التساقط الضرورية بهذه المناطق بجوها المعتدل[3]، الأمر الذي أثر إيجابيا على استغلال الأراضي الزراعية[4]، فكانت الخضر بمختلف أنواعها من إنتاج فحوص وأرياف المدن وتوّجه عادة للاستهلاك، زيادة على المنتجات الزراعية كالقطن والكتان والتبغ في عنابة[5] ، كما اشتهرت فحوص الحامة بإنتاج أجود أنواع الخضر والأمر ذاته مع أرياف قسنطينة التي كانت تسد حاجات المدينة، واشتهرت زراعة الخضر كذلك في بطون الأودية بالأوراس وكذلك الأمر في المناطق الوسطى والغربية[6].

وقد أفردت النصوص الرحلية ذكرا لهذا الأمر وهو اهتمام السكان في الأرياف بزراعة الخضر والفواكه، فقد قال الرحالة بايسونال عن الفواكه والخضروات بالجزائر بصورة إجمالية: "زيادة على ذلك ينتج بالجزائر عددًا كبيرًا من الفاكهة خاصة تلك المتعلقة بالمناخ اتالحارةكالرمان والبرتقال والليمون

---

(1)– Jean-André Peyssonnel et DESFONT AINE, **Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger**, Tom2, Paris, Librairie de Cide, Imp. De la cour de cassaton, Paris 1838, P260.

(2)– التمكروتي، المصدر السابق، ص: 42.

(3)– أحمد توفيق المدني، **هذه هي الجزائر ويليه كتاب الجزائر**، عالم المعرفة ، ط خ، الجزائر ، 2010، مج:8، ص: 27.

(4)– صالح عباد: المرجع السابق، ص: 335 .

(5) – ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر ... ، المرجع السابق، ص: 43 .

(6) – فلة القشاعي، النظام الضريبي ...،المرجع السابق، ص: 11 .

الحامض والحلو والتين والعناب والفستق والعنب والبطيخ والبطيخ الممتاز، الأمر الذي جعل منتجات الجزائر تنافس نظيراته في البحر المتوسط كتلك التي تصدر من تونس ومالطا وإيطاليا[1].

وللتدقيق أكثر في هذا الأمر نجد أن الرحلات لم تخص ناحية دون أخرى في هذا المجال، فمشاهدات الرحالة الذين زاروا الجزائر أشادوا بمستوى فلاحة الخضروات والفواكه من الشرق إلى الغرب، ففي الناحية الشرقية تحدث مارمول كاربخال عن الفواكه التي تغرس بجيجل فقال: "وفي جيجل تسقى المزروعات من الجداول المائية الجبلية وتتميز بأشجار التين والجوز" [2]، في حين يتحدث هابنسبرايت عن عنابة فيقول:".. فغادرنا عنابة وسرنا عبر سهل جميل مغطى بالبرتقال والعناب... وكنا في موسم لحصاد شاهدنا أعدادا لا تحصى من أكوام القمح تنتشر في الريف، كما أن خضرة الأشجار وتنوع الشجيرات يجعل المنظر جميلا... ولقد اعتاد سكان تلك الجهات التي مررنا بها على درس القمح في الحقول التي يزرع فيها.. "[3] ، فكلام هابنسبرايت يبين التنوع في الإنتاج الزراعي في المزارع والسهول ببونة والمناطق المحيطة بها.

والأمر ذاته مع الأرياف الوسطى من نواحي دار السلطان والتيطري خاصة فحص مدينة الجزائر والمتيجة، فقد حظيّا بنصوص كثيرة في الرحلات، فيتحدث الرحالة هابنسبرايت عن فحص مدينة الجزائر يقول: "وتتخل فحص مدينة الجزائر أودية رطبة تتميز بالخصوبة وبها حدائق متنوعة تحتوى على أشجار العنب والبرتقال وأشجار الزيتون واللوز وغيرها، من الأشجار المثمرة وغير المثمرة كأشجار النخيل التي تحتاج إلى الحرارة وهي غير متوفرة بالإقليم مثل الصحراء، إضافة إلى القمح الذي كان

---

[1]–Peyssonnel, Jean-André,**Voyagesdans les Régences de Tunis et d'Alger**, Tom2,Paris, Librairie de Cide, Imp. De la cour de cassaton, Paris 1838, PP 298-299.

[2] – مارمول كاربخال، المصدر السابق، ج2، ص:380.

[3] – هابنسبرايت، المصدر السابق، ص:82.

يبيعونه إلى السلطة التي تخزنه ثم توجهه إلى التصدير نحو أوروبا، وكان سكان المدينة في فصل لصيف ينتقلون إلى الفحص لقضائه بأريافه الممتعة"[1].

وعن أشجار الفاكهة بسهل المتيجة يقول عنها الرحالة بايسونال " وفي أرياف المتيجة تنتشر البيوت الريفية المتواجدة داخل المزارع والتي يقطنها عدد كبير من العائلات التي تقوم بغرس أشجار البرتقال والرمان، وحتى أصحاب المدن كانت تأتي إلى بساتين وحقول المتيجة لقضاء فصل الصيف مع عائلاتهم والتمتع بهوائه النقي ومياهه العذبة"[12] ، وكلام بيسونل قد أكدته الكثير من المصادر غير الرحلية إذ لا يمكن زيارة مدينة الجزائر دون أن يتعرف على أهميته الاقتصادية، وبالقرب من المتيجة يصف التمكروتي شرشال وما بها من زروع فيقول:" وهي بليدة حصينة كثيرة العمارة والزرع والفواكه يجلب منها الزرع وغيره إلىالجزائر "[23] ، ويقول بايسونال عن المزارع القريبة من المدية وما بها من فواكه "تقدم الحدائق مساحات خضراء جميلة وهي مؤثثة بوفرة من الفاكهة التي تعطيها البلاد؛ وتتواجد على منحدر فوق المدينة، وبالقرب من هذا المكان هناك مصادر وفيرة من المياه النقية التي تتحد في تيار قوي يمد المدينة والحدائق بالماء ثم ينحدر إلى واد عميق"[4] .

وفي الأرياف الغربية فقد أفردت له المتون الرحلية في طياتها العديد من التوصيفات بشأن غرس الخضروات وأشجار الفواكه فقد أشار مارمول عن حدائق مليانة العالية حيث يقول: "جبال مليانة العالية كانت تتوفر على ينابيع مائية وجداول، بها أشجار الجوز العالية التي كانت يقطفها سكان الأرياف والمدينة، وخارج أسوار المدينة توجد بساتين شاسعة تتميز بغرس أشجار الليمون والبرتقال.." [5]، وفي المناطق القريبة من مدينة معسكر عاصمة بايات الغرب يصف الرحالة بيسونال مشاهداته

---

[1] – المصدر نفسه، ص:507.

[2] –Peyssonnel, Op. Cit, P139.

[2]– التمكروتي، المصدر السابق، ص: 42.

[4] –Peyssonnel, Op. Cit, PP.147- 146.

[5] – مارمول كاربخال، المصدر السابق، ج2، ص:359.

عن حدائقها وحقولها فيقول: "وحدائقها مزروعة بشكل جيد وهي مزروعة بأشجار المشمش واللوز، وأشجار التين، وأشجار الرمان، ومعظم هذه الحدائق منحدرة على الجبل، وليس ببعيد يوجد مساحة جميلة للبائعين"[1] .

أما عن زراعة الأشجار المثمرة بالمناطق الجبلية بالقبائل والمدية، فقد ازدهرت البساتين بأراضي الفحوص المحيطة بالمدن الرئيسية كوهران ومعسكر وتلمسان والمدية وملیانة والبليدة والقليعة وعنابة وقسنطينة وإن كانت فحوص مدينة الجزائر أكبرها مساحة وأكثرها إنتاجا، ولارتباط إنتاج هذه الفحوص بالحاجات المعاشية لسكان المدن من خضر وفواكه وأشجار مثمرة كالحمضيات وأشجار الزيتون التي تعتبر ميزة من مميزات البلاد الاقتصادية[2] .

لقد تميزت الجزائر بغرس شجرة الزيتون التي كانت تغطى مساحات شاسعة من جهات التل والهضاب العليا ومرتفعات الأطلس الصحراوي قبل أن تنحصر مساحتها أواخر العهد العثماني بفعل قلع وقطع عدد كبير منها لاستخدام خشبها في إقامة المساكن وصنع الأثاث والطهي والتدفئة، حيث كانت أغلب هذه الأشجار من الفلين المنتشرة بالجهات الساحلية الممتدة من القالة إلى بجاية والتي تتخللها أشجار الصنوبر والزيتون البري والكروش وقد اشتهرت منها غابات بني صالح وسيبور وإيدوغ والصفصاف وسكيرة والقالة[3] .

وذكر بايسونال أن الجزائر تتميز بالعديد من الأشجار المثمرة التي اهتم بها الفلاح الجزائري في

---

[1] –Peyssonnel, Op. Cit, P186.

[2] – صالح عباد، المرجع السابق، ص: 335.

[3] –ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي ، المرجع السابق، ص: 60 .

وذلك قبل أن تتعرض للإتلاف والحرق على يد جيوش الاستعمار الفرنسي. ينظر:

مختلف جهات البلاد إلا أن أهمها شجرة الزيتون [1] التي تعتبر من الثروات الأساسية للبلاد خلال الحقبة العثمانية، وينتشر غرسها والاهتمام بها في كل المناطق الساحلية بداية من عنابة وسكيكدة وبجاية والبليدة وصولا إلى تلمسان في الغرب، وتبقى شجرة الزيتون أكثر شجرة تواجدت على سلسلة جبال الأطلس التلي كشجرة برية، أما في المزارع المخصصة لها فكانت تغرس الأشجار في شهر ماي ويتم جنيها في فصل الخريف من كل عام[2] .

وقال الرحالة فندلين شوصلر عن شجرة الزيتون أنها أعظم الثروات الزراعية في منطقة القبائل والهضاب العليا ويتم التقاطه سنويا في جماعات عائلية تشارك مجتمعة على طول القرى التي تتميز بغرسه، وبمجرد أن يسود الزيتون، ينفض من الأشجار، ويلتقط من طرف سكان القرى المختلفة، وتوجد أمام كل "دشرة" فوق ميدان واسع معصرتان أو ثلاث معاصر، ويعمل فيها كل العزاب من الذكور والإناث وهي تمثل أعياد بالنسبة لهم تختم بالرقص والموسيقى في بهجة كبيرة، وكما ذكرنا فهذه المعاصر متوفرة على مستوى كل قرية من القرى، ويتم تصفيته ونقله في قرب مصنوعة من جلد الماعز ويباع بالأسواق التي كان يلقى رواجا كبيرا فيها لتعدد استعمالاته الغذائية[3] .

وقد اهتم الفلاحون بغرس أشجار الزيتون التي كانت مهمة لهم في حياتهم قياسا بتعدد استعمال الزيت ومدى سهولة[4] الاعتناء بأشجار الزيتون، والتي لا تتطلب جهداً كبيراً طوال أيام السنة، فقد انتشرت معاصر الزيتون في مناطق القريبة من المزارع والتي كانت تنتج كميات كبيرة من

---

[1] –تحدث عن شجر الزيتون كل من الورتلاني والمجاجي. ينظر: الورتلاني، المصدر السابق،ج1، ص: 191، البيت رقم: 310، عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، ص: 211.

وذلك قبل أن تتعرض للإتلاف والحرق على يد جيوش الاستعمار الفرنسي. ينظر:

[2]–Peyssonnel, Op. Cit,P295 .

[3] –يقول حمدان خوجة عن الوجبة الأساسية للقبائلي:" غذاؤهم الشعير وزيت الزيتون والتين المجفف والبلوط". حمدان حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق، ص: 24.

[4] – فندلين شوصلر، المصدر السابق، ص:96.

زيت الزيتون. وبالإجمال[1] فان المتتبع لما باحث به الرحلات عن فلاحة الفواكه والخضر والأشجار المثمرة يجد تشابه على مستوى المناطق من حيث المنتجات، وتنوعها في كل المناطق فلا نجد أن فاكهة معينة انحصر غرسها في منطقة دون غيرها، فالتنوع كان سمة هذه الفلاحة، والملاحظ أيضا أن غرس الخضروات والفواكه كان في البساتين والحقول القريبة من القرى الآهلة على عكس الحبوب التي تزرع في السهول البعيدة.

ب- زراعة الحبوب:

إن واقع زراعة الحبوب في الجزائر لا يختلف عن فلاحة الخضروات والفواكه إلا في جزئيات قليلة، كون الثانية كانت تمارس في البساتين والحقول القريبة من القرى والمدن، أما الثانية فكانت تمارس في السهول الخصبة المنبسطة والتي تكون بعيدة نوعا ما عن القرى العامرة بالسكان، زيادة على نظم السقي، فالأول يعتمد على الري التقليدي بمختلف وسائله، أما زراعة الحبوب والبقوليات فهي تعتمد على الأمطار الموسمية.

إن الدارس للاقتصاد الجزائري خلال الحقبة العثمانية يجد أن الزراعة هي العنوان الرئيسي الذي تتصف به البلاد، والقاعدة الأساسية في بناء اقتصادها، وقد تميزت السهول التلية بزراعة الحبوب من شرقها إلى غربها، وتلك القريبة من السواحل بل وحتى السهول الداخلية في الهضاب وبين السلاسل الأطلسية، فكانت مناطق الأطلس التلي والهضاب الداخلية تنتج القمح الصلب الذي يقبل التجار على تصديره نحو الأسواق الأوروبية، أما المناطق الساحلية وبعض السهول المنخفضة فكانت تنتج قمح أقل جودة[2] . ولما كان القمح هو عنوان الاقتصاد بالجزائر خلال الحقبة العثمانية بتعدد مناطق زراعته ووفرته ونوعيته الممتازة، وفي هذا الشأن يقول أبو العباس الهلالي السجلماسي عن قرية

---

[1]-Peyssonnel, Op. Cit ,P 296.

[2]-نصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق ، ص: 58 .

بوسمغون[1]:" وفي هذه البلدة شعير جيد جداً وأخبرونا أنهم يعالجونه في الحرث وما بعده ويقاسون فيه جهداً...ونالت دوابنا بكثرة الشعير عيشاً رغدا "[2]، فقد ذكر بيسونال ناقلا عن الدكتور شو أن باي الغرب كان ينقل معه إلى دار السلطان كميات معتبرة من أجود أنواع بذور القمح ليتم استخدامها في مناطق أخرى بدلا عن البذور ذات النوعية الرديئة. قصد تحسين النوعية ورفع الإنتاج بشكل أكبر[3].

أما عن أهم المناطق لزراعة الحبوب فيعتبر الإقليم الشرقي أهم إقليم حسب المؤرخين والرحالة، فقد خصص بايسونال فصلا من رحلته لسرد ملاحظاته عن الزراعة في تونس والجزائر، وذكر أن أهم إقليم زراعي هو الإقليم الشرقي وخاصة المناطق المتواجدة بين قسنطينة وعنابة، ثم تليها سهول المتيجة في وسط البلاد وصولا إلى سهول الشلف ومعسكر وتلمسان في الغرب[4].

واشتهر بايلك الشرق بالدرجة الأولى أكثر من غيره بإنتاج الحبوب التي كانت تمثّل محصولا رئيسيا معدا للاستهلاك الداخلي والتصدير الخارجي، لذا عمل البايلك جاهدا للاستيلاء على الأراضي المنتجة للحبوب وضمها لملكيته[5] التي أصبحت من أملاك الدولة بنواحي قسنطينة والتيطري ووهران وغيرها من المناطق المنتجة لهذه المادة [6]، وبهذا فهي من أهم المحاصيل الزراعية وقد اشتهرت بها سهول عنابة، سطيف، بجاية مجانة، و قالمة، والى الجنوب تمتد أراضي السباخ التي

---

[1] – **بوسمغون:** بلاد ذات أشجار ومياه بمنطقة الظهرا نواحي البيض، سميت باسم شيخ من الأولياء الصالحين حل بها وهناك قبره، وبها ناس ينتسبون إليه، والبلدة ذات عنب حسن تضرب به الأمثال في هذه البلاد، وغيره من الأشجار قليل. ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص:548، الحضيكي، المصدر السابق، ص:83 ، محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى المصدر السابق، ج1، 193.

[2]– السجلماسي: المصدر السابق، ص: 131.

[3] –Peyssonnel, Op. Cit, P 271.

[4] –Ibid, P 260.

[5] –ناصر الدين سعيدوني : النظام المالي ...، المرجع السابق ،ص ص: 30–31.

[6] –حنيفي هلايلي :المرجع السابق، ص: 153.

تتلائم تربتها وقلة التساقط، وبها إنتاج الشعير خاصة في نواحي الحضنة وجهات الأوراس، حيث تمارس أيضا زراعة بعض الحبوب الجافة مثل الذرة والذرة البيضاء التي انتشرت زراعتها في المناطق التلية الخصبة أيضا[1]. وكذلك الحال في الغرب بنواحي غريس وقلعة بني راشد ومستغانم وتلمسان والتيطري والهضاب[2]، لكن رغم ذلك تبقى الجهة الشرقية هي الرائدة في زراعة الحبوب ولعل الدليل على ذلك يكمن في تمركز الشركة الملكية الإفريقية الفرنسية[3] بميناء عنابة لشراء منتجات البايلك وتصديرها إلى فرنسا عبر ميناء مرسيليا[4].

وكانت الحبوب التي ينتجها الفلاح الجزائري تخزن في مطمورات فلا تكاد توجد دار خالية منها في الديار الريفية بالدرجة الأولى، وهو نمط تخزين عالمي ولا يخص الجزائر فقط فكانت تحفظ فيها غلّة القمح وغيرها من المواد الغذائية لمدة طويلة دون أن تتلف أو تفسد. أما عن نصوص الرحلة التي وثّقت واقع زراعة الحبوب والبقوليات في الأرياف والبوادي التلية فهي متعدد، في كل الجهات، فقد ذكر الدكتور شاو مواقيت الحرث والخطوات الأساسية في الزراعة والوسائل المستخدمة، وقد نقل عنه الرحالة دي فونتين قوله في رحلته حيث يقول شاو: " كان الحرث في السهول يتم بداية من شهر نوفمبر وتحديد بعد تهاطل أول أمطار السنة في أواخر أكتوبر التي تنهي الحرارة الكبيرة التي تكون في الأرض، ودأب سكان الجزائر على الحرث باستخدام الحيوانات بأنواعها بين الثيران والبغال والخيول، وكان المحراث يتركب من خمسة قطع أساسية، على رأسه القطعة الحديدية المائلة التي تخترق الأرض،

---

[1] – فلة القشاعي : النظام الضريبي ...، المرجع السابق، ص ص: 9- 10 .

[2] – يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، ج 1 ، دار الهدى ، الجزائر ، 2009 ، ص: 517 .

[3] – **الشركة الإفريقية**: تأسست بين مرسيليا وعنابة بأمر ملكي سنة 1741 م، تقوم بتصدير المواد الأولية من حبوب وصوف وشمع وعسل ومرجان، مقابل رسوم جمركية . ينظر : ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ – العهد العثماني، المرجع السابق، ص: 75.

[4]– فلة القشاعي: النظام الضريبي ...،المرجع السابق ، 10 .

لمثبتة على قطعتين من الخشب الصلب المربوط الموصول بجسم الحيوان بجانبيه، وبعد رمي الحرث بخمسة عشرة يوم يتم تزويد التربة بالبذور وتقليبها من جديد بالمحراث"[1].

وأشار الرحالة بايسونال إلى ما ذكره شاو فيما يتعلق بخطوات زراعة الحبوب فقال: وجرت العادة أن تقوم القبائل البدوية بغرس البذور بعد أن تختار أفضل الأنواع لذلك خاصة بعد سقوط الإمطار في أول موسم الحرث في أكتوبر، ليتركها مدة خمسة عشرة يوم ثم يعود بعدها ليقوم برمي البذور، ويستخدم المحراث في تقليب التربة، لكن رغم ذلك تبقى مردودية زراعة القمح والشعير مرتبطة بشكل كبير بكميات التساقط خلال فصل الشتاء، لكن الفلاح الجزائري كان يقوم بكل ما يلزم ولكن الفيصل كان مع مؤشرات التساقط حتى يصل إلى أقصى مردود ممكن خلال شهر ماي. وقد اشتهرت منطقة القبائل بالقمح الصلب والنواحي الشرقية بالقمح اللين"[2]، فكان ما ذكره بيسونال يعتبر منهجية زراعية كان يقوم بها الفلاح والمزارع الجزائري في كل المناطق التي تتميز بهذه العوامل الطبيعية والمناخية.

لقد ساعدت الظروف الطبيعية المتوفرة والمتمثلة خاصة في الأحوال المناخية الملائمة والتربة الخصبة والمياه الكافية في جعل النشاط الفلاحي يحتل مكانة هامة في اقتصاد الجزائر وازدهاره وتنوع محاصيله[3]خاصة بايلك الشرق الذي يعد الإقليم الزراعي الأول، وقد ذكر الورثلاني إعجابه بالزراعة بناحية قسنطينة[4] فقال عنها :" واسعة الأرزاق كثيرة الارتفاق ممدودة الإنفاق كثير فيها اللحم

---

[1]–Thomas Shaw, **Voyages de M.Shawdans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant. contenant des observations géographiques**, physiques,philologiques, et meléessur les royaumes d'Alger et de Tunis, sur la Syrie,l'Égypte et l'Arabie Pétrée,T1,1743, P285/ Desfontaines, Op. Cit, P264.

[2] –Peyssonnel, Op. Cit, P268

[3] – فلة القشاعي، النظام الضريبي، المرجع السابق، ص ص: 9- 10.

[4] –**قسنطينة**: هي مدينة قرطاجية الأصل، تقع على ثلاثة أنهار عظام، عرفت باسم سرته أو سيرتا وهو اسم كنعاني فينيقي كانت عاصمة لنوميديا، ثم أصبحت مستعمرة رومانية ومركزاً لشحن الحبوب بها، خربتها الحروب الأهلية سنة311م أعاد بناءها قسطنطين الأول في أول القرن 4م، وسميت باسمه وبالاستعمال العربي خففت. البكري، ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، ص 63، وزان الفاسي، المصدر السابق، ص:55، 56، أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص: 68 .

والسمن والقمح والتين، ما أحسنها من زرع ودرع وضرع تأتيها القوافل من كل النواحي قليلة الفواكه كثيرة المزارع محصّنة تحتها واد كبير وماؤها عذب منه يشربون إذ ينقلون مائة إلى الديار وفيه يسقون ويستقون ويغسلون ويغتسلون"[1]، وان كان ذكر الورثلاني وصفاً عاماً شمل الخضر والفواكه والمياه والمنتجات إلا انه أشار إلى تنوع المنتجات الفلاحية، وهو مؤشر عن المنطقة بأنها منطقة زراعية بالدرجة الأولى.

ومما يشد على قول الورتلاني ما ذكره المكناسي عن المنتجات الزراعية، التي تنتجها سهول الإقليم وتدخل إلى الأسواق بالمدينة، فوفرة المنتوج في السوق يؤكد على قوة الإنتاج الفلاحي خارج المدينة في الأرياف المحيط بها حيث يقول: " وهي أي قصمطينة مؤسسة على ربوة، يمر بأصلها هذا الوادي ومنه يشربون، يحمل منه الماء في القرب الكبار على الدواب للمدينة،كلها وحماماتها ومساجدها وهي مدينة متوسطة يسقون أسطحة بيوتها بالقرمود، ولعله من أجل الثلج فهي شديدة البرد وعليها وارد كثير وعمارة زائدة[2]"

وعن سهول متيجة يقول الدكتور شاو عن مزارع البليدة: "وتتميز مزراع البليدة القريبة من جبال الأطلس التلي بالاخضرار، اغلب فصول السنة وبالغرس الواسع وتتميز بكثرة الفواكه ذات الجودة العالية، ومياها العذبة التي تنبع من ينابيع جبال الأطلس التلي[3].

وفي السهول الغربية للبلاد أفردت نصوص الرحلة لها توصيفاً لواقعها الزراعي، وخير من تحدث عنها الرحالة أندري بيسونال، الذي زار بايلك الغرب وقدم ملاحظاته ومشاهداته في كل المناطق التي مرّ بها، فيقول عن سهول مليانة[4]: "وتتميز سهول مليانة بالخصوبة العالية والانبساط، وهي ذات

---

[1] – الحسين بن محمد الورتلاني، ج2، ، ص: 791 .

[2] – المكناسي، المصدر السابق، ص" 330.

[3] –Thomas Shaw, Op Cit, P290.

[4] – **مليانة**: مدينة أزلية عامرة آهلة، بناها الرومان، كان اسمها "ماكنانة" ولكن مع الاستعمال العربي حرف اسمها، تقع عل سفح جبل زكار الغربي على ارتفاع (720م) على سطح البحر، اختطها زيري بن مناد في رجب 384هـ/994م وأسكنها ولده

مردودية إنتاجية عالية في الحبوب، بشكل يضاهي أو اقل بقليل من سهل المتيجة، ويزرع بهذه السهول القمح الأصفر الصلب وحصاده وفير، وان تأمل هذه الخيرات التي تنتجها ثروة هذه المنطقة، تعطي متعة كبيرة للزائر.. والأمر ذاته في السهول الممتدة بين عين الدفلى وحدود الشلف[1]، والأمر ذاته بعد الشلف[2]، فقد أشار إلى مزارع سيدي عابدي الآهلة بالسكان، فيقول "ومزارع سيدي عابدي بالضواحي مزروعة جيدا ومأهولة بالسكان إلى حد ما وتدر محاصيل جيدة جدا وهذا على امتداد خمسة أماكن أو أكثر بالقرب منحدرات الجبال"[3].

وفي أقصى الشرق برزت سهول الهبرة وسهول غريس بمعسكر والحصاد الوفير الذي تميزت به ويصفهما بيسونال بقوله: "ونشطت الزراعة بالقرب من منطقة أرزيو في الغرب الجزائري بسهول سميت بالهبرة، وهي سهول عرفت ازدهار زراعي وحصاد سنوي بشكل دائم...وفي غريس تتوفر معسكر على سهول خصبة، منحدرة بعض الشيء وبها عدة تيارات مائية تتدفق من الجنوب إلى الشمال، تقطنها قبائل عربية تمارس زراعة القمح والشعير بشكل جيد"[4].

=بلكين، تميزت بكثرة الخيرات ووفرة الغلاة لها نهر يسقي أكثر مزارعها وحدائقها وجناتها كما لها حظ من نهر شلف، لها سوق جامعة ومنها إلى سوق كران مرحلة، وهي على بعد مرحلة من المدينة الخضراء، وفي جنوبها جبل الونشريس، أهلها أغلبهم صناع نساجين أو خراطين بالإضافة لحرفة الفلاحة، ابن حوقل، صورة الأرض ص:89، القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت: دار صادر، ص:273، أبو رأس الناصري، مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، و33، السلاوي، **الإستقصا لدول المغرب الأقصى**، تح:جعفر الناصري، ومحمد الناصري المغرب: دار البيضاء، ط:1954م، ج1، ص:213، محمد الحاج صادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ص:20.

[1] –Peyssonnel, Op. Cit, pp149 -150.

[2] – **شلف**: مدينة قديمة أزلية عامرة، فيها آثار أولية، كما أنها على نهر ينسب إليها، كانت في العهد البكري تسمى بشلف بني واطل لزواغة عرفت بسوقها الرائجة التجارة، وآبارها الوفيرة التي تعينهم على الزراعة، البكري، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، الحميري محمد، روض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت: مطابع هيدلبرغ، ط2 :1948م، ص:343 .

[3] –Peyssonnel, Op. Cit, P155.

[4] –Ibid,PP173. 185.

ج- الزراعة النقدية:

كما عرفت البلاد الجزائرية الزراعة التجارية التي كانت تستهدف التصدير كالقطن والكتان والأرز والتبغ، وكان القطن يزرع في سهول مينا والشلف وجهات مستغانم، ويوجه محصوله إلى المدن لمعالجته وصنع الملابس، أما التبغ فكان يزرع في نواحي عنابة وفي جهات دار السلطان وفي بعض الواحات الصحراوية، ويضاف إلى هذه المزروعات ذات الطابع التجاري، إنتاج العسل والشمع التي كانت تشتهر به الجهات الشرقية من الجزائر، " إقليم عنابة والقالة " والأقاليم الجبلية ببالبك الغرب، وقد كان الأهالي يستهلكون جزء منه ويبيعون الباقي لوكلاء البايلك، وكان الأرز ينتج بنواحي مليانة وبالقرب من معسكر ومستغانم والجهات الغربية من متيجة، وقد بلغ ما كان ينتج منه أواخر القرن الثامن عشر، ستة آلاف صاع [1].

وقد خصَّ الرحالة بايسونال زراعة الأرز في وادي الشلف بنص جاء فيه: "وبالقرب من وادي شلف وبالمسارات الفرعية التي تنبثق عنه، وجدت بعض القنوات المائية التي كانت تستخدم للري وتجميع المياه، وهو الأمر الذي مكّن سكان تلك المناطق من زراعة الأرز الذي يتطلب كميات كبيرة من المياه التي وفرها وادي الشلف دائم الجريان، فكان يروي الأراضي بالمياه لأيام طويلة مند شهر ماي، إلى غاية شهر أوت ويتم زرع الأرز والتربة مغرورقة بالمياه، وهو الأمر الذي تتميز به سهول الشلف عن غيرها من مناطق البلاد، رغم وجود زراعته في أماكن أخرى إلا أن النوعية والإنتاجية تتميز بها سهول الشلف بشكل يشبه زراعته بمصر قرب نهر النيل"[2].

3- المياه ونظم السقي في السهول والأرياف التلية:

اختلف نظام الري الفلاحي في الجزائر العثمانية واختلف بين منطقة وأخرى تبعاً للخصوصيات الطبيعية والجغرافية كتعدد الأنهار والأودية دائمة الجريان أو العوامل المناخية وكميات التساقط السنوي

---

[1] -ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي ، المرجع السابق ، ص ص 59 ، 60.

[2] -Peyssonnel, Op. Cit ,P158 .

للأمطار وعليه يمكن تفصيل نظام الري إلى الري في السهول التلية والري في الواحات والبوادي الصحراوية.

اعتمد نظام السقي في السهول والأرياف التلية على المياه السطحية التي صدر من الجبال أو الأودية والنهار دائمة الجريان، وقد ذكر بايسونال ذلك فقال: شكلت سلسلة الأطلس التلي المنتشرة من شرق البلاد إلى غربها، عاملا أساسيا في ازدهار الزراعة، وذلك من خلال انتشار الحقول والمزارع المتاخمة لهذه الجبال، لكون هذه الأخيرة تتوفر على ينابيع مائية تساعد على استصلاح الأراضي القريبة واستخدامها في زراعة الأشجار المثمرة بالدرجة الأولى، فضلاً عن كونها المساهم الرئيسي في وجود الغابات بالأطلس التلي"[1]، وهو الأمر الذي أكده دي فونتين حيث يقول: "وكان نظام السقي في السهول التلية يعتمد على الينابيع المائية والأودية التي تجري انطلاقاً من السلسلة الأطلسية التلية نحو الساحل، فكانت هي المورد الرئيسي للسقي في الزراعة[2]، وفي الغرب قرب وهران يتحدث مارمول كربخال عن جبل أغبال الذي قال أن به ثلاثة قرى ريفية وبه بساتين وعين مائية جارية، يتميز بغرس أشجار الليمون الحلو والحمض والبرتقال بالإضافة إلى القمح[3]، وهو الأمر الذي يبين أن الينابيع الطبيعية كانت المصدر الرئيسي للري في الحقول والبساتين الريفية.

وعلى مستوى الفحوص كفحص مدينة الجزائر وقسنطينة كان سقي البساتين والمزروعات تحت إشراف السلطات المحلية عبر مد السواقي من الينابيع والعيون القريبة، بتكليف أحد مشايخ العرب وخوجة العيون على إدارته بين السكان وحتى إلى داخل المدن، ويرتكز عملهم في فحص كفحص مدينة الجزائر مثلا على استغلال الوديان التي تعرفها المنطقة كواد المغاسل ووادي الطارفة ووادي الخميس وغيرها، وينابيع طبيعية وعيون عين السخاخنة والحامة وعين سليمان وعين مصطفى باشا

---

[1] –Peyssonnel, Op. Cit,P261.

[2] –Desfontaines, Op. Cit, P263

[3] – مارمول كرخال، المصدر السابق، ج2، ص:353.

وغيها[1]، فكان ضبط السقي وتنظيمه كبيرا قرب المدن والمناطق العامرة بالسكان وبقل كلما اتجهنا نحو السهول والأرياف قليلة السكان. إذ تذكر بعض الدراسات أن نظام السقي في فحص مدينة الجزائر كان متطوراً نسبياً مقارنة بمعارف تلك الفترة وهو ما سمح بإقامة زراعية كثيفة للأشجار والخضار والحبوب في المناطق القريبة من دار السلطان، معتمدة في ذلك على مجموعة كبيرة من الآبار والعيون والسواقي والقنوات والصهاريج، استغلت بكفاءة عالية. بينما لا نكاد نقف على أي إشارة تدلنا على استغلالها من طرف الفلاحين خلال تلك الفترة، بل العكس من ذلك تماما فإننا على إشارات مختلفة في كتب الرحالة الغربيين والكتابات المحلية خلال تلك الفترة بندرة استغلال هذه الموارد، حيث تشير إلى جهل السكان لطريقة استغلال مياه المنابع[12].

أما في الأرياف والسهول الواسعة والتي كانت مستهدفة بالدرجة الأولى في زراعة الحبوب والبقوليات، فان نظام الري فيها يختلف عن الفحوص والحقول القريبة من القرى التي تعتمد الينابيع والعيون، فنجد الاعتماد الرئيسي على مياه الأمطار الموسمية التي تنطلق من أواخر أكتوبر وحتى شهر أفريل بمعدل تساقط يتراوح ما بين 30 إلى 60 ملم سنوياً حسب ما ورد في الرحلات.[3]

وحتى ريّ وسقي منتجات الزراعية النقدية كالذرة والشعير والتبغ تعتمد على الأمطار الموسمية، حيث أنها كانت تمارس في عدة مناطق، وكانت تهيأ الأرض لها بالمحراث يتبعها الزرع مع اقتراب موسم الأمطار، وقد تزرع قبل ذلك في المناطق التي تتوفر على نظم سقي وقريبة من الأودية والينابيع الجبلية التي تمدها بالكميات التي تحتاجها النباتات ريثما يحل موسم الأمطار[4].

---

[1] –بلبراوات بن عتو، المرجع السابق، ص: 235.

[2]–ينظر: أو.هابنسترايت، المصدر السابق، ص: 60، خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص ص: 75 ،76.

[3] –Desfontaines, Op. Cit, P263.

[4] –Peyssonnel, Op. Cit,P283.

المبحث الثاني: الفلاحة في الواحات والبوادي الصحراوية

إن الحديث عن الفلاحة الصحراوية[1] يقودنا إلى معرفة أنماط ممارستها وتمركزها في الصحراء الجزائرية والمميزات العامة للنشاط، إضافة لمسألة الماء في هذا المجال، لكونه العصب الذي تتمحور عليه الزراعة من جهة، ولندرته في المناطق الصحراوية من ناحية ثانية، فالأمر يتطلب معرفة تفاعل الإنسان الصحراوي في نشاطه الفلاحي مع مسألة المياه، وعليه فالمقام يتطلب معرفة الفلاحة الممارسة داخل الواحات أولاً، ثم الانتقال إلى الزراعة التي كانت تمارس في البوادي قرب الأودية والينابيع بعيدا عن الواحات المأهولة بالسكان، ثم الانتقال إلى موقع أشجار النخيل في الفلاحة الصحراوية لمحورية هذه الشجرة في هذا النشاط فالإشارة إلى نظم الري والسقي التي كانت تعتمد بشكل عام داخل وخارج الواحات.

1-الواحات الفلاحية:

توزعت الفلاحة والزراعة بمختلف الواحات المنتشرة في كامل ربوع الصحراء من شرقها إلى غربها مرورا بوسطها، غير إن الفترة المدروسة وهي الحقبة العثمانية نجد فيها إشارات لواحات بعينها أكثر من غيرها، وذلك يرجع لعدة أسباب من أبرزها مستوى التنظيم الداخلي الذي كانت عليه تلك الواحات، إضافة إلى طبيعة التمركز السكاني بها، وكون أغلبية سكانها متمركزون بالواحات طوال السنة، ولا يخرج اغلبها للرعي في البوادي لما تتطلبه هذه الحرفة من تنقل وترحال.

إن الفلاحة الصحراوية لم تعرف نشاط بالتخصص عدى غرس أشجار النخيل، فكانت تمارس في بساتين خاصة بالأفراد والخواص، يتم فيها غرس مختلف المزروعات غالبا، وتكون الخضر الموسمية في طليعة ما يزرع بالإضافة إلى الفواكه والأشجار المثمرة، والنصوص التي تدلّل على ذلك من أدب الرحلة كثيرة ومتعددة، فالعياشي يعطي صورة متكاملة عن واقع الزراعة وعن الإمكانيات الزراعية في

---

[1] -كثيرًا ما كان يمر الرحالة على الحواضر الصحراوية فيصور لنا الواقع الفلاحي والإمكانات الفلاحية لكل حاضرة، فالصحراء الجزائرية لها مقومات فلاحية كبيرة، أرض خصبة، ماء تحت الرمال كثير.

الحواضر الصحراوية، حيث يذكر في منطقة توات[1] أنه يكثر بها التمر وهو أنواع متعددة [2]، وعن خصوبة أراضيها العياشي أيضاً يقول:"من ربا[3] إلى فجيج[4] فسار بنا في أرض سهلة مخصبة[5] " كما يذكر الدرعي ما شاهده من بساتين في واحات توات فيقول:" آبا رزق وجلسنا حتى روت الإبل واستقى الناس الماء، صلينا الظهر وبه عين عذبة غزيرة وعليها نخيل ملتفة وآثار عمارة دائرة...ثم منه وأصبحنا على البئر الذي يخنق أم القرار الغربية، ولما توسطنا في الخنق أهل أم القرار الغربية بجماعة وأكثروا من الخوخ وأكل كل من حضر حتى شبع وحمل من أراد، وبعثنا لبعض إلى الأولاد وأتوا بالباذنجان وشيء من القرع...وخوخهم من أجل الخوخ وأطيبه...وتلقانا بعض من أهل أم القرار القبلية واشتكوا الحمى وذكروا أنها أضرت بهم كثيراً ودعونا الله لهم بالعافية الدائمة وذكروا أنها أضرت بهم كثيراً ودعونا الله لهم بالعافية"[6]. ونفس المقال قاله محمد بن عبد السلام الناصري عن أم القرار الغربية:" بلادها ذات نخيل وفواكه ومياه، ما أكبر بصلهم وألذ خوخهم"[7]. وعلى مقربة منها بواد القصب ببلدة يقال لها تيوت، يقول عنها نفس الرحالة:" بلدة ذات أشجار وعنب وتين ورمان وخوخ وبعض نخيل، ومياه دافقة عذبة، وأرض حرث على الساقية"[8].

---

[1] –قد ذكر قرى تسابت، جنوب الدغامشة على نحو 30 كلم من وادي الساورة، وهي مجموعة من "القصور" ومنها "عريان الرأس". ينظر: مولاي بلحميسي: **الجزائر من خلال الرحالة المغاربة**، المرجع السابق، ص:69.

[2] –ينظر: المرجع نفسه، ص: 69، محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص: 192.

[3] –**الربا**: يقال ارباوات بالجمع، وبه عيون ماء لاباس بها، وعليه بلدتان، بهما عيون وآبار عذبة يسكنها أولاد سيدي الشيخ، مع من أنضاف إليهم من أولاد زياد من حميان أحدهما يدعى قصر الريح. ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبر، المرجع السابق، ص: 197.

[4] –**فكيك**: كما تسمى فجيج تبعد عن القنادسة مسيرة 5 أيام، وهي قرى كبيرة ونخيل وفواكه، ترخص فيها الثياب وفيها قباب شيوخ أمثال: الشيخ سليمان بن بوسماحة، وهي من عمالة المغرب. ينظر: الحضيكي، المصدر السابق، ص: 83.

[5] –العياشي، لمصدر السابق، ج2، ص:549.

[6] – أبو العباس الدرعي، المصدر السابق، ص127.

[7] –محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص: 192.

[8] – المصدر السابق، ج1، ص ص: 192، 193.

فكلام كل من الدرعي والناصري يبرزان الفلسفة الزراعية بهذه الواحات الغربية للصحراء حيث التمازج والتنوع في العمل من غرس للنخيل وأشجار الخوخ والفلاحة الموسمية كزراعة البادنجان وسائر الخضر، ويؤكد ابن السراج" هذا التنوع في المنتجات الفلاحية حيث يقول عن بلاد توات: بلد طيبة كثيرة الزرع والثمار المختلفة بالجنس والنوع[1]".

وأفرد السجلماسي وصفاً مستفيضاً عن الفلاحة والخضروات وزراعة الشعير والقمح، ووفرة التمور والنخيل[2]، حيث يقول عن منطقة بوسمغون: " وفي هذه البلدة شعير جيد جدا وأخبرونا أنهم يعالجونه في الحرث وما بعده ويقاسون فيه جهدا، ثم ارتحلنا من هناك غدا وقد نالت دوابنا بكثرة الشعير عيشا رغدا[3]" وهذا الوصف يشترك فيه مع العياشي في رحلته.

وفي المناطق الوسطى من الصحراء لا يختلف الأمر عن واحات توات، فنجد واحات الأغواط وما جاورها وواحات منطقة غرداية وعين صالح وإقليم توات، فبجنوب أولف قرية تسمى توات الحناء عرفت بإنتاجها للحناء حتى سميت بها[4]، وقد عرفت ممارسة الزراعة داخل الواحات عبر بساتين مخصصة ومهيئة لهذا الأمر من خلال وجود عيون وآبار جوفية للسقي بالدرجة الأولى، فقد ذكر الحضيكي واحة عين ماضي[5] بالأغواط فقال عنها "قرية يقال لها عين ماضي فيها أجنة تين وعين محفوفة بالحوائط والزروب، وللقرية سور ممنوع"[6] ، وقد ذكر الدرعي أيضا اشتهار واحات عين

---

[1] –ابن السراج، المصدر السابق، ص: 79.

[2] –فاطمة بلهواري، وصف الجنوب الصحراوي الجزائري في ضل الحكم العثماني من خلال مخطوط رحلة آبي العباس الهلالي السجلماسي، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، المرجع السابق، ص: 42.

[3] – فاطمة بلهواري، المرجع السابق، ص:42.

[4] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص:94.

[5]– **عين ماضي**: وهي بلدة عامرة بأهلها، وغالبهم شرفاء من أهل البيت من قبيلة بالظهرا تعرف بالتجاجنة، يحفظون القرآن وتقدم في أسلافهم العلم. ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج1، ص ص:203،204، الحضيكي،المصدر السابق، ص ص:83،84.

[6]– الحضيكي، المصدر السابق، ص ص: 83،84.

ماضي بوفرة غرس أشجار التي[1]، ويشاركهم نفس الوصف محمد بن عبد السلام الناصري:" وبلدتهم هذه حصينة، مبنية كلها بالحجارة، دارت بها الأجنة والحدائق وفتحوا لها الأبواب من داخل البلد ومن خارج، وهي مشتملة على فواكه وما أكثر لديهم التفاح، تسقى الأجنة كلها من عين واحدة خارجة من سفح جبل بقربهم، عذبة باردة"[2]. وبالقرب من عين ماضي أفردت نصوص الرحلة وصفاً لواحات تاجموت حيث يقول الدرعي:"تجموت...وهي قرية جامعة لاباس بها، بها جنات وبساتين وفواكه... "[3] ، وهو ما يشبه وصف واحة عين ماضي.

وفي عاصمة المنطقة واحة الاغواط يكاد يكون وصف الرحلات متطابقاً بمشاهدات الرحالة فالعياشي أشار إلى وفرة النخيل ووفرة الفواكه حيث يقول: "قرية ذات نخيل ومياه وفواكهها على يمين الطريق"[4]، كما عرفت حسب محمد من عبد السلام أيضاً بأنها بلد واسعة ذات حرث على الماء والمطر، وبأنها ذات أشجار منوعة، غير أنها قليلة الماء في الصيف [5]، ويقول الدرعي عن وفرة الفواكه بها أسوة بمقولة العياشي: " الأغواط هذه بلدة واسعة ذات الأراضي الواسعة بها محاريث كثيرة وفواكه متنوعة، غير أنها كثيرة الرياح والرمال... "[6] ويضيف في موضع آخر:"الأغواط...وضيف أهل الأغواط الركب بالطعام، والتين والفواكه والخوخ كثر الله خيرهم، وأسبغ عليهم نعمه..."[7] ، فالكرم الذي تميز به سكان واحات الاغواط، يعبر بشكل غير مباشر عن المنتجات الفلاحية التي يستهدفها

---

[1]- أبو العباس الناصر الدرعي، الرحلة الناصرية، ص: 132.

[2]- ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص ص: 204، 203.

[3]- أبو العباس الناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 132.

[4]- العياشي، المصدر السابق، ج1، ص:85..

[5]- ويسكن أهلها على واد أمز، وهذا الوادي هو الذي وصل الزاب يتصل هناك بواد أجد، دارت بها الرمال لا تفارقها عواصف الريح .ينظر :أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص132:، محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1،ص.206 :

[6] –الدرعي، المصدر السابق، ص:133.

[7] –المصدر نفسه، ص133.

السكان بنشاطهم. كما وصفها ابن الدين الأغواطي بكثرة منتجوها من الفواكه وتنوعها مثل: التين والعنب والسفرجل والرمان والأجاص[1].

وفي الناحية الشرقية من الصحراء نجد واحات الزاب[2] المعروفة بثراها وغناها وتنوعها لكونها همزة وصل رئيسية بين ايالة الجزائر والايالة التونسية، على مستوى الطريق البري القادم من شمال الصحراء والطريق المتجهة إلى الجنوب نحو بلاد السودان الشرقي، وأهم مدنها وحواضرها مدينة بسكرة[3]يقول عنها أبو العباس الدرعي أثباتاً لأهميتها الإستراتيجية نقلاً عن كتاب الاستبصار في أخبار الأمصار " عجائب الأمصار:" وبسكرة كورة فيها مدن كثيرة وقاعدتها بسكرة، وهي مدينة مصورة عليها خندق، وبها جامع، ومساجد، وحمامات كثيرة وحواليها بساتين كثيرة، وفيها غابة كبيرة، مقدار ستة أميال فيها أجناس الثمار منها جنس يعرف بالكنبا " الكسب " وهو الصيحاني، يضرب به المثل لفضله على غيره وجنس يعرف بالبازي، أبيض أملس، كان عبيد الله الشيعي يأمر عماله بالمنع من بيعه، والتحظير عليه وبعث من هنالك منه إليه، وأجناس كثيرة يطول ذكرها"[4] .

---

[1]- ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 81.

[2] -**الزاب**: يقع إقليم الزاب في وسط مفازات نوميديا ، يمتد من تخوم مسيلة غرباً، إلى جبال مملكة بجاية شمالاً، ويمتد شرقًا إلى بلاد جريد، وجنوباً إلى تقرت وورقلة، يشمل هذا الإقليم خمس مدن كبرى وعدداً كبيراً من القرى ومن بينها:بسكرة، البرج، نفطة، طولقة، دوسن وولايتي لأوراس والمدية، الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ص ص:138، 141.

[3] – **بسكرة** :مدينة كبيرة عامرة، أسست أيام الرومان، ومنهم من يقول مدن كثيرة قاعدتها بسكرة مركز بلاد الزاب وتعتبر من أحسن المدن لكثرة مرافقها وأسوارها وخصبها ولتوسطها بين التل والصحراء، بنيت في الإسلام، أهلها محبون للعلم يأخذون بمذهب أهل المدينة، بها ثلاث أبواب: منها باب المقبرة وباب الحمام، حولها قبائل بربرية من سدراته، وبنو مغراوة، آبارها وبساتينها ومنتجاتها عديدة منها: التمر والزيتون، كما يوجد بها مساجد وحمامات كثيرة، من أبرز علمائها: أبو ذؤيب الهذلي، ابن خويلد البسكري، البكري المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، ص: 52، الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ص: 139، أبي الحسن بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص:126، ياقوت لحموي، معجم البلدان، ص:68 .

[4] - الدرعي، المصدر السابق، ص: 145.

فمن خلال هذا الوصف وغيره مما ذكره الرحالة فبسكرة[1] والتي تعتبر من أهم الحواضر الصحراوية التي تتوفر على مقومات زراعية كبيرة، فهي كما ذكر العياشي من أعظم المدن التي جمعت بين التل والصحراء، ذات نخيل كثير وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد، وماء جار في نواحيها، وأرحاء متعددة، ومزارع حناء إلى غير ذلك من الفواكه والخضر والبقول، وكثرة اللحم والسمن في أسواقها، حيث أن تمرها من أطيب التمور"[2]، وهو كثير، كما يؤكد العياشي على أن السمة البارزة في منطقة الزاب على مستوى النشاط الفلاحي وهي وفرة أشجار النخيل التي تكاد تطغى على أي نشاط فلاحي آخر بالإقليم، حيث يقول: "وجاوزنا ذلك اليوم على بلاد كثيرة النخيل والأشجار في شمال الطريق تعرف بالزاب...وبتنا في خلاء بينها وبين مدينة بسكرة على ساقية من ماء تجري"[3]. فلذا نجد عبد السلام الناصري يسميها بسكرة النخيل لكثرة النخيل فيها[4]، فبسكرة كانت مركز راحة واستراحة للحجاج[5]، حيث يذكر الحضيكي أن الركب أقام ثلاثة أيام ببسكرة ووصف كثرة النخيل والأجنة والمزارع المتعددة فيها[6].

---

[1]- **بسكرة** : دخل العثمانيون مدينة بسكرة نهائياً سنة 960هـ/1552م، بقيادة الباشا صالح رايس، وأصبحت بعد ذلك من أعظم المراكز التجارية، غير أن العياشي يصفها وصفاً مختلفاً على عهده فيقول: « ما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقاً وغرباً أحسن منها ولا أحصى، ولا أجمع لأسباب المعاش إلا أنها ابتليت في القرن 11هـ، بتخالف الترك عليها، وعساكر الأعراب، فيستولي عليها هؤلاء تارة ، وأولئك أخرى إلى بني الأتراك حصناً على رأس الماء الذي يأتي إليها فتملكوا البلاد، وأضروا بأهلها حتى أشرفت على الخراب»، العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص ص: 440، 441، مولاي بالحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1979م، ص: 101، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص: 186.

[2]- ينظر: العياشي، ج2، ص ص: 440، 441، عبد الرحمان بلاغ، **الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب**، مكتبة الرشاد للنشر والتوزيع، الجزائر، ع 04، جوان 2013م، ص:511.

[3]- العياشي، المصدر السابق،ج1، ص: 80.

[4] - عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص: 220.

[5]- فاطمة بلهواري، المرجع السابق، ص:43.

[6]- الحضيكي، المصدر السابق، ص:86.

2- الفلاحة قرب الأودية:

إن الأسلوب الثاني الأكثر ممارسة في الفلاحة والزراعة الصحراوية هو ممارستها خارج الواحات والمناطق العامرة بالسكان، ومرد ذلك تتبع الفلاحين لمراكز تواجد المياه وسهولة الحصول عليها، فكان عليهم استخدام المناطق التي تعرف بوجود ينابيع مائية أو بحيرات مؤقتة، تركد فيها مياه الأمطار، أو تلك القريبة والمحاذية لمجرى الفيضانات والسيول الموسمية، التي توفر كميات معتبرة من المياه للسقي خاصة، الأشجار التي لا تتطلب سقي متواصلا بالماء كالنخيل، هذا من جهة ومن جهة أخرى لكون المناطق القريبة من مجاري الفياضانات، تكون المياه الجوفية بها قريبة من سطح الأرض، فيسهل على الفلاحين حفرها وتوظيف مياهها في عملية السقي التي تحتاجها المزروعات من خضر وفواكه وأشجار مثمرة.

وقد قدمت النصوص الرحلية وصفاً للاماكن التي نشط بها سكان الصحراء، خارج الواحات الآهلة بالسكان شأنها شأن وصف الزراعة التي كان تمارس داخله، فقد اشتهرت أسماء الأودية على طول الطرق الصحراوية، سواءً الجنوبية أو طرق السهوب، فأهمية مياه الأودية تكمن كلما اتجهنا جنوبا وهذا لصعوبة التضاريس والمناخ، فرحلة العياشي تعتبر فهرسة للأودية التي مر بها في الصحراء الجزائرية، فهو يعطي صورة متكاملة عن الأودية انطلاقا من وادي جير[1]، وادي مقيدن والذي سماه العياشي مكيدن والذي فيه معاطن المياه، حيث امتدحه العياشي لكثرت الماء فيه على لسان عرب تلك الناحية: واد مكيدن مانعطش فيه كل يوم نجي على الماء[2].

كما قدم العياشي وصفاً للبساتين والحقول التي كانت قرب مجرى الوادي في منطقة بني عباس بالجنوب الغربي:" ونزلنا قرى بني عباس، وهي ثلاث قرى متصلة في جبل صغير على شفير الوادي،

---

[1]- **وادي جير**: ويسمى اليوم وادي تقير، حيث وصفه العياشي على أنه واد كبير، كثير الأشجار، قليل الأحجار، تجتمع فيه السيول من أماكن بعيدة. للمزيد ينظر: أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 76.

[2]- نفسه، ص: 107.

فيها نخل كثير وفاكهة وبساتين حسنة فيها ساقية من الماء الجاري العذب"[1]، يقول السراج عن منطقة توات:" بني أركان بلد طيبة كثيرة الزرع والثمار المختلفة بالجنس والنوع، ذات عيون جارية وأنهار على مر الليالي والليالي والنهار"[2]، وبتيميمون يصل الماء إلى وسط البلدة حيث يحضرونه في الأنابيب[3]، وفي نفس المسلك للشطر الثاني من الطريق الصحراوي الجنوبي الذي يمر على صحراء ازكر القاحلة يصور لنا السراج معاطن الماء والأودية حيث يقول: "نزل على مورد يقال له واد تاخملت... ذي أشجار كثيرة مختلفة الأجناس"[4]. أما الطريق العرضاني الأوسط فهو كثير الأودية، دائمة الجريان انطلاقا من وادي الساورة[5]، إلى وادي غسران في الجنوب الشرقي، فجغرافية المنطقة التي هي بين الأطلس التلي والأطلس الصحراوي رسمت طبوغرافيا للأودية، ومن أمثلة هذه الأودية: واد الحجاج، حيث يقول الناصري: "وجدانه ممتلئ بالأمطار"[6].

والإشارات كثيرة كذلك في المناطق الوسطى للصحراء الواقعة بين الأطلس التلي والجنوبي في شقه غربي، مثل: الأغواط[7]، بوسمغون[8].

---

[1] – العياشي، المصدر السابق، ص: 78.

[2] – ابن مليح، المصدر السابق، ص:79.

[3]– ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص:93.

[4]- ابن مليح، المصدر السابق، ص: 32.

[5]- قادة الدين، (أنماط تواجد الماء في الصحراء الجزائرية وطرق استغلاله من خلال المصادر التاريخية)، **في مجلة قضايا تاريخية**، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، ع7، 2017م، ص: 71.

[6]– عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص: 70.

[7]– **الأغواط**: واحة جزائرية تبعد عن العاصمة الجزائر 400 كم، تنتشر على الضفة اليمنى لواد مزي، موقعها الفلكي على خط 33-48 درجة شمالا، وخط طول حولي 3 و53 شرقا، حيث تعددة أصل كلمة الأغواط، فمنهم من يرجعها إلى أصل كلمة غوط وتعني المنزل المحاط بالبساتين، ومجموع غوط أغواط.للمزيد ينظر: فاطمة دحاج: **مجتمع الأغواط خلال القرن (13هـ/19م) من خلال الكتابات الفرنسية "دراسة تاريخية"**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، تخصص تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، إشراف: محمد عب الرؤوف ثامر، جامعة الوادي، 2019/2018م، ص ص: 21، 22.

[8]– **بوسمغون**: تقع في الجنوب الغربي الجزائري في ولاية البيض، تبع 160كم عن مقر الولاية، تقع بين خطي عرض 32-33 درجة بالقرب من خط غرينتش، وقد سميت على اسم ولي صالح. للمزيد ينظر: منى دحماني: **قصر بوسمغون بولاية البيض**

عين ماضي[1]، قد ذكر الدرعي قرى على سفح الجبال قريبة من مجاري الوديان قرب الأغواط:"قرية على سفحة الجبل على يمين الذاهب مشرفا على واد يسيل ماء، ذات أشجار وأنواع من الفواكه"[2]، ويقول ابن الدين الأغواطي أن وادي امزي يقسم الأغواط إلى شطرين، وهو يجري وسطها، وهذا الوادي مشهور في الناحية[3]، وبطبيعة الحال إذا كان يجري داخلها فهو منبع ثروتها الزراعية، وسبب تنوع محاصيلها. والأمر ذاته بالنسبة لكبرى الأودية التي تمر بالاغواط خاصة في واد شبور يقول الناصري دائما :"واد شبور :" وهو واد كثير الأشجار والمرعى طويل بعد أن سقينا من الماء ما نبيت عليه، ونزلنا قبل الاصفرار ووجدنا غدرنا من الماء وشربنا وروينا"[4].

وعن وادي مزي بالاغواط ذكر انه مرتكز إنشاء البساتين والأجنة الفلاحية، للاستفادة من غزارة سيلانه مرات كثيرة خلال السنة، ولقرب المياه الجوفية عند حفر الآبار قريبة منه، فقد أشار الدرعي إلى ذلك بقوله:"الأغواط هذه بلدة واسعة ذات الأراضي الواسعة بها محاريث كثيرة وفواكه متنوعة[5] " وكان العياشي قد أشار إلى أهمية واد مزي وواد شبور، كذلك من حيث خصوبة الأراضي به خاصة عند نزول الإمطار، التي تصادف معها في طريق عودته من الحجاز:" إنما كان قريبا من الظهر أرعدت السماء وأبرقت وأرخت عزاليها بماء غزير وبرد، ومنع الناس من المسير...وفي الغد

="دراسة أثرية تحليلية"، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، إشراف علي حملاوي، 2005/2004، ص:13.

[1]– **عين ماضي**: مدينة تقع جنوب جبل رداد وهي جزء من سلسلة جبال العمور، تبع مسافة 72 كم غرب مدينة الأغواط، ونحو 472كم جنوب العاصمة الجزائر، وهي إحدى دوائر مدينة الأغواط، للمزيد حول المدينة وتاريخها وتركيبتها الاجتماعية ينظر: التلمساني بن يوسف: **الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي في الجزائر (الحكم العثماني– الأمير عبد القادر– الإدارة الاستعمارية) (1782–1900م)**، رسالة لنيل شهادة الماجستير تاريخ حديث ومعاصر، إشراف الأستاذ: نصر الدين سعيدوني جامعة الجزائر، إشراف: 2003، ص ص:57، 58.

[2] – الدرعي، المصدر السابق، ص133.

[3] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 87.

[4] – الدرعي، المصدر السابق، ص:130.

[5] –نفسه، ص ص: 132، 133.

ارتحلنا ووجدنا وادي مساعد كله ماء وأرضه رخوة، فلم نقطعه إلا بمشقة عظيمة...وبات المطر يسح وأصبح في الأرض كذلك وأقمنا وكان ذلك في نوء الثريا ...إلى أن قطعنا وادي شبور من أسفله ووجدناه حاملا "[1]. وفي الصحراء الشرقية للجزائر كان سكان ورقلة[2] يعمدون على إنشاء مزراع للنخيل، بعيدا عن القصور التي يقطنونا مستهدفين المناطق التي بها مياه قريبة من سطح الأرض، ليقوموا بحفر الآبار الجوفية لتي تكون المصدر الأساسي لعملية السقي، أما في مدينة ورقلة فيقومون باستخراج ماء الآبار بطريقة مختلفة، حيث يقومون بحفر بئر نحو 50 متر فيصلون إلى حجر فيقومون نقره فيفيض الماء، فيضان قوي يمتلئ البئر بسرعة فتصير عينا ويسمى جدول، حيت يصور لنا العياشي قوة الماء المتدفق من تلك الآبار، فالشخص الذي يقوم بنقر الحجر إن لم يسحب بسرعة، فمصيره الغرق فيقول العياشي:".. فإن لم يتدارك الحافر بالجذب أغرقه الماء وكذلك عيون وادي ريغ[3]" ، وهو نفس وصف ابن الدين الأغواطي يقول:"ولورقلة منابع مائية كثيرة والماء يجلب بالطريقة

---

[1] – العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 547.

[2] – **ورقلة** :حملت مدينة ورقلة عدّة أسماء من بينها ورجلان وورركلة ووركلي، وبخصوص التّسميّة حسب الرّوايات المحليَّة المتداولة في الأوساط الشعبيَّة الكلمة متكوّنة من شطرين: "الوير" والّتي تعني الأسد باللغة الورجلانية القديمة و"انجلا " والّتي تعني ذهب وزال، وقد أطلقت هذه الكلمة وشاع استعمالها بعد نجَّاح سكَّانها في القضاء على الأسد الذي كان يحاصر المنبع المائي الخاص بالمدينة، ويلتهم كل شخص يقترب منه، لذلك اتَّفقوا على القضاء عليه، وبعد نجَّاحهم قيل:" الوير انجلا" أي الأسد ذهب أو زال، وبمرور الوقت واختلاف الألسنة أصبحت تنطّق ورجلان أو ورقلة. ينظر: عبد الرحمان بن خلدون :**كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ج6، ب. ط، دار الفكر، لبنان، 2000، ص:134، أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التجارية بالسودان الغربي 1883–1591م**، مذكرة تخرج لنيل الماجستير، قسم التاريخ، جامعة أدرار، 2009/2010م، ص: 8.

[3] –**واد ريغ**: تشمل منطقة وادي ريغ الجهة الشمالية الشرقية من الصحراء الجزائرية على مسافة 600كم جنوب شرق عاصمة البلاد الجزائر، وهي منحدر يبدأ من منطقة أم الطيور، على بعد 80كم من بلاد الزاب إلى بلدة قوق على مسافة 30كم جنوب تقرت، ليمتد بذلك على مسافة 160 كم من الشمال إلى الجنوب وامتداد أفقي (العرض) ما بين 30 إلى 40كم. يحد الإقليم من الشمال شط ملغيغ، ومن الجنوب ورقلة ومن الشرق العرق الشرقي الكبير ومن الغرب منحدر حصوي وهضبة وادي ميزاب، ينظر: بن صغير حضري يمينة: (سياسة التوغل الاستعماري الفرنسي بمنطقة وادي ريغ)، **مجلة الواحات**، جامعة غرداية، مج7،

التالية، بحفر البئر على عمق مائة وسبعين ذراعاً حيث يصل إلى البحر الحلو فيمتلئ البئر في الحال بالماء، ويصبح جدولاً جارياً"[1] .

والأمر مشابه مع مدينة تقرت وما جاورها فأكبر نعمة في هذه البلاد، تكمن في نظام الآبار الارتوازية، ذلك أن هذه الآبار تجود بماء غزير يفوق حاجة الناس إليه[2] ، ويقول ابن الدين الأغواطي تقرت محاطة بسور حوله خندق يمكن مقارنته ببحر من الماء، وهذا يتصل بعيون ماء تصب جميعاً فيه[3]، وفي ذات المنطقة الشرقية يشير العياشي إلى استغلال سكان وادي سوف[4] للطبيعة الجغرافية والتضاريسية الرملية التي تتميز بقرب المياه الجوفية من السطح، رغم طابعها الرملي والذي كان عاملا أساسيا في انتشار البساتين وزارعة الخضروات وغرس النخيل خارج الواحات السكنية والقصور، ومائها غزير حلو مذاق قريب من الأرض، بحيث أن الحجاج إذا أردوا الماء حفروا في الأرض فإنهم يصلون إلى الماء بسرعة وخاصة قرية السبخة[1]، يقول العياشي:" أخبروني أهل البلد أنهم إذا أرادوا

= ع2، 2014م، ص:458، بن صغير حضري يمينة: منطقة وادي ريغ من خلال المصادر الغربية (الحقبة الاستعمارية) ، **مجلة الواحات**، جامعة غرداية مج10، ع2، 2017م، ص:115، العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 118.

[1] – ابن الدين الاعواطي، المصدر السابق، ص: 92.

[2] – فتنشأ عن الفائض من الماء برك ومستنقعات، تتولد عنها الجراثيم الخطيرة، ومن أراد أن يشفى من الحمى فإن عليه أن يضرب خميته في الصحراء فترة طويلة. ينظر: هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص: 154، الفصل الرابع، ص ص: 278،285.

[3] – ابن الدين الاعواطي، المصدر السابق، ص: 100.

[4]– **واد سوف:** منطقة ذات تاريخ عريق، وهي تحمل اسما مركباً من كلمتين: وادي، وسوف، وهي ذات عدّة معاني دلاليّة تنسجم مع طبيعة المنطقة وخصائصها الاجتماعيّة والتّاريخيّة، فكلمة وادي كلمة تدل على " وادي الماء " الّذي كان يتدفق قديماً في شمال شرق سوف، وسمي منبعه " وادي الجبل " الواقع ضواحي بودخان، وعقلة الطرودي، كلمة سوف تعني النهر المائي، حسب ما ورد في الأساطير القديمة الّتي تطلق على نهر كان يجري بالمنطقة من الشَّمال إلى الجنوب، ويدعى " واد زوف) (Oued "Zoufأي النهر الوافر الماء، والذي كان يجر بالمنطقة فغار في أعماق الأرض، ولم يبق إلاّ أثره، فتغير اسمه إلى " وادي سوف" للمزيد ينظر: موسى بن موسى، **الحركة الإصلاحية في وادي سوف نشأتها وتطورها 1900–1939م**، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006/2005، ص: 15.

[5]– العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 124.

غرس النخل بحثوا في الأرض قليلا حتى يصلوا إلى الماء، فيغرسونها بحيث تكون أصولها في الماء، ثم يردون عليها الرمل فلا تحتاج إلى السقي أبدا، ويعالجونها بعد ذلك بأبعار الإبل وغيرها. فيضعونها في أصولها ولولا ذلك لماتت. وكذلك يفعلون بأنواع الخضر والبقول وسائر ما يغرسونه" والتمر عندهم من أطيب ثمار تلك البلاد[1].

أما في الطريق العرضاني الأوسط للرحالة المغاربة ويالأخص قرى القنادسة والتوميات والرباوات وقرية رأس الجبل وأولاد جلال بالزاب وعين أوماش، فقد أولى الرحالة للماء اهتماما كبيرًا، لأنه يشكل نقطة أساسية لسالكي هذا الطريق، حيت نقلو لنا معلومات في غاية الأهمية عن الماء والعيون والآبار وخصائصها من عذوبتها ومرارتها وملوحتها، فمحمد بن عبد السلام الناصري يعطينا صورة عن هذا المسلك حيث يقول: "فمررنا بالعرجا واد ليس فيه ماء، ثم بئر ابن حسون وماءه صالح"[2] ولم يشار إلى مزوالة الفلاحة بهذه المناطق المعتمدة في معاشها على الأبار.

كما كانت مناطق عديدة في إقليم الزاب تعرف بقلة مياه الأمطار، وتواجد المنخفضات في مجاري الوديان، وبالقرب منها هدف لممارسة الزراعة، فقد ذكر الدرعي انه في نصف الطريق بين زرائب وسيدي عقبة وجدوا خنادق مملوءة بماء المطر [3]، وهو ما يُيسّر استغلال الآبار بعد حفرها، سواء خارج الواحات أو داخلها، والتي كانت لا تخلو منها البستان داخل تلك الواحة التي يقول عنها الدرعي:" وداخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة، منها في الجامع بئرا لا ينزف، وفي داخل المدينة جنات يدخل إليها الماء من النهر، وبها جبل...وتعرف ببسكرة النخيل، وشرب بسكرة من نهر كبير يجري في جوفها، ينحدر من جبل الأوراس"[4].

---

[1] – المصدر نفسه،ج1، ص: 123.

[2] – محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص: 191.

[3] – الدرعي، المصدر السابق، ص ص: 158،159.

[4] – المصدر نفسه، ص:145.

أما عن أهمية الماء إلى جانب النشاط الزراعي لدى الناس لأنه منبع الحياة، فقد عرضت على محمد بن عبد السلام الناصري نازلة حلف اليمين الطلاق على امرأة لم تسقي الماء، فالماء كان محور الحياة في الصحراء، حيث وصل الأمر إلى الاقتتال عليه، وهذا ما ذكره السجلماسي في قرية بوسمغون، وهي منطقة زراعية، حيث أنه أصلح بين قريتين متصارعتين على الماء:"وفي هذه البلدة قريتان يقع القتال بين أهل كثيرًا والعياد بالله..." تحاكم إلي الفريقين ... كان خصامهم على عيني ماء، أحدهما تسمى مالة والأخرى عين القدح"[1].

3- موقع النخيل في الفلاحة الصحراوية:

إن نشاط غرس الأشجار المثمرة في الواحات الصحراوية يستلزم بالضرورة الكلام عن غرس أشجار النخيل، فالنخيل هي رمز وعنوان لاستقرار الفرد في الصحراء الجزائرية[2]، والنخلة هي الثروة الاقتصادية لسكان الصحراء بالدرجة الأولى وما تمثله من رمزية وهوية اقتصادية للصحراء الكبرى قاطبة، إضافة إلى تربية الجمال وامتهان حرفة الرعي، وانه في سياق حديثنا عن الفلاحة الصحراوية وغرس أشار النخيل تحديداً فانه لا يمكننا في هذا المقام أن نخص منطقة أو واحات بعينها دون غيرها من المناطق الصحراوية الأخرى، رغم تباين الاهتمام بالنخلة ونوعية التمر، والذي يختلف من منطقة صحراوية إلى أخرى، إلا أنها تبقى عنوان الحياة الاقتصادية بلا منازع.

فالقارئ والمتتبع للنصوص الرحلية التي خصت الصحراء أو أجزاء منها بالوصف لا يكاد يجد موضعاً أو مصًرا من الأمصار، لم يقدم الرحّالة فيه مميزات النخيل بتلك المنطقة ونوعيته وسعره ومقارنته بتمور ونخير مناطق أخرى، وسنتتبع في هذا الجزء ما حملته النصوص الرحلية من وصف لغرس الأشجار في الصحراء على ضوء النصوص الرحلية المغربية التي كانت تجوب الصحراء الجزائرية في طريقها إلى الحج. ففي المنطقة الغربية في واحات توات وفيجيج كان غرس النخيل هو السمة

---

[1] – الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص: 165.

[2] – بوطارن مباركن، الدور التجاري لورقلة في العصر الوسيط، **حوليات التاريخ والجغرافيا**، المجلد1، ع: 2، ص: 45.

الاقتصادية بل وحتى العمرانية، إذ أن الواحة لا تعتبر واحة بحق ما لم يكن للنخيل فيها النصيب الأكبر من عمليات الغرس، فقد تشابه وصف الرحّالة للواحات الغربية .

وفي النواحي الغربية للصحراء المتاخمة للمغرب الأقصى، نجد أن النخيل الميزة البارزة في عمارة قصور توات التي تحتوي خمسين قصراً وأزيد من مائة قرية منتشرة بين حدائق ونخيل[1]"، ذكر العياشي قرى منطقة بني عباس بالساورة[2] وكثرة النخيل بها حيث يقول: "... ونزلنا قرى بني عباس ..فيها نخل كثير".[3]، وفي المناطق التي تلي بني عباس وتوات باتجاه الشرق يشير الحضيكي والأغواطي إلى تواجد النخيل بشكل كبير، خاصة تلك المناطق المتواجدة ما بين جبال العمور وواحات توات في كل من أوالن وتيميمون وأولف [4] والقنادسة وبوسمغون ونواحي البيض[5]، ودائماً مع إقليم توات سواء بأولف مركز السلطة بتلك المنطقة، مثل قرية توات الحناء جنوب الغربي أولف وغيرها من هذا الإقليم الواسع الذي يزخر بمنتوج التمر وشجر النخيل[6]، كما يصف العياشي واحات أخرى في نفس الناحية بنفس السمة إلى جانب وفرة النخيل هناك الأشجار المثمرة خاصة في مناطق وفرة المياه فيقول:"ثم ثلاث مراحل صحراء غبراء ثم مورد يقال له البيض، ...كثيرة الماء والأشجار بين عروق

---

[1] – حسيبة بلاطش، الازدهار الاقتصادي والعلمي لإقليم توات وانعكاسه على التواصل ببلدان الساحل الإفريقي ما بين القرنين 16- 20، **مداخلة بالملتقى الوطني حول التواصل الحضاري بين الجزائر وبلاد الساحل الافريقي** خلال القرنين 16-20. بجامعة حمة لخضر الوادي، ص9.

[2]– ذكر العياشي أن قرى الساورة كانت تابعة لأمير محلي له سلطة على المنطقة، حتى قطاع الطرق واللصوص يخشونه، حيث أنه وجد له خيول في البراري دون حارس. ينظر: أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص:78.

[3] – العياشي، المصدر السابق، ج1، ص: 76.

[4] – **أوالن:** وهي إحدى قرى إقليم توات تقع في الطريق الرابط بينها وبين المنيعة مسيرة ومن أوالن والأحمر مسيرة يوم، تقع هذه القرية في الصحراء، وهي مبنية بالطين، وسكانها هناك يتكلمون العربية. ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 92، 93.

[5] – الحضيكي، المصدر السابق، ص:80.

[6] – ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 93، 94، 96.

الرمل قائمة موارد المياه ...وفيه من الحمام البري ما لا يحصى عددا" ...وواد تاخم قريب الماء جدا ذي أشجار كثيرة مختلفة الأجناس، وفيه من عود الأراك ما لا يحصى[1].

وفي الناحية الوسطى للصحراء بداية من أقصى الجنوب بنواحي تيديكلت وعين صالح[2] أين تواجد بها اهتمام كبير بغرس أشجار النخيل، خاصة مع توفر العيون المائية، واهتمام سكانها برعايتها[3]، وعند التوجه شمالاً بواحات القليعة وواحات غرداية أشار العياشي وابن الدين الأغواطي إلى تحصينات القليعة ووجود النخيل بها[4]، وان لم يكن يضاهي نخيل توات، فقال: " القليعة تصغير قلعة: وهي قرية حصينة على حجر صلد في سفح جبل منقطع وبها آبار كثيرة طيبة المياه ونخل ليس بكثير...[5]"، وفي واحات غرداية يشير التنلاني إلى جودة النخيل الذي يفوق واحات توات تافيلالت حيث يقول:" وكلهم أهل نخيل وشجر، ونخيلهم ما رأيت مثل صلاحه في " توات وتافيلالت ولا في " لفاتجة" إلا أن الماء عندهم لا يجري وحده يجبدونه بالبغال والحمير والإبل"[6].

وفي الناحية الشرقية والتي يمكن اعتبارها الخزان الرئيسي لثروة البلاد من التمور قياساً بحجم غرس شجرة النخيل وقياساً بكميات إنتاجه، الذي كان عنوان للنشاط الفلاحي بالصحراء الشرقية خاصة فقد كانت النخلة عنوان الفلاحة والنشاط الزراعي، في كل من ورقلة وتقرت[7] وواد سوف

---

[1] – العياشي، المصدر السابق، ح1، ص:80.

[2]– **عين صالح**: يقال أن أصل التسمية تعود لأحد أولياء الله الصالحين قدم من الجنوب الشرقي للمغرب من جهة درعة تافيلالت، يسمى صالح جاء للدعوة لدين الإسلام، ولما كاد أن يهلك وأصحابه بهذه الأرض القاحلة، دعا الله فتفجرت عين ماء فسميت باسمه، وهذه البلدة تأتي بعد توات في أقصى الجنوب الجزائري، بعدها تأتي السودان. ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 94.

[3] – ابن السراج، المصدر السابق، ص:229.

[4]– ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 91.

[5]– العياشي، المصدر السابق، ص: 112.

[6] – التنلاني المصدر السابق، ص: 241.

[7]– **تقرت**: هذه البلدة عاصمة المنطقة ولها نفوذ على أربع وعشرين قرية، وهي من بلاد واد ريغ لها أسوار وهي من حكم إمارة بني جلاب، ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 100.

وكل منطقة الزاب[1] حتى انه كان يصدر إلى أوروبا عبر موانئ بايلك الشرق الجزائري. كما اشتهرت به واحات ورقلة وكانت ترى من بعيد للقادمين إليها من كل النواحي خاصة من ناحية الغرب من مسالك غرداية والقليعة، حيث يصف العياشي منظرها من بعيد فيقول: " وتراءى لنا نخل واركلا كأنه سحابة وطفاء أو ناقة عجفاء يتقطع السراب دونه، وكثير من الناس لا يفهمونه... "[2]. ويقول عنا الأغواطي:" وتعج ورقلة بأشجار النخيل"[3].

وفي واحات وادي ريغ كانت النخيل حاضرة في كقيمة فلاحية وعمرانية لكل الواحات؛ بداية من واحات تقرت مثل: انقوسة وتماسين[4]، وواحة واد سوف وقرية الطيبات[5] وصولاً إلى وادي سوف، فقد قال العياشي عن تماسين "ورحنا إلى بلدة تماسن، وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل"، وكان وصفه لنخيل منطقة سوف بانبهار اكبر، حيث قال :" وصلنا فيه إلى سوف وهي خط من النخل مستعرض في وسط الرمل قد غلب على أكثره، وفيه بلاد عديدة وماؤه طيب غزير قريب من وجه الأرض"، وقد كان حرص سكان سوف على تزويدها بالأسمدة من بقايا وفضلات الحيوانات، حيث يقول في هذا الشأن :" ثم نزلنا على ماء يقال له رباح على نصف مرحلة من البلد، وتبعنا كثير من أهل البلد يلتقطون البعر من منزل الركب للنخل على حسب ما ذكرنا أولا"[6].

---

[1]– يأخذ الزاب الاسم من مدينة زابي (Zabi) الرمانية القديمة التي كانت تقع في منطقة الحضنة. للمزيد ينظر: سهام بوعزة: (التعريف بمنطقة الزيبان من خلال الدراسات التاريخية والجغرافية)، **مجلة دراسات**، جامعة الأغواط، مج10، ديسمبر 2018م، ص:32.

[2] – العياشي، المصدر السابق، ص : 114.

[3] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ج1، ص: 92.

[4] – **تماسين:** بلدة بواحة تبعد بميلين عن تقرت، كانت مركز للطريقة التجانية بعد عين ماضي. ينظر: هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ج3، ص ص: 176، 177.

[5]– ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 96، 100.

[6] – العياشي، المصدر نفسه،ج1، ص ص: 119، 123.

وفي إقليم الزاب الإقليم الأشهر في الجزائر بغرس النخيل وإنتاج التمور، توزعت عمليات الغرس على كل واحات الإقليم من واحات سيدي خالد وسيدي عقبة وواحات بسكرة، وأشارت المتون الرحلية إلى ذلك، يقول الحضيكي عن سيدي عقبة: " قرية كبيرة ذات مياه وأشجار[1]".

وفي واحة بسكرة المركزية يقول العياشي: " أن هذه المدينة من أعظم المدن وأجمعها لمنافع كثيرة، مع توافر أسباب العمران فيها قد جمعت بين التل والصحراء ذات نخيل كثير"[2]، فلذا نجد عبد السلام الناصري يسميها بسكرة النخيل لكثرة النخيل فيها[3]، فكلام الرحالة بصفة عامة يبين الازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به منطقة بسكرة و زراعة غرس النخيل والاهتمام به، كان عنوان النشاط الاقتصادي.

4 – المياه ونظم السقي في الواحات والبوادي الصحراوية:

تنوعت أساليب سقي وروي المزروعات في الواحات والبوادي الصحراوية، على حسب الخصوصات الجغرافية والتضاريسية والمناخية لكل منطقة، فنجد ارتكاز نظم السقي في بعض الواحات على الآبار الجوفية وتجميع مياها في خزانات تكون منطلق عملية السقي، وغالبا ما تكون للمزروعات التي تتطلب نسب عالية من الري خلال السنة، بالإضافة إلى الري الذي يعتمد على وجود الماء على سطح الأرض كالسباخ أو تلك التي يتواجد بها الماء على أمتار قليلة كمنطقة وادي ريغ سواء بمدينة تقرت أو قراها المتباعدة كقرية الطيبات التي قول عنها الأغواطي:" فيها الكثير من أبار الماء"[1]، وكذلك كان السقي يتم بالاعتماد على المياه التي كانت تحملها الأودية الموسمية لسقي الأشجار

---

[1] – الحضيكي، المصدر السابق، ص82.

[2]– ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص : 540، عبد الرحمان بلاغ، **الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب**، مكتبة الرشاد للنشر والتوزيع، الجزائر، ع 04، جوان2013م، ص:511.

[3] – عبد السلام الناصري: المصدر السابق، ج1، ص:220.

[4] – ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 96، 100.

والنخيل، والتي كانت تغرس في البساتين القريبة من تلك الأودية والتي لا تتطلب كميات كبيرة من الماء طوال السنة كالنخيل.

وقد أشارت النصوص الرحلية بدورها إلى مختلف أنماط السقي التي سبق ذكرها في أغلب البوادي والواحات الصحراوية، فنجد اشتهار واحات توات بسقي بنظام الفقاقير[1]، وهو نظام يكاد ينحسر بهذه المنطقة ليكون خصوصية لها وهوية للنشاط الفلاحي، وطريقة السقي بالفقاقير عبارة عن اتحاد أبار متعددة بفقر من عدة جوانب يمد كل واحد إلى الآخر، فيزيد ماؤها ينمو مع زيادة غيره عليه، ولا يزال كذلك حتى يخرج على وجه الأرض فتسقى به الأجنة والمزارع، ويجزأ أجزاء كثيرة بالأيام، وقد يجزأ اليوم الواحد بأجزاء كثيرة فتباع تلك الأجزاء، ويسميها أهل مراكش "بالخطاطير"، قد ذكر السجلماسي هذا النظام في واحات توات فقال: "فمررنا بقرية واكدة... وماؤهم مجلوب بالفقاقير وأكثر نخليهم تملكه للأعراب"[2].

وتتجلى أهمية نظام الفقارة في الميدان الفلاحي في تزويد المحاصيل النباتية بالمياه وذلك لأنها أنشأت لهذا الغرض ولإعطاء منتوج فلاحي جيد، وفي منطقة توات وواحات قورارة كل ما قدمته الفلاحة من إنتاج على مر السنين يعود الفضل فيه لهذا النظام للسقي، الذي ساعد على تحسين الكمية والنوعية في إنتاج التمور، الذي يعتبر ركيزة أساسية في اقتصاد المنطقة، وكما ساعد على استصلاح مساحات اكبر من الأراضي خارج الواحات الرئيسية، فكانت الفقارة المصدر المائي الأول

---

[1] – **الفقاقير**: والفقير هي الآبار المجتمعة الثلاث فما زادت، وهي مجموعة من الآبار المتقاربة والمتصلة مع بعضها البعض عن طريق خندق أرضي يمتد خارج القصر على مساحة تزيد عن 5 كلم. للمزيد ينظر: تياقة صديق، الفقارة ودورها في الاستيطان البشري وكيهلة الاجتماع البشري في القصر من خلال نظام الخراصة (قراءة سوسيولوجية لمجتمع توات، أدرار)، **المجلة الخلدونية**، جامعة تيارت، مج06، العدد01، 2017م، ص: 280.، لسان العرب، فقر، ص: 82.

[2] – السجلماسي، المصدر السابق، ص:113.

للناحية الغربية من الصحراء الجزائرية[1]، فكان هذا النظام المائي ركيزة لاقتصاد الواحات الصحراوية فضلا عن كونه يعبر عن الترابط الاجتماعي بين سكان الواحة والقرية الواحدة، ذلك انه لا يمكن إنشاء هذا النظم في ظل تشرذم أو غياب اللحمة داخل المجتمع[2]، وهذا النظام هو ما وصفه الأغواطي بالسقي عن طريق القنوات سواء ببلدة قورارة أو تيميمون ذات المياه الغزيرة، أو بأولف ذات الماء الوافر[3].

أما في مدينة ورقلة كما أشارنا سالفاً فيقومون باستخراج ماء الآبار بطريقة مختلفة، حيث يقومون بحفر بئر نحو 50 متر فيصلون إلى حجر فيقومون نقره فيفيض الماء، فيضان قوي يمتلئ البئر بسرعة فتصير عينا ويسمى جدول، وقد يصور لنا هذا العياشي في قوة الماء المتدفق من تلك الآبار، فالشخص الذي يقوم بنقر الحجر إن لم يسحب بسرعة، فمصيره الغرق فيقول العياشي:".. فإن لم يتدارك الحافر بالجذب أغرقه الماء"[4].

والنمط الثاني من أساليب الري الفلاحي هو عبر باستخدام الآبار الجوفية، والقصد هنا استغلال البئر الواحدة للري بعيد عن التوظيف الجماعي الذي ينشئ نظام الفقارات السابق ذكرها، فمثلا واحات غرداية قاطبة كانت تعتمد بالدرجة الأولى على المياه الجوفية التي كان يتم حفرها واستخدام اليد العاملة من الأفراد وتوظيف الحيوانات لرفعه من قعرها، ليتم السقي به، فقد ذكر التنلاني مشاهداته في هذا الأمر حين زراه المنطقة فقال:" ...قصور " غرداية " وكلهم أهل نخيل وشجر...

---

[1]– Marouf Nadir, Le système Foggara a Timimoune, **Séminaire International sur la Ressource en eau au sahara: Evaluation, Economie et Protection**, le 19 et 20 janvier 2011(ouargla), P.272.

[2] –Cuillermou, Yves., Survie et ordre social au Sahara. Les oasis du Touat-Gourara-Tidikeit en Algérie. **Cah. Sci. Hum**. (1) 1993. P29.

[3] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 93.

[4] – العياشي، المصدر السابق، ج1،ص: 118.

إلا أن الماء عندهم لا يجري وحده يجبدونه بالبغال والحمير والإبل "[1]، ولا يمكن حصر كلام التنلاني عن واحات غرداية فقط، فهذه الطريقة في السقي كانت تمارس في كل أنحاء الصحراء، لكونه أخر السبل للري بعيد عن الأودية الجارية أو الينابيع التي لا تنضب مثل ما كان بقرية متليلي والمنيعة[2].

وكان هذا النوع من السقي يمارس كذلك بالمناطق المتاخمة للسهوب مضارب أولاد نائل شمال الاغواط، وهذا بصرف النظر عن وجود مناطق في الصحراء الوسطى بنواحي الاغواط كانت ودیانها لا تكاد تنقطع من المياه بنواحي جبال العمور ووجود ينابيع مائية دائمة الجريان والتي كانت مرتكز الري الفلاحي بهذه الواحات والبوادي وقد أشارت إليها المتون الرحلية أمثال: الأغواطي حيث يقول عنه:"فيه مائة عين جارية، وينبع منه نهر كبير يسمى نهر الخير وهو مشهور عند الجميع"[3] .

فجورج هارتز يذكر أن بساتين وحقول قصر العسافية الذي يبعد باثني عشر كلم عن الأغواط يعتمد في سقي مزروعاته من خلال استخدام سواقي جانبية تنبثق عن وادي مزي، وهو الأمر الذي مكن القصر من احتلال مكانة مرموقة بين قصور الأغواط في المنتجات الفلاحية[4]، ويذكر الناصري ينابيع عين ماضي ومساهمتها في الري فيقول: عين ماضي وماؤهم طيب بارد وعينهم خرجت من سفح الجبل ودخلت للجنان"[5].

---

[1] – التنلاني، المصدر السابق، ص 241.

[2] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص:90، 92.

[3] – المصدر نفسه، ص:89.

[4] -Goorges Hertz, Op Cit, P137.

[5]– الدرعي، المصدر السابق، ص: 131.

ويشير الحضيكي إلى وادي الشبور[1] الذي فأشار إلى وفرة المياه به صيفا وشتاء[2]، وذكر العياشي وادي الناموس الذي كان يمسك الماء لفترات طويلة، مما يساعد على الري وغرس الأشجار[3]، والأمر نفسه بأحد ينابيع منطقة بشار[4] التي أشار إليها الناصري بأنها كانت عذبة كثيرة المياه تقوم بري البساتين.

والنظام الثالث من السقي والذي اشتهرت به الواحات والشرقية للصحراء أكثر من بقية المناطق الأخرى هو الغرس في السباخ والمنخفضات التي لا تحتاج إلى السقي إلا في ما نذر ومن ذلك ما كان يتم في سباخ قورارة بواحات توات وسباخ وادي ريخ، وحتى وادي سوف في غرس النخيل[5] التي كانت توضع جذورها فوق الماء وتردم بالتراب لقرب المياه من السطح.

المبحث الثالث: الحرف والصناعات والتجارة من خلال كتب الرحلة

1- الرعي وتربية الحيوانات:

تعتبر تربية الماشية سمة من السمات التي ميزت النشاط الاقتصادي بالجزائر، وهو مقرون بالبوادي بالدرجة الأولى ولا يمكن أن نخص به جهة دون أخرى في كامل البلاد، غير أن هذه الحرفة تميزت بممارستها بالتخصص في قبائل ونواحي داخل كل بايلك سواء في الشرق أو الغرب، أو الوسط أو الجنوب وتعددت الحيوانات وتنوعت على حسب المناطق، فكانت تربية نوع من الحيوانات تعرف اهتمام كبير في ناحية اكسر من بقية النواحي الأخرى، وبالمجمل فالحيوانات التي اهتمت بها القبائل البدوية والريفية هي الأغنام والماعز والأبقار والخيول والبغال والحمير والجمال، ومن حيث تواجد

---

[1]- **وادي الشبور**: نعته السجلماسي بشاطىء لأشبور، ولكن مع مرور الزمن جف أيام محمد بن الطيب الشرقي:" وهو واد عظيم لا ماء به فضلاً عن السمك. ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، الهامش رقم: 2، ص:139 .

[2]- الحصيكي، المصدر السابق ص 83.

[3]- العياشي، المصدر السابقن ج2، ص:549.

[4]- الناصري، المصدر السابق، ص: 124.

[5]- العياشي، المصدر السابق، ص: 123.

هذه الحيوانات فقد اختصت المناطق السهبية في تربية الأغنام والبوادي الصحراوية للجمال، وامتزاج البوادي التلية بين اغلبها[1].

وكثيرا ما كان سكان الأرياف التلية يمزجون بين ممارسة الزراعة وتربية الماشية، لكن في كثير من الأحيان، كانت للظروف التي يعاني منها الفلاحون تدفعهم لتفضيل تربية المواشي على الاستقرار في الأرض وخدمتها، وفي جهات أخرى أصبحت تربية المواشي حرفة مكملة لزراعة أراضي العرش الجماعية، لدى سكان الهضاب العليا القسنطينية وغيرها[2]،حيث تشمل المنطقة الواقعة بين الأطلس التلي والصحراوي وشط الحضنة والحدود المغربية المنطقة الرئيسية لتربية الماشية خاصة الضأن منها، وكانت القبائل البدوية من خلال ممارسة الرعي والسعي وراء مواطن الكلأ تهدف لسدّ حاجاتهم من الألبسة الصوفيّة و الزرابي والأغطية والخيام واللحوم[3].

كما اهتم سكان جنوب الأطلس الصحراوي بتربية المواشي من أغنام وابل، حيث اكتست تربية هذه الأخيرة أهمية خاصة لكون هذا الحيوان مادة استهلاك واسعة[4]زيادة على كونه وسيلة للترحال ونقل البضائع وأعمال الري[5]، فازدهرت تربية الضأن في المناطق الرعوية بالهضاب والسهول العليا الداخلية وفي بعض المناطق الساحلية[6]، فكلما تقدّمنا نحو الجنوب تقل الزراعة وتكون حرفة الرعي هي مهنة الأساسية[7]، فقد كانت هذه الحيوانات مصدر العيش الرئيسي في الجهات السهبية[8].

---

(1) – ويليام شالر، المصدر السابق، ص:30.

(2) – ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي، المرجع السابق، ص ص:31-33.

(3) – فلة القشاعي، النظام الضريبي ، المرجع السابق، ص ص: 14 – 15.

(4) – صالح عباد، المرجع السابق، ص: 336.

(5) – أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري، المرجع السابق، ص: 104.

(6) – يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب، المرجع السابق، ص: 520.

(7) – لوسيت فالنسي، المصدر السابق، ص: 51.

(8) – ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص: 178.

كما يوجد في بايلك قسنطينة إلى جانب الضأن والأغنام والإبل عددا هائل من رؤوس الأبقار والماعز والخيول والبغال والحمير التي توجد في معظم القبائل والمناطق الجبلية الوعرة التضاريس وفي الهضاب العليا غير الخصبة، أما الأبقار فتربى في المناطق السهلية الداخلية والساحلية،حيث يتوفّر العلف والماء[1]، يضاف لهذه الثروة الحيوانية ما كانت تتوفّر عليه السواحل من أسماك، هذه الأخيرة التي لم يقبل سكان المدن والجهات الساحلية على استهلاكها، وبالتالي لم يتشجع الصيادون على توسيع نشاطهم الذي ظل مقتصرا على صيد كميات قليلة من السمك ومقادير متواضعة من المرجان، وقد أشارت بعض المصادر إلى أن صيادي دلس كانوا يضطرون في كثير من الأحيان إلى إعادة ما يصطادونه من السمك إلى البحر لعدم الإقبال عليه من طرف السكان الذين كانوا يفضلون استهلاك لحوم الأغنام المتوفرة بكثرة[2]. وكما اشتهرت قرى وأرياف منطقة القبائل بتربية النحل ويستعمل لذلك سلالا طويلة من الخيزران أو بيوتا صغيرة من الطين، يبنيها خارج القرية حيث تكثر الزهور، ويجمع منها العسل والشمع ليبيعها فيما بعد في المدينة[3].

أما عن النصوص الرحلية التي تطرقت إلى تربية الماشية فهي متعددة وقد ربطت في مجملها الحياة في البادية مع مهنة الرعي بتربية الماشية، وقد ذكر بايسونال تركيبة القبيلة الرعوية التي تقطن دوّارًا معينا فيقول: "يقصد بالدوار في البادية هو تجمع لخيم قبيلة معينة في مكان معين، مع وجود مسافات بين تلك الخيم، على أن تكون خيمة شيخ الدوار في وسط تلك الخيم، ويقوم أفراد هذا الدوار برعي الماشية والتي يعودون بها قبل حلول الظلام لتوضع في فضاءات مخصصة لها بالقرب من الخيم، وكانت عمليات الرعي تصاحبها تربية للكلاب ضخمة الحجم لحماية القطعان وكان هذا الأمر شائعا حتى المناطق الغربية للايالة[4].

---

[1] – يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب، المرجع السابق، ص: 520.

[2] – ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص: 179.

[3] – فندلين شلوصر: المصدر السابق، ص: 96.

[4] –Peyssonnel, Op. Cit,P 138.

وعن تعامل سكان البادية مع الماشية في تربيتها والاعتناء بها واستغلال حليبها يقول الرحالة فندلين شوصلر:"ففي الفجر تقوم النساء بحلب الأبقار والغنم وتقوم أخرى بمخض ذلك لحليب... وتسوق أخريات الماشية إلى الرعيان، ويتم تهيئة الزبدة انطلاقا من مخض الحليب على الصورة التالية: تعلق بعمود خشبي ذي عقب وثلاث سيقان في علو الإنسان تقريبا، وقربة تحتوي على البن الجيد بواسطة حبال من أرجلها الأربع وتجلس المرأة أمام العمود وتمسك عين القربة وتحركه هنا وهناك دون انقطاع وهكذا تنشا الزبدة بعد مدة قصيرة [1]"، وكان هذا هو نمط استغلال ورعاية الماشية في كل إرجاء الايالة.

أما عن مجالات الاهتمام برعي الماشية على ضوء نصوص الرحلة فيذكر الرحالة هابنسبرايت انتشار واتساع حرفة الرعي وكثرة قطعان الماشية بسهل المتيجة حيث يقول: وسهل متيجة غني جدا بالحنطة وباقي أنواع الحبوب التي تزرع في موسمين سنويا وتعطي محصولين في السنة الواحدة، وترعى به قطعان لا يمكن عدها من الماشية التي ترعى في مناطق خضراء من الأعشاب والزهور[2]"، وجنوب المتيجة في التيطري يشير مارمول كاربخال إلى تربية الماشية بقوله: "وتعرف أرياف المدية في التيطري بتوفر عدد كبير من الماشية، إضافة إلى الفلاحة عبر البساتين التي كانت تنتشر في محيط المدينة"[3].

وفي الناحية الغربية يذكر بايسونال استغلال القبايل المتواجة بسهول الشلف الجبال الغابية والمعشوشبة في رعي الماشية فيقول:"بعد الشلف توجد جبال معشوشبة تظهر من بعيد وهي غير آهلة بالسكان، لكن القبائل المحيطة بهذه الجبال تستخدمها في رعي الماشية[4]".

وفي الجنوب بداية من شمال الصحراء على الشريط الممتد من منطقة الزاب شرقا وصولا إلى توات غرباً مرورا ببوادي الاغواط ومضارب أولاد نائل زخرت النصوص الرحلية التي تناولت اهتمام

---

[1] – فندلين شوصلر، المصدر السابق، ص93.

[2] – هابنسبرايت، المصدر السابق، ص:55.

[3] – مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، ص373.

[4] –Peyssonnel, Op. Cit, P 149.

القبائل المنتشرة بها برعي الماشية من غنم وماعز وإبل وتربية الخيل، مثلاً عن بلدة تيميمون بإقليم توات يقول عنها ابن الدين الأغواطي:"أغنامهم مثل غنم السودان مغطاة بشعر أسود يشبه شعر الماعز لها أذناب طويلة...وتوجد فيها خيول كثيرة...وأهلها يملكون قطعاناً كبيرة من الماشية "[1]، كما كانت القبائل الرحل تنتقل من منطقة إلى أخرى بماشيتها وتعيش حياة البدو الرحل من منطقة إلى أخرى بحثا عن الكلأ، ففي أواخر القرن 17م مثلا جاءت قبائل الأرباع من جبال الزاب ببسكرة إلى في منطقة الاغواط وسمي المكان الذي تمركزوا به بالأرباع، وكانوا بدوًا متأصلين وعرفت هذه القبيلة بتربية الأغنام والخيول فكانوا من المحاربين الأشداء، ودأب الأرباع أن يتتبعوا المناطق العشبية في فصل الصيف الضرورية لنشاطهم الاقتصادي بتوجههم إلى المناطق الواقعة بين سيدي عيسى وعين وسارة وطاقين، أما في فصل الشتاء فكانوا يتوجهون جنوب حتى منطقة الضاية بغارداية حتى واد الريح للتموين بالتمور والماشية والجمال، ولم يتجاوز عدد سكان هذه القبيلة سبعة ألاف نسمة في نهاية القرن الثامن عشر، وكان لانعدام الأمن وحالة الخوف والتوجس الدائمة من الأعداء السبب الرئيس في تكون هذه الخاصية لنمط معيشتها"[2]، كما عرفت هذه المنطقة بالذات مزاولة حرفة رعي الإبل خاصة بقرية متليلي والمنيعة ضواحي غرداية[3].

تعتبر قبائل الأرباع في منطقة الأغواط مثال للمجتمع البدوي الرحالة الذين امتهنوا رعي الماشية، على الرغم من أنهم لا يمثلون أكثرية عددية في المنطقة ولا يمتلكون من الموارد والثروة التي تمتلكها قبائل صحراوية أخرى مجاورة لها مثل قبيلة أولاد نائل وقبيلة أولاد سيد الشيخ، وهي قبائل تفوقهم عددا بأضعاف كثيرة ومناطق تواجدهم ورعيهم أوسع بكثي، وهو الأمر الذي جعل

---

[1]– ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 93.

[2] -Goorges Hertz, **L'algerie nomade et Ksourienne 1830-1954**, L'imprimer A. Robert, Marseille, 1989. P142.

[3] –ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 90، 91.

الأرباع يواجهون مشاكل ومنافسة في التواجد بمناطق الكلأ وفي حركة التنقل الموسمية بسبب أخطار السطو واللصوصية التي كانت تعترض التنقلات بصورة عامة بين شمال الصحراء والمناطق السهّبية[1].

وكان العياشي قد أشار إلى وفرة الماشية في منطقة الاغواط وحرص المتواجدين بها على تزويد القوافل بما يحتاجونه من المنتجات الحيوانية من السمن والإبل في طرقهم، خاصة القوافل الحجية والقوافل العابرة لبلاد السودان، فيقول العياشي في هذا الأمر: " قريب من قرية الكراكدة وجدنا عرب الأغواط الغربية قد فروا أمامنا من العمور، ونزلوا قريبا من قرى ربا ونزلنا عندهم ظهراً فوجدناها لديهم سمنا كثيراً وقليلاً من الإبل واشترى الناس حاجتهم من السمن [2]" فكان العياشي يبين ارتباط تربية الأغنام والماعز بتربية الإبل لما لها من مكانة لدى البدوي الصحراوي، عكس البدوي الذي يرعي في المناطق التلية، ويؤكد هذا القول الرحالة فندلين شلوصر بان الجمال تعتبر الحيوان الرئيسي الذي اهتم به سكان البوادي والواحات الصحراوية إضافة إلى الاهتمام بتربية الخيول العربية الأصيلة[3]، وقد برز هذا بشكل جلي بجبل العمور نواحي الأغواط، فسكانه يربون الإبل، وبعضهم يربي المعز والغنم[4].

وفي الاغواط أيضا تأسس قصر تاجموت من البدو الرحل القادمين من الزيبان وبعض القبائل الفارة من الصراعات التي كانت موجودة على الكلأ لتستقر على أربعين كلم من منبع واد مزي، في مكان كان يسمى تاجموت ويقصد به مكان ارتبط بذكرى ملكة حكم عليها بالموت والتسمية مشكلة من كلمة تاج وكلمة موت، وكان من بين الذين سكنوا القصر أولاد يعقوب والعموريين والشعانبة القادمين من متليلي الذي جاؤوا للرعي في المنطقة[5]، وبقول عنه الرحالة الناصري إن أهل تجموت كان يقدمون الكباش كهدايا لقوافل الحجيج وهو ما يشير إلى عمق العلاقة بين سكان

---

(1) -Goorges Hertz, Op Cit, P 129.

(2) – العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 548.

(3) – فندلين شوصلر، المصدر السابق، ص:89.

(4)– ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 89.

(5) –Goorges Hertz, Op Cit, P144.

المنطقة بتربية الماشية، فيقول الناصري: "تحموت تلقانا أهلها أفواجا كباراً وصغاراً مشاة وركبانا وفرحوا بنا غاية وأظهروا المحبة، وخرج إمامهم سيدي أحمد بن بركة، رجل كبير السن وأتونا بثلاثة أكباش وأتى رجل آخر بكبش ذلك، وهي قرية جامعة لابأس بها، بها جنات وبساتين وفواكه، وكنا منعنا من المرور عليها خوفاً من الدرياس نبت يضر بالإبل، وزعموا أنه لا يكون وقتئذ وصدقناهم إسعافا لمرادهم فسلم الله"[1] وهو ما يؤكد كلام العياشي عن محورية الرعي بناحية الأغواط كنشاط اقتصادي رئيسي لسكانها.

وفي النواحي الغربية من الصحراء أيضا رغم قساوة الطبيعة والتضاريس وقلة الفضاءات الرعوية إلا أن هناك نصوصا أشارت إلى امتهان حرفة الرعي بين القبائل التي قطنت هذه الأمصار، فيشير الناصري إلى الرعي بمنطقة الغاسول[2] فيقول:"بلغنا الغاسول ..وفرح بنا أهلها الفرح التام، أتونا بشاتين، وسيدي عبد الكريم التواتي بتسع شياه وما قسم الله من السمن، وقسمنا ذلك كله للحجاج تقبل الله ذلك من أربابه[3] "، وكان قد أشار إلى نفس الأمر عن أولاد سيدي منصور بعين الصفراء بوفرة الأغنام لديهم فبقول: " وتلقانا أولاد سيدي منصور...وهم بعين الصفراء وأتوا بكثرة العنب والسمن والزرع والدقيق وسبعة رؤوس من الغنم كثر الله خيرهم وأجزل قراهم وشكر صنيعهم ..وباتوا عندنا بنحو خمسين نفس هم وأولادهم"[4]، أما عن الناحية الجنوبية الشرقية بصحراء ورقلة وواد

---

[1] – الدرعي، المصدر السابق، ص: 132.

[2] – **الغاسول:** قرية جامعة عامرة على تل شفير الوادي ولا بأس بمائه، وبه أجنة أكثر أشجارهم كرم وخوخ ومزرعة قليلة، وبوادي ملال، وماؤه قليل مالح، وعليه عمارة دائرة، بها قصر كبير على ما يظهر من خارجه وأخبرونا أكثره خراب، الحضيكي، المصدر السابق، ص:83 ، محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ج، ص: 199، العياشي، المصدر السابق، ج2، ص:548، أبو ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 129، السجلماسي، المصدر السابق، ص:136. وهي اليوم إحدى بلديات البيض تبعد منها 60كلم.

[3]– الدرعي، المصدر السابق، ص:129.

[4]– نفسه، ص: 127.

سوف وصولاً لبلاد التوارق فهي الأخرى عرفت حرفة النشاط الرعوي بشكل كبير، إلى جانب تربية الخيل[1].

وبالإجمال في تربية الماشية حرفة مرتبطة ومتأصلة بالحياة البدوية مارستها كل القبائل التي جعلت من الريف والبادية مستقرا لهان مع وجود مميزات بين منطقة وأخرى واختصاص ناحية بالإبل زيادة على الأغنام، واختصاص البوادي التلية بالأغنام والماعز والخيول أكثر من غيرها.

2- الصناعات والحرف من خلال الرحلات:

تعددت الصناعات والحرف التي مارسها الجزائريون، فمنها الحرف والمهن التي اختصت بها المدن والحواضر، وأخرى تميزت بها البوادي والأرياف، ولعل المستهدف في هذا المبحث هو الحرف الريفية بعيدا عن الصناعات التي كانت تمارس داخل الحواضر والمدن وعلى مستوى الدكاكين[2]، وهو ما يجعل البنية الصناعية للمدن تأخذ الأسبقية والأفضلية من حيث الكم والتنوع والتخصص، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الرحلة هي المجال الرئيسي لتوثيق واقع الحرف والصناعات، وهو الأمر الذي سيضيق مجال الحديث أكثر عن الحرف على ضوء ما باحت به النصوص الرحلية فقط والتي تنوعت وتعددت في مجالات كالصناعة الغذائية والصناعة المعدنية باستخراج المعادن الضرورية.

إن الدارس للرحلات الغربية والجزائرية والمغربية التي جعلت من الجزائر مجالا لها، يجد ذكراً لمختلف الصناعات التي مورست بشكل فردي أو جماعي، فعلى مستوى الصناعة الغذائية نجد الرحالة بايسونال تحدثت عن تحويل المزروعات إلى منتجات غذائية فرعية وتحديداً مادة القمح التي يقول

---

[1]- ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 95، 96.

[2] - ركز النشاط الحرفي في المدن الرئيسية كمدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان، حيث ظل الصناع يزاولون الحرف معتمدين على المهارة اليدوية والتقاليد المتوراثة، ومستخدمين المواد الأولية المتوفرة محلياً وخاصة المتواجدة بالأرياف مثل: الصوف والجلود والأخشاب والمعادن، وقد وجدت أحياء وحارات عرفت بأسماء الصناعات، التي اختص بها أصحابها مثل الشواشية (القلانس)، والبشماقجية أو البلاغجية (صناع الأحذية)...ينظر: ناصر الدين سعيدوني، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب)**، حوليات الأدب والعلوم الاجتماعية-الحولية الحادية والثلاثون)، ط: 1431هـ/ 2010م، ص ص : 32، 33.

عنها: "وعرفت كبرى المزراع المخصصة لزراعة القمح وجود مطاحن مخصصة لتحويل القمح إلى سميد وطحين متعدد الأنواع بغرض توجيهه للاستهلاك، فكان القمح المتواجد بنواحي قسنطينة من النوع اللين فطحن 80 رطلا من القمح اللين مثلا يعطي 70 رطلا من السميد، وأربعة أرطال من الطحين، و6 أرطال من النخالة، وكان 30 رطلا من السميد يمكن الفرد من صناعة 40 قطعة خبز بيضاء من النوع الجيد، بينما القمح المنتج في الناحية الغربية كان اقل قيمة من نظيره في بيلك الشرق فكان طحن 70 رطلا من أفضل أنواع القمح بهذه الناحية يقدم 43.5 من السميد، و11.5 رطلا من الطحين، و14 رطلا من النخالة، وعلى مستوى إعداد الخبز كان توظيف 29 رطلا من السميد ينتج 37 قطعة من الخبز الأبيض[1]"، ويمكن رد هذا التباين في نوعية الحبوب إلى الجانب الجغرافية والطبيعي من حيث معدل درجات الحرارة وكميات التساقط على كل إقليم خلال السنة الواحدة.

كما أشارت نصوص الرحلة إلى الصناعات المعدنية كاستخراج المعادن النفيسة أو تلك الضرورية للصناعات الحرفية كصناعة الأواني النحاسية والحديدية، وحتى تلك الضرورية للجانب الحربي كالرصاص، ويذكر جورج هرتز أن منطقة الأغواط كانت رائدة في صناعة الحلي والأدوات النحاسية التي امتد صيتها حتى المغرب، حيث يقول:"أصبح الأغواط مركزا شهيراً للذهب والفضة والأدوات النحاسية حتى القرن الثامن عشر، وكانت هناك روابط وثيقة بين الأغواط مع سلطان المغرب، ومنذ سنة 1781م تغيرت البلاد وأصبحت تحت حكم الأتراك الذين كانوا حكام الجزائر مند قرنين، لكن الدايات لم يقدموا أي عنصر للنظام في إدارة الأغواط[2]"، ويشير بايسونال إلى استخراج معدن الفضة بناحية الشلف فالمكان المسمى بواد الفضة فيقول: كانت القبائل العربية المتواجدة بضواحي الشلف وواد فضة تقوم باستخراج النحاس والرصاص من الجبال الموجودة في منطقة واد الفضة"[3].

---

(1) –Peyssonnel, Op. Cit,PP 281. 282.

(2) –Goorges Hertz, Op .Cit, P140.

(3) –Peyssonnel, Op. Cit ,P .152.

وقد أشار بايسونال أيضا إلى استهداف السكان لمعادن أخرى ويذكر أثناء تنقله من معسكر إلى تلمسان رفقة الباي انه توقف عند سلسلة جبلية وزار مناجم لاستخراج النحاس والرصاص، وذكر أن الاستخراج كان في أربعة مواقع في سلسلة الجبال التي تلي جبل "تيسيلة"[1]، وقال عن مدى استغلال تلك المناجم « أنه من السهل استغلال هذه المعادين خاصة أن هذه الجبال محاطة بغابات وبالقرب منها جداول مائية وهناك نهر على بعد مسافة قصيرة، وبقيت ليوم آخر في هذه الجبال، وجدت العقيق الأبيض كبير جدا»[2].

وعرفت البوادي صناعة الألبسة الصوفية أكثر من أي حرفة أخرى لارتباطها برعي الماشية وما توفره من أصواف وأوبار ضرورية لهذه الحرفة، فكانت الصناعة النسيجية تتم وفق طريقة تقليدية قدم الرحالة فندلين شلوصر وصفا لها فيقول: "وتجلس امرأتان خلف المنسج، لتنسجا ألبسة الرجل ولأنفسهم أو للأطفال، وتنصب المنسج بصورة مستقيمة، ويربط به جزء من الخيوط وتمرر البقية بواسطة الأصابع، وتثبت بواسطة مخشب وفي الوقت نفسه تجلس امرأة ثالثة خارج الخيمة، وتشد خيوط صوفية بين أربعة أعمدة، وتنسج القماش الذي تصنع منه الخيمة[3]"، فكانت هذه الآلة أو الوسيلة البسيطة المسماة بالمنسج، هي الآلة الرئيسية لصناعة الألبسة في الأرياف، بل وحتى في المدن الكبرى، وهو الأمر الذي ترتب عنه تنوع في الألبسة من ناحية إلى أخرى ومثلت أرثاً محليا متنوعا في كامل البلاد.

إن الصناعة النسيجية البدوية ارتبطت بشكل أكبر بالقبائل التي امتهنت تربية الماشية في مختلف إرجاء البايلكات شرقاً وغرباً ووسطاً وجنوباً، فقد أشار مارمول إلى منطقة مازونة، وبروز الصناعة النسيجية حيث قال: "وفي مازونة كانت مركزا مهم في الصناعات النسيجية، بسبب رواج الرعي

---

(1) –Ibid,P 193.

(2) –Ibid,P 194.

(3) – فندلين شوصلر، المصدر السابق، ص:93.

بسهولها التي كانت تقدم منتوج من القمح"[1]، والأمر ذاته مع القبائل التي قطنت الصحراء من شرقها بنواحي بسكرة إلى غربها بنواحي قورارة وتوات مروراً بمنطقة السهوب أين تتمركز أولاد نائل التي برزت في رعي الماشية وصناعة الألبسة الصوفية والوبرية، بورقلة وتيميمون[2].

كما عرف الريف الجزائري أيضا الصناعات الخشبية التي امتهنتها القبائل التي تتمركز وتتنقل في المناطق الغابية، في كل نواحي البلاد فعلى سبيل المثال اشتهرت في شمال الصحراء قبيل المخاليف بالنجارة الخشبية، وكان الجزء الأكبر من تعداد هذه القبيلة بالأغواط، يتمركزون قرب الجبل لزرق ممتهنين عمل الزراعة بالدرجة الأولى والنجارة الخشبية عبر استغلال الأشجار الجبلية، ليصنعوا الأطباق والحصائر المنسوجة من الحلفا وحتى استخراج الصمغ من الشجر، وقد وجد نبات الحلفا بكثرة بين قرية متليلي والمنيعة [3].

تعتبر المهن والحرف المنتشرة في المدن والحواضر الصحراوية محدودة التنوع، وهذا راجع إلى طبيعة الموارد المتوفرة والإمكانيات البدائية، فهذه المنتجات المحلية كانت توفر احتياجات لقوافل الحجيج المارة بالصحراء[4]، فكثير ما يصور لنا الرحالة بعض الصناعات كصناعة الحرير والزجاج بتوات وقورارة[5] والحرف التقليدية كالصناعة النسيجية للبرانس[6]، وصناعة البارود الذي يعتبر من أهم الصناعات الرائجة في الصحراء الجزائرية وخاصة في منطقة جبل لعمور[7] ، فالمنطقة تتوفر على جبال من الملح

---

[1] – مارمول كاربخال، ج2، المصدر السابق، ص359.

[2] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 93، 95.

[3] -Goorges Hertz, Op Cit, P 142

ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 91.

[4] – عبد الرحمان بلاغ، المرجع السابق، ص:511.

[5] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 95.

[6] – فاطمة بلهواري، المرجع السابق، ص:43.

[7]– رشيد مقدم، (منطقة الأغواط من كتابات الرحالة الجغرافية خلال القرن 19)، **المجلة الجزائرية لمخطوطات**، مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، مج14، العدد01، ماي 2019م، ص:211.

والكبريت والرصاص[1]، فن الملح فقد وجد بكثرة بسبخة ورقلة يقول عنه الأغواطي:" البلدة كلها عبارة سبخة من الملح، ويدخل في نطاق ورقلة أيضاً مكان يسمى الشط"[2]، إلى جانب صناعة البارود والتي كانت تنتج محلياً، حيث تتم عن طريق خلط التراب بالزبل، ثم طبخ الملح ويضعونه في صحن ويصب الماء فيه ثم يخلط مع أربعة أرطال من الكبريت وأربعة أرطال من شجرة الدفلة، وهذه العناصر تخلط جميعا ثم تترك لتصبح بارودا في غضون أربع ساعات [3]، وبنفس الطريقة المشابهة يصفها الأغواطي والتي يقول عنها أن جميع سكان صحاري منطقة الزاب يعرفونها:"يجمع التراب من الأرض أو الملاط في القرى المهدمة، وهذا التراب الذي كان في الأصل من مادة مالحة يوضع في ماعون، ويصب عليه الماء بنفس الطريقة التي يعالج بها الرماد عند صناعة الصابون، ثم يغلى الماء إلى أن يصبح خاثراً، ثم يؤخذ رطل منه ويخلط مع أربعة أرطال من الكبريت وأربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلىء، وهذه العناصر المختلفة تخلط جميعاً في غضون أربع ساعات فتصير بارود اً "[4]. ولوجود منجم الرصاص بمنطقة الزاب فقد وجدت صناعة السيوف والبنادق، وقد استعملها أهل قرية متليلي حسب الأغواطي دائماً[5].

وكذلك كان يصنع نوع من المدافع اشتهرت بها منطقة أولاد جلال، حيث يقول أبو العباس الهلالي السجلماسي: "...وخرج أهل أولاد جلال بمدافعهم وقبائلهم موقدة، لأن المدافع في هذه الناحية لا زناد لها وإنما تضرم بنار في فتيلة، لذا يقال لهذا النوع من المدافع بوفتيلة"[6].

---

[1] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص:88، 91.

[2] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 95، 96.

[3]– ينظر: رشيد مقدم: **المرجع نفسه**، ص:2011. وينظر أيضا: أبو العباس الهلالي السجلماسي: **المصدر السابق**، ص:179.

[4] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص: 95، 96.

[5] – المصدر نفسه، ص ص: 90، 91.

[6]– أبو العباس الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص:207، فاطمة بلهواري: **المرجع السابق**، ص:43.

3- التجارة الريفية من خلال كتب الرحلة:

يمكن تقسم التجارة في الريف والبادية الجزائرية إلى قسمين التجارة في المناطق التلية لما لها من مميزات، والقسم الثاني هو التجارة في الواحات والبوادي الصحراوية، لما تتمتع به من خصوصيات هي الأخرى تختلف به عن الأولى، وهو ما يحتم دراستهم بشكل منفصل عن بعضهم البعض.

أ- التجارة في الأرياف والبوادي التلية:

إن التجارة الداخلية في الجزائر تنقسم إلى تجارة كانت تمارس داخل المدن والحواضر وأخرى تمارس خارجها في الأرياف والبوادي بشكل مختلف شكلاً وتنظيماً ومؤقت، فكانت التجارة في المدن تمارس بشكل يومي وأسبوعي، وفي كثير من الأحيان عرفت التخصص في النشاط فمدينة قسنطينة مثلا كانت فيها لكل حرفة سوق خاص، فهناك سوق لجلد وسوق السلاح وسوق العطارين وسوق للصوف والحبوب[1]، وقد ذكر المكناسي رواج التجارة داخل مدينة قسنطينة فقال: "فلا يكاد الإنسان أن يمشي في داخلها إلا بمشقة من كثرة الازدحام، ويعمر السوق خارج بابها في سائر الأيام ما رأيت بلدة أكثر وارد منها، وهي منبع البغال فمنها تفرق في البلاد، فلو ترى ما يدخل منها إلى السوق في كل يوم لتقضيت العجب، يأتي العرب بها أي بالبغال يسوقونها كأنها القطيع من البقر، وبها رخاء كثير والأشياء موجودة إلا أنها إلى البادية أقرب، وهي من عمل صاحب الجزائر وبها خليفته ويسمونه باي الشرق، فأقمنا بها نحو سبعة أيام تقضينا فيها ضروریاتنا[2].

أما في الأرياف فكانت في نواحي بشكل أسبوعي أو موسمي، وقد ساعد على انتشارها وتعزيزها عدة عوامل منها تشجيع الحكومة التركية للأسواق، سعياً لفرض نفوذها على سكان الأرياف عندما يدخلون إلى هذه الأسواق، ووقوع هذه الأسواق في الطرق المؤدية إلى تجارة بلاد السودان أو

---

[1] -بلخوص الدراجي، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بايلك قسنطينة من خلال نوازل ابن الفكون خلال القرنين 16-17م، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر 2، موسم 2011-2012، ص:104.

[2] - المكناسي، المصدر السابق، ص: 330.

تونس والمشرق بالنسبة للحجيج[1]. ففي الشرق الجزائري كانت الأسواق نوعان: أسواق محلية تعقدها مختلف القبائل في أيام من الأسبوع بحيث يتأتى للجميع المجيء إليها والتزود منها، وأسواق جهوية وأشهرها سوق أولاد عبد النور وسوق الحركاته وسوق السكنية وسوق التلاغمة، سوق ورقلة، سوق الودي وسوق تقرت، أما المعرض السنوي فأنه كان يقام في وادي العثامنة تحت رئاسة شيخ العرب، وتمتلئ هذه الأسواق بالمنتجات والمصنوعات المحلية المختلفة، وبعض المستوردات مثل: الأقمشة والشواشي والأحزمة والعطريات التي كانت أسواق قسنطينة تجلبها، كما أنها تستورد الأقمشة القطنية والخيطية والحريرية من اروبا عن طريق تونس ومدينة الجزائر، وكانت القوافل أيضا تنطلق من مراكز مختلفة في شرق الايالة وتتجه إلى أعماق إفريقيا ومن هنا، فإن تجارة الشرق الجزائري مع تونس والمغرب والسودان كانت تساهم بقسط وفير في تنشيط التجارة الداخلية، على الرغم من الموارد المتداولة في عمليات البيع والشراء تعتبر من الكماليات لأهالي قسنطينة[2].

وفي الناحية الغربية لم يختلف الأمر عن بايلك الشرق ورغم وجود الأسبان في وهران إلا أن العديد من القبائل البدوية في الغرب تتاجر مع مدينة وهران المحتلة فكانت قوافل البضائع تخرج من عمق البوادي محملة بالمواد الغذائية من حبوب ومواشي وأبقار وتدخل إلى سوق المدينة وتزوج الحامية الاسبانية بكل ما تحتاجه، وذلك في الفترات الأولى للتواجد العثماني إلى أن منع العثمانيون التعامل التجاري مع الأسبان، وهم ما جعل الأسبان يشنون غارات نهب وسلب على كثير من القبائل البدوية القريبة من وهران مثل بني عامر وسكان أغبال[3].

وحتى في المناطق الوسطى وخاصة تلك التي تربط التل بالصحراء التي عرفت عدة مناطق للتبادل التجاري بين التل والصحراء باعتبار أن كلا الإقليمين مكمل للآخر اقتصاديا وبشريا ونتج عن هذا

---

[1] – سعيدوني، النظام المالي، المرجع السابق, ص:38.

[2] – الزبيري، المرجع السابق, ص: 112.

[3]– دغموش كاميلية، **قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الاسباني والسلطة العثمانية (1509 –1792)**، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الموسم الجامعي 2014/2013، ص ص79. 80.

التبادل بين الشمال والجنوب ازدهار المراكز العمرانية كبوسعادة والبرواقية وبوغار وبسكرة، وازدياد أهمية أسواق التبادل الموسمي كسوق اللوحة قرب تيارت و"الربايع" جنوب التيطري وسوق العثمانية قرب قسنطينة[1].

وتجدر الإشارة أن الأسواق بصورة عامة سواء تلك المقامة داخل المدن، أو في الريف كانت مراقبة وتحت إشراف السلطات المحلية، في البايلكات وكانت تفرض عليها رسوم تمس المنتجات الفلاحية، الموجهة للأسواق الأسبوعية أو الموسمية بالريف وتحدد في شكل قيمة نقدية، تؤخذ على البضائع المعروضة وقد تستخلص في شكل كميات من السلع المعروضة للمبادلة مثل الجلود والملح والخشب والصوف والزبدة وغيرها[2]، وكانت السلطة تقوم بمنع القبائل البدوية التي رفضت تشديد ضرائبها من دخول الأسواق الأسبوعية والموسمية التي كانت تقام بالقرب من مضاربها، من أجل إجبارها على قبول قرارات السلطة، فكانت تدفع رسماً يساوي عشر ثمن البضاعة المحمولة إلى السوق وإلا منعت من البيع، بل ومن اقتناء ما هي بحاجة إلى[3] ، ويتولى استخلاص هذه الرسوم قائد السوق الذي يعرف في بعض الأحيان بخوجة الرحبة هو عادة ما يحتفظ لنفسه بنصيب منها، يستخدم جزء منه في شراء حق التولية لضمان منصبه، ومن أهم رسوم الأسواق نجد "حق العسة" أو حق البزرة وهو رسم تلتزم به القبائل البدوية، التي اعتادت التوجه لمناطق التل لصرف إنتاجها الزراعي والحيواني وشراء حاجاتها، أو لرعي قطعانها بالأرض الزراعية، وبعد موسم الحصاد قبل أن تعود إلى موطنها بعد انقضاء فصل الخريف، ويقدر رسم "العسة" بدورو واحد أي حوالي خمسة فرنكان على كل حمولة جمل[4].

---

[1] – ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر، المرجع السابق ، ص: 38 .

[2] – عقاد سعاد، **الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية (1519 – 1830) دار السلطان نموذجا**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، جامعة وهران، موسم 2014/2013ن ص: 119.

[4] – عقاد سعاد، المرجع السابق، ص: 119.

لقد عرفت التجارة في الأسواق الريفية امتزاجاً وتداخلا مع الأسواق الحضرية، من حيث حركة السلع والبضائع بنقل سكان البوادي لمنتجاتهم وبضائعهم إلى المدن لبيعها، والعكس صحيح بخروج التجار وأصحاب الحرف والمهن لبيع سلعهم في الأسواق الأسبوعية والموسمية التي تقام في الأرياف، وقد أشارت النصوص الرحلية إلى هذا التداخل من خلال وصف الرحالة للسلع التي تدخل من الأرياف القريبة من المدن إلى أسواقها، فيذكر هابنسبرايت ذلك عن سكان أرياف المتيجة والبليدة فيقول: "فكان سكان أرياف المتيجة والبليدة عن نقص العشب وشح الكلأ للحيونات، يقدمون على بيع إنتاجهم من القمح والصوف والشمع والعسل في المدن، ثم التنقل إلى أماكن وأودية خصبة جديدة بحثا عن الكلأ[1]"، حتى أن كثير من مستهلكي القمح والدقيق في أسواق المدن مثل صناعي الفطائر التي تعتمد على الدقيق كانوا يشتكون من سعر شرائه المرتفع ويطلبون تخفيض سعره ليزيد هامش ربحهم، وكانت السلطة تستجيب لهم أحيانا من خلال عمالها في الأسواق[2].

ومن جهة أخرى نجد الرحالة بايسونال يذكر أن القمح الذي يباع في الأسواق الريفية يدخل أيضا إلى المدن ويباع بأسعار منخفضة، تسمح للتجار ووكلاء السلطة بإعادة بيعه في الخارج فيقول بايسونال في هذا: "ومثل القمح بالجزائر كمادة تجارية أهمية كبيرة، فنظراً لوفرته في هذه البلاد كان يشترى بأسعار منخفضة ويقوم التجار بإعادة بيعه في البلدان الأوروبية بغرض الربح، وكان يدخل إلى فرنسا عبر مرسيليا، وكذلك عبر الموانئ الجنوبية لإيطاليا"[3] ونفس الأمر في النواحي الشرقية من خلال نص التمكروتي الذي يقول عن عنابة:" ويطل على بونة جبل كثير الثلج...وبونة كثيرة اللحم والحوت واللبن والعسل وأكثر لحومها البقر"[4].

---

[1] – هابنسبرايت، المصدر السابق، ص:60.

[2]– عبد الله بن محمد الشويهد، **قانون أسواق مدينة الجزائر**، تح وتق: ناصر الدين سعيدوني، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص:129.

[3] –Peyssonnel, Op. Cit,P280

[4] – التمكروتي، المصدر السابق، ص: 52.

ب- التجارة في الواحات والبوادي الصحراوية:

تعتبر الحواضر والمدن الصحراوية مراكز عبور حيوية لمختلف القوافل المارة بالصحراء الجزائرية، هذه الأخيرة كانت عبارة عن سوق مفتوح لتبادل السلع والبضائع من مختلف القوافل ذهابا وإيابا[1]، وقد شكلت التجارة لدى القوافل الحجية أهم عنصر لدى الحجاج بعد فرصة الحج، وكثير ما يصور لنا الرحالة المبادلات التجارية والسلع والبضائع المتبادلة في البع والشراء، بين الركب والأعراب أو أهل الحواضر والبوادي، فأغلب المنتجات المتبادلة والتي مست ضروريات الحجاج من الشعير والسمن والصوف واللحم والعسل، والخليع والتمر، فقد كانت البضاعة الرائجة بين تجار جزائريين والحجاج المغاربة[2].

ففي الطريق الجنوبي، يذكر ابن مليح أنه التقى مع الطوارق وتعاطى معهم البيع[3]، أما العياشي فيعطي صورة واضحة عن دور منطقة توات تجارياً، فهي مركز تجاري مهم في الصحراء الجزائرية، حيث مركز انتعاش لتجار القوافل[4]، وهي ملتقى لعدد كبير من القوافل التجارية القادمة من السودان، حيث يقول العياشي عن توات «...وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من تنبكت. يوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك في كبر... فإذا قدم الركب إليها كان فيها سوق حافل»[5]، هذا يوحي أن توات كانت من أهم المراكز في الصحراء الكبرى.

أما مركز ورقلة فهو لا يقل أهمية عن توات فمنطقة ورقلة وتقرت هي الأخرى محطة رئيسية لقوافل وملتقى التجار والحجاج القادمين إليها من مختلف الأقاليم سواءً من جهة الجريد أو السودان الغربي، فالمدينة كانت سوقا نشطاً، توجد بها مختلف السلع والبضائع فالعياشي يذكر أن سوقها مكتظ وبها

---

(1)- فاطمة بلهواري: المرجع السابق، ص:43.

(2)- عبد الخالق أحمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي(ت 1239هـ/ 1823م

(3)- ابن مليح: المصدر السابق، ص:234.

(4)- الشيخ الأمين عوض الله، تجارة القوافل من الغرب والسودان الغربي وأثرها الحضارية من القرن السادس عشر ميلادي، المنظمة العربية لتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م، ص:80.

(5)- أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص:79.

سلع كثيرة، حيث يقول «فدخلنا وركلة قبل غروب الشمس ...وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولهم دخول قافلة من الأعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع واشترى الناس ما احتاجوا إليه بأرخص الأثمان، وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك أو أكثر، فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن، واشترى الحجاج غنما كثيرة حتى كأن تلك الليالي الثلاث التي أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم»[1].

وهذا ما يؤكده أبو الهلالي السجلماسي في مدينة النخيلي[2] قرب الأغواط، حيث أنه التقى بأعراب وقالوا له أن القافلة غائبة من أجل جلب الميرة من ورقلة وأن السلع فيها رخيصة جدًا[3].

أما مدينة بسكرة فكانت هي أيضًا حاضرة ومحل إقامة وتسوق الحجاج، حيث أنها محطة تزود وأسعارها رخيصة[4]. أما المناطق الأخرى مثل عين ماضي الأغواط وغيرها من الحواضر الصغيرة فكان الناس هم من يتعرضون لقافلة الحج وتقام بينهم سوق بعيدة عن المدن وذلك خوفاً من السرقة والاختلاس، حيث يذكر أبو الطيب الشرقي أن الركب عندما وصل مدينة الأغواط طلب أهلها إقامة السوق من أجل شراء السلع المغربية فجمع الركب وطالبهم بالخروج من المدينة وإقامة السوق خوفاً من السرقة والتلصص[5]، وتسمى هذه الأسواق بالأسواق الظرفية.

كما تعددت أوجه التجارة في الواحات والبوادي الصحراوية وتنوعت بين التجارة المحلية البينية وتداخلت مع التجارة الخارجية التي كانت تتجه إلى بلاد السودان، ففي أقصى الجنوب ببلدة عين

---

(1)- المصدر نفسه ، ج1، ص:114.

(2)- **النخيلي**: واحة مهجورة تحتوي على أراضي صالحة لزراعة تابعة لبسمغون، تبعد عن القصر 20 كم، وكانت مكان التقاء الركب الفاسي والسجلماسي في خروجهم لرحلة الحج. ينظر: صالح بوسليم، عمر بن قايد: (الأضرحة والمزارات في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات المغربية)، **مجلة الباحث للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة ورقلة، ع21، ديسمبر 2015، ص: 276.

(3)- أبو العباس الهلالي: المصدر السابق، ص: 176.

(4)- عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ج1، ص:220.

(5)- أبو الطيب الشرقي، المصدر السابق، ص91.

صالح، حيث يتردد التجار لشراء العبيد وتراب الذهب[1]، ومن تلك المحطة ببلاد السودان تبدأ الرحلة التجارية لتجار إقليم توات وضواحيها لتلك البلاد، ويكون ذلك في بداية السنة فقط، وفي هذا الفصل بالذات من شهور السنة، يتجمع التجار في عدد كبير بهدف السفر سوياً ولضمان الأمن بالكثرة ضد هجوم التوارق، وتصطف الجمال صفوفاً وراء بعض، وكل صف فيه مائتا بعير وبهذه الطريقة تعبر القوافل الصحراء. أما عن البضائع المستوردة من السودان فهي العبيد وتراب الذهب، وفي مقابل ذلك تصدر توات وقورارة الحرير والحديد والزجاج وأمثالها من السلع[2]. ومن الجهة الصحراوية الشرقية من واد سوف تتجه قوافل التجار لغدامس بهدف جلب العبيد وهكذا. أما عن تجارة مع ركائب الحجيج المغربية، فهي من كانت تحضى بحصة الأسد، تلك التي أنشاها المسير إلى بيت الله الحرام، في مختلف المناطق التي مرت بها أركب الحجيج، تنوعت السلع التي كانت ترد الأسواق الصحراوية من المغرب الأقصى وتعددت، خاصة تلك التي كانت اركب الحجيج تحملها للتبادل والمقايضة والتي ذكرها العياشي في رحلته الصغرى حيث يقول: "وانفع ذلك القرنفل مع شيء من الكحل، والسواك والزعفران، والجاري والمشط وشيء من الإبر والكاغد، والجاوي الصغار والألواح، فلا تخل نفسك من كل ذلك، فربما يطلب في بلد ما لا يطلب في غيره "[2]. كما يصفها الحضيكي بأكثر شمولية هذه السلع بقوله: «العطرية والكحل والشب، والكبريت والمشط، والمرآة والجلود المدبوغة الحمر والصفر والنعال، فإنك تلقى العرب رجالا ونساءً يسألون عن ذلك ومعهم اللحم والخضر والفواكه والسمن واللبن»[3]. كما كان من أهم المنتوجات التي لقيت رواجاً بين أوساط الحجاج مادة السمن وهو من مشتقات الحليب، يقدم مع جل الأغذية والوجبات لأنه يقوي الجسم ويساعده على

---

[1]- ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص:94.

[2]- المصدر نفسه، ص ص:94، 95، 96.

[3]- العياشي، الرحلة الصغرى، ص:129.

[4]- الحضيكي، المصدر السابق، ص: 81.

تحمل مشاق السفر خصوصا في فصل الشتاء[1]، فكثيرًا ما تطرق الرحالة إلى السمن فنجده في كثير من الأماكن خاصة في القصور والأسواق مثل ورقلة وبسكرة[2]وبوسمغون، حيث تجلبه الأعراب والرعاة إلى الأسواق ويذر على أصحابه أرباحاً طائلة[3] فلهذا فقد كان ازدهار الأسواق والتجارة في مختلف البوادي الصحراوية والتي سنقسمها إلى واحات غربية والواحات الوسطى والواحات الشرقية.

❖ الواحات الغربية:

عرفت البوادي والواحات الصحراوية بالجزائر العثمانية نشاطات اقتصادية متعددة لعل من أبرزها التجارة الصحراوية التي برزت فيها عدة مناطق من الصحراء، فقد كانت الصحراء الجزائرية سوقاً مكتظاً بالقوافل التجارية والحجازية التي كانت متنفس الكثير من الرحلات الحجازية، فهي تمدهم بمنتوجات مغربية ويأخذون منتوجات محلية وصناعات يدوية، حيث أن المنتوجات المغربية لقيت رواجاً في الصحراء الجزائرية، وقد توزعت في الواحات الغربية والوسطى والشرقية، وقد أسهمت النصوص الرحلية في رسم معالم تلك التجارة، بدء بالمناطق التي اشتهرت وراجت بها التجارة، وكذلك ابرز السلع المتداولة وطبيعة المعاملات بين الباعة والتجار وما تشتهر به كل منطقة وما قد يميزها عن المناطق الصحراوية الأخرى.

ففي الواحات الغربية للصحراء الجزائرية أوردت النصوص الرحلية ما تميزت به فيجيج من أسواق وسلع كالصناعات النسيجية التي كانت متمثلة في الأكسية والبرانس، حيث كان الحجاج يشترونها من القصور وخاصة إذا تزامنت الرحلة مع الشتاء[4]، وفي ذلك يصف السجلماسي أسواق وسلع فجيج

---

[1] – محمد الكبير الفقيقي: (الدور الاجتماعي والإقتصادي للقوافل التجارية الحجية بالصحراء الجزائرية أثناء الفترة الحديثة)، **مجلة دراسات**، مخبر الدراسات الصحراوية، جامعة بشار، ديسمبر 2015، مج04، ع02. ص:192.

[2] – محمد الكبير الفقيقي، حاضرة بوسمغون في المصادر المغربية أثناء العصر الحديث، **مجلة مواقف للبحوث والدراسات**، ع09، ديسمبر 2014م، ص:308.

[3]– محمد الكبير الفقيقي، الدور الاجتماعي والاقتصادي ...، المرجع السابق، ص:192.

[4] – أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص:79.

بقوله:" أقمنا هناك ثلاثة أيام، الأول منها: لتسوق مع أهل البلد، وشراء بعض المحتاج إليه من برانس وغيرها وباع بعض الناس هنا ما معهم من الجلد المصبوغ المحمول من بلدنا، وأكثر الناس بيعه إلى ما استقبلوه من البلدان والأعراب على عادة الحجاج، وحمد البائعون هنا مغبة بيعهم لعدم نفاقه هذه السنة فيما استقبلوه مع استراحتهم من كلفة حمله، واشترى الحجاج هنا برانس كثيرة، بيضا ومخططة[1]، وبرانس هذه البلدة محتاج إليها في الطريق أوان الشتاء، نافعة جدا لصفاقتها ومتانتها مع رخصها هنا غالبا "[2]، فكلامه عن وفرة الألبسة بأسواق فيجيج يمكن رده إلى تميز المنطقة بحرفة الرعي التي اشتهرت بها المنطقة، وما تقدمه من مادة أولية من الأصواف والأوبار لتنشيط الصناعة النسيجية لإمداد الأسواق المحلية، كما وجد ما يدعم كلام السجلماسي في نص الدرعي الذي أورد بدوره نفس الملاحظة حول مشتريات الحجاج من أسواق فيجيج فقال:" فاشترى الحجاج ما احتاجوا إليه من الأكسية والبرانيس وغير ذلك من الثياب واشتريت الكاغيد."[3]، فكلام الدرعي يؤكد اشتهار أسواق فيجيج بالمنتجات النسيجية من الألبسة والأكسية.

والحال نفسه مع منطقة توات التي أشارت النصوص الرحلية وجود أسواق دائمة بها ورواج التبادل، فيقول عنها ابن السراج" لبلاد توات : بني أركان:" وبيع وشراء وأخذ وعطاء فيا لها من بلدة ما أحسنها جبر الله صدعها، وأدام للمسلمين نفعها[4]"،كما اشتهرت بتجارة التمور التي كان تصدر إلى الخارج عبر القوافل التي تمر عبرها إلى بلاد السودان والى المشرق فقد قال العياشي عن قرى توات:" ودخلنا أول عمالة توات وهي قرى تسابت ... وأقمنا بها ستة أيام وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا واشترينا ما يحتاج إليه التمر فيها الرخيص..وغالب أهلها عوام أهل تجارة جل عيشهم

---

[1] - السجلماسي، المصدر السابق، ص:115.

[2] - المصدر نفسه، ص:115.

[3] - الدرعي، المصدر السابق ص:126.

[4] - ابن السراج، المصدر السايق، ص: 79.

التمر[1]"، وعن أهميتها الإستراتيجية قال: "وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من تنبكت ومن بلاد أكيدز من أطراف السودان، ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك شيء كثير والسلع التي تجلب من الغرب مما هو خارج السودان نافقة في هذه البلاد كالخيل وملابس الملف والحرير، فإذا قدم الركب إليها كان فيها سوق حافلة[2]"، وقد ذكر السراج الأسواق التي تنصب خارج الواحات في الطرق التي تمر معها القوافل حيث قال:" وفي مورد يقال له " واد جاف" تحت جرف مرتفع كثير الماء، وفيه من الحمام البري ما لا يحصى عددا وجدناه فيه بعض العرب من التوارك، تعاطينا معهم البيع والشراء[3]".

وقد بين هذا الدور بصريح العبارة ابن الدين الأغواطي عن الطوارق ودورهم التجاري مع أهل السودان بأنهم:" يقومون بغزوات أو جولات في السودان، ويعودون بعدها بالعبيد وغيرهم من البضائع"[4]. كما يضيف هذا الأخير وصفاً لسوق بلدة تيميمون في إقليم توات، حيث يباع العبيد وتراب الذهب بكميات كبيرة، ويباع تراب الذهب بوزن المثقال بالأوقية، ويتاجرون خاصة مع التوارق[5].

وقد زخرت رحلة السجلماسي بعديد من المقتطفات عن التبادل التجاري والسلع المتواجدة في أسواق الواحات الصحراوية الغربية الأخرى وقد افرد بدوره العديد من النصوص التي تبين طبيعة نشاطها الاقتصادي وأهم السلع المتداولة؛ ففي واحات وبوادي منطقة البيّض، فذكر توفر مادة التمر في منطقة القنادسة بنواحي البيض حالياً فقال:" ثم ارتحلنا من القنادسة، ومررنا قرب الزوال بقرى بشار فتلقانا أهلها بالبشاشة، وقرونا تمرا كثيرا..وبلدتهم ذات نخل وتمر لا بأس به"، ونفس الأمر بقرية

---

[1] – العياشي، المصدر السابق، ص ص: 78، 79.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص:80.

[3] – ابن السراج، المصدر السابق، ص:80.

[4] – ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 98.

[5] – المصدر نفسه، ص: 93.

واكدة التي تتميز بتمورها فقال "فمررنا بقرية واكدة خرجوا لنا، وأخرجوا تمراً جزاهم الله خيرا، وماؤهم مجلوب بالفقاقير وأكثر نخليهم تملكه الأعراب"[1].

وليس ببعيد عن القنادسة فقد تميزت واحات بوسمغون[2] بزراعة الشعير وجودته ووفرته فيقول في ذلك: "بوسمغون وفي هذه البلدة شعير جيدا جدا وأخبرونا أنهم يعالجونه في الحرث وما بعده ويقاسون فيه جهداً ثم ارتحلنا من هناك غداً، وقد نالت دوابنا بكثرة الشعير عيشا رغدا[3]"، وهذا ما يبين الطبيعة الفلاحية لواحات البيض التي كان إنتاجها الفلاحي وفيرا، مثل واحة الرباوت التي قال فيها "ورحنا الرباوات...وجاؤوا بلفت يبيعونه للحجاج، فرغب الناس فيه مع رداءة لفت هذه البلدة"[4]، ويؤكد قول السجماسي أبي سالم العياشي الذي ذكر توفر مادة الشعير بسوقها حيث قال: "أبو سمغون ووجدناه الشعير أرخص بكثير من البلاد التي ممرنا عليها قبل.. وبلغ الشعير قريبا من ريال للصاع، وبلغ الدقيق أكثر من ذلك وبقيت لي هناك ناقة أحمل عليها كتبي فبعتها بثلاث ريالات"... وأقمنا فيه غدا آخر يوم من رمضان..فرجعنا واشتريت من هناك حماراً لركوبي بأربعة ريالات"[5]، فتشابه مضامين النصوص الرحلية حول اشتهار المنطقة بالتجارة وبسلع معينة، ما بين المنتجات الزراعية وأخرى حيوانية، تبين فيها تميزها بتلك البضائع على امتداد زمني طويل.

والأمر نفسه في واحة الكراكدة القريبة من البيّض حيث يقول السلجماسي عنها: "الكراكدة وهي قرية صغيرة بها نهر جار وشجرات ومزارع، وبتنا قربها، فلم نر سارقا بحمد الله جزاهم الله

---

[1] - السجلماسي، المصدر السابق، ص:113.

[2] – **وسمغون:** بلاد ذات أشجار ومياه بمنطقة الظهرا نواحي البيض، سميت باسم شيخ من الأولياء الصالحين حل بها وهناك قبره، وبها ناس ينتسبون إليه، والبلدة ذات عنب حسن تضرب به الأمثال في هذه البلاد، وغيره من الأشجار قليل. ينظر: العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 83 ، الحضيكي، المصدر السابق، ص: ، محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى المصدر السابق، ج1، ص:193 .

[3] - السجلماسي، المصدر نفسه، ص131.

[4] - نفسه، ص: 132

[5] – العياشي، المصدر السابق، ج2، ص ص: 548، 549.

خيرا[1]، وقد ذكر العياشي ما يميز سوقها فقال: "قرية الكراكدة ووجدناه في غاية ما يكون من الغلاء، وقد غارت عليهم خيل من خيول العمور بالأمس فأخذت لهم غنما بقيت لهم"[2]، فالسمة التي تميزت بها التجارة في واحات منطقة البيض هي تجارة المواشي والإبل بصور رئيسية لرواج الرعي بشكل واسع في وسط سكانها وقياساً بطبيعتها التضاريسية والمناخية، فكانت محطة شراء وبيع واستبدال للخيول والجمال لمواصلة المسير في المفاوز[3]خاصة للقوافل العابرة للصحراء.

❖ الواحات الوسطى:

وفي الواحات الوسطى للجزائر برزت عدة مناطق تجارية تأتي في مقدمتها واحات الأغواط والتجار الاباضيون بمنطقة غاردية، فكانت واحات الأغواط غنية جدا من حيث الزروع بغرس مختلف النباتات من نخيل وأشجار العنب والتين والرمان وزراعة الخضر والحبوب، الأمر الذي جعل أسواق قصور الأغواط تتوفر على كميات كبيرة من المنتجات، مع معروضات البدو الرحل في السوق من إحضار للحيوانات والأصواف والزبدة بكميات كبيرة[4]، وقد ذكرت الرحلات الحجية واقع أسواق واحات الأغواط أيضا كواحة عين ماضي وتاجموت مبينة أهم السلع المعروضة والمتداولة فقال السجلماسي عن عين ماضي:" بدت لنا عين ماضي... واشترى منهم الحجاج جلودا أو لحماً وغير ذلك،...، ولهم بحيرات داخل سورهم فيها أشجار وقرع عندهم له شأن، حتى إن رجلاً جاء يطلب برنساً يشريه بقرعة، وذكر لنا جاء يطلب بعيرا أعيا يشتريه بالقرع، وأقمنا بها يومين وجاء الأعراب بإبل وغنم للبيع[5]". وفي الواحة القريبة من عين ماضي وهي تجموت يقول:"وارتحلنا وتركنا قرية تجموت ذات الشمال، وتعرضت لنا بعض أهلها يعرضون البرانس للبيع، ويطلبون الجلود المدبوغة

---

[1]- السجلماسي، المصدر السابق، ص:134.

[2] - العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 548،

[3] - الحضيكي، المصدر السابق، ص:83.

[4] -Goorges Hertz, Op Cit, P131.

[5] - السجلماسي، المصدر السابق ، ص: 141.

والعطرية للشراء، ورغبوا في الإقامة عندهم للتسوق معهم وزعموا أن السعر عندهم رخيص، فسألناهم بكم الشعير عندهم؟، فأخبرونا بما دلَّ على غلائه، فلم نعرج عليهم...وقريتهم كثيرة أشجار التين والرمان، فمررنا عند العصر بماء في واد كثير شجر الطرفاء يشبه وادي الأشبور وهذا أكثر منه"[1].

وعند وصول السجلماسي للأغواط ذكر غلاء أسعار السلع فقال: :" فنزلنا في مقابلة قرية الأغواط بعيدا منها وهي قرية كبيرة ذات نخل وشجر، ووجدناها غالية الأسعار ورغبة أهلها في إقامتنا[2]"، وقد ذكر العياشي غلاء الأسعار في الأغواط قبل ذلك حيث يقول:"الأغواط ووجدنا الغلاء كثيرا عندهم مقدار مدين فاسيين بريال قمحا، فلم يخرج أحد منهم إلى الركب، وكانوا يدلون الزرع من فوق السور ويأخذون الريال ويغسلونه ولا يتناولونه إلا بعد الغسل"[3] ويشير الدرعي إلى وفرة الخضر والفواكه بالأغواط لما استقبل به الركب الذي سار فيه، وقد أثنى على جودته [4]، فيما كانت تباع الإبل والأغنام والسمن لتزويد القوافل في البوادي القريبة من الأغواط، فقد أشار العياشي إلى ذلك فيقول: "ووجدنا عرب الأغواط الغربية قد فروا أمامنا من العمور، ونزلوا قريبا من قرى ربا ونزلنا عندهم ظهراً فوجدناها لديهم سمنا كثيراً وقليلاً من الإبل واشترى الناس حاجتهم من السمن"[5]، وهذا ما يبين وجود الأسواق المؤقتة التي ينشط فيها أعراب البوادي للتبادل مع عابري الطرق.

ولكن الحركة التجارية الصحراوية إجمالا وفي المناطق التي تربط السهوب بالصحراء خصوصاً كانت تعاني من مشاكل تنظيمية منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، إذ كان من الصعب على من يريدون المرور بتجارتهم عبور القسم المركزي من الأطلس الصحراوي، من خلال

---

[1] - االمصدر نفسه، ص: 143.

[2] - المصدر نفسه، ص: 143.

[3]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص:546.

[4] - الدرعي، المصدر السابق، ص ص: 132،133.

[5]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص:548.

الطرق المباشرة خاصة تلك التي تربط الجلفة بواحات وقصور الأغواط، فكثيرا ما كانت قبائل أولاد نائل وقبائل الارباع لكي تمر قوافلها بسلام، لابد لها من الدخول تحت حماية ورعاية شيوخ القبايل المتواجدة في الطريق التي عادة ما تكون مسلحة ولها نظام حماية قوي، بسبب انتشار قطاع الطرق واللصوص من المخاليف المتسكعون في تلك المسالك، وكانوا يقيمون فيها مراكز لبيع الغنائم المسلوبة وقد يدخلون بها إلى سوق زنينة وسوق مسعد، فهذا الواقع المرير للحركة جعل القبائل الرحالة تسلك الطريق الوحيد الأمن وهو طريق ملتوي من الجبل لزرق من الغرب ويمر من منطقة الشارف فعوينات ثم الحاجب إلى واد مزي[1].

أما عن التجارة جنوب الأغواط اشتهرت واحة بني ميزاب[2] الإباضين في الصحراء الوسطى للجزائر بممارسة التجارة وعلو شانها لدى ساكنها، وقد عرفت المنطقة بتقاليد في التجارة وقداسة كبيرة لممارستها، وفي هذا يقول الرحّالة التنلاني الذي زار قصور غرداية عن:" والتاجر الغريب يذهب ويجيء بماله من غير خوف عليه ولا على ماله، ولو أن للرجل ألف قنطار ذهباً وتركه خارج البلد، أو أحد أزقتها ما خاف عليه ولا اهتم به وإذا سرق السارق فعندهم يجتمع عليه أكابر البلد ويذبحونه في المجزرة، من غير فرق بين الشريف ومشروف، ووضيع ورفيع، وقليل السرقة وكثيرها سواء وقاعدة هذه القصور " غرداية"[3].

وكانت تسيّر القوافل منها وإليها قاصد أمصارا عديدة، خاصة إلى مدينة الجزائر عاصمة الايالة والى البلاد التونسية وجزيرة جربة خاصة التي ربطتها علاقات وطيدة بها، فكان يستقل التجار الاباضيون اركب الحجيج المغربية لما توفره من امن وأمان وحراسة طول الطريق، ويشير السجلماسي

---

[1] -Goorges Hertz, Op Cit, P131 .

[2] – تعددت التقسيمات في المصادر التاريخية والجغرافيا حول الإقليم، ولعل تقسيم ابن خلدون كان أشمل، حيث عرفها "وهذا الزاب وطن كبير يشمل قرى متعددة ومتجاورة جمعا جمعا، ويعرف كل واحد منها بالزاب، وأولها زاب الوسن، ثم زاب طولقة، ثم زاب مليلة، وزاب بسكرة، وزاب تهودا، وزاب بادس، وبسكرة أهم هذه القرى كلها. ينظر: عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص:585.

[3] - التنلاني المصدر السابق، ص: 240.

إلى هذه الظاهرة فيقول: "وارتحل معنا القوم الذين ذكروا لنا من امزاب...قاصدون تونس لاكتسابهم بيع الفول المطبوخ ونحو ذلك، وذلك دأبهم على ما ذكر لنا، يدخلون في الركب خوفاً من الأعراب ويوهمون أنهم حجاج وإنما يحجون إلى تونس لاكتساب الفلس، فيذهبون مع الركب إلى توزر ويفارقونه ويذهبون لشأنهم، ولا ينفعون الركب بفرس ولا بغلة، ولا مدفع ولا حراسة بالليل، إنما هم مشاة...وقد تفطن لهم الأعراب فتعرضوا للركب بسببهم، فصالحوهم على جلود مدبوغة اشتروها من الركب ودفعها أمير الركب، وكلمهم في شأنهم فخلوا سبيلهم"[1].

كما عرفت الأسواق المحلية بناحية غرداية رواجاً للسلع المرتبطة بالنشاطات والحرف لممارسة على مستوى الواحات والبوادي القريبة، فكانت تمور المنطقة من أجود الأنواع وعمرت الأسواق بكل المنتجات المرتبطة بحرفة الرعي ويمكن استنباط ذلك من وصف التنلاني حيث يقول:" وكلهم أهل نخيل وشجر، ونخيلهم ما رأيت مثل صلاحه في " توات " و" تفلالت" ولا في " لفاتجة" إلا أن الماء عندهم لا يجري وحده يجبدونه بالبغال والحمير والإبل، ويحط فيها من العربان مالا يحد ولا يوصف، ويجلبونه إليها من الصوف والسمن والغنم والزرع ما فوق الكافية، وهم في التسمية تحت طاعة صاحب الجزائر وفي الحقيقة ليسوا تحت طاعة أحد، وعندهم من صنوف الأموال ما لا يوجد عند غيرهم من أهل الصحراء، وتلك همتهم ودينهم"[2].

كما تواجدت نوع من التجارة الخدماتية التي كانت تمتاز بها بعض القبائل، ويتنقلون لتقديم خدماتهم كخدمة التطبيب للأفراد والحيوانات عبر معالجتها وبيع الأدوية، ومن أمثلة ذلك ما عرف به عرش المخاليف بالأغواط الذين برعوا في علاج الجمال الجرباء وكانوا يصلون إلى مناطق بني ميزاب[3]

---

[1] - السجلماسي، المصدر السابق ، ص: 151.

[2] - التنلاني المصدر السابق، ص: 241.

[3] – التركيبة الاجتماعية لإقليم الزاب فهم من البربر والعرب، أولاً البربر وهم سكان المغرب الذين سكنوا الزاب والصحراء وحواضرها فكان الزاب من زناتة ومغراوة، هوارة وأوربة توزعوا في مدن الزاب، أما العرب: فهم الذين استقروا منذ الفتح الإسلامي حاله حال الحواضر الصحراوية سالفة ذكر، لكن بمجموعات قليلة ولكن مع الوصول والحلول الهلالي أزاحوا القبائل البربرية إلى

لعلاج جمالهم، حتى شاع عنهم تسميتهم بالمخاليف الجرب، والقصد هنا ليس الإنسان وإنما جرب الجمال، كما برع المخاليف في صيد النعام، وهو الأمر الذي كان يتطلب وجود رجال يقاومون الوقوف لعدة أيام في أشعة الشمس الساخنة قرب الكمائن المنصوبة للصيد، وكثيرا ما كان ينقطع بهم الزاد أثناء الصيد، وكان النعام الذي يصطادونه يقومون ببيع دهونه إلى صيادلة قصور الاغواط وغرداية التي تستخدم في علاج الإمراض خاصة الروماتيزم وكانوا يبيعون ريشه إلى بني ميزاب[1].

❖ الواحات الشرقية:

وفي الواحات الشرقية وتلك المتاخمة للبلاد التونسية، اشتهرت أسواق متعددة خاصة في ورقة وفي بني جلاب وخاصة في بسكرة وواحاتها وتنوعت السلع باسواقها وطبيعة التبادل، فقد عرفت التجارة البينية بين واحات الصحراء تنوعا حسب مواسم السنة، وتنوعت السلع والبضائع على حسب الفصول أيضا، فكانت الواحات المشهورة بزراعة النخيل وتجارة التمور تقوم بالتجارة في المواشي وما ارتبط بها من مواد كالجلود والقرب وغيرها في فصل الشتاء، وتتجه به إلى الواحات التي تعرف نشاطاً تجاريا مخالفا لها والعكس بلعكس، فقد أورد السجلماسي نصّاً يشير إلى هذا فقال: " فتعرض لنا أعراب يبيعون جلود البقر والمزاود والقرب وذكروا لنا أنهم ليس لهم في هذا الوقت زرع ولا تمر، وإنما يقتاتون اللحم، وأن قافلتهم غالية لجلب الميرة من وركلا، وأنها رخيصة هناك جداً وبينهم وبينها عشر مراحل، وقد شهدت بصدق أقوالهم مشاهدة قرائن أحوالهم فإنهم يبيعون جلد البقر بالخبزة ويبيعون المزود بكتيلة من التمر، وقد مررنا بهم عجالى ولو وقفنا معهم للبيع لربح الناس معهم، لكن المطلوب أمام . وقد اشترى منهم رجل ناقة بجلود غنم مدبوغة، واشترى آخر شاه فيما ذكر بشيء تافه من

=الجبال وعلى الخصوص إلى الأوراس. ينظر: مختار حساني، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، دار الهدى، ج5، 2011م، ص:10.

[1] -Goorges Hertz, Op Cit, P 142.

ورق العشبة المدبوغه، واشترى آخر شاه فيما ذكر شيء تافه بجلود غنم المذمومة المساة عند أهلها " تبغى "، وطلبوا من يشترى منهم حمار بها وليست عندهم دينار ولا درهم[1]".

كما عرفت أسواق ورقلة قدوم تجار المناطق القريبة منها كتجار بني جلاب ومنطقة الأرباح للتبادل وهو الأمر الذي كان يساهم بتوزيع السلع المعروضة التي تشتهر بها كل جهة، خاصة لكون ورقلة واحة رئيسية في طريق القوافل، فقد ذكر العياشي انه وصول ركبهم إلى ورقلة تصادف مع قافلة منطقة الارباع فقال: " فدخلنا واركلا قبل غروب الشمس ونزلنا باب المدينة المسمى باب السلطان، وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولهم دخول قافلة من أعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع اشترى الناس ما احتاجوا إليه بأرخص ثمن، وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك وأكثر فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن واشترى الحجاج غنما كثيرة حتى كأن تلك الليالي الثلاث التي أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم [2]". فكلام العياشي يبين بشكل واضح ان سوق ورقلة كان سوقا رئيسيا في المنطقة الشرقية للصحراء الجزائرية.

وفي الطريق بين ورقلة وإقليم الزاب المهم في التجارة تتواجد واحات بني جلاب بتقرت وتليها واحات وادي سوف التي اشتهرت بالفلاحة وغرس الأشجار وتربية الحيوانات والمتاجرة بكل المنتجات الفلاحية والحيوانية من لحوم وسمن وغيرها[3]. وفي واحات منطقة الزاب المتعددة، تجمع المصادر الرحلية أن هذه المنطقة كانت محورية في التجارة ورئيسية بالنسبة للقوافل[4] نظرا لاتساعها وتعدد واحتها كواحة أولاد جلال وبسكرة وسيدي خالد وغيرها، كما زخرت النصوص الرحلية بحديثها عن أسواقها وسلعها، ففي واحة سيدي خالد يقول السجلماسي:" خرج إلينا قرية سيدي خالد قضهم بقضيضهم جاءوا جميعا بكبارهم وصغارهم وتسوقوا وسط الركب ونساء وولدنا، يبيعون التمر وهو

---

[1] -السجلماسي، المصدر السابق، ص:152.

[2]- العياشي، المصدر السابق، ص: 114.

[3]- المصدر نفسه، ص: 157.

[4]- الناصري، المصدر السابق، ص: 158.

كثير عندهم، ومع ذلك غال جداً، وأجوده عندهم نوع يسمونه الحرة. ولقد كان مثله وأفضل منه في بلدنا تأكله الدواب ولكن كما تقول العامة: الأعمش في حارة العمي يسمى أكحل العينين ووجدنا الشعير عندهم كاد لا يرى فضلا عن أن يذكر، وقد أكثروا اللغط والصخب وسط الركب حالة التسوق وانتزع بعض الظلمة من حشو الركب مزود تمر من بعضهم فانكسر قطيعة، وانجلت عن سلامة الركب بحمد الله"[1]، وهذا ما يشير إلى الأسواق المؤقتة أو الظرفية التي كانت تنشا بين السكان المحليين والعناصر الوافدة عبر القوافل التي تعددت أغراض تنقلاتها.

ويقول السجلماسي عن واحة بسكرة: "فأقمنا في بسكرة يومين لشراء المحتاج إليه من دقيق وإدام والدقيق لا يوجد هنا إلا فيها: لاختصاصها بوجود أرحاء الماء فيها دون غيرها. وتسوق أهلها مع الركب، وباعوا بغالا وهذا محل شرائها لأن هنا من قسنطينة ونواحيها لهذا الموضع...وباعوا إداما ودقيقا وشعيرا واشتروا قليلا من المجلوب من بلدنا من الثياب الرقيقة، ومن الجلد المدبوغ، ومع كون هذه البلدة معروفة بكثرة النخيل والحرث وجدنا التمر فيها معدوما في فصل الخريف والشعير غالبا، فلم تشتر بها من الشعير إلا القليل "[2]، وقياسا لأهمية سوق بسكرة فقد اكتسب شهرة كبيرة لدى الحجاج المغاربة وأصبحت محطة ضرورية للتزود والتبضع وبيع المنتجات المغربية، فقد أوصى العياشي بذلك فقال في كتابه:" تعداد المنازل الحجازية أو التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز: "فإذا وصلتم إلى بسكرة فجددوا ما تحتاجون من زاد لأن أرحية الماء ليست إلا هناك، وهي بلدة رخيصة في الغالب وهي أول عمالة الترك، وبيع هنالك ما بقى عندك من الجلد الأحمر واشتر ما تحتاج من جلود البقر، فقل أن تجدها أمامك إلى مصر إلا بذلك، وأشتر جل ما تحتاج إليه من العلف إلى توزر وهي ثمان مراحل "[3]، ومما يعزز هذا القول أن العياشي في رحلته أشار إلى أن منطقة بسكرة، التي كانت تعرف وباء منتشر وهو ما استدعى نزول الركب بعيد عن المدينة، لكن

---

[1]- السجلماسي، المصدر السابق، ص:155.

[2]- المصدر نفسه، ص: 165.

[3]- العياشي، الرحلة الصغرى...، المصدر السابق، ص: 66.

حجاج الركب دخلوا إلى المدينة للتبضع مجبرين وفي هذا يقول العياشي:"...ونزلنا بسكرة ضحى..وكان نزولنا خارج البلد من غربيه لأجل الوباء، واضطر الناس لدخول البلد لشراء الزاد"[1].

وذكر العياشي الأسواق المؤقتة بمنطقة الزاب وتحديدا في أولاد جلال، التي كانت تتشكل فور وصول القوافل والأركاب إلى المنطقة، فقد جرت العادة أن يخرج سكان الواحات القريبة من طريق القوافل بسلعهم ليبيعوها ويشتروا من القوافل ما تحمله من سلع، فيقول في ذلك العياشي:" ثم مررنا ضحى بقرب أولاد جلال، ... ولهم نخل كثير وشجر، ولا وادي لهم وسقيهم بالآلة ..وفي بعض الأحيان يقع بينهم وبين الحجاج قتال لكن نحن ما رأيناها إلا الخير، فقد خرجوا زائرين للركب، ومتسوقين بالتمر والشعير والدلاع، وهم يخزنونه ليبيعوه للحجاج، فيوجد عندهم في فصل الشتاء كثيرا"[2].

كما إشارات نصوص الرحلة العياشية إلى الاضطرابات الأمنية التي كانت تعيق عملية التبادل التجاري بواحات منطقة الزاب إجمالا باستثناء سوق بسكرة الرئيسي، فقد كانت تعرف إغارة على القوافل التجارية وأركاب الحجيج، فقد ذكر السجلماسي تعرض الركب المغربي في السنة التي سبقت حجه إلى الاعتداء ودخول الركب في حرب مع أعراب المنطقة، ووصل تهديدات بالهجوم على الركب الذي كان فيه حيث يقول: " وقد سمعنا أنهم عزموا على محاربة الحجاج، وخرج بعضهم بمدافعهم وفتائلهم موقدة، لأن مدافع هذه النواحي لا زناد لها، وإنما تضرم في فتيلة، ولذا يقال: لهذا النوع من المدافع " بوفتيلة " فنهاهم طلبتهم وأهل الخير منهم فانتهوا، وكفى الله المؤمنين القتال[3]، ويقول في موضع أخر عن ذات المنطقة وما لقيه الركب " وعبرنا الوادي قبالة القرية، وتلقانا قليل من أهلها ولم يسلموا علينا ولا أرونا طلاقة وجه كما هي عادة الناس عند لقاء الركب، وقالوا لا تعجلوا فإنا لم

---

[1]- المصدر نفسه، ص:539.

[2] - العياشي، الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص:157.

[3]- السجلماسي، المصدر السابق، ص: 158.

نشعر بكم، وقد بعثنا للقرية ليخرج الناس يتسوقون معكم، فمضينا عنهم مسرعين، ولم نعرج على سوقهم على فرض صدقهم لقربنا من بسكرة محل الإقامة والسوق[1]".

فكانت مثل هذه الأحداث بين الحين والآخر تؤثر على حركية النشاط التجاري في الواحات الصحراوية لكون فعل قطاع الطريق[2] كان ملازماً لهذه المفاوز، وقد أشار السجلماسي إلى كساد التجارة بسبب هذا الأمر فقال: "وكسدت سلع الحجاج التي جلبوا من سجلماسة بقصد البيع هنا لغيبة الأعراب...ولكننا حمدنا الله لذلك لأن مضرتهم أكبر من نفعهم، فإنهم تكثر إذابتهم للركب، ويهمون بنهبه فيقع بينهم وبينه قتال مع كثرة عددهم، ومع ذلك لطف الله تعالى بوفده وزوار حرمه، فلم ينهب غالبا إلا من شذ عن الركب، أو وجدوا فيه غرة"[3].

وخلاصة القول في التجارة الصحرواية على ضوء النصوص الرحلية إن التجارة عرفت ممارسة في الواحات والبوادي والحواضر مجتمعة، غير أن لكل نشاط تجاري خصوصياته، فأسواق الواحات تعددت بين الأسواق اليومية التي تكون داخل الواحات والحواضر والتي غالبا ما يتم في التبادل على المستوى المحلي فقط بين سكان الواحة أو المنطقة الواحدة، ويضاف لها الأسواق الكبرى الأسبوعية والموسمية والتي تكون اكبر من الأولى من حيث حجم التبادل والفئات التي تدخل السوق، والتي تتعدى الواحدة والمنطقة الواحدة، لمشاركة الواحات لمجاورة والقوافل التجارية التي تمر من لهذا الغرض،

---

[1] - المصدر نفسه، ص: 160.

[2]- عن ظاهرة اللصوصية في الصحراء الجزائرية من خلال الرحلات الحجازية حلال العهد العصماني. ينظر: حسان رشيد، اللصوصية في إيالة الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرن 17 و18 قراءة في الصادر المحلية، **مجلة ليكسوس، المغرب**، ع05، أوت 2016م، ص246، فارس كعوان، ظاهرة اللصوصية وقطع الطريق بمنطقة سطيف من اللصوص السلب والنهب إلى ظهور اللصوص الشرفاء أواخر القرن 19، **مجلة الحوار المتوسطي**، جامعة سيدي بلعباس، مج10، ع03، ديسمبر 2019، ص:49، بن قومار جلول، هاجس الأمن عند ركب الحج المغاربة، **مجلة الحوار المتوسطي**، سيدي بلعباس، مج8، ع2، ديسمبر 2017م. ، ص:17، أحمد بوسعيد: **الركب الجزائري في العهد العثماني**، المرجع السابق، ص:152.

[3] - ينظر: السجلماسي، المصدر السابق، ص: 159، أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ج2، ص ص:112، 539، الحضيكي، المصدر السابق، ص:86، عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، المصدر السابق، ص:220.

والنوع الثالث من الأسواق هو الأسواق المؤقتة التي تكون خارج الواحات، والتي تقام في البوادي والمناطق الرعوية، والتي تكون بسبب مرور قافلة حجية أو تنقل الأعراب من منطقة إلى منطقة أخرى فتكون المتاجرة بين سكان الواحة أو البادية مع تجار ومسافري القوافل. وهي أسواق لا ضوابط وقتية لها بل تكون بناء على حركة القوافل والمساك التي تتبعها.

أما بالنسبة للسلع والبضائع التي كانت تتداول فيمكن تقسيمها إلى السلع الفلاحية والسلع ذات الطابع الحيواني وكذلك المقتنيات كالألبسة، ويمكن أن نجمل أهم البضائع التي ذكرت في النصوص الرحلية في الجدول الموالي:

سلع غذائية	منتجات مصنعة ونصف مصنعة	الحيوانات والماشية
الخضر، الفواكه كالدلاع، الحبوب، الشعير، القمح، التمور بأنواعها الرطبة والجافة، السمن، اللحوم، الدقيق.	الجلد المصبوغ، برانس، الأصواف والأوبار ، الألبسة والأكسية، الحرير، الصوف، الكاغيط، جلود الأبقار، ثياب جاهزة، جلد مدبوغ .	خيول، البغال، جمال، الغنم، الماعز، الأعلاف.

إن الملاحظ من هذا الجدول هو غلبة السلع التي ترتبط بحياة الإنسان في المناطق الصحراوية والمناطق المعزولة، حيث تقل السلع التي تتواجد في الأسواق المناطق التلية والحواضر والمواد التي تنتج عن ممارسة الحرف بمختلف أنواعها الفخارية والحديدة والنحاسية وحتى الحربية، كما يلاحظ أن اغلب هذه السع المتداولة تعتبر سلع في ضرورات التنقل والترحال، وهذا ما يبين طبيعة حياة الإنسان في الصحراء التي اعتمدت على التنقل والترحال وتتبع مناطق الكلأ.

4- العملة المتداولة بالأرياف والبوداي الجزائرية خلال العهد العثماني:

ومن حيث العملة المتداولة في الأسواق الريفية، فان الأمر لا يختلف عن الأسواق الحضرية إلا في جزئيات بسيطة من حيث حجم الكتلة النقدية المتداولة في الأسواق الريفية التي تكون اقل من نظيرتها في أسواق المدن الحضرية كون الأخيرة تنشط فيها فئات متعددة من السكان المحليين وحتى الأجانب إضافة إلى العنصر التركي.

من حيث النوع نجد العملة الجزائرية تدخل في تكوينها عدة معادن ثمينة، وكانت العملة الجزائرية كانت أما ذهبية أو فضية أو برونزية أو نحاسية، وكان معيار مزج المعادن يخضع لقوانين دار السكة بالعاصمة بالإضافة إلى العملات الأجنبية، وقد اثر تدخل الحكام في قيمة العملة في البوادي الجزائرية من حيث نسبة اختلاطها بالمعادن الثمينة، فكان مائة رطل من النقود تصنع من مزج 60 رطلا من الفضة الخالصة و40 رطلا من النحاس، وفي بعض الأوقات كانت العملة الفضية تصنع من 56 رطلا من الفضة و35 رطلا من النحاس، أما النقود التي كان يضخها البايات في تعاملهم مع البدو يمزج فيها رطل من الفضة بثلاثة أرطال من النحاس، والتي فيها اقل نسبة من المعادن الثمينة[1]، وتتجزأ العملة إلى ذهبية تتكون من السكة أو السلطاني ونصف السلطاني وربع السلطاني، أما الفضية كانت تتكون من ريال بوجو، وزوج بوجو أو دورو الجزائر والصائمة وربع بوجو وثمن بوجو وموزونة وزوج موزونة والاسبر الفضي، أما النحاسية البرونزية تتكون من الخروبة وريال درهم صغير وزوج دراهم صغار والاسبر النحاسي والفلس[2] .

ويأتي في مقدمة العملة الجزائرية قيمةً وحدة السلطاني التي كانت في يد الفئة الغنية خاصة من الأتراك وقد أشار صاحب الترجمانة الكبرى إلى هذه العملة وتداولها في أوساط الفئة الحاكمة وكبار الموظفين حيث قال:" فجاء الكاتب والحاجب والصهر والقاضي لوداعنا ومعهم صلة من حسن باشا

---

[1] – سعيدوني، النظام المالي للجزائر، المرجع السابق، ص ص:181، 182.

[2]– المرجع نفسه، ص: 182.

بواسطتهم دون شعوري وعلمي ومعهم لطف وحلاوات من دورهم للزاد، وقولوا أن مولانا الباشا يقرئك السلام ويطلب منه الدعاء في الحرمين الشريفين فاستعن على سفرك بهذا النزر القليل الذي ستمائة سلطاني، والثاني لوكيله بتونس، فكان ذلك من فضل الله دون قصد ولا طلب فحمدت الله على فضله ورزقه"[1] .

أما عن العملات الأقل قيمة والتي كانت أكثر تداولا في المناطق الريفية وحتى الصحراوية نحد عملة الموزونة، والتي أشار العياشي إليها خلال كلامه عن العملة بين توات الجزائرية وسجلماسة المغربية فيقول: " وعدد المثقال عندهم أربع وعشرون موزونة ويقولون الأربعيني مثقال شريفي نسبة للأمير الشريف صاحب سجلماسة، وكل هذه البلاد في طاعته" " إن كثير من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلات أخروا الصرف إلى توات فإن الذهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر"[2].

لقد اثر تغير العملة على السواق التجارية في الايالة الجزائرية سواء في المدن أو خارج المدن وهو ما جعل تجارة المقايضة تبقى متواجدة بشكل كبير في التعاملات بالأسواق الريفية[3]، فكانت مناطق عدة في ضل نقض العملات وندرتها تمارس تجارة المقايضة خاصة بين المناطق التلية وبعض جهات الهضاب والسهول العليا الجنوبية، فكان بعض سكان منطقة القبائل مثلا يحمل الزيوت والتين وبعض أنواع الفواكه على الحمير والبغال، ويسافرون إلى المناطق التي تنتج القمح والشعير ويبادلونها بهذه الحبوب، ويعودون بها إلى بلادهم وعلى العكس من ذلك[4].

وقد أشار الرحالة المكناسي إلى قلة النقود في الأسواق بنواحي تلمسان وهو ما جعل التجار يتجهون للمقايضة حيث يقول: " مدينة تلمسان هذه مدينة كبيرة مشهورة كثيرة المياه والبساتين

---

[1] – الزياني، المصدر السابق، ص: 151.

[2] – العياشي، المصدر السابق، ص: 79.

[3] – بلخوص الدراجي، المرجع السابق، ص:106.

[4] – يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص: 527 .

والأجنة والزيتون والمستغلات، إلا أن الخراب استولى على كثير من أطرافها فلم يبق إلا رسومها، وزادها عمال الجور والظلم، فقد استولوا على ما بأيدي المسلمين فقد أخبرني بعض أصحابنا كان يتردد إليها في قضاء أغراضنا، أنه رأى أهل البلد يشترون الأشياء من العطارين وغيرهم بالزرع من قلة الدراهم بأيدي الناس، ومن قلة حياء حاكم البلد وكثرة حرصه وأدائه العامة، أن كل من يمر به من حجاج بيت الله يقبض منهم شيئا معينا، على أمتعتهم وحوائجهم من غير مبالاة جبر الله حال المسلمين".[1]

كما شكلت التجارة بين القوافل الحجية المارة بصحراء وسكان الصحراء نوعين من التعاملات في إطار المبادلات، فاختلفت بين كل حاضرة من حواضر الصحراء الجزائرية، فالصحراء هي مركز تجاري بسيط، حيث تعدد أشكال المبادلات بين المقايضة التي تقام بين القوافل الحجية مع أعراب البوادي هذا من جهة، وجهة أحرى فقد كانت الحواضر الصحراوية الكبرى تتعامل بعملات نقدية، فحاضرة توات كانت مركز مهم في الصحراء الكبرى لصرافة الذهب، حيث يكثر بها وهو رخيس[2]، كما أن سكان توات يتعاملون بعملة الدولة العلوية[3] في بدايتها وهذا لقرب سجلماسة من توات والعملة المتمثلة في المثقال الأربعيني، وهو أربعة وعشرون موزونة[4]. أما حاضرة ورقلة فيتعاملون بعملة محلية حسب ما ذكره العياشي أنه يكثر بها النحاس أربعة وعشرون مقابل الريال[5]. والأمر أيضًا ينطبق على تقرت التي يتم التبادل فيها محليا بنقود نحاسية التي كانت تحت حكم بني جلاب حيث

---

[1] – المكناسي، المصدر السابق، ص: 331.

[2] – أبو سالم العياشي: **المصدر السابق**، ج1، ص:79.

[3] – تعددت العملات في توات بحكم مركزها الإستراتيجي في الصحراء الكبرى، فهذه الأخيرة كانت تعتمد في مبادلاتها التجارية بنظام المقايضة مع أسواق السودان الغربي ومن تم تقوم بمبادلات مع الأسواق الشمالية مثل سجلماسة، مراكش وورقلة وطرابلس، فكانت توات بمثابة حلقة وصل بين الشمال والجنوب فالتعامل بالمثقال الأربعيني لا يعني التبعية الاقتصادية للمغرب ومن تم التبعية السياسية فالصحراء الجزائرية كانت توجد بها العديد من العملات المختلفة سواءً العثمانية أو حتى الإسبانية.

[4] – أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص:79.

[5]- نفسه، ج1، ص:118.

وصف العياشي عملة إمارة بني جلاب «أما داهمهم فقراريط صغيرة اثنان وثلاثون منها ربع الريال».[1]

ومن هذا المنطلق فقد كان للحجاج دورًا بارزًا في إدخال الكثير من العملات النقدية في الحواضر الصحراوية وخاصة العملة المغربية التي لاقت رواجاً في بعض المناطق من الجزائر والمغرب، وانتقلت إلى أقطار أخرى، فإذا خرجت هذه العملات من هذه الأقطار فتفقد قيمتها ولا تصرف إلا ببخس مثل عملة مدينة الأغواط فهي عملة الجزائر وفاس[2]، أما العملة الإسبانية فإنها كانت نافذة في كل المحطات والطلب عليها كبير لرواجها[3] .

أما عن الخلاصة العامة لهذا الفصل على العموم فقد تنوع النشاط الإقتصادي بأرياف وبوادي الجزائر العثمانية، من منطلق ما كتبه الرحالة سواء كانوا مغاربة أو أوروبيين، غير أن ما تميزت به كتابات الرحالة الأوروبين أمثال: مارمول كاربخال، والعالم الألماني ج. أو. هابنسترات، بالإضافة للطبيب توماس شو و جون اندي بيسونال، بأن أولوا الجانب الإقتصادي أهمية أكبر مما إهتم به الرحالة المغاربة، ولذلك لعدة اعتبارات منها المطامع الأوربية بالجزائر، وهذا متعارف عليه منذ الفترة الوسيطة والمد الاستعماري لمناطق الشمال الإفريقي. ولكن مع ذلك أمكن الإستفادة منها في تاريخ الجزائر سواء عن المناطق الريفية التلية وحتى الصحراوية بشق الاقتصادي على الخصوص وحتى الاجتماعي.

---

[1] – نفسه، ج1، ص:122.

[2] – الحضيكي: المصدر السابق، ص:81.

[3] – ينظر: ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص: 88، محمد الكبير الفقيقي، **الدور الاجتماعي والاقتصادي** ...، المرجع السابق، ص:193.

- كما تلمسنا نتائج مهمة بالإضافة لما قيل نذكر منها تنوع الأراضي الزرعية بالمناطق التلية ما بين الأراضي الزراعية الخاصة وأراضي البايلك والأراضي المشاعة كأراضي الوقف وأراضي الموات، كما تنوعت محاصيلها وخاصة بسهل متيجة مع المنتوج الرئيسي لها كالحبوب إلى جانب الخضر والفواكه، كما تنوع السقي فيها ما بين مياه الأودية، ومياه الأنهار والأبار وتساقط الأمطار هذا بالنسبة للمناطق التلية أما الصحراوية فالسقي يكون المعول عليه غالباً مياه الأبار، باستعمال طرق حديثة وهي طريقة السقي بالفقاقير وخاصة بمنطقة توات. أما النشاط الفلاحي بالمناطق الصحراوية فهي لا تقل شأن عنها في المناطق التلية وخاصة بجانب قصورها المعمارية، وقد تنوعت هي الأخرى ولكن من أخذ حصة الأسد بواحاتها الغناء في منتجاتها الزراعية منتوج التمر، وهو غذاء أهل البوادي وصحاري، وقد عرفت به الحواضر والبوادي الصحراوية كمدينة ورقلة وتقرت وواد سوف وقراهم العديدة وإقليم توات ودشوره الكثيرة. فالصحراء ليست كلها أرض قاحلة بل أبدت كتب الرحالة حقائق خلاف ذلك؛ وهذا ما بينه العياشي والدرعي والناصري والسجلماسي مع توات وقراها، لواد الأساورة من بشار للقنادسة، إلى منطقة الظهرا بالبيض وقد بين هؤلاء الرحالة مدى غنى هذه المناطق في نشاطها الفلاحي بتنوع منتوجها بقوة بين خضر وفاكهة وقمح وشعير، إلى جانب منتوج التمر، كما كانت هذه الواحات والقرى الصحراوية مركز تجاري هام للقوافل الحجية المغربية، فكثرت الأسواق بهذه المسالك الصحراوية وراجت البضاعة والتجارة، وتنوع تداول العملة المحلية والمغربية وحتى الإسبانية بالمناطق التلية. كما لا نغفل عن منطقة الزاب من حاضرتها بسكرة، حتى الأغواط من عين ماضي وتاجموت إلى سيدي عقبة وسيدي خالد وغيرها من قرى الريفية بمنطقة الزاب فالوجهة متشابهة في كثير من الأحيان بالنسبة لمسالك الرحالة.
- أما عن الصناعة والحرف بأرياف وبوادي الجزائر العثمانية فكانت بسيطة ما بين حرفة الرعي إلى حرفة الصناعة النسيجية، إلى صناعة الحربية كصناعة الأسلحة مثل: السيوف والرماح والخناجر وصناعة البارود بنواحي جبل عمور ضواحي الأغواط.

الخـــاتمـــــة

يتضح مما سبق أن أدب الرحلة يعد من أخصب فنون التراث العربي الإسلامي، ومن أوسع مجالات المعرفة وأكثرها ثراء وانفتاحاً، فهو نص منفتح على أصناف متعددة من المعارف. ينهل منه الفقيه والمؤرخ والجغرافي والأديب وعالم الاجتماع، وهو في النهاية وجه أخر للتراث الذي يعكس بصدق حركية المجتمع العربي ونمط تفكيره وأسلوب حياته وعلاقاته، وأنماط الإنتاج فيه وعناصر الصراع والتلاقي والتطور الذي يتحكم في مساره ونوعية الثقافة السائدة فيه. فالرحلة حقاً كما وصفت:" سفينة تقطع الفيافي والبحار وتتسنم قمم الجبال لتجمع كل ما هو مرتخص وغالي وتروي ما هو تالد"، فهي طريق عتيد يشد به صرح الحضارة ويسجل تراثها وبصماتها في كل زمان ومكان.

– وقد تنوعت الرحلة بأصنافها بين الرحلة الحجازية والرحلة السفارية وبين الرحلة الفهرسية" العلمية"وبين الرحلة السياحية والتجارية، وقد يجتمع أكثر من هدف في صياغة كتابة وتدوين رحلة واحة، فيلونها بلون خاص تكسب به خصوصية مميزة مثل الرحلة الحجازية؛ والتي جمعت مقاصد شتى بين طلب العلم ولقاء العلماء والإستجازة منهم والترجمة لهم والفهرسة عليهم، كما تضمنت في الكثير من الأحيان على مزارات الصالحين بتتبع أخبارهم ومآثرهم وما ورد في سيرهم، حتى تسمت بالرحلات الزيارية، إلى جانب مزاولة مهنة التجارة، ويمكن أن تكون كشفية جغرافية وحجازية سفارية في نفس الوقت مثل: رحلة الحسن الوزان(ليون الأفريقي) والتي حملت العديد من الأغراض في طياتها، ويمكن تسميتها بمصطلح اليوم " حج وحاجة ".

_أما عن أدب الرحلة وجذورها التاريخية فهي ضاربة في عمق التاريخ، فقد بدأت مع الإنسان نفسه لأجل الكسب والتجارة لأجل الارتزاق، ثم تطور الفكر الإنساني وأضحى للرحلات القديمة، أهداف الجغرافية لأجل استكشاف الشواطئ الأوروبية والإفريقية الغربية، ولأجل معرفة المسالك بين الأسواق الرئيسية لأجل التجارة والملاحة البحرية. أقدمها رحلة القدماء المصريين عام 1493م، ورحلة الشاعر اليوناني هوميروس، والرحالة الإغريقي هيرودتس.

– وفي العصر الوسيط ساهم المسلمون بقسط وافر للغاية في تطور أدب الرحلة، ذلك من خلال ارثهم الجغرافي والرّحلي الكبير والهام، ومن بين العوامل المساعدة على ازدهار أدب الرحلة عندهم،

تمتع العرب المسلمين بأفضل الشروط للارتياد والكشف الجغرافي والتّرحال كالموقع الجغرافي المتميز للعالم الإسلامي الذي يتوسط الكرة الأرضية، بالإضافة لوحدة الديانة واللغة والمتمثلة في الدين الإسلامي واللغة العربية، ووحدة السلطة الحاكمة في بعض المراحل التاريخية؛ قد ساعدت بشكل كبير على إلغاء قيود التنقل بين مختلف المناطق الإسلامية للرحالة المسلمين، لكل طموحه وبغيته في ارتياد الأفاق. وما زاد أهمية هذه الرحلات كونها بعين المشاهدة لا بالنقل والرواية، فقد كانوا يطوفون بأنفسهم في العالم الإسلامي وغيره، ويقيدون مشاهدتهم وما يقع تحت أبصارهم، فصوروا أحوال الناس والعمران بعين البصيرة اللاقطة، أمثال: المازني، وابن الجبير، والبتناني، والعبدري، والمسعودي، وابن حوقل والمقدسي، والبكري وياقوت الحموي وغيرهم، ومن المغرب الإسلامي برز التجاني والورجلاني، والإدريسي، وابن بطوطة هذا الأخير الذي قضى من حياته 32 سنة في التّرحال ونصّ رحلاته ملأ بالملاحظات والأخبار الشخصية لاسيما وصف المجتمع الإسلامي في النصف الثاني من ق14م.

– وفي الفترة الحديثة عرف أدب الرحلة رواجاً كبيراً على غرار العهود السابقة مشرقاً ومغرباً، وتعددت أغراضها فازداد تدوين الرحلات الحجازية للحج والمقدسية في زيارة بيت المقدس، كما انتشرت الرحلات السفارية للمهمات السياسية والدبلوماسية، بالإضافة إلى الرحلات الجغرافية كرحلة الحسن الوزان المعروف ب "ليون إفريقيا" الذي عنونه ب" وصف إفريقيا"، بالإضافة للأيادي البيضاء للعثمانيين مع البحرية الإسلامية وتدوين رحلاتهم فيها في سابقة لهم مع الرحلة البحرية والبرية للجغرافي الكبير " پيري ريس" الموسومة ب" البحرية "، كما عد أوليا جلبي أشهر رحالة تركي، مع كتابه الموسوم بـ " سياحتنامة " ويعود سبب هذه الشهرة في الثروة الكبيرة التي تزخر بها رحلته الموسوعية من المعلومات التاريخية والجغرافية والعمرانية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية.

– وكذلك الحال في أوروبا فقد نشطت الرحلات الاستكشافية وخلفت وراءها نصوصاً أو تقارير تحكي فصول تلك المغامرات، وقد اتسمت الفترة الحديثة عموماً بفترة الكشوف الجغرافية. مثل رحلة فاسكو دي غام، ورحلة البحارة الإيطالي كريستوفر كولومبس، وقد وضعت هاتان الرحلتان الجغرافيتان

أوروبا بأسرها في وضع الاستعداد الفعلي في القرن 16م لممارسة التغيير واستيعابه، والمضي قدماً نحو طريق التغير حضارياً وسياسياً، واقتصادياً.كما أتم عظمة هذا الإنجاز الجغرافي المستكشف ماجلان والذي يعد أعظم البحارة المكتشفين القدامى والمحدثين قاطبة.

– لنصوص الرحلة أهمية كبرى في التاريخ السياسي للأقطار والشعوب، فهي عادة ما تحتوي على ذكر لأسماء ممالك وملوك، وتبين لنا مدى الترابط والتنافر فيما بينها، أي ما يعرف حاليا بالعلاقات الدولية والإقليمية، وهذا النوع من الأخبار السياسية عرفتها مصنفات الرحالة والجغرافيين الأوائل، كما سميت بالرحلات السفارية، وفي هذا الصدد الأمثلة كثيرة ومتعددة نوجز منها الإشارة لبعض الرحالة حيث زخرت رحلاتهم بمعلومات سياسية هامة على سبيل المثال ما ذكره: بنيامين التطيلي، وابن بطوطة، وعلي بن محمد التمكروتي، ومحمد الغساني الأندلسي، وأبو القاسم الزياني، إبراهيم المصعبي، ابن زرفة الجزائري، ورحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني الجزائري.

– تعد نصوص الرحلة في أصولها ومضامينها وثائق عتيدة وفريدة للحياة الثقافية والعلمية للعديد من المناطق والبلدان، فقد شكلت على امتداد العصور جسراً من الجسور المهمة؛ لما يحدث بها من تلاقح علمي للرحالة وعلماء البلاد المطروقة أو الواقعة في مسار الرحلة سواء كانت الرحلة حجازية أو غير ذلك، وبما عكسته كمرآة صادقة عن حقب تاريخية متعاقبة، للواقع الثقافي للحضارة الإسلامية.

– بينت الكثير من النصوص الرحلية بوضوح قيمة الرحلات الحجية في كتابة التاريخ الاجتماعي نظراً لان الحجاج تكون لهم علاقات مباشرة مع السكان المحليين على عكس أصحاب الرحلات السفارية مثلاً، التي يقل فيها احتكاك الرحالة بعامة الناس. وعليه يكون المتن الرحلي على العموم والحجازي على الخصوص منجماً توثيقياً للحياة الاجتماعية للشعوب، وحجر الأساس لكل بناء رصين للدراسات الاجتماعية في التاريخ وأبرز من أبدع في هذا الرحالة المغربي أبو سالم العياشي في رحلته العياشية، ورحلة محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته الناصرية، ورحلة الحسين الورثلاني في رحلته الموسومة ب" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

– احتفظت كتب الرحلات بالكثير من النصوص الدالة على جوانب النشاط الاقتصادي في بلاد المشرق والبلاد العربية الإسلامية وغير الإسلامية، ونقلت صوراً للملامح الاقتصادية في كثير من البلدان التي زارها الرحالة، وعرفت بأهم المحاصيل الزراعية والموارد المائية، وأشهر السلع والبضائع والصناعات والمعادن والتجارة والأسواق والعملات والتنظيمات المالية، وقد تميزت في هذا الشأن العديد من رحالات المغاربة مثل رحلة العياشي، وأبو العباس الدرعي، ومحمد بن عبد السلام الناصري، ومن الرحالة الجزائريين رحلة الورثلاني، والمجاجي ورحلة المصعبي.

أما عن أدب الرحلة في الجزائر العثمانية فقد عرفته الجزائر كأدب ثري ومتميز، فنجد العديد من الرحالة الذين كانت أرض الجزائر منطلقاً لرحلاتهم داخلياً وخارجياً مشرقا ومغرباً، وإن كانت هذه الحركة قوية في فترات وهزيلة في فترات أخرى، ولكن عرف هذا الفن حركة نشطة بشكل جلي مع القرن الثاني عشر هجري (الثامن عشر ميلادي) لما تميز به من غزارة عن بقية القرون في تعدد التأليف في هذا الفن، وبالأخص اتجاه البقاع المقدسة الحجازية، وإجمالا يمكن تقسيمها إلى رحلات داخلية ورحلات خارجية، فمن الرحلات الداخلية نذكر: رحلة الباي محمد الكبير لابن هطال التلمساني، ورحلة سيدي عبد الرحمان بن إدريس التنلاني، ورحلة ابن زرفة المعروفة ب"الرحلة القمرية"، إلى جانب رحلة ابن الدين الأغواطي (1242هـ/1826م) ثرية المشارب غزيرة المثالب.

أما عن الرحلات الخارجية فاشتهرت رحلة ابن حمادوش الجزائري إلى المغرب الأقصى وقد ضاع منها الجزء الخاص بالرحلة للحجاز، أما عن رحلة البوني (1099هـ/1652م) فهي في الحكم الضائعة، إلى جانب الجزء الأكبر من رحلة ابن عمار (1166هـ/1752م) والتي لم يبقى منها سوء المقدمة، أما عن رحلة أبي رأس الناصري (1204هـ/1789م) فهي في حكم السيرة الذاتية لصاحبها.

ولم يتبقى من تلك الرحلات الخارجية سوى رحلة الورثلاني فقد أخرت الحديث عنها، بالرغم من أنها من حيث الترتيب الزمني متقدمة عن رحلة أبي رأس الناصري، ويرجع ذلك لكونها الرحلة الوحيدة التي تتحدث بإسهاب حول أحوال الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري(18م) إلى جانب كونها موجودة ومطبوعة في شكلها الكامل على خلاف رحلة ابن عمار التي لا يوجد منها سوى المقدمة،

فعن رحلة الورثلاني فقد ضمت خضماً هائلاً من الأخبار بالرغم مما فيها من تكرار واقتباسات ونقل غير منظم للمعلومات، ومع ذلك فلا يسع الحديث عنها إلا في مؤلفات تكون شهادة حية عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية، ليس فقط للمغرب الإسلامي بل حتى المشرق على العموم، فقد أعطى صورة متميزة ومنصفة عن الأحوال الداخلية لكل من الجزائر وتونس وليبيا ومصر والحجاز، لفترة زمنية لا يستهان بها، فقد شملت الوطن العربي ككل، والذي كان يكتنفه بعض الغموض في العديد من النواحي في تلك الفترة الزمنية.

أما الشطر الثاني من الرحلات الحجازية، فقد خص الرحلات ذات الطابع النظمي، وهي الرحلات الحجازية الشعرية، غير أن هذه الأخيرة قليلة نسبياً مقارنة مع السابقة برزت فيها رحلة عبد الرحمن بن بن خروب المجاجي(1063هـ /1652م)، ورحلة المصعبي(*ت 1232هـ/1817م*).

وفيما يخص صورة الجزائر في أدب الرحلة بالمغرب الأقصى، فقد كانت الجزائر في العهد العثماني محط أنظار واهتمام الرحالة المغاربة، فدوّن العديد منهم رحلاتهم، والتي هي عبارة عن مذكرات يومية تصور الواقع اليومي المعاش للرحالة، وكان لكل رحالة غايته وهدفه في زيارتها، وإن اختلفت مقاصدهم، فقد اتّفقت منابر إعجابهم بخيراتها ومميزاتها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية في بعض الأحيان، فقدّموا مادة علمية معتبرة وقيّمة، تفيد الباحث والمؤرخ في تاريخ الجزائر الحديث. ورغم كثرة تلك الرحلات، استخلاصنا منها جملة من النتائج:

بأن الصحراء الجزائرية كانت طريقا مهم لقوافل الحجيج، سواءً القوافل الجزائرية المنطلقة من الحواضر الصحراوية، أو المغربية المنطلقة من فاس أو مراكش، تافيلالت جنوب المغرب.

- تعتبر الرحلات الحجازية وخاصة المغربية، من أهم المصادر التاريخية التي تزخر بكثير من الأخبار بمختلف مضامينها.
- نقلت لنا الرحلات الحجازية المارة بالصحراء الجزائرية مادة غزيرة ومتنوعة تساعد في كتابة التاريخ المنطقة، وخاصة مع غياب الكتب التاريخية التي كتبت عن المنطقة في القرنين (11-12هـ/18/17م).

- يعتبر الرحالة رجال دين من نمط ثقافي مغاربي، وهم رجال ثقات، قاموا برحلة إلى الحج عبر الصحراء الجزائرية مرات عدة، فالصور التي نقلوها تضاهي الواقع المعاش، وما نقلوه لنا ساعد ذلك على كتابة تاريخية تحذو بمصداقية إلى حد ما.
- كشف الرحالة لنا الطرق والمسالك التي تسلكها القوافل الحجية في الصحراء الجزائرية فأعطونا مميزات وصعوبات كل طريق، وكذا معاطن المياه وأنواعها بين أجاجتها وحلاوتها.
- كشفت لنا الفصول الزمنية الذي تمر به الرحالات الحجازية التي كانت في نهاية فصل الشتاء وبداية فصل الربيع، ما عدا رحلة أحمد بن ناصر الدرعي التي كانت في فصل الصيف.
- أما فيما يخص الجانب السياسي فنقلت لنا الرحلات الحجازية صورة متباينة من أنظمة الحكم في الصحراء الجزائرية.
- تباينت الأوضاع في الصحراء الجزائرية بين سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وهذا التباين بدوره نجده من حاضرة إلى حاضرة في الأوضاع السياسية.
- شهدت الصحراء العديد من أنظمة الحكم سواءً كانت نظامية مثل التبعية للعثمانيين في الجزائر المتمثلة في: ورقلة، تقرت، الأغواط وبني ميزاب، وهذا في إطار الحملات، أو التواجد العسكري السعدي والعلوي بالنسبة لحاضرة توات، أما بعض المناطق فخضعت لحكام محليين لا تخضع لأي سلطة كانت مثل بعض المناطق في الساورة وبعض المناطق في جبال لعمور، حيث أخذت هذه المناطق تسمية أرض السيبة.
- تحتوي الصحراء الجزائرية على مقومات اقتصادية كبيرة وخاصة في الحواضر المهمة مثل: بسكرة ورقلة، والأغواط، لكن الفوضى السياسية في الصحراء أثرت على الحياة المعيشية فيها.
- تعددت التعاملات الاقتصادية في الصحراء الجزائرية بين نظام المقايضة والنظام النقدي الذي أوجد العديد من العملات.

- يعتبر الكرم أحد الصفات الحميدة المتأصلة في المجتمع الصحراوين حيث نقلت الرحلات الكثير من صوره في الحواضر الصحراوية وأريافها ببواديها، فالاستقبال لحجاج بيت الله كان كبيرًا، وكانت تغمره مشاعر فياضة صورها الرحالة سوءًا في الحواضر أو البوادي.
- عانت الصحراء الجزائرية كما هو الحال كامل الصحراء الكبرى ومنطقة الحجاز من ظاهرة اللصوصية التي كانت تؤرق الحجاج فاشتهرت قبائل بتلك الظاهرة.
- أثرت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالضرورة على الحياة الثقافية فانعكس الأمر سلباً أو ايجاباً على التعليم وعلى واقع التدين في الصحراء الجزائرية.
- اشتهرت بعض الحواضر بالتعليم الديني فكانت قطب محلي انكب عليه العديد من الأشخاص فدرسوا الفقه صغارًا وكبارًا.

-كان للرحلات الغربية هي الأخرى لها نصيب في تدوين حيثيات تاريخ الجزائر العثماني، فقد كانت الجزائر محطة وهدف للعديد من الرحالة الأوروبيين والتي أسهمت بدورها في رفد النصوص الرحلية التي جعلت من الجزائر محور لها، رغم التحفظ الذي يجب أن يطبع التعامل معها، لكونها كانت من جغرافية معادية وتخدم أهداف سياسية توسعية في الغالب، ويمكن أن نتحدث عن أبرز رحلاتها فيما يلي:

- جاء مؤلف مارمول كربخال مصدر مهماً للجزائر العثمانية لكونه قارب الحقائق بشكل أكثر دقة مما كتب عن الجزائر من الكتاب الغربيين إجمالا ومكانة كتابه لا يضاهيها إلا مؤلف حسن الوزان وصف إفريقيا لكون الثاني قد اعتمد على منهج الأول وأكثر النقل عنه، فهذا الكتاب رغم انه لم يكتب بنمط الرحلات التي عرفها العالم الإسلامي إلا أنه كتب نتيجة فعل الرحلة التي قام بها.
- تعد أبحاث الرحالة الألماني هابنسترايت من بين أهم الأبحاث في الطب عامة وعلوم النباتات خصوصاً، بحيث يعتبر من بين أبرز الأطباء في أوروبا خلال القرن السادس عشر ميلادي،

حيث يصنف ضمن أكثر الرحالة الأوروبيين الذين تم الاستشهاد بأبحاثهم وتمكن من تدوين الكثير من المعلومات القيمة والموضوعية إلى حد بعيد في الطب وعلم النباتات.

- تميزت رحلة هابنسترايت في كونها حوت في طيّاتها جولات طبيب رحالة في الأرياف والبوادي الجزائرية رفقة الأغا الذي كلف بجمع الضرائب من القبائل المنتشرة بمتيجة ونواحي مليانة وسور الغزلان والمدية، والتي قيّد فيها مشاهداته وطبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية والقبائل المحلية وخاصة مسالة الجباية الضريبية.
- أفرد سيمون بفايفر معلومات مهمة في وصف حقيقة عادات وأخلاق المجتمع الجزائري، والذي استفاض فيه في الحديث عن التركيبة السكانية للمجتمع الجزائري وللفئات التي سكنت مدينة الجزائر، وعرف بالكثير من القبائل العربية والبربرية وحتى اليهود، فقد أبرز مميزات كل مكون والمناطق التي يتواجد بها وطبيعة الأنشطة التي كانت تمارسها كل منها بين الرعي والتجارة وغيرها.
- تكتسي رحلة توماس شو أهمية بالغة في كتابة التاريخ الاجتماعي لكل من الجزائر وتونس خاصة في دراسة الجوانب الخدماتية المتعلقة بالصحة والصيدلة خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي، فقد افرد في كتابه فصلا يتضمن الحديث عن العلاج الطبي "البربري" بعنوان مهارتهم في الفيزياء أو الطب، وهو أمر ذو أهمية كبيرة لتاريخ الصيدلة.كما تعتبر رحلة الدكتور شاو مصدراً مهما فيما يتعلق بالدراسات الأثرية القديمة الرومانية تحديداً في الجزائر، وهو ما جعل هذه الرحلة مرجعاً توثيقياً مهما عن الحقب القديمة والدراسات الانتروبولوجية والاجتماعية الغربية عن الجزائر خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.
- جاءت رحلة جون اندي بيسونال عند قيامه بها جمة الفوائد، حيث كان يهدف إلى أبراز التاريخ الطبيعي لهذه الدولة، بذكر أصناف النباتات والحيوانات بها، وبالتعريف ببعض الأمراض ووسائل علاجها، مع ذكره للملاحظات حول الجغرافيا القديمة والحديثة لهذا الإقليم، بالإضافة لاهتمامه بالمخطوطات العربية، فكانت رحلته حلة بهية امتزج فيها التاريخ والأدب والفيزياء.

لتبقى هذه الرحلة مهمة جدا في تاريخ الجزائر وتونس العثماني قياساً بالكم المعرفي الذي احتوته ولكون الرحالة كان يتحرى الموضوعية ويصف مشاهداته دون أن يزج بخلفياته والأفكار المسبقة التي كان يأتي بها غيره، وبالرغم من كل هذا فان هذه الرحلة لم تحتل المكانة التي تستحقها لدى الباحثين، لأنها لم تترجم بعد إلى اللغة العربية.

- شكل موضوع البادية والريف محور اهتمام لفيف من المؤرخين والجغرافيين وحتى الرحالة في كتاباتهم التوثيقة عن أي منطقة يمرون بها أو جوانب جغرافية يسلطون الضوء عليها في دراساتهم التاريخية؛ لقيمتها العلمية البالغة على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذا الشق الثقافي منها، فتضاربت الآراء في ضبط المفهوم الحقيقي لمصطلح البادية أو البوادي، وازدواجية المعنى مع الطابع القروي أو ما يعرف بالريف، وخلصت في أخر المطاف إلى أن التداخل واضح بين معنى الريف ومعنى البادية وهو ما جعلني أقوم بدمجهما معاً ضمن استخدام عام لكلمة الريف رغم وجود بعض الفروقات، وقد ارتأيت هذا لأن البادية أصلاً امتداد للريف وقد أثبت ذلك في موضعه حسب ما بينه جملة من المؤرخين والرحالة في فترات تاريخية متباينة؛ وهو ما جعل الأستاذ سعيدوني يسميها بالريف العميق، على أن هذا الاستعمال الواسع ــ مقابل استخدام المجال الحضري – لم يفقد أيا منهما خصائصه.

- إن التداخل واضح في المظاهر العمرانية بين البادية والريف وهذا ما أقر به الكثير من المؤرخين والباحثين بطريقة أو بأخرى، وهو ما أثبتته التجمعات الريفية القروية والتي انتشرت بكثرة في الجزائر العثمانية، وبالأخص بالمناطق الجبلية التلية والهضابية مثل قرى بلاد القبائل ولأوراس، والمناطق الصحراوية، بما فيها من بساطة المعمار المبني من الطوب والطين والحجارة. وهذا ما أكده بشكل دقيق كل من فندلين شلوصر وهاينريش فون مالتسان، غير أن المناطق الصحراوية تميزت بطابعها المعماري الخاص في بناء القصور خاصة بمنطقة توات وواد ريغ وبعض المناطق بالزاب على ضوء ما بينه الرحالة المغاربة أمثال: العياشي والدرعي والسجلماسي والناصري.

- جاءت البنيات الاجتماعية في ريف الجزائر خلال العهد العثماني على العموم لا تختلف اختلافا كبيراً من منطقة لأخرى سواء في الشرق أو الغرب في الشمال أو في الجنوب، تباينت وحسب تقدير مؤرخي العهد العثماني بالجزائر، حيث شكل سكان الأرياف أواخر هذا العهد الأغلبية بنسبة ما بين (90-95%) من إجمالي سكان البالغ عددهم نحو (2-3) ملايين نسمة، من مجموع السكان، منهم قبائل المخزن وقبائل الرعية والقبائل المتحالفة(الأجواد والمرابطين) والقبائل الممتنعة أو المستقلة.
- يجب الإشارة والتنويه إلى أن موضوع المجتمع الريفي موضوع معقد، وكتابات الرحالة سواء المغاربة أو الرحالة الغربيين عن تركيبة قبائله قليلة ومقتضبة ولا تعطي صورة واضحة وجلية، دون اللجوء لمصادر أخرى محلية عايشت الأحداث وكتبت عنها سواء بدافع ذاتي أو بإيعاز من السلطة. فالرحالة يتكلم عن جزئية عابرة ويمكن بلورتها في وعاء التاريخ مع المصادر الأخرى تكون أكثر وضوحاً وموضوعية، أما عن الاختلاف أو ترادف المعنى بين الريف والبادية، فذلك أخذ من الباحثين حصة الأسد بين راضي لترادف المعنى ومعارض بالحجج اللغوية والكتابات التاريخية، ولكن مسألة الترجيح كان الفصل فيها للمادة المصدرية الطاغية على الساحة من نصوص رحلية أو غيرها.

وكخلاصة لما قيل في أصول وفروع الفصل الموسوم ب"معالم ومميزات المجتمع الريفي والبدوي في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات"، والذي كان مستهله مع مقومات المجتمع الريفي في الجزائر العثمانية بداء من اللغة، فاللغة ذات أهمية بمكان للتعرف على أي شعب كان، فهي البوابة التي تلج إليها للدخول على أي حضارة. أما عن اللغة الرسمية في الجزائر العثمانية فتباينت بين لغة السلطة العليا الحاكمة في البلاد وبين لغة العوام أو لغة الرعية. فاللغة الرسمية للديوان اللغة العثمانية العصمانلية ولغة الرعية اللغة العربية، بالإضافة إلى لغات عدة تداولاتها الألسن في المدن وخاصة مركز السلطة في البلاد حسب الوافدين إليها من قناصلة ودبلوماسيين وأسرى ورحالة وأطباء إلى جانب أصحاب اللهجات المحلية الأمازيغية، فكلهم ذابوا في بوتقة واحدة وهو الالتئام الاجتماعي. ولكن من أحدث

منهم أعمق الأثر في ترسيخ اللغة العربية بالبلاد، هم الوافدين الجدد من الأندلس؛ فمع استقرارهم بمختلف المناطق الساحلية والداخلية بالمدن والأرياف، انعكس ذلك بتغيرات ثقافية حتى مع الجالية اليهودية بالمدن الجزائرية، فحدث نوع من الاندماج الكلي في المجتمع الجزائري؛ حتى صاروا يقلدون الأهالي في تقاليدهم وعاداتهم، ويتكلمون معهم باللغة العربية. أما عن لغة أهل الريف والبادية فهي ممزوجة بين اللغة العربية ولهجتها العامية، واللغة البربرية أو ما يعرف بالأمازيغية والتي تعتبر لهجة محلية تميزت هي الأخرى فيما بينها بين منطقة القبائل والهقار وبني مزاب وقبائل أقصى الجنوب الجزائري، وخير من أشار لهذا الأمر الرحلة الجزائري ابن الدين الأغواطي إلى جانب محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي السجلماسي.

أما عن التعليم في الريف الجزائري خلال العهد العثماني، فيصعب التسليم بأنه كان منتشراً بنفس النسبة التي وجدت بالمدن، ولكن ما تبينه المصادر أن الزوايا قد لعبت دوراً هاماً في تلقين المبادئ الأساسية للتعليم والثقافة الدينية وخير من فصل في الأمر الرحالة المغاربة، فأوجدت بذلك نوعاً من التوازن بين الريف والمدينة، ومسحت مساوئ الأمية بنسب مهمة وتناقصت مضار الجهل في الكثير من القرى والأرياف الجزائرية. لكثرة الكتاتيب القرآنية التي لا تكاد تخلو منها قرية من القرى في الريف، بل كانت منتشرة حتى بين أهل البادية، والجبال النائية وهذا ما أبهر الكثير من الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني. أمثال: العياشي، والدرعي، والسجلماسي والناصري.

وفيما يخص للباس عند أهل البوادي والأرياف فقد ميز بعض الباحثين حسب ما وجد في مصنفات الرحالة والمؤرخين بين لباس سكان السهول والجبال وبين المناطق الصحراوية بالمجتمع الريفي والبدوي، لتختلف نوعية اللباس باختلاف الطبقات وثروة الأفراد وفصول السنة، ولكن لا يرى ذلك التمايز بشكل جلي في المجتمع الريفي؛ كما هو الحال بالنسبة للمدينة، وخير من تكلم عن لباس المرأة والرجل بالأرياف الرحالة الأوروبيين أمثال: لوجي دي تاسي، وفندلين شلوصر، ودارفيو، وهاينريش فون مالتسان، إلى جانب بعض الإشارات من العياشي والأغواطي والسجلماسي.

وكحوصلة عن الغذاء بأرياف الجزائر العثمانية فقد ارتبط النظام الغذائي فيها بعوامل مختلفة على رأسها الوضعية الاقتصادية للسكان، حيث كان سكان الأرياف أو البوادي يتمتعون بالقناعة والبساطة وغذائهم كان غير متنوع حيث كانت الأغذية بسيطة عبارة عن حليب وفواكه (كسكسي، خبز (كسرة)، تين، زيتون، تمور، زيت)، وكان اللحم يحتل مكانة الشرف في كل الوجبات ولا يستهلك إلا مرة واحدة في الأسبوع من طرف العائلات الميسورة الحال، أما الفقراء فلا يتناولونه إلا في المناسبات أو في أحداث هامة كإكرام الضيوف، أو في حالة قسمة شاة مضحاة بعد حادث أو موت في جماعة، بالإضافة إلى استهلاك الحليب الذي من المفترض أنه كان متاح لكل السكان، فشظف العيش بالأرياف مع كثرة توالي الأزمات من أوبئة وزلازل ومجاعات قد تركت أثرها في نظامهم الغذائي من فترة لأخرى خلال الوجود العثماني في الجزائر، ففي كثير من الأحيان كانوا يبحثون عن اللقمة فقط لأجل البقاء على قيد الحياة لا غير.

– أما عن الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعيا واقتصاديا، فتعد الأمراض والأوبئة بالإضافة إلى المجاعات والكوارث الطبيعية من أهم العوامل المسببة في تأخر المجتمع الجزائري وضعفه وخاصة في أواخر العهد العثماني به سواء بالمدن أو الأرياف، نظراً لما ألحقته من أضرار بالقطاعات الاقتصادية والاجتماعية والنمو الديموغرافي، وما جاء عن لسان الرحالة عن الأمر فباحتشام ومن أفادنا في موضوع الوباء في منتصف القرن (17م) الرحالة أبو سالم العياشي أم باقي الرحالة مثل محمد ين عبد السلام فقد نقلوا عنه.

– برزت مكانة المرأة والعادات والتقاليد في المجتمع الريفي والبدوي في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحالة، فقد زخر المجتمع الريفي والبدوي ببيلكات الجزائر العثمانية ومناطقها الداخلية والصحراوية، بكثير من المظاهر الدالة على الثراء والتنوع في الحياة الاجتماعية بايجابياتها وسلبياتها، وحتى بتناقضاتها في الكثير من الأحيان، ففيما يخص المرأة فلم تعدم الجزائر في الفترة العثمانية وجود نساء رائدات فاضلات، ارتبطت أسماؤهن بالنبوغ في مجالات شتى، فقد تميزت البعض منهن ولمع صيتها حتى أضحت مثلاً يقتدى به في العبادة والعلم والصلاح أمثال: السيدة لالة عودة بنت سيدي محمد بن

علي أبهلول، والحاجة " عويشة " بنت الشيخ سيدي عبد الله بن رحاب زوجة الشيخ الحسين الورثلاني وكذا أختها فاطمة لا تقل عنها قدراً، ولكن لا يمنع من وجود نساء مقتت عاداتهن في التبرج والسفور والاختلاط بالرجال من قبل الرحالة المغاربة على الخصوص أمثال نسوة عين ماضي ونساء الظهرا كقرية بوسمغون والكراكدة، وعن مواطن زمورة بباياك الشرق.

أما عن أشغال المرأة فشاقة ومتعبة في البادية والريف أكثر منها في المدن، وعن عادات الزواج فالمرأة فيه غير مخيرة يفرض عليها بما شاء الأهل لصغر سنها، وتقام لذلك احتفالات وإن كانت بسيطة على خلاف ما عهد في المدن، ومع ذلك فحتى الريف يظهر فيه التمايز الاجتماعي في تلك الاحتفالات؛ حسب مكانة أهل الزوج والزوجة، ولكن حفظ الشرع للمرأة حقوقها من صداق ونفقة، وحتى الخلع إذ هضمت حقوقها وإن قل في الأرياف، كما تحدث فيها حالات الطلاق عند نشوز المرأة وأحياناً ظلماً لها إن قصرت في طاعة زوجها، ولكن هناك بعض المناطق الريفية سلبتها بعض حقوقها الشرعية كحق الميراث مثلاً، بل أكثر من ذلك بل أصبحت كالسلعة تباع وتشترى عند بعض القبائل بزمورة ونواحي بسكرة. وفي ختام هذه الجزئية لا نغفل عن بعض العادات المتعارف عليها بالريف الجزائري حاله حال المدن بوجود مناسبات دينية كالأعياد واحتفالات الختان وعاشوراء وتقليدية كالوعدات وإن كانت كل هذه المناسبات وسمت بالبساطة والتواضع على حسب القدرات الاقتصادية لذلك المجتمع.

_ صبغت تلك العادات الريفية والبدوية بالحميدة منها والذميمة فالحميدة كالكرم وحب الضيف وعادات استقبال الحجيج، ومن العادات الذميمة عادات اللصوصية عند تفشي الجوع والفاقة والتسلط على ركائب الحج المغربية، بالإضافة لما ذكرنا عن عادات التبرج والسفور ومخالطة الرجال عند النساء.

ليختم هذا الفصل إلى جانب هذه النتائج بخلاصة مفادها أن كتب الرحلة معينها طيب يصلح لأن يؤرخ منها في العديد من الجوانب للتاريخ الاجتماعي للجزائر العثمانية، ونخص بالذكر الريف

والبادية، ولكن لا تصلح لأن تكون وعاء للتاريخ لوحدها بل لا تستكمل حلقاته المفقودة إلا بمصادر أخرى أرخت لنفس الظاهرة الاجتماعية ليكتمل الإطار العام وتتضح الرؤية التاريخية في أخر المطاف.

وفيما يخص الفصل الخامس فمجمل القول عنه فقد تنوع النشاط الفلاحي بتنوع المحاصيل بين المناطق التلية والصحراوية، تبعاً لما أشار إليه في نصوص الرحلة، فعن السلع والبضائع التي كانت تتداول في الأرياف التلية والصحراوية، فيمكن تقسيمها إلى السلع الفلاحية والسلع ذات الطابع الحيواني، وكذلك المقتنيات الحرفية كالألبسة، فعن السلع الغذائية مثل: الخضر، الفواكه كالدلاع، الحبوب، الشعير، القمح، التمور بأنواعها الرطبة والجافة، بالإضافة للسمن، واللحوم، والدقيق، فقد راجت بها مزارع منطقة الزاب ونواحي الظهرا وقد بين ذلك بجلاء الرحالة المغاربة في فترات متلاحقة، أما المنتجات مصنعة ونصف مصنعة كالجلد المصبوغ وبرانس، وعن الأصواف والأوبار كالألبسة والأكسية، الحرير، الصوف، الكاغيط، جلود الأبقار، الثياب الجاهزة، والجلد المدبوغ، فقد تداولاتها أسواق وبوادي الجزائر وكان الفضل فيها لقوافل الحج المغربية سواء في البيع وأصلها من المغرب أو الشراء من المنتجات الجزائرية. أما عن حرفية الرعي فقد عرفتها بوادي المناطق التلية والصحراوية ومن بين الحيوانات والماشية الرعوية نذكر خيول، البغال، جمال، الغنم، الماعز.

كما يلاحظ من مما قيل سابقاً بأن غلبة السلع التي ترتبط بحياة الإنسان في المناطق الصحراوية والمناطق المعزولة، بأنها تتواجد في الأسواق المناطق التلية والحواضر، أما عن المواد التي تنتج عن ممارسة الحرف بمختلف أنواعها الفخارية والحديدة والنحاسية وحتى الحربية، بأن اغلبها متداولة حسب ضرورات التنقل والترحال، وهذا ما يبين طبيعة حياة الإنسان في الصحراء التي اعتمدت على التنقل والترحال وتتبع مناطق الكلأ.

- كما تلمسنا نتائج مهمة بالإضافة لما قيل نذكر منها تنوع الأراضي الزرعية بالمناطق التلية ما بين الأراضي الزراعية الخاصة وأراضي البايلك والأراضي المشاعة كأراضي الوقف وأراضي الموات، كما تنوعت محاصيلها وخاصة بسهل متيجة مع المنتوج الرئيسي لها كالحبوب إلى جانب الخضر والفواكه، كما تنوع السقي فيها ما بين مياه الأودية، ومياه الأنهار والأبار وتساقط الأمطار هذا بالنسبة للمناطق التلية أما الصحراوية فالسقي يكون المعول عليه غالباً مياه الأبار، باستعمال طرق حديثة وهي طريقة السقي بالفقاقير وخاصة بمنطقة توات. أما النشاط الفلاحي بالمناطق الصحراوية فهي لا تقل شأن عنها في المناطق التلية وخاصة بجانب قصورها المعمارية، وقد تنوعت هي الأخرى ولكن من أخذ حصة الأسد بواحاتها الغناء في منتجاتها الزراعية منتوج التمر، وهو غذاء أهل البوادي وصحاري، وقد عرفت به الحواضر والبوادي الصحراوية كمدينة ورقلة وتقرت وواد سوف وقراهم العديدة وإقليم توات ودشوره الكثيرة. فالصحراء ليست كلها أرض قاحلة بل أبدت كتب الرحالة حقائق خلاف ذلك؛ وهذا ما بينه العياشي والدرعي والناصري والسجلماسي مع توات وقراها المتباعدة، وواد الأساورة من بشار للقنادسة إلى منطقة الظهرا بالبيض، وقد بين هؤلاء الرحالة مدى غنى هذه المناطق في نشاطها الفلاحي بتنوع منتوجها بقوة بين خضر وفاكهة وقمح وشعير إلى جانب منتوج التمر، كما كانت هذه الواحات والقرى الصحراوية مركز تجاري هام للقوافل الحجية المغربية، فكثرت الأسواق بهذه المسالك الصحراوية وراجت البضاعة والتجارة، وتنوع تداول العملة المحلية والمغربية وحتى الإسبانية بالمناطق التلية. كما لا نغفل عن منطقة الزاب من حاضرتها بسكرة، حتى الأغواط من عين ماضي وتاجموت إلى سيدي عقبة وسيدي خالد وغيرها من قرى الريفية بمنطقة الزاب فالوجهة متشابهة في كثير من الأحيان بالنسبة لمسالك الرحالة.

- أما عن الصناعة والحرف بأرياف وبوادي الجزائر العثمانية فكانت بسيطة ما بين حرفة الرعي إلى حرفة الصناعة النسيجية، إلى صناعة الحربية كصناعة الأسلحة مثل: السيوف والرماح والخناجر وصناعة البارود بنواحي جبل عمور ضواحي الأغواط.

وخلاصة القول عن الجانب الاقتصادي مع الرحلة، فقد وجدت ضالتي مع رحلة بايسونال بشكل واسع خاصة في ما تعلق بالحياة الاقتصادية في الأرياف والبوادي التلية لما بها من غزارة توثيقية شملت مجالات متعددة، إضافة إلى رحلة فندلين شوصلر التي كان لها نصيب وافر من الاعتماد خاصة فيما تعلق بتربية المواشي في البوادي التلية، كما كانت رحلات كل من العياشي والناصري والسجلماسي عوناً كبيراً في بناء التصورات حول الحياة الاقتصادية في الواحات والبوادي الصحراوية، والتي يلاحظ فيها تقارب المنهج التأليفي فيما بينها، غير أنها أهملت الظواهر الاقتصادية بشكل كبير، ومع غياب الدقة غالباً، وذلك راجع لخلفيات الرحالة والرحلة في حد ذاتها والتي أولت اهتمام بالجانب الاجتماعي والثقافي، لكون هذه الرحلات حجيّة بالدرجة الأولى وهو ما صعب التعامل مع النتف المتفرقة في ثناياها لتأسيس نص متكامل وشامل يوثق للجوانب الاقتصادية على عكس الرحالات الغربية كرحلة بايسونال أو هابنسبرايت والتي كان الجانب الاقتصادي محوراً رئيسياً في الوصف، كما أبرز كتاب جورج هرتز" **L'algerie nomade et Ksourienne** "الجزائر القصور والبداوة "المتأخر زمنياً، والذي قدم تفصيلات دقيقة عن قبائل وبوادي شمال الصحراء بشكل واسع.

- وحوصلة لما قيل فكتب الرحلة ثرية من ناحية المعلومات الاقتصادية عن بوادي وأرياف الجزائر العثمانية وخاصة الأوروبية، ولكنها لا تصلح لأن تكون الوعاء الوحيد لأن يؤرخ من خلاله لهذا المجال، إلا بالاستعانة بمصادر محلية وأخرى أجنبية لتكتمل الصورة من جميع جوانبها في هذا المجال البحثي بالذات من تاريخ الجزائر العثمانية.

وكتوصية لما قيل فما زال هذا الحقل من البحوث والتي تمس الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثمانية وخاصة بالبوادي والأرياف من خلال كتب الرحالة، خصباً طرياً يحتاج للمزيد من البحث والتنقيب وخاصة إذا كشف الستار عن رحلات جديدة نفض عنها الغبار كالرحلات المغربية والتي تظهر للعيان من الفينة والأخرى عن طريق الدراسة والتحقيق في خروجها للنور مع الباحثين

المغاربة، وكذا الرحلات الغربية التي تحتاج للمزيد من البحث والترجمة والاهتمام؛ لأجل المقارنة والمقاربة بينها وبين الرحلات العربية بشقيها الجزائري والمغربي على الخصوص.

تستهدف هذه الدراسة المسومة ب:" **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ببوادي الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات**"تشكيل نص تاريخي يعطي صورة لحياة البادية والريف بمنظور الرحّالة في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية، وفق تصورات موضوعية وناقدة وذلك انطلاقاً من وعاء واحد وهو كتب الرحلة بالدرجة الاولى، ومقارنة ما كتبه الرحالة الجزائريون والمغاربة والأوروبيين والترجيح إن أمكن الأمر دون إغفال الاستعانة بمصادر أخرى لتبيين ولتوضيح الرؤيا في مسالك ودروب البحث والدراسة.

كما تحاول هذه الدراسة كشف اللثام عن موقع الصحراء الجزائرية خاصة ببواديها وأريافها في المنظومة الحضارية للجزائر، بعيداً عما ارتبط بها من مفاهيم لا تأصيل علمي لها كاعتبارها أرض جرداء قاحلة موحشة بعيدة عن كونها فضاء واسع متنوع بتنوع واحاته وتنوع مجتمعاته وثقافاته، وتجانسها الثقافي المفتوح على الآخر.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، الرحلات الحجازية، الرحلات الأوروبية، الريف، البادية، الصحراء الجزائرية، العادات، التقاليد، النشاط الزراعي، النشاط التجاري.

Summary :

This Researchis tagged with:**« Socio-economic conditionsin Ottoman Algerian valleys -Desert environments-through Travels books »,**aimed to formation of a historical textwhich gives an image of valleys« deserts »and country lifestyle bytravelling nomadics perspective for Socio-economic aspects. This perspective according to an objective and critical perceptions, starting from one scientific source that is travels books as a first degree. In addition to comparing between what algerians, moroccans and Europeans voyagers wrote then, weighting if possible without omission ofoutsourcing other to indication and clarification viewfor tracts and methodsof research an study.

As well as, this research is trying to unveiledof Algerian desert location specially,its valleys, deserts and countries in Algerian civilization system. Far from non-scientific concepts which associated withAlgerian desert because these non-scientific concepts define Algerian desert as a barrened and dismal land far from, it is vast and diverseland by its varied oasesand diversity of its civilizations and societies. In addition to homogeneity of this civilised diversity and opend to the other.

Key words :

Travel literature -Hijaz trips- European trips-The countryside / country- Desert / valley- Algerian desert- Customs / Habits-Traditions-Agricultural activity-Commercial activity.

الملاحـــــق

الملحق رقم (01) تبين لباس الحايك للمرأة الجزائرية أثناء العهد العثماني[1]



[1]- براهامي نصر الدين ،علي تابليت،**تاريخ مدينة الجزائر في العهد العثماني**،منشورات ثالة، الجزائر، د ت ن، ص ص: 216، 218.

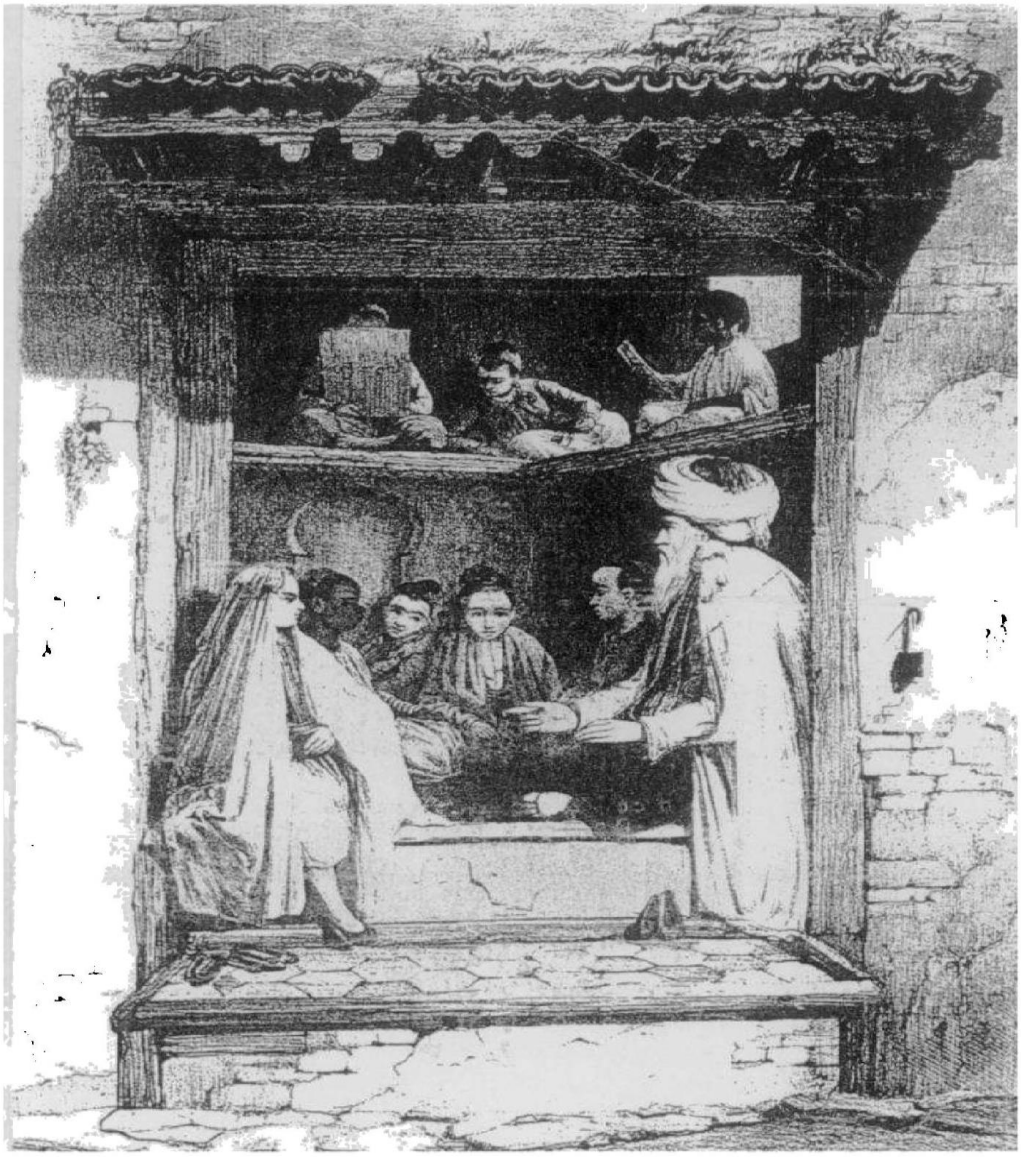
الملحق رقم (02): تبين لباس فقيه وقاضي في زيه تقليدي أثناء العهد العثماني[1]



فقيه وقاضي في زيه التقليدي

[1]- ناصر الدين سعيدوني،**الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس المغرب من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري ومن القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي)**،المرجع السابق، ص: 125.

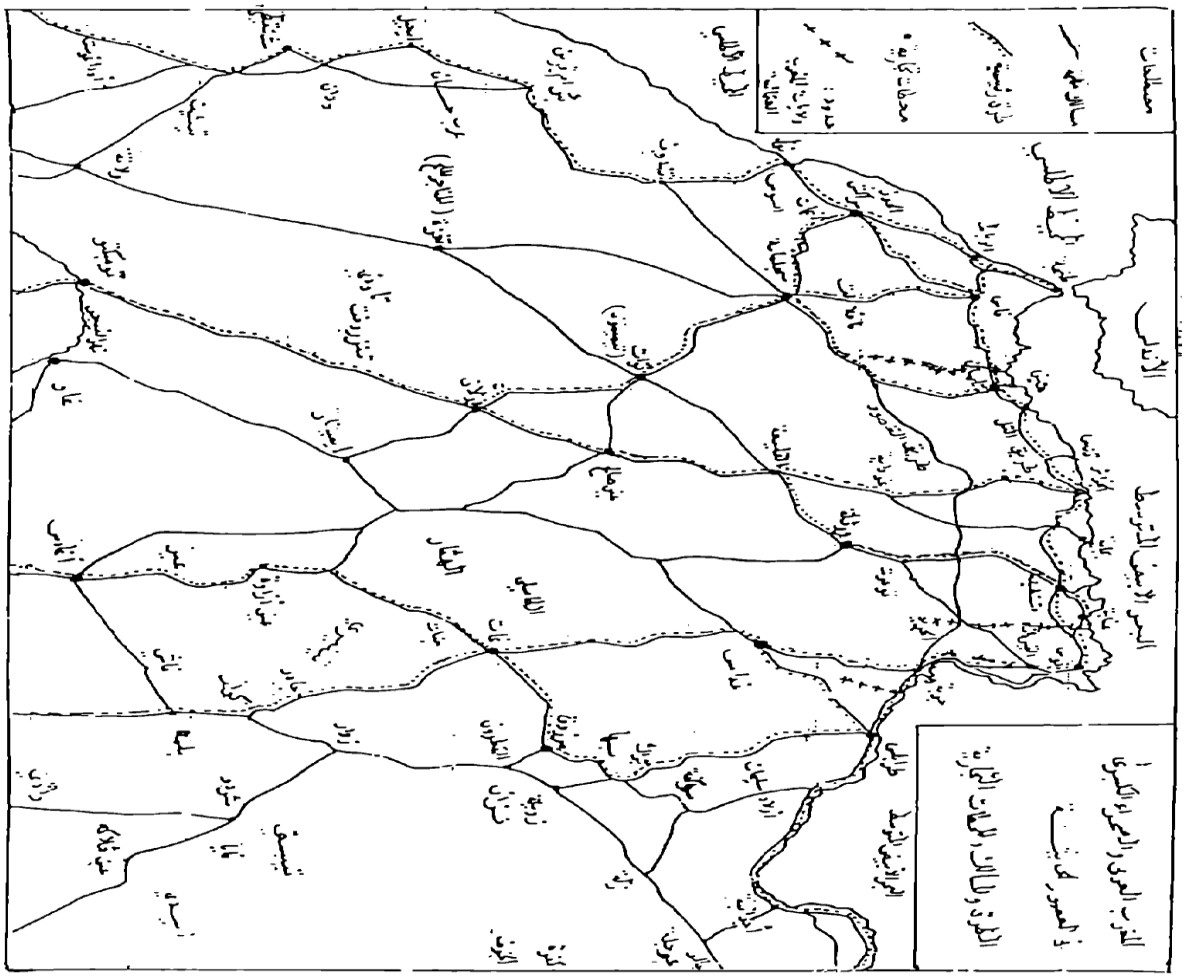
الملحق رقم (03): تبين صورة لكتاب (مدينة قرآنية) بالجزائر تعود إل سنة 1832[1]



صورة لكتاب (مدينة قرانية) بالجزائر تعود إلى سنة ١٨٣٣

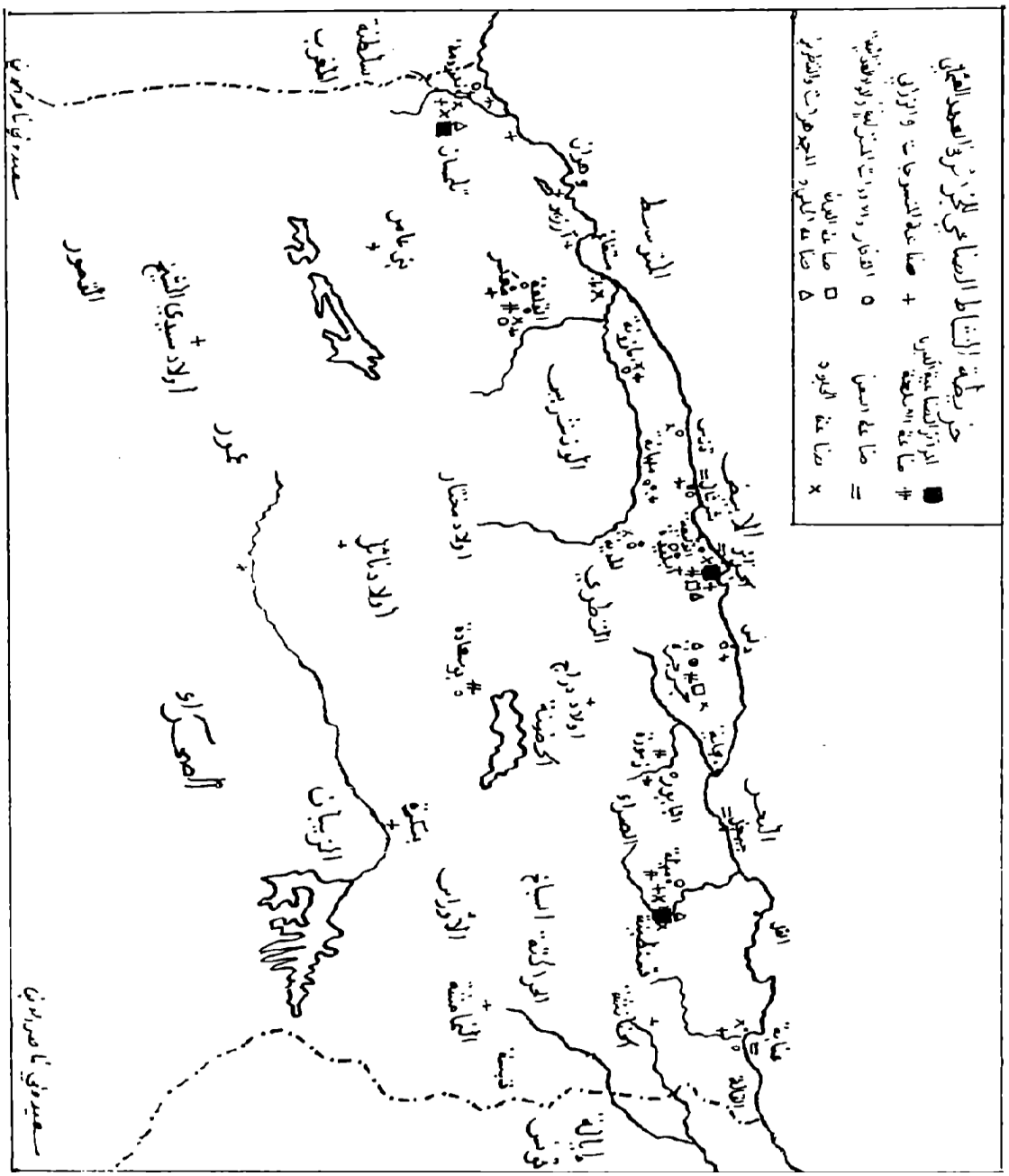
[1]– ناصر الدين سعيدوني،**الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس المغرب من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري ومن القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي)**،المرجع السابق، ص: 126.

الملحق رقم (04): تبين المغرب العربي والصحراء الكبرى في العهود الحديثة الطرق والمسالك للمحطات التجارية[1]



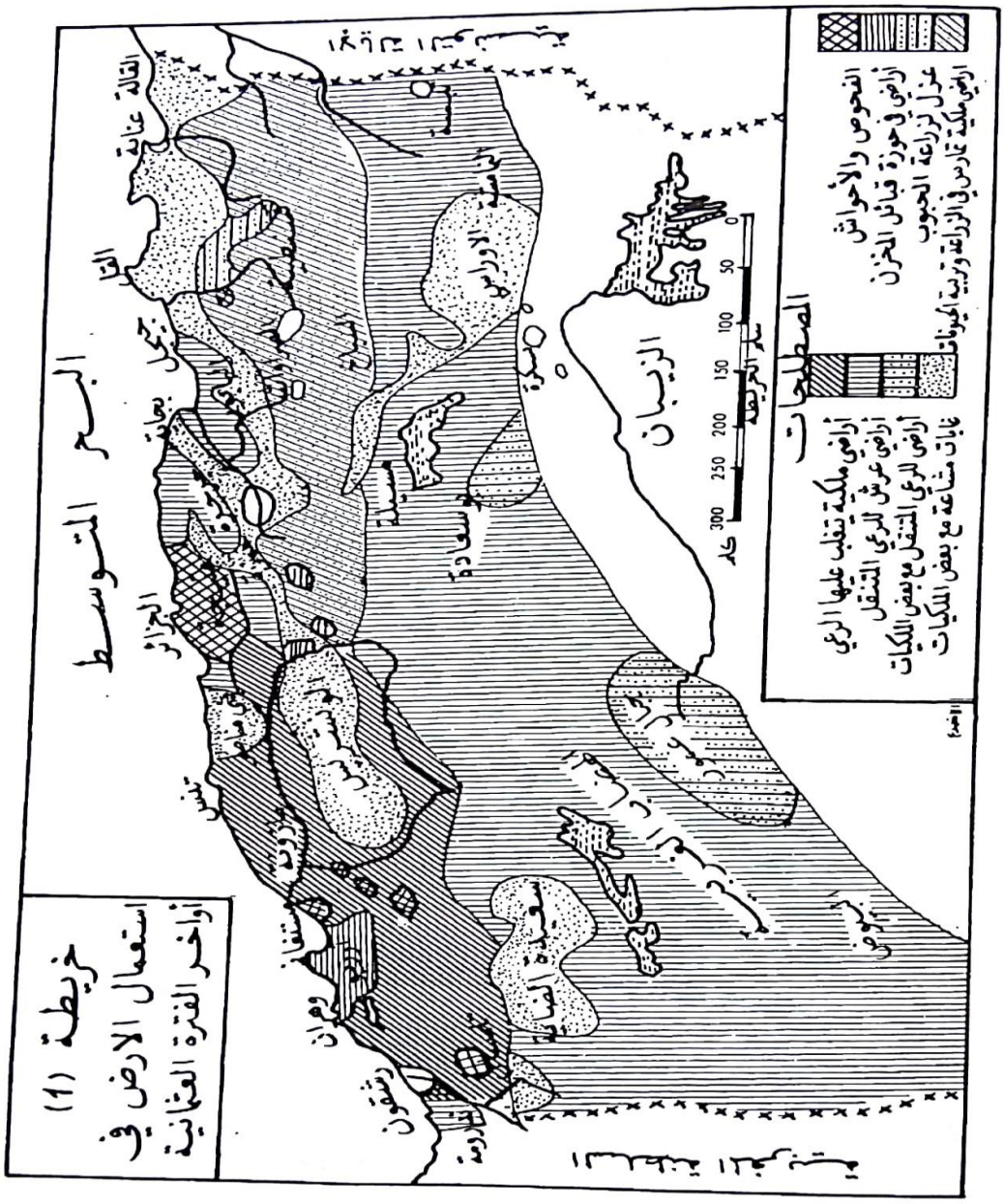
[1]- ناصر الدين سعيدوني،**الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس المغرب من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري ومن القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي)**،المرجع السابق، ص: 131.

الملحق رقم (05): يبين النشاط الصناعي في العهد العثماني[1]



[1]- ناصر الدين سعيدوني،**الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس المغرب من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري ومن القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي)**،المرجع السابق، ص: 133.

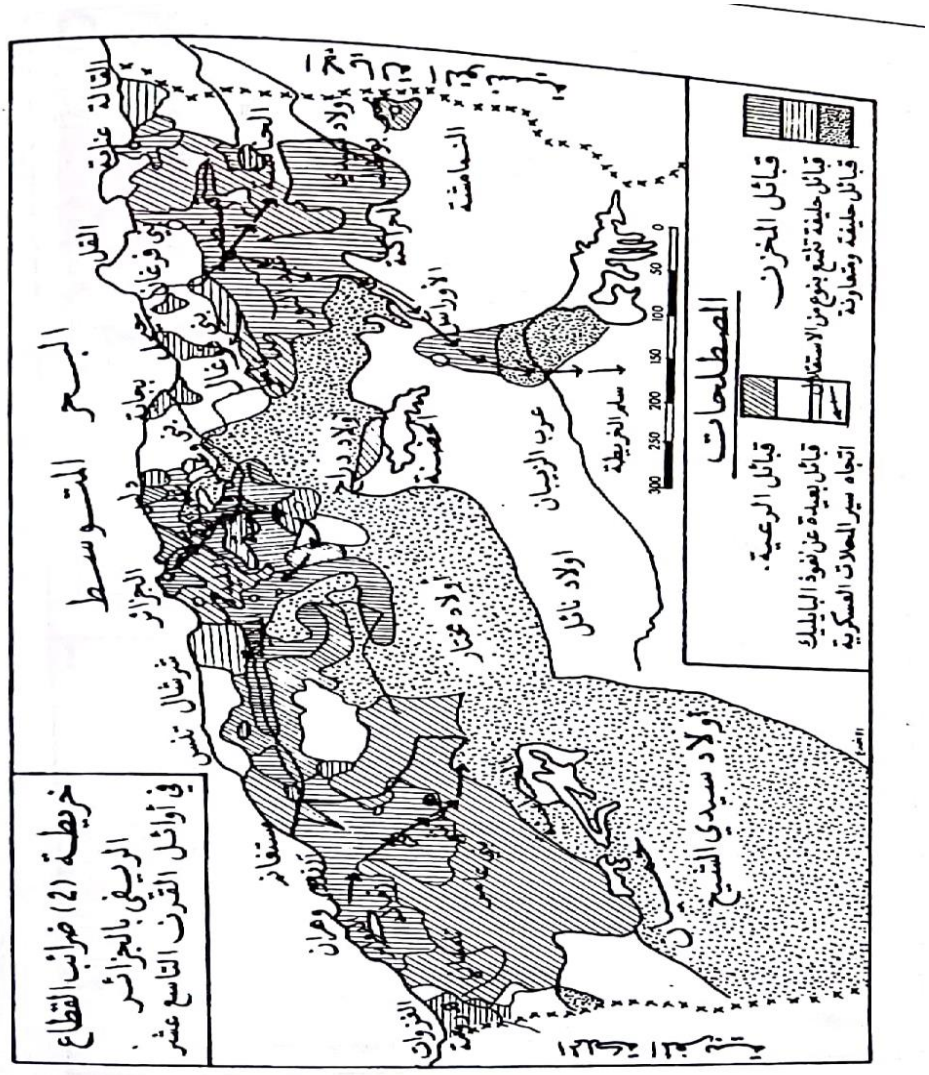
الملحق رقم (06): تبين استعمال الأرض في أواخر الفترة العثمانية[1]



الملحق رقم (07): تبين ضرائب القطاع الريفي بالجزائر في أوائل القرن التاسع عشر[1]

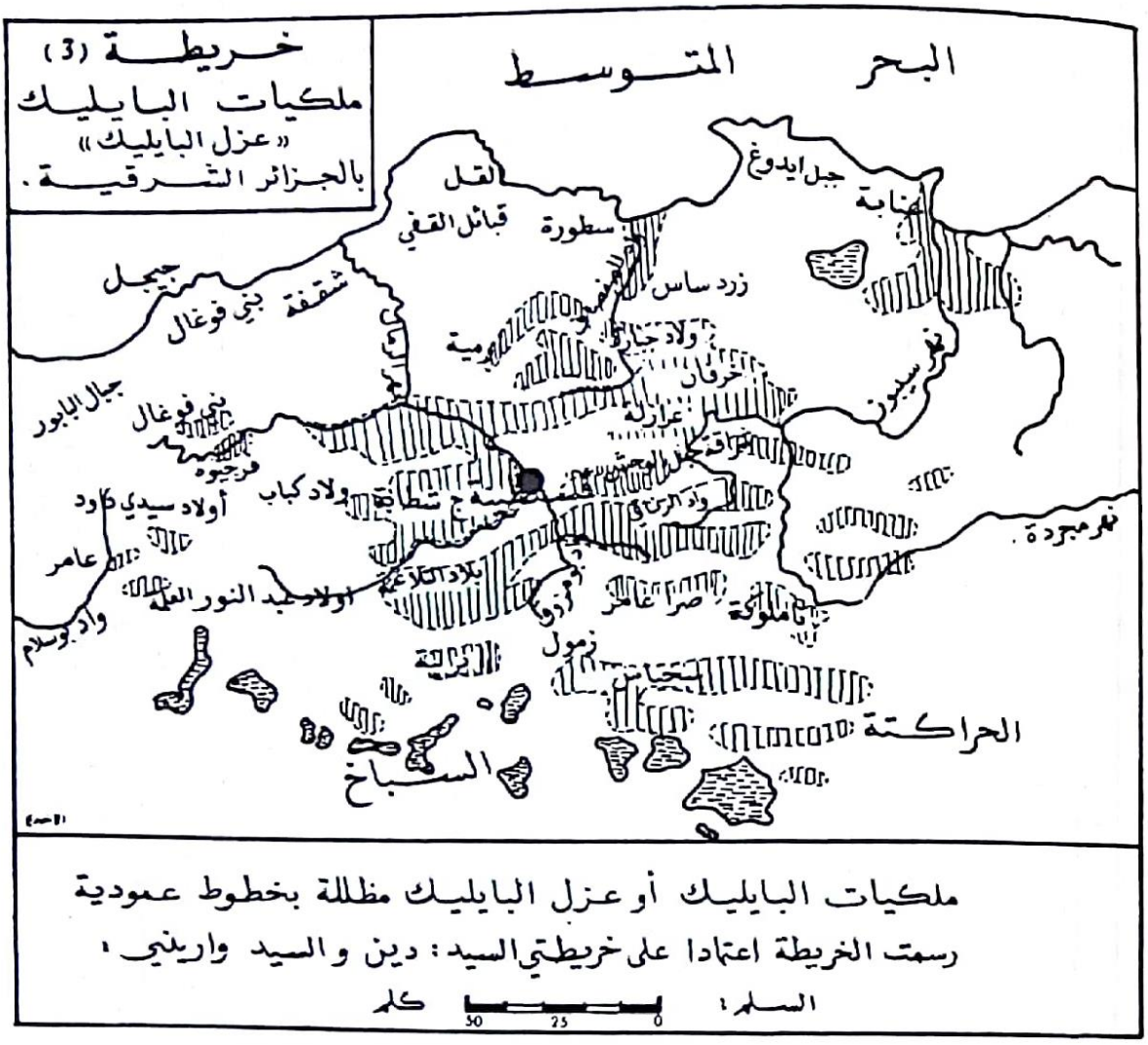
---

[1]– ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2: 1985م، ص: 329.



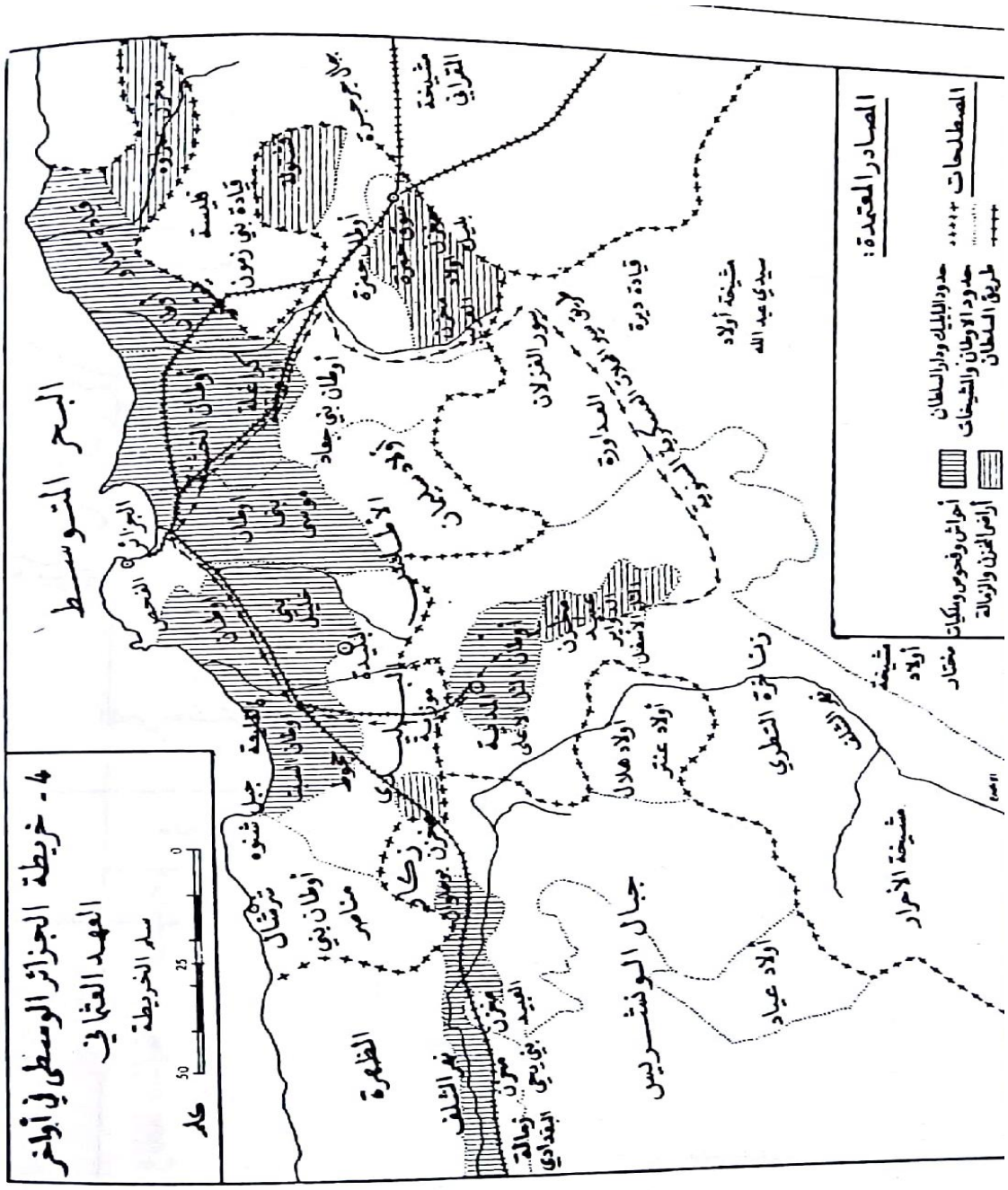
[1]– ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، المرجع السابق، ص: 330.

الملحق رقم (08): تبين ملكيات البايليك " عزل البايليك" بالجزائر الشرقية[1]



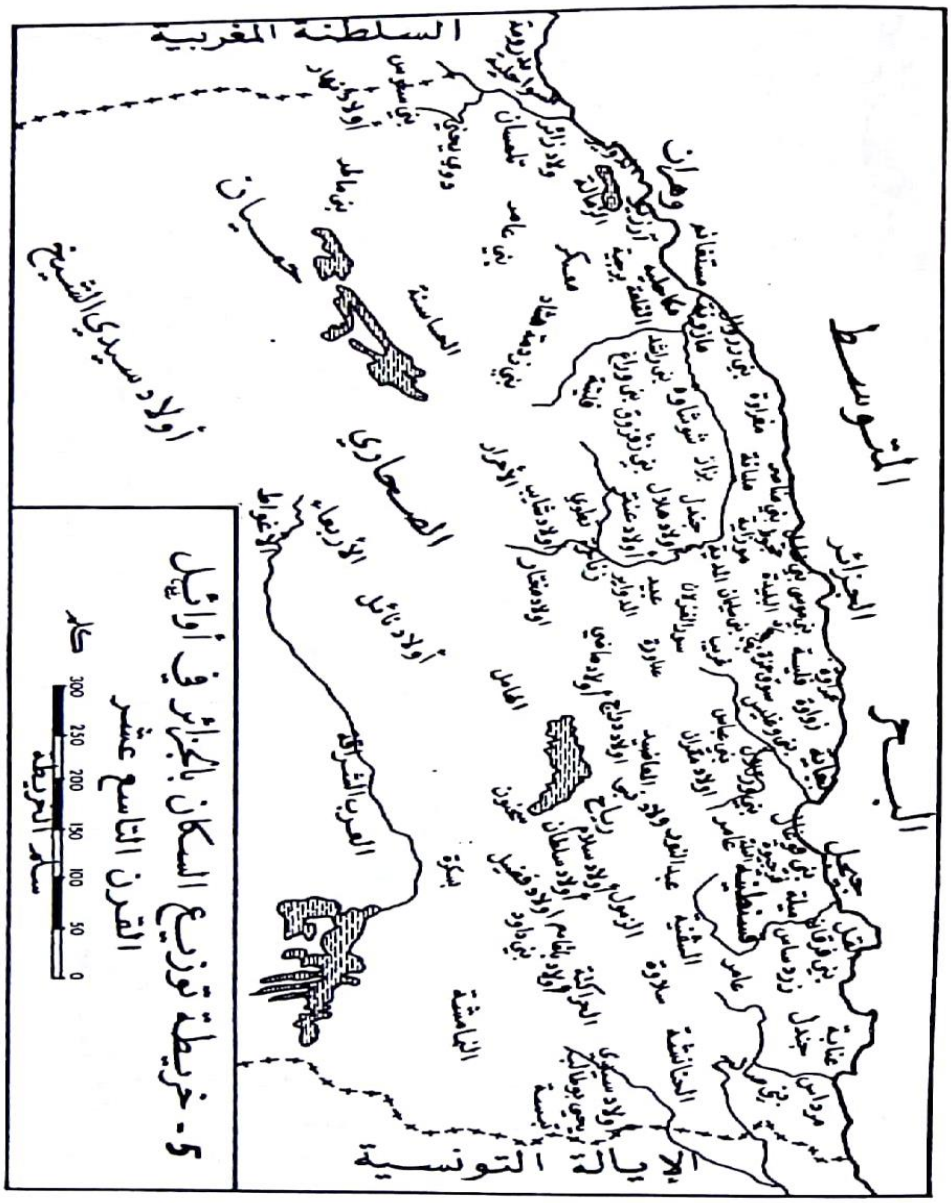
[1]– ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، المرجع السابق، ص: 331.

الملحق رقم (09): تبين الجزائر الوسطى في أواخر العهد العثماني[1]



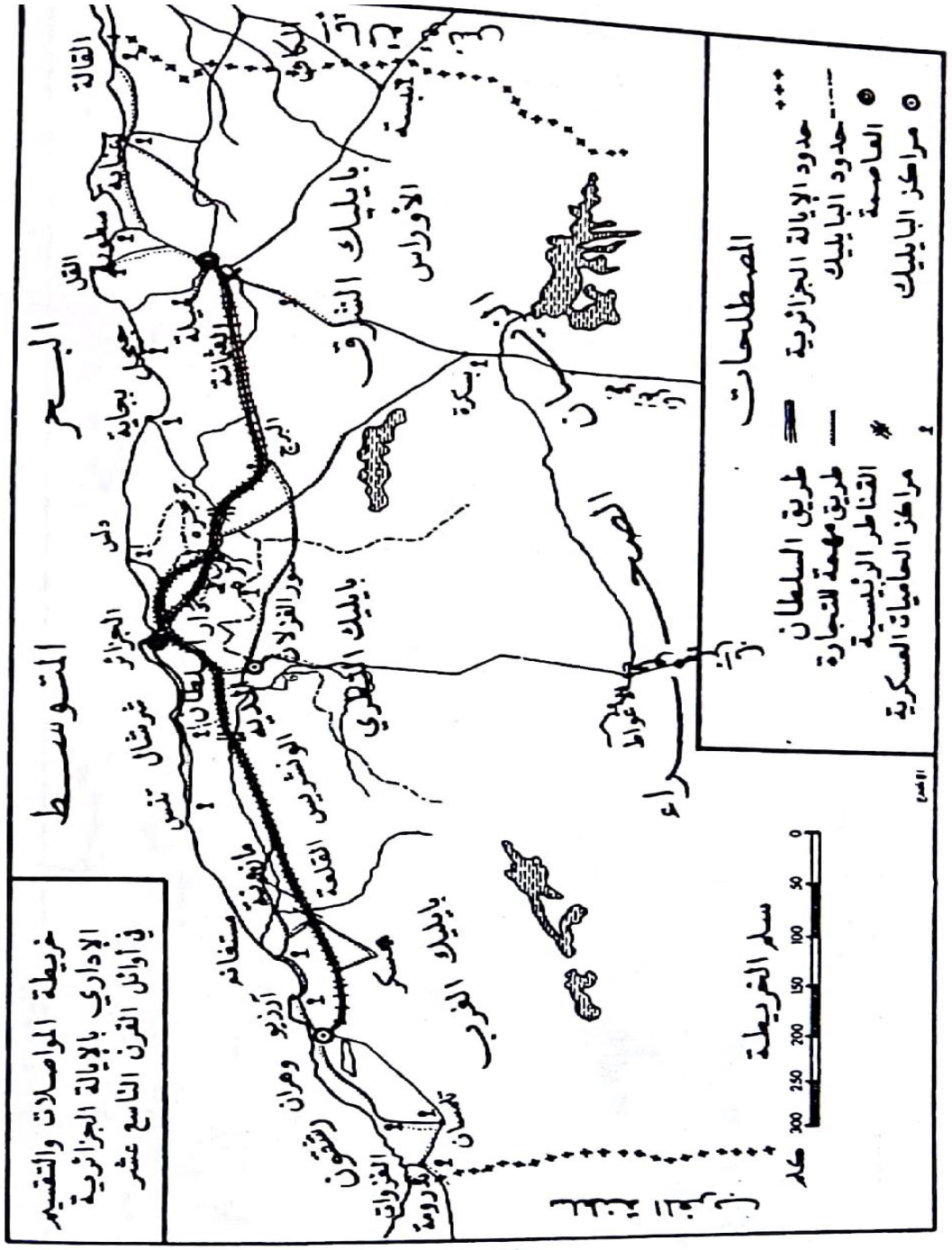
[1]– ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، المرجع السابق، ص: 332.

الملحق رقم (10): يبين توزيع السكان بالجزائر في أوائل القرن التاسع عشر[1]



[1]- ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، المرجع السابق، ص: 333.

الملحق رقم (11): تبين المواصلات والتقسيم الإداري بالإيالة الجزائري في أوائل القرن التاسع عشر[1]



[1]– ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، المرجع السابق، ص: 334.

الملحق رقم (12): مسلك عبد الرحمان بن محمد بن الخروب المجاجي من مصر إل الشلف (مجاجة)[1]



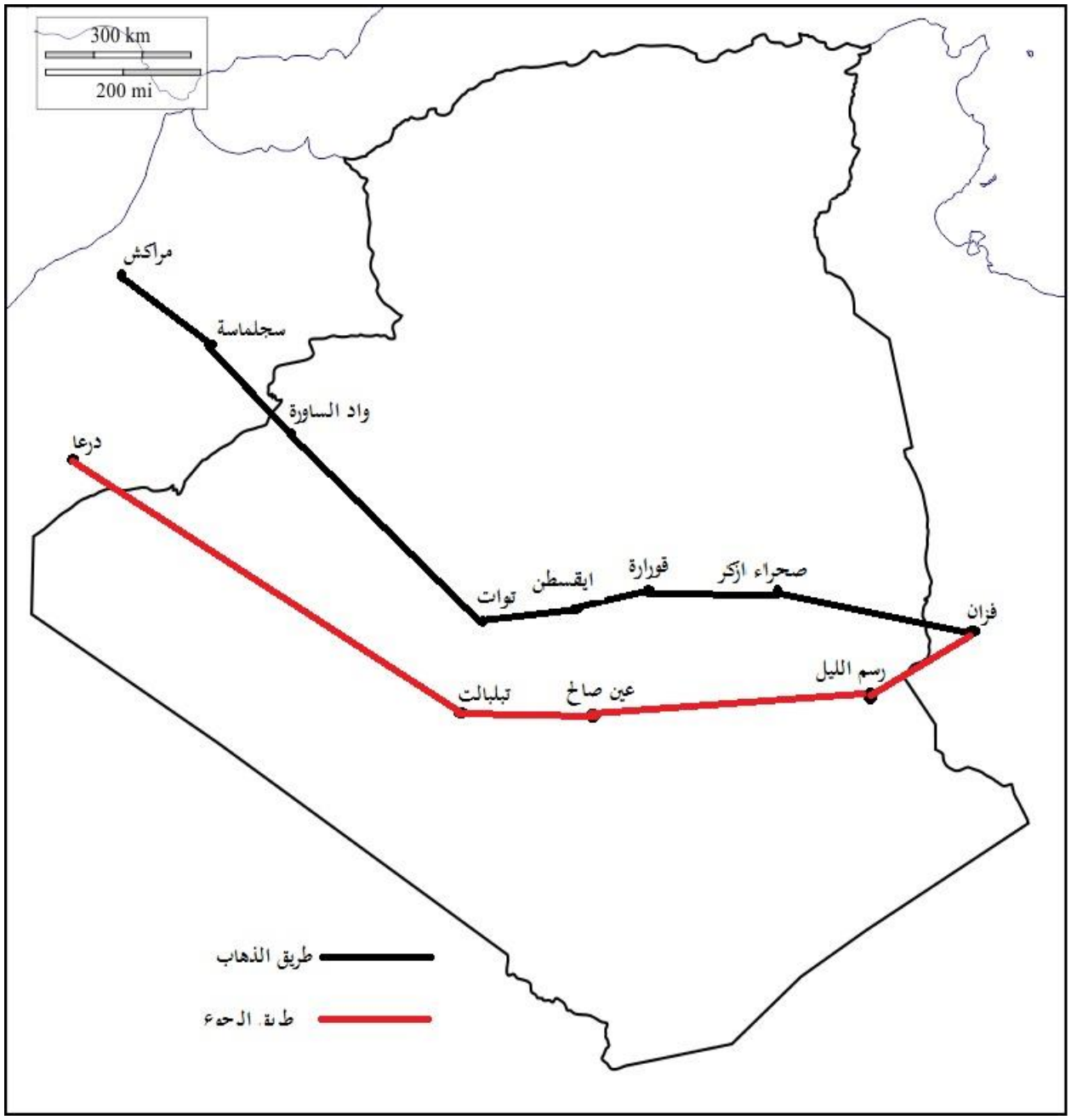
(1) – عبد الرحمان المجاجي، المصدر السابق، ص: 236.

الملحق رقم (13): خريطة تقريبية تبين تموضع قبائل بايلك الغرب اعتمادا على مراجع متعددة[1]



(1)- كمال صحراوي، المرجع السابق، ص: 352.

الملحق رقم (14): يبين الطريق الذي سلكه ابن المليح في ذهابه إلى الحج (1630-1633م) [1].



[1] مولاي بلحميسي: **الجزائر من خلال الرحلات المغاربة**، المرجع السابق، ص:94.

الملحق رقم (15): الطريق الذي سلكه أبو سالم العياشي[1].



[1] مولاي بلحميسي: **الجزائر من خلال الرحلات المغاربة**، المرجع السابق، ص:94.

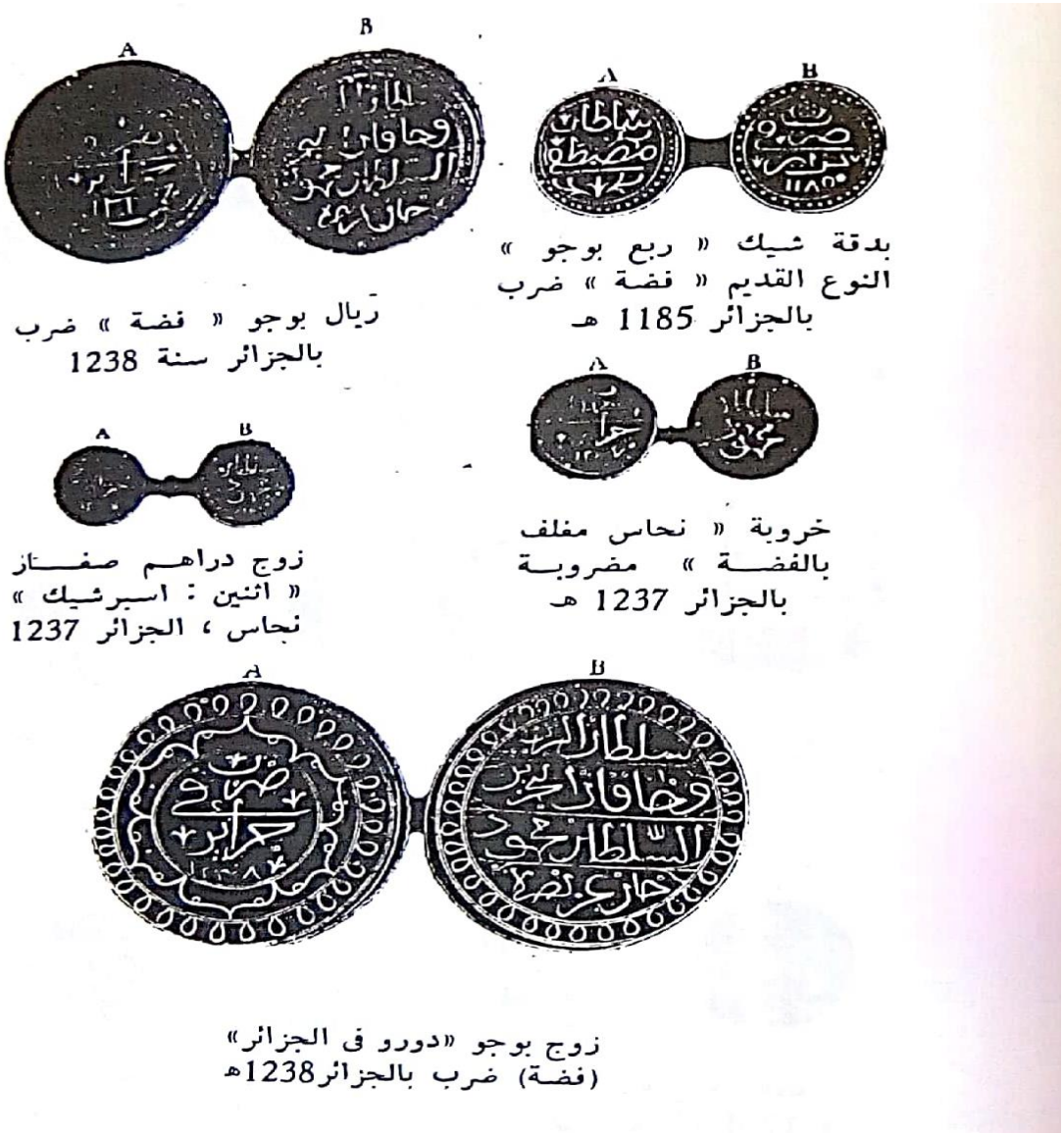
الملحق رقم (16): طريق **رحلة العياشي (المار بالسهوب الجزائرية شمال الصحراء الجزائرية)**[1].



[1] مولاي بلحميسي: **الجزائر من خلال الرحلات المغاربة**، المرجع السابق، ص:94بالتصرف

الملحق قم (17) : تبين النقود المستعملة في لجزائر في العهد العثماني

1- نماذج من العملة الجزائرية المضروبة بدار السكة من 1144 إلى 1240هـ(1731-1824)[1]



بدقة شيك « ربع بوجو »
النوع القديم « فضة » ضرب
بالجزائر 1185 هـ

ريال بوجو « فضة » ضرب
بالجزائر سنة 1238

خروبة « نحاس مغلف
بالفضة » مضروبة
بالجزائر 1237 هـ

زوج دراهم صفاز
« اثنين : اسبرشيك »
نحاس ، الجزائر 1237

زوج بوجو «دورو فى الجزائر»
(فضة) ضرب بالجزائر1238هـ

[1]- ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، المرجع السابق، ص: 337.

2- نماذج من العملة الجزائرية المضروبة بدار السكة من 1144 إلى 1240هـ (1731-1824م)[1]



نصف سلطاني «النوع القديم»
ذهب ، ضرب بالجزائر 1144هـ



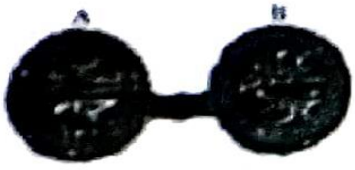
خمسة دراهم سفار
ضرب بالجزائر 1137 هـ



نصف سلطاني أو نصف
سكة ذهب ، ضرب
بالجزائر 1147 هـ



سلطاني «سكة الجزائر»
ذهب ، ضرب بالجزائر
1237 هـ



ربع سلطاني «ربع سكة»
ضرب بالجزائر 1240 هـ



نصف سلطاني « ذهب »
ضرب بالجزائر 1237 هـ

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، المرجع السابق، ص ص: 338-340.

لوحة تمثل بعض النقود التونسية المستعملة بالإيالة الجزائرية[1]



أ ـ نقود تونسية مضروبة في عهد الباي علي بن حسين « 9 : خمس « نحاس » باسم السلطان مصطفى (1186 هـ) 106 ـ سلطاني « ذهب » باسم السلطان مصطفى (1181) ، الخمس « نحاس » باسم السلطان مصطفى (1191 هـ) .

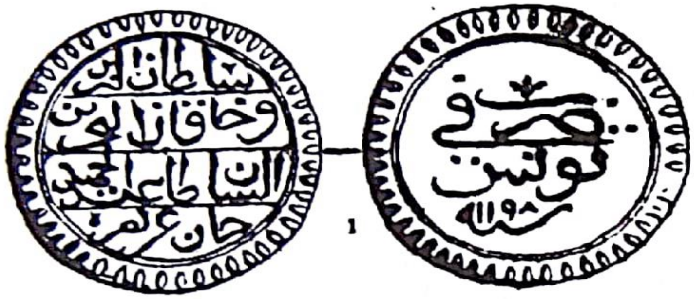
ب ـ نقود تونسية مضروبة في عهد محمودة باشا (1782 ـ 1814) من نوع الفرونش الفضية « 1 ـ باسم السلطان عبد الحميد « 1198 هـ » . 2 ـ باسم السلطان محمود « 1228 هـ » . 3 ـ باسم السلطان سليم « 1221 » .

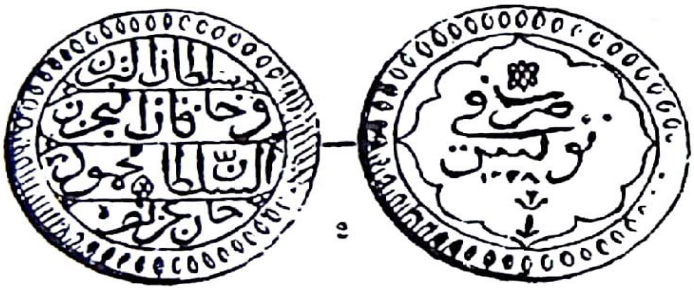
— Hugon (H) Les Emblèmes des Beys de Tunis. E. Leroux, Paris 1913, p. 19 et 21

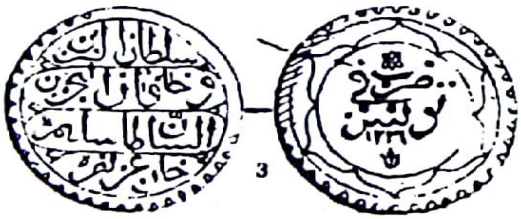
[1]– ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، المرجع السابق، ص: 339.



N° 1. Nasri carré d'argent, date illisible, sultan Ahmed ben Mohamed (2 sultans ont porté ce nom : le 1er de 1603 à 1617, le 2e de 1703 à 1730).
N° 2. Hussein, 1er bey husseinite : 1/4 piastre argent, 1140. Sultan Ahmed
N° 3. Ali, 2e bey husseinite : qafci cuivre, 1157
N° 4. Ali, 2e bey husseinite : 1/8 piastre argent. Sultan Mahmoud, 1151.
N° 5. Ali, 2e bey husseinite : 1/4 piastre argent. Sultan Mahmoud, 1150.
N° 6. Ali, 2e bey husseinite : caroube argent Sultan Mahmoud, 1167.
N° 7-8. Ali ben Hussein, 4e bey : qfaças cuivre, Tunis, 1173 1180
N° 9. Ali ben Hussein, 4e bey : fels cuivre Sultan Mustapha, 1186.
N° 10. Ali ben Husseio, 4e bey : sultani or Sultan Mustapha, 1181.
N° 11. Ali ben Hussein, 4e bey : fels cuivre. Sultan Abdulhamid, 1191.





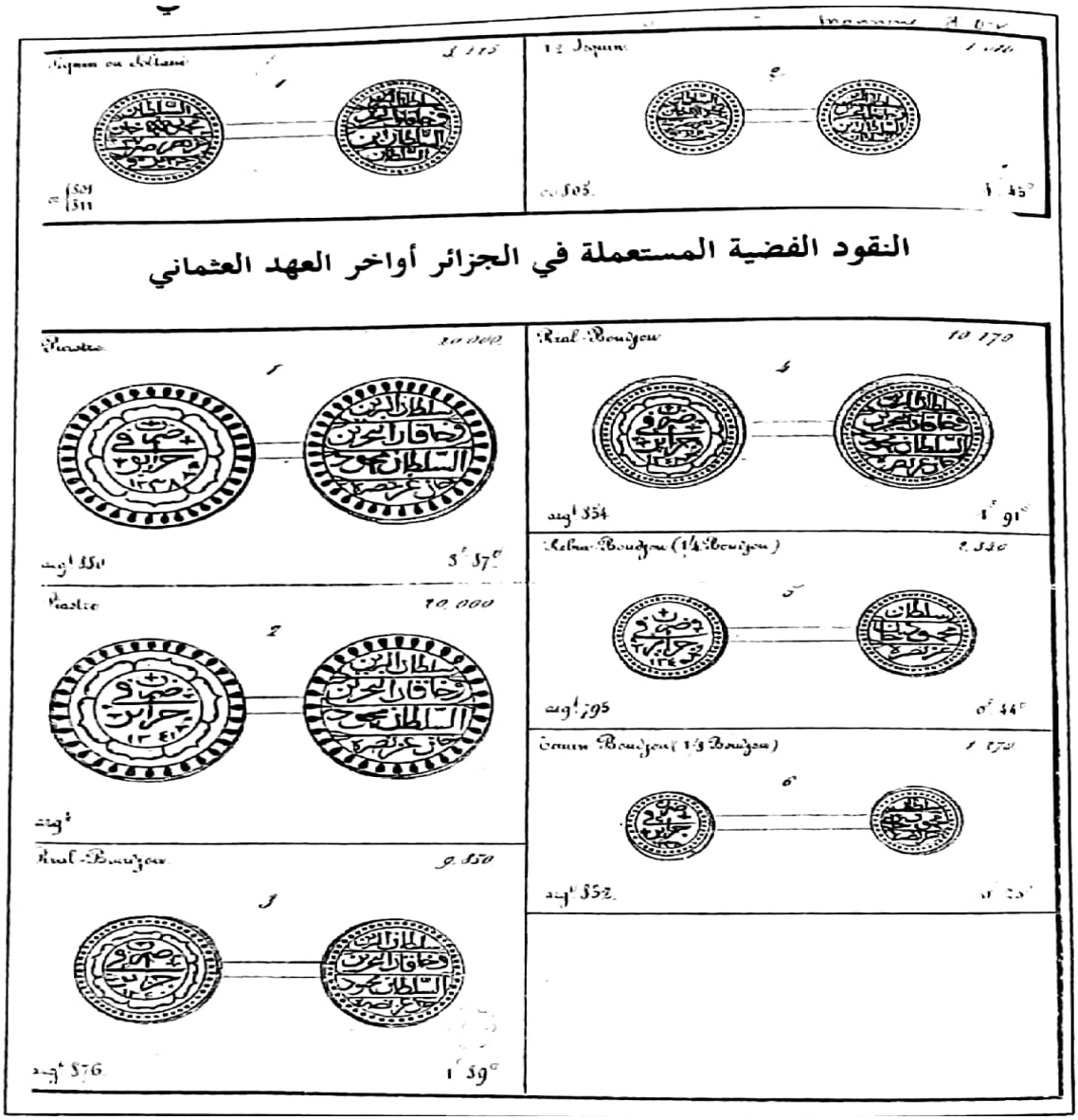


N° 1. Hamouda Pacha, 5e bey : piastre argent. Sultan Abdulhamid. 1198. — 16 grammes.

N° 2. Hamouda Pacha, 5e bey : piastre argent Sultan Mahmoud. 1278. — 13 gr. 1/2

N° 3. Hamouda Pacha, 5e bey : 1/2 piastre argent. Sultan Sélim. 1221 — 7 gr. 60.

الملحق قم (18) : تبين النقود الذهبية المستعملة في لجزائر في أواخر العهد العثماني[1]



[1]– ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، المرجع السابق، ص: 343.

البليوغرافيا

– القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.

1)– المصادر والمراجع باللغة العربية:

أ/– المصادر المخطوطة والمطبوعة:

1. أبو مدين الدرعي (1152هـ/ 1739م)، رحلة أبو مدين الدرعي، **مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط**، رقم: 297، و 42 و.
2. ابن نجيم المصري، **رسالة فيما ضبطه أهل النقل في خبر الفصد بالطاعون**، مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو–اليابن: نسخة مصورة من الموقع الإلكتروني: file://C:/Users/Nae/Downloads/m002803.pdf، ورقة 418أ.
3. التنلاني عبد الرحمان بن دريس، **رحلة الشيخ سيدي عبد الرحمان بن دريس التنلاني**، مخطوط، خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام (أدرار) الورقة 1، وجها.
4. الناصري محمد أبو رأس(ت 1238هـ/1823م)،" **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**"، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة (الحامة)، تحت رقم: 1632 الناسخ: عبد الله بن الربيع بن عبد الرحمن الشريف سنة 1243هـ/1827م (165ق).
5. الإفراني محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير، **صفوة من انتشر من أخبار الصلحاء القرن الحادي عشر**، تح: عبد المجيد خيالي، المغرب/الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي، ط1: 1425هـ/ 2004م.
6. الأمير عبد القادر، **العالم المجاهد**، تح: نزار أباظة، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، ط1: 1414هـ/ 1994م الأمير عبد القادر، **العالم المجاهد**، تح: نزار أباظة، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، ط1: 1414هـ/ 1994م
7. ابن بطوطة محمد بن عبد الله، **رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تح: محمد عبد الرحيم، بيروت _لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية، ط1: 1430هـ / 2009م.
8. ابن تيمية تقي الدين أحمد الحراني، **تخريج أحاديث مجموعة فتاوي**، إعداد: مروان كجك، بيروت: دار بن حزم، ط: 1998، السفر الثاني، مج 10.

9. ابن حمادوش عبد الرزاق(ت1197هـ/1782م)، **رحلة ابن حمادوش الجزائري (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)**، تح: أبو القاسم سعد الله الجزائر: المؤسسة الجزائرية للفنون المطبعية، ط: 1404هـ/ 1983م.
10. ابن خلدون عبد الرحمن أبو زيد (808هـ/ 1405م)، **تاريخ ابن خلدون**، بعناية ومراجعة: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ط1: 1981م، ج6.
11. ابن خلدون عبد الرحمن (732- 808هـ)، **مقدمة ابن خلدون** ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2002م، النسخة الثانية، : عبد الله محمد الدرويش، دمشق: دار البلخي، ط: 1425هـ/ 2004م.
12. ابن خلدون عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ج07، النسخة الثانية: ج6، ب. ط، دار الفكر، لبنان، 2000. دار العلم للجميع، بيروت.
13. ابن زاكور الفاسي (ت1120هـ/ 1708م)، **نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان**، تح: مصطفى ضيف، محفوظ بوكراع، **سلسلة رحلات جزائرية، ثلاث رحلات مغاربية ويليه مجموع رحلات جزائرية**، تلمسان- الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، ط: 2011م.
14. ابن زرفة الدحاوي، **تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطين فتح مدينة وهران للجامعي والرحلة القمرية**، تح: مختار حساني، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، د.ط، 2003م، ج1،ج2.
15. ابن سحنون أحمد الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تح: المهدي بوعبدلي، منشورات وزارة التعليم والشؤون الدينية، سلسلة التراث، قسنطينة: مطبعة البعث، ط: 1973م.
16. ابن سحنون القيرواني المالكي، **فتاوى ابن سحنون**، تح: مصطفى محمود الأزهري، مصر: دار ابن عفان للنشر والتوزيع-الرياض: دار ابن القيم للنشر والتوزيع، ط1 : 1431هـ/ 2011م.

17. ابن عمّار أحمد(ت بعد 1205هـ/1790م)، **أشعار جزائرية**، تح: أبو القاسم سعد الله الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 1988م.
18. ابن عمار أحمد (ت بعد 1205هـ/1790م)، **"نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" مقدمة مخطوط**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2757، و1ظ.
19. ابن قنفذ أحمد الخطيب القسنطيني (ت 810هـ/1407- 1408م)، **أنس الفقير وعز الحقير**، نشر وتصحيح: محمد الفاسي، أدولف فور، المغرب: المركز الجامعي للبحث العلمي جامعة محمد الخامس، ط: 1965م.
20. ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت 273هـ/ 866م)، **سنن بن ماجة**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، ج2.
21. ابن محمد عبد الرحمن (ت 808هـ)،**مقدمة ابن خلدون**، تقديم: محمد بن تاويت الطنجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1: (1425هـ/ 2004م).
22. ابن مطهر يحي بن إسماعيل (**1190هـ/1776م-1268هـ/1852م**)، بلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام (1211هـ/1997م)، تحقيق: عبد الله الحبشي حسني محمد صياف، الإمارات العربية المتحدة- أبوظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1: 2006.
23. ابن ميمون محمد، **التحفة المرضية في لدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تح: محمد بن عبد الكريم، الجزائر: الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، ط2: 1402هـ/ 1981م.
24. ابن هطال أحمد التلمساني، **رحلة الباي محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري**، تح: محمد بن عبد الكريم، القاهرة- مصر: دار مخيمر للطبع، دار عالم الكتب للنشر، ط1: 1969م. النسخة الثانية: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د، ت).
25. أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، تح: بشير البكوش، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2:1994، ج1.
26. أبو الحسين محمد بن جبير، **رحلة ابن الجبير**، بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت.ط.

27. أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية (1709-1710م)، تح: عبد الحفيظ ملوك، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2011.

28. أبو العباس الهلالي السجلماسي (1114هـ/ 1175هـ)، **التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام**، تح: محمد بوزيان بنعلي، تقديم: أحمد بوحسن، وجدة: مطبعة الجسور، ط1:2012م.

29. أبو سالم عبد الله العياشي، **إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء**، تح: محمد الزّاهي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1999.

30. أبو سالم عبد الله العياشي، **اقتفاء الأثر في ذهاب أهل الأثر**، تح: نفيسة الذهبي، المغرب: دار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ط1: 1996.

31. أبو سالم عبد الله العياشي، **الرحلة العياشية الصغرى أو " تعداد المنازل الحجازية (1068هـ/1658م)"**، تح: عبد الله حمادي الإدريسي، بيروت: دار الكتب العالمية، ط1: 2013م.

32. أبو العباس القلقشندي، **صبح الأعشى**، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط: 1340هـ/ 1922م، ج1.

33. أبو عبد الله الشريف الإدريس، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط: 1422هـ/2002م، ج1.

34. أبو عبد الله محمد الحضيكي السوسي (ت 1189هـ)، **الرحلة الحجازية**، تعليق: عبد العالي لمدبر، الرباط: المغرب مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط1: 1432هـ/ 2011م.

35. أبو عبد الله محمد العبدري، **رحلة العبدري**، تح: علي إبراهيم كروي، دمشق: دار سعد الدين، ط1.

36. أبو عبد الله محمد القيسي، الشهير بالسراج، والملقب بابن المليح، **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الأمال والمأرب سيد الأعاجم والأعارب صلى الله عليه**

وسلم (1040–1042هـ/1630–1633م)، تح: عبد القادر شكود، المغرب: مطابع سلا.

37. أبو الفرج زين الدين عبد الرحمان بن شهاب الدين الحنبلي البغدادي، **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، تح: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة :دار السلام، ط: 2004م، مج1.

38. أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط: 1300هـ، ج2،ج7،ج14. النسخة الثانية: تح: عامر أحمد حيدر، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1: 1424هـ/2003م، ج11،

39. أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً**، تح: عبد الكريم، الرباط: دار النشر المعرفة، ط: 1412، 1991م.

40. أبو القاسم الزياني، **الخبر عن أول دولة من الأشراف العلويين من أولاد مولانا محمد الشريف بن علي**، باريس: المطبعة الجمهورية، ط: 1303هـ/1886م.

41. أبو القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، بيروت: مؤسسة الرسالة العتيقة، ط2: 1406هـ/1985م، ج2.

42. أبو محمد عبد الله التجاني، **رحلة التجاني**، مطبعة جريدة "لابراس"، د. ط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1980.

43. أحمد باي، **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة**، تقدم وترجمة: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط: 1982م.

44. أوليا جلبي، **الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة**، تقديم: محمد حرب، تر: حسين مجيب وآخرون، القاهرة : دار الآفاق العربية، ط1: 2006 م.

45. بروفنسال ليفي، **مؤرخو الشرفاء**، تر: عبد القادر الخلادي، الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط:1397/ 1977م.

46. البغدادي إسماعيل باشا، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، طهران (خيابان بوذرجمهوري): مكتبة الإسلامية، ط: 1947، ج2.

47. بوداق مصطفى، شكر كوثر وآخرون، **الجزائر في الوثائق العثمانية**، تر: فاضل بيات، يشار محمد صالح الشريف، تحت إشراف: رئاسة الوزراء المديرية العامة لدور المحفوظات(رئاسة دائرة الأرشيف العثماني)، رقم المنشور: 115، أنقرة/ تركيا: سيستام أوفسات، ط: 2010.

48. البوني أحمد بن قاسم (ت 1139هـ/1726 م)، **الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة**، تقديم: سعد بوفلاقة، ط:(1428هـ/2007م)، عنابة-الجزائر: مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، ط1: (1428هـ/ 2007م).

49. بيري رئيس، **كتاب البحرية**، تر، محمد حرب، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط1، دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2012.

50. بالهاشمي بن بكار، **كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربع كتب**، تلمسان: مطبعة ابن خلدون، ط:(1381هـ/1961م.

51. التفتازاني سعد الدين، **شرح التفتازاني على الأحاديث الأربعين النووية**، تح: محمد حسن إسماعيل، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1: 2004.

52. الترغي عبد الله المرابط، **فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها – تطورها – قيمتها العلمية**، تطوان: جامعة عبد الملك السعدي، ط1: 1420هـ/ 1999م.

53. الترغي عبد الله المرابط، **فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها – تطورها – قيمتها العلمية**، تطوان: جامعة عبد الملك السعدي، ط1: 1420هـ/ 1999م.

54. التطيلي بن يامين، **رحلة بنيامين التطيلي**، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ط1: 2002م.

55. التمكروتي علي بن محمد، **النفحة المسكية في السفارة التركية (1589م)**، تح: محمد صالحي، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1: 2007م.

56. التنلاني عبد الرحمان بن دريس، **رحلة عبد الرحمان بن دريس التنلاني التواتي الجزائري إلى الجزائر**، تح : مصطفى ضيف، محفوظ بوكراع، سلسلة رحلات جزائرية، دار المعرفة الدولية للنشر، ط1، تلمسان، الجزائر، 2011.

57. حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تح: محمد العربي الزبيدي، الجزائر: منشورات سلسلة التراث ANEP ، ط:2005.

58. الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي (ت 1189هـ)، **الرحلة الحجازية**، تعليق: عبد العالي لمدبر، الرباط: المغرب مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط1 : 1432هـ/ 2011م.

59. الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي (ت 1189هـ/ 1775م)، **الطبقات**، تح: أحمد بومزكز، دار البيضاء: مطبعة النجاح، ط1: 1427هـ/ 2006م، ج1.

60. الحميري محمد، **روض المعطار في خبر الأقطار**، تح: إحسان عباس، بيروت: مطابع هيدلبرغ، ط2 :1948م.

61. الحموي ياقوت، **معجم البلدان**، بيروت: دار الصادر، ط1: 1995م، ج4.

62. خوجة حسين، **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، تح: الطاهر المعموري، ليبيا–تونس: الدار العربية للكتاب، ط: 1975.

63. الزهار أحمد شريف، **مذكرات الحاج أحمد شريف الزهار نقيب إشراف الجزائر(1168–1246م/1754–1830م)**، تح: أحمد توفيق المدني، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1974.

64. الزياني محمد بن يوسف، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تح: المهدي البوعبدلي، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط:1 2013.

65. الزيلعي جمال الدين ، **تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري**، تح: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، الرياض: دار النشر، ط1: 1414هـ، ج3 .

66. السخاوي أبو الحسن ، **تحفة الأحباب وبغية الطلاب**، القاهرة: مكتبة الكليات الازهرية، ط2: 1406هـ- 1986م، ص:108، الزركلي، الأعلام، ج6 .

67. السخاوي شمس الدين، **فتح المغيث " شرح ألفية الحديث"**، شرح ألفاظه: صلاح محمد عويضة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط: 1966م، ج2.
68. سراج الوزير بن محمد الاندلسي (ت 1149هـ/1736م)، الحلل السندسية في الاخبار التونسية)، تح: **محمد الحبيب الهيلة**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1985م، ج2.
69. السعيدي عبد الرحمان، **ثلاثة فهارس مغربية**، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.
70. السلمي أبو عبد الرحمان محمد بن الحسين ، **طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات**، تح: مصطفى عبد الله عطاء، بيروت: دار الكتب العلمية، ط2: 1424هـ- 2002م.
71. سيمون بفايفر، **مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر**، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
72. الشافعي محمد بن إدريس، **رحلة الإمام الشافعي**، تح: محي الدين الخطيب، إعداد: ونشر: دار القاسم.
73. شالر وليام ، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816م-1824م**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تر: إسماعيل العربي، ط: 1982م.
74. الشرقي الفاسي محمد بن الطيب، **الرحلة الحجازية**، تح: نور الدين شوبذ، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1:2014م.
75. شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر الكتاني العسقلاني الشافعي، **تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد المعوض، باب حد شارب الخمر، رقم الحديث: 1785، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1971، ج4.
76. شواش عبد القادر، بوسماحة أحمد، **المخالفات العمرانية والتحولات الاجتماعية أية علاقة، حالة قصر ورقلة العتيق**، مخبر المصادر الطبيعية وتهيئة الفضاءات الحساسة، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر.

77. الشويهد عبد الله بن محمد، **قانون أسواق مدينة الجزائر**، تح: ناصر الدين سعيدوني، الجزائر: البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، ط1 :2006.
78. العنتري محمد صالح، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاءهم على أوطانها، أو "تاريخ قسنطينة"**، تقديم وتعليق: يحي بوعزيز، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1991م.
79. . العنتري محمد صالح، **مجاعات قسنطينة**، تح: رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1394هـ1974م.
80. الغريسي الطيب بن مختار، **القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم**، المطبعة الخلدونية التلمسانية، ط1:(د.ت).
81. الغساني محمد الأندلسي، **رحلة الوزير في افتكاك الأسير 1690 – 1691**، تحرير: نوري الجراح، دار السويدي للطبع والنشر، ط1، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2002.
82. الفاسي حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، بيروت: لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط2: 1983م، ج2.
83. الفراهيدي الخليل بن أحمد، **كتاب مرتباً على حروف المعجم**، تح: عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1: 1424هـ/2002م،ج1.
84. الفكون عبد الكريم بن محمد (ت1073هـ/1662م)، **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، تح: أبو القاسم سعد الله، بيروت: منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1: 1969م.
85. فندلين شلوصر، **قسنطينة أيام أحمد باي (1832–1837)**، ترجمة وتقديم: أبو العيد دودو، الجزائر: عاصمة الثقافة العربية، ط: 2007م.
86. القادري محمد بن الطيب (ت1187هـ/1773م)، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تح: محمد حجي، أحمد التوفيق، الرباط: مطبوعات دار المغرب لتأليف والترجمة والنشر، ط:1397هـ/1977م، ج1، ج2.
87. القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت: دار صادر.

88. كاربخال مارمول، **إفريقيا**، تر: محمد حجب وآخرون، الرباط: مطبعة دار المعارف، 1989، ج2.

89. كاثكارت جميس، **مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**، تر: اسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1982 م.

90. الكتاني عبد الحي، **فهرس الفهارس والإثبات والمعاجم والمشيخات والمسلسلات**، باعتناء: إحسان عباس، بيروت :دار الغرب الإسلامي، ط2: 1982/1402م، ج1.

91. المصعبي إبراهيم بن بحمان، **رحلة المصعبي**، تح: يحي بن بهون حاج امحمّد، Mondial Print Service، ط: 1، غرداية، الجزائر، 2006م.

92. المزاري الأغا بن عودة، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تح:يحي بوعزيز، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2009م، ج1، ج2. النسخة الثانية: بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج1، ط: 1990م.

93. هابنسترايت ج.أو، **رحلة العالم الألماني ج. اوهابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145هـ/ 1732م)**، تر: ناصر الدين سعيدوني، تونس: دار الغرب الإسلامي، ط: 2013م.

94. الورثلاني الحسين بن محمد السعيد، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (رحلة الورثلانية)**، تصحيح: محمد بن أبي شنب، جزائر، مطبعة الشرقية، ط: 1326هـ/1908م.

95. هايدو فراي ديغو، **تاريخ ملوك الجزائر**، تر: أبو لؤي عبد العزيز الأعلى، الجزائر: دار الهدى، ط: 2013.

96. المجاجي عبد الرحمن بن محمد بن الخروب (1063هـ/ 1652م)، **رحلة المجاجي**، تح: سعاد آل سيد الشيخ، مراجعة وتقديم: قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية، دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط1: 1439هـ/ 2017م.

97. المحبي محمد أمين(1111هـ/ 1699م)، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، دون دار الطبع، دون طبعة، النسخة الثانية، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ت.ط، 4ج.

98. مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تع: سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ط: 1985.

99. المراكشي محمد بن محمد (1283هـ/1369م)، **السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية**، تع: أحمد متفكر، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط3: 1432هـ/ 2011م.

100. مسلم بن عبد القادر، **أنيس الغريب والمسافر**، تح: رابح بونار، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: (1394هـ-1974م).

101. المشرفي عبد القادر الجزائري، **بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر**، بدون طبعة، بدون دار طبع(طبعة حجرية).

102. المناوف عبد الرؤوف ، **الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية أو طبقات المناوى الكبرى**، تح: عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة: المكتبة الأزهرية للثرات، ط:1499م.

103. الناصري أبو عبد الله محمد بن عبد السلام (ت 1239هـ/ 1823م)، **الرحلة الناصرية الكبرى**، تح: المهدي الغالي، ط: 1434هـ/2013م، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج1.

104. الناصري محمد أبو رأس (ت 1238هـ/1823م)، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته أو "حياة أبي راس الذاتية"**، تح: محمد بن عبد الكريم، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 1990م.

105. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت: دار الصادر، ط1: 1995م، ج4.

ب/- المراجع:

106. ابن بكير الحاج سعيد يوسف، **تاريخ بني مزاب**، المطبعة العربية، ط1 :1991م.

107. إحسان عباس، **تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة**، بيروت لبنان: دار الثقافة، ط2: 1969م.

108. اغناطيوس يوليان وفتشكرا تشوكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة: مطبعة جامعة الدول العربية للطبع والنشر والتأليف، ط: 1963، ج1.النسخة الثانية: القاهرة، ط:1957م، ج2.

109. أنساعد سميرة، **الرحلات الجزائرية إلى المشرق دراسة في النشأة والتطور والبنية**، الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1:2011 م.

110. إيمرسون روبرت، راشيل فريتز، لندا شو، **البحث الميداني الإثنوجرافي في العلوم الاجتماعية**، تر: هناء الجوهري، مر: محمد الجوهري، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط:2010م.

111. بالحميسي مولاي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1979.

112. برنيان أندري، نوشي أندري، لاكست ايف، **الجزائر بين الماضي والحاضر**، تر: رابح اسطنبولي ومنصف عاشور، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1984.

113. بكاي عبد المالك، الحياة **الريفية في المغرب الأوسط من القرن (07-10هـ/ 13-16م)**، تلمسان-الجزائر: النشر الجامعي الجديد، ط: 2017م.

114. بلاغ عبد الرحمان، **الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب**، الجزائر: مكتبة الرشاد للنشر والتوزيع، ع 04، ط:جوان 2013م.

115. بن المري عبد السلام بن عبد القادر، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، بيروت: دار الفكر، ط1: 1430هـ-/2010م.

116. بن بكار الهاشمي، **كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب**، تلمسان: مطبعة ابن خلدون، ط:1371هـ/1961م.

117. بن عبد الكريم محمد،" **المقري وكتابه "نفح الطيب** "، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

118. بن عمارة خليفة، **سيرة البوبكرية أجداد أولاد سيدي الشيخ (من سيدي معمر أبو العالية إلى أبناء سيدي سليمان بن بوسماحة، سيدي محمد، لآلة صفية، سيدي أحمد المجدوب، تاريخ هيجيوغرافية الجنوب الغربي الجزائري، القرن 14، 15، 16م)**، تر: محمد قندوسي، وهران، الجزائر: مكتبة جودي مسعود، ، ط1: 2002م، ج1.

119. بن قربة صالح وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، طبعة وزارة المجاهدين، منشورات المركز الوطني للبحث والدراسات في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

120. بن ولهة عبد الحميد مسعود، **أبناء الشعانبة ومراحل التصور الحضاري لبلاد الشبكة سكانياً عقائدياً وعمرانياً**، متليلي_غرادية: دار الصبحي للطباعة والنشر، ط1: 2014.

121. بوتشيش إبراهيم القادري، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1: 1997.

122. بوطالب محمد نجيب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،ط1: 2002م.

123. بوعزيز يحي، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، الجزائر: دار الهدى، 2009، ج1.

124. بوعزيز يحيى، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: 1995م، ج2.

125. بوعزيز يحيى، **علاقات الجزائر مع دول وممالك أوروبا(1500_1830م)**، د.م.ج، الجزائر: 1985.

126. التازي عبد الهادي، **رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**، الرياض: 1425هـ/ 2005م، ج1.

127. التر عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**، تر: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية، ط1 :1409هـ/1989م.

128. توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، القاهرة: دار المعارف-البليدة: نشر دار الكتاب، ط2: 1963م.

129. الجابري نزيهة، **الرحلة السفارية من الإئتلاف إلى الاختلاف مساهمة في التأسيس الدبلوماسي المغربي**، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1: 2011.

130. حساني مختار، **الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية**، دار الهدى، ج5، 2011م.

131. حسن زكي محمد، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، مصر:مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط: 2012م.

132. حسن محمد، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، تونس: جامعة تونس الأولى، ط: 1999، ج1.

133. حسين حسني محمود، **أدب الرحلات عند العرب**، بيروت - لبنان: دار الأندلس، ط:2، 1403هـ/1983م.

134. حسين فهيم، **قصة الأنثروبولوجيا**، عالم المعرفة، الكويت: عالم المعرفة، فبراير: 1986.

135. حفناوي باعلي، **صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين**، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2016.

136. حليمي عبد القادر علي، **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م**، بدون دار طبع، ط1:1972م.

137. خياطي مصطفى، **الطب والأطباء في الجزائر العثمانية**، الجزائر: منشورات ANEP، ط: 2013.

138. دحومان الحسني كمال، **الأشراف ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري**، الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ط: 2008.

139. الدفاع علي بن عبد الله، **رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية**، د.د.ط، د.ط، الظهران، المملكة العربية السعودية، 1989م.

140. دودو أبو العيد، **الجزائر في مؤلفات الراحلين الألمان (1815 – 1830م)**، الشركة الوطنية للنشر، 1975،

141. رمضان أحمد، **الرحلة والرحالة المسلمون**، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، بدون تاريخ.

142. الزبيري محمد العربي، **التجارة الخارجيّة للشرق الجزائري في الفترة ما بين (1792–1830م)**، الجزائر: دار الحكمة، ط 3: 2014.

143. الزركلي خير الدين، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، بيروت: دار العلم للملايين، ط15:2006، ج1، ج2.

144. الزوبيري محمد العربي، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، الجزائر: الوكالة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1972م.

145. الزوبيري محمد العربي، **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 1981.

146. سعد الله أبو القاسم، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط3: 1990م، ج1.

147. سعد الله أبو القاسم، **الطبيب الرحالة ابن حمادوش حياته وآثارة**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1982م.

148. سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي تاريخ الجزائر الثقافي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1998م، ج2.

149. سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزائر: دار الغرب الإسلامي، ط1: 2008م. ج9.

150. سعد الله أبو القاسم، **شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1406هـ/ 1986م.

151. سعد الله أبو القاسم، **مجموع رحلات (ضمنها رحلة ابن الدين الأغواطي محققة)**، الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، طبعة خاصة: 2011م.

152. سعد فوزي، **يهود الجزائر هؤلاء المجهولون**، الجزائر: شركة دار الأمة، ط2:2004م.

153. سعيدوني ناصر الدين و بوعبدلي المهدي، **الجزائر في التاريخ العهد العثماني**، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر ، 1984.

154. سعيدوني ناصر الدين، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب)**، حوليات الأدب والعلوم الاجتماعية- الحولية الحادية والثلاثون)، ط: 1431هـ/ 2010م.

155. سعيدوني ناصر الدين، **الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر دار السطان أواخر العهد العثماني (1789-1830م)**، الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة: 2013م.

156. سعيدوني ناصر الدين، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2: 1985م.

157. سعيدوني ناصر الدين، **دراسات في الملكية والوقف والجباية الفترة الحديثة**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2001.

158. سعيدوني ناصر الدين، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، (الفترة الحديثة والمعاصرة)**، جزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 1988م،ج2.

159. سعيدوني ناصر الدين، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1999م.

160. سعيدوني ناصر الدين، **ورقات جزائرية ودراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، الجزائر: دار البصائر، ط2 :2009 م، النسخة الثانية: بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1: 2000م.

161. السلاوي، **الإستقصا لدول المغرب الأقصى**، تح:جعفر الناصري، ومحمد الناصري المغرب: دار البيضاء، ط:1954م، ج1.

162. السليماني أحمد، **تاريخ مدينة الجزائر** (يتعرض إلى ماضي مدينة الجزائر من النواحي الحضارية والاجتماعية والسياسية والثقافية)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 2000م.

163. الشامي صلاح الدين علي، **الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية**، مطبعة رمضان وأولاده، ط2، دار منشأة المعارف للنشر، الإسكندرية، مصر، 1999.

164. الشريف محمد بن حسن، **المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية،** المقدمة، المملكة العربية السعودية: دار الأندلس الخضراء، ط1:1421هـ- 2000م.

165. الشماس عيسى، **مدخل إلى علم الإنسان (الإنثروبولوجيا)،** دمشق: منشورات الاتحاد الكتاب العرب، ط: 2004 .

166. الشوابكة نوال عبد الرحمن، **أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري،** تقديم: صلاح جرار، الأردن: دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1: 1428هـ-2008م.

167. شوقي الضيف، **الرحلات،** القاهرة: دار المعارف، ط4: بدون تاريخ طبعة.

168. شوقي عيسى، **يهود الجزائر 2000سنة من الوجود،** الجزائر: دار المعرفة، ط: 2008.

169. شويتام أرزقي، **نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل أنهياره (1800م-1830م)،** الجزائر : دار الكتاب العربي، ط1:2011 م.

170. الطيبي جمال الفندي، **الجغرافيا عند المسلمين،** بيروت: دار الكتاب اللبناني للطبع، ط1: 1982.

171. عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،** بيروت: مؤسسة نويهض للثقافة والتراث، ط2: 1400هـ/ 1980م،ج1.

172. عباد صالح، **الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830م)،** الجزائر : دار هومة، ط2: 2008م.

173. العربي إسماعيل، **الصحراء الكبرى وشواطئها،** الجزائر: المكتبة الوطنية للكتاب: ط: 1983م.

174. عمار هلال، **العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنيين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3هـ)،** الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 1995م

175. عمورة عمار، **الجزائر بوابة التاريخ (ما قبل التاريخ الى 1962)،** الجزائر:دار المعرفة، ط:2006م، ج1.

176. عميراوي أحميده، **الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني(مذكرات تيدينا أنموذجاً)**، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 2003.

177. العوامر إبراهيم محمد الساسي، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق: الجيلاني بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، الجزائر: 2007م.

178. الغاشي مصطفى، **الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة**، بيروت-لبنان: الانتشار العربي، ط:1، 2015.

179. فاسكو دي غاما، دوز سانتوس، **يوميات فاسكو دي غاما وتقرير رحلة دوز سانتوس**، ترجمة ودراسة: عبد الرحمان عبد الله السيخ، مصر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1995.

180. فركوس صالح، **تاريخ الجزائر ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال**، دار العلوم للنشر، الجزائر، 2005 .

181. فيلالي مختار بن الطاهر، **رحلة الورتلاني، عرض ودراسة**، باتنة: دار الشهاب، ط: 1978م.

182. كحالة عمر رضا، **معجم المؤلفين**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1: 1414هـ/1993م، ج2.

183. كراتشوفسكي، **تاريخ الأدب العربي الجغرافي**، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط:1957 م، ج1، ج2. النسخة الثانية: د.ط، د.ت.ط.

184. كلوزيبيه رينيه، **تطور الفكر الجغرافي**، تر: عبد الرحمان حميدة، دار الفكر للطبع، د.ط، دمشق، سوريا، 1985.

185. كنون عبد الله، **مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة**، تقديم: محمد عزوز، المغرب/الدار البيضاء: دار ابن حزم، ط1: 1430هـ/2010م، ج3.

186. لزغم فوزية، **الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، الجزائر**: لدار سنجاق الدين للكتاب، ط1: 2009.

187. لكحل الشيخ، **مقاومة منطقة متليلي الشعانبة للاستعمار الفرنسي في الفترة ما بين (1851–1908م)**، متليلي- غرداية: دار صبحي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1: 2019م.

188. ماكامان محمد، **الرحلات المغربية (ق XI–XIIهـ/–XVII–XVIIIم)**، الرباط: مطبعة الأمنية، ط1:2014م.

189. المباركفوري عبد الرحمن (ت1353هـ)، **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، بيروت: دار الكتب العلمية، ج4، ط14: نوفمبر 2010م.

190. محمد صابر عرب، **سياحة أوليا جلبي**، د. ط، د. ت. ط.

191. محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات الملكية**، ضبط الحواشي: عبد المجيد خيالي بيروت: دار الكتب العلمية، ط1: 1424هـ/ 2003م.

192. محمود السيد، **تاريخ دول المغرب العربي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا) الإسكندرية:** مؤسسة شباب الجامعة، ط: 2000م.

193. مخلوف محمد، **شجرة النور الزكية**، ضبط الحواشي: عبد المجيد خيالي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1: 1424هـ/2003م، ج1.

194. المدني أحمد توفيق، **جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية**، مطبعة العربية، الجزائر : 1984.

195. المدني أحمد توفيق، **محمد بن عثمان باشا داي الجزائر(1766–1791 م) سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده**، دار البصائر، الجزائر: 2009، النسخة الثانية : المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

196. المدني أحمد توفيق، **هذه هي الجزائر ويليه كتاب الجزائر**، الجزائر: عالم المعرفة، ط: 2010م، مج:8.

197. منصور علي مفتاح إبراهيم، **الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر" دراسة تاريخية وثائقية**، دار الكتب الوطنية بنغازي، طرابلس-ليبيا، ط1: 2005 م.

198. المنوني محمد، **ورقات من حضارة المرينين**، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط: 1996م.
199. الميلي عبد الله شريط، محمد، **الجزائر في مرآة التاريخ**، قسنطينة: مكتبة البعث، ط: 1925م.
200. نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، بيروت: مكتب التجاري لطباعة، ط1: 1971م.
201. هانريش فون مالتسان، **ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا**، تر: أبو العيد دولاو، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج3.
202. هاينريش فون مالتسان، **ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا**، تر: أبو العيد دودو، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج1.
203. هلايلي حنفي، **بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني**، الجزائر: دار الهدى، ط 1: 1428هـ/ 2007م.
204. الورجلاني ابو يعقوب يوسف ابن ابراهيم السدراتي، **رحلة الورجلاني**، تح: يحي بن بهون حاج محمد، ط1،Mondial Printe Service، غرداية، الجزائر، 2006.
205. الوزير حمودة، **الكتاني الباشي**، تح: محمد ماضور، تونس: الدار التونسية للنشر ط: 1970م ج1.
206. وليام سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، ترجمة : عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر،ط: 1980م، النسخة الثانية: الجزائر: دار القصبة للنشر، ط: 2006.

ج/– المعاجم والقواميس:

207. أبو العزم عبد الغني، **معجم الغني**، موقع معاجم صخر، المكتبة الشاملة، ج1.
208. جبران مسعود، **الرائد معجم لغوي عصري رتبت مفرداته وفقاً لحروفها الأولى**، بيروت–لبنان: دار العلم للملايين، ط7:آدار/مارس: 1992م.
209. حسين يوسف موسى – عبد الفتاح الصعيدي، **الإفصاح في فقه اللغة**، الإفصاح في فقه اللغة، ط2:1324هـ/1964م، القاهرة:دار الفكر العربي، ج2.
210. **دائرة المعارف الإسلامية**، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس، **دائرة المعارف الإسلامية**، دار الشعب،ج3.

211. سهيل صبان، **المعجم الموسوعي للمطلحات العثمانية التارخية**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط3: 1421هـ/ 2000م.

212. عبد الباقي محمد فؤاد، **المعجم المفهرس للألفاظ القرآن الكريم**، القاهرة: دار الحديث، ط: 1364هـ.

213. عبد المنعم محمود عبد الرحمن، **معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية**، دار الفضيلة، ج2.

214. المعجم الوسيط، **مجمع اللغة العربية الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث**، جمهورية مصر العربية: مكتبة الشروق الدولية، ط4 : 1425هـ/ 2004م.

د/– الدراسات والمجلات:

215. أحمدون عبد الخالق، **الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي(ت 1239هـ/ 1823م، مجلة الإحياء**، طنجة، د.ع، د.ت.

216. باربارا دميتكالف؛ ذكريات الحج، روايات جنوب آسيوية، **مجلة الدارة**، ع03، الرياض، السعودية، 1999.

217. بحيري يامنة، **نماذج من العائلة الأندلسية في مدينة الجزائر في الفترة العثمانية (القرنين 17–18م)**، م.د.ت، ع:14، جامعة الجزائر، ط: 1433هـ/ 2012م.

218. كاري عبد القادر، عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة بـ"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، **مجلة عصور الجديدة**، المجلد7، عدد 26، 2017.

219. بلاطش حسيبة، الازدهار الاقتصادي والعلمي لإقليم توات وانعكاسه على التواصل ببلدان الساحل الإفريقي ما بين القرنين 16 - 20، **مداخلة بالملتقى الوطني حول التواصل الحضاري بين الجزائر وبلاد الساحل الافريقي** خلال القرنين 16-20. بجامعة حمة لخضر الوادي.

220. بلحميسي مولاي، "**ورقلة من خلال النصوص الأجنبية**"، في **مجلة الآصالة**، الجزائر، 1977.

221. بلقاسم قرباش، دور الكتابات الغربية في تشويه تاريخ الجزائر العثماني، **مجلة رفوف**، عدد4، س 2014.

222. بلهواري فاطمة، الرحلة العلمية لعلماء تلمسان إلى فاس في العصر الوسيط، **مجلة الحوار المتوسطي**، العدد1.

223. بلهوراي فاطمة، وصف الجنوب الصحراوي الجزائري في ظل الحكم العثماني من خلال "رحلة أبي العباس الهلالي السجلماسي"، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامي، جامعة وهران.

224. بن صغير حضري يمينة، (سياسة التوغل الاستعماري الفرنسي بمنطقة وادي ريغ)، **مجلة الواحات**، جامعة غرداية، مج7، ع2، 2014م.

225. بن صغير حضري يمينة، منطقة وادي ريغ من خلال المصادر الغربية (الحقبة الاستعمارية)، **مجلة الواحات**، جامعة غرداية مج10، ع2، 2017م.

226. بن علي طاهر، الوثيقة بين التوصيف والتصنيف مقاربة ابستيمولوجية في التعريف، **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، المجلد 8، عدد1، 2015.

227. بن قايد عمر، منطقة الأغواط وجوارها من خلال رحلة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي السجلماسي(ت 1239هـ/ 1823م)؛ قراءة اجتماعية ثقافية، **المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية**، المجلد09، العدد الأولى، جوان 2018.

228. بن قومار جلول، هاجس الأمن عند ركب الحج المغاربة، **مجلة الحوار المتوسطي**، سيدي بلعباس، مج8، ع2، ديسمبر 2017م.

229. بوسليم صالح، الزين محمد، ملامح من الحياة العامة بالجزائر في كتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني، في **مجلة الحوار المتوسطي**، تصدر عن مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، العدد الخاص المزدوج: 10/9، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، سبتمبر: 2015.

230. بوسليم صالح، بن قايد عمر، (الأضرحة والمزارات في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات المغربية)، **مجلة الباحث للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة ورقلة، ع21، ديسمبر 2015.

231. بوطارن مباركن، الدور التجاري لورقلة في العصر الوسيط، **حوليات التاريخ والجغرافيا**، المجلد1، العدد 2.

232. بوطرفة شفيق، عيلان عمر، الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان ج. او. هابنسبرايت نموذجا، **حوليات جامعة الجزائر 1**، عدد 32، 2018.

233. بوعزة سهام، (التعريف بمنطقة الزيبان من خلال الدراسات التاريخية والجغرافية)، **مجلة دراسات**، جامعة الأغواط، مج10، ديسمبر 2018م.

234. بوعزيز يحي، الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن التاسع عشر، **مجلة الثقافة**، العدد: رقم: 80ا، لجزائر: 1984.

235. التازي عبد الهادي، الرحلة كمصدر لتاريخ العلاقات الدولية، **مجلة المناهل**، عدد 60، سنة 24، مطبعة دار المناهل، منشورات مزارة الشؤون الثقافية المغربية، الرباط، المغرب، 2000 .

236. الترغي عبد الله المرابط، الرحلة الفهرسية نموذج للتواصل داخل العالم الإسلامي رحلة أبي سالم العياشي: "ماء الموائد" نموذجاً، **سلسلة ندوات ومناظرات (السفر في العالم العربي الإسلامي، التواصل والحداثة)**، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، الدار البيضاء، 2003.

237. ترفاس أنور، وصف الظواهر الاجتماعية بالأراضي المقدسة من خلال الرحلة العياشية، **مجلة رحال**، دار مثقفون بلا حدود، العدد الأول- السنة الأولى- شعبان، الرياض: 1428هـ أغسطس 2007م.

238. تياقة صديق، الفقارة ودورها في الاستيطان البشري وكيهلة الاجتماع البشري في القصر من خلال نظام الخراصة (قراءة سوسيولوجية لمجتمع توات، أدرار)، **المجلة الخلدونية**، جامعة تيارت، مج06، العدد01، 2017م.

239. حمادي المسعودي، الحكايات العجيبة في رحلة ابن بطوطة، **مجلة أطروحات**، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، فيفري 2001 ، القيروان، تونس.

240. حيمر جمال، أبو القاسم الزياني عناصر بيوغرافية وبيبلوغرافية، مقال ضمن **منشورات مكناسة** كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، العدد 21 .

241. درعي فاطمة، العالم مصطفى الدحاوي ورحلته القمرية، **مجلة الحوار المتوسطي**، العدد(13،14)، ديسمبر 2016.

242. دغموش كاميلية، حمدادو بن عمر، الوضع الصحي والمعيشي لبايلك الغرب الجزائري في أواخر العهد العثماني، **مجلة الحوار المتوسطي**، المجلد العاشر، العدد 2، جوان 2019م.

243. رشيد حسان، اللصوصية في إيالة الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرن 17 و18 قراءة في الصادر المحلية، **مجلة ليكسوس، المغرب**، ع05، أوت 2016م.

244. روزي عبد العزيز إسماعيل، الرحالة والرحلات مصدرا لتاريخ تجارة البن وانتشار القهوة في جزيرة العرب، **مجلة الدارة**، ع04، س 30 عل، الرياض، السعودية، 2004.

245. الزهراني ضيف الله بن يحيى، ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مكة المكرمة (رحلات في مشبه جزيرة العرب) 1230-1231هـ/1814- 1815م لمؤلفه جون لويس بوركهارت أو الحاج إبراهيم بن عبد الله، **بحوث رحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في المدة من 24 – 27 رجب 1421هـ الموافق 21–24 أكتوبر 2000م**، الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ط: 1421، ج2.

246. الزين محمد، نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، الجزائر: جامعة غرداية، العدد 17:(2012م).

247. زيود حازم حسني، **مفهوم القرية ودلالاتها في القرآن الكريم"دراسة موضوعية"**، **مجلة الجامعة العربية الأمريكية للبحوث**، مجلد(2)، العدد (2)، ط:2016م.

248. سعاد آل سيد الشيخ، رحلة عبد الرحمن بن محمد بن الخروب بن الخروب المجاجي نموذج الرحلة الحجية النظمية خلال القرن 11هـ/17م، **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، جامعة غرداية،الجزائر، العدد 20.

249. الشاهدي الحسن، تحفة النظار مشاهدات ابن بطوطة بالحجاز وبلدان الخليج العربي، مشرق مغرب عرب ومسلمين ديار الإسلام من الأندلس إلى اسطنبول، **أبحاث ندوة**

الرحالة والمسلمين: اكتشاف الذات والآخر، ط1: 2009م، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع.

250. الشريف محمد، مشاهد وانطباعات وزير عدلية المغرب الخليفي عن الحجاز سنة 1355هـ/ 1937م، **مجلة الدارة**، ع4، س31، الرياض،السعودية، 2005، ص: 221.

251. الصادقي حسن، الوجود المغربي في المشرق من خلال كتب التراجم المشرقية، **مجلة المناهل**، المغرب، ط:1989، العدد: 38.

252. صالحي محمد، الكتابة من الذاكرة من خلال النفحة المسكية في السفارة التركية للتمجروتي، **أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين: اكتشاف الذات والآخر**، ديار الإسلام من الأندلس إلى إستانبول، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1:2009.

253. طاهري عبد الحليم، تأثير الجانب الاجتماعي في تكوين شخصية صالح باي السياسية والاقتصادية، **مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية**، مج 4، ع 8، الجزائر، 2016.

254. طوبال فاطمة الزهراء، **ظاهرة التدخين في الكتابة التاريخية في العهد العثماني مخطوط " محدد السنان " لابن الفكون أنموذجاً**، مقال ضمن مجلة آفاق للعلوم، مجلة دولية محكمة للعلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة الجلفة.

255. عابد سلطانة، قراءة في خصائص تجار مدينة الجزائر سنة 1830 أنموذج "حمدان خوجة وأحمد بوضربة "، **مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية**، العدد الثاني، جوان: 2012.

256. العافية عبد القادر، السند وحتميته في الدراسات الإسلامية، **دعوة الحق، مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية و بشؤون الثقافة والفكر أسست سنة 1957**، العدد: 337، ربيع 2- جمادى1- 1419/ غشت شتنبر 1998، 12/ 11/ 2016، الساعة 7:17

http://www.habous.gov.ma/daouatalhaq/item/8359.

257. عبد الحميد عمران، قبائل شرق الجزائري، قراءة في بعض العادات والدهنيات حسب الدكتور توماسشو من خلال كتابه (رحلة في أيالة الجزائر)، **المجلة التاريخية الجزائرية**، العدد5، سنة 2017.

258. العطا عوض عبد الهادي، الرحلة الحجازية وأثرها العلمي في إفريقيا، **مجلة دراسات افريقية**، ع23، الخرطوم، السودان،2000.

259. عطاشي عيسى، صورة الحرب في كتاب " صيف في الصحراء" للرحالة الفرنسي": أوجين فرومنتان، **مجلة علوم اللسان**-مخبر علوم اللسان-جامعة عمار ثلجي-الأغواط- العدد السابع، ديسمبر 2014.

260. علاوي نسيبة عبد العزيز الحاج، البحار العثماني محيي الدين ريس حياته وجهاده البحري (1465-1554م) **مجلة التربية والعلم والعلم** – المجلد (16)، العدد (4) لسنة 2009.

261. عمران عبد الحميد، قبائل شرق الجزائر، قراءة في بعض العادات والدهنيات حسب الدكتور توماس شو من خلال كتابه (رحلة في إيالة الجزائر)، **المجلة التاريخية الجزائرية**، العدد5، سنة 2017.

262. العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، **في مجلة سيرتا**، السنة الثانية، قسنطينة: مطبعة البعث، السنة الثالثة العدد 3: رجب 1400- ماي 1980.

263. غزالي عبد القعالي، نقادي سيدي محمد، صورة الجزائر في مصادر الرحلة الغربية خلال العهد العثماني، رحلة هابنسترايت نموذجا، **الحوار المتوسطي**، المجلد9، عدد1، 2018.

264. فقادي الحسين، **من مظاهر التغذية في تاريخ المغرب الوسيط، مقال في مجلة أمل عدد خاص حول الأطعمة والأشربة في تاريخ المغاربة**، العدد 16، السنة السادسة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب 1999.

265. الفقيقي محمد الكبير، (الدور الاجتماعي والإقتصادي للقوافل التجارية الحجية بالصحراء الجزائرية أثناء الفترة الحديثة)، **مجلة دراسات**، مخبر الدراسات الصحراوية، جامعة بشار، ديسمبر 2015، مج04، ع02.

266. الفقيقي محمد الكبير، حاضرة بوسمغون في المصادر المغربية أثناء العصر الحديث، **مجلة مواقف للبحوث والدراسات**، ع09، ديسمبر 2014م.
267. قادة الدين، (أنماط تواجد الماء في الصحراء الجزائرية وطرق استغلاله من خلال المصادر التاريخية)، **في مجلة قضايا تاريخية**، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، ع7، 2017م.
268. قاسم عبده قاسم، رحلتان اندلسيتان إلى القاهرة، **مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد**، مجلد 26، مدريد، اسبانيا سنة 1993- 1994.
269. قاسم علي سعد، "الأرقام العربية تاريخها وأصالتها وما استعمله المحدثون وغيرهم منها "**مقال ضمن مجلة الأحمدية**.
270. القرشي سليمان، دور الرحلات الحجية في نشر الكتب وتداولها بين المشرق والمغرب، **مجلة رحال**، تصدر عن مثقفون بلا حدود، العدد الأول- السنة الأولى- شعبان 1428هـ أغسطس 2007م، الرياض.
271. كشرود حسان، بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين بايسونيل وديفونتينو الدكتور توماسشو، **قضايا تاريخية**، عدد 06، سنة 2017.
272. كعوان فارس، ظاهرة اللصوصية وقطع الطريق بمنطقة سطيف من اللصوص السلب والنهب إلى ظهور اللصوص الشرفاء أواخر القرن 19، **مجلة الحوار المتوسطي**، جامعة سيدي بلعباس، مج10، ع03، ديسمبر 2019.
273. لزغم فوزية، الطب والأطباء بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال كتاب " الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال " لألبر فون شونبيرغ، **مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية**، مجلة دورية دولية محكمة، العدد 21.
274. محمد بن عبد العزيز الدباغ، جولة مع ابن بطوطة في رحلته، **مجلة المناهل**، عدد 59، سنة: 1999، الرباط، المغرب.
275. المشهداني مؤيد محمود حمد، سلوان رشيد رمضان، **أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1830-1518**، **مقال بمجلة الدراسات التاريخية والحضارية**، جامعة تكرت، المجلد 5 العدد 16 نيسان 2013م- جمادى الآخر 1434هـ.

276. مقدم رشيد، (منطقة الأغواط من كتابات الرحالة الجغرافية خلال القرن 19)، **المجلة الجزائرية لمخطوطات**، مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، مج14، العدد01، ماي 2019م.

277. مقلاتي فريدة، صورة الآخر المغربي في رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: (لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال) **مجلة إشكالات في اللغة والأدب**، مجلد 8، عدد 4، سنة 2019 .

278. موحد محمد علي، ابن بطوطة وعصره، العرب بين البحر والصحراء " رحالة عرب ومسلمون" ابن بطوطة، الفضاء الأسيوي، الشرق أفقاً، تقديم وتحرير: نوري الجراح، **أبحاث المؤتمر الدولي لأدب الرحالة العرب والمسلمين**، الدوحة- قطر- ديسمبر2011، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع.

279. مؤيد محمود حمد المشهداني وسلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني (1518- 1830م)، **مجلة الدراسات التاريخية والحضارية**، جامعة تكريت، المجلد 5، ب.العدد 16، جمادى الآخر 1434هـ، نيسان 2013م.

280. النقشبندي أسامة ناصر، الرحلات الخطية في دار صدام للمخطوطات، **مجلة المورد**، العدد رقم:4 ، أكتوبر 1989، دار صدام للمخطوطات، بغداد، ب.تاريخ 12/ 11/ 2016، الساعة 22:50.

http://archive.sakhrit.co/newPreview.aspx?PID=2623282&ISSUEID=2738&AID=34604

هـ/- الأطروحات:

281. ابن عمار أبو العباس سيد أحمد، **نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب دراسة وتحقيق**، تح: عبد الجليل شقرون رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تحقيق المخطوطات، جامعة أبي بكر بلقايد(تلمسان)، السنة الجامعية: 1437- 1438هـ/ 2016 -2017م.

282. الأزهاري عباز، **نظام المشايخ في ورقلة بين العهدين العثماني والفرنسي**، مذكرة رسالة ماجستير، إشراف: عاشوري قمعون، جامعة الوادي: 2013/ 2014م.

283. بالغيص عبد القادر، **الحياة ولاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني**، مذكرة ماجستير تاريخ وحضارة إسلامية، إشراف: أحمد الحمدي، جامعة وهران، 2013 – 2014م.

284. بحري أحمد، **حاصرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث (1500–1900م)**، إشراف: محمد بن معمر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران السنة الجامعية:2012 - 2013.

285. بديرة عادل، **بادية المغرب الأوسط في العصر الوسيط (دراسة للواقع الاقتصادي والاجتماعي وتأثيرها على السلوك والذهنيات) من القرن 4 إلى القرن 7هـ/ 10–13م**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: مفتاح خلفات، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: مفتاح خلفات، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، السنة الجامعية: 1438-1439هـ/2017-2018م.

286. بلبروات بن عتو، **المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني**، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: بلقاسمي بوعلام، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2007– 2008.

287. بوحجرة عثمان، **الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني (1519–1830م) (مقاربة اجتماعية)**، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، السنة الجامعية: 2014-2015م،

288. بوسعيد أحمد، **الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن 12هـ/ 18م**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ العام، تخصص: التاريخ المغاربي الاجتماعي والثقافي، جامعة أدرار، السنة الجامعية: 1432-1433هـ/ 2011-2012م.

289. بوسعيد أحمد، **ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني (1518–1830م) دراسة تاريخية واجتماعية من خلال الرحلات الحجازية**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة

دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، المشرف: محمد حوتية، جامعة أدرار، الموسم الجامعي:(1438هـ-1439هـ/ 2017م-2018م).

290. التلمساني بن يوسف، **الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي في الجزائر (الحكم العثماني- الأمير عبد القادر- الإدارة الاستعمارية) (1782-1900م)**، رسالة لنيل شهادة الماجستير تاريخ حديث ومعاصر، إشراف الأستاذ: نصر الدين سعيدوني جامعة الجزائر، إشراف: 2003.

291. جهيدة بوعزيز، **الصراعات الداخلية وأثرها على المجتمع الريفي في بايلك الشرق الجزائري أواخر العهد العثماني (1771-1837م/1185- 1253هـ)**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: جميلة معاشي، جامعة قسنطينة 2، 2011-2012م.

292. حضري يمينة بن صغير، **قصور منطقة وادي ريغ قصر تمرنة القديمة نموذجاً مابين القرن (8هـ- 13هـ/14م-19م) دراسة تاريخية أثرية**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2014.

293. حماش خليفة، **الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني**، رسالة مقدمة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، جامعة منتوري- قسنطينة، 1427هـ/2006م.

294. حمدادو بن عمر، **المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب خلال القرنين (11-12هـ/17-18م)**، إشراف: عبد المجيد بن نعمية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2012 -2013م،.

295. دحاج فاطمة، **مجتمع الأغواط خلال القرن (13هـ/19م) من خلال الكتابات الفرنسية "دراسة تاريخية"**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، تخصص تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، إشراف: محمد عبد الرؤوف ثامر، جامعة الوادي، 2019/2018م.

296. دحماني منى، **قصر بوسمغون بولاية البيض "دراسة أثرية تحليلية"**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، إشراف علي حملاوي، 2005/2004.

297. الدراجي بلخوص، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بايلك قسنطينة من خلال نوازل ابن الفكون خلال القرنين 16-17م**، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر 2، موسم 2011-2012.

298. دغموش كاميلية، **قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الاسباني والسلطة العثمانية (1509 -1792)**، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الموسم الجامعي 2014/2013.

299. ذكار أحمد، **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التجارية بالسودان الغربي 1883-1591م**، مذكرة تخرج لنيل الماجستير، قسم التاريخ، جامعة أدرار، 2009/2010م.

300. سعيدي خير الدين، **المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني (1700-1830م)**، إشراف: شايب قدادرة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم، الشعبة تاريخ حديث ومعاصر، الكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945 قالمة.

301. شويتام أرزقي، **المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني1519 – 1830م**، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور: عمار بن خروف، السنة الجامعية: 2005 – 2006م.

302. صحراوي كمال، أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث، إشراف: دحو فغرور، جامعة وهران: 2013/2012.

303. عائشة محمة، **الأسرى الأوربيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس والسابع عشر للميلاد**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تحت إشراف: عمار بن خروف، جامعة غرداية، 2011-2012م.

304. عقاد سعاد، **الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية (1519 – 1830) دار السلطان نموذجا**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، جامعة وهران، موسم 2014/2013ن .

305. عمر حرفوش، **الإدارة الجزائرية في العهد العثماني " الإدارة المركزية أنموذجاً**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2008-2009.

306. عميور سكينة، **ريف المغرب الأوسط في القرنين 5و6هـ/11و12م "دراسة اقتصادية واجتماعية"**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، تخصص: تاريخ الريف والبادية، إشراف: إبراهيم بكير بحاز،جامعة قسنطينة، السنة الجامعية:1433-1434هـ/2012-2013م.

307. غطاس عائشة، **الحرف والحرفيون بمدنية الجزائر (1700-1830م) (مقاربة اجتماعية واقتصادية)**، إشراف: مولاي بالحميسي، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: (2000م-2001م).

308. فلة القشاعي، **النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني (1771-1837م)**، رسالة ماجستير في التاريخ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر، 1989-1990م.

309. قبابلة مبارك، **تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية**، إشراف: بن قربة صالح، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار، **تخصص آثار صحراوية**، جامعة بسكرة السنة الجامعية: 2010/2009.

310. قرباش بلقاسم، الأسرى الأوربيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671- 1830)، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت إشراف: بوغفالة ودان، جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر، (2015 / 2016م).

311. كشرود حسان، **رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثماني من 1659 إلى 1830**، إشراف: فاطيمة الزهراء قشي، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في تاريخ الحديث، تخصص: التاريخ الاجتماعي لدول المغرب العربي، جامعة منتوري: قسنطينة، السنة الجامعية: (1428هـ/ 1429هـ-2008/2007م).

312. لـزغم فوزيـة، **الإجـازات العلميـة لعلمـاء الجزائـر العثمانيـة (924هـ-1245هـ/1518م-1830م)**، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، تحت إشراف: د. بن معمر محمد جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم: التاريخ والحضارة الإسلامية، سنة: 2005م-2006م.

313. لزغم فوزية، **البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (925-1246هـ/ 1520-1830م)**، أطروحة مقدمة لنيل أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، السنة: 1434-1435/ 2013-2014.

314. مرقومة منصور، **القبيلة والسلطة والمجتمع في الجزائر بحث انثروبولوجي في المجال السياسي التيهرتي**، رسالة لنيل دكتوراه علوم، إشراف: العايدي عبد الكريم، جامعة وهران: 2010/2009.

315. مرموري حسن، **الطوارق بين السلطة التقليدية والإدارة الفرنسية في بداية القرن 20**، رسالة ماجستير، بقسم علم الاجتماع، ط: 2001- 2000.

316. مزدور سمية، **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م)**، ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة قسنطينة، 2008- 2009.

317. معاشي جميلة، **الإنكشارية والمجتمع بباليك قسنطينة في نهاية العهد العثماني**، إشراف: كمال فيلالي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، السنة الجامعية: (1428-1429هـ/2007-2008م).

318. موسى بن موسى، **الحركة الإصلاحية في وادي سوف نشأتها وتطورها 1900-1939م**، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006/2005.

و/- مواقع الإليكترونية:

319. الأرناؤوط محمد، " سياحتنامه" أوليا جلبي يرصد صورة العالم الإسلامي في 10 مجلدات ضخمة، مقال ضمن **جريدة العرب الدولية** " الشرق الأوسط"، عمان - الثلاثاء 06 جمـــادى الثاني 1432هـ/10مايو 2011، العدد 11851، تم النقل: يـوم 2018/09/21، الساعة:14:22،

http://archive.aawsat.com/details.asp?section=17&article=620975&issueno=11851#.W6TlevlKjIU.

320. عباس، **فرومنتان** (أوجين– **1820– 1876**) **الموسوعة العربية**: يوم 2020/08/21، الساعة: 15:20. http://arab-ency.com.sy/detail/8841

321. القاسمي محمد رضي الرحمن، مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، العدد 6-7، السنة: جمادى الثانية – رجب 1434 هـ الموافق لـ أبريل – يونيو 2013م، الأحد 30 -10-2016 الساعة 17 :11.
http://darululoom.deoband.com/arabic/magazine/tmp/1366020150fix4sub8file.htm

322.قصر المنيعة، **ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته**، وزارة الثقافة الجمهورية الجزائرية الشعبية، في 2020/05/14، على الساعة: 17:17 على موقع: http://www.opvm.dz/ar.

323.موقع الطوابع والنقود العربية، تاريخ التصفح 2020/03/30،
https://arabic-coin-stamp.com.

2)– المطبوعات الأجنبية:

أ/ المصادر والمراجع:

324. **Catalogue des livres de la bibliothéque de Jean Noël Hallé**, libraire de Roi, Paris, 1823.
325. Chevalier d'Arvieux , **Mémories du chevalier d'Arvieux**, Paris, Libraire le Fils, sans date.
326. Daumas Eugène ,**Mœurs et coutumes de L Algèrie introduction egehloul sind Bad** ,Paris ,1988 .
327. DE HAEDO, **Topographie et histoire d'Alger**, trad, de l'Espagnol par A. Berbrugger et nereau, in R.A N° 14 Alger 1870.
328. Desfontaines:voyages dans les règences tunis et ALger,Paris,1838.
329. E,Guetin,**Guide du voyageur en Algèrie**, Paris,L. Maison . Libraire-Editeur, 1848.
330. Eh.Feraud. Bendjellqb Sultans Toggourt NOTRS historiques sur la province de constantine in R.A.N°24,Année 1879 .
331. Esquer Gabriel. Pierre Boyer, **L'Évolution de l'Algérie médiane (ancien déparlement d'Alger), de 1830 à 1956..**In: Annales. Economies, sociétés, civilisations. 16e année, N°2, 1961.
332. Goorges Hertz, **L'algerie nomade et Ksourienne 1830-1954**, L'imprimer A. Robert, Marseille, 1989 .
333. Goorges Hertz, **L'algerie nomade et Ksourienne 1830-1954**, L'imprimer A. Robert, Marseille, 1989.

334. H-D.DE Grammont :Histoire D'ALger sous la domination turaue (1515-1830).
335. J. E. Hebenstreit , **Vooyage A Alger, Tunis et Tripoli**, in Nouvelles annales des voyages, de la géographie et de l'histoire : Ou Recueil des relations originales inédites, communiquées par des voyageurs français et étrangers / publiées par MM. J. B. Eyriès et Malte-Brun, Imprimerie de Monsieur le Dauphis et de la cour de cassatio, V46, Yom2, Paris, 1830.
336. Jean Deny, **Les Regeistres de Solde des janissiares conservès à la B.N.A** .In, R.A 1920 .
337. Jean Terras, **Essai sur les biens habous en Algérie et en Tunisie, étude de législation coloniale**, thèse doctorat ; Université de Lyon. Faculté dedroit., 1899.
338. Jean-André Peyssonnel , V**oyagesdans les Régences de Tunis et d'Alger. Relation d'un voyage sur les côtes de Barbarie**, publié. par M. Dureau de La Malle, librairie de Gide, Editeur des Annales des voyages, Imprimerie de la cour de Cassation, Paris,1838.
339. Jean-André Peyssonnel et DESFONT AINE, **Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger**, Tom2, Paris, Librairie de Cide, Imp. De la cour de cassaton, Paris 1838.
340. L'Abbè, Edmond lambert . **A Travers L'ALgèrie, Histoire, Mœurs et lègendrs des Arabes**. Rene Haton, Librairie Editeur, Paris,1884
341. LAbbè, Edmond lambert . **A Travers L'ALgèrie**, Histoire, Mœurs et lègendrs des Arabes. Rene Haton, Librairie Editeur, Paris,1884.
342. L'algérie un siècle avant l'occupation française (au 18 ème siècle), tèmoignage de Shaw**.** Traduit par :j **.Mac.Carthy. paris:Editione lmprimerie de carthage (2ᵉèd) ,1968.**
343. LAUGIER (De Tassy),**Histoire du Royaume d'Alger (1724)** , Amsterdam, Henri du Sauzet, sans date, 1815.
344. Le Couppey, **Comment on peut guérir laphthisie pulmonaire**, Julian libraire, Imprimerie A. Henry, Alger, 1847.
345. Louis Rinn , **Nos frontières Sahariènnes** ,Revue Africaine,vol N°30 , 1886 .
346. LOUIS RINN, **Le royaume d'Alger sous le dernier Day**, Adolphe Jourdan, Imprimeur, Libraire, éditeur, 4, Place du Gouvernement, Alger,1900.
347. Lucette Valensi , **Le Maghreb Avant La Prise d'Algérie (1790 – 1830)** , Flammarion , France ,1962 .
348. M :GUIN NOTES, **Historiques sur les Nezlious, cercle DRA e ELMIZAN IN R .A** ,N°6,ALGER, 1862.

349. M.BELHAMISSI, **L'état des navires et les hommes préambules de marine et marins d'Alger 158-1830**, thèsed'état, Bordeaux 1985 .
350. Marouf Nadir, Le système Foggara a Timimoune, **Séminaire International sur la Ressource en eau au sahara: Evaluation, Economie et Protection**, le 19 et 20 janvier 2011(ouargla).
351. **Mèmoire dey Boutin reconnaissance des ville forts et batteries d'ALGER 1808 in Mémoires et Documents Algérie ,1790 -1827** ,AR M R E ,France.
352. NOUSHI, **Enquète sur le niveau de vie des populatios rurales constantinois de la conquète jusqu en 1919 'histoire économique et sociale**,P.U.F,Essaid, Paris,1961.
353. Pascale Hummel, **De lingua Graeca: histoire de l'histoire de la langue grecque**, Edition scientifiques internationales, Berne ; 2007.
354. Peyssonnel, Jean-André,**Voyagesdans les Régences de Tunis et d'Alger**, Tom2,Paris, Librairie de Cide, Imp. De la cour de cassaton, Paris 1838.
355. Pfeiffer G.S.F , **The Voyages and Five Years' Captivity in Algiers, of Doctor G.S.F. Pfeiffer**, harriseuro John Winebrenner printer, 1836.
356. SHAW (Th),**Voyages dans les règences d'Alger ,traduit de langlais par Mac Carthy**,Paris 1830.
357. SHUVAL (Tal), **La ville d'Alger Ver la Fin du XVIIIe siecle**, CNRS Edition, Paris, 1998.
358. **Société de médecins etchirurgiens, Dictionaire des sciences médicales**, C.L. F. Panckoucke Editeur, Paris, 1812, Vu L'introduction.
359. Tassy (L.de), **Histoire du royaume d'Alger**, Amesterdam, Henir du Sauzet, sont date .
360. Thomas Shaw(1694-1751), **Voyages de M. Shaw dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant** contenant des observations géographiques, physiques, philologiques, sur les royaumes d'Alger et de Tunis, sur la Syrie, l'Égypte et l'Arabie Pétrée, traduits de l'anglois,1743.
361. Urbain , Notice sur l ancienen du Titteri ,in Revue africaine ,1843.
362. URBAIN ET Warnier,**Notice sur la province de constantine organisaiion et situation a l328 - 329é'-- poque de l,occupation**,In T.E.F,1841.
363. VAYSSETTES, **Histoire des dernier beys de constantine depuis 1793 jusqu'a la chute d'Hadj Ahmed "** ,R.A,N°3,1858 .
364. Warnier et carette,**Description et divison de l'ALgèrie**,hachette,Paris,1847.

ب/ الدوريات والمجلات:

365. Farouk Ahmed. Sources européennes de l'histoire du Maghreb.In:**École pratique des hautes études. 4e section, scienceshistoriques et philologiques**. Livret 12. 1996-1997. 1998.

366. A propos de Jean-André Peyssonnel (1694-1759). In:**Dix-huitième Siècle**, n°9, 1977. Le sain et le malsain.

367. Christian Le Roy, Une excursion à Leptis Magna en 1732 (CIL VIII, 1, 11). In:**Bulletin de correspondance hellénique**. Volume100, livraison 1, 1976 .

368. Cresti Federico. Description et iconographie de la ville d'Alger au XVIe siècle. In:**Revue de l'Occident musulman et de laMéditerranée**, n°34, 1982.

369. Cuillermou, Yves., Survie et ordre social au Sahara. Les oasis du Touat-Gourara-Tidikeit en Algérie. **Cah. Sci. Hum**. 29 (1) 1993.

370. Denise Brahimi, Approches sociologiques de la Régence d'Alger (vers 1725). In:**Dixhuitième Siècl**e, n°7, 1975.

371. Dresch Jean. La réorganisation de la propriété rurale dans la Mitidja et ses conséquences sur la vie indigène. In:**Annales deGéographie**, t. 60, n°320, 1951.

372. Duval Noël, La solution d'une énigme : les voyageurs Peyssonnel et Giménez à Sbeitla en 1724. In:**Bulletin de la Société Nationale des Antiquaires de France**, 1965, 1966.

373. Émerit Marcel. Pierre Boyer , A Alger à la veille de l'intervention française. In:**Revue française d'histoire d'outre-mer**, tome 50, n°179, deuxième trimestre 1963.

374. François Pouillon, Simplification ethnique en Afrique du Nord : Maures, Arabes, Berbères (XVIIIe-XXe siècles). In:**Cahiers d'études africaines**, vol. 33, n°129, 1993. Mesurer la différence : l'anthropologie physique .

375. G.faure-Biguet, « Notice sur le Chikh Mohammed Abou Ras », **Journal Asiatique**,(septembre-octobre) 1899, série 9, tome 14. paris: Imprimerie national.

376. François Pouillon, Simplification ethnique en Afrique du Nord : Maures, Arabes, Berbères (XVIIIe-XXe siècles). In:**Cahiers d'études africaines**, vol. 33, n°129, 1993. Mesurer la différence : l'anthropologie physique .

377. G.faure-Biguet, « Notice sur le Chikh Mohammed Abou Ras », **Journal Asiatique**,(septembre-octobre) 1899, série 9, tome 14. paris: Imprimerie national.

378. HAEDO (Fray diego de), **De la capitivité à Alger**, traduit par Moliner-Violle, in **R.A** n°39.

379. JoëlMontague, Notes sur l'organisation de la pharmacie en Tunisie au XIXe siècle. In:**Revue d'histoire de la pharmacie**, 61eannée, n°219, 1973.

380. M.Hadj-Sadok, « A Travers La Berbérie Orientale du XVIIe siècle, avec le Voyageur Al-Warthilani », **R.AF**, Société Historique Algérienne, 1951.

381. Mercel Emerit , Apropos de L Algérie en 1830 A propos de l'Algérie en 1830. Réponse à P. Boyer **/ correspondance Annales économies sociétés ,civilistions,** Volume 23, Numéro 3**,** Juin 1968 .

382. N.ROBIN**:" Note sur l'organisation miitaire et administrative derands turcs dans la gr andd kqbylie** ,R.A, N° 17 ALGER ,1873.

383. M'hammed Ben Cheneb, « Itinéraire de Tlemcen a La Mekke », (XVIIIe siècle), **R.AF,** Année: 1900.

384. Ndex des auteurs ou voyageurs analysés et cités. In**: Annales de Géographie**, t. 12, n°65, XII° Bibliographie Géographique Annuelle, 1902. 1903.

385. Nordman Daniel. Jean-André Peyssonnel, Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger In:**Annales. Economies, sociétés, civilisations**. 43e année, N° 6, 1988.

386. PierreMorizot, La naissance de l'archéologie romaine en Algérie. In:**Histoire et archéologie méditerranéennes sous Napoléon III**. Actes du 21e colloque de la Villa Kérylos à Beaulieu-sur-Mer les 8 et 9 octobre 2010. Paris : Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 2011/ Nabila Oulebsir. La découverte des monuments de l'Algérie. Les missions d'AmableRavoisié et d'Edmond Duthoit (1840-1880). In:**Revue du monde musulman et de la Méditerranée**, n°73-74, 1994. Figures de l'orientalisme en architecture.

387. Pierre Boyer, La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française. In:**Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée**, N°1, 1966.

388. Soumille Pierre. Mélanges Marcel Emerit, Revue d'histoire maghrébine. In:**Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée**, N°24, 1977.

389. Vismara Cinzia. Le Rif oriental côtier dans les pages de voyageurs, explorateurs, historiens, rchéologues, géographes : De Jean-Léon l'Africain à nos jours. In:**Antiquités africaines**, 50,2014.

390. Yver Georges. Marcel Emerit, L'Algérie à l'époque d'Abd-el-Kader. In:**Annales. Economies, sociétés, civilisations**. 7e année, N°4, 1952.

391. ZiziZehor. Thomas Shaw au Proche-Orient, 1721-1722 : élucidation et défense des Textes sacrés. In: XVII-XVIII. **Revue de la société**

d'études anglo-américaines des XVIIe et XVIIIe siècles. N°67, 2010. L'attrait de l'Orient / The Call of the East.

392. Yver Georges. Marcel Emerit, L'Algérie à l'époque d'Abd-el-Kader. In:**Annales. Economies, sociétés, civilisations**. 7e année, N°4, 1952.

393. ZiziZehor. Thomas Shaw au Proche-Orient, 1721-1722 : élucidation et défense des Textes sacrés. In: XVII-XVIII. **Revue de la société d'études anglo-américaines des XVIIe et XVIIIe siècles**. N°67, 2010. L'attrait de l'Orient / The Call of the East.

فهرس الموضوعات

المحتوى	الصفحة
البسملة	
الآية	
الإهداء	
شكر وعرفان	
قائمة المختصرات	
مقدمة.....	**01**
الفصل الأول: دور نصوص الرحلة في الكتابة التاريخية الحديثة	
المبحث الأول: تعريف أدب الرحلة وأنواعها.....	**15**
1- تعريف الرحلة لغة واصطلاحاً.....	
أ- لغة.....	**15**
ب- اصطلاحا.....	**16**
2- أنواع الرحلات.....	**17**
أ- الرحلات الدينية والمقدسة.....	**19**
ب- الرحلة العلمية.....	**20**
جـ- الرحلة التجارية.....	**22**
د- الرحلة السياسية.....	**23**

المبحث الثاني: تطور أدب الرحلة.....	**24**
1- أدب الرحلة في التاريخ القديم.....	**24**
2- أدب الرحلة في الفترة الوسيطة	**26**
3- أدب الرحلة في التاريخ الحديث	**30**
المبحث الثالث: نص الرحلة في الكتابة التاريخية الحديثة.....	**34**
1- نص الرحلة والتاريخ السياسي	**36**
2- نص الرحلة والتاريخ الثقافي	**45**
3- نص الرحلة والتاريخ الاجتماعي	**52**
4- نص الرحلة والتاريخ الاقتصادي	**58**
الفصل الثاني: صورة الجزائر في الرحلة خلال العهد العثماني	
المبحث الأول: نبذة عن الرحلات الجزائرية خلال العهد العثماني.....	**67**
1- **الرحلات الداخلية**.....	**68**
أ- رحلة الباي محمد الكبير لابن هطال التلمساني	**68**
ب- رحلة سيدي عبد الرحمان بن إدريس التنلاني.....	**69**
جـ - رحلة ابن زرفة (الرحلة القمرية).....	**71**
د - رحلة ابن الدين الأغواطي (1242هـ/1826م)	**71**
2- الرحلات الخارجية.....	**72**
أ- رحلة ابن حمادوش الجزائري	**72**

ب- رحلة البوني (1099هـ/1652م).....	**75**
جـ- رحلة ابن عمار (1166هـ/1752م).....	**77**
د- رحلة أبي رأس الناصري (1204هـ/1789م).....	**79**
هـ- رحلة الورثلاني.....	**81**
3- الرحلات النظمية.....	**86**
المبحث الثاني: نماذج من الرحلات المغربية خلال العهد العثماني.....	**90**
1- رحلة التمكروتي (943هـ/ 1534م -1003هـ/ 1594 - 1595م).....	**91**
2- رحلة العياشي (1037هـ/1628م-1090هـ/6791م).....	**97**
3- رحلة ابن زاكور الفاسي (1076هـ/1665م- 1120هـ/1708م)	**105**
4- رحلة أبو القاسم الزياني (1249/1147هـ، 1734م/1833م).....	**108**
المبحث الثالث:الجزائر في الرحلات الغربية.....	**114**
1- رحلة مارمول كاربخال.....	**114**
2- رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترات.....	**116**
3- رحلة سيمون بفايفر.....	**119**
4- رحلة الطبيب توماس شو.....	**122**
5- رحلة جون اندي بيسونال.....	**125**

الفصل الثالث: مساهمة البوادي والأرياف في الحياة الاجتماعية بالجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات	
المبحث الأول: مفاهيم ومعطيات أولية حول الريف والبادية بالجزائر العثمانية....	**128**
1- **مفهوم الريف لغة واصطلاحاً**.....	**128**
أ- لغة.....	**128**
ب- اصطلاحاً.....	**130**
2- **مفهوم البادية لغة واصطلاحاً**.....	**131**
أ- لغة.....	**131**
ب- اصطلاحاً.....	**133**
المبحث الثاني: المظاهر العمرانية بأرياف الجزائر العثمانية.....	**138**
1- القرى التلية.....	**139**
2- القرى الصحراوية.....	**142**
3- القصور.....	**144**
4- المدن الصحراوية.....	**153**
5- البيوت المعزولة.....	**154**
6- الدوابر والخيام والأكواخ.....	**156**

المبحث الثالث: دور البنية الفئوية للمجتمع الحضري والريفي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للجزائر العثمانية.....	**159**
1- **سكان المدن**.....	**160**
أ- الأقلية التركية.....	**160**
ب- جماعة الكراغلة.....	**165**
جـ- جماعة الحضر.....	**169**
د- المجموعات البرانية.....	**174**
هـ- جماعة الوصفان أو الزنوج.....	**175**
و- الجالية اليهودية.....	**176**
ي- الدخلاء.....	**178**
2- سكان الأرياف.....	**181**
أ- مفهوم القبيلة.....	**182**
ب- القبائل المخزنية.....	**186**
1- قبائل المخزن بدار السلطان.....	**189**
2- قبائل المخزن بايلك التيطري.....	**191**
3- قبائل المخزن ببايلك الشرق.....	**194**
4- قبائل المخزن ببايلك الغرب.....	**200**

جـ- القبائل الممتنعة.....	**205**
د- القبائل الرعية.....	**211**
هـ- القبائل المتحالفة.....	**217**

الفصل الرابع: معالم ومميزات المجتمع الريفي والبدوي في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات	

المبحث الأول: مقومات المجتمع الريفي في الجزائر العثمانية	**227**
1- اللغة.....	**227**
2- التعليم.....	**230**
3- اللباس.....	**244**
4- الغذاء.....	**251**
- المبحث الثاني: الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعيا واقتصادياً	**277**
1- الأمراض.....	**278**
2- الأوبئة.....	**283**
3- المجاعات والكوارث الطبيعية	**297**
المبحث الثالث: مكانة المرأة والعادات والتقاليد في المجتمع الريفي البدوي.....	**313**

1- مكانة المرأة في المجتمع الريفي البدوي.....	**314**
2- **الزواج والأعياد**.....	**324**
أ- الزواج	**324**
ب-الأعياد.....	**331**
جـ- الختان.....	**335**
3- العادات الحميدة والذميمة	**336**
أ- العادات الحميدة.....	**336**
ب- العادات الذميمة.....	**344**
الفصل الخامس: دور المجتمع في النشاط الاقتصادي بالأرياف من خلال كتب الرحلات	
المبحث الأول: الزراعة بالأرياف والبوادي التلية.....	**353**
1- وضعية الأراضي الزراعية بالريف التلي.....	**353**
أ- الأراضي الزراعية الخاصة.....	**354**
ب- أراضي بايلك.....	**355**
جـ- الأراضي المشاعة (أراضي العرش).....	**355**
د- أراضي الوقف.....	**356**
هـ- أراضي الموات.....	**356**
2- الإنتاج الفلاحي بالريف التلي.....	**357**

أ- زراعة الخضر والفواكه والحبوب.....	**357**
ب- زراعة الحبوب.....	**366**
جـ- الزراعة النقدية.....	**370**
3- المياه ونظم السقي في السهول والأرياف التلية.....	**370**
المبحث الثاني: الفلاحة في الواحات والبوادي الصحراوية.....	**373**
1- الواحات الفلاحية.....	**373**
2- الفلاحة قرب الأودية.....	**379**
3- موقع النخيل في الفلاحة الصحراوية.....	**385**
4- المياه ونظم السقي في الواحات والوادي الصحراوية.....	**389**
المبحث الثالث: الحرف والصناعات والتجارة من خلال كتب الرحلة.....	**393**
1- الرعي وتربية الحيوانات.....	**393**
2- الصناعات والحرف من خلال الرحلات.....	**400**
3- التجارة الريفية من خلال كتب الرحلة.....	**405**
أ- التجارة في الأرياف والبوادي التلية.....	**405**
ب- التجارة في الأرياف والبوادي الصحراوية.....	**409**
4- العملة المتداولة بالأرياف والبوادي الجزائرية خلال العهد العثماني.....	**426**
الخاتمة.....	**432**

الملخص.....	449
الملاحق.....	464
الببليوغرافيا.....	487
فهرس الموضوعات.....	527

الملخص

تستهدف هذه الدراسة المسومة ب: الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية ببوادي الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات تشكيل نص تاريخي يعطي صورة لحياة البادية و الريف بمنظور الرحالة في الجوانب الاجتماعية و الاقتصادية، وفق تصورات موضوعية و ناقدة و ذلك انطلاقا من وعاء واحد و هو كتب الرحلة بالدرجة الأولى ، و مقارنة ما كتبه الرحالة الجزائريون و المغاربة و الأوروبيين و الترجيح ان أمكن الأمر دون اغفال الاستعانة بمصادر أخرى لتبيين و لتوضيح الرؤيا في مسالك و دروب البحث و الدراسة. كما تحاول هذه الدراسة كشف اللثام عن موقع الصحراء الجزائرية خاصة ببواديها و أريافها في المنظومة الحضارية للجزائر، بعيدا عما ارتبط بها من مفاهيم لا تأصيل علمي لها كاعتبارها أرض جرداء قاحلة موحشة بعيدة عن كونها فضاء واسع و متنوع بتنوع واحاته و تنوع مجتمعاته و ثقافته، و تجانسها الثقافي المفتوح على الآخر.

الكلمات المفتاحية:

أدب الرحلة؛ الرحلات الحجازية؛ الرحلات الأوروبية؛ الريف؛ البادية؛ الصحراء الجزائرية؛ العادات؛ التقاليد؛ النشاط الزراعي؛ النشاط التجاري.

نوقشت يوم 15 جوان 2021

بتقدير مشرف جدا